

١٧١



## في تفسير القرآن الكريم

استعمل على عجائب إتيانها وفردانها أبا نصر

تأليف

الأستاذ المحكم الشيخ طهطاوي جوهرى  
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا  
متع الله المسلمين بحجانه آمين

## الجزء الثاني والخمسة

طبع في المطبعة

مطبعة السبائي في القاهرة واولاده بمصر

وتمت في المطبعة

وباشر طبعه - محمد أمين عمران

رجب سنة ١٣٥١ هـ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تفسير سورة الفتح

( هي مدنية )

نزلت في الطريق عند الانصراف من الحديبية

آياتها ٢٩ — نزلت بعد الجمعة

( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ )

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا \* لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ  
عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا \* وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا \* هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ  
السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ  
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا \* لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ  
فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا \* وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ  
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ

اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا \* وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
 وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا \* إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا \* لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ  
 وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا \* إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ  
 اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ  
 فَمَنْ يُوَفِّيهِ أَجْرًا عَظِيمًا \* سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا  
 فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيْتَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ  
 أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا \* بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ  
 يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَّ السَّوءِ  
 وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا \* وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا \*  
 وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُهْذِبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا \*  
 سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَا خُذُوهَا ذُرُونَا تَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ  
 اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ  
 إِلَّا قَلِيلًا \* قُلْ الْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ  
 أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ  
 عَذَابًا أَلِيمًا \* لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ  
 يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَمْذَبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا \*  
 لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ  
 السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا \* وَمَغَائِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا \*  
 وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَائِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَمَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ  
 وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا \* وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ  
 أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا \* وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْوَارَ  
 ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا \* سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا



\* وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَانٍ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا \* هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهُدًى مَكْرُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَقَاتِلُوهُمْ أَنْ تَطَافُوهُمْ فَتَضَيَّبَكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَى أُولَئِكَ الْهَدْيَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا \* إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا \* لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَمَلِمْ مَا لَمْ تَقَاتِلُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا \* هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا \* مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَشْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَخْفِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا \*

### هذه السورة أربعة أقسام

﴿ القسم الأول ﴾ في تفسير البسملة

﴿ القسم الثاني ﴾ فيما بشر الله به نبيه بالفتح ، واعزاز دينه ، ووعد المؤمنين ، ووعد الكافرين والمنافقين من أول السورة إلى قوله « فسيؤتيه أجرا عظيما » .

﴿ القسم الثالث ﴾ في ذمّ الخلفين من عرب أسلم وجهينة ، وصرينة ، وغفار ، وزجرهم ، وفي رضوان الله على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ ووعدهم بالنصر في الدنيا ، وبالجنة في الآخرة ، من قوله تعالى : « سيقول لك المخلفون من الأعراب » إلى قوله : « وكان الله بكل شيء عليما » .

﴿ القسم الرابع ﴾ في البشرى بتحقيق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين ، وأن ذلك يكون ، وقد تمّ ذلك الخبر في العام القابل ، وفي وصف النبي صلى الله عليه وسلم والذين معه بالرحمة والشدة ، وأنهم كزرع يحجب الزراع ، من قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » إلى آخر السورة .



## القسم الأول في تفسير البسملة

اعلم أيها الذكي أن الرحمة على قسمين : رحمة عامة ، ورحمة خاصة . فالعوالم العارضة والسفلية والظواهر والماء والأثير والنور رحمة عامة ، فأما الصمحة والعقل والملك وما أشبه ذلك فهي رحمة خاصة ، ولقد جعل الله لكل امرئ في أرضنا سرّاً خاصاً بينه وبين ربه ، فانه يحفل لكل انسان بمطالب خاصة ترواى عن حاجه ، ومتى قضاها الله له فانه يحمده عليها كثيرا ، وهذه المطالب عددها بعدد الأشخاص الانسانية في الأرض ، وكل امرئ مطالبه على مقدار همته ، وضعة ورفعة ، ونقصا وشرفا ، فهل أحسن لك عما فتح الله به عليّ وعلى أمنا الاسلامية ، وكيف كان ذلك سرّاً بيني وبينه تعالى ؟ وكيف اتجهت همتي نحو ذلك الأمر ؟ وكيف أجاب الله دعائي ، أنا أعترف وأقرّ وأشهد المسلمين في مشارق الأرض ومفاربها ، أنني دعوت الله بما سأذكره ، وأن الله أجاب دعائي وحققه فعلا ، وذلك الدعاء كان موجها للنم الخاصة كما هو شأن الناس جميعا ، تعلمت القرآن في مكتب صغير لا علم فيه ولا فهم ، وانما هو الحفظ المجرد ، نظرت أبناء عمي يسافرون إلى الجامع الأزهر ، أحببت أن أتعلّم ، احترق فؤادي على العلم ، أحسنّ والذي بذلك ، أرسلني إلى الأزهر ، درست العلوم اللسانية والفقهية ونحوها ، لم يشف ذلك غاتي ، كنت في أثناء عطلي أفكر وأنا في منزعجتنا في القمح والقطن والحشائش نهارا ، والنجم والسماء ليلا ، وفي آثار الاول التي خلفها قدماء المصريين ، أصوم نهارا ، أصلي ليلا ، أضرع إلى الله أن يعلمني ، أنا جاهل جده جاهل ، حضرت دروس التفسير ، ولكن يشتدّ دعائي دائما ، أطلب من صاحب هذه النجوم والشمس والقمر أن يعلمني عجائب هذه الدنيا ، وحركات أفلاكها ، ونظام زرعها ، وكيف يكون ارتقاء أم الاسلام .

هذا دأبي ، وهذا هو السرّ الخاص بيني وبين الله عز وجل ، وهو الذي كان يهمني ، يهمني أن أقف على نظام هذا الوجود ، وعلى سرّ تأخر المسلمين ، وعلى حقائق دين الاسلام ، وكيف يرتقي المسلمون ؟ وما السبيل لذلك ؟ إن هذا المقام واضح في كتابي « التاج المصم » وهذا إجمال ما هناك . لم يكفني ظواهر العلوم ، ولا سبيل لدى إلا الدعاء ، فأخذت أدعو الله كل حين أن أعرف ما تقدم ، فانتظمت في سلك طلبة دار العلوم وهنا كانت دهشتي ، فإن ما كنت أدرسه بنفسى مجالا من النظر في السكواكب ليلا ، وفي المزارع والظواهر والضوء نهارا هو عينه الذي يدرس في المدارس النظامية : حساب وهندسة وجبر وفلك وطبيعة وكيمياء ، وكنت واضعا نصب عيني دائما رقيّ أم الاسلام ومعرفة الله تعالى به قولنا معاشر بني آدم ، وكنت لا أبالي بالعلوم والعظمة ، بل كانت كل أمنيته المعرفة وأن أكون مجهولا لا يهابني ، فإن نفسي تقرّ فيها أن سعادتها في العلم ، أما الاعظام وبعد الصيت فانها لاتعاب به . وقد كنت أرى أنني أجهل الناس وأضغف الطلبة .

كان مدرّس الانشاء هو المرحوم الشيخ أحمد مفتاح وقد عرضت أوراق امتحان الانشاء على المرحوم الشيخ محمود العالم الذي عين ممتحنا لنا من الوزارة آخر سنة من سني الدراسة ، ولقد كانت دهشتي عظيمة عندما قابلني المرحوم الاستاذ الشيخ أحمد مفتاح وقال لي : إن الشيخ محمود العالم لما قرأ موضوعك (وهو اكتب خطاب تهنئة وتهزية) قال : إن هذا الموضوع منقول من الكتب القديمة ، فليس في مصر الآن من يكتب هذا . قال : فأحضرت له ما كنت تكتبه أنت طول السنة من الانشاء فاقنتع بذلك وأعطاك نمرة ١٩ من عشرين ، وقد كنت أنا لا أزيدك عن ١٨ فقلت له : عجباً ! أنا كنت أظن أن هذه النمرة أنت تعطيتها لي مجرد شهرتي في اللغة العربية ، لا للانشاء ، لأنني لا أعتقده انشاء ، ففجأ وقال : كلا . أنا أعطيك النمرة على نفس الانشاء .

وانما ذكرت هذه الحادثة لأبين مقدار اتهامى لنفسى وعدم ثقتي بها ، وأنا لست أقول ان هذه صفة

محمودة . كلا . بل هي مذمومة لانها تسكون سببا في تسطيل المواهب الإلهية ، ولكنني أقرّر الحقيقة في ذاتها . ولقد ذكرت في هذا التفسير وفي غيره صارا وتكرارا أنني قبل أن أعرف هذه العلوم عامدت الله أنه اذا علمني الحقائق على مقدار طائفي لأؤلف كتابا يفتح بها الشبان الذين يشاققون لما أشتاق إليه ، ولا يذهبون كما كما عذبت في الوصول إلى الحقائق .

فلما أن وظفت في الحكومة بعد الخروج من المدرسة ، وصرت مدرّسا ، أخذت نفسي تطالبي بالوفاء ، بمهداها ، ولقد عرفت فأن التآليف ؟ فألفت كتاب « جواهر العلوم » و « ميزان الجواهر » بادي ذي بدء . وهناك كانت حوادث منزلية أزججتني ولست أكن ليؤثر شيء على نفسي من حيث التآليف ، ثم توالى التآليف والنشر فألفت « جمال العالم » و « النظام والاسلام » و « نظام العالم والأهم » و « التاج المرصع » وغيرها من الكتب والرسائل ، وهما أناذا الآن أكتب في تفسير القرآن الذي انتشر في أقطار الاسلام ، وترد على الرسائل من تلك الأقطار النائية . ولقد قرأه وقرأ الكتب قبله اخواننا المساعدون في شمالي افريقيا والسودان والشام وبلاد اليمن وحضرموت ويران وبلاد جاوه وما حولها وعموم (اندونيسيا) ويدخل فيها سومطريه وغيرها وهكذا بلاد التركستان الروسية والتركتستان الشرقية التي عاصمتها كاشغر . ولهم الله لم يكن ليدور بخلدني ، أو يخطر لي ، وأنا على شاطئ نهر أبي الأخضر بالقرب من قريننا كفر عوض الله حجازي بالشرقية وأنا أبحث عن حشرة ودوية صغيرة تسكون ذات خطوط منتظمة تعرفني أن في العالم نظاما وجمالا وبهجة ، وقد عثرت فعلا على حشرة عليها خيطان : أبيض ناصع ، وأحمر قان ، وقد انتظمت بهيئة هندسية ، ودهشت للنظام والجمال وقلت ههنا مبدأ نظام . أقول ما كان ليخطر لي أن ما قطع مؤادي ، وأقض مضجعي ، وأطارنومي ، وأسهر جفني ، وأطال ليلى ولأجله ساهرت النجوم ، وحالفت الوجوم ، وباينت العموم . سيصل يوما ما إلى الشبان في أقطار الأرض ، ويدرسه العربي والأندلسي والهندي والصيني ، ويقدم من نفس « كاشغر » أسد شبانها ويقول لي في هذا الشهر وهو شهر يونيو سنة ١٩٣١ م مانصه : « لقد أقض الفكر مضجعي ، وأطارنومي ، وصرت أغدو وأروح بين الأشجار المزهرة والحدائق الخضرة المحيطة بقرانا إلى امتداد ثلاثة أيام ، وفيها الروح والريحان والازهار والأثمار . كل ذلك نهارا ، فإذا جنّ الليل على وأرخى سدوله ، أخذت أسامر النجوم ، وأطارد الهموم ، فلا النجوم تعادني ، ولا الهموم تزييني . وأسأل الله . أقول له : رباه : ماهذه النجوم الشواقب ؟ وماهذه العجائب السيره نظام ؟ ومابراهينها ؟ وماهذه البدائع .

« رباه : أنا جاهل جدًا جاهل . أنا مستغيث بك فأغثنى . وجاهل فعلمني . واذا طلع النهار أخذت أسامر الازهار على الأشجار ، وأقول : أيتها الازهار : ما أخبارك ؟ وما جلالك ؟ وما عجايبك ؟ ثم أقول : أيتها الأشجار كليني كيف نظامك ؟ وما عناصرك ؟ وكيف كان نموك ؟ وما هذا الترتيب الذي أراه في أوراقك ؟ فلا أسمع جوابا ، وأنشد :

لقد أسهمت إذ ناديت حيا \* ولكن لأحياة لمن تنادي

« ولما اشتدّ علىّ الوجسد ، وزاد الهيام ، طفقت اذا جنّ الليل أربط جسمي بحبل في وقد نافذ في حائط وأبكي حتى الصباح ، ودمت على ذلك ليالي ، وذلك من شدة اليأس من أسألتني إذ كنت أسأل أحدهم هذه الأسئلة فيقول : هذا فعل الله ، ولما أكرهت السؤال طفقوا يشبهون أنني مجنون ، فلم يكن لي حيص من ذلك البكاء والعويل في خلوتي والتظاهر بالسوى أمام الناس . قال : وبعد ازدياد اليأس وقع كتاب « التاج المرصع » في يدي ، أعازة لي أحد الأصدقاء ، فوجدت أسلوبا لم أعهده ، وأخذت أقرؤه ، فألفيته يصف حالا هي نفس حالي ، ونفسا كانت محترقة كنفسي ومحرومة ، مما يشق غليلها ، فطالعت بلفه مدة ثلاثة أشهر ، فزالت حيرتي ، وحرك وجدى للسفر خارج بلادى ، كما حرك وجدان ثلاثين شابا مثلي ، فسافرنا إلى

( كابل ) وقد استصحبت « التاج الموضع » وهي ولم أخبر بسفرى من أعز لي ، فلما وصلت إلى ( كابل ) بلاد الأفغان وجدت فيها نسخا كثيرة منه ، فأرسلت الكتاب لمعيره لي وأعانتته بسفرى ، وهما أناذا اليوم قد تعلمت في مدارس تركيا ، وملت شهادة ، وقرأت اللغة الفرنسية ، وقد سافرت بعثتان أخريان إلى الأقطار الشرقية الغربية بعد أن عرفوا هذه الحقائق وقرأوا كتب المصريين ، ومنها كتاب « الجواهر » في تفسير القرآن الكريم المنشور حديثا ، فسألته : أقرأه باللغة العربية ؟ فقال نعم . فقلت : هو مترجم بلغتك التركية فأطلعته عليها فدهش وقال : هذه لغة راقية ولكنى لم أطلع عليها لأن قيصر الروس ما كان ليجهل بيننا وبين اخواننا في القازان وغيرها مواصلة .

ثم قال : « اننا بكتبك قد أصبحنا نوقن أن ما كان كفرا عند أسلافنا هو نفس الواجب المقرب إلى الله تعالى » انتهى

هذه هي الرجة التي أردت أن أذكرها في تفسير البسملة في أول سورة الفتح ، وأليس من العجب أنى لم أوفق إلى تمام هذا الموضوع فأعرف خبر آخر بلاد الاسلام إلا عند تفسير سورة الفتح ، وأرى كتابى « القرآن والعلوم المصرية » يعنى مترجما إلى لغة الملايو ، وأليس مما يوجب على إعلان شكرى لله وحده وتقديسه ، وإلهام به ، وإفراغ الجهد في طاعته أن يكون انتشار هذه الفكرة هو غاية مطامى ، ثم يتم ذلك المطلب وأنا حى وأعلم به ، وهو هو الفتح الخاص الاسلامى ، وهذا هو النصر والفتح المبين في زماننا ، وقد قدمنا أن الرجة عامة وخاصة ، فالعامة تفصلها جميع العلوم ، والخاصة بنا وبالأثم الاسلامية هي ما ذكرته الآن وقد قدمت أن كل امرئ بينه وبين ربه أمر خاص ، فهذا هو الامر الخاص الذى اشتد طمى عليه ، وقد نلت به ، وهل لي بعده مطلب ؟ هو آخر مطامى ، هو نهاية مقصدى ، الحمد لله فلا قرأ ما جاء فى الذكر الحكيم على لسان ابراهيم عليه السلام : « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحق إن ربي لسميع الدعاء » كتب صباح يوم الأحد ٥ يوليو سنة ١٩٣١ م

## تذكرة

لقد تقدم فى سورة محمد ﷺ فى تفسير البسملة أن قتال الكافرين المذكور فيها توطئة لفتح البلاد ونشر العلوم ، فأثم الاسلام لم يكن الفتح لهم خاصا بمكة ، إن الاسلام انتشر فى أقاصى المعمورة ولا يزال ينتشر بل هو الآن ينتشر فى أمريكا وفى أوروبا ، إنما المهم المدهش أن الفتح يشمل الفتح العلمى ، والعلم المنتشر فى الكرة الأرضية الآن باجماع علماء العالم قاطبة سببه دين الاسلام ، فالمسلمون حركوا الأثم وان كان المحركون لهم قد ناموا قبل هذه الأيام .

إن أوروبا هجمت على الشرق فحملوا دين المسيح بدل الوثنية عندهم ، وبعد قرون جاء الاسلام فأقصاهم وأرجعهم إلى بلادهم ، فهجموا على الشرق ككرة أخرى بالحروب الصليبية ، فحملوا معهم المدنية الاسلامية والعلوم المنشورة فيها ، ثم هاهم أولاء يهجمون على الشرق ككرة أخرى اليوم ، وهاهوذا الشرق أخذ يعتد عذبه ، وستكون نهضة الأثم كلها بسبب الشرق والعقول الخزونة فيه التى ستساعد على الرقى المنتظر فالنظام الحالى سببه فتح الاسلام المبين ، والنظام المستقبل سيكون بمساعدة المسلمين . أفلا أسمعك ما جاء فى مقال جاء فى جريدة الاهرام بتاريخ ٢٤ مارس سنة ١٩٣١ م فقد جاء فيها تحت العنوان التالى مانصه :



## العالم بعد خمسين سنة

العلماء يتنبئون

نيويورك في ١٥ مارس (لراسل الامهرام الخاص) : العلماء هم أنبياء هذا الزمان ، وأنا أعني العلماء العاملين ، لأولئك الذين يسطرون للقراء أقوالاً لهم يفهمونها ولا الذين يقرءونها ، يعرف المطلع على تاريخ تدرّج العمران ، ورقى الانسان ، كيف فتح الناس الكرة ، وذللوا صعابها ، وهدوا عقباتها ، وأخضعوا وحوشها ، وحولوا آجامها إلى جنات غناء ، واستأصروا معظم ما كان ينتابها من الأوبئة ، وكيف تلب العقل البشرى على القوى الطبيعية فأرغمها على خدمته ، والعمل بإشارته ، وألجم البخار والبرق والغاز وقام بأعمال كثيرة كانت معدودة من المستحيلات ، فما الذى بقى وراء سنائر الغيب من مدهشات العلم وعجائبه ؟ وما الذى سيقدم عليه النبوغ البشرى من الفرائب الشبيهة بالعجائب . لنسمع جواب أنبياء العلم فإن فيما أخصه من أقوالهم ما يبرد غلة النائق إلى معرفة ماسيكون ، إنهم يستنبئون بالماضى لاختراق ظلمات المستقبل ومعرفة ماسيتّم فيه من نتاج الأدمغة المفكرة .

يقول قائلهم : إن الملايين منا يتذكرون الخمسين سنة الماضية ، وآبأؤهم بدورهم يتذكرون الخمسين سنة التى قبلها ، فالمائة عام التى ورامنا قد كانت مسرحاً لانقلاب كبير فى حالة العالم وطرأ على الميمنة فيه ، فانقضت أيام المركبة الخشبية التى تبحرّها الجياد ، وجاء زمان القطارات الحديدية ، والسفن البخارية ، واخترع التلفون فقرّب الأبعاد والمسافات ، وتلا ذلك التليفون والتلفراف اللاسلكيان ، ورفعت الطائرات أهل هذا الزمان من الغبراء إلى الأجواء ، فقهرت ناموس الجاذبية ، وحلت السيارة محل الجواد فى شوارع المدن والطرق ، وخففت الكهرباء أعباء أعمال النساء ، فنولت عنن الكنس والفسل ، وإدارة آلة الخياطة ، وتنظيف المنازل وأوجدت الحرارة للدفء ، وبردت الهواء الحار بمراوحها ، وأثارت المنازل والشوارع والطرق المؤدية إلى البلدان ، ونابت عن الناس فى فتح الابواب للزائرين ، وأدارت الآلات على اختلافها ، وجرت القطارات والمركبات العمومية ، وتولت فوق هذا كله قتل المحكوم عليهم بالموت .

وفى المائة سنة التى انقضت نالت النساء حق الاقتراع والمشاركة فى إدارة الحكومة ، وتبدلت الأمم بعضها من بعض ، فتسنى لها الاجتماع بها بسهولة للتفاهم بشأن الاعمال والمتاجرة والشؤون السياسية كما كان يفعل الأفراد فى البلد الواحد ، وكان الناس من مضى خمسين سنة ينظرون الى الغنى صاحب المليون ريال بعين الإعجاب ، أما اليوم فالذى يبلغ دخله السنوى مليوناً واحداً لا يعد من الاغنياء ، وفى أمريكا اليوم رجل له دخل أسبوعى يزيد على مليون ريال ، وهنرى فورد صانع السيارات المعروفة باسمه يدفع للحكومة ضريبة على دخله السنوى تزيد على العشرين مليون ريال ، كان الناس من قبل يتعاملون بالملايين واليوم يتعاملون بالبلايين ، وبعد أن انتهت حكومة الولايات المتحدة من منح الهبات المالية للجنود الذين شوّهوا فى الحرب الأخيرة تسكون قد أنفقت خمسة وسبعين بليون ريال ، والدول الأوروبية مدينة لها بمبلغ أحد عشر بليون ريال ، مما يؤيد ما قلناه من أن مقادير الغنى قد تغيرت وتعاضمت أصغر الثروات بحيث ان الذين كانوا يحسبون ثروتهم بالملايين أصبحوا فى هذا الزمان يعدونها بالبلايين ، وصار البليون المقياس المعول عليه فى المعاملات الدولية كانت الخمسون سنة الماضية أعوام أعمال كبيرة أنشأها طوائف من الناس متحدون معا ، ولكن الفرد من الناس لم يكبر عما كان عليه ، ولا صار أهنأ عيشاً وأسعد حالاً ، فهو من هذا القبيل كالقطرة من الاوقيانوس العظيم لا تزيد فى الكبر على أية قطرة ماء ، فى أصغر وعاء ، وهكذا الناس فانهم لا يزالون كائنات بشرية صغيرة ، قطرات فى أوقيانوس المجموع المدرك الحساس المعروف باسم الجنس البشرى ، الاوقيانوس يكبر ويتعاضم فى

الاتساع والقوة ، إلا أن القطرات التي تولفه لا يطراً عليها تغيير في ذاتها ، فكيف يمكن الفرد من أن يكون أعظم مما هو وأن تكون حياته كاملة من كل وجه ؟ ذلك هو السؤال الذي لم يستطع الخمسون سنة الماضية بل الألوف من الأجيال الفاضلة الإجابة عليه : كشف الإنسان الراديوم في الأرض والفضاء والمعادن المختلفة والقوى الطبيعية التي لم يكن لأسلافه بها علم ، ولكنه من حيث اصلاح نفسه لم يأت بسوى القليل ، وقد يكون ما قبل صحيحا من أن متوسط الذكاء بين الاجناس العليا من المتحضرين هو اليوم أقل منه بين أهل أثينا منذ ألفين وخمسمائة عام مضت ، فن الوجهة العلمية والوجهة الفنية الاولى من حيث الخلق والابداع والاحاطة بما يحيط بنا من الأشياء المنظورة السكينة عند اقدامنا إلى المجرة في السماء قد ارتقينا وأحسننا عملا ولكننا كأفراد لم نتقدم إلا قليلا ، ولا أحرزنا من التحسن إلا اليسير التافه .

فما الذي يحىء في الخمسين سنة التالية سيتسكلمون أيامئذ عن الفهم الجبرى الذي نفذ ، وعن آبار الزيت التي نضب معينها . وهكذا قبل أن ينفذ الفهم والزيت يكون الناس قد تمسكوا من تقييد المذ والجزر أرقوة الشمس وكشفوا نيرانا مخبوءة في جوف الارض على مسافة أميال من مواعى اقدامنا ، وعندئذ يهزؤون بما كان يفعل أسلافهم .

والعلماء على يقين من أنه قبل أن يباغ أحداث اليوم الشيخوخة تسكون الأسفار الطويلة هرا الأوقيانوس وحول العالم في الطيارات ، فيتناول الراكب فيها طعام الغشاء في باريس ، وطعام الغداء في نيويورك ، ولقد كان من غرائب الأيام التي انقضت أن يناجى الشخص الموجود في أعلى طبقات المخزن مع آخر في أسفله بواسطة الأنبوب الذي ابتدع لذلك القصد ، ثم جاء التلغراف فتناجى الناس به بين البنات والمدن والبلدان المختلفة على مسافات شحيحة .

والناس اليوم يستخدمون اللاسلكى لنقل الاصوات إلى الأبعاد الشاسعة ، فسمع أوبرا نيويورك في لندن وباريس والصين ، وفي الهند والعراق بوضوح وجلاء كما يسمعون أهل نيويورك ، ويقل اندهاش الفكر البشرى بتلك الاكتشافات والاختراعات بعد انقضاء الاسبوع الواحد على وجودها ، فلا يبا أحد بها بل يوجه اهتمامه لشيء جديد يكون أعجب وأغرب ، جاريا في ذلك على الاعتقاد الذي أصبح جزءا من طبيعته بأن كل شيء ممكن ، وفي الأعوام القليلة المقبلة ستضع آلة على صندوق الراديو في منزلك فتريك الممثلين في الملاعب والخطباء على المنابر وتسمعك أصواتهم .

ذلك ما ستقوم به الكهرباء التي لانفهمها إلا بما يبدو منها ، فهي قد قامت مقام الانسان في أعمال كثيرة تطبخ ، وتسكنس المنازل ، وتكوى الملابس ، وتدفع الحجلات في الشتاء ، وتبردها بالماوح في الصيف ، وتصنع لك الجليد والمركبات المختلفة ، وتسيرها ، وتدفعها في الشتاء ، وتبرد هواءها في الصيف ، وتفتح أبوابها للخارجين والداخلين الذي أغنى الشركات عن ملايين العمال . ومثل ذلك تفعل في المعامل على اختلافها ، وتبعث بالرسائل إلى أفاى المعمورة ، وهي التي تمكنك من مخاطبة البعيد عنك بالتليفون السلكى واللاسلكى . وسيفعل اهتمام الناس في المستقبل بنفقات الفهم لائقاء البرد لأن نور الشمس الذي يلجمه العلم يجعل الهواء معتدل البرودة ، أو حارا مقبولا ، وذلك بواسطة صرا كز للقوة تبقى معتدل الحرارة عند نقطة معلومة محتملة من البرد والحر السنة بطولها .

ويقول أحد العلماء في كتاب عنوانه « المستقبل » مانصه : « إن هذه السنوات ليست أضغاث أحلام بل هي مبنية على درس الدورة التي يسير عليها الفهم الذي لا يلى حاملا معه الجنس البشرى إلى حيث يكون كما خلق ليكون ، فن مضى ثلاثين عاما كان التلغراف اللاسلكى مقتصرا على أذرع معدودة ، أما اليوم فانه يساعدا على إيصال هزات الكهرباء إلى أفاى الأرض ، وإلى القمر أيضا ، فما الذي نقوله إذن

عن الفد .

وبعد دورة قصيرة من الزمان تفصّ أرجاء السماء بمواكب هوائية ضخمة ، وتكون سرية الطيران فتجتاز الاوقيانوس بنحو الساعة من الوقت ، ولا يكون ثم خطر من الاصطدام ، لأن العلم سيمتدع مايساعد المركب الهوائي على الشعور بدقته من مركب أخرى ولوفى الفلام العاصم أو الضباب الكثيف ، وقد يصل بنا العلم الى عهد نستغنى فيه عن مولدات القوة في صراكب الهواء ، فتستمد قوتها من الهواء الذي تسير فيه وتساعد الأشعة الكهر بائية الانسان في مستقبل الأيام على تحويل الأمطار إلى الصحارى والبلدان القليلة أو العديمة المطر ، فتحوّلها إلى جنات نضرة عظيمة الاقبال ، زاهرة بمحصولات لا تخطر لنا اليوم ببال . وتكون الكهرباء الهامل الأكبر على إغناء المزرعات بحرارتها ، ويرتقى فن الجراحة إلى أرفع الدرجات ، بحيث يتمكن الجراح من جعل الوجه الشنيع جيلا ، وتكون الاعمال الجراحية في المستقبل قبل الولادة ، فتجعل تقاسيم وجه الطفل كما يراه أن تكون ، لأنه من الظلم أن يكون قبح صورة أحد الناس عثرة في سبيل نجاحه ، فأمثال هذه المشوهات يستأصل في أول العمر أو قبل الولادة ، ويصير أمر تحديد النسل من الامور الضرورية ومن لزوميات التمدن ، فلا يسمح يومئذ إلا لعدد معلوم من الناس في الاكثار من البنين ، هؤلاء تختارهم الحكومات بالطرق العلمية ، وتساعدهم ماليا ، وذلك لأن الارض تصبح مكتظة بالسكان بحيث يصير من الضروري تحديد عدد المواليد بخلاف ما هي الحال الآن ، يلد الفرد ما يشاء من الأولاد سواء قدر على تربيتهم واعالتهم أو قصر في ذلك ، وتصبح الامومة وظيفة شريفة تسيطر عليها الحكومة وتقوم بالنفقات .

ولكن هذه الحالة لا تطول كثيرا ، فقد يمددون يومئذ إلى توليد الاطفال في معامل الكيمياء بطريقة علمية بحمة وعلى قدر الحاجة لسد الفراغ الذي يحدثه الموت ، ولا يزال أماننا حسبا يعتقد عظماء العلم مائة مليون سنة للقيام بأعمال أخرى عديدة تهجز عقولنا القاصرة عن الاحاطة بها ، فسوف تمكن من مناجاة السيارات العليا المنتشرة في ذلك الفضاء الذي لاحظه لأن الكثير منها مأهول بأناس عاملين مفكرين .

فالأنبياء الذين يشمل كل فضاء هو الذي يحمل رسائلنا إليها كما يحملها في أرضنا من قارة إلى أخرى ، فلو تفأ انسان من مضى خمس وعشرين سنة عن امكان ابتداء الطيارة والتحليق بها في الجو من مكان إلى آخر ، أو عن البرق اللاسلكي ، وقال : إن الخطيب أو المنشد الذي يتكلم ، أو يغني في نيويورك يكون مسموعا بوضوح في أقاصي الأرض لزجوه في مأوى المجانين ، ولكن ما الفائدة من التخمين أو التنبؤ ؟ انه لم يعط لنا أن نعرف ماذا سيكون ؟ انتهى الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين .

## القسم الثاني من السورة

### التفسير اللفظي للسورة كلها

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب كان يسير معه ليلا ، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه . فقال عمر : ثكلك أمك يا عمر ، كررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرّات ، كل ذلك لا يجيبك ، قال عمر : فركت بعيري حتى تقدمت أمام الناس ، وخشيت أن ينزل في القرآن ، فما لبثت أن سمعت صارخا يصرخ بي ، فقالت : لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن ، فجئت رسول الله ﷺ ، فسألت عليه ، فقال : لقد أنزل على الليلة سورة هلي أحبّ إلى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » .



وروى الترمذي أن ذلك كان وهو راجع من الحديبية ، قوله عز وجل (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) أي إنا قضينا وحكمنا لك فتحا مبينا ظاهرا ، أي فتح مكة وماقبلها كفتح خيبر وفدك وصلاح الحديبية وما بعدها كفتح فارس والروم وسائر البلاد . وهذا التفسير جمع سائر الأقوال ، فإذا قال البراء تعدون أنهم الفتح فتح مكة ، واقد كان فتح مكة فتحا ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، وذكر أن الحديبية بئر قد نحرها ولم يتركوا فيها قطرة ، وكانوا أربع عشرة مائة ، فأما توضحا صلى الله عليه وسلم وتضمنوا ودعا وصبه فيها مسقتهم وسقت ركابهم ومشيتهم ، وإذا قال مجاهد أنه فتح خيبر ، وإذا قال غيرهما هو فتح فارس والروم وسائر البلاد فهذا كله داخل فيما قلناه ، ويكون فتح مكة أظهرها وأشهرها ، وماقبله مقدمة له ، ومابعده تابع له ، مرتب عليه . واعلم أن لكل عامل في عمله نهاية يبتغيها ، وثمره يجنيها ، فنهاية الزرع إدراكه ، ونهاية الشجر أثماره ونضجه ، وثمره ذلك الانتفاع بحب الزرع وثمر الشجر ، هكذا النبوة لها نهاية مطلوبة في الحياة الدنيا وثمره تتبع هذه النهاية ، فنهاية أمر النبوة أن تلتئم وحدة أمة من الأمم ، ويجتمع شملها ، ويتم نظامها ، ولن يكون ذلك إلا بعد دعوة مستفيضة وجهاد علمي وعلمي وقنالي ، وجمع المجاهدين على العدو ، ومنى أموا عملهم ، وأنقذوا المستضعفين ، وسجروا البيضة ، وأدخلوا رجالا في الدين كرها ، ثم بالتدريج يدخلون طوعا . فإذا تم ذلك فقد انتظم أمر النبوة وأدّى واجبها ، وهذا نهاية ما على الرسل ، واذن يستوجبون ثمراتها وهي :

- (١) مغفرة ما فرط منهم مما يهدّ ذنوبا بالسببة لمقامهم .
- (٢) واجتماع الملك مع النبوة بهد أن كانت النبوة وحدها .
- (٣) والهداية إلى الصراط المستقيم في تبليغ الرسالة ، وإقامة مراسم الرياسة .
- (٤) والنصر الذي فيه عزّ ومنعة .

فهذه الثمرات الأربع مرتبة على تمام أمر النبوة والجهاد فيها ، وهكذا كل مجاهد بعد اتمام جهاده ينال الثمر على مقتضى المقدمات ، فالفتح المذكور المترتب عليه ما ذكره من الأعمال التي استوجبت من أول ما نزل الوحي إلى تمام الأمر ، فهذه ترتب عليها هذه الأربعة ، كأن الله يقول : يا محمد ، لقد بلغت الرسالة ونصبت في العمل ، وجاهدت بلسانك ، وبسيفك ، وجعت الرجال والكرام والسلاح ، وتلطفت وأغلظت وأخلصت في عملك ، وفعلت كل ما قدرت عليه حتى تم الأمر الذي نذبتك له فلتنل ثمرات ذلك العمل ، فقوله (ليغفر لك الله) متعلق بفتحنا ، وقوله (ما تقدم من ذنبك وما تأخر) أي جميع ما فرط منك مما يصح أن يسمى ذنبا من طبيقتك وإن كان عند غيرك لا يسمى ذنبا لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، أو ما تقدم قبل النبوة وما تأخر عنها (ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما) وينصرك الله نصرا عزيزا) قد عرفت معناها وأنها مرتبة على الفتح ، لأن من دانت له الرقاب ، وخضعت له النفوس ، وعزّ فقد تمت له النعمة . ولما كان ذلك في رضا الله هدى صراط الرئاسة ، ونصر نصرا فيه عزّ ومنعة ، لأن أسبابه حاضرة . ولما كان فتح البلاد والنصر على الأعداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وبجهاد المؤمنين معه وقد فرغ من الكلام عليه شرع يذكر ما للمؤمنين من منزلة ، فقال : (هو الذي أنزل السكينة) الثبات والطمأنينة والوقار (في قلوب المؤمنين) ويلزم من ذلك ثبات الأقدام عند اللقاء ، وكما كان الفتح للأمور الأربعة المنعم بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هكذا كانت الطمأنينة في قلوب المؤمنين (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) أي يقينا مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنان النفس عليها ، ولا جرم أن الله عز وجل هو الذي دبر أمر العالم فسلط الأجناد في الأمم للمقاتلة والمجاهدة ، فهو الذي دبرها بعلمه ونظمها بحكمته ، فهو الذي يجاهدون للحق ، وهؤلاء يقاتلون للباطل ، وإنما دبر ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله ويشكروها فيدخلوا الجنة ، ويعذب الكفار والمنافقين لما ثبتوا على الباطل ، فينال كل نتيجة ما جنه ، وهذا هو قوله تعالى (ولله جنود السموات والأرض) يسلط بعضها على

بعض كما سلكوا من المؤمنين والكافرين على الآخر (وكان الله عالما) بالمساح واستعداد النفوس (حكما) فيما قضاه ودبره (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وبكفر عنهم سيئاتهم) يفظيها ولا يظهرها (وكان ذلك) الإدخال والتدبير (عند الله فوزا عظيما) لأنه منتهى ما يراد من منقعة مجاورة ومضرة مدفوعة (ويصحب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) عطف على يدخل (الظانين بالله ظن السوء) ظن السوء فيقولون في أنفسهم : لا ينصر الله رسوله ولا المؤمنين (عليهم دائرة السوء) أي دائرة ما يظنون وبتدبيره بالمؤمنين لا يتخطاهم (وغضب الله عليهم واهلهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا) أي جهنم ، واعلم أنه كما كان الفتح قد رتب عليه أمور أربعة للنبي ﷺ هكذا فاز المؤمنون بأمور أربعة : الوقار ، وازدياد الايمان ، ودخول الجنات ، وتكفير السيئات . وهكذا الكفار لهم أربعة : العذاب ، والغضب ، واللعة ، وجهنم . وقوله (ولله جنود السموات والارض وكان الله عزيزا حكما) يشير إلى أن من هؤلاء الأجناد من هم في جهنم ليلزموا الكفار لتهديهم وهم خزنة النار كما أن ذكر الأجناد فيما تقدم يشير للائكة الرحمة الذين يكونون مع المؤمنين لادخالهم الجنة ، ولما كان المقام مقام قهر ذكر العزة والغلبة ، ولما كان سبحانه لا يذل إلا على مقتضى الاستعداد ذكر الحكمة ، ولما أتم الكلام على المالكل من الاعمال والثمرات المرتبات عليها أعقبه بما يعي النبي ﷺ والمؤمنين فقال (إنا أرسلناك شاهدا على أمتك (ومبشرا ونذيرا) لأجل الطاعة والعهدة ، ولما كان خطابه صلى الله عليه وسلم منزلا منزلة خطابهم خاطبهم قائلا (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه بتقوية دينه ورسوله) (وتوقروه) وتعظموه (وتسبحوه) وتزهوه أوصلوا له (بكرة وأصيلا) غدوة وعشيا ، والمعنى دائما ، ثم ذكر بيعة الحديبية وهي قرية صغيرة بينها وبين مكة أقل من مرحلة ، سميت بئر هناك كما تقدم ذكرها ، وكان المباهجون ألفا وأربعمائة ، بايعوه على أن لا يفرّوا ، ومنهم من بايع على الموت . فقال : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) لأنه المقصود بالبيعة حال كونهم (يدالله فوق أيديهم) أي نصرته إياهم أعلى وأقوى من نصرتهم إياه ، يقال اليد لفلان ، أي الغلبة والنصرة والقوة ، أو يد الرسول صلى الله عليه وسلم التي هي فوق أيديهم كأنها يد الله ، والله منزّه عن الاجسام وصفاتها ، أي ان عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله عز وجل من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (فن نكث فانما ينكث على نفسه) يعني فن نقض العهد الذي عقده مع النبي ﷺ ونكث البيعة فان وبال ذلك وضرره يرجع إليه ولا يضر إلا نفسه (ومن أوفى بما عاهد عليه الله) أي من البيعة (فسيؤتيه أجرا عظيما) أي في الآخرة وهو الجنة ، وهذه البيعة بيعة الرضوان . انتهى القسم الثاني من السورة والحمد لله رب العالمين .

### القسم الثالث من السورة

قال تعالى (سيقول لك المخلفون من الأعراب) وهم أسلم وجهينة وهزينة وغفار ، فهؤلاء لما استفزهم رسول الله ﷺ عام الحديبية تخلفوا واعتلوا بالشغل بأموالهم وأهليهم ، وفي الحقيقة هم ضعاف العقيدة خائفون من مقاتلة قريش ان صدقواهم ، ومقول القول (شفلتنا أموالنا وأهلونا) إذ لم يكن لنا من يقوم بأشغالهم (فاستغفرنا) من الله على التخلف (يقولون بألسنتهم مائس في قلوبهم) أي هم كاذبون في اعتذارهم غير جادين في طلب الاستغفار (قل فن يملك لكم من الله شيئا) أي فن يمنعكم من قضائه (إن أراد بكم ضرا) أي سوءا (أو أراد بكم نفعاً) ذلك أن القوم ظنوا أن التخلف يدفع عنهم الضر ، أو يجلب لهم النفع بالسلامة لهم في أنفسهم وأموالهم ، فأخبرهم الله أنه إن أراد شيئا من ذلك لم يقدر أحد على دفعه (بل كان الله بما تعملون خبيرا) فيعلم اظهاركم الاعتذار ، وطلب الاستغفار ، واخفاءكم النفاق (بل ظننتم

أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً) أى ظننتم أن الصدوقين هم فلا يرجعون إلى أهليهم (وزين ذلك في قلوبكم) فتمكن فيها ، أى زين الشيطان ذلك فيها (وظننتم ظن السوء) أى وظننتم أن الله يخلف وعده إذ قالوا : ان محمداً وأصحابه أكلة (١) رأس . يريدون بذلك قتلهم فلا يرجعون فأين تذهبون معهم ! انظروا ما يكون من أمرهم ؟ (وكنتم قوماً بوراً) يعنى وصرتم بسبب ذلك الظن الفاسد قوماً بأثرين هالكين (ومن لم يؤمن بالله ورسوله فانا أعتدنا للكافرين سبيراً) أى فانا أعتدنا لهم فيه وضع الظاهر موضع المضمرة لتسجيل الكفر على من لم يجمع بين الإيمان بالله والإيمان بالرسول (ولله ملك السموات والأرض) يدبره كيف يشاء (يعف لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً) وذلك لأن رحمته سبقت غضبه ، فالفرة والرحمة من الله بالاصالة ، أما التهذيب كادخال الكافرين السبيل فذلك لأحوال طرأت على النفوس البشرية ، وهنا لاجمال للإطالة ، ففي المقام ما لا يجوز أن يقال (سيقول المخلفون) وهم المذكورون (إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها) أى مغانم خيبر ، وذلك أنه ﷺ رجع من الحديبية في ذى الحجة من سنة ست ، وقيل سنة خمس رهو الأصح ، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل الحرم ، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها ، وغنم أموالاً كثيرة فخصها بهم ، ومقول القول (ذرونا نبعثكم يريدون أن يبتلوا كلام الله) أى أن يغيروه لأنه وعد أهل الحديبية أن يعرضهم عن مغانم مكة مغانم خيبر (قل لن تتبعونها) معنى النفي هنا النهى (كذلك قال الله من قبل) من قبل تهيبهم للخروج إلى خيبر (فسيقولون بل تكذبوننا) أن نشارككم في الغنائم (بل كانوا لا يفقهون) لا يفهمون (إلا قليلاً) إلا فهما قليلاً وهو فطنتهم لامور الدنيا والاضراب الأول ردّ منهم ، والثاني ردّ الله لاثباتهم الحسد واثباته جهلهم بامور الدين (قل للخلفين من الأعراب) وهم المتقدمون (ستمعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) وهل هم بنو حنيفة ؟ أو هم أهل الإمامة أصحاب مسيمة الكذاب الذين دعا إلى قتلهم أبو بكر ، أو هم أهل فارس إذ دعا عمر إلى قتلهم ، أو غيرهم ، فإذا كان الأول كان أحد المصريين : إما المقاتلة ، وإما الاسلام ، ولا تقبل الجزية من بنى حنيفة ، ولا من جميع أهل الردّة ، وإن كان الثاني يكون المراد بالاسلام ما يشمل الاتقياد بقبول الجزية منهم ، وهذا دليل على صحة امامة الشيخين ، لأنرى إلى قوله تعالى (فان تطيعوا) من دعاكم إلى القتال المذكور (يؤتكم الله أجراً حسناً وان تتولوا كما توليت من قبل يهذبكم عذاباً أليماً) فى الآخرة ، أى وان تتولوا عن التوحيد والتوبة والاجابة إلى قتال مسيمة الكذاب أو الفرس الخ ، ولما كان هذا الوعيد الشديد على المتخلفين يشمل من هم معذورون حقيقة أردفه بقوله (ليس على الأعشى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) فهؤلاء لا حرج عليهم فى التخلف عن الغزو ، فهم مستثنون من المتخلفين لعذرهم بعاثاتهم (ومن يطع الله ورسوله) فى الجهاد وغيره (يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتولّ يهذب عذاباً أليماً) فى الآخرة .

### بيعة الرضوان وهى بيعة الشجرة

سبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعى حين نزل الحديبية فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على جل يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ، ففعلوا جل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرادوا قتله فغنتهم الأحابيش ، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب ليعبثه إلى مكة فذكر له أنه ليس من قومه أحد بمكة يدافع عنه ، فأرسل عثمان بن عفان ، وأرسله إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائراً



هذا البيت معظمًا لحرمته ، فخرج عثمان إلى مكة ، فلقية أبا بن سعيد بن الناصح حين دخل مكة ، فجلس في جواره حتى فرغ من رسالته لعظماء قريش ، ثم احتشدوا عندهم ، فشاع بين المسلمين أن عثمان بن عفان قتل ، فقال رسول الله ﷺ : لا تبرح حتى تنجز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وهي سمره ، فبايعه القوم إلا جند ابن فليس الأنصاري ، اختفى تحت بطن بديره ، وهذه الشجرة لما أراد أصحاب رسول الله ﷺ أن يعلوها بعد ذلك كثر اختلافهم ، فلما اشتبهت عليهم وصار كل واحد يشير إلى شجرة ، قال عمر : « سيروا ذهبت الشجرة » ، وقال ابن عمر : ما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها وكانت رجة من الله تعالى ، وهذا قوله تعالى ( لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم ) من الاخلاص ( وأنزل السكينة عليهم ) الطمأنينة وسكون النفس ( وأثابهم فتحاً قريباً ) فتح خيبر غلب النصرافهم ( ومغانم كثيرة تأخذونها ) هي مغانم خيبر وهي أرض ذات عقار وأموال ، فقسمها عليهم ( وكان الله عزيزاً ) منيعاً فلا يغاب ( حكماً ) فيما يحكم به فلا يعارض ( وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ) هي ما أصابوه مع النبي صلى الله عليه وسلم وبعده إلى يوم القيامة ( فجعل لكم هذه ) المغانم أي مغانم خيبر ( وكف أي أدى الناس عنكم ) يعني أي أدى أهل خيبر وعطائهم بن أسد وغطفان حين جاؤا لنصرتهم ، فغضب الله الرعب في قلوبهم فانصرفوا ، يقول الله : فجعل لكم هذه المغانم لتفتنوا بها ( ولتكون ) هذه الكفة أو الغنيمة ( آية للمؤمنين ) أمارة يعرفون بها ( ثلاثة أمور : الأول ) صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ( الثاني ) أنهم في حياطة الله وحراسته في مشاهدتهم ومفبيهم ( الثالث ) أن يعرف المؤمنون الذين بعد العصر الأول أن ما وهب الله للصحابة من حراستهم وحفظهم وعطائهم يكون لهم مثله ( ويهديكم صراطاً مستقيماً ) وهو الثقة بفضل الله والتوكل عليه بعد اتقان العمل ، ثم عطف على لفظ هذه قوله ( وأخرى لم تقدروا عليها ) أي وعدكم الله فتح بلدة أخرى لم تقدروا عليها ( قد أحاط الله بها ) أي حفظها لكم حتى تفتحوها ، ومنعها من غيركم حتى تأخذوها ، وسيفتحها الله لكم كفارس والروم الذين كان العرب خولا لهم ، ثم أقدرهم عليها بجزء الاسلام وغيرهما من كل فتوح في الاسلام ( وكان الله على كل شيء قديراً ) فقدرته شاملة للممكنات جميعها ( ولولا تلكم الذين كفروا ) من أهل مكة ولم يصالحوا ، أو من حلفاء أهل خيبر وهم أسد وغطفان ( لولوا الأدبار ) أي لانهمزوا ( ثم لا يجدون ولية ) يحرسهم ( ولا نصيراً ) ينصرهم من الله ( سنة الله التي قد خلت من قبل ) أي سن الله غلبة أنبيائه سنة ، وهو قوله : « لأغلبن أنا ورسلي » ( ولن تجد لسنة الله تبديلاً ) تغييراً ( وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ) ذلك أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة إلى الحديبية ، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة مم عاد ، فهذا معنى قوله ( بطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ) وقوله ( وكان الله بما تعملون ) من مقاتلتهم والكف عنهم ( بصيراً ) فيجازيهم عليه ( هم الذين كفروا وصدتكم عن المسجد الحرام والهدى ) أي ما يهدي إلى السكبة ، أي صدتكم وصدتوا الهدى ( معكوفاً أن يبلغ محله ) أي حال كونه محبوساً أن يبلغ مكانه الذي يحل فيه نحره وهو منى مكانه المعهود . وقال الحنفية : مكانه الذي يحل فيه نحره أي يجب ، فالحصار محل هديه الحرم عندهم في منى . ويتول غيرهم : ينحدر حيث أحصر ، وقد نحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أحصر ( ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تكن يدهم ) لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين ( أن تطؤوهم ) أي توقعوا بهم وتبيدوهم بالقتل ( فتصيبكم منهم مھرّة بغير علم ) أي إثم وذنب وعتب عليكم فيقول المشركون : قتالوا أهل دينهم ، يقول الله : لولا أن قتلوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لأعلم لكم بهم فيلزمكم العار والإثم لأذناكم في دخول مكة ، ولكن حال بينكم وبين دخولها ذلك السبب ولقد كان الكف ومنع التعذيب والقتل عن أهل مكة ( ليدخل الله في رحمته من يشاء ) أي ليدخل الله في

دين الاسلام من يشاء من أهل مكة بعد الصلح وقبل دخولها ، وليصون المؤمنين منهم عن الأذى (لوتز ياروا) لوتفرتقوا وتميز بعضهم من بعض بحيث انفصل المؤمنون في مكة عن الكافرين (لعدبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) بالقتل والسبي (إذ جعل) أى حين جعل ، ظرف لعدبنا (الذين كفروا في قلوبهم الحمية) الأنفة (حمية الجاهلية) التى تمنع إذعان الحق (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) أى الثبات والوقار ، وذلك ما روى أنه عليه الصلاة والسلام لما همّ بقتلهم بعثوا سهيل بن عمرو ، وجو يظ بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص ليسألوه أن يرجع في عامه على أن تخلى له قریش مكة من القابل ثلاثة أيام . فأجابهم وكتبوا بينهم كتابا ، فقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه : اكتب باسم الله الرحمن الرحيم ، فقالوا لا نعرف هذا اكتب باسمك اللهم ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : اكتب هذا ما صالح رسول الله أهل مكة . فقالوا : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدناك عن البيت وما قاتلناك ، اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة ، فقال ﷺ : اكتب ما يريدون ، فهم المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشوا بهم ، فأنزل الله السكينة عليهم ، فتوقروا وتحملوا (وألزمهم كلمة التقوى) أى الثبات والوفاء بالعهد (وكانوا أحق بها) من غيرهم (وأهلها) أى كانوا أهلها في علم الله ، إذ اختارهم لدينه ، وصحبة نبيه ، وهم أهل الخير والصلاح (وكان الله بكل شىء عليما) من أمر الكفار والمؤمنين فيجازى كلا بعمله . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة والحمد لله رب العالمين .

### لطائف هذا القسم

- (١) فى قوله تعالى : قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولى بأس شديد .
- (٢) فى قوله تعالى : ليس على الأعشى حرج الخ .
- (٣) فى قوله تعالى : ولتسكون آية للمؤمنين .
- (٤) فى قوله تعالى : سنة الله التى قد خلت من قبل الخ

### اللاطفة الأولى

فى قوله تعالى : قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولى بأس شديد الخ

اعلم أن هؤلاء المخلفين قد حرموا من الفزوة التى فيها غنائم بعد ما تخلفوا ، وقيل لهم تربعوا حرا مع قوم شداد ، جارية على القاعدة العامة فى سنن الله تعالى طبا وتهديا .  
انظر إلى علماء الطب ، فانهم اذا رأوا مريضا قد اشتدت به الآلام الناجمة من البرد الزموه تعاطى الأغذية الحارة ، أو من الحر الزموه تعاطى ما هو بارد ، وكذا فى الرطوبة واليبوسة ، ويقولون لمن هو كثير النسيان : اجلس فى حمام حار ، وخذ فى الحفظ والقراءة ، فان رأيت أنك قد أسرعت حفظك ، فاعلم أن النسيان من البرودة ، واذا رأيت أن الحفظ قد أبطأ فاعلم أن النسيان من الحرارة ، ففى عرفت السبب فاستعمل ما يضاذه فان كان السبب الحرارة فكل الأغذية الباردة ، وان كان السبب البرودة فكل الأغذية الحارة ، وهكذا يقول علماء الأخلاق : « فن رأى نفسه كثير القضب فليزِم نفسه الجلوس مع من يؤذيه مرة بعد أخرى ، وليتعلم الصبر على أذاه ، فان لم يجد من يؤذيه فليسلط هو انسانا بأجر من عنده أن يقوم بشتمه فى ملا من الناس ، ثم ليتصبر على ذلك حتى يتعلم التحمل ويتحمل ، واذا رأى أنه قد أصبح بليدا بحيث لا يؤثر فيه قول من يغضبه ، ولا من يؤذيه فليكثر الحمية فى نفسه بالأشعار وقراءة كتب الحساسة حتى تقف النفس فى الوسط بين التهور والبسادة ، وهكذا من رأى نفسه كثير الكلام فليتعوّد الصمت مرارا حتى يعرف أن نفسه لا تنطق

إلا عند الحاجة .

وبالاجمال هذا هو السنن الذي سنه الله أن يداوى المرض بضاده حتى يرجع المريض إلى اعتدال في الجسم وفي العقل ، وذلك بعينه هو الذي نراه في الشمس ، فانها تلقى علينا أشعة الصيف فتكون حرارة ، وأشعة الشتاء فتكون برودة ، وأشعة الربيع والخريف فتكون متوسطة ، فرجع الأمر إلى الاعتدال ، لأن الحار والبارد يتساقطان ولا يبقى إلا الاعتدال . كل هذا يؤخذ من هذه القصة ، إذ أنهم لما تخلصوا عن السفر وحرما من الغنيمة في غزوة خيبر ، وألزموا أن يكونوا في غزوة فيها قوم أولو بأس شديد ، والقتال شاق ، فهم كالمبرودين يلزمون الطعام الحار ، وكالبليد تستثار فيه الهمة والنشاط والحياة . انتهت اللطيفة الأولى .

### اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : ليس على الأعمى حرج الخ

اعلم أن هذه الآية لا يراد بها أن تكون قاصرة الحكم على مسألة أصحاب العاهات ، إذ يستثنون من المتخلفين المذمومين ، إن هذا المقام مقام الاستعداد : فليتنظر المساهون في أمر الأمة جميعها ، وليجعلوا كلا فيما استعد له ، جعل الله في زمن النبوة الأمة ثلاثة أقسام : النساء لأعمال المنازل ونحوها ، والأقوياء من الرجال للحرب ، وأصحاب العاهات عفا عنهم فلا يجاهدون ، لماذا ؟ لأنهم لا يصلحون لذلك ، ولهم في إن هذا فتح باب لاشغال نار الرقي والاسعاد في الأمة ، فليفتح الباب على مصراعيه ، وليقل إن الله أنزل في القرآن هذا للنظر نظرة عامة ، ولنقل الأمة كلها في جهاد دائم ، ليس الجهاد قاصرا على ضرب السيوف ، واعداد الجنود ، ورفع البنود . كلا . ثم كلا . فلكل فرد من الأمة منزلة لابد أن يوضع فيها ، فالزارع في مزرعته يجاهد ، لأنه يرسل الحنطة لصفوف المجاهدين ، والتاجر ، وصانع الأسلحة ، والحاكم والقاضي والشرطي والخفير ، كل هؤلاء أعوان المحاربين ، وسائق قطار السكة الحديدية ، وحارس المسرة ( التلفون ) ، وصانع الطائرات ، فلكل هؤلاء مجاهدون ، فليجعل كل فيما هو أهل له ، وإذا نفي الله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض فليس معنى هذا أنهم يعافون من كل شيء . كلا . أنهم لم يقدروا على دخول الصف ومقاومة العدو ولكن الأعمى إذا كان من القادرين على الخطابة والحث على الجهاد فليزعم بذلك ، والأعرج إذا كان قادرا على عمل كأن يكون عند آلة البرق ( التلفراف ) فليزعم بذلك ، والمريض يجب على الحكومة معالجته ، ومتى شفى بوجه إلى ما خلق له ، والمقصود أن هذه الآية تفتح الباب لوضع كل امرئ فيما استعد له ولا يكون ذلك إلا بتعليم الأمة كلها تعليما عاما وادخال بعض الصناعات في المدارس الابتدائية حتى تظهر مواهب الاطفال فيوضعوا فيما خلقوا له ، كما نقلته لك في ﴿ آل عمران ﴾ عن أهل أمريكا ، وهذا المعنى يؤخذ من قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وقوله : « لا تكلف نفسا إلا وسعها » فارجع إلى التفصيل في ﴿ سورة البقرة ﴾ وقيل للأمة لا تعطوا مواهب الأمة ، بل نبهوا جميع الشعب ، وأيقظوا فيه المواهب الكامنة حتى تستخرجوا منها الآثار النافعة ، ولاسمادة للأمة إلا بهذا ، والله هو الولي الحميد . انتهت اللطيفة الثانية .

### اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : ولتكون آية للمؤمنين

اعلم أن هذا سر مصون ، وجوهر مكنون ، وحكمة عالية ، ومنهج شريف ، وكبريت أحر ، وماس بهيج ، ودر نصيب ، وكنز مدفون ، أراد الله إظهاره لأمة الاسلام ، حتى تستيقظ من رقادها ، وتقوم من غفلتها ، وترجع عن حوشتها ، وتنفض غبار الكسل ، وتحيي ما مات من الأمل ، وتحيي عمار الحكمة التي حفظها



الله لم في الكتاب ليفهمها ولو الأبواب بعدنا فيقولون : يا ليت شعري : أي آية للمؤمنين هنا في هذا الزمان إذا كان الله كف أيدي أهل مكة عن المؤمنين ، وكف أيدي المؤمنين عن أهل مكة ، وعجل لهم مقام في خير ، فأى آية لنا الآن نحن في هذا الزمان ؟ ذلك زمان مضى وانقضى ، وأمر طواه الزمان في سجل الفسيان فكيف يكون آية لنا ؟ اللهم إلا ما يكون آية على صدق النبوة وصدق النبوة عندنا لا يحتاج لإبرهان ، لأننا أخذناه جيلا عن جيل ، وقوما عن قوم ، فلسنا نحتاج إلى براهين جديدة ، على أن صدق النبوة ليس هو كل شيء عندنا في الدين ، بل المهم نتائجه ، فنصدق بالانبياء والقرآن وبشيء ساكت لا يحرك ساكنا فأى فرق بين الكافر إلا الاعتقاد ، والاعتقاد بلا عمل شجر بلا ثمرة ، وأرض بلا زرع .

إذا سمعت هذا من أهل زمانك ، أو قرأته في هذا المقام ، فأجب عنه وقل : إن الله عز وجل جعل أهم خواص الانسان أربعين : الأول العلم والشوق إليه ، وحب الحكمة والفراغ بها والولوع ، والثاني نفع الناس وإرشادهم ، فهذان هما الخلقان الشريفان اللذان تخلق الله بهما ، فهو رحيم وحكيم ، ومن تخلق بأخلاق الله فإن الله عز وجل يعونه ، ومتى اتصف رجل بهاتين الصفتين فأحبب العلم وعشقه ، ومال للحكمة وأغرم بها ، فإن الله عز وجل يكون معه ، وإذا كان مفروا بمنفعة الناس ، وأحبب رقيهم وسعادتهم على شريطة أن يكون أهلا لذلك ، فإن الله وملائكته يكونون معه ، ويرى العون من الله في غيوه ورواحه ، وبالتفطن يرى من العناية والمساعدة ما لا يحيط به بيان .

أقول هذا وأذكر كحديث : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » وبما يروى « إن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر » أو ما معناه ، وبآية : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع الحسنيين » ، فالجهاد يشمل الجهاد العلمي ، والجهاد العملي ، والاحسان يشملهما ، فهو احسان بالنلم واحسان بالعمل .

واجب أيها الذكي كيف تقول بعض الارواح لما حضرت وسألوها في أوروبا : أي شيء يرقينا إذا امتنا ؟ فأجبت : أسران هم المحبوبان : الأول الفلاسفة ، أي حب العلم والحكمة ، والثاني حب الناس ، فن اتصف بهذين الوصفين كان محل نظر الله وملائكته ، وكان الله معه ، وازداد علما على مدى الزمان ، وخزان الله العالمية لا تنفذ . كل هذا من سر هذه الآية : « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » وهو الثقة بفضل الله تعالى ، انظر كيف جعل الله هذه الغنائم الخيرية التي وعد الله المؤمنين بها آية لنا ، وثباتا على الأعمال والعلوم . انظر كيف نام المسلمون ، وجهلوا هذه العلوم . انظر كيف كان العالم كالجاهل في تناسي هذه العلوم القرآنية . انظر كيف ملائكة الأرض بالعلم وأخلى منه أمة الاسلام الحاضرة إلا قليلا . انظر رعاك الله وقل لي غنائم خيبر يخبرنا الله بها ويقول انها آية لكم ، وهداية للثبات على الأعمال ، ثم يصم المسلمون آذانهم وينامون نوما عميقا ، حتى قل من بينهم من يحب المجموع ، وقل من يحب العلم لذات العلم ، فأما بعد هذا الزمان فسيكثر فيهم العاشقون للعلوم ، ويكثر المحبون لأمة الاسلام ، بل لجميع العالم الانساني الذي نحن جعلنا رجة له ، بل رجة لكل حي من انسان وحيوان ، لأننا قأمون مقام نبينا المرسل رجة للعالمين من الانسان والحيوان والجن الذين لم يتخلقوا بالأخلاق الحيدة فيقلدون الصالحين منا والعلماء فينا .

### جهاد الفرد وجهاد الجيش

لهلك تقول : أي الآيات نراها اليوم في هذا الزمان إذا نحن أخلصنا في أعمالنا فيساعدنا الله كما ساعد المؤمنين بغنائم خيبر ، إن ذلك كان ورسول الله ﷺ بينهم ورجة الله تنزل عليهم ، وأخبر النبي بذلك ، وتم ما أخبر به ، وصدق الله وعده فعلا ، فأى غزوات الآن نكون فيها ؟ وأي منح نعطاها ، وعطايا نلقاها ؟

ولانيّ بيننا اليوم . والسكرامة للأبياء ومن مع الأنبياء ، فما نحن نحن فاستأهلا لذلك .  
أقول : إن هذه الآراء هي السبب الأكبر في موت المسلمين . مذبذباً أدبيا وحريبا ومالبا واقتصاديا وسياسيا  
وهي الدلالة على الجهل بالله ، ونظامه ، ورجوته ، وحكمته الشاملة ، وآياته الواضحة ، وعجائب المدهشة .  
إن الله دائم الجود ، واسع المطام ، لم يخصّ العلماء ، ولا الأنبياء ، ولا الحكماء ، ولا الإنسان ، بل عظم  
العطاء - حتى لأحققر ذرة من الحيوان النسيمة ميكروبا ، فأعطاهما أشرف الأجسام ، وهي أجسام الإنسان ،  
تأكل فيه لحما طريا ، وتشرب شرابا أحمر شهيا ، وتزويج وتلقب وهي آمنة مطمئنة ، فإذا أعطى الله أجسام  
أشرف المخلوقات وهو الإنسان لأقلّ الحيوانات قدرا ، وقال لها كلي واشربي وقرّبي عينا في أشرف مخلوق  
على الأرض ، فما بالك بالإنسان وهو أشرف سيران على الأرض ، فمسل يذبح الله يتخبط في الدنيا لا يفرق  
بين من يريد نفع العموم ومن يريد شهوة نفسه . كلا والله . فلهذا جرت بنا ما نقول فرأينا العجب العجيب  
ولنعلم أن جهود الفرد في الحياة المادية والعملية أشق من جهاد الجيش الكبير ، والمهارة الإلهية تكون  
على العمل الفردي أقوى من المهارة التي تعطى للجيش الكبير العاصق ، وبرهانه أن نقول : إن الفرد منا  
وهو يجد في العلم مخاصا فيه ، وفي منافع النوع الإنساني إذا كان أهلا لذلك ، يلقى مشاق لا يلاقيها الجيش  
في غزواته ، أي أنه إذا كانت الصعاب التي يلاقيها الجيش توازي في صعوبتها ما يلاقيه الفرد المجتهد مضاعفة بعدد  
أفراده كان الجيش في مشقة لا نطاق ، فإذا رأيت الله عز وجل يساعد أصحاب النبي ﷺ ويعطيهم غنائم  
خير ، لأنه يعلم أن هذا الجهاد سيحققه نشر العلم ، وحفظ الأمن ، وأن ما يضافونه مع الكفار أشبه بالسكنى في  
جسم الإنسانية ، وبعد هذا السكنى سيكون الشفاء التام . وعلموا هذا كله من طريق النبوة ، فاعلم أن الفرد  
الواحد المجاهد يقع في مشقات لا تعد لها إذا كان مجاهدا للجموع ، وتسكون المعاونة له من الله على مقدار  
ما يصيبه من المشقات ، فيسكون العالم في علمه ، والمنظم للزّمة الساعى في رقبها ، واقعين في مصاعب ومشاق  
عظيمة ، ويكون عون الله لهم مضاعفا على مقدار مشاقهم ، إن شئت فقل أقوله تعالى : « إلا تنصروه فقد  
نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الفار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله  
سكينته عليه وأيده بجنود لم يروها وجهل الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم » .  
وأنت تعلم أن نصره وهوفي الفار أعجب من نصره وهوفي بدر ، أو أحد ، أو اثنين ، يقود جيشا عظيما ،  
إذا عرفت ذلك فاعلم أن حالك أنت اليوم وأنت تتعلم العلم ، أو تحرص على رقيّ أمتك الإسلامية لا تخرج عن  
هذه الحال لأن الله معنا أينما كنا ، وما أرسل الأنبياء إلا ليكونوا قدوة لنا ونورا ، فإذا نصر نبيه وهو وحيد  
ليس معه إلا أبو بكر ، فجزب أنب كما اتفق لي ، لاسما أثناء هذا التفسير ، فقد رأيت العجائب في هذه  
الحياة ، ووقعت في مشا كل مدهمة ، ولكن جاءت الطائفة الله أسرع من البرق ، فأوقفت الشر بل أزالته ،  
وتكرر ذلك مرارا أثناء هذا التفسير ، سواء أكان ذلك في الأمور الدنيوية أو المسائل العلمية . ومن عجب  
أن بعض المسائل أكون في حاجة إليها ، والآية تتطلبها ، فلا تمضي دقائق حتى أعثر في الطريق على ما يفهمني  
المطلوب ، وأذكر مرة أني كنت سائرا في شارع خيرت بالقاهرة بالقرب من مشهد السيدة زينب رضي الله عنها  
وأنا أفكر في آية : « إن في خلق السموات والأرض » إلى آخره ، ووجدت أن الفلك في البحار لا بد من استيفاء  
الكلام عليها ، فالذي يسيرها إما الهواء وإما البخار ، فخطر بيالي أن الكهرباء أيضا لا بد من أن يكون لها  
في ذلك عمل ، ولكن لا يمكن أن أكتب ذلك إلا إذا اطلعت عليه ، فحدثني نفسي أن عادة الله لا بد أن تتم  
معي ، وإني قريبا أجد فهمها ، فما سرت بضع دقائق حتى وصلت إلى ميدان السيدة زينب ، فوجدت رجلا  
معه مجلة لا أذكر اسمها . فقلت أرنها ؟ ففتحتها فرأيت في الصفحة التي وقعت تحت نظري في سطر من  
أوسطها هذه المسألة بنصها ، بحيث أن نظري لم يقع إلا عليها ، ولم تفتح إلا هذه الصفحة أول ما تناولتها ،

فاشتريتها منه وقلبت الجملة التي في الجملة الخامسة بالكسر باء التي بها تسير السفن ، فانظرها في سورة البقرة ، فالكسب نجدها في تفسير الآية ، وتجد الجملة منقولة بنحوها ، لأنني لست من علماء هذا الفن ، هذه مسألة واحدة وواقعة من وقائع كثيرة أثناء تأليف هذا الكتاب ، وانما ذكرت لك هذا لتعلم اني اكتب عن يقين ، وأن النور الفائق من الله محيط بنا من كل جانب ، وانما نحن الذين نحرم أنفسنا منه فيشقى الجاهل به ، فاذا أعان الله رسوله وهو في الفارجاد في رقي أمته فليس معنى هذا أنه يتركك وأنت مقتنف أثره . كلا والله ، بل لم ينزل هذا القرآن إلا لأجل هدايتك ، بمثل هذا تعرف النبوة وصدقها ، وبمثل هذا فليرتق المسالمون .

فليجهد العلماء في تفهيم الناس هذه الحقائق ، فلهي كلف يقول الله « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » . أليس ذلك ليكون نبراسا لنا فنعلم أن الله مؤيد السامعين في أعمالهم الجزئية ونشكر في تلك الإلهامات السرية التي يفيض بها الإنسان في نفسه ، وتلك المساعدات الوقتية التي تحصل لنا عند جدنا في المنافع العامة ، وحينئذ لا نحصى لنا عن اشبات في أعمالنا والمثابرة فننوز كما فاز الأولون ، ونعطي بما حظي به المتقون ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

## تذكرة

### في موازنة آيات الأحكام بآيات الأعمال الاخرى

فاذا سمعت السادة الحنفية ، والسادة الشافعية ، يدققون النظر ، ويحققون الفكر ، في آية : « حتى يبلغ الهدى محله » فيقول قوم أن الحرم هو الذي يذبح فيه الهدى ، ويقول قوم . كلا . فلينحصر الحديث أحصر كما تقدم مع أن الخطب فيه سهل ، فما بالك بمثل هذا المقام الذي يقول الله فيه : « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » . يحفل الله غنائم خبير آية لنا ، وهداية لسبلنا ، وطريقا لوصولنا ، ولم يقل في الهدى شيئا من ذلك ، بل قال : « لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم » . فانظر كيف أرجع الأصر في الذبائح سواء أكانت في منى ، أم في الخديبية ، أم في غيرهما لأمر واحد ، وهو التقوى ، وانما هذه وسائل لها ، فان بذل المال معناه اتبرئ من المال لئلا يعاق بالقاب فيوقعها في شرك هذه الحياة الدنيا . فاذا كان علمنا هكذا يدققون في الوسائل فما بالك بالمقاصد مثل ما نحن فيه . لقد كان أئمة الفقه كمالك ، والشافعي ، وأبي حنيفة ، وأحمد بن حنبل ، وزيد رضي الله عنهم وأمثاهم يدققون في الأحوال النفسية عملا ، ولم يكن عندهم الزمن الكافي ليكتبوا هذا للناس ، فتركوه للأجيال المقبلة ، وكأنهم يقولون : هانحن أولاء دققنا في مقدمات الأعمال ، فليكم النظر فيما لا يحتاج إلى بحث شديد كببحثنا وهي المقاصد ، ولينتم الآخرون ما تركه الأولون ، فاذا نحن أغفمناكم دقيقات الأمور فاعلموا الناس أتم الأمور التي هي أرفع كقوله تعالى : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور » وكقوله : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » وكقوله « وإن الله لمح المحسنين » وكقوله « إن الله مع الصابرين » وكقوله هنا « ولتكون آية للمؤمنين » .

إن الله يساعد المؤمن المجاهد في نفسه أكثر مما يساعد الجيوش في الجهاد ، ألم تر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس » ، جهاد النفس جعل أشد من جهاد العدو فيكون العون فيه أعظم ، لأن الجندى في الجيش معه اخوانه ، وليس مع الفرد في نفسه إلا الله كما تقدم في آية الفار : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » .



## دفع رهم

إياك أن يمر بخاطرِكَ أن هذا القول ونحوه مناه أنه لن يصيبك همٌّ في الحياة . كلا . إذا جاء هذا الخاطو فاعلم أنه خاطركاذب . يقول المسلم إذا حزبه أمر : كيف أقع في هذه الشدائد ؟ أأست مساماً ! « أليس الله بكاف عبده » . أليس الله يساعدي ! لاسيما وأنا أجاهد في تهذيب نفسي ، ورقى أمتي ، وأنا أهل لذلك ، وأنا مخلص ، فلمش هذا يقال : إذا ظلمت أنه لن يصيبك أذى ، فأنت وأهم ، بل هذه الطبقة يكون همها أعظم ، وحملها أثقل ، وعملها أشق ، ويكون العون على قدر المشقة ، ولن يرتقى أمره قط إلا بما زاول من الأعمال ، وما قاسى من المشاق . وهذه الفكرة في الاسلام هي التي قعدت بالهمم ، وأورثتهم الخمول ، فيقول الرجل : ألسنا مسلمين ؟ فلماذا سخط الله الفرنجة علينا ؟ أليس النبي شفيع لنا ؟ أليس الله مع الصابرين ؟ أليس الله ينصر من ينصره ؟ ونحن ننصر الله فلماذا لا ينصرنا ؟ وهذا كله كلام لم ينطبق على حقيقة الواقع الذي عليه المسلمون ؟ فلتجادل بالتي هي أحسن في نقطة الشفاعة ونقول : أيها المسلم : أليس النبي شفيعاً ؟ فيقول بلى فنقول أليس العالم شفيعاً ؟ يقول بلى ، نقول أليس الشهيد شفيعاً ؟ يقول بلى ، نقول : النبي والعالم والشهيد إذا ظهروا في بلد أيكونون سبب كسلها ، أم يكونون سبب نشاطها ؟ فيقول بل سبب نشاطها لأعمال ، نقول لماذا ؟ فيقول لأن العلوم الدينية وعلوم العلماء وتقديس الشهيد نفسه لله كل ذلك يحدث في الناس استمداداً للعمل ، نقول فإذا رأينا الذين مع العالم ومع الشهيد ومع النبي قد كسلوا فما شأنهم ؟ فليس له إلا أن يجيب : ليس لهم حظ من السعادة ، بل هم أ كثر عذاباً ممن لم يكن عندهم عالم ولا نبي ولا شهيد لأنهم رأوا طريق الرشد فلم يتبعوه ، وعرفوا الحق ولم يتبعوه .

نقول : هذا المثل منطبق على بعض المسلمين ، يرون نبينا ﷺ وأصحابه يتجشمون المشاق في الحر والبرد ، ويلاقون الأعداء في الجبال ، ويقدمون رقابهم للقتل . كل ذلك والمسلمون نائمون ، ثم يظنون أن الشفاعة معناها أن يكسل الانسان ويعطى الخبز مجاناً ، فاذن الشفاعة لها معنى غير هذا ، فليعملوا كما رأوا في السلف الصالح ، واذن يلحقون بهم ، فأما كونهم يلاحقون بهم وهم نائمون فهذا غير معقول ولا مقبول ، إذ يصير هكذا : كل عالم في بلده يكون سبباً لكسلها ، وكل نبي يكون سبباً لكسل أمة ، فتكون الآية معكوسة ، والعقول مقلوبة ضائعة . ومعلوم أن الله لم يخلقنا إلا ليهذبنا ويرقىنا ، والتهذيب والترقية أعمال لا كسل ، فإذا قال : « ولنصرن الله من ينصره » فليكن المسلم ناصراً للفضيلة ، مفكراً مطلقاً ، حريصاً على العلم ، وليكن المسلمون جادين مفكرين .

فرحم الله امرأً أهدي إلى الناس ما كتبناه في هذا التفسير ، وأعطاهم ما يقبلون منه . ورحم الله امرأً نشر هذه الأقوال بين المسلمين . ورحم الله المؤمن النافع للمسلمين . انتهت اللطيفة الثالثة .

## اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : سنة الله التي قد خلت من قبل

هذا المعنى يقوى المعنى الذي سبق في اللطيفة الثالثة ، وملاحظه تقوية قلبك أن تكون صديقاً لنفسك علمياً ، ولأمتك مادياً وأدبياً ، والله يكون معك ، وأن هذه سنة قديمة في الأنبياء وأتباعهم العلماء ، والله ولي المؤمنين .

## فصل في إيضاح الكلام على بيعة الرضوان

روى أن مكرز بن حفص لما أشرف على النبي ﷺ وصحبه كما تقدم قال ﷺ هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبي ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو فقال ﷺ قد سهل لكم من أمركم ، ولما

ولما قال ﷺ صلى الله عليه وسلم : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله على ثلاثة أشياء : على أن من أتاه من المشركين رده إليهم ، ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه ، وعلى أن يدخلها من قابل ويقيم ثلاثة أيام ولا يدخلها بجلبان السلاح والنفوس ونحوه ، فقالوا يا رسول الله أتكتب هذا ؟ قال نعم ، انه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم سيجهل الله له فرجا ومخرجا . انتهى القسم الثالث من السورة .

### القسم الرابع من السورة

رأى عليه الصلاة والسلام في المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين ويحلقرن رعوسهم ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخول مكة عامهم ذلك ، فلما انصرفوا ولم يدخلوا شق عليهم ذلك ، وقال المنافقون : أين رؤياه التي رآها ؟ فأنزل الله هذه الآية ودخلوا في العام المقبل . وما روى أن عمر بن الخطاب . قال : أتيت النبي ﷺ فقلت ألسنت نبي الله حقا ؟ قال بلى . قلت ألسنا على الحق وهدونا على الباطل ؟ قال بلى . قلت أليس قتلتنا في الجنة وقتلهم في النار ؟ قال بلى . قلت فلم نفعلى الدنية في ديننا إذن . قال انى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى ، قلت أولست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به ؟ قال بلى ، فأخبرتك انك تأتية العام ؟ قلت لا . قال فانك آتية وتطوف به . قال فأنت يا أبا بكر ، فقلت يا أبا بكر : أليس هذا نبي الله حقا ؟ قال بلى . قلت ألسنا على الحق وهدونا على الباطل ؟ قال بلى . قلت فلم نفعلى الدنية في ديننا . قال أيها الرجل : انه رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بفرزه ، فوالله انه على الحق ، قلت : أليس كان يحدثنا انه سيأتى البيت ويطوف به ؟ قال بلى ، فأخبرك انه آتية العام . قلت لا . قال فانك تأتية وتطوف به ، وهذا قوله تعالى ( لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ) أى صدقه فيما رأى وفى كونه وحصوله صدقا ملتبسا بالحق أى بالحكمة البالغة لأن فيه ابتلاء لتمييز المؤمن الخالص من المنافق ، والله ( لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله ) حال كونكم ( آمنين ) علق بالمشيئة تمليا للعباد أن يازموا الأدب فلا يحكموا على مستقبل لاعلم لهم به ( محلقين رعوسكم ومقصرين ) أى محلقا بعضكم ومقصرا آخرون ( لاتخافون ) جملة حالية مؤكدة ( فعلم ما لم تعلموا ) من الحكمة فى تأخير ذلك ( فجعل من دون ذلك ) أى من دون دخولكم المسجد أوفتح مكة ( فتشعرا قريبا ) هو فتح خيبر ، ليستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الموعود ، وقد تقدم شرح ذلك شرحا وافيا ( هو الذى أرسل رسوله بالهدى ) أى ملتبسا به ( ودين الحق ) أى ودين الاسلام ( ليظهره على الدين كله ) ليعليه على جنس الدين كله بنسخ الشيات والظواهر فساد العقائد الزائغات وبسليط المسلمين على أهل الأديان فى الأزمان الغابرة ، وبالقيام بأمر الكرة الأرضية والمحافظة على نظام الأمم ، والقيام بأمر الموازية بينهم ، وتعليم الناقصين فى الأزمان المستقبلية إذ تصبح الأرض كلها كأسرة واحدة ، ويكون المسلمون هم الآخذون بيد الأمم ، وذلك فى أيام عيسى التى هى رمز للاسلام العام فى الأمم ، ويكون المسلمون بيدهم مفتاح هذا السلام كما أشرنا إليه فى السورة السابقة إذ يتضام العرب بعضهم مع بعض وهم والترك وبقية الأمم الاسلامية المتاخمة الديار كما أوضحته فى ( سورة آل عمران ) عند قوله تعالى « ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب » وذلك بأن يتعلم أبناء العرب فى شمال إفريقيا والشام والعراق والحجاز العاوم الابتدائية والثانوية والعالية ، وبذلك يعرفون قدراتهم ولغتهم ودينهم وعوائدهم فيتحدون ولوطال الزمان ، ثم يتحدثون مع الترك وغيرهم لجامعة الدين والجوار ، وانهم أمم شرقية ، ثم يأخذون بيد المسلمين فى سائر الأقطار ، ثم

يعلنون الدول انهم يريدون السلام العام بين الأمم بعد أن يكون جيشهم أقوى الجيوش . لكنهم أعلن السلام ، ثم هناك هناك يقال انهم « خير أمة أخرجت للناس » . وهناك هناك يقال « يظهر على ابن كاهن » وهناك هناك يقال : إن المسلمين رحمة للعالمين تنفيقا لقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

فياك أن يقول لك فقيه أين الجهاد ؟ فلتجيب بما في السورة السابقة عند الكلام على آية : « حتى تطع الحرب أوزارها » . وقل له : فليكن جيش المسلمين أقوى الجيوش وهم الآن في وسط السكرة الأرضية ، واذن يحفظون الموازنة ، ولا يكون في الأرض إلا مسلم أو مسلم ، فلأهم كانوا تسالهم وربما أصبحت الأرض كلها حكومات متحدة والمسلمون يكونون هم القائمين بأمر هذا الاتحاد وهذا زمانه ، وليس يكون نزول المسيح إلا بعد هذه المقدمات ، فلوائه نزل بغير ذلك لم يكن تغير طباع الناس في عهد الأسابيع من السنين ، فنزل المسيح إنما يكون لأهم قد أشرقت أنوارها ، وحسنت طباعها ، ريدوم ذلك النظام آلافا وآلافا من السنين ، ويقال لأهل الأرض إذن انهم على منهج المسيح ، والقائم بأمرهم أمة الاسلام ، وهذا لما قد بينت هذا في سور كثيرة . ولما كان هذا وعدا لا بد من تحققه أعقبه بقوله (وكفى بالله شهيدا) على أن ما وعدته كائن ، وعلى أنه رسول الله ﷺ ثم أخذ يبين ذلك فقال (محمد رسول الله والذين معه) أي أصحابه المؤمنون ، والمعطوف والمعطوف عليه متداخرا (أشداء على الكفار رحماء بينهم) أي يفظون على من خاف دينهم ويتراجعون فيما بينهم كقوله : « أدلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين » ، (تراشهم ركنا سجدا) لأنهم مشغولون بالصلاة في أكثر أوقاتهم (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) الثواب والرضا (سيماهم في وجوههم من أثر السجود) أي السمة التي تحدث في سبحاهم من كثرة السجود ، يقال سامه إذا أعامه ، وكان أن المنافقين يعرفون بسيماهم كما جاء في السورة السابقة : « فلتعرفنهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول » هكذا هنا ، فلأشقياء علامات تظهر في وجوههم وسجوتهم وهيئاتهم . كما أرحمهم السلام ابن خلدون في مقدمته ، هكذا الفضلاء ، ولكن العقول التي تفهم ذلك نادرة أو قليلة . واعلم أن كل ما يفعله الانسان أو يتصوره يؤثر في ظاهر جسمه أثرا ، ولكن الفطن تتفاوت في تعرف ذلك تفاوتا كثيرا ، وسيماهم التي في وجوههم هي السمات الحسن والخشوع والتواضع والسجدة (ذلك) أي المذكور (مثلهم) مسقتهم (في التوراة) وعليه وقف (ومثلهم في الانجيل) مبتدأ خبره (كزراع أخرج شطأه) فراخه ، يقال أشتأ الزرع إذا أفرخ (فأزره) فأعانه وشد أزره وقواه ، ومنه تقوية أي بكر للنبي ﷺ فهو أول من آمن به وخرج معه على أعداء الله (فاستغلظ) فتقوى ، هكذا تقوى رسول الله ﷺ بمال عثمان مشلا على الغزو والجهاد ونحوه (فاستوى على سوقه) جمع ساق : أي على أصوله ، ومثاله اظهار أمر النبي ﷺ في قريش بنحوه على بن أبي طالب وعمر (يجب الزرع) بكشافته وقوته . يقال : « مكتوب في الانجيل انه سينزع قوم يذبتون نبات الزرع ، بأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر » ، ومعنى يجب الزرع هنا : أي جميع المؤمنين ، ولقد نماهم الله وأكثرتهم واستمروا وغلبوا (ليغيظ بهم الكفار) وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما وقوله « منهم » بيان للذين آمنوا . واعلم أن مثل التوراة الذي تضمن الرحمة على الأولياء والشدة على الأعداء يستأزم كثرة العدد والرقى لأن المتراجحين متعاطبون فيعظم شأنهم ، فإذا اتحدوا لاجتماعهم على العبادات من ركوع وسجود واتصافهم بأوصاف الرحمة والشدة في مواضعها فذلك يدعو إلى رقيهم تدريجا كالزراع ، وكأن هذه المعاني التي تضمنها المثلان متلاحقة متسلسلة ، فكأن التوراة لما كان أقدم من الانجيل وأساسا له ذكر فيه مبدأ مابه القوة والكمال ، وكأن الانجيل لما كان بعد التوراة ذكر فيه ما يترقب على ذلك الأسس وهو النماء والقوة والعزة وظهور الثمرات . ولما كان التوراة كتاب أحكام وشرائع نسب إليه المثل الذي هو من جنس شرائعه كالسجود والركوع والاعمال الخلقية في مواضعها ، ولما كان الانجيل كتاب ارتقاء



للمواطنين ، وبحث الفضائل ، واستخرج أريج القوى ، السكينة في النفوس ، ناسب أن يذكر في مثله الزرع ونماؤه .  
 وروى في حديث وصف المؤمنين ما معناه : « إن أنجيلهم قلوبهم »  
 هذه أوصاف الأمة الإسلامية ، فانظر لها الآن وتأمل في اتخاذها وجهها الفاضح ، حتى أصبحت مثلاً  
 مضروباً بالذم من الجهالة الخناء ، وسيد من الخال ، ويحسن المسائل ، ويخضر الزرع ، ولما كان هذا المثل  
 المضروب بالزرع في هذه السورة يحدث في نفوسنا بأساً من ارتقاء المسلمين ، لأنه يقال : هاتحن أولاء اليوم  
 أبناء أمة الإسلام وهذا المثل ينطبق على آبائنا الأولين ، أما نحن فأننا أصبحنا زرعاً هشياً تذروه الرياح فكيف  
 يجتمع عصفه وتبته ، وقد مضى زمانه ، وذهب أباه ، ويستدل القائل بما هو حاصل اليوم ونقروه في الجرائد  
 من التخاذل والتباذل والتباعد بين المسلمين ، حتى أصبحوا عند الفرنجة كالخدم والعبيد ، ألم تر إلى ما جاء في  
 الجرائد أثناء تأليف هذا التفسير يوم الثلاثاء ٢٣ يونيو سنة ١٩٢٥ م أي قبل كتابة هذه الأسطر بيوم  
 واحد ماله :  
 « باريس في ٢٣ يونيو — تلقت جريدة الطان تلهرافاً من مراسلها في مدينة فاس قال فيه إن مولاي  
 يوسف سلطان المغرب الأقصى أعرب للرشاشليوتي عن رغبته في إصدار مرسوم ينسكرفيه أعمال عبد الكريم  
 الماسة بالوحدة الدينية ويقول إن عبد الكريم لا يملك الصفات اللازمة لحكم المسلمين ، وبالنظر إلى تحرش  
 الأمير عبد الكريم الذي أعلن أنه يريد الاحتفال بعيد الأضحى في فاس قرّر مولاي يوسف رداً على ذلك أن  
 يبقى في فاس ليحتفل بالعيد احتفالاً عظيماً » اهـ

هذا هو التلغراف المرسل المذاع عن مولاي يوسف ، فانظر أيها الذكي كيف أصبح المسلمون العوبة في  
 أيدي الفرنجة ، وانظر هذه الخزيات ، الأمير عبد الكريم قام لتحرير بلاد مراکش وطرد الفرنجة منها ،  
 والفرنجة يصطادون أناساً يجعلونهم ماوكاً ثم يأسرونهم فيذبحون أرواحاً أولئك الذين يناوئون الفرنجة ، هذا  
 المثل الذي يتصف به بعض المسلمين اليوم وإن كان فريق عظيم منهم قد استيقظ كالترك والفرس والأفغان  
 هذا هو المثل السوء الذي يمثل المسلمين اليوم ، لاسيما اخواننا أبناء العرب ، وذلك للجهالة العمياء ،  
 ولنعوم والعمى ، فإذا تبادى لك هذا فاعلم أن الله قد علم ذلك قبل أن يخلقك ، وقال : « ولا تكونوا كالذين  
 أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فتست قلوبهم وكثير منهم فاسقون بعد علموا أن الله يحيي الأرض  
 بعد موتها » فتعقب آية قسوة القلب والفسق باحياء الأرض بعد موتها إشارة إلى ما هو مقرر في سنة الله  
 أن الشيء متى وصل إلى نهايته انقلب إلى ضده ، فالأمة الإسلامية اليوم وصلت إلى ما نراه ، وبعد هذا الموت  
 الحياة ، فإذا كان المسلمون صاروا اليوم هشياً تذروه الرياح فأن الله يقول : « اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد  
 موتها » فثمن سات بعض المسلمين اليوم فإن الحياة بعد الموت ، وسيظهرهم الله على الأمم ويدرسون علومها  
 ويقومون بأسر ربهم ، هذا هو الذي سيكون ، والله هو الأول والآخر وإلى الله ترجع الأمور .

### اللطائف العامة للسورة كلها

اعلم أيها الأخ الذكي أن هذه اللطائف لم ترد بخاطري إلا عند الطبع ، واللطائف المتقدمة إنما كانت أيام  
 التأليف منذ بضع سنين ، وهالك بيانها :

- (١) في قوله تعالى : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً .
- (٢) في قوله تعالى : هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم .
- (٣) في قوله تعالى : ولله جنود السموات والأرض وكان الله علماً حكماً .
- (٤) في قوله تعالى : هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق الآية .

## اللطيفة الأولى في قوله تعالى : إنا قمتنا لك فتحة مينا

هذا ما فتح الله به على يوم الثلاثاء ١٤ يوليو سنة ١٩٣٩ م : —

(١) اعلم أن الأرض ثلاثة أقسام : أرض سبخة ، وأرض حجرية ، وأرض مليحة صالحة للزراعة . فلا ولي يقع عليها المطر فلا تحفظ الماء ولا تنبت ما ينفع الناس ، والثانية تحفظ الماء لغيرها ، والمكن لا تنفع به ، والثالثة ينبت فيها النبات وينتفع به الناس . فهذه الثلاثة انتفعت بالماء ونفعت الناس بثمراتها : فسكانها الحقل والنبات والأشجار والأثمار والأزهار والجمال .

الله أكبر : إن عقول أهل الأرض مقسمة أقساما تخرج هذه الثلاثة (وترى أصول هذا الموضوع في حديث البخاري : إنما مثل ما بهتني الله به من الهدى والعلم الخ) إذن من شرط النفوس المنتفعة بالعلم الدافعة لغيرها أن لا تشبه الأرض الحجرية ، ولا الأرض السبخة . واعلم أن جميع الذنوب والآثام التي تقترفها النفوس الانسانية ان يتم لها ذلك إلا اذا كانت فيها هي أنفسها جرائم الفساد وأصول سوء الأخلاق ، فكما أن الأرض التي ليست سبخة وليست حجرية ، بل هي أرض طيبة ينبت فيها الشجر والكلأ ويعم نفعها ، لأنه ليس هناك من مانع يمنع ظهور تلك الأشجار والنباتات فيها ، هكذا النفوس الانسانية النيرة البضيرة التي لم تدنس أصل فطرتها بنقص تقبل العلم ، فهي أشبه بشمس والعلوم فيها كنوزها ، وما الاستعداد للذنوب إلا النقائص التي تفسد عليها النفوس في مبدأ أمرها .

(٢) إن هذه الأرض الطيبة التي ظهرت فيها الحقائق والحقول يأتي إليها الناس من كل حدب يصرفونها بثمرها ، ويوالون الخدمة فيها .

(٣) ثم يأخذون ثمراتها ويطوفون بها في البر والبحر للبيع بعد أن يكسرونها قد انتفخوا بما يستحقون منها .

(٤) ولا جرم أن هذه الأرض تختص بأقبال الناس عليها والانصراف عن الأرض الحجرية والأرض السبخة إذ لا مرة فيهما .

إذا فهمت هذا فانظر في آيتنا التي نحن بصددها واعلم أن الفتوح في حقيقته إنما هو فتوح العلم وكشف الحقائق ، فهذا هو الفتح الحقيقي ، فإن الأرض ومن عليها والسموات والأرضون كلها فانية ، وكل ما على الأرض لا قيمة له بالنسبة للعلم لأن العلم باق والعوالم فانية ، فالنفوس الشريفة لن تفرح قط إلا بانكشاف الحقائق والوقوف على الأسرار ، أما ما عدا ذلك فأنما هي ظواهر ، والظواهر يجتزئ بها الجهال .

ولا جرم أن الفتح العلمي وانكشاف الحقائق للنبي صلى الله عليه وسلم له أصل واحد وثلاث نتائج ، أما الأصل الذي لا بد منه فهو صفاء النفس وخلوصها من الجرائم الموجبة للذنوب ، إن صفاء النفوس وخلوصها من تلك الجرائم المؤهلة للذنوب هو الأهم الأتم والأولى بالعناية الإلهية من التعجاف عن اقرار الذنوب ، فما مثل النفوس في الذنوب إلا كمثل الأجسام في الأمراض ، وأن خير الأطباء من يأمر المريض بالمحافظة على الصحة حتى لا يقعوا في الأمراض ، فهؤلاء هم الأطباء الحقيقيون .

واقدر تقسم هذا في ﴿سورة الشعراء﴾ وفي ﴿سورة فاطر﴾ وفي ﴿سورة الحجر﴾ وفي ﴿سورة الأعراف﴾ فقد بينت هناك الطريقة المثلى التي بها يكون الجسم صحيحا لا يعثوره مرض إلا قليلا ، فأما أكثر الأطباء في هذه الأرض فأنهم في شغل بمعالجة الأمراض ، وليس من عملهم أن يتولوا للأشياء احتسوا من الأمراض بالابتعاد عما يضرهم ، فهذا ليس من أعمالهم إلا قليلا ، إن خير الطب ما كان راجعا إلى أصل البنية لحفظ صحتها حتى لا يفتورها المرض ، وأكثر الأطباء يعالجون ظواهر الأمراض ، ولا يصلون إلى أصل

الجرائم والاصوال التي كانت سبب المرض ، هكذا النفوس الانسانية لها ذنوب باستعداد لها ، وخير ما تسالج به هذه النفوس أن تسقى من أصل فطرتها من جرائم الذنوب ، لا أنها تسالج ذنبا ذنبا ، وكلما وقع ذنب يغفر لها كما يغفر أكل كثير الاطباء في أرضنا ، إذ يعالجون كل ذنب على حدة ويبدلون وواعدهم أصل الجسم فلا يعالجون هذه شيئا .

ولا جرم أن الله عز وجل لا يعامل نبيه في اصلاح نفسه معاملة أكثر الاطباء في أرضنا ، بل يعامله معاملة الطبيب الملتقي الذي يخلص الجسم من جرائم الامراض ، فبما نحن تجلى لنا وظهور ظهور الشمس في رابعة النهار ، إن خفران الذنوب ليس معناه انها تقع ثم تمحى ، فهذا ليس كالألما الكمال أن نفسه صلى الله عليه وسلم خلقت كما خلقت الكواكب والنجوم مشرقة لا أنها كالطين يعتريها الظلام ، وهذا الصفاء يجعلها قابلة لانكشاف الحقائق ، فاذا معنا الله عز وجل يقول : « ليفرك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » عرفنا أن هذا معناه اسئصال الذنوب بأصل النظرة كالجوهرية في صدفها لا يعتريها قذى .

هذا هو الذي فتح الله به على في معنى : « ليفرك لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » فلتخص المعنى اما كشفنا لك الحقائق كشفا مبينا لتصف بأربعة أمور : —

(١) أمر مبدئي وهو صفاء نفسك وجها لها بحيث لا تستعد لذنب متقدم ولا لذنب متأخر ، وكيف تستعد له وهي كالجوهرية ، أو كالشمس لا يقبلان الظلام .

(٣) وثلاثة أمور تكون نتائج ﴿ الأول منها ﴾ أن تتم النعمة عليك في الدنيا والآخرة ، وذلك بأن تسدون نفسك راضية مرضية في الدنيا والآخرة ، وتلقى الله ونراه ، وتقر عينك باسعاد من اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ الثاني منها ﴾ أن ينشر نور نبوتك في الأرض في أيامك وبعد مغارتك الأرض ، وهذه النعمة مغايرة للأولى ، فالأولى راجعة لرضا نفسه وبهجتها ولقاء ربها ، وابتهاجها في الدنيا والآخرة ، وهذه الثانية راجعة لاسعاد الأم وهدايتهم لأقوم طريق مستمدين من هدايته ﷺ فهذه راجعة للعمل وما قبلها راجعة لبهجة النفس ﴿ الثالث ﴾ علو هذا الدين على غيره وظهور حقائقه لمن درسه بحيث تطمئن له القلوب ، وهذا هو النصر العزيز .

واعلم أن فتح مكة ، أو صلح الحديبية ، أو فتوح بلاد الاسلام بعده ﷺ أو غيره كل ذلك آثار لفتح المعنى والكشف الإلهي ، فكشف العاوم له صلى الله عليه وسلم أشبه بنهر ولهذا النهر آثار كثيرة ، هكذا آثار انكشاف الحقائق له صلى الله عليه وسلم ، فمنها فتح مكة لأنها من نتائج التعاليم ، والتعاليم الدينية أثر من آثار انكشاف الحقائق له ، وهكذا صلح الحديبية وهكذا فتح بلاد الاسلام شرقا وغربا ، كل ذلك فروع لأصل واحد ، والأصل الواحد هو انكشاف الحقائق له صلى الله عليه وسلم الذي هو النعمة الكبرى والكوثر الفاض ، وعين الحقيقة ، وماسوي ذلك نتائج له ، وهذا الرأي الذي اطلعت على مبادئه من كلام الشيخ الدباغ أصل جميع الأقوال كلها .

### آثار الفتح النبوي في زماننا هذا

هل لك أن أحدثك أيها الأخ بما جاشت به النفس اليوم بما اطلعت عليه مما فتح الله به على أمنا الاسلامية فتعنا مينا ، وذلك الفتح من آثار الفتح النبوي .

اعلم أن أهم الاسلام أيام النبوة وبعدها بقليل فتعنت البلاد شرقا وغربا ، وملاأت الدنيا نورا وعلمها ، ثم أخذت تفسحل وتنزوي ، ذلك أنها أولا كان أمرهم شوري بينهم ، ولكن لما اتبعوا أهواءهم ، وجعلوا الملك بحسب الوراثه لا بقتضى الاستعداد نامت الأمم الاسلامية مئات من السنين نوما عميقا عقابا لهم وزجرا



فأما جاء جيلنا الحاضر وعرف الحقائق ، وأخذ يتأدب في الأدب ، رجع علماء هذه الآباء من الضرر والجهالة والظلم شيئا فشيئا ، وأخذ الإسلام بطريقه قريبا حتى أصبحت أهم الترجمة بذلك . فإذ أن تسبح مقاله الأستاذ (لوثروب استودارد) الأسيركي مؤلف كتاب « سائر العالم الإسلامي » فقد جاء في الجزء الثاني منه تحت العنوان الآتي مانصه :

### سيطرة الغرب على الشرق

سيطرة الغرب على الشرق هي القوة الهائلة المشغلة مكانا خفيا في تطور الشرق في هذا العصر ، وبسبب هذه السيطرة ما برحت لواقح المؤثرات النورية ثابتة وتنتشر ، لا بل تتدفق على كل بلاد ، وتطمر على كل رقعة ، حتى غدا التغرب (١) من أكبر عوامل التبدل والاختلاف في العالم الإسلامي . حتى وفي الشعوب الآسيوية والأفريقية غير المسلمة ، وسنستط الكلام في موضع قريب من هذا الكتاب على مبلغ ما كان للسيطرة الأوروبية من التأثير الشديد في تطور مختلف الشعوب الهندية غير المسلمة ، ولكن الاستقار ، الاحتراز أن يؤخذ من هذا أن السيطرة الأوروبية هي السبب والمسبب في جميع هذه الاستحداثات والاختلافات الحديثة في العالم الإسلامي ، فقد سبق لنا الكلام مبسوطا ، مبينا فيه كيف أن عناصر المزاج الإسلامي ما انفكت طيلة القرن الأخير يفعل بعضها ببعض انفعالا شديدا ، يبدثر منها ما يبدثر ، ويستجد فيها ما يستجد ، وتتلشى قوى وتولد أخرى ، وذلك بجهد على ما نقيم من الوزن لما هو متدفق من العوامل الغربية الطارئة من خارج ، إنما هو بحد ذاته تجدد قائم في الباطن ، فعلا بالغ كل الباطن من طبائع ذلك المزاج وعناصره عما لا مندرجة لسنة الفسوء والتجدد عنه ، وعلى ذلك ف هو واقع مشهود في العالم الإسلامي اليوم من التبدل والتحول والتطور يجب أن لا يقتصر مجرد محاكاة الغرب وتشبه به فحسب ، بل إنما ذلك هو نتيجة تفاعل العناصر تفاعلا مكونا لشيء جديد ، وهو الأخذ عن الغرب أخذًا مفرغا في بوتقة شرقية وفي قالب إسلامي ، ويجب فوق ذلك أن لا يغيب عن الأذهان أن الشعوب الآسيوية التي يتألف منها سواد المسلمين ليست كما يقول بعضهم شعوبا متدلية منسطة كزنج أفريقية والجزائر الاسترالية ، بل إنها لثلاث حضارة بدية حية منذ القرون الخوالي ، حضارة هي نتاج إسلامي صرف ، متكون من صنع المسلمين وثمرات جهودهم ، وحتى ما أخذنا نعتبر ما قد استطاعته هذه الشعوب الإسلامية من تشييد المعالي وفروع ذروات المجد فيما مضى إنما الخطأ بقولنا الآن أننا نستبين خلال هذا الفيلان الهائل في العالم الإسلامي تجديدا حقيقيا صحيحا رائعا ، ولا غرابة في ذلك إن عاد الإسلام يستعيد من عزه الفابر وعلاه السالف ، وهذا تاريخه المجيد شاهد له على ما كان عليه المسلمون قديما من الحضارة والعمران .

إن سيطرة الغرب الحديثة على الشرق لا مثيل لها في التاريخ من حيث العظامة والخطورة والممدى والمجال فإما كان لليونان ورومية من قبل من السيطرة المحدودة النطاق على بعض من العالم لا يعد إلا إضافة إلى سيطرة الغرب اليوم شيئا مذكورا ، والغريب في حديث هذه السيطرة الغربية أنها بذت خمسة عقود من السنين لا أكثر ، بدأ سيلها يتدفق على الشرق منذ نحو منتصف القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الحين لم تزل

(١) مرادنا بالتغرب التخليق بأخلاق الفرنجة ، والتشبه بهم ، وأخذ أخذهم ، في طراز المعيشة وأساليب الحياة ، ويشمل ذلك المحسوس ، كاستعمال صنوف الألبسة والمستحدثات ، والمبني كالتقاسم الافسكار والآراء الاجتماعية والسياسية ، والتغرب خير كلمة عربية رأيناها لتعريف اللفظة الانكليزية المذكورة

— (المغرب)

وسبلها وأسبابها تنشر وتنتشر ، تلك كالطرق والممالك الحديدية والبرق والكتب والصحف والمجلات ، وكثير من جديد الآراء والأفكار الثورية الآتية من كل عصر شرق ، وابتدأت السفن التجارية تنحصر عباب بحر الشرق ، وترجو في كل أمر من أمور ، وطافت التجارة تمتد ناشرة وفر البضائع والأرزاق الغربية في كل بقعة من بقاع الشرق ، فمثل ذلك تغير الحال تغيرا سريعا ، فلأهم والشهوى التي طالت حتى منتصف القرن الماضي تحيا حياة الثلاثين قرنا التي كانت من قبل ، غدت اليوم تقرأ الصحف ، وتركب القطار السكك الحديدية في مفاصلها ومراحليها ، وانقشعت الماديات والأفكار والتقاليد الشرقية القديمة انساخا كاد يكون تاما ، وتبدلت صور اشياء وأساليبها تبديلا كبيرا ، وسفصل الكلام في الفصول التالية على ماهية سيطرة الغرب على العالم الاسلامي من جميع وجوهها ، جاسلين الكلام في هذا الفصل تمهيدا لما سيأتي .

إلى أن قال : « ظلت روح النداء الغربي طيلة القرن الماضي تشتد في مكان ومكان على تفاوت ، ولما كانت عوامل التعصب ورد الفعل كائنة على الامم ، فما برح السكره للغرب شائعا عيما . بيد أنه (على توالي الأيام) صار موقف بعض الطبقات من الأمم الشرقية يتبدل ويتغير على مقتضى الزمان والمكان ، وقد كان الأحرار المسلمون في بادئ الأمر يتقبلون المؤثرات الغربية أحسن قبول ، وقد أسلفنا الكلام في الفصل الأول من هذا الكتاب : كيف اعتزم المسلمون الأحرار اتخاذ القواعد التي جرى عليها الغرب في تقدمه وارتقائه ، وجعلها أساسا للقيام بما أنشؤوه من الإصلاح الاسلامي باعتبار حقيقته : الدينية ، والمدنية . فقد جهدهم سياسة تركية الأحرار الذين كانوا يدبرون شؤون المملكة في الربع الأخير من القرن الماضي جهدا كبيرا للقيام بالإصلاح في السلطنة العثمانية ، وجهدهم أحرار غيرهم مثل جهدهم في الأقطار الاسلامية الأخرى في سبيل الغاية عينها ، وخير مثال لنا على هذا هو ما به له القائد خير الدين باشا في سبيل اصلاح تونس ، وإلى القارئ الكريم لباب الخبر : إن هذا القائد المقام ، الباركنسي الأصل قد استطاع أن يكسب ثقة مولاه الباي ، ويمكن عنده تمكنا كبيرا ، فاستوزره وسلم إليه مقاليد الامور ، وفي سنة ١٨٦٠ قام خير الدين باشا بسياسة إلى أوروبا ، فملأ في محاسنها ، وشاهد دور عمراتها وحضارتها ، وعاد شديد التأثر من بواهر الغرب وعجائبه وإذا اقتنع بتفوق أوروبا وسيادتها شاء من صميم قلبه أن ينقل إلى تونس من الغرب الخطط والمناهج والأساليب والآراء مستعينا بها لانهاض البلاد واستعادتها ، واعتقد أن هذا العمل سهل القيام به قايما يثاوه بتجدد تونس في عهد قريب ، ولم يكن خير الدين بغيضا للغرب ، غير أنه قد أيقن كل الايقان بالخطر المقبل النازل الذي سيحقيق بالعالم الاسلامي ، خطر السيطرة والاستعمار متدفقين من الغرب إذا توانت الممالك الاسلامية في الإصلاح الصحيح ، فراجع خير الدين يدتقي شديد الابتغاء ، وملء صدره الوطنية الصادقة ، وكاه عزم أكيد أن يسوق أهل بلاده ، وبني قومه في طريق التجدد والعلا والارتقاء ، ليبانوا من ذلك مستوى تستطيع عنده تونس أن تنمى كيانها ، وتقوم بالزيادة عن حياض حريتها واستقلالها ، واقتنع الباي كل الاقتناع بآراء خير الدين وخلفه مشروعا ، فدوّن في حيزه تنظيم شؤون البلاد ، وأطلق يده لاتخاذها بد في القيام بضروب الإصلاح ، فظل خير الدين حقبة من الزمن يجهد ما استطاع في هذا السبيل ، مدلا جميع ماله من المقاومة من قبل الموظفين الرجعيين ، غير أن مديته عاجلته باكرا ، فانتقل إلى جوار ربه ، تاركا مشروعاته الكبرى دون الانجاز ، فلم يمض على وفاته أكثر من عشرين سنة حتى جاءت فرنسا فبسطت سيطرتها على تونس ، وكانت خدمة خير الدين لبلاده على كل حال عظيمة جليلة ، منها أنه ألف كتابا قويا موسوما « بأقرب المسالك في معرفة أحوال الأمم والممالك » (١) استشهد في فيه هم أبناء بلاده ، واستفززهم إلى التجدد والترقي ،

(١) يوجد شيء من النقص في تاريخ المرحوم خير الدين باشا التونسي الذي كان من أوائل المصلحين

وسائرهم من سوء همتي التواني ، فكان كتابنا هذا أنشأه تأثر في نفوس الأحرار ورجال الأحزاب الوطنية في الشرق الأدنى عامة ، وأفريقية الشمالية خاصة ، حيث كان الكتاب يشد من أهدال تونس والجزائر ، إذ كان باعثا قويا على استيقاظ العربية الجنسية ، فبعد استعمار خيبرالدين يعني توفيق لتعليم الأتلال القديمة ، وبسط لهم ضرورة الافلاج ، من افتخار الفارغ ، مجد الماضي ، انتخارا بالفاحد القصور بهيم من استئناف طلب العلاط ، يفا ، ودعاهم الموقوف على ما في العالم الغربي من وسائل التقدم وذرائع العمران . وهما أكده في كتابه هذا أن ارتقاء أوروبا وحضارتها في هذا العصر ليسا نازلين عليها عتوا بلانصب ، ولاهما منحة بجات بها الطبيعة لأسباب دقيقة ، بل هما ثمرة التقدم في الفنون والعلوم ، واكتناه أسرارها استنها توفرت معه وسائل الثراء باستخراج كنوز الأرض ، وإحياء الصناعة والزراعة والتجارة . وجميع هذا إنما هو نتيجة استقرار أممهم وسيادتهم في آفاق الممالك الغربية لاثالث لهما : العدل والحرية . وقد كان العالم الاسلامي في الاجيال الماضية عالم التقدم والافلاج والعمران ، لأنه كان في محبوحة من الحرية ، سالكا سبل الترقى والتجاح ، ثم أفلت شموسه فأخذ يتخبط في الدجائن . وما زال هكذا حتى أخذ الآن يستعيد من روحه التي كانت فيه من قبل ، روح الحرية والعمل والارتقاء .

ثم قال : « وقد اشتدت روح العداء للفرب واشتعلت نارهة أمة اشتعال منذ أول القرن الحالي . قل أحد عظماء المسلمين قبيل الحرب العامة في هذا الصدد : « إن هذه الدواهي التي دعغنا ، والنوازل التي نزلت بالعالم الاسلامي خلال العشر السنوات الأخيرة ، قد جذدت في أعماق جميع المسلمين عواطف التآخي والتواثق الاسلامي ، من حيث أشعلت مدورنا مقنا وكرها وعداء للبغاة المعتدين علينا » .

إلى أن قال : « بقيت الحقيقة الثابتة ، يجب أن نقال : إن سيطرة الغرب السياسية على الشرق وإن طال أمدها ما طال ، وتبدلت صورها وأشكالها ما تبدلت هي قائمة على أساس متداعي الأركان ، متضعع الجوانب سريع التقوؤ والتزلزل ، وما دام المسلطون الغربيون في الشرق فهم فيه أجانب غرباء ، قد يلقون من الشعوب الشرقية شيئا من الاحتمال والاحترام الآخذين بالتناقص ، ولستكنهم لن يلقوا شيئا من الودة والمحبة والاخلاص ، ولاغربة في الأمر ما ظلت منزلتهم أبدا دنلة السخيل الغريب ، المهقوت المكروه ، زد على هذا يجب بالضرورة أن يأخذ الحكم الغربي والسيطرة الغربية يتناقصان ويتقلصان ظلا ، ويخفان وطأة بازدياد تقدم الشعوب الشرقية واتساع نطاقها في الارتقاء . ولايعز بن عن البال أن الذي كان عند أهل جيل سالف داعية للرضا والارتياح قد غدا عند أهل الجيل التالي سببا للتجهم والنقمة والاضطراب فييتفون تبدله والانتقال إلى ما هو خير منه وأفضل ، هذا هو من أسباب الانقلاب السريع في الشرق .

الاسلاميين في القرن الماضي ، وكتابه « أقوم المسالك » هو من خيرة ما ألف لكسري قيود الجود الضار القاتل ، وحطم سلاسل التقاليد الأعمى المنهى عنه في الشرع ، وإيقاظ المسلمين إلى أنهم إن لم يبادروا إلى التسليح بالعلوم والصناعات العصرية دهمهم خطر السقوط العاجل ، فجاءت دعوة خير الدين متأخرة ، إذ كان تكالب أوروبا شديدا ، وضربها وحيا ، وسبات الاسلام لايزال عميقا ، فتمّ جميع ما تكهن به خير الدين ، ولما استورات فرنسا على تونس رحل خير الدين إلى الاستانة ، وولاه السلطان عبيد الحميد الصدارة العظمى ، وانتدبا إياه لاصلاح المملكة إلا أنه لم يهمل برأيه ، فاتهى الامر بإقالته ، وبقي في الاستانة إلى أن توفي وذلك في نحو سنة ١٨٩٠ وخلف طاهر بك ، وهو من الأدباء الافاضل ، وصالح باشا الداماد الذي شقه الاتحاديون بتهمة انه دبر مؤامرة لقتل المرحوم محمودشوك باشا ، وتشفع به السلطان ساكن الجنان محمد الخامس لديهم ، لكونه زوج ابنة أخيه أي صهر الأسرة المالكة ، فلم تثر شفاعته ، وخير الدين باشا أيضا ولد اسمه محمد بك ، وهو وأخوه طاهر الآن بتونس اه

( شكيب أرسلان )



« عل أن السيطرة السياسية الأوروبية على الشرق قد شرعت تهوى ، وأخذت أوصافها تتشكك ، و بناؤها يتسارع ، ووضعتها السكامن فيها يبدو مزدهرا ، وفسادها يظهر . جميع ذلك منذ الحرب الروسية اليابانية ، فقد كان لتلك الحرب في نفوس المشاركة قاطبة من التأثير المعنوي الشديد والاستطلاع وصفه ، ولا يعلم حده ، وقد ظل الشرق حتى ذلك اليوم لاحول له ولا قوة حيال أوروبا المعتدية عليه ، وكان كثير من الشرقيين حتى عهد تلك الحرب يقولون بأن لامناص لبني أوطانهم من الخضوع لسيطرة الغرب المسلحة خضوعا مشروما ، غير أنه لما دمرت دولة أسيوية دولة أوروبية من الطراز الأول ، وخصمت شوكتها ، ودقت عنقها دقا ، كان لذلك دوى هائل ووقع عظيم في كل جانب من جوانب المشرق ، ورقة من رقاعها ، فادت آسيا وأفريقيا من أقصاهما إلى أقصاهما طربا ، وجرت في عروقهما نشوة الظفر وجيا النصر ، وعنتوا الانتصار الياباني العجيبة العظامي ، والآية الكبرى : وصف مبشر اسكتلندي ما كان هذا النصر المبين من شديد التأثير في نفوس سكان الهند الشمالية حيث كان مقامه فقال : « قد اهتزت الهند الشمالية فرجا وابتهاجا ، وترنحت ترنج التل الجذلان ، وبات القرويون فضلا عن أهل المدن والخواضر يرددون أحاديث النصر الياباني في حلقات مجالسهم ومجتمعاتهم و يرتلون ترنيلا ، طوافين الليل كله حول المعابد وأهيا كل ، وقد قال لي أحد شيوخهم في تلك النضون : « لم تتلق الهند نبأ طابت له نفسها مثل هذا النبأ الياباني منذ الثورة الهندية ، وأخبرني قنصل عثماني أقام طويلا في آسيا الغربية أن الأهالي في داخل البلاد تركوا جميع أعمالهم ، وجمعوا لاهتمون بأمر سوى ارتقاب الأنباء اليابانية وتلقيها والتهليل واقامة محافل الأفراح لها ، أجسل : مادت آسيا من أقصاهما إلى أقصاهما ، وانقلبت هجمة القرون استيقاظا ، فاستيقظت الحياة ثانية في الشرق تواقفة لمقامرة الأهوال في سبيل بقائها ، وهبت آسيا هبة أخرى لتسطر لها في التاريخ ذكرا جديدا ونبا حديثا » .

ومما لا يحتاج إلى برهان أن الحرب الروسية اليابانية لم تكن الخالقة المبدعة لهذه الروح الجديدة في الشرق ، الروح الممتدة أصولها إلى أبعد الأزمنة الخالية ، والمصاحبة لجميع الأدوار والعصور حتى اليوم ، بل ان الحرب هذه إنما كانت وسيلة عارضة لاعلة في نغمة آسيا وأفريقيا نغمة الاعتزاز ، فراحنا منذ سنة ١٩٠٤ تجدان جد الوائق بنفسه ، الساعى في مطلب أمر لا يلوى على شئ « دونه » ، وبسبب هذه الحرب طفقت الأفكار التي كانت تتمخض في أدمغة الملايين من أهل الشرق تمخضا لم يشعريه من قبل تمام الشعور ، تخرج من عالم القوة إلى عالم الفعل ، فدل جميع ذلك دلالة واضحة لا يسع مكابرا انكارها على اختار الأسباب والعوامل ، وتهيؤ العال لا لبثاق قوى جديدة في الشرق ، هي حركات التجدد الكبير والانقلاب العظيم .

أضف إلى ما تقدم أن هذا الشعور والاستيقاظ قد أثرا تأثيرا عميقا في قضية الشرق وتطورها إزاء سلسلة حملات الاعتداء الأوروبي التي استؤنفت منذ ذلك الحين استئنافا شديدا ، ومن الغريب العجيب أنه بهيد أن ظفر الشرق الأقصى في رد عادية الاعتداء الأوروبي عليه ذلك الظفر الكبير ، لسرعان ما أخذت حملات الاعتداء الأوروبي تنوالى على الشرقيين الأدنى والأوسط ممزقا بينهما بمخالب الوحشية والبربرية شر ممزق ، وقد وصفنا فيما تقدم من الكلام تلك الزارة الهائلة التي زارها العالم الاسلامي متماسك الوحدة المعنوية ، مترابط العروة الأدبية الفريدة المثال ، عند ما أنشأت السياسة الأوروبية الحديثة تنقلب غاية في الجشع والنهم فلذلك جدير بنا الآن أن نهلم علما صحيحا مبلغ ما كان لظفر اليابان من عظيم التأثير في هذه الحالة الحديثة الظهور العجيبة في جميع الأقطار الشرقية ، من العلوم أن الشأن الخطير الذي مثله الساسة الغربيون الفلاة أصحاب مذهب الفتح والتوسع الاستعماري بين سنة ١٩٠٤ و ١٩١٤ م إنما كان في دور عصب . قال أرمينيوس فامباري بعد غزوة ايطالية لطرابلس الغرب قولاً سيديدا : « كلما اتسع نطاق قوة متسلطة الغرب

في العالم القديم (الشرق) ازدادت رابطة الوحدة وثيقة، وبرزت الخطايا بين الكنائس الأمم والشعوب الآسيوية على اختلافها، ورسخت روح النقص في أوروبا، ولهذا كانت وراء ذلك في قرارات صدور الميثاق، أيما رغبت في أمن العالم، والى ما يرى أن ذلك هو الأساس، وإذا تأريخا وإيقادا بسبب هذه الحملات الدينية الحسنة التي بالقرن التاسع عشر، وأن يستعمل المسلمين الشرق والغربي للارتباك في نضالهم، وبمعان رائج، وأن ذلك مما زعما في برعم الحضارة الآسيوية الحديثة، هذا البرعم الذي أخذ يتفتح عن أكنانه في أقطار الشرق كافة.

وقال في صفحة ٥٩ وما بعدها ما نصه: «وتدسبني لنا في مواضع قدسية، فبنا كيف تهاجر العرب يستعملون بنار الاسلام فأنشأوا خلافة منيفة الجوانب، فبنا عهدنا الأول على أساس الشورى، والمشرية الدينية، وأرخنا أيضا كيف طرأ الاستبداد على الأول، ثم أخذ ينقسم حتى طبق غالب العالم الاسلام، وكيف انقلب الخلافة الشرعية الشورية ملكا عوضا، وسلطنة استبدادية مطلقة، وكيف أخذ العرب (هشاش الحرية والاستقلال) يسودون أدراجهم إلى الصغراء غنصا متجهمين، وكيف تلاشت الحرية السياسية والدينية، وعفت آثارها، غير أنه على كل هذا بقي معظم ذكريات خلافة الراشدين والمعتلة الحرة، حية في زوايا الأدمغة، وألواح الذاكرة، مستعملة استبدادا طبيعيا غريزيا للظهور ثانية. بسبب ذلك ظلت بلاد العرب حوض حرية يندود عنه كل عربي ذياد قرح الأبطال بالسلاح والأرواح والسماء، وهناك في شبه الجزيرة لم يرح العرب عربا والاسلام اسلاما، فن ترى يستطيع أن يتعاضى عن القول الذي قاله صاحب الرسالة: «إنما المؤمنون اخوة» و «المسلمون أحرار» وعمما هو مدون في صحف التاريخ الاسلامي في غرر أنباء صدر الاسلام الحبيب المعروف «بزمان السعادة». أول يظل المسلمون الأحرار، النازعون نزعة الاستقلال، حتى في أشد الليالي ملكا، يرددون عاليا خطبة الخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه التي خطبها في العرب بعد مبايعته بالخلافة: «قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإذا استقمتم فأعينوني، وإذا زغمت فقوموني». فلا سلام في هذه الأول إنما كان شمس الحرية مشرقة وهاجة، ودينا تجلت فيه المنازع الحرة الشريفة، وليس ما طرأ على العالم الاسلامي فيما بعد من الوهن والتدلي يحتاج عن المنصف جوهر الاسلام وحقيقة صفاته، فالشريعة الاسلامية كما قال العلامة ليسبار: «إنما هي ديموقراطية شوروية، جوهرها وأصلها وعدو شديد للاستبداد». وقد أجل قاسباري هذه الحقيقة في شأن الاسلام بقوله: «ليس الاسلام ولا تعاليمه السبب المفضي بآسيا الغربية إلى هذه الحالة المشهودة من التضعف واختلال الشؤون، ولكن السبب كل السبب في ذلك إنما هو استبداد أمراء المسلمين وحكامهم الذين التوا عن الصراط المستقيم والسبيل السوي، وتنكبوا عن طريق صاحب الرسالة وخلفائه الراشدين، فأخذوا في التسلل والتآويل القرآنية اتصالا منطبقا على أغراضهم الاستبدادية، وتشددوا في الدين تشددا باطلا برى منه الاسلام (٩)، ونادىوا المذاهب الشورية

(١) من أكبر المسئولين عن الخطايا الاسلام أمام الله والناس هم هذه الطبقة التي يقال لها العلماء، فانهم إلا النادر منهم اتخذوا الدين معيدة للدين، وجعلوا دينهم الترف إلى الأسماء بتسويغ جميع موبقاتهم بالأدلة الشرعية والافتاء عليها من الدين، وقاما أي أحد الملوك أو الأوصياء المستقبين عملا منكرا إلا أنواله من الآيات والأحاديث بما يثبتون له به مشروعية ذلك العمل بصرف الآيات الكريمة عن معناها، وتحريف الكلام عن مواضعه، ورواية الضعاف والموضوعات إلى غير ذلك من الاستشهادات التي يتوخون بها الزلفى والجائزة، وما زالوا يتمادون في غيهم هذا (والعلماء غاضون النظر عن لغتهم هذا) حتى صاروا يتقربون بهذه الأشياء نفسها إلى الحكومات غير المسلمة في المسائل التي فيها حجاب الاسلام وهلاكه، فكلمها سقطت ملكة اسلامية في يد دولة أجنبية، أو نهضت أمة اسلامية لدفع دولة عادية عليها من الأجانب، وجدت الدولة

والإصلاح الحزبة المصماء ، ففقدوا على جميع ذلك قضاء ، فحاولوا دوزخ في النهضة الإسلامية (١) .  
وقد أبتاز في العمل الأول من هذا الكتاب كيف ظهر الاستبداد الشرقي ، ثم أخذ يتعاطى حتى بلغ منتهاه  
في القرن التاسع عشر ، وبسطنا الكلام على أن اليقظة الإسلامية لم يكن أمرها مقصودا على الإصلاح الديني  
فحسب ، بل تنامت الإصلاح السياسي أيضا ورامت تخليص العالم الإسلامي بأسره من استبداد أمراءه وملاكه  
وسلاطينه المسفة الظلمة ، ونقول الآن : أنه بينما كان الإصلاح السياسي الحر سائرا مسيرته على اتساع في  
الحركة والانتشار ، فإذا بقيار سياسي جديد قد هب عليه من جو أوروبا ، فاعترض سبيله وقام في وجهه ،  
وكان أهل الفكر والرأي من المسلمين وقد أبتزوا بحال تضعض الشرق الإسلامي وتشقت أمره حيال تقدم  
أوروبا وشدة محوطها وبأسها ، طفقوا يسعون وراء الإصلاح ، متذرعين بأنجز التراجع للوصول إليه ، وإذا  
راموا صدق المسعى ، وابتغوا التجديد الخلق فلم يعرب عن باهم أن باوى الشرق الإسلامي إنما غالبا مستقر  
في حكوماته المنسطة الناحية الراهنة العظم ، وشارك الأمراء الحكام أهل النكر وطلاب الإصلاح في هذا ،  
وكاهم أجهرا على وجوب انتزاع المناهج والأساليب السياسية الغربية ، واكتفاء أساليبها ، والوقوف على  
جميع أسرارها ، هذا إذا كان مرادهم حقا انقشال الممالك الإسلامية من وهدة انحطاطها ، وتنجيتها من شر  
الممالك ، ثم سوقها في سبيل التقدم والارتقاء ، وقد كان السلطان العثماني محمود الثاني في تركيا ومحمد علي في  
مصر خير مثالين ظهر بالطرأز الجديد من سلاطين الشرق وأمراءه ، وكلاهما كان حكمه في أوائل القرن  
التاسع عشر .

غير أنه ليس منهما من أراد أن يمنح رعيته الحرية الدستورية ، أو أن يربأ بنفسه عن امتطاء الحكم  
المطلق فيخرج عنه إلى الحكم المقيد ، بل عول كل منهما على أن ينال "الحاكم المطلق" بحيث يكون فيه  
وسطا بين حالة المستبد بين العاديين الأوروبيين ، والمستبد بين الشرقيين ، وكان قصد هذين الحاكمين المكبرين  
طامعي التقدم والنهوض ، تنظيم الحكومة في الجيش والخدمة المدنية والقضاء وغير ذلك ، تنظيما صحيحا خاليا  
من المفسدة والعيب : كما يتسنى للحكومة هذه أن تدير (بنفسها وفعل نظامها) سيرا مطردا كسائر الحكومات  
الحرية ، لا أن تظل كساية عن طوائف من الموظفين والعمال لا يعرفون شيئا من رقابة النظام ، ولا يقومون  
بواجب إخشية العقاب .

وثابر محمود الثاني ، ومحمد علي ، ومن عاونهما على ذلك من الأمراء على انتزاع منهج هذه السياسة

الأجنبية من هؤلاء العلماء أسرع الخادمين لأغراضها والمقتدرين من الكتاب والسنة بزعمهم على مقتضى أهوائها ،  
وحسبك أن عددا عديدا من علماء سورية أفتوا أثناء الحرب العظمى ببغى الشريف حسين أمير مكة تقربا  
إلى جمال باشا قائد سورية يومئذ ، فلما فازت دول الحلفاء في الحرب ، واحتلوا سورية ، بايحت هذه الفئة  
نفسها الشريف حسين الذي كان عندها من قبل باغيا خارجا على الخليفة ، ثم لما دخل الفرنسيون الشام  
نفضت أيديها ثانية من صاحب الحجاز ، وجهات تقى بحسب هوى فرنسا ، وعبدت الملك حسين أجنبيا .  
أكثر هؤلاء العلماء برز منهم هذا النور ، وكأما عابهم الإنسان على هذا التذبذب أجابوه : « إنما هذه  
تقية نبتى بها النجاة من الظلم » ، والاصحیح أن عندهم غير مقبول ، وأن عملهم هذا مخالف للشرع ،  
مناف للكتاب والسنة ، وأن دعواهم مداراة الظالم هي باطلة ، بل هم باعة ضمائر ، ورواد سفاسف وطلاب  
وظائف . هذا يريد أن يكون قاضيا ، وذلك مفتيا ، وذلك رئيس علماء ، ومنهم من يقبض أجرة أمضائه نقدا  
دراهم معدودة ، ولا يعلم إلى متى يهمل أهل سورية عن تأديب هؤلاء الجهلاء المغممين ، وينظرون إلى العزائم  
لا إلى العمام اه



الرشيده الحديثة ، غير انه على الجمله كانت ثمرات هذا الإصلاح الذي بدأى بمالبه وظاهره قبل أساسه وباطنه غير مرضية ولا داعية للارتياح ، ولا يجرم فانه قد كان في استطاعة السلطان أو الأبرار ابتداء الإصلاح ، وإنشاء الدوائر والمؤسسات الحكومية على الداراز الأوروپي ، ومشاغها بالجنود ورجال الوظائف والأحكام المترين بأزياء غربية ، غير انه لم يكن بالمستطاع الانيان بتعبئة مثل تلك التي تأتي بها الحكومات الغربية ، لأن معظم هؤلاء الموظفين المظاهرين بسفة أبناء الغرب يكادون في الواقع لا يسمون شيئا من أسرار تقدم الغرب وارتقائه ، وأسباب حضارته وعمرانه ، فذلك كانوا عجزوا عن القيام بالأعمال على الطريقة الغربية الصحيحة لأنه ليس فيهم الكثير الكافي من روج الاقسام والمضي في العمل ، ولا هم يقبلون من أنفسهم على اتباع نظم وأساليب عملية لم يفتهموها ، ولا ألفوها ، بل كانوا يحملون نفوسهم على مؤالفة الأعمال الإصلاحية عن فتور وترائح ، وخير ما كانوا يعرفونه ويتصورون به هو العلة العماية لأمر مولاهم وسلطانهم ، هكذا كانت الحالة في بدء الأمر . بيد انه على توالي الأيام أخذت القوى العسكرية تنظم معنى ومادة على تدرج مستمر حتى غدت بعد مدة من الزمان على جانب من الكفاية والجدارة الحديثين ، وأما الخدمة المدنية فكان نصيبها من الإصلاح الحديث قليلا ، فظل أمرها مقصورا على اكتساب المظاهر الغربية من خارج لانها لم تزل كثيرا من أسرار المعاصرة والجلية التي هي شرط لازم في حال كل حكومة منضامة راقية .

أضف إلى هذا أنه في غضون ذلك طفق المصلحون الجدد الذين يختلفون مذهبا وطرزا عمن سبق ذكرهم يقومون أحزابا مؤلفة ، وغايتهم إنما هي اقتباس جميع المبتكرات السياسية الغربية كالنظام الدستورية وحكم الشورى ومجائس النواب وغير ذلك مما باتت تتطلبه الحياة السياسية الحديثة بطبيعة الحال ، وكان عدد هؤلاء يزداد ازديادا متواليا من المتهذبة الأحرار المتشبعين أفكارا وآراء غربية ، اقتبسوا بعضها بمطالعة الكتب والنشرات والصحف والمجلات المتزايدة الانتشار ، وبعضها الآخر تلقوه بأسباب التعلم والتهذيب في المعاهد العلمية المنشأة على الطراز الغربي ، وما كاد يكون الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى نشأت الأحزاب السياسية في تركيا نشوءا محسوسا ، وفي سنة ١٨٧٩ هبت الأحزاب الحرة هذه ورفعت صوتها عاليا ، وأكرمت السلطان الضعيف على منح الدستور . انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » هذا أيها الذكي ما قر في صدرى في تفسير قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » وهذه صورة ملخص هذا المقام : —

(أولا) ونعم نعمته عليك ، وهي رضي الله عنهم ورضوا عنه	(ثانيا) الهداية العلمية النبوية التي استمدت منها الأمة إلى هذه الزمان ، وهي قوله وبديك صراط مستقيما	(ثالثا) النصر وعاق هذا الدين بالجنة على سائر الأديان ، وهو : « وينصرك الله نصرا عزيزا »
--	---	---

انكشاف الحقائق ويتفرع عليه

اشراق النفس وهو  
أسّ انكشاف الحقائق

ينتج منها

« ليغفر لك الله ما تقدم من  
ذنوبك وما تأخر »

## بهجة هذا المقال

### مسامرة النجوم ، في عجائب العلوم

استيقظت قبيل الفجر ليلة الثلاثاء العاشرة من شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ م - الموافقة سنة ١٣٥٠ هـ وقد قدمت « سورة الفتح » للطبع ، وأنا مفكر في عجائبها ، دهش من بدائعها ، إذ صنعت لي ساحة ، من نظرات النجوم ، في حالك الليل البهيم ، فأشرفت نفسي لإشراقها ، وأخذت الخاطر يبدو بعد الخاطر ، ونما الفكر حتى صار قويا ، ويستمرّ ينمو حتى تخيلت أمي بشرا سويا ، جسمه من النور ، وأنا إذ ذاك بين اليقظة والنوم ، إذ صرت في عالم الخيال ، بعيدا عن الحس ، مصروفا عن عالم الأجسام ، فأخذت يحاورني وهو يقول : لقد لمحتك تنظر السكواكب الآن ، وأنت تفسر القرآن ، فحضرت لمعونتك ، وذهلت لأفادتك . لقد فسرت الفتح بالكشف العلمي ، وجعلت ذلك أشبهه بشجرة ذات أغصان ، جذورها الفجرة والبراءة من الذنوب ، وصفاء النفوس ، وساقها انكشاف الحقائق ، وفروعها الاستقامة بالأخلاق ، والنصر المبين والرضوان أفلا أحدثك الساعة في هذا المقام حديثا ، تكميلا لتألك ، وتعلما للقرآن : إن هذا المثل الذي ضربته وهي الشجرة ينقصه تبيان أتم ، وتعليم أعم . فقلت في نفسي متعجبا : من أين أقبل هذا الخيال ؟ وأهل خواطرننا إذا نمت وعظمت تجسست أمامنا ، والا فهذه الخواطر لا تخرج عن تفكيرى ، ولا تحود عن تقديرى ، فما كاد الخاطر يتردد في نفسي حتى أخذ يقول : إني أتيت إليك من الثريا في السماء ، لأنك في أكثر الليالي تنظر إلى النجوم ، وتجب من محاسنها ، فصار ذلك من أسباب اقترابى منك ، واسهادى لك ، وحديثى معك ، إن انكشاف الحقائق الذى ذكرته وماترب عليه من الفروع المذكورة يبرزه من العلم نوعان : أولا تطبيق آراء الأمم الحاضرة عليه ، لىكون تفسير القرآن في زمانكم ملائما لعلوم أئمتكم حتى تقبل على علومهم الموافقة للإسلام نفوس الأمم الإسلامية ، وحتى يكون من المعجزات والآيات البينات في زمانكم ، وكم قال علماءكم « ان القرآن لا تنفى عجائبه ، ولا تنقضى غرائبه ، وتبدوله في كل زمان حكم طريقة ، وبدائع حديثة ، تزداد معجزاته ، ويزداد أنس العلماء به » - (ثانيا) تطبيق أحوال الأمم الإسلامية الماضية بعد العصر الأول ، وكيف حصل اختلاطها ، وازداد اختباطها ، وأقبل هرهها ، وأدبر شبابها ، وحلك ليلها ، لما عمت عن اكتناه السرّ المسكنون ، واتباع طريقه المرسوم .

فقلت : أيها السيد الجليل الجليل : إن في قولك لنورا ، وفي حديثك لنبا ، فأفدنى رحلك الله عما وصفت ، وأخبرنى عما أفدت . فقال : أما تطبيق آراء الأمم حولكم فأنا أقتله لك مترجما بالحرف مما كتبه الغربيون في التعاليم لتلاميذهم ، إذ يصطفون من العلم زبده ، ويجمعون تلك الخلاصات في كتب المطالعة ، وهى هذه قطعة لحسن فيها القوم مقاصد التعليم في جميع الأمم ، وفي كل زمان ومكان ، والكتاب الآن بين يديك وهو من الكتب التى يدرسها التلاميذ في المدارس الثانوية ، فهناك قطعة من الكتاب منقولة من كتاب (مان ذى ماستر پيس) تأليف الاستاذ (كلوج) وهذه القطعة من مخنارات الترجمة ، فهأنا ذا أترجمها لك

### مقاصد التعليم

« إن مقاصد التعليم لا تعدو أن تكون معدة المرء أن يستخرج جميع مواهبه في الحياة : يجب أن يكون تعليم الانسان الذى يزاول الأعمال الجسمية معدا له أن يكون كفتا لها جديرا باستثمار ما هو بصدد من الأعمال الانسانية ومرافق الحياة خير استثمار . إن نظام التعليم يقوم على ثلاث دعائم وهى : دعامة العقل ،

ودعامة الأدب ، ودعامة الجسم . وكل نظام تعليمي خلا من أحد هذه الدعائم الثلاث فإنه لا محالة مضمحل لا بقاء له ولا نفع فيه لنوع الانسان ( مثال ذلك ) : إذا علمنا النبي صناعة كالجارية ، أوعلمنا كالمهندسة ولكننا لم نمنح فيه قوة حب الخير العام ، فيحب الصاق ، والاخلاص ، وطهارة الضمير ، والصلاح ، والعدل وصدق القول ، وحب المنفعة للناس ، ومعاشرتهم بالحسنى ، فأننا إذ ذاك نكون قد أعطينا سلاحا ماضيا به يصبح مائرا في إحداث الشغب ، ويكون ختلرا على المجتمع الذي تربى فيه ، وهكذا إذا برع في العلوم ، وتميزت نفسه وملاكمها ، وصار من البررة الأخيار ، فإن كان في العلم فهم من أعظم الحكماء ، وإن كان في الأخلاق فهو على سنن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، ولكننا أغفلنا تربية جسمه ، ولم ننقو عضلاته ، ولم نحسن تقديته بما يناسبه ، ولم نحكم بما يكون ضررا عليه ، فإن هذا يعوزه قوة طبيعية ، وأخرى حيوية ، ليتوصل بهما إلى منافع الحياة والتمتع بها ، ويعوزه جسم حديدى هو بلا صراء في أشد الحاجة إليه لينحاط به ويجهد في معترك الحياة » انتهى

ثم قال : فهل لك أن أحدثك عن تطبيقها على الآية . فقلت : إني إلى ذلك وامق . فقال : أنت حينما كتبت الجدول الذى رسمته فى ملخص الآية وجدت أنه هو نفسه هذه المقالة ، لذلك حضرت إليك ، فاتوة العالمية من القوى الثلاث يشار إليها بانكشاف الحقائق فى الآية ، والقوة البدنية يشار إليها بالصر على الأعداء : « وينصرك الله نصرا عزيزا » . إذ لا يكون إلا بقوة البدن ( فى الفزوات ) ، والقوة الأدبية الأخلاقية يشار إليها بقوله : « ويهديك صراطا مستقيما » . إذن خلاصة تعليم الأمم المحيطة بكم اليوم هى نفس هذه الآية ، فقوة الجسم ، وقوة العلم ، وقوة الأدب ، هى المعول عليها فى زمانكم .

ثم ضرب مثلا ، فقال : إن الأمم الإسلامية أشبه بجسم واحد رأسه فى زمن النبوة ، ورجلاه فى الأزمان المتأخرة . فهذا الجسم الإسلامى قد أعطى القوة الجسمية بدليل غزواتهم ، وأعطى القوة الأدبية بدليل نظام معالمتهم ، وأعطى القوة العلمية وهى الدين والعلوم فعاشوا إلى حين . ثم أخذ هذا الجسم يضعف شيئا فشيئا ، وأخلاقه تنحط ، وعلمه ينقص . وههنا أن أن أذكر :

### تطبيق الآية الثانى على الأمم الإسلامية

إن هذا الجسم الإسلامى أخذ يرجع القهقري شيئا فشيئا ، فانظر كيف يقول ابن خلدون فى مقدمته ما خلاصته : « ان هنا أمرا أصليا وله فروع ، أما الأصلى فهو الدين ، فإذا رأيت أمة أو أسرة تحب أهل الصلاح والتقوى والدين ، وتغرم بذلك ، فإن هذه الخصلة يتبعها فروعها ، وهى الأخلاق الفاضلة من العطف والشفقة ومساعدة المجزة الضعاف ، والفقراء ، والعدل . ويقع ذلك سياسة الأمم ، وحفظ الدولة ، ونظام البلاد ، وهذا قانون لا ناقض له ، فإذا رأيت قبيلة أخذ يرجع القهقري فى سياسته ، فابحث فى أخلاقه ، فإنك تجد العطف والشفقة والرحمة والعدل قد أفل نجمها ، ثم ارجع وراء ذلك تجد العقيدة الدينية أخذت فى الانحلال ، وأصبح القوم ينظرون إلى الدين نظرا غير محببة ، فلا يحبون الصالحين ، ولا هم لهم يعظمون . إذا علمت هذا فانظر كيف يقول : « إن المسلمين لما قاموا فاتحين بالدين ، واستمسكوا به ، بقى ملكهم ، فلما خلعوا ربقته ، تقلص ملكهم ، وذهبت ريحهم ، وأصبحوا حصيدا خامدين » ، فالكلام على الدين ، ومعه العلم طبعاً هو القوة العلمية ، والكلام على رجة الضعفاء والعدل إلى آخر ما تقدم هو القوة الأدبية ، فأما القوة الجسمية فإن لها شأنا آخر ، وهو كلام النبوة ، وذكرته أنت فى ( سورة النمل ) عند الكلام على آية : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزاً أهلها أذلة » مع آية : « فذلك بيوتهم - خاوية بما ظلموا » إلى آخره .



فهناك أولا حديث : « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا » الخ وذكر هناك أن بقية الحديث في (سورة الأنفال) إذ صرح ﷺ بأن الفناءم وفتوح البلدان وإن كان خيرا للنفوس الصالحة فإنه يكون شرا للنفوس الفاسدة الجاهلة ، فإن نفس الفناءم تسكون سببا للترف والنعيم ، ثم يعقبه الذل (ثانيا) قال ﷺ : « كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في أخرى ، ووضع بين يديه الصفيحة ورفع الأخرى ، وسترتم بيوتكم كما تستر السكبة ، قالوا يارسول الله : نحن يومئذ خير منا اليوم نسكن في المؤونة ونفرغ للعبادة ، فقال بل أتم خير منكم يومئذ » اهـ

إذن الترف والنعيم الحاصلان من فتوح البلدان يضعفان الأبدان ، والأبدان هي الدعامة الثالثة . إذن الدعائم الثلاث للتعليم في كلام علماء أو وبا نظير الدعائم الثلاث في آية الفتح ، وصدق تطبيقها فعلا على الأمم الإسلامية ، فهم أولا كانوا أقوياء علما وأدبا وجسما ، فدام ملكهم ، فلما وقعوا في الترف ضعفت الأجسام وذهبت الآداب ، وقل الدين ، فذهب الملك .

إذن ظهور هذه المعاني اليوم معجزة القرآن في هذا الزمان ، وقبل أن أختتم حديثي معك أيها الجوهري أقول لك : إن قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » الخ نضرب له مثلا بقول القائل : « ياغلان : إن الله أطمعك الصلاة لتنظف بدنك ، وتناجي ربك ، ولبشرح صدرك » ، فالوضوء من شروط الصلاة يتقدمها ، والآخرة في نفس الصلاة وبعدها ، هكذا هنا المفقرة أي عسىم وقرع المنب متقدم على الفتح كالوضوء ، والبقية مصاحبة أو متأخرة عن الفتح كمسألة الصلاة المتقدمة ، فإن المناجاة فيها ، وانسراح الصدر فيها وبعدها ، ثم إن الاستقامة ، والنصر ، وانكشاف الحقائق المقابلات لأعمدة العلم الثلاثة في كلام الأمم المعاصرة لكم تسكون نتيجة السعادة في الدنيا والآخرة ، وهو المعبر عنه في الآية بقوله : « وليتم نعمته عليكم » وهي الرضوان ، والرضا هو تمام السعادة اهـ

فما كاد يتم حديثه حتى أفقت من غشيتي ، واستيقظت من سباتي ، وفتحت عيني إذا نور الفجر مشرق والمؤذن يقول : « سحى على الصلاة ، سحى على الفلاح » ، فكتبت ماوعيت ، وقلت : الحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الثلاثاء ١٠ نوفمبر ١٩٣١ م .

### تذكرة

ثم بعد ما كتبت ما تقدم ، واسترحت قليلا ، أجلت فيه النظر ، وأخذت أقرأ القطعة الانجليزية ، إذا بالترجمة هي عينها ، غاية الأمر أنها أوضح من الأصل الانجليزي بضرب بعض الأمثال ، ثم أخذت أفكر في الأعمدة الثلاثة المتقدمة ، وجال فكري في مباني الاسلام الخس ، فإذا وجدت ؟ وجدت أن الصلاة أقوال وأفعال مفتحة بالكبير محتمة بالتسليم ، ووجدت أن هذه الأفعال وما ماثلها من السبق والرمي ، المشروعين في الاسلام ، المنويين للأبدان وعضلاتها ، المتروكين منذقرون ، لجهل الأمم الحجمية (التي قامت بدين الاسلام بعد العرب) بمقاصد هذا الدين ، حتى إنا أيام دراستنا بالأزهر كنا نقرأ « السبق والرمي » ولا نعمل بهما اتباعا لأسلافنا ، وجهلا بديننا ، وجدت الحج والصيام كلاهما من مفويات الأبدان كالصلاة ، فالحج فيه كثير من الحركات ، والصيام فيه تصفية الجسم من العفونات ، اقرأ هذا المقام في أول (سورة العنكبوت) تجد ما للصيام الطبي من الفوائد ، وهو الذي شرع ما يقرب منه دين الاسلام ، وقد قال رئيس أطبائنا بمصر في خطبته السنوية في الثقافة العلمية في هذه السنة : « ان الحيوانات لها أيام تصوم فيها إذا مرضت » واناس غفلوا عن ذلك ، انظر ذلك في الكتاب السنوي الثاني الذي أصدره المجمع المصري للثقافة العلمية سنة ١٩٣١ م أي هذه السنة .

المسلمون يصلون ، ويصومون ، ويحججون ، ولكن إذا عرفوا فوائد تلك الحركات لم يحصل بها من غيرها ولم نركبها من أهل العلم في بلادنا تاركين الصلاة بجزائها ، وشغلها عن حقايقها .  
فهذه مجامع التربية الجسمية في ديننا ، وهي إحدى الدعائم . يقول علماء التربية حديثاً : « ليس المدار في حركات الجسم على رفع الأثقال ، بل المدار على تقدير الحركات ، ويجب تحريك كل عضو مسرات كافية ليحصل المقصود » ولقد جعلوا خبيرات رياضات رياضية المشي ، لأنها تترك جميع الأعضاء ، ولما طبقتها بعض علماء التربية المسلمين على حركات الصلاة دهشوا وقلوا : قيام ، فرقع يدين عند الاحرام ، فركوع مع رفع اليدين ، فرقع الرأس مع تحريك اليدين ، فسجود ، جفوس ، فسجود آخر ، فقيام ، ثم جفوس للتشهد ، ثم تعاد الحركات فتكبر .

هذا أعظم نموذج للتمرينات الجسمية ، هذا ما سمعته من علماء التربية في زماننا ، ولكنني ليس أنا من نص الكتاب ، ومتى وقع في يدي الكتاب بهذا النص أثبتته إن طالت الحياة .

### مساخرتان : المساخرة الأولى

حدثني تاجر يبيع الخشب بالرج ، كنا نشتره منه لسواقى ضررعتنا بتلك الجهة . قال : لقد جاءتني سيدة ألمانية لبعض الأعمال التجارية ، فرأيت أنوضأ وأصلي ، فسألتني ما هذا ؟ فقلت صلاتنا ، وشرحت لها ذلك شرحاً كافياً في الصلوات الخمس ، فأظهرت الدهش وقالت : إذن أنتم لا تعرضون . فلما قصت على القصص . قال : وما السر في قولها ؟ قلت : هذه سيدة متعلمة في بلادها ، وهم يدرسون علم التربية البدنية والحركات المصاحبة للأجسام ، فهي متشعبة بذلك ، وبأن غسل الأعضاء في أكثر أوقات النهار ضرورة لازالة ماعلق بالجسم من الذرات المؤذيات الموجبات للأمراض . فلما رأيت ذلك أدهشها اننا قوم جهلاء ، نفعل هذا ونحن عنه غافلون ، وبهذا لانقر بنا الأمراض . انتهت المساخرة الأولى .

### المساخرة الثانية

كنت جالسا في بلدة المرج أيضا عند الضابط الذي هناك ، وكان هناك بعض أعيان البلاد ، وقد دار الحديث بينهم على امرأة ألمانية أيضا ، لأن لها بعض المشاكل الغضائية التي أوجبت معرفتهم بها . فهاك حديثها : « قالوا إن فلانا (سموه باسمه) من بلدة كذا في مديرية القليوبية ، وقد سافر إلى ألمانيا ، وتزوج هذه الفتاة ، وحضرت معه ، فلما رأته أباه وأمه العجوزين يتوضئون ويصلون . قالت لهما : ما الخبر ؟ فقعا عليها قصص الاسلام وقواعده ، فأسلمت حالا ، وداومت على الصلاة ، وقالت : هذا خير دين ، هذا دين عجيب ! فأما زوجها فانه بقي على حاله أي هو مسلم لا يصلي .

### نظرتي في أمم الاسلام المستقبلية

إن أمم الاسلام المستقبلية سيقروا هذا وأمثاله ، وحتما سيسارعون إلى قراءة تلك العلوم ، وستكون صلاتهم غير صلاة آبائهم في العصور الأخيرة ، فهم لا يدخلون فيمن قال الله فيهم : « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى » وإنما لا يكسلون لأنه فتح لهم باب المعرفة ، فأدركوا سر الحركات ، فهم إذ ذاك يصلون بمحض المحبة لا بالخوف ، كما يفعل أكثر المسلمين في العصر الأخيرة ، ويقولون إذ ذاك : إذا كنا نحن المسلمين نستعمل حركات الجسم المشابهة لحركات الصلاة ، اختيارا منا لا خوفا ، وذلك لأجل صحتنا ، فليكن ذلك الاختيار والقيام بالحركات المذكورة في الصلاة أولى ، لأن فيها تقوية الجسم ، وهذه إحدى الدعائم الثلاث في التربية العامة ، وفيها تذكر علم الأخلاق والمحبة العامة (بطلب الهداية والاستقامة) في الفاتحة ، وفيها

الدعامة الثالثة ، وهي ذكرى تثفيف العقول بالحمد لله رب العالمين ، وبذكر المصطفى في سجوده وركوعه السمع والبصر وعجائبهما ، وفي ذكره السموات والأرض في أول افتتاح الصلاة وهكذا .  
وسيقولون أيضا : إن العلم يجعل عبادتنا لله مبنية على المحبة لا على الخوف ، والعبادة على سبيل المحبة هي المجدية النافعة ، أما عبادة الخوف فانها أدنى منها مراتب ودرجات . إن الانسان اذا أكل الطعام وهو مقتنع بفوائده ازداد صحة ، وكل عمل يصعله المرء وهو راغب فيه يكون أكمل وأعظم وأدوم ، وهذه هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر .

يقول المسلمون بعددنا : إن آباءنا لما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، ونسوا ما كانوا به أخذوا يدرسون القرآن بلا عقل ، فلا علم ، ولا نهديب ، ولا قوة جسمية ، لذلك ذهب ملكهم ، وزال سلطانهم ، وهانحن الآن في مبدأ حياة اسلامية جديدة تجدد ما عندهم الأولون ، فمن ذلك هذه المسامرة الثالثة :

### المسامرة الثالثة

لما اطلع على ما تقدم صاحبي الذي اعتاد محادثتي في هذا النفير . قال : لقد عوّلت على أن أصل الفتح إنما هو الفتح العلمي ، وجعلت الفتح العملي بالسيف تابعا ، وهذا حسن : فأرجو أن تزيد المقام أيضا بمثال معروف تنهأ به النفوس وتهش له . فقلت : ألم يكفك أفعال رسول الله ﷺ كما تقدم . ألم يكن قوله وتعليمه قبل نشر سلطان الاسلام ؟ قال بلى : قات : كفك ذلك . فقال : ولكن أريد مثالا يكون قريب المماثل : لأن النبي ﷺ ينظر اليه الناس نظرة يشتم منها أنهم يقولون نحن لسنا مثله : فهو مؤيد بالوحي والقوة : أما نحن فلا ، فاذا أتيت بمثال غيره يكون ذلك أقوم قبلا ، وأهدى سبيلا ، وأحسن مثلا ، وأقرب مثلا ، فقلت : إن أم الاسلام ما حفظت ملكها الا بالعلم : فلما زاد علمهم زاد ملكهم . فقال : هذا كلام عام . فقلت : ان مسلمي الهند كانوا هم أصحاب الأمر والنهي في البلاد الى نحو القرن الثامن عشر ، ولستهم كانوا جهلاء : فلما احتل الانجليز البلاد وحاربوهم غلبوهم فأصبحوا ضعفاء في البلاد لاحول طسم ولا قوة : فلم كان عندهم علم لم يسلب منهم الملك : فعند الفتح العلمي هو الذي أورت زوال ملكهم . قال : وهذا أيضا كلام اجالي . فقلت : إذن فلا سمعك ملجاء في تاريخ تأسيس كلية عليكره ، فان ذلك يكفيك . فقال : حدثني رعاك الله حديثها . فقلت : ان السيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكرة أخذ يقدم الفتح العلمي لينقل منه الى الفتح العملي كما فعل ﷺ . فقال : أرجو إيضاح المقام . فقلت :

### جامعة عليكره ، وعملها العظيم في الهند

أتى الاستاذ نضر الدين أحمد مسجل جامعة عليكره محاضرة نفيسة في هذا الموضوع على جمع كبير في جمعية الشبان المسلمين ونحن نترجمها (١) فيما يأتي :

حضرة الرئيس ، حضرات الاعضاء ، أيها السادة ،

إني أشكر الله على أن أتاح لي فرصة التكلم الليلة الى رجال الحاضر وسادة المستقبل . وأسف إذ لا أستطيع الكلام بلغتكم العربية التي هي أيضا لغتي : لكن لو كنتم مكاننا في الهند ، وكنت أنا مكانكم لاعتذرتكم الى كما اعتذر اليكم . على أنه لا داعي لأن أعتذر عن موضوع المحاضرة فقد اخترت موضوعا يحبه المسلمون في الهند ، وأرجو أن تكونوا ممن يحبونه . ذلك الموضوع هو عليكره . وهو اسم أرجو أن يكون معروفا لكم فانا في الهند نعرف الأزهر ، وقد كدت أقبل الأزهر حين ذهبت لزيارته . وفي الهند من

(١) مبنية على مذكرات أخذت أثناء اللقاء :



يقبل عليه كره :

ان عظمة عليه كره تقوم على شيئين : الأول أنها أعطت الهند مثل الملي في التربة التي لابد منها لمن يريد أن يعيش ، والثاني وهو أهمها أنه لولا عليه كره لما كان في الهند اليوم ما هوون تسمعون عنهم ، ويسمع لهم . كان يكون هناك مسلمون : لكن مسلمون لا يأتوا أحد بهم ولا يقيم لهم في شؤون الهند وزن . أما اليوم فان المسلمين - وان فقدوا في الهند حكما ، وان كانوا أقلية في الهند - فان لهم منزلة فيها لا يستعجي مسلم أن يتركهم أو يتركها . ذلك بفضل جامعة عليه كره التي هي أهم ما يملك المسلمون في الهند بهد أن فقدوا الحكم . وستكونون أقدر على تبين صدق هذا القول اذا عرفت شيئا عن حال التربة في الهند قبل عليه كره :

كان المسلمون حكم الهند قبل أن يذهب الانجليز هناك ، وكانوا يحكم الهند لما ذهب الانجليز هناك للتجارة . وقد مكث الانجليز في الهند تجارا نحو ٥٠ سنة انشرفت فيها التربة الحديثة ، ولكن بين غير المسلمين ، لأن المسلمين انكسروا على أنهم هم الحكم وظنوا أن لاحتاجة بهم الى تعلم العلوم التي تنفع التاجر والسائح وما اليهما من طلاب الرزق أو طلاب القوة : لأن القوة كانت بأيديهم والحكم كان لهم . هذا طبعها خطأ كبير لكنه خطأ وقع فيه المسلمون : فلما فقدوا حكم الهند في القرن الثامن عشر ونزلوا الى مرتبة المحكوم الذي لابد له من الجهاد في الحياة ، وجدوا أنفسهم لا يحسنون من طرق الجهاد في الحياة شيئا . كانوا يحسنون طريقا واحدا هو طريق الحرب : فلما غلبوا في الحرب وزال الملك عنهم وجدوا أثر ذلك في أنفسهم ، ولا عجب ، وانسدت في وجوههم السبل ، ونزلوا الى درك من الذلة سحيق ، لكن كان لايزل بأيديهم بقية من ثروة ورثوها من أيام الحكم فهاشوا عليها وان لم يحسنوا نعيمها : حتى قامت فتنة الهند في القرن التاسع عشر ، وهي فتنة كبيرة كان غرضها التخلص من حكم الأجنبي في الهند : لكنها لم تنجح لان الذين أقاموا بها لم يكونوا أكفاء لها ، وكان عاقبة الفشل فيها أن أنزل العقاب بكل من كان له فيها يد ، ولم تكن هناك أسرة مسلمة الا وكان لها في تلك الفتنة يد ، فكانت النتيجة أنه لم يبق أسرة مسلمة الا ونسكت في نفسها أوفى ما لها ، وزال عن كثير من المسلمين حتى تلك البقية من الثروة التي كانوا من قبل يعيشون بها فأصبحوا في حالة من الذلة والضعف والجهل بأمور الحياة لا يدرون معها كيف يعيشون وصاروا مهتدين بالفناء الاجتماعي ، عندئذ قبض الله لهم رجلا من أكرمهم بيتا وأكرمهم قلبا وأوسعهم عقلا وأبعدهم هممة : هو السيد أحمد خان جاء من بيت محمد ، فقد كان أبوه رئيس وزراء ، وكان جده رئيس وزراء : لكن تلك الاحداث قد نزلت به كما نزلت بغيره ، واضطرته الى العمل فلم يفت ذلك في عضده ولم يذهله عن أن ينظر لنفسه ولقومه :

نظر السيد أحمد خان فوجد أن الداء هو أن المسلمين لم يعلموا أنفسهم حين كانوا حكاما ، واذن فالسواء هو أن يتعلموا الآن إذ صاروا سوقة :

شعر السيد أحمد في سنة ١٨٦٥ أن لابد للمسلمين من أن يسلكوا طريق التربية العلمية ان كانوا يريدون أن يحتفظوا بوجودهم وألا يفنوا في غيرهم ، ولانسكى التربية العلمية وحدها : بل لابد من أن يحافظوا مع ذلك على ثقافتهم الاسلامية وآدابهم ، ومن أين لهم الجمع بين التربية العلمية والثقافة الاسلامية ، ومعاهد التربية الحديثة في الهند كلها معاهد غير اسلامية : عندئذ أيقن أن لابد للمسلمين من جامعة علمية اسلامية ، وأجمع العزم على أن يؤسسها لهم ، لكن كيف والصعوبات في سبيله كثيرة ؟ هناك مثلا صعوبة المال فان الجامعة لا تقوم الا على مال كثير ، وهناك صعوبة اللغة ، فان اللغة الأردية لغة المسلمين لم تكن لغة علم للسبب الذي ذكرت لكم ، وكان الوقت أضيق من أن يتسع للتفكير في ترجمة أوفى مصطلحات :

لان الخطر كان عظيما قريبا ، وكان لابد للنجاة منه من عمل حاسم سريع . قلب السيد أحمد خان الامر على وجهه فرأى أن ليس لمشكلة المال حل الا التدرج ، يبدأ بمدرسة ولو في كرخ و يترقى بها كلما ترقى وسائله حتى تصير كلية ، و يترقى بها حتى تصير جامعة . أما مشكلة اللغة فلم يكن لها حل الا أن يتخذ اللغة الأوروبية العامة في الهند لغة المدرسة أيضا ، ولكايته بعد اذا صارت المدرسة كلية ، وجامعة اذا صارت الكلية جامعة ، اذ عندئذ يمكن أن تتفرغ الجهود لاكتساب العلوم والفنون الميسورة في تلك اللغة ، لكن اتخذه اللغة الانجليزية لغة للتعليم في مدرسته يرضه لخط طائفة الملا بين المسلمين ، وعامة المسلمين هم طوع هذه الطائفة : أى طائفة شيوخ الدين بين المسلمين في الهند . ومن الطبيعي أن يكره المسلمون شيوخا وغير شيوخ ، لغة الذين أذلّوهم وسلبوهم الملك وصيروهم الى ماصاروا اليه ، وأن يخطوا على من يريد ادخال تلك اللغة في أى معهد اسلامي ، فضلا عن جعلها لغة التعليم فيه ، لكن لابد مما ليس منه بد ، فقد كان ذلك هو الطريق الوحيد للنجاة من الفناء ، واذا سخط الشيوخ في الأول فسيذكرون اذا تبذت لهم حقيقة الموقف أن الداء عضال يحتاج الى دواء قد يكون السكتي ، وسيحمدون في الآخر من أعد لهم الدواء وان سخطوا عليه في الأول ، هكذا فكر ذلك الرجل الفذ السيد أحمد خان ، وهكذا قرر ، فأسس مدرسة في بضعة أكواخ عند طابقتها نحو اثني عشر ، وميزانيتها حوالي ٤٠٠ جنيه ، وافتتها الانجليزية ، واثارت عليه ثائرة الشيوخ ، ثائرة كثير منهم ، فان هناك شيوخا وشيوخا . ففي الشيوخ رجال تغو لهم الجباه إجلالا عن استحقاق ، ولكن فيهم أيضا من لا يتجاوز نظرهم حاضرهم ، ولا يحكمون الاعاطفتهم مع غلو في هذا التحكيم ، وهؤلاء ائق منهم السيد أحمد خان أذى كثيرا ، ولكنه كان متوقعا ذلك ، وموطنا النفس على تحمله ، لانه كان يعلم أن خبره وخبرهم ، ومستقبله ومستقبلهم ، بل مستقبل الاسلام نفسه متوقف على المضي فما استخار الله فيه وعزم عليه :

هكذا يا حضرات الاخوان : بدأت جامعة عليكره ، والآن هي من أكبر الجامعات في الهند ميزانيتها ٦٠٠٠٠ جنيه ، وطلبتها ٣٢٠٠ طالب :

أسس السيد أحمد خان جامعة عليكرة سنة ١٨٧٥ وفي سنة ١٨٨٢ أى بعد سبع سنوات فقط من من تأسيس عليكرة ، ألقت حكومة الهند خطة تبحث مسألة التربية في الهند ، فكان رأيها الوارد في تقريرها أنه « اذا اتبع في الهند مثل عليكرة فستحل مشكلة التربية الوطنية في الهند » . فعليكرة كانت الرائد الذي شق للهند طريق التربية الوطنية ، والذي أعطى الهند فكرتها عن التربية القومية : قال السيد أحمد خان ، ان مناهج التعليم والسياسة العامة في التعليم والتربية ، يجب أن تكون بيد جامعة أو جامعات أهلية لا بيد الحكومة ، لكن لابد لمثل جامعة عليكرة الأهلية الاسلامية من الانتفاع بتجارب الجامعات التي سبقتها ان كانت تريد أن تحقق الغرض الذي أسست له . وغير المسلمين انتفعوا بتجارب الجامعات الأوروبية فلماذا لا ينتفع المسلمون بذلك أيضا في تحقيق أغراضهم الاسلامية ؟ عندئذ رأى السيد أحمد خان أن يسافر ليزور جامعتي كمبردج واكسفورد ليرى نظامهما بعينه ويختار منه الصالح . ذهب ومعه ابنه القاضي الكبير السيد محمود ، وهو أول من تولى القضاء من الهنود ، ودرس المسألة هناك عن كثب فوجد بعد الدرس والتفكير : أن مجرد مرور الامتحانات لا يستحق أن يكون مثالا أعلى للطالب ، وان مجرد منح الدرجات لا يصح أن يكون غاية عليا للجامعة : لكن تربية الخلق ، تربية الشخصية . تكوين الرجال هو الذي ينبغي أن يكون الغرض والغاية . وقرّر رأيه إذن على أن يجعل غاية جامعة عليكرة تكوين الرجال وتخرج القادة : أى تربية النشء الصالح من المسلمين وتحويلهم الى رجال ينهضون بأعباء الأمة الاسلامية في الهند ، ثم تخرج قادة يستطيعون أن يحسنوا قيادة الهنود المسلمين . هذا كان أهم ما ينقص المسلمين في الهند ،

وقرر رأي السيد أحمد خان على أن يجعل غاية جامعة عليكرة سد هذا القوس . لكن تكون بين الرجال القادة يذهب جسدا إذا كان الطالب ينشد خارج الجامعة ما يكسب داخلها ، أو بالأحرى ، إذا كانت جامعة تلك هي غايتها لا تشرف على النشئ إلا في جزء من يومه وتترك الباقي للشارف والمصنفات . ذكر الرأي على أن تكون الجامعة داخلية يعيش الطالب فيها كما يعيش في بيته ، ويعيش بين أساتذتها كما يعيش بين أهله ، واقتبس السيد أحمد من كبرديج واكسفورد نظاما في ذلك ، واستعان بطائفة من كبار أهل العلم والتربية أمثال السير إلى (١) والمستر توماس أرنولد (٢) من الأفرنج ، والدكتور نفاير أحمد (٣) ، وشبلي النعماني (٤) وخوجه أطفاف حسين حالي (٥) جاء بهم إلى عليكرة ، وأسس فيها الحياة التعاونية التي يعيش الطالب فيها بين أساتذته في الجامعة كما يعيش بين ذوي يعلّمونه في ساعات العمل ويهذبونه في ساعات اللعب ، ينصحونه من قريب ويلحظونه من بعيد قاصدين في ذلك كله إلى أن يجعلوا منه رجلا يحسن الجهاد في الحياة . ومن الطبيعي أن لا يقدر على نفقات هذه التربية أجمالا إلا أبناء الخواص من المسلمين أي أبناء الطبقة الوسطى على الأقل ، أما الفقراء فالنابع منهم يستطيع دائما أن يحصل من الجوائز المالية على ما يمكنه من القيام بنفقة تلك التربية . وليست نفقاتها من الفداحة على ما قد يسبق إلى النفس أول الأمر فإنها تباع خدمة جنهات في الشهر وهو مبلغ ليس في الحقيقة كبير إذا قيس بمثلها في مثلها من الجامعات

والحياء الرياضية الجامعة كانت أيضا مما اقتبس مؤسس جامعة عليكرة من الحياة الجامعية في أوروبا . فالألعاب الرياضية المختلفة تلعّب فيها . ولا تنسوا أن ذلك كان شيئا جديدا في حياة الجامعات في الهند في القرن التاسع عشر ، وقد تفوقت عليكرة على الخصوص في لعبة الكريكات وظل فريقها خبير فريق في الهند لمدة طويلة

فأتم ترون يا حضرات السادة أن جامعة عليكرة لم تهمل ركنا واحدا من أركان التربية ، فهي تقوم على التربية العقلية في أوقات العمل ، وعلى التربية البدنية في أوقات اللعب ، وعلى التربية الخلقية في جميع الاوقات ، ترون انها بذلك كله قد أعطت الهند مثالا عاليا في التربية القومية ، ونجت المسلمين من الاندثار المحقق الذي كان يهددهم بما بصرتهم به من أمور الحياة وبما خرجت لهم من قادة وكونت لهم من رجال . وليس من رجل مسلم له مقام أو كلمة مسموعة في الهند الا وكان طالبا في عليكرة أو متصلا بها بطريق ما . فالرحوم مولانا محمد علي كان من طلبتها ومولانا شوكت علي من طلبتها ، وهذا المحاضر الفقير من طلبتها وهي لا تجد بين المسلمين رجلا ذاهبا أو تهاب الا وتهدهته وانتفعت بمواهبه بأن تختاره رفيقا لها مثلا أو تختبئه عضوا في مجلس شيوخها الذي هو مجلس ادارتها أرمشرفا على مالياتها ، فالقاضي السيد محمود ابن السيد أحمد خان ، أو بالأحرى ابن السير السيد أحمد خان ، قد منح لقب سير اعترافا بخدماته للعلم بتأسيسه تلك الجامعة ، هو من شيوخها والسيد حسين بلجسي عماد الملك هو من المشرفين عليها فبفضل الله ، وبحسن الاخلاص في سبيله نجح ذلك العمل العظيم ولعلكم الآن أقدر على ادراك صدق ما قلت لكم في أول كلامي

(١) كان أستاذ اللغة الانجليزية في اكسفورد (٢) المستشرق المشهور صاحب تاريخ انتشار الاسلام وقد صار بعد سير توماس أرنولد وقد زار مصر منذ عام وأقي فيها محاضراته في الفن الاسلامي ثم توفي بعدها بقليل (٣) كان رحمه الله من أكبر الكتّاب في الهند ومن أول من جاهد في سبيل تربية الفتاة الهندية المسلمة كتب كثيرا من الروايات بالأردية

(٤) كان رحمه الله أكبر عمدة في تاريخ المسلمين في الهند ، وهو مؤسس دار المصنفين في الهند وما يتبعها من دور التعليم والثقافة :

(٥) كان رحمه الله أكبر شاعر قومي في القرن التاسع عشر



من انه لولا عليكرة لما كان اليوم في الهند مسلمون . انكم خارج الهند لا تدركون كيف كان يشعر المسلمون بعد أن خرج حكم الهند من أيديهم . ونحن الآن نسرف أن المسلمين كانوا يتفنون اليوم في الهند خداما أذلة لولم يقيض الله لهم ذلك الرجل الذي أسس تلك الكوئخ التي صارت بعد كليات (١) ثم دارت بعد جامعة (٢) ان المسلمين أقل عددا من الهندوس لكنهم استطاعوا بفضل الله وحسن توفيقه أن يحتفظوا بوجودهم وأن يكون لهم قول مسموع في شؤون الهند وفي شؤون التربية في الهند

لكن السير سيد أحمد كان يرمى بتلك الجامعة الى ماهي أبعد من ذلك . كان يرجو أن يصير يوما ما منار العلم والتربية في الشرق الاسلامي كله . كان يرجو أن يكون مثلها كمثل الشجرة الطيبة المذكورة في القرآن « أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها » وكان يرمى الى أن تكون رسول العلم والمعرفة والتسامح في الشرق تسيروفيه و باحدى يديها الفلسفة وبالاخرى العلم الحديث وعلى رأسها تاج لا إله الا الله محمد رسول الله ، تدعو المسلمين الى الجهد وتشق لهم طريق الميز وتبصرهم بالحياة ، فقد كان رحمه الله كما ذكرت من قبل لا يرى أن الجامعة بعدد طلبتها ولا بما تمنح من درجات ولكن بما توسع من دائرة العلم وتغص من دائرة الجهل بما تقوم به من أبحاث وما تنشر من ثقافة حقة فذلك الرجل الذي لقبته صحافة لندن لما توفي سنة ١٨٩٨ بنبي التربية كان يريد بتلك الجامعة أن يؤسس مركزا عاما تنتشر منه الثقافة العلمية الاسلامية في الشرق الاسلامي كله . وقد تحقق من حلم السير سيد أحمد شيء كثير ، فان الكوئخ قد صار الآن جامعة ثابتة لكن بقيت مسألة التوسع أي التوسع في الجامعة حتى تصير ذلك المركز الثقافي الاسلامي العام ، والعقبة القائمة اليوم في سبيل هذا التوسع هي المال ، فقد كانت جامعة عليكرة في صميمها جامعة فنون الى الآن يدرس فيها من العلوم ما لا يحتاج الى مال كثير مثل الرياضة . وليس معنى ذلك أن العلوم لا تدرس فيها ففيها يدرس من العلوم الطبيعية والكيمياء والرياضة والنبات والحيوان لكن جامعة عليكرة ممتازة في الفنون وتريد أيضا أن تمتاز في العلوم ، وهذا يحتاج الى توسيع كبير في المعامل والمعامل كبيرة النفقة تحتاج الى المال والمسلمون اليوم ليسوا من أهل الفنى الذي يجعلهم يستطيعون أن يعدوا عليكرة بالست مائة ألف التي تحتاجها من الجنيئات لهذه الغاية (٣) لكن على رأس عليكرة اليوم رجل من خير المسلمين وأبعدهم هممة (٤) هو الدكتور سيد راس مسعود (٥) أو نواب مسعود يارجنك كما يلقبونه تسكر بما وهو حفيد السير سيد أحمد خان وابن السيد محمود وقد استطاع في سنة ونصف أن يدبر لها ثلاثين لكا من الروبيات أو نحو ٢٠٠٠ ر ٢٠٠ جنية

لكن عليكرة على ماهي عليه ورغم حاجتها هذه الى التوسع شيء عظيم . هي على ماهي عليه تستحق أن يؤمها من الطلبة المصريين طلاب الفنون الادبية على الأقل فلماذا لا تؤمونها ؟ ليس في هذا دعوة خطيرة الى الجامعة الاسلامية انما هذا كلام بسيط يصح أن يقوله أى مسلم فان المسلم يجب أن يعرف أخاه المسلم . واذا كان الهنود يأتون الى مصر الى الأزهر ؟ فلماذا لا يأتى المصريون الى الهند الى عليكره ، انكم اذا أتيتم عليكره ستجدون شيئا لا تجدونه في مصر . ان في مصر جامعة حقها ، ولكن اسمها الى أن أقول انها جامعة حديثة والجامعة لا تنفع نفسها الا اذا كان لها تقاليد صحيحة

(١) أسست أول كلية هوالى سنة ١٨٨٠

(٢) فى سنة ١٩٢٠

(٣) هذا مبلغ كبير ولكنه يناسب ما يرمى اليه الرجال الكبار القائمون بامر جامعة عليكرة

(٤) هو وكيل الجامعة اما مديرها فهو نواب بهوبال

(٥) حامل درجة الشرف فى التاريخ وخرج لندن فى المحاماة ودكتور فى القانون

ثابتة والتقاليد الصحيحة الثابتة لا تمسكون ولا تقوم الا في سنين كثيرة وقد سرت على جاهلة عايته هذه السنون السليمة وقام فيها كل ما ينفع المسلم من التقاليد الثابتة الصحيحة تقاليد تجمع بين الثقافتين : الثقافة الاسلامية التي قامت على القرن والثقافة الحديثة التي جاء بها العلم الحديث ؟ فلو اذا لا يأتي اليها المسلمون من مصر بدلا من أن يذهبوا الى أوروبا في طب ما يستطيع عليه أن يمد لهم به ؟ اني أرجو أن يفعوا بعقد اليوم . وأرجو على كل حال أن لا تنسوا عليه كره وأن تكبروا ذكرى عليه كره فهي التي نجت الاسلام في الهند وهي التي جعلت من المسلمين في الهند قوماً أعزة وأمة مهيبة بعد أن كانوا يكونون أخلاطاً عبيداً ولست أجد أولي في وقد فرغت من المحاضرة في عليه كره وعملها العظيم في الهند من أن أسألكم أن تقرعوا الفاتحة لروح مؤسسها وأن تسألوا الله المعونة والتوفيق لحفيده القائم على رأسها اليوم . تمت اللطيفة الأولى في قوله تعالى « انا فتحنا لك فتحنا مبينا »

### اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم اعلم أن عصر الصحابة رضوان الله عليهم كان عصر أنوار نبوية ، واشراق نور النبوة عليهم كان يلقى الظمأنينة في قلوبهم ، وفي كل يوم يزدادون منها بما يرون من مشاهدة الآيات الإلهية ، ظاهرة على يد حضرة الرسول ﷺ ولا جرم أن الله عز وجل معنا أينما كنا « وهو معكم أينما كنتم » وهو الذي ملأ السموات والأرض بجنود تظاهر المجائب على أيديها ، وفي كل يوم تظهر للمفكرين في هذه الدنيا أنوار وأنوار ، فالسلم اليوم يزداد إيمانه بنور النبوة الموروث ، وبمجايب أهم الاسلام من حيث اجتماعها اليوم بعد التفرق وانتشار الدين في أقطار المسكونة بلا حرب ولا ضرب ، ولا دولة تحمية ، ولا خوف من أحد ، فهذه كلها تزيد المؤمن إيماناً ، بل إن حال انتشار الاسلام اليوم يضاهي حال انتشاره أيام النبوة ، فهذا وحده يزيد الإيمان ، فأما المفكرون والحكماء فانهم يزيدون فوق ذلك إيماناً بما يدرسون من المجائب كالتى جاءت في هذا التفسير ، واذا كانت سكينة بنى اسرائيل وطمأنينتهم أيام طالوت ، إذ النابوت الذي انتهبه منهم أعداؤهم ، وكان فيه بعض مخلفات موسى عليه السلام ، قد رجع إليهم فكانت هذه من أمارات صدق النبوة والوحى الموحى الذي وصل إليهم عن علمائهم ، فهذه لا تورث إلا النصصديق المبني على الطواهر من خوارق العادات وما يشبهها ، وهذه مقدمة للباحث الحكيمية التي هي أرسخ قدما ، وأعلى في السكينة كلها ، فهكذا هنا كانت السكينة في قلوب المؤمنين أولا بما يرون من عجائب النبوة وغرائبها في كل زمان بالمشاهدة ، أو بقراءة الآثار ، ثم يزدادون سكينة وطمأنينة بمجايب الحكم الإلهية التي لا حد لها ولانهاية كالتى في هذا التفسير .

### مسامرة

اعلم أن مثل المسلم الذي لا علم عنده بهذه الدنيا كمثل الطبيب الذي أكسب على التطبيب والجراحة ومداواة المرضى ، ونسى المسكين صحة جسمه ، فانتابته الأمراض ، وأحاطت به مهلكات القوى ، وقواطع الحياة ، وانهاك أعضائه ، فتراه مصفر الوجه ، خائر القوى ، ضعيفا ، هزىلا ، خامدا .

وسبب ذلك أن علم الطب قسمان : قسم هو علم صحة الأبدان وتديرها ، والمحافظة عليها ، وانعاش قواها ، باستنشاق الهواء النقي ، والتمارين العضلى ، وأفضله باجماع أطباء زماننا المشي في الهواء النقي مع كثرة استنشاق الهواء في الخلاء ، والجلوس في الشمس ، معرّى الجسد في بعض الأوقات ، سائر العورة والرأس ، محافظة عليها ، وأكل كل ما لم يطبخ من الخضرا ، وأكل الفاكهة ، وهكذا مما سبق في هذا التفسير ، وما يأتى قريبا ،

وهذا أفضل القسمين .

القسم الثاني : هو قسم المداواة ، وهذا يقوم به الطبيب ، فإذا أهمل الإنسان صحة جسده ، بترك علم تلك القوانين فإنه يشع في المرض ، فيتلذذ الطبيب العالم بالأمراض الباطنية ، أو بالجراحة ، أو بمرض الصين ، أو الأذن والأف وهكذا . فأكثر أطباء زماننا هم من القسم الثاني ، يذنبون القسم الأول ويجهلون بالثاني ، لأنه هو الذي به يكون الرجح والسكسب والثروة والفنى ، فينبغون أنفسهم وهم غافلون ، ومثل هؤلاء علماء الدين في كل أمة من أمم الأرض ، فهم غالباً كاتقسم الثاني من الأطباء في زماننا ، فهم دائماً لا يعرفون إلا ما كان من الأحكام الظاهرة المقابلة للأدوية ، فكما أن الطبيب في القسم الثاني يقول للمريض : خذ الملح الانجيزى ، أو الصودا ، أو الماشيسيا ، أو ملح الفواكه ، لاسهال المدة ، ولا يذكر قط بالهواء النقي ، ولا بنوع الماء كل الذى يجب أن يتعاطاها ولا يخطر بباله ذلك : فهو كالمريض والمأجورين ، فهذه ترضع ولا تبالي بالرضيع ، وهذه تبكي وليس في قلبها أدنى خزن على الفقيد ، هكذا عالم الدين غالباً لا هم له إلا أن يحصر أقواله في نواقض الوضوء وأحوال الحيض والنفاس ، وما أشبه ذلك ، ولا يرفع أعين العامة إلى السماء ، ولا يشرح لهم شيئاً من عجائب الطبيعة ، لأنه هكذا تعلم ، وهكذا يعلم ، فهو عن العلم بالله محجوب ، وعلى الأعمال الظاهرة مكب ، وأمة تعيش بالسمل وتفغل عن العلم أى العلم بالله وبجائبات صنعته ، مثلها كمثل النمل في مساكنها طائسات عاملات ناصبات جاهلات . إن دين الاسلام علم وعمل : العلم هو الذى يقرأ في افتتاح كل صلاة : « إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين » لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » فهو يقرأها ، فإن كان من المفكرين أخذ بطريق الاعتبار والفهم أنه يكون من قل الله فيهم : « يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين واجعلنا للذين آمنوا إماماً » والامامة الحقة لا تكون للمقلد الغافل ، وإنما الامامة تكون للمفكر الذى يدرس النبوة وعلاؤها ، وعجائب الحكمة الإلهية ، دراسة محقة ، فيزداد إيمانه كل صباح ، وكل مساء ، إذ يوجه وجهه للذى فطر السموات والأرض ، حتى يرى ما يدهش عقله ، ويجب من هذه الدنيا التى تظهر لنا عابسة وهى فى الحقيقة باسمه ، وينظر فى آثار الله فيجد ظواهرها ملوثة بشوك القنادر ، وعند التحقيق لا شوك ولا قنادر ، ورحمة الله تسجل ، والجمال يهر عقولا وعقولا ، وإن أبيت إلا الإفصاح ، لتسكن نفسك أيها الأخ ، فأعجب مما تراه قريباً فى اللطيفة التى بعد هذه من دمايل وقروح فى أجسامنا وحى ، فنحن ننظر إليها نظرة المسكين المتألم الذى أصابه الضر ، ولكن علم الطب ( كما سيتضح لك قريباً بأجلى بيان ) يقول لك : كلا . وهل الدمل إلا قلعة بناها جنود الله القائمة فى جسمك ؟ وهى ذوات حياة حقيقية وعقل ، ولما بنت هذه القلعة الخروطية الشكل حصرت فيها المسكروبات الداخلة فأهلكتهم وأفتنهم ، فكان القبح والصيدى وهم الأموات من الفريقين : الفريق الوطنى ، والفريق المهاجم ، ويقول : إن الحى تقرب من هذا ، فإن الناس لما جهلوا الحمام الشمسى ، والحمام البخارى ، أو حمام الماء الساخن والمشى والتمرينات العضلية ( وكل واحد من هذه يذهب بالمفونات من الجسم ) .

أقول لما جهلوا ذلك ، وهودواؤهم الوحيد ، قال الله لهم : أنا رحيم بكم يا عبادى ، أرحمكم بالحى فأسلط جنودى التى فى أجسامكم وهى الكرات البيضاء على جنودى المهاجمة ، وهى الحيوانات الذرية التى تحمل فى أجسامها السم وتفرغه فى أجسامكم فيحمى الوطيس والقنا تفرع القنا وموج المنايا متلاطم ، فيقع كثير من الفريقين صرعى وتكون الاشلاء منهما هو الصيدى كما تقدم ، وهذه جنود الله فى أجسامنا المقابلات لجنوده فى خارجها ، سأشرحها شرحاً وافياً فى اللطيفة الآتية ، ولكن أذكر هنا نبذة منها توطئة لما يأتى واجبالا له ، فأذكر على سبيل التمثيل الأسد والنمر ونحوهما ، فهذا الأسد من جنود الله التى أعدها لاجداث الحياء تارة ولإحداث الهلاك أخرى ، فهى لذريتها سبب الحياة ، وللفرسة سبب الهلاك ، ولن ترضع اللبوة

شبهانها ، أو تنقض على فريستها إلا بما وقر في نفسها من رحمة في الأول والآخر . إذن هنا نحن ما  
سأذكره هناك بهذا المثال ، فهنا جيش منقوي قوي وظاهر في أي الرحمة والعدالة ، فهنا الجيشان  
المعنويان مقدمتان للجيشين الحسينيين وهما جيش الأساطين الذين على ذريعتها ، وسين اقتباسها للطلبة  
والأرباب ، فهذا مثل بخود الله في الأرض والسموات .

### جسم الأمة كجسم الانسان

اعلم أنه لا فرق بين جسم الانسان وجسم الأمة ، فإذا بهل المسلمون عاوم الأمم ، ونسوا الوحدة العنصرية  
كما عصى الجاهل الغافل عن اصلاح جسمه ، وترك قرابين الصحة ، فإن الله عز وجل هو الرحيم بهم . فسلط  
عليهم الأمم من بين أيديهم ومن خانهم إذ قال لهم : « أيتها الأمم هبوا من رذلتكم ، وطاربوا المسلمين ،  
وادخلوا خلال ديارهم ، لأنني أريد إيقاظهم من طريق الشدة ، لأنهم نسوني ، ونسوا أنفسهم بطريق اللين  
كما نسي الغافل عن جسمه باستعمال الحمام الشمسي ، والمشى في أطوار الملقى ، وأكل الفواكه ، والخضر ،  
فرجته بالحمى ورجته بالأورام ، لأنني أنا رحيم ، ورحمتي وسعت كل شيء ، فأنا أوسع الأشخاص ، وأرحم الأمم  
وان كانوا جميعا يجهلون أنني أرحمهم حين تنابهم الآلام .

### خطاب المؤلف لأمم الاسلام

أيها المسلمون : هذه والله هي ازدياد الايمان ، بل هذه هي السعادة ، هذا زمان الحكمة والعلم ، هذا  
هو الزمان الذي قال الله فيه : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وهو الذي  
قال الله فيه أيضا : « سأوريكم آياتي فلا تستعجلون » وقال فيه : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها »  
وهنا وأمله ففهم قوله تعالى : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » فكيف نوقن بهذه الرحمة إلا بالبراسة  
درسمنا ياربنا وفهمنا ، فهمنا أن إبلاكم لنا لمنفعتنا ، رحم الله أستاذي (الشيخ حسن الطويل) ، فهو أول  
من لفت نظري إلى هذه المعاني ، فانه لما عرض في الدرس اسم الله الجبار المستقيم الخ ، قال يا فلان : هذه  
الألفاظ بحسب الظاهر فقط والافلا انتقام ولا غيره ، لأن منزله عن الغضب كما هو معلوم ، ولكن هذه أفعال ورجته  
سميت بأسماء مما نعرفها .

وأقول الآن : الله أكبر : بهذا نفهم سرا من أسرار القرآن ، ألا وهو قوله تعالى : « إني أخاف أن  
يمسك عذاب من الرحمن » فهذا عجب أن يكون رجاءا وهو معذب ! فبالعلوم اليوم ظهرت بعض أسرار  
القرآن وعجائبه . اللهم لك الحمد على نعمة العلم .

فلما اطلع صاحبي على هذا . قال : هذا جمال وكمال وحكمة وعلم ، واسكني أريد أن تنهني عن عنوان  
هذه المقالة ، فانك سميت « مسامرة » ، فأين المسامرة ؟ فقلت : إن ما تقدم إنما هو مقدمة لتلك المسامرة  
وان هي إلا نبراس لهذا المقام . فقال : إذن حدثني حتى يتم المقام . فقلت : أعرف طبيبا نظاميا شهيرا ببلادنا  
المصرية ، فهو في الحكومة المصرية من الأطباء المشهورين ، وله في منزله عيادة خاصة ، وهذا الطبيب لي به  
علاقة ، وهو أنه كان تلميذي بالمدرسة الخديوية في اللغة العربية قبل أن يدرس علم الطب ، وهذا الطبيب  
قابلته منذ ستة أشهر في عيادته ، فرأيت ضعيفا هز يلا نحيفا ، فأزعجني ما رأيت ! ووجهت إليه اليوم الكثير على  
ترك صحته التي بها يقدر على مداواة المرضى ، فأخذ يقول لي ان أصدقائي يأتونني في وقت فراغي فلا أقدر على  
ردهم وترك إجاباتهم ، فشددت عليه النكير ، وقلت له : لابد من النظام ، ولابد من مراعاة صحتك مراعاة  
نامية ، وقلت له انني بعد مدة لابد سألتك عن ذلك كله ، ففجبت إذ قابلته منذ ثلاثة أيام في هذا الشهر أكتوبر



سنة ١٩٣١ م وهو قريّ البدن نسط ، فلم على و بارني بقوله : هذه نفسي منك ، وأشهاد على ذلك طبيبها كان معه ، وقال : أليس تراني أرفض العمل في وقت رياضي ؟ فقال نعم ، فسرت من ذلك كثيرا وانشرح صدرى ، وليس هذا بأول من تسميت له من الطبقة المتعلمة من اخواني المصريين . وما قلته له في هذه المقابلة : إذن عملت « بالمايحين » كما قلت « بالمدرسين » والأولى كلمة منها علم الصعقة ، والثانية كلمة تدل على علم المداواة . فقال نعم .

وهذه المسامرة هي المنطبعة تمام المطابقة كما قدمنا آنفا على حال المسلمين الذين لا يعرفون إلا علم الفقه فهؤلاء الآن يقينا قد قاسوا من رقتهم ، وامتدقوا من غفلتهم ، وقرءوا العلوم ، وأنا أحمده الله عز وجل إذ أن الأزهر الذي تعلمت فيه خطاخطرات في هذه السبيل ، وهكذا بقية بلاد الاسلام ، وهذا التفسير من مذويات تلك الحركة في عالم الاسلام ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

فقال صاحبي : حسن هذا المثال ، وجميل هذا التفسير ، ولكنني أريد أن تربط موضوع السكينة كله بقوله تعالى « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، فهل في هذه السكينة فتح ؟ وأي أنواع الفتح هو ؟ فقلت : حياك الله : أنا ذكرت لك أن الجنود أربعة أقسام : معنوية وحسية ، وكل منهما جنود للاهلاك وجنود للاحياء ، ولا جرم أنه ﷺ قد فتح الله عليه فتحا عليا باظهار الحقائق له ، فأفاض على الناس بما يحتملون فهذا جيش معنوي نوراني تبعه جيش حسي وهم الفزاة المجاهدون . ثم إن ما فتح الله به الآن من العلوم لنا نحن الأمة الاسلامية مثل ما اتضح في هذا التفسير وفي غيره من بواهر الجائبات إن هو إلا أنوار المعرفة وبها تلمئن قلوب وقلوب وتسكن للحقائق كمسألة الأمراض التي جعلت لمصلحتنا لا لإيذائنا ، فهذه حقائق واضحة لم تكن لتعلم للموم إلا في زماننا ، أما قبل ذلك فانها كانت خاصة بأناس اصطفاهم الله ولم يبيعوا للناس بهامهم لأن الناس لم يكونوا مستعدين ، وهذه جيوش علمية نورية تتبعها جيوش اسلامية حقيقية بقيادة أهل هذه الأرض من أم الاسلام ، لأنهم خير أمة أخرجت للناس ، ومتى كان اجتماعهم مبينا على ظهور الحقائق لهم كالشمس في رابعة النهار ، فانهم لا جرم تكون قيادتهم لأنفسهم وللأمم أكل وأتم ، واذن يأمرون بالمرئوف وينهون عن المنكر . إذن الفتح العلمي في زماننا كالذي ظهر في هذا التفسير من مضمون قوله تعالى في أول السورة : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين .

### اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليا حكيما اللهم إني أجدك جدا يوافي نعمك ، ويكافئ مزيديك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، جل وجهك ، وعز جاهك ، لا إله إلا أنت ، وكيف يكون للعالم إله غيرك ونحن ننظر فنرى كلامك في كتابك كعقلك في خلقتك ، ونراك خلقت من كل شيء زوجين : الذكر والأنثى ، والسالب والموجب ، والغالب والمغلوب ، والعالم والجاهل ، والحي والميت ، والذكر والأنثى ، وهكذا ، لم نجد لهذه القاعدة شاردة وشاذة ، بل هي مطردة أوليس من العجب أن غزوات النبوة كغزوة الفتح وغيرها من الغزوات ، وجميع حروب هذا العالم الانساني لها نظائر في أجسامنا .

يا سبحان الله : إن الله يقول هنا : ليس جندكم في غزوة الفتح وغيرها هم جندي وحدهم . كلا . بل لي جنود في السموات وجنود في الأرض ، أدبرهم بعلمي ، وأنظمهم بحكمتي ، وكل هؤلاء قائمون بما عليهم وعملهم نافع لحياتهم وحياة غيرهم ، فكما أنكم جئتم إلى هذه الأرض ومعكم نبيكم ، تحاربون الكفار الجهال

المفسدين في الأرض ، الذين لم تكن لهم جامعة قبيحة ، والواطنة قبيحة ، بل هم قبيحون ، فبعضهم تبع بلاد الفرس والأكرسة ، وبعضهم تبع بلاد الروم والقواصرة ، فخر بهم هذه الأمم بأرصاد نبيكم وتريدون ادخالهم في جامعكم الاسلامية ، فتصبح الأمم كلها جوسما واحدة ، فبهذا كان فعل في جسدكم ، إن جسد الانساس مقياس للجسم العام للانسانية كلها ، فالسكرات البيضاء في الجسد وجامعها من جنود الجسم كلها تقايل وتحارب أعداء هذا الجسم ، وتقتصر عليها وتقتلها ، والا فلا جسم للبشر ، ولا حياة له ولا بقاء .

وما كدت أصل لهذا المقام حتى مضى صاحب العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . فقال هذا حسن جدا ، ولكنه كلام غامض ، إن الحارين في الأرض لهم آلات وقلاع وأعمال عجبية ، وأن السكرات البيضاء المذكورة ، وأن الحرب المشهورة بين الأمم ؟ فقلت له : حياك الله وبياك ، إن الحرب في جسم الانسان تشابه الحرب التي نراها بين الأمم سواء بسواء ، والنوع الانساني لا يزال في حرب وضرب حتى يصبح أداة واحدة ، ويصبح كله كتلة واحدة ، يحارب الطليعة المحيطة به ، لينال منفعتها ، فالنزوات الحميدية فتح باب لرقى الأمم ، والناس الآن يحاربون حريين : حرب مع أنفسهم ، وحرب مع الطبيعة ، والنزوات الاسلامية مبدء لازالة العناصر الضارة بالجسم الانساني كما تفوز السكرات البيضاء والافارية وغيرهما الحيوانات الطارئة على الجسم الضارة به ، حتى اذا لم يبق في الانسان شئ ولا أثم أصبحت الانسانية كلها جسما واحدا تحارب الطبيعة حولها باذن ربها ، فكأنها إذ ذاك في زمن السلم العام الذي بشر به القرآن في سورة القتال المتقدمة ، باجمة واحدة تبذل غيرها ، ولكن هذا لا يبرئ من جنتها .

حينئذ قال صاحبي : أنا الآن أصبحت في عجب ! كلامك جميل ، وبيانك بديع ، به عرفنا أن الله جنودا بطريق السمع ، وأنت فعلت بعضها وهي التي في الجسم البشري ، ولكن القرآن كتاب عربي مبين وكلامك وإن كان حسنا فيه التباس من وجهين : الأول أن هذه الجنود التي في جسم الانسان لم تتبين بالتفصيل حركات كرها وفرها ، وغدوها ورواحها ، وأسلمتها ومحاصرتها ، وقلاعها وثكناتها ، وانزاعها وانتصارها ، وخنادقها ، وسدومها القتالة . الثاني : أنك ذكرت البلعمة والافارية ، فهذه كلمات ليست عربية والقرآن سهل فاذا لم يكن التفسير أسهل من القرآن فانه لا يكون تفسيرا ، بل تعسيرا ، وقد عهدناك فيما سبق من هذا التفسير تذكري ما سهل على الناس فهمه ، وعظم نفعه ، فقلت له : أيها العزيز ، اني لم أذكر الحرب والضرب والجهاد ، ولا البلعمة والافارية إلا وقد أعددت لها عدتها ، وأحضرت مي مقالا أذكره في هذا المقام . فقال : ان كان من مثالك فأنت لست من علماء التشریح ، وإن كان من مثلك غيرك من علماء التشریح ، وإن كان من مثلك غيرك من علماء التشریح فانهم لا يقدر أن يصفوا الحرب المكروبات والسكرات البيضاء وصفا ينطبق على الحروب المعلومة لنا حتى يخرج قارئ التفسير من المقال وقد أيقن بأن الله جنودا غير جنود الانسان ، يشاهد كرها وفرها . فقلت : أنك حصرت الكلام في مقامين ، وهذا الحصر منقوض بمقام ثالث . فقال بينه لي ؟ فقلت : إن الكلام لطبيب مصري ، وهو الذي وصف تلك الأوصاف التي ذكرتها بعينها في الجمع المصري للثقافة العامة سنة ١٩٣١ أي سنة طبع هذه السورة ، وهذا عجب ! وهو معجزة جديدة للقرآن ، وكيف لا يكون معجزة والناس عاشوا وماتوا وهم يقرءون : « والله جنود السموات والأرض » ولكن أكثرهم لا يعرفون كيف تكون تلك الجنود ، وكيف غزواتها ؟ حتى ظهرت الآن فما ستره من قول ذلك الطبيب . فقال : إذن تكون تلك الجنود الإلهية أيضا مساعدة على فهمهم : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » ومساعدة على فهم قوله تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » ففي النفس الواحدة يحصل ما يحصل في جميع نوع الانسان ، فأرجو أن أسمع أولا خلاصة المحاضرة التي ألقاها الطبيب . ثانيا نفس المحاضرة . قلت : أما الخلاصة فهي أننا نرى الجسم الانساني عبارة عن مدينة حصينة ، يحيط بها سور متين ، وهذا السور تحاصره جيوش أعداء

بالآلاف من الأعداء ، تريد دخوله لتعيش عيشة هنيئة كما يريد الأوروبيون أن يعيشوا عيشة هنيئة في بلاد الاسلام بظلمها وارهاقها واذلالها ، ولا تجد لها تلك الجيوش بابا تدخل منه إلا المنافذ المفتوحة كالقلم فتدخل منه ، وهناك تصل إلى المعدة ، والمعدة فيها عصير معد لا هلاك تلك الحشرات ، وهذا العصير يهضم الطعام ، ويقتل تلك الميكروبات ، ولكن إذا أسرع الغذاء في الانزلاق من المعدة وجرى إلى الامعاء فان تلك الميكروبات لا تموت ، ولكن تسير إلى الامعاء ، لأن مدة إقامتها في المعدة لا تكفي لبادئها ، وقطع جراثيمها ، وهذه ما نكاد تصل إلى الامعاء حتى تلاقى حتفها ، لأنها لا تجد هناك الاكسوجين الذي لا تعيش إلا به ، ولأن الجنود المجندة من الميكروبات الصالحة تستحوذ على الغذاء ، فهنا خط دفاع أول وهو الجلد ، وخط دفاع ثان وهو العصير المعدي ، وخط دفاع ثالث وهو الامعاء المهلكة لهذه الأعداء ، فهذه الأعداء الداخلات في الجسم أشبه بالأمم الأوروبية لما اجتمعت كلها لإهلاك الأمة التركية وقتلها ، وتبديد شملها ، وقطع دابرها ، وكنتم أنفاسها وإبادتها من الوجود ، فلم تتعد السواحل ، ولكن لما أرادت التوغل في البلاد بما أرسلت من عساكر اليونان من جهة ، والفرنسيين من جهة أخرى هلكوا ذبحاً وتقطيعاً شنيعاً ، ورجعوا بخفي حنين هكذا هذه الجنود من الميكروبات لما دخلت الجسم ولم يهلكها العصير المعدي أهلكتها الامعاء بقلعة الميرة الواسلة إليها وبجسها في مكان مظلم لا هواء فيه فقطع أنفاسها فهلكت ولات بين مناص .

هذا ما كان من جهة الجيوش الجرارة الواسلة من الفم ، فاذا وصلت من طريق آخر وتسكثرت كأن وصلت بطريق جرح أو نحوه وتسكثرت بأي طريق كان فانها تتوغل في الجسم ، وتفتك بالخلايا الجسمية ، وتقطعها تقطيعاً ، وتتغذى بالمواد الغذائية التي في الجسم ، فهناك يصل الخبر إلى بقية أجزاء الجسم ، فتأتي الجيوش من أطراف المملكة ، وتحاصر المكان ، وتقتل ما فيه من الميكروبات ، وهنا تكون القتلى من الجيوش المهاجمة ، والجيوش المدافعة ، والخلايا التي وقعت في ساحة القتال ، فهذه كلها تصبح مادة سائلة صفراء يذبذبا الجسم إلى الخارج ، وهذه العملية نراها في أمثال الدم ، فهو في أثناء حصار الجنود الجسمية للجنود المهاجمة من الميكروبات يبدأ نموه ، فاذا وقعت الواقعة ، وانتهت المعركة ، فهناك تكون المادة السائلة ، وهو القيح ، وهنالك تقوم الجيوش الوطنية بعملية تخفيف الجرح وتنظيم المكان بعد أن تفتح الجلد بأن تأكل منه جزءاً فيخرج القيح ، وهو رمم الأعداء ومن معهم ، هذه حال هذه المواقع الحربية .

ومن عجب أن الانسان اذا شاكته شوكة في يده مثلاً أحس بعد مدة قصيرة أن هناك تحت إبطه وربما فما هو ذلك الورم ؟ وهل ذلك الورم إلا ثكنة من ثكنات الجنود الوطنية في الجسم التي اجتمعت لتهاجم الجيوش الجرارة التي اجتمعت لتطاردهم الأعداء الزاحفين على هذه المملكة من ذلك الجرح ، وقد يحصل للمريض حتى بسبب تعفن الأخلاط في الجسم ، وهذه الحى إنما جعلت في الجسم لأن الأخلاط المتعفنة يعوزها حرارة ترتفع للتخلص منها ودفع شرها ، ولو أن المريض كان من ذوى الإرادة القوية فلم يكثر من الطعام ، أو أكثر منه ولكنه جعل الجسم مثزناً بما يفعله من التمرينات العضلية ، أو المشي في الجلاء ، أو الجاوس في ضوء الشمس مع الاحتراس ، كما هو موضح في أول سورة يونس ، أو استحم بالبخر ، أو بالماء الساخن أو بالكهرباء .

أقول : لو فعل المريض أحد هذه الأعمال لم يقع في الحى ، فهنا حتى ودماغ وقروح وأورام غيرها ، فهذه كلها لم تسكن في الجسم لا يذء الانسان ، بل لاصلاح جسمه ، وما هذه الآلام إلا مذكرات ، فهي سعادة لاشقاء ، ونعمة لائمة .

فلما سمع ذلك صاحبي . قال : أهذا نوع الكلام الذي يقوله ذلك الطبيب المصري في خطبته الآتى ذكرها ؟ فقلت نعم ، ولكن الذى له إنما هي عناصر الموضوع ، فأما بناؤه فأنما هو من هيئة سير التفسير

ونظامه . فقال : أحسب أن أسمع خطبته إذن بنصها . فقلت : سبأني ذكرها قريبا إن شاء الله

## إيضاح مختصر لجنود الله في الأرض

من قوله تعالى : ولله جنود السموات والأرض

وذلك ما قرأته في كتاب الترجمة في المدارس الثانوية ، ذلك أن الدم عبارة عن سائل لالون له ، وهذا السائل يحتوي على جراثيم صغيرة كثيرة يسمونها الخلايا ، وهذه الخلايا قسمان : قسم أشجر وقسم أبيض ، وكلا القسمين في غاية الصغر ، حتى أننا لو أخذنا قطرة دم صغيرة (وهي لا تكون أكثر من جزء من ٢٠ ألفا من البوصة المربعة) وسللناها لوجدنا ما فيها من الخلايا الحمراء تبلغ خمسة ملايين خلية ، وما فيها من الخلايا البيضاء (٩) آلاف خلية ، ولا جرم أن القطرة المذكورة المحتوية على هذا العدد العظيم لا تعدو أن تكون قدر سنّ الأبرة لاخير ، فإذا كان هذا العدد العظيم لهذا المقدار فكيف في تلك الأبطال الكبيرة من أعداد هذه الخلايا ، ثم إن وظيفة الخلايا الحمراء تنقسم إلى قسمين : قسم هو جلب المصالح ، وقسم هو درء المفاسد ، فهى من الجهة الأولى أشبه بالعتالين والشيالين ، وأصحاب العربات والسيارات الذين يتلقون الواردات إلى المدينة ، وينقلونها إلى أطراف المملكة ، ومن الجهة الثانية أشبه بالزبالين والسكناسين ورجال مصلحة المجارى بمصر أولئك الذين يصرفون ما ينزل من البراز والمخوات الضارة في مراسير تدفعه إلى الخارج دفعا للضرر عن السكان ، فهذه الخلايا الحمراء هكذا تصنع فهى تستقبل مادة الحياة السارية في أطواء السماء بالكسوجين فتحمّلها من الرتين وتجري بها لتوصلها ، وتوزعها على أطراف المملكة بالسواء ، وهكذا متى فعلت ذلك رأت بقايا حاصلة من الأنسجة بعد تفاعلها ضارّ بقاءها بالجسم ، فهذه الخلايا الحمراء تحملها وترجع بها جارية جريا حثيثا حتى توصلها إلى الرئة وتعطيها للهواء الجوى ، فيقبلها ويفسدها خارج الجسم ، فنرى أثر ذلك في المرآة إذا تنفسنا أمامها ، فيكون هناك مادة خفيفة على الزجاج تمنع رؤية صورنا ، وهذه المادة الفعّمية هى التى نشأت من احتراق المواد الغذائية في الأنسجة ، فهذا كله أشبه بما نفعل في مدننا من استقبال النافع ونبذ الضارّ . هذا ما كان من أمر الخلايا الحمراء ، وهى أيضا تعطى الدم لون الحرة أما الخلايا البيضاء فإن منفعتها أشبه بالجنود المجندة في المدن ، المدافعين عن البلاد ، الشاكي السلاح ، الشجّهان الجاجيع ، الأماثل العظاماء . فهؤلاء إذا وردت جيوش قتالة من الخارج ، وما أكثرها في الجوّ ، وما أسرع وصولها إلى أجسامنا ، فإن هذه الجيوش البيضاء تقاومها ، وتحمى حتى السيار ، وتحامى عن السكان ، وتحفظ البيضة ، وتقارع الأبطال ، وبيان ذلك أنها تصطف صفوفا ، وتهجم على الجيوش القادمة ، وتحترق أجسامها ، وتسكنم أنفاسها ، فتختنق أو تلقى عليها السم وتموت ، هذا فعل الخلايا الحمراء والخلايا البيضاء .

فلما اطلع صاحبي على ذلك . قال : هذا قول جميل ، لاسمائه يقينى لأنك ترجمته من كتاب محترم في المدارس ، فليس يعقل أن يكون فيه خطأ ما ، ولكنى أريد أن أرى ذلك بعينى فليس الخبر كالعيان ، لأنى لو رأيت ذلك بعينى لكان ذلك من مضمون قوله تعالى : «سأوريكم آياتى فلا تستعجلون» وقوله أيضا : «ولتعلن نبأ بعد حين» وقوله : «وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها» . فقلت أما إذا أردت ذلك فهالك نص ما قاله الدكتور ، وهو ما جاء في الكتاب السنوى الثانى للجمع المصرى للثقافة العلمية ، فقد جاء فيه تحت العنوان التالى ما يأتى : —





أما الجسم البشري فإنه لا يمكنه أن يقاوم الميكروبات المرضية يجب عليه أن يبقى نفسه بأحدى الطريقين الآتيتين : — (أولاً) أن يقاوم دخول الميكروبات فيه (ثانياً) أن يبقى نفسه سمومها ، أو يبطل مفعولها ، أو يجعل نموها عسيراً ، إذا عجز عن مقاومة دخولها .  
فالعنصر وظاهرة التسمم من جانب الميكروبات ، والمقاومة ، وإبطال سمومها من جانب الجسم هي العوامل التي يترتب عليها ظهور المرض ، أو عدم ظهوره ، وقد تكفي مقاومة الجسم للعنصر إلا أن هناك ما يساعدها في مهمتها ألا وهي المناعة .

### المناعة

وهذه المناعة إما طبيعية وراثية ، أو جنسية ، أو مناعة فردية . فالحیوانات ليست كلها عرضة للأمراض بدرجة واحدة ، فمثلاً الأمراض الطنحية التي تصيب الإنسان كالطبحة والجدى القرمزية لا تصيب باقي الحيوانات كذلك بعض أمراض الحيوان كالطاعون البقري ، أو كوابير الخنازير ، فإنها لا تصيب الإنسان ولكنها تصيب الحيوان ، وذلك لأن أنواع الحيوانات تمتاز بمناعة خاصة ، وهذا النوع هو الذي يطلق عليه اسم المناعة الطبيعية الوراثية ضد بعض الأمراض ، كذلك هناك ما يسمى بمناعة الأجناس ، فمثلاً الجدى القرمزية لا تصيب الأجناس ذى البشرة السوداء إلا نادراً بخلاف الجنس الأبيض فهو شديداً الاستعداد للعنصر بهذا المرض ، وكما أن للأنواع والأجناس أحياناً مناعة ، كذلك توجد لبعض الأفراد مناعة ضد بعض الأمراض وكلنا نعرفها ونشاهدها يومياً ، فمن منكم لا يذكر سنة ١٩١٩ م لما انتشرت الانفلونزا الخبيثة التي أطلق عليها اسم « الجدى الاسبانيولية » وكيف أنها كانت تصيب بعض أفراد في بيت واحد ، وتترك البعض الآخر رغمًا عن تعرضهم للمرض واتصالهم المباشر بالصابين به ، ومن منكم لا يشاهد في أولاده أو أقربائه أن بعضاً من الأطفال يصاب بالسعال الديكي ، أو الجدري الكاذب ، والبعض الآخر يبقو سائماً رغم تعرضه للعنصر بميكروبات هذه الأنواع .

يبدو أن هذه المناعة للأفراد ، والتي نسميها المناعة الفردية ليست مناعة مطلقة كما هو الحال في مناعة الأنواع والأجناس ، بل هي مناعة نسبية قد تختلف باختلاف الظروف والطوارئ ، أو بعبارة أخرى أنها مناعة تتوقف على الاستعداد الشخصي للمرض ، أو قوة مقاومته له ، تلك المقاومة التي تتأثر بعوامل خارجية كثيرة كالعرض لدرجة الحرارة ، أو لتأثير الجوع ، أو التعب . وهذا في الجسم البشري ، ولنعود بعدئذ إلى ناحية الميكروب :

### الميكروب وقوة أمراضه

وكما أن الجسم له استهدافه ومقاومته كذلك الميكروب له أيضاً استهدافه ومقاومته ، فبعض الميكروبات لا يمكنها أن تتكاثر في جسم الحيوان لعدم ملائمة حرارته الطبيعية لنموها مثلاً كميكروبات المرض الفمحي ، فإنها لا تتكاثر في جسم الدجاج ، أو الضفادع ، لارتفاع درجة الحرارة في جسم الأولى وانخفاضها في جسم الثانية ، ولكنها تنمو وتتكاثر إذا خفضت درجة الحرارة في الأولى بنفس أرجلها في الماء البارد ، وزفعت الحرارة في الثانية بوضعها في أفران التفرج ، كذلك سلالات الميكروبات تختلف فيما بينها من حيث قوة أمراضها ، فهي قد تضعف في حلتها إذا عاشت في ظروف غير مناسبة لها ، وقد تزيد إذا لاءمها الوسط الذي تعيش فيه إلى غير ذلك مما لا يزيد أن نتعرض له في كلامنا الآن خشية أن يطول بنا البحث ونبتعد عن موضوعنا ، وإنما أردت فقط أن أبين لكم ماهية العنصر وما يتبعها من عوامل ومؤثرات . ودعوني الآن أن أنتقل بكم إلى موضوع محاضرتي هذه وهو شرح تلك العداوة الكامنة بين الجسم والميكروب :

## المدافعة بين الجسم والميكروب

الجسم والميكروب يحكم تنازع البقاء صدوان لدوران ، كل يطلب الحياة لنفسه دون غيره ، مهما كان ذلك من عناء أو تضحية ، وهو لا يتعفف في سبيل ذلك أن يفرغ مافي جعبته من قوة لآبادة الآخر ، كلاهما يتسلح بما وهبته الطبيعة من وسائل الفتك أو المقاومة لكي يفوز بالنصر في آخر الأمر ، تلك سنة حياتهما كما هو الحال مع باقي أعم العالم سواء بسواء .

والجسم الانساني يشبه في تكوينه وترتيبه ونظامه إحدى ممالك العالم ، لأنه مكون من خلايا أشبه بالكائنات الحية ، فلا حرج علينا إذن إذا استعملنا اصطلاح « مملكة الجسم البشري » عند الكلام على دفاع الجسم ضد العدوى ، وكما أن لكل مملكة حدودها الطبيعية من جبال وسواحل بحرية وجيوش تعبا ، ووسائل متنوعة لصد العدو ، أو الفتك به ، كذلك مملكة الجسم لها حدودها الطبيعية التي تفصلها عن عالم الكائنات الأخرى ، ولها وسائلها في السكفاح والقتال ، فالحدود الطبيعية في مملكة الجسم هي الجلد مع ما يتبعه من البشرة القرنية ، والغدد الشحمية ، والغشاء المخاطي الذي يبطن التجاويف الأنفية والحلقية ، والمساك الرئوية ، والقناة الهضمية .

فالجلد هو ذلك السور الذي يشبه في أهميته ما كان لسور « بكين » بالصين من أهمية في صد غارات الأعداء عليها ، بل هو الدرع الذي تنساقط تحته قنابل العدو عاجزة عن تخطيه ، ونحن إذا خصنا تلك الطبقة التي تغطي وتحمي كل جزء في جسم الانسان ، وجدنا على سطحها أنواعا لا تحصى من الميكروبات . منها العاطلة . ومنها المرضية كيميكروبات التقيح الصديدي ، وهذه الميكروبات وغيرها من الميكروبات الخبيثة ( كيميكروبات الدرن أو السكزان ) لا يمكنها أن تنفذ من ذلك الدرع القوي طالما لا يوجد فيه أية ثغرة تفسرّب منها إلى داخل البدن ، وهذه القوة الدفاعية الخاصة بالجلد ليست قوة ميكانيكية خسب ، بل هي تتوقف أيضا على بعض عوامل أخرى تتصل بها ، فهناك مثلا العرق المعروف بموضته التي لا تلامس حياة الميكروبات وخصوصا الميكروبات المرضية ، وهناك حركة التجديد المستمر في الطبقات السطحية للجلد حيث يقذف هذه الأجزاء أولا بأول ، فيزيل باستمرار ما تجمع عليه من كائنات حية ، خصوصا اذا ساعدناه في أداء مهمته باتباع ما وصلنا إليه من تعاليم النظافة والتجميل ، فأعطيناه حقه من الغسيل والاستحمام .

## الميكروب في داخل الجسم

وليت الأمر يقتصر على ذلك ، فإن جسم الانسان أو الحيوان وهو يتنفس أو يأكل أو يشرب يجتذب إلى داخله هذه الأعداء ، عند ما تكون معلقة في الهواء ، أو منبثة في الغذاء ، أو سابحة في المشروبات . ( وبعبارة أخرى ) تتصل هذه الميكروبات مباشرة بالغشاء المخاطي للفم والحلق والمعدة والأمعاء وأعضاء التنفس ، ولو أن الغشاء المخاطي بطبيعته أقل مقاومة لهجوم الميكروبات من الجلد إلا أنه يمتاز عنه بأن به مادة مخاطية يفرزها ، وهذه المادة الأزجة التي كثيرا ما تعافيا أنفسنا لها مهمة جليلة في قنص الميكروبات كما يقنص ورق الصمغ الذباب ، ثم بعد قنصها تطردها إلى خارج الجسم بواسطة البطس ، أو البصق ، أو السعال ، أو المخط ، ولكي آيين لكم شأن هذه المواد المخاطية في طرد الأجسام الغريبة إلى الخارج أذكر لكم أن العلامة ( هيس ) لاحظ أن العامل الذي يشتغل عشر ساعات يوميا في الأسمنت يستنشق في السنة ما يقدر بـ ٣٠٠ جرام من هذا التراب ، فإذا استمر في عمله هذا عشر بن عاما يجب أن يكون قد استنشق نحو

سنة كيولوجرامات من الأسمنت أودعت في جوفها كلها ، اللهم إلا إذا تخاف منها بواسطة الهطس أو البق كما ذكرنا ، وعلى هذا القياس يمكنكم أن تذكروا المقدار الكبير من الأجسام النارية التي يمكن أن يتخلص منها الجسم بواسطة أغشيتها المخاطية وعمائها الجيب . رأيت وظيفة الغشاء المخاطي وظيفة ميكانيكية ، بل إن له أيضا قوة خاصة في إبادة الميكروبات ، فقد دلتنا الاختبارات على أن مخاط الأنف ، ودموع العينين ، لها هذه القوة ، لاستوائها على نوع من الجراثيم ، تسمى الجراثيم الحلة « ليزوزيمات » تذيب وتحلل الميكروبات فتقتلها إذا ما اختلطت بها ، ورغم أن وجود هذين المادتين : المخاط والجراثيم ، فقد تصل الميكروبات مع ذلك إلى القصبة الهوائية وشعبها ، ولكنها لا تبلغ إلى الرئة نظرا لوجود خط آخر من خطوط الدفاع يقف حائلا في طريقها ، ذلك الحائل هو الأهداب الموجودة على سطح الغشاء المخاطي لهذا الجزء من الجهاز التنفسي ذات الحركة الدائمة من أسفل إلى أعلى أي إلى جهة الفم ، طاردة بذلك كل ما يكون قد بانها من أجسام غريبة ، أو كائنات مؤذية . أما إذا دخلت الميكروبات مع الأكل إلى المعدة فانها تلتقي هناك بالعصير المعدي الذي يحتوي حامض ايدروكلوريك بنسبة ١ إلى ٢ في الألف ، وتلك النسبة كافية غالبا لقتل الميكروبات المرضية ، غير أنه يفوق عمل هذا الحامض ( أولا ) إن الميكروبات تكون غالبا مغطاة بمجزيئات الطعام التي تحول بينها وبينه ( وثانيا ) إن المعدة قد تكون سريعة العمل في اخراج ما بها إلى الامعاء ، فتتمرد الميكروبات بها سراعا قبل أن تقع تحت تأثير عصيرها المطهر ، واسكني أثبت لحضراتكم قوة العصير المعدي في قتل الميكروبات أذكر تلك التجربة المشهورة في تاريخ علم البكتريا التي قام بها العلامة ( بيتينكوفر ) وتلميذه ( ايمريخ ) التي أرادا بها أن يثبتا تأثير جراثيم السكوابا على معدة سليمة وأخرى مريضة ، فتناول أولهما عدة سنتيمترات مكعبة من مزرعة الميكروبات في المرق ، أي أنه تناول آلاف الملايين من الميكروبات ومع ذلك لم تظهر عليه أي أعراض مرضية مطلقا ، أما تلميذه الذي لم تكن معدته صحيحة كمعدة أستاذه فانه أصيب بكتوليرا حقيقية ، وكاد ياتي حتفه ، وهذا يدل على المهمة الخطيرة لهذا العصير .

بقي أن نعرف ما يحدث إذا ما وصلت ميكروبات الأمراض إلى الامعاء ؟ وهنا أيضا تجد نفسها أمام عقبات وتمتد حياتها عدة أخطار ، فأولا عدم ملازمة الجو هناك لمعيشتها ، ففي الامعاء لا يوجد غاز الأكسوجين ، وهو ذلك العنصر الحيوي لفالليسة الميكروبات المرضية والتي لا يمكنها أن تعيش بدون ، وثانيا التزاحم الذي تلاقيه من الميكروبات الحيدة التي تحيا وتعيش في هذا الجزء من الجسم ، ففي الامعاء يعيش دائما ميكروب هادئ وديع سالم يسمى ( ميكروب القولون ) يعيش من فضلات التغذية كما أنه يقوم بدور ليس بالضئيل في عملية الهضم ، وهذا الميكروب يحكم حيويته يحرم الميكروبات المرضية من غذائها ، فيحرمها بالتالي سبيل الحياة . بل هو يعمل أكثر من ذلك ، لأنه يمنعها من الفؤ والتكاثر بما يفرزه من مستحضات وفضلات . إن هذه الحقائق التي ذكرتها إن هي إلا صورة من الموانع الطبيعية التي تقى ملكة الجسم البشري ، ولكن الخطر الحقيقي يحدث إذا ما اخترق العدو الحدود ووطأت قدماء أرض هذه المملكة ، هل يسلم أهل البلاد ويلقون سلاحهم أمامه ياترى ؟ أم هناك أسلحة أخرى يدافعون بها عن كياناتهم وحياتهم ؟ ذلك ما سأوضحه لحضراتكم فيما يجيء من الكلام :

### الخلايا البالغة

إن الجسم البشري كسكل الكائنات الحية ، يخضع لقوانين الطبيعة ، وكل كائن حي يعمل لحل وهضم كل ما يدخل إليه من مواد عضوية أو غير عضوية ، وذلك بواسطة عملية الهضم وتحويل هذه المواد الغريبة إلى أخرى تدخل في تركيبه أو بنيانه ، هذه العملية تشاهد في أبسط صورها في الحيوانات المركبة من خلية



واحدة ، وهي التي نسميها « الاميبا » فهذه الاميبات ترحف بواسطة أرجل تطلق عليها « الأرجل الكاذبة » لتجد في البحث عن غذائها المكون من الميكروبات والطغالب ، فتأخذها في داخلها وتمضغها . ولما كانت عملية الاغتذاء هذه قاصرة على الانهزام فالباغ ، فقد أطلقنا عليها اسم الخلايا البالعة ، أو البلعومات ، كما أننا أطلقنا على هذه العملية اسم « البلعمة » .

ولاست عملية البلعمة قاصرة فقط على هذه الحيوانات الدنيئة ، بل يكاد يكون في كل حيوان بعض من الخلايا مازال محافظا على هذه الخاصية ، فمثلا توجد في جسم الانسان خلايا الدم البيضاء ، والخلايا المبطنة لتجاويف البطن والصدر والأوعية الدموية والليمفاوية ، وهي خلايا لها قدرة على التهام وبلع الأجسام الغريبة وهضمها . أما وقد عرفنا أنه يوجد بالجسم خلايا لها قوة بلع المواد الغريبة عنه ، فلماذا الآن إلى نقطة دخول الميكروبات إلى الجسم .

دعونا إذن نتصور أن واحدا منا قد وخرته إبرة ، فإذا كانت الإبرة نظيفة فإن الانسان يشعر فقطط بالآلم الوقتي ، ومن ثم يلتئم الجرح ، وينتهي الأمر ، ولكن الحال تختلف اذا كانت ملوثة تحمل بعض الميكروبات التي قدر لها أن تنفذ من الجلد داخل البدن ، فلو كانت هذه من الميكروبات العاطلة الروامة التي تتغذى على التخلخلات النباتية ، أو الحيوانية هان الأمر ، لأنها تموت أو تتحلل بواسطة خلايا الجسم الحية ، أما لو كانت هذه الميكروبات المرضية التي تنذوق الدم وتستمرئه ، وتعرفت حلاوة ما يحتويه البدن من محاسن الغذاء فاستطابته ، وتعذفت عن غيره من الطعام ، نقول لو كانت كذلك لكان لها شأن آخر ، إذ لا يمكن لخلايا الجسم أن تتخلص منها بسهولة ، لأنها تتميز عن تلك بسمومها التي تهاجم بها الخلايا فتعطأها وتشاها عن القيام بواجبها .

### الحرب بين الميكروب والخلايا

وصل بنا الحديث إلى أن الميكروبات ، وهي أعداء الجسم قد تمكنت من اختراق الحواجز الأمامية والاستقرار في الجسم ، ولم يبق أمام قوة الدفاع وهي الخلايا إلا أن تمتشق حساءها ، وتخوض غمار حرب ضروس لا رجعة فيها ولا شفقة ، حرب للحياة أو للموت ، لا تختلف في معادياتها وآلاتها عن حرب الجيوش البشرية كما أن جنودها لا تنقصهم آيات البطولة والتضحية ، والآن اسمعوا لي أن أروي لكم قصتها كما نراها تحت الميكروسكوب :

تدخل الميكروبات مملكة الجسم ، فتجد نفسها في أرض جديدة غريبة عنها ، فتجتمع أمورها ، وتلم شملها ، ثم تسدو على الخلايا المجاورة لها تبرز منها غذاءها ، ثم تتكاثر على طريقها بالانفلاق إلى اثنين ثم أربع وهلم جرا ، وبعد ذلك الاستعداد لتبديء في هجموها ، فتنفث من أجسامها سما قاتلا ترمى به أفراد المنطقة التي احتلتها ، وإذا ذلك لا تستطيع الخلايا أن تقف مكتوفة اليدين ، بل تعتمد على الفور إلى الدفاع عن نفسها ، فتقذف عليها سيلان من المصل السوي ، يهون من فعل هذا السم ، ويخفف من حدته ، ثم تنجلى المعركة الأولى عن قتلى وأشلأء من خلايا الجسم ، ثم تتحلل هذه الأشياء إلى عناصرها الأولية كما يتحلل كل حي عند مماته ، وتعملها مياه الوطن إلى كل جهة من جهاتها كأنها نذير بالخطر الذي يتهده ، وبالكارثة التي حلت به ، ولا تلبث أن نرى الحماة تخرج من معازلها ، وما تلك الحماة ؟ وما هؤلاء الجنود ؟ إلا الخلايا البيضاء ، أو البلعومات التي ذكرناها ، والتي يقع عليها عبء الدفاع عن أرض الوطن ، إذ لا يمضي زمن طويل حتى تمتد الأوردة الشعرية فتزيد كمية الدم صوب المنطقة المصابة ، وعند ما تصل البلعومات السابحة في مجرى الدم إلى تلك المنطقة تنقل إليها وتدخل ميدان القتال زاحفة كما نزحف الاميبا ، فرادى في أول الأمر ، ثم

جساعات بالملأى وبالألوف ، وعندئذ تصبح الحرب سجالاً ، فالإيكروبوتات تنفث سمومها ، والجسم يعرقل عملها بميل من المصل ، فتتفخ المنطقة المصابة وتضمر ، وذلك ما تفرزه بالتهاب ، ثم تقترب الباعصات رويدا رويدا من العدو ، وتأتيه من أمامه ومن خلفه ، ومن الجناحين ، وتحوطه من كل النواحي ، ثم يأتيها المدد من آن لآخر ، فترداد عددا ، وتشدد محاصرا عليه ، ثم تبني سوراً منيعاً حوله يفصله عن باقي الجسم ، وإلى هنا تكون قد انتهت المناوشات والمناورات ، وتبديء ببث الحزرة البشرية ، فتتقدم كل بلدة إلى الميكروب الذي أمامها تطبق عليه بجسدها حتى تقتله في جوانبها لثقله ، وقد ينجح الكثير من هذه الباعصات في قتاله وقد يموت البعض شهيداً الواجب ، ولكن العدو لا يستسلم لليأس ، ولا يسلم بسهولة ، بل يعود إلى تنظيم صفوفه من جديد بعد أن يملأها بمحاربين آخرين ، بدل العشرة مائة ، وبديل المائة ألفاً ، هذا من ناحية الميكروب ، أما من ناحية الخلايا فإنها أيضاً تساهم النجدة والمدد ، وتستأنف المعركة من جديد على أقصى ما يكون من الشدة ، ولكن إلى متى تستمر فرق الجيوش بعضها أمام بعض تتطاحن وتتقاتل : بل إلى متى تتحمل المملكة هذه الحرب ؟ لا يمكن أن تستمر الحال طويلاً ، وأذن لا مندوحة عن التهيئة العامة لكل محارب ، وكل من يمكنه حمل السلاح .

الآن نهرع كل بلعسات الدم إلى القتال على جناح السرعة ، ونخرج الرديف منهم والخزون في مستودعات الطحال ونجماع العظام إلى ميدان القتال ، وهنا نسمع دقات ناقوس الخطر « الجسم في حنى » لقد حشد الجسم الآن آخر رجل في ثكناته للقيام بأخطر مجهود ، فلما نصر ، وأما هزيمة ، وهل يتم له النصر ؟ من يدري ربما كان كذلك ، لأن العدو وإن كان قد زاد عدداً إلا أنه لم يتوغل كثيراً في أرض الوطن ، بل أصبح محاصراً في مكانه ، وإذا كانت مملكة الجسم قد جرت حرب الخنادق ولم تفاج فيها كثيراً فلم يبق بد من تغيير خطة الحرب كما يفعل كل قائد ماهر في مثل هذه الأحوال .

الآن تبديء المملكة في توضحية جزء منها لكي يسلم المجموع ، ومن ثم يقع تنفيذ هذه المهمة على عاتق الباعصات أيضاً ، فهي تبديء في اتلاف النسيج المصاب أولاً بقتل الخلايا وثانياً بهضمها وتحويها إلى عسيمة سائلة ، فينشأ عنه تجويف مملوء بهذه السائل ، أو تملأون ما هو هذا التجويف ؟ هو الخراج الذي يظهر في موضع حصار الميكروبوت ، والسائل هو ذلك الصيد الأصفر المسكون من أنسجة مهضومة ، وآلاف من الباعصات وملايين من الميكروبوت ، ثم يأخذ هذا الخراج في الازدياد ، وكلما ازداد حجماً صار ألين وأمع حتى إذا لمس أحسن الإنسان بترجيع السائل فيه ، وليت عمل الباعصات يقف عند هذا الحد بل إنها تتجه صوب الجلد فتتلفه وتهضمه من أسفل حتى ترقق طبقته وتحدث ثمرة فيه فيندفع الصديد إلى الخارج ومعه الميكروبوت .

الآن والآن فقط قد طرد العدو خارج المملكة بعد معركة هامية كان النصر فيها غالباً ، لقد كفها ثمناً غالباً وتضحيات في أفرادها ، ولكن يهون كل ذلك مادامت المملكة قد أقدمت ، وهنا يهدأ بال الجسم على مصيره وكيانه ولكن الباعصات هؤلاء الحماة الأشداء لا يهدأ لهم بال وفي الجسم جراح فيهمدين إلى عملية الاندمال لأنهن أبناء المملكة البررة وعنتها في الحوادث والملمات ، ويجب عليهن أن يظهرن ميدان القتال من جثث أعدائهن ، ومن أشلاء مواطنيها ، حتى يمكن للجلد أن يتجدد ويستأنف الثغرة ، ويكون ذلك بأحداث ندبة تبقى على عمر السنين والأعوام كمنصب تذكارى ينبئ بمكان المعركة والنصر الذي فاز به الجسم ضد أعدائه المغيرين ،

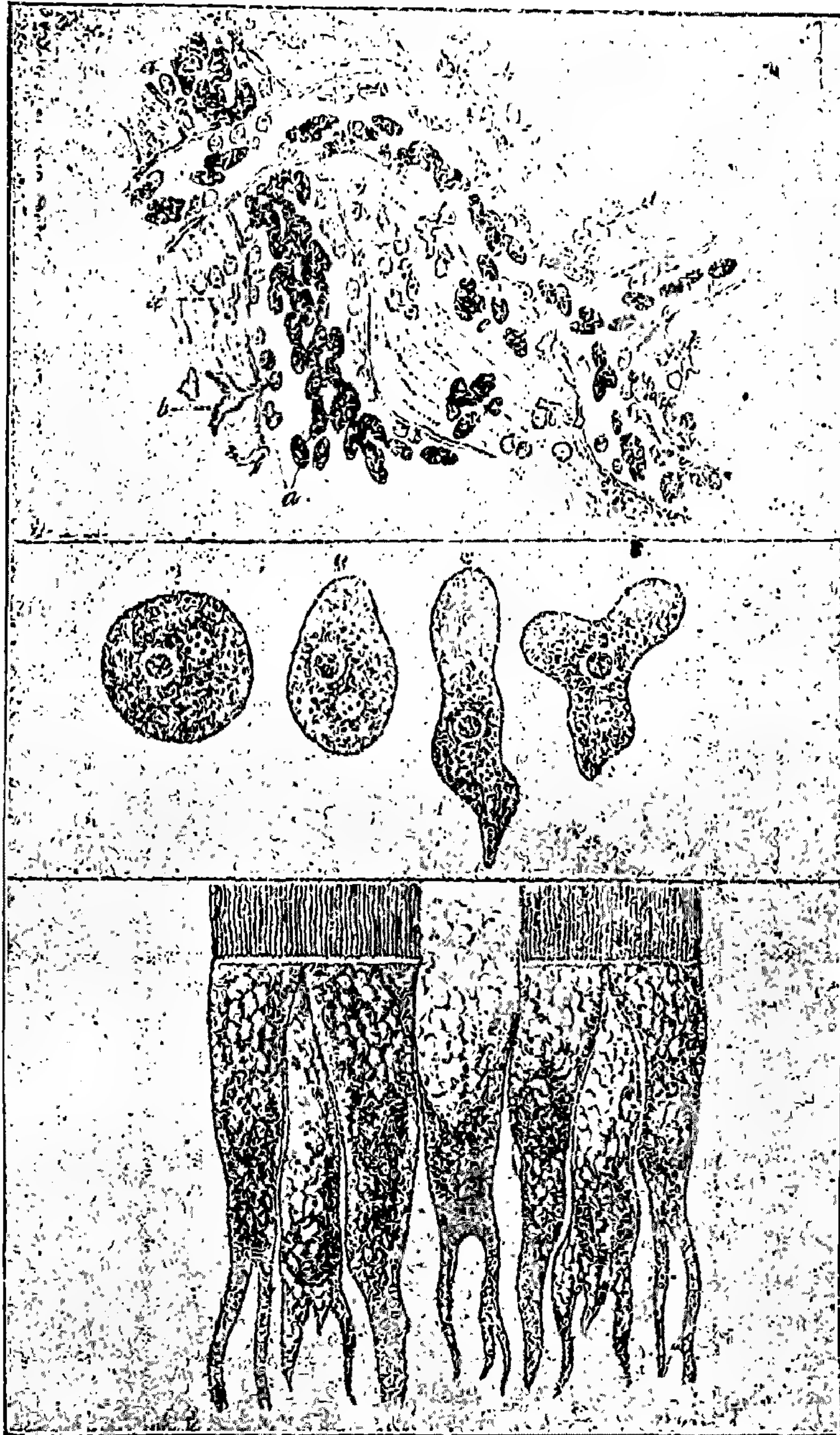
سادنى : عند ما وصفت لكم المعركة الأولى قلت لكم : ان الباعصات تقترب رويدا رويدا من العدو ، وتأتيه من أمامه ومن خلفه ، ومن الجناحين ، وتحوطه من كل النواحي ، وتحاصره إلى أن تبني من نفسها

سورا منيما حوله ، يفصله عن باقى الجسم ، ولكنه قد يحدث أن يكون العدو من شدة البأس والقوة ما يمكنه من أن يحطم جزءا من هذا السور وتغلب بعض جنوده داخل المملكة ، فما العمل إذن ؟ هل تتركه المملكة ينساب فى أحشائها فبعث فى البلاد فسادا يودى بهيمة كل من يتألبه فى طريقه من الأحياء ؟ أم هل اتخذت المملكة أهبتها مثل تلك السكوارث ؟ نعم انها لم تكن غافلة عن ذلك ، منذ نشأتها ، لأن فى داخليتها حصونا وقلاعاً ملاءى بالجيش على أتم استعداد لمثل هذا اليوم الصعب ، وذلك الحصون والقلاع هى الغدد الليمفاوية ، فإذا ما اخترق العدو بجوانبها الليمفية ، وتخطى خط الدفاع الأول فان مجارى الليمفا تحوله إليها فيلاقى حتفه فيها ، وذلك لأنها عبارة عن ثكنات دلائى بالباعصات المقاتلة .

ويوضح لك أيها الذكى ما تقدم ما تراه فى هذه المفعلة فى (شكل ١ و ٢) فانظره ترى العجب العجيب !  
وهاك صورته :



يمين — — (شوق) : حركة الأهداب التوجيهية . (نحت) : شكل الباعصات لدى خروجها من الأوعية الشعرية  
وسط : الغدد والجارى الليمفاوية — يسار : تجمع الميكروبات بواسطة اللزقات  
(شكل ١)



( شكل ٢ )

فوق : تمّدد الأوعية وابتداء انتقال البلعمات إلى المنطقة المطلوبة .  
 وسط : شكل الأميبا .  
 تحت : الخلايا الهدبية المبطنة للقصبه الهوائية .

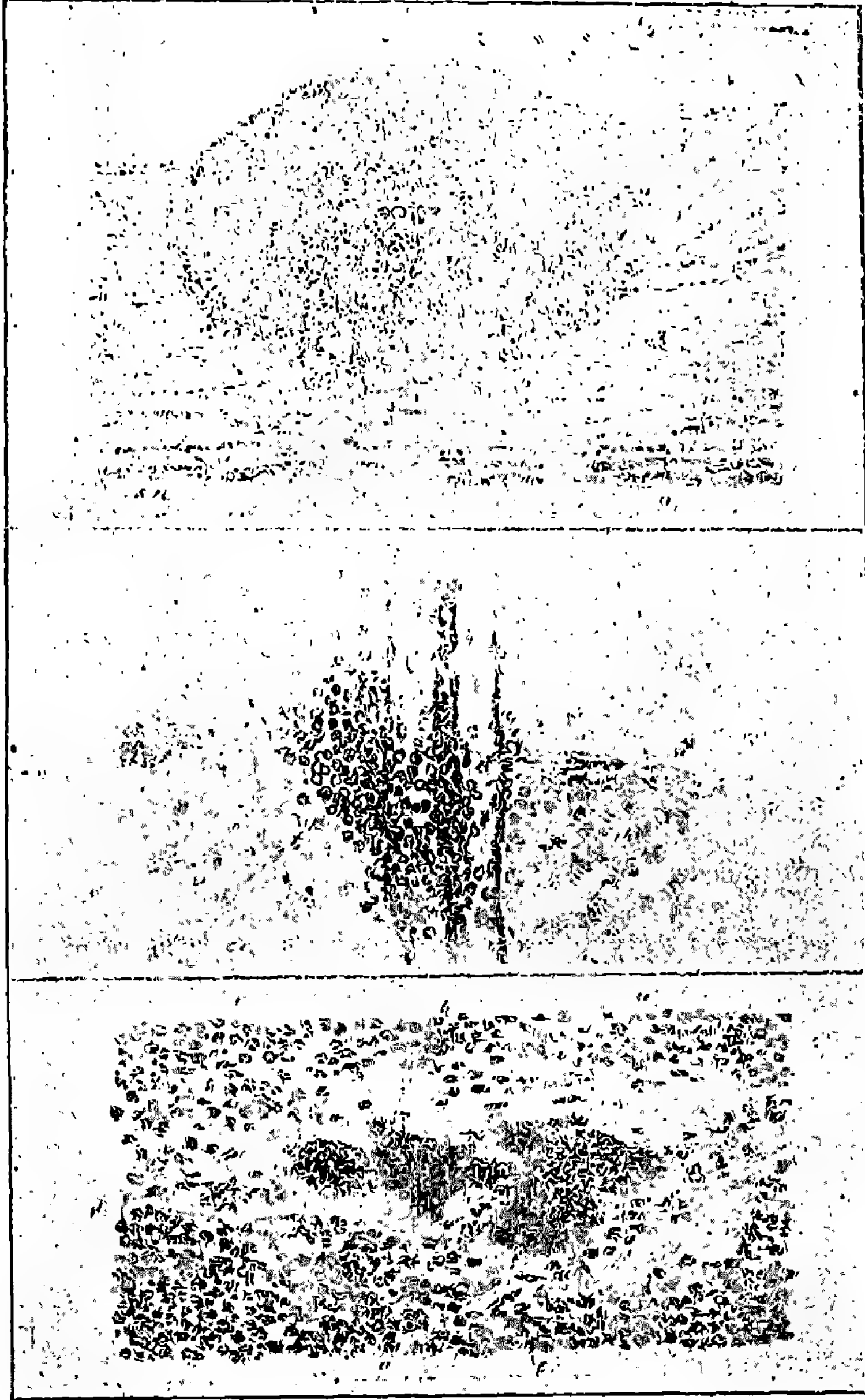


ولكن أقرب ذلك إلى الفهم أقول : إن أغلبكم يعلم أنه عند حدوث بعض الجروح في اليد ، أو الذراع ، ينشأ عن ذلك ورم صغير مؤلم تحت الجلد ، وما ذلك الورم الصغير إلا عبارة عن غدد الليمفاوية تهبط نفسها للدفاع عن الجسم فتملأه بالبلعومات التي تقف في سبيل الميكروبات المغيرة عليه .

ولكن قد يحدث أن العدو بفضل قوته وضعف مقاوميه قد يتخطى أيضا خط الدفاع الثاني كما يحدث أحيانا في الحروب العادية ، أي أن القلاع (أي الغدد الليمفاوية) لا تقوى على صد غارات الأعداء المهاجمة فإذا يكون العمل بعد أن أصبح العدو الآن حرا طليقا في حركاته ، لاجنود أمامه تقائله ، ولا حصون تعرقله ؟ بل هو ينساب في البلاد ، سائرا في طرقها الرئيسية ، أي في الأوعية الدموية ، ملتصقا بالغذاء والحياة لينمو ويتكاثر فيها ، إذن الوبيل ثم الوبيل لهذه المملكة البائسة التي تصبح فتري أن في كل زاوية من زواياها ، وفي كل مقاطعة من مقاطعاتها أجنبياء يذيقها الهلاك والردى .

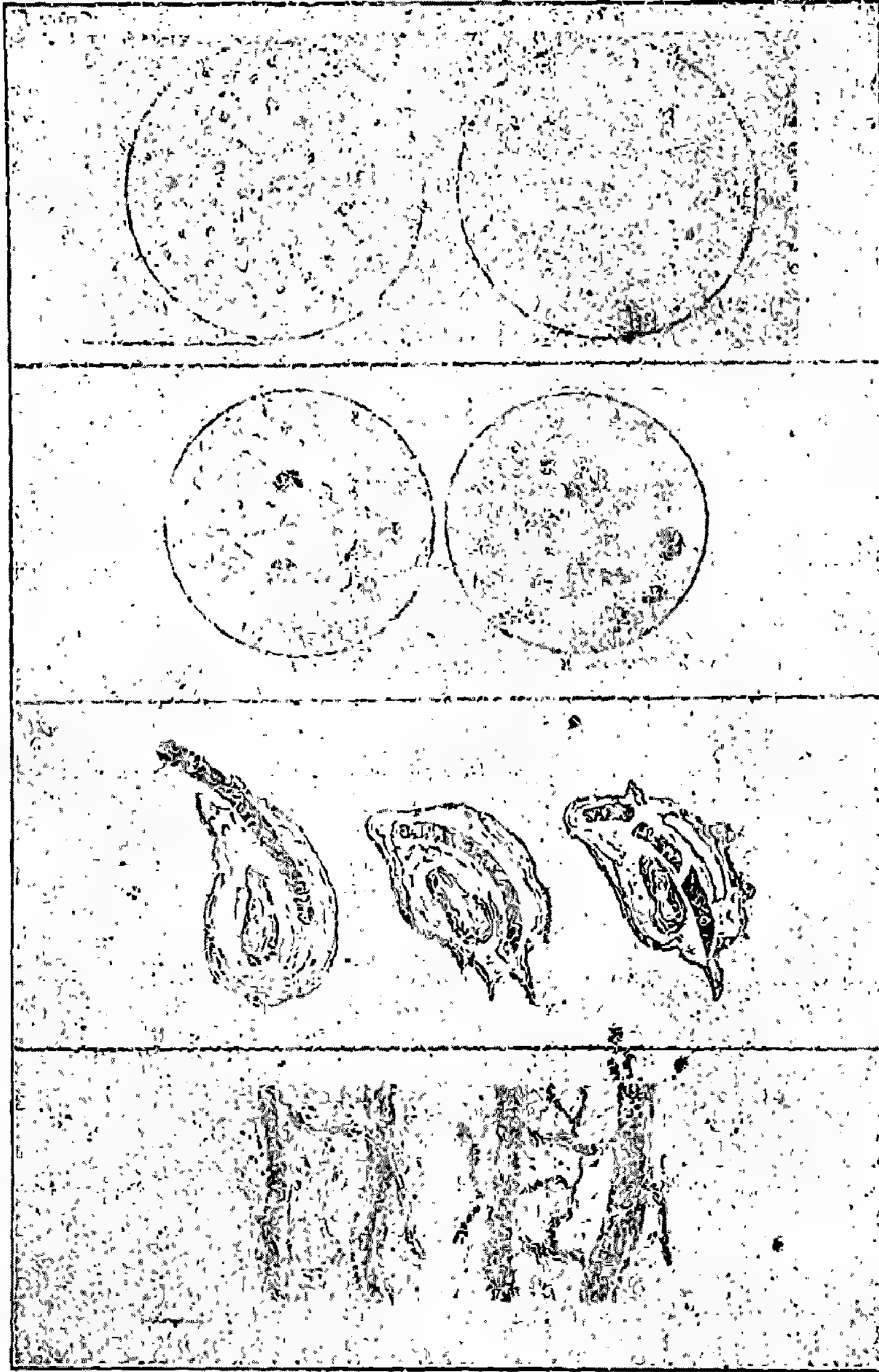
وإذا كان هذا هو الحال في ممالك الأمم فليس هو كذلك في مملكة الجسم البشري القوية المنظمة ، وما ذلك إلا لأنه لم ينضب بعد معين دفاعها ، وما زالت تحتفظ بوسائل أخرى للدفاع ، إن في دماغها الذي يجري من قبة رأسها إلى أخمص قدميها ، ومن طرفها الأيمن إلى طرفها الأيسر من الوسائل ما هو أشد قوة وأكثر فعلا من الوسائل الأخرى التي شاهدناها إلى الآن ، وهذه الوسائل المتخزنة للأيام العصيبة أي عندما يتسمم الدم وتسهر النيران فيه . قلت الدم ، والأخرى بنا أن نقول مصل الدم أي ذلك الجزء المانع منه الذي يمكن فصله بعد تخثره من الجلطة الدموية ، إن هذا المصل الذي يحتوي على مواد مهلكة تبديد الميكروبات سماها العلامة (بوشنر) الذي كان أول مكتشف لها ، والتي يمكن أن يعبر عنها بالعربية « بالمواد الداحرة » وبالطبع لا يمكننا مشاهدة عملية قتل الميكروبات كما تشاهد ظاهرة البلعومات تحت الميكروسكوب ، ولكن يمكن تتبعها بواسطة التجربة ، وذلك أنه إذا أخذنا جزءا من المصل الدموي ، وأضفنا إليه قليلا من الميكروبات الحية ، ثم أخذنا من هذا الخليط نماذج في فترات متعددة وزرعناها على البيئات الملائمة لنموها الميكروبات رأينا أن عدد الميكروبات النامية على المسندت يقل شيئا فشيئا حتى ينتهي الأمر إلى عدم العثور عليها ، لأنها تكون قد ماتت وأبيدت من جراء تأثير المصل عليها ، كذلك توجد في المصل مواد أخرى أقل فعلا من المواد الداحرة ، فهي لا تهلك الميكروبات وتقتلها ، ولكنها تشل حركتها فقط ، وتجدها على بعضها كتلاكتلا مانعة إياها من المرح داخل البدن ، وفي الوقت نفسه تسهل للبلعومات إلتها مها وتدميرها ، هذه المواد هي التي اكتشفها كل من « جرور » و « درهلم » ويطلق عليها اسم « الاجلوتينات » أو « الملزقات » سادتي : إلى هنا قد وصل بنا البحث إلى أن وقاية الجسم ضد غارات الميكروبات هي وقاية خلوية خلطية ، أي أنها وقاية تستند إلى فعل الخلايا الأكلة ، أو البلعومات ، وإلى أخلاط البدن ، أو المصل الدموي . ( وترى في الشكاين الآتين في الصفحتين التاليتين وهما شكل ٣ و ٤ ما يوضح لك هذا المقام ) . بقي أن نتحدث قليلا عن الوقاية النوعية .





( شكل ٣ )

- فوق : اتجاه البلعيمات نحو الجلد لهضمه .  
 وسط : خروج البلعيمات إلى ميدان القتال .  
 تحت : البلعيمات تحاصر الميكروبات .



( شكل ٤ )

- فوق : إبادة الميكروبات بالمواد الداحرة .  
 تحته : إلتهاام البلعمات للميكروبات .  
 تحته : إلتهاام البلعمات للميكروبات .  
 تحت : البلعمات لدى خروجها من الأوعية الشعرية .

### الوقاية النوعية

إن البدن لا يقف حيال العدوى عند حد الاستمالة بوسائله الدلبيجية في مكافئها ، بل هو قادر أيضا على تجديد ما فقده من المواد الواقية ومن الباعثات المسكافة التي تكون قد سقطت في ساحة القتال أثناء الدفاع ولكن عملية التجديد هذه لا تقف عند حد الاستمالة فحسب ، بل انها تنزع في العادة إلى التعويض المفرط ، وانه لمن أعجب الظم في السكائن الحية ما نشاهد فيه عند مقاومتها للعدوى كيف انها تتعلم أن تقاوم بنوع خاص صنف هذه العدوى ، فمثلا اذا كانت العدوى حمى تيفودية وجه البدن كل قواه إلى تحضير المواد الواقية ضد ميكروب التيفود ، وان كانت العدوى كوليرا مثلا قام البدن بتحضير المواد الواقية ضد ضمت الهيضة الأسيوية وهكذا دواليك أي أن الوقاية تصبح كما يعبر عنها وقاية نوعية .

سادنى : لقد حاولت أن أبسط لكم اليوم بطريقة سهلة كيف يحافظ الجسم على كيانه من غارات الميكروبات وسمومها ، ولست أخفى عنكم انها محاولة ناقصة ، إذ يضيق في المجال لو ذكرت لكم كل الحقائق التي أظهرتها الأبحاث العويصة ، والتجارب العلمية ، التي أجريت في السنوات الأخيرة على مقاومة الجسم للأمراض ، ولكن يكفي أن تعلموا أن البدن يدافع بنفسه عن نفسه .

### الخلاصة

والخلاصة أننا نحقق مديونون إلى مقاومة وقدرة خلايا الجسم ، وبالحرى إلى الخلايا الأكلة (الباعثات) في الدفاع ضد الميكروبات وسمومها القتالة ، وهذه الخلايا لا تقوم بعملها الجليل الذي وصفناه إلا لأن تلك هي وظيفتها التي اختصت بها بين أفراد مملكة الجسم البشري ، ولولا هذه الاداة الواقية لاندثرت البشرية منذ زمن طويل .

واقدر عرفتم الآن كيف أن الجسم يبذل في حياته اليومية الملايين من الميكروبات دون أن نشعر بذلك ودون أن يهلع عن نفسه ، أو يفتخر بعمله ، انه في حرب صباح مساء مع أعدائه ، مضحيا بالآلاف من أفراد في سبيل الحياة ، ولاكنني أشعر أنكم تتساءلون فيما بينكم قائلين : اذا كان الأمر كذلك فلماذا إذن تحدث الأمراض المعدية بكثرة ؟ ولماذا نصاب الانسان الأوبئة بين حين وآخر ؟ والجواب على ذلك هو أنه في بعض الأحيان يكون هجوم الميكروبات بشدة وقسوة بحيث يختر الجسم فريسة أمامها قبل أن تأنيه النجدة من جنوده ، على أنه اذا كان هناك سبب آخر يجب أن تعرفوه وتتخذوا الحيلة له فذلك السبب هو تقصير الجنود ، ونقص مهمات الدفاع والكفاح ، والمعروف أن نقص وسائل الدفاع يكون عادة في الممالك الضعيفة . وكذلك الحال في مملكة الجسم الضعيفة فان وسائل الدفاع لديها تكون أيضا ناقصة ، أولا تلاحظون أن نسبة الأمراض المعدية أكثر بين الفقراء منها بين الأغنياء ، ولم ذلك ؟ أليس لأن أفراد هذه الطبقة هم بكل أسف ضعاف في تركيب بنيتهم ، ضعاف في أجسامهم ، لسكائهم في المنازل الضيقة التي لا تتخللها الشمس ولا الهواء ، ضعاف بغذائهم القليل الضئيل ، ضعاف بتعبهم ونصبهم في الأعمال الشاقة المضنية التي يجب أن يقوموا بها لكسب مهائشهم ، فاذا عرفنا ذلك ، أصبح لزاما علينا أن نقوى أجسامنا ، ونزيد في مكانة أبداننا كي نعطي جنوده القوة والنشاط لكفاح والدفاع .

فالى العمل بنظام ، والى الراحة بقسط وافر ، والى الخلاء حيث الشمس والهواء ، والى الرياضة البدنية حسب مقتضيات المزاج .

إننا بهذه الوسائل نكون حقا قد قمنا بالواجب علينا نحو أجسامنا ، وهيأتها للدفاع عن أعداها . انتهى ما أردته من المجلة المذكورة والحمد لله رب العالمين .



فلما سمع صاحبي هذا القول أعجب به أيما إعجاب ! وقال : لله درّ هذا الطبيب الخطيب ، لقد أجاد وأفاد وأبدع في تدوير هيئة الجسم والجنود المجنّدة فيه مما لم يسبق له فيما أعلم نظيره ، ولكن لما كانت آية : « ولله جنود السموات والأرض » غير خاصة بجسم الانسان ، بل ان الآية عامة ، وقد فتح الله الباب بهذا القول أحببت أن تسمهني قولاً عاماً به نفهم كيف تكون تلك الجنود المجنّدة في السموات والأرض بقدر الامكان . فقلت :

### فصل في جنود الأحياء والاماتة \* أو الظلمة والنور

- ( ١ ) جنود الكهرباء السالبة والموجبة .
- ( ٢ ) وجند الجوامد ، والسوائل ، والغازات ، والنيران ، والمياه .
- ( ٣ ) وجند الميكروبات التي للأحياء ، والتي للاماتة .
- ( ٤ ) وجند الأغذية والسموم للأحياء والاماتة .
- ( ٥ ) وجند الحشرات ، والطيور ، والهوام ، والبهائم ، والأنعام ، إحياء وإماتة .
- ( ٦ ) وجند النوع الانساني إحياء وإماتة .
- ( ٧ ) وتبين أن نوعي الجنود المذكورين يكونان ماديين ومعنويين ، فهنا أربعة أنواع من الجنود
- ( ٨ ) تبين جنود الاماتة في أمم الاسلام التي حزقت شملهم مادّية ومعنوية قبل زماننا .
- ( ٩ ) وجنود إحيائها في هذا الزمان بقسديها : معنوية ومادّية .

### مسامرة

فقال : حدثني رعاك الله عن هذه الجنود كلها ، فان هذا فتح لباب العلم وجمال الحكمة ، ولم يكن ليخطر لي أن الأمر يفسح حتى يصل إلى هذا الحد ، وأن في الأضواء والنيران والمياه جنوداً ، فلعلّ في الأسرار وأنوارا .

### الكهرباء السالبة والموجبة

فقلت : اعلم أيديك الله بنصره ، وأعزّك باعزازه ، ان هذه المادة التي نعيش فيها ( كما تقدّم في سورة النور عند آية : الله نور السموات والأرض ) لا وجود لها : فهذه الشمس والأقمار والسيارات والثوابت والأرضون وما عليها من الأحياء والمعادات ، كل هذه لا وجود لها ، وما هي إلا ذرّات ضوئية ، أبدعتها الحكمة الالهية ، فكان منها السالبة ، ومنها الموجبة ، هذا خبر هذه الدنيا ، وهذا أوّل الوجود المادي وآخره ، وليس لعلماء عصرنا علم فوق هذا ، فهذه العوالم كلها ظواهر لهذه الأنوار سالبتها وموجبها ( انظر معني السالب والموجب في « سورة الرعد » فهناك شرح هذا الموضوع شرحاً وافياً عند آية : هو الذي يريكم البرق الخ ) ولا يقرب هذا لنا إلا مانعه في نفوسنا .

الله أكبر : نحن نحسّ في أنفسنا بصور ، وهذه الصور لامادّة لها ، وهي تظهر فيها ولا يطلع عليها أحد إلا نحن في مخيلتنا ( وأنت قرأت هذا المقام في « سورة القتال » عند آية : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » في رسالة « مرآة الفلسفة » وهذا المقام هو الذي به أمكن الخروج من الورطة التي وقع فيها أمم وأمم من قبلنا من أيام سقراط وأفلاطون إلى الآن ، وهذا هو المخرج الذي فتحه الله للانسانية للخروج من مأزقها الفلسفي ) فهذه الصور التي نحسّ بها في نفوسنا بلا مادّة تصوّر فيها تسهل لنا تصوّر ما يقوله علماء عصرنا : « إن أصل المادّة إنما هو الكهرباء السالبة والموجبة ، فاذا كان الانسان يحسّ في نفسه بصور لامادّة لها

فليس عجيب أن يرى أن هذه الدنيا كلها تكونت من كهرباء تشتمل على البتة الموجبة ، وبالكهرباء السالبة وبالكهرباء الموجبة كانت هذه الدنيا كلها ، فالمادة لهذا الوجود العظيم الذي اخترعه صانع الكون كما لامادة للصورتين نحس بها في نفوسنا ، والتي عليها مدار حياتنا كلها وسعادتنا وشقاوتنا في حياتنا .

### خطاب الله عز وجل للموالم

ولم أجد قولاً جامعاً لما أريد في هذا المقام مما ألقاه الله بطريق الإلهام على أحد الصالحين الملازمين لقراءة هذا التفسير وإن ذكر الله ليلاً ونهاراً ، حتى روي عندي منذ أيام وقال لي : بينما أنا أذكر الله ليلاً إذ خيل لي كأن الله عز وجل يخاطب الموالم مبتدئاً بالكهرباء الأولى وهو يقول : أيتها الكهرباء ، أنت من آثار نوري فلتسرع في حركاتك اسراعاً حثيثاً ، ولتكن حركاتك في الثانية الواحدة من ٥٠٠ مليون مليون مرة إلى ٧٠٠ مليون مليون مرة ، ولتكن بهذه الحركات أنواع الأنوار الشمسية من الأحمر إلى البنفسجي ، ولتكن هناك سبعة ألوان ، ولتكن منها بياضاً واحداً ، وهيئة واحدة ، فتظهر للحيوان نورا للشمس ظاهراً للعالمين .

### إطاعة الكهرباء والأنوار لربها

فدارت الكهرباء كما أمرها الله ، وكانت منها الأنوار الشمسية والقمرية والكوكبية .

### خطاب الله للأنوار أن تكون أسرع فتكون منها الغازات والسوائل والجامدات

ثم خاطب الله الكهرباء فقال : ها أنت ذه قد أتيت طائفة وامتنعت أخرى ، فهذه أول خطوة من خطوات مخلوقاتي ، ألافاسمي : جدي السير مسرعة ، ولتكن لك في الثانية الواحدة نحو ستة آلاف مليون مليون حركة ، فليكن منك الهواء والماء والأرض والأشجار وكل نبات وكل حيوان ، ستظهرين أيتها الكهرباء لعون الناس والحيوان بهيئات مختلفة ، يحسونها فيقولون : هذا غاز ، وهذا سائل ، وهذا صلب ، وفي الحقيقة لا غاز ولا سائل ولا صلب ، ماهذه إلا أضواء كهربائية تختلف سرعة حركاتها فاختلقت أفعالها فسميت شجراً وشجراً وماء وهواء ، هذا أول الأوصاف وآثره ، وفي الحقيقة لا شيء ولا مادة ، وما هي إلا حركات في عالم لا نرونه ، وهذه الحركات متنوعة ، ولهذا التنوع نتائج عجيبة . أيها الهواء : ليكن فيك جند للأحياء وجند للأمانة فإذا اشتدت عواصفك وقواصفك فأنت إذن جند الهلاك ، تهدم القصور والدور ، ونقتلع الأشجار ، وإذا كنت خالصة من الأعراض المؤذية من البرد الشديد ، والحر الشديد ، فأنت راحة للعالمين . وأنت أيها الماء : قم بمنافع عبادي ، وكن حياة كل شيء ، وإذا أصابك عارض مما ذكرناه فأنت من جند الإبادة والهلاك ، وهكذا قال الله لكل شجر وشجر ونبات وحيوان : إن كنتم جميعاً تكونون جنودى في حصول الحياة كما تكونون جنودى في إحداث الممات ، أيتها المخلوقات اسمعي .

هنالك صرخت تلك المخلوقات صرعة واحدة وقالت : رباه . رباهم لم تكن جند الحياة فحسب ؟ ولم جعلتنا للضدين ؟ فقال لها : أيتها المخلوقات : إن كنتم لاتعلمن ما أعلم ، أنتم من المادة ، والمادة ضيقة العطن ، قليلة القطن ، لاتسع كل ما أعلم من الصور والأجيال والأحوال ، فعلمى يسع من الصور ما لاتحتمله مادّةكم كما تفهمه عقولكم ، فأنا إذا جعلتكم جند الرجة والحياة فقط لم يكن موت ، فيكون بخل في العطية ، ويكون العالم المادّي جيلاً واحداً يبقى آلاف الآلاف من السنين ، وعلايين الملايين من القرون والأحقاب ، فأى بخل أفطع من هذا ؟ فلما عجزت مادّةكم عن أن تسع هذه الصور كلها ، ولم تتحمل إلا صورة بعد صورة

تألفت فيها وقدرت الموت والحياة ، وأنفذت جندين : جنود الأحياء ، وجنود الإبادات ، لتسحق المادة ما تحتله من صور الأحياء بقدر الامكان ، فهاكم أولاهم بإعجابي :

( ١ ) هذه الذرات المفسفات اللدني تعيش وتتكاثر في الأرض وتتوالد بلا حسد ولا عدد ، وتقتل المواد الأرضية التي تصبح غذاء للنبات ، فهذه المادة نبات فطري يحمل حياة النبات المعلوم فهذه جنود نباتية أعدتها للحياة .

( ٢ ) وهناك جنود أخرى من هذا النوع تتكاثر في المواد المتخمرة فعدها للفساد والهلاك ( وهذا تقدم شرحه في بعض أجزاء هذا التفسير )

( ٣ ) هم انه لا طير ولا دابة ولا شجرة إلا رطبا عطف على أبنائها ، فهي تبنى العش ، وتطم الفرخ ، أو ترضعه اللبن إلى آخر ما هنالك ، فهذه بهذا الاعتبار جنود الحياة .

( ٤ ) ولا أسد ، ولا غر ، ولا فهد ، ولا وحش ، ولا صقر ، ولا شاهين ، إلا وجعلت حياتها موقوفة على أكل الأرانب ، والغزلان ، وجميع آكلات الحشائش من الحيوان . فهذه من هذه الناحية جنود الإهلاك .

( ٥ ) ومن جنود الإهلاك الجراد الذي يسطو على المزارع فيأكلها فيجوع الإنسان ويموت .

( ٦ ) ومنها النمل المحاربة لقل آخر نهلكه بلاشفقة ولا رحمة في جميع الأزمان .

( ٧ ) أنا سلطت العنكبوت على الذباب إذ تصطاده بشبكاتها اللطيفات .

( ٨ ) وسلطت طيور (العنز) على الجراد فيكون لها طعاما سائغا نافعا لآكلات (مذكور في سورة آل عمران عند قوله تعالى : بدك الخير الخ)

( ٩ ) وألهمت بني آدم أن يأكلوا السمك ، والطيور ، والأنعام ، وكل هؤلاء جيوش الامانة والاعدام .

( ١٠ ) كل هذه القاتلات المهلكات عاطفات على أبنائها ، وفلذة أكبادها ، فهي جنود السموات والأرض ، جنود الأحياء ، وجنود الإهلاك .

( ١١ ) وهناك جنود لي في نوع الانسان ، وهذه منها الخير ومنها الشر .

( ١٢ ) أنا أوحيت إلى الأنبياء أن يسلموا عبادي المسلم والدين ، وأصرت بعضهم أن يستعمل السيف أحيانا ، وأصرت خاتم الأنبياء أن يكون له جنود معنوية ، وجنود حسية ، فالأولى هي المواقظ والحكم ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، والثانية هي الجنود المجندة بالسيف والسنان ، والضرب والطعان ، وأصرت أن لا يستعمل الجنود الحسية المادية الجرمانية إلا بعد أن يرسل الجنود المعنوية النورية ، فتكون تلك الجنود لاهلاك العاصيين ، ولحماية المطيعين ، فالجنود النورية العلمية ، والجنود الحسية المادية الانسانية تكون لاحافة الضالين ، واطمئنان المهتدين .

( ١٣ ) هنالك ظهر في الوجود أمة اسلامية عظيمة ، لها كيان خاص ، وحياة منتظمة ، كأنها هيكل إنسان حي ، هي أمة كفر ، هم كالجسد الواحد .

( ١٤ ) ولكنني عدل رحيم حكيم ، وقد سبق اني قلت لكم : ان حكمتي قضت أن هذه المادة يجب أن تسع الصور المختلفة ، فاذا أقيمت هذا الهيكل الاسلامي بالتغير مستمر فيه كان ذلك خطا في النظام ، فلا بد من التغير والتبدل ، لتتعمل المادة الأرضية جميع الأوضاع الممكنة .

( ١٥ ) هنالك سلطت الشياطين على قلوب أولئك الأمويين ، والعباسيين ، والاشعديين ، والطولونيين والسلاجوقيين ، والاندلسيين ، والزياريين ، والغزنويين ، والجمدانيين ، والفاطميين ، والمماليك البرية والبحرية ، والتمانيين وغيرهم ، فوسوسوا إلى كثير منهم بالاسراف في المطاعم والملابس

والنساء والظلم والقتل ، وسلباتهم أيضا على رجال من أهل العلم ، نأخذوا يقذفون في الأمم الإسلامية مقالات تحض على افتراق الكلمة ، وتشعب الرأي ، وذلك بتأويل الآيات ، ووضع الأحاديث ، والجدل والمناظرة ، فكانت (٧٣) فرقة ، وكل فرقة أصبحت فرقا ، كل يدعى أنه هو الحق بالدين وسواه في ضلال مبين ، هأنذا يا عبادي صنعت في هيكل الأمم الإسلامية ما فعلته في هيكل الحيوان ، هيكل الحيوان تنحل أجزاءه ، وتتفرق أعضاؤه ، ولكن عناصر جسمه باقيات في الهواء والماء والتراب ، هكذا أُم الإسلام باقيات ولكنها متفرقات ، فلا زالت تتبعثر وتتناثر قليلا قليلا ، فزالت الدولة الأموية ، ثم العباسية ، ثم الدول الأخرى ، واستقلت كل جزء حتى عصرتنا الحاضر إذ أصبح الإسلام قطعة متناثرة ، وأجزاء منبوذة ، وقد التهمت الأمم التهاما ، كما هي شأن الفريسة في الصحراء (قبل سنين أما الآن فانها آخذة في الالتئام)

(١٦) أوعزت إلى دولة الروس أن كونى حجرة عثرة في طريق العثمانيين ، وحاربى الصين ، واقعدى لبلاد الشرق بالمرصاد ، فتوغلت فرنسا وانككترا في بلاد الاسلام ، وصرقتها ممزقا شاملا اترجم إلى عناصرها الأولية كما يرجع النبات والحيوان عند هلاكه .

(١٧) ثم كانت الحرب الكبرى ، فقلت لأوروبا كفى عن الشرق والشرقيين ، فقد جاء دورهم ، وهم سيكونون أنفع للعالم منكم أجمعين .

(١٨) فياروسيا دعى النصرانية التي خنقت الاسلام خنقا ، وكونى شيوعية بلشفية ، ولتقم بجانبك تركيا الجديدة والصين والعراق والأفغان وإيران ، فقم يا شرق ، وكف يا غرب ، واستيقظي يا أمة الاسلام : هذا دوركم أيها المسلمون ، قوموا من رقبتكم ، رقدتم قرونا فاستيقظوا قرونا ، أتم اليوم جيوش الأحياء والاهلاك ، وفيكم جيوش المعنوية النورية والحسية الجرمانية ، وكفى يا انككترا ، ويا فرنسا ، ويا إيطاليا عن ظلم عبادى المسلمين ، قد انتهى دوركم أجمعين .

(١٩) ثم أوعزت إلى جميع المسلمين في الهند والصين والأفغان وبلاد جاوه والملايو وشمال افريقيا وجميع آسيا وأوروبا أن اتحدوا وكونوا يدا واحدة ، وكونوا خير الأمم أجمعين ، وفي نفس الوقت قالت : أيها الفرنسيون : اعجموا عود المسلمين في مراكش ، وابلهم بالشر ، وأنتم ياطليان اصنعوا شرا في طرابلس ، لأنى أريد بشركم ارتقاء واتحاد أُم الاسلام (وهنا قال الاستاذ الصالح لى : فما كادت الأممان تفعلان بعض الشر في زماننا حتى قام المسلمون على بكرة أبيهم في سوريا والهند وبلاد جاوه يقاطعون بضائع الأمتين ، ويحرمون مدارسهم ، ههنا ظهر في الاسلام عالم جديد لم يكن معروف من قبل ، ههنا ظهرت أمتة وهى التى ستكون كما قال الله فيها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . هذه أمة لم نعرفها من قبل إلا قليلا ، أمة كانت متقاطعة متدبرة (إلا فى العصر النبوى وما يقرب منه) ، أمة هاجها الصليبيون أيام صلاح الدين ، فلم يقم فى وجوههم إلا بعضها ، أما الباقون فانهم تخلفوا عنها فى شمال افريقيا وفى غيرها ، أما اليوم فان الحوادث المزعجات جمعت كلمتهم ، وسيكون لهذا فى القريب العاجل شأن عجيب) . انتهى كلام الصالح المتخلل خطاب الله الخيالى له .

(٢٠) ثم يقول سبحانه : وألهمت رجالا ورجالا فى بلاد الاسلام أن ينصحوا بلم الشعب ، وجعلتهم جنودا معنوية نورية ، تفتح معاقل القلوب ، وتحمل النفوس ، وتهزم جنود الشياطين وتطاردهم ، وتفل عروشهم ، وتهزم جوعهم ، فتقضى على النعرات القديمة ، المفرقات للكلمة ، فلا تبقى تلك السفاسف ، ولا تلك السموم الفتاكة الممزقة لهيكل هذه الأمة بأنواع المثبطات الموثسات ،



والبدع ، والاختياز للفرق المقتسبة ، والطوائف المتفرقة ، فإن يصير هذه الأمة بعد اليوم اختلاف المذاهب والشيخ ، وتفرق الأهواء بطارق الصوفية ، وتنازع الرئاسات ، فإن نور العلم سيدهم أجهين ويرون أن هذا التنوع والاختلاف ليس في أصل الدين ، بل هو في عوارض عرضت عليه من خارجه لا من داخله ، فيلتزمون ويتحدون اتحاداً جوهرياً ، وإن اختلفوا اختلافًا عرضياً ، وهم يتقون .

(٣١) ومن جنود الأنوار تلك العلوم التي بها تدرس هذه العوالم المحيطة بالناس في الأرض وفي السماء فهي هي الرابط الجامع للأمم على وجه الأرض ، ولأمة الاسلام ، وبها لا يغيرها يدرك المسلمون سر التسبيح والتحميد والتكبير ، ويفهمون سر الأحاديث الواردة في فضائلها ، والأقوال الواردة عن الأنبياء في محاسنها ، وكيف تكون سبحانه الله ملء الميزان ومتهى العلم ؟ وكيف يكون التسبيح والتحميد غراس الجنة ؟ وما هذه الرموز والأعاجيب ؟ لن يعرف المسلمون تنزيه الله في أفعاله الذي يقتضيه التسبيح إلا بأدراك بعض أسرار الطبيعة ، فإذا علم المسلم علماً ليس بالظن أن القروح والدمامل (فيما تقدم قرياً) وأن الحى وأمثالها لم تخلق في الإنسان إلا لاسعاده ، ولولم تكن تلك الآلام قضى عليه ، فانه هناك يفهم ماهر التسبيح ، وهناك يفهم كيف كان ذلك التسبيح غراس الجنة ، لأنه لاسعاده في دنيا ، ولا في آخرة ، إلا بالاطمئنان وأدراك الحكمة في خلق هذا العالم ، فإذا رأى الإنسان أنه محوط بعالم كله تنازع ، وكاه مصادمات وأهراض وبلاء وموت وذل وهلاك ، فانه لا يهنا له بال ، ولا تستقر له حال ، بل هو في عالم مزعزع الأمن ، لا ثقة فيه ، بل عالم كله نقص وشين ، فلا أمان فيه ولا اطمئنان ، وهنا قال ذلك الصالح : (فلا تكن أنا صبيح الجسم ، كثير الخيرات ، تفدى على النعم من كل جانب ، ولكنني أجد الناس حولي يموتون ويعرضون ، والحشرات تموت ، والبهائم والطيور ، وكل لكل عدو ، فاني إذ ذاك لا يستقر لي قرار . فإذا أدرك العقل أمثال هذه الأسرار التي ظهرت في هذا الكتاب وفي أمثاله ، فانه يصبح في نفس هذه الدنيا وقد ابتدأت سعادته ، واليه الإشارة بقوله تعالى : «دعواهم فيها سبحانه لك اللهم» وصرح بالحقيقة الناصصة فقال : «وتحيتهم فيها سلام» وفي آية أخرى قال : «إن المتقين في مقام أمين» وفي أخرى : «سلام قولاً من رب رحيم» .

هذه هي الأسرار التي في الاسلام ، وفي آية أخرى يقول : «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» .

لاسلام ولا أمان إلا بالوقوف على الحقائق كالتى في هذا التفسير ، ولن يكون سلام في بلاد الاسلام إلا بجنود الله المجنعة المعنوية النورية التي تفتك بجنود الجهل الخيمة على عقول القرون الاسلامية المتشاكسة فتقطع دابرها ، وتقل جوعها ، وتلك الجنود إنما هي الحكمة التي يقذفها الله في قلوب المصلحين شرقاً وغرباً ومنهم قراء هذا التفسير الذين سيكون منهم ملهمون وهم مفلحون ناصحون اهـ

فلما سمع صاحبى ما قصصته عليه من تلك الخطرات الخطرات لذلك الصالح . قال : هذا كلام حسن ، ولكن من ذا الذي يدعى أن الله يخاطبه في زماننا ؟ وكيف تنقل خطاباً عن صالح يدعى ذلك ؟ فقلت : انه لم يقل إلا أنه خيال ، ولكن هذا الخيال مبني على العقل . فقال : ولكن فيه مبالغة في أمر المسلمين وانهم الآن ارتقوا ارتقاء عظيماً . هذا ما يفيد هذا المقال . فقلت : سترى في اللطائف الآتية في كلام (لوثراب استودارد) ان الأمم الاسلامية ارتقت اليوم طفرة ، وقد نفخت غبار الكسل واستيقظت ، وضرب الأمثال ، وأتى بما لا حد له من ضروب الحجج في مقالات متتابعات ستضع اضاحاً تاماً فيما ستراه إن شاء الله تعالى كما

قلته لك . فقال : ولكن ما بالنا نرى بعض الأمم الأوروبية تضغط ضغطا شديدا على المسلمين . فقلت : ألم ينصح لك في هذا المقال انضماما تاما أن ذلك الضغط إنما هو لايقظ الأمم الإسلامية كما تقدم في ذلك الخطاب الخيالي ، ألم تعلم أن الجيوش المعنوية النورية السمية هجمت على قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومفارقها فهذبت وفتحت ، ونبتت الشرور وملاؤها بالخيرات .

جيوش النور عمت بلاد الاسلام الآن ، وستفتح ما بقى من حصون الجهالة ، وتفتح المناقل والقلاع ، وستحتل كل تسكنة ، وكل حصن ، وكل عقل في بلاد الاسلام ، وماضط الاوروبيين على أمثال سرا كش وتونس والجزائر وطرابلس وغيرها إلا كما تتسكاثر الميكروبات في الجسم ، فيكون دمل فقيح فيصح الجسم أو كما تكون حصى وهي لم تخلق إلا لصحة الجسم وظافته وسعادته ، لا لإضعافه وإهانته ، لا شر في الأرض إلا خير كما لم تكن الحصى إلا لصحة البدن ( كما تقدم قريبا ) وهما هي ذه جيوش النور تفزو القلوب الإسلامية فتصلحها ، وتبعها جيوش الدول فتفزو الأمم الظالمة أولا بالامراض عن المعاملة ، ثم تستقل وتعظم بين الأمم أجمعين ، فليس الضغط ولا الظلم الواقع على الأمم الإسلامية إلا أشبه بعمليات جراحية يجعلها الله لها بابا للشفاء كما جعل الحصى والأورام أبوابا لإصلاح الجسم ، إن العلم اليوم كشف الحقائق ، إن هذا هو الزمان الذي ظهر فيه معنى : « سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » .

إذا أيدت أمة من الوجود فذلك لأنها لا معنى لبقائها إلا أن تذل وتخضع كما يموت الانسان إذا لم يصلح للبقاء في الحياة ، وإذا أذهل الأعداء فذلك لتذكيرها فتصلح شأنها .

إن العلوم اليوم قد فتحت أبواب الحقائق على مصراعها « لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب » وما عرفناه من الحقائق القليلة دلنا على بقائها ، فأى فرق بين الموت وبين الجرح والحصى ، فإذا كان الجرح لإصلاح البدن فهكذا الموت لإصلاح الروح وخلاصها من أدران البدن كما خلع البدن من المؤذيات ، وشفائها بزواله كما شفى المريض بخروج الصديد والدم من بدنه بالقرح لأن البدن الضعيف قرح النفس ، وكشفاء الأمة من تفرق شملها ، وتشتت جمعها ، بدخول الأعداء بلادها ، فيكون الرقى باسمها لجراحها ، وظلمهم فيها ، وعسفهم لها ، ما هي إلا عمليات جراحية أرادها الله لهم للإصلاح ، وهذه كلها جنود الله عز وجل : « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عالما حكما » .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : صف لي جنود النور إتماما لتفسير الآية ؟ فقلت : جنود النور مسموعة ومنظورة ومعقولة ، فكل مخلوق في أرض أو سماء له صورة تراها العيون ، فتسكون في الخيال ، فيفهمها العقل فتكون عالما لأولى الأبواب ، وهذه الصور المخوفة في السموات والأرض أبدعت بعلم وإرادة وقسرة كما هو معلوم ، وللإنسان لسان وشفقان وحلق والصوت يتردد بينها ، وله عقل وإرادة ومعان في نفسه ، فهو يخرج تلك المعاني بهيئة أصوات تسكون حروفا فكلمات ، فهذه الكلمات تعبر عن هذه الصور كلها وتسميها الأذن كما رأت العين صور الموجودات ، والعقل يتقبلها على علاتها ، ويبحثها كما يبحث المبصرات ، فهذان جيشان من جيوش النور وهي جيوش الاسماع والابصار ، فكما أخذ النور الصور من الجامد والسائل والغاز فأوصلها إلى العيون هكذا أخذ الهواء الألفاظ التي فيه الواردة من ضغط اللسان والشفقين والحلق وأوصلها إلى الآذان ، وهناك جنود عقلية وهي المعلومات المستنتجات في العلوم جميعها من رياضية وطبيعية وإلهية ، فسلكها جنود عقلية لاحسية ، منيرة ، جميلة ، لا تدع شيئا من الجهالة إلا جعلته كالريم ، وقد كثرت اليوم في بلاد الاسلام وكما رأينا أن المادة تختلف اختلافا في صورها لا حد لمرآة ، هكذا الصور اللفظية التي أظهرها اللسان وما حوله من الأعضاء لا حد لمداها ، تنوع في المادة وتنوع في الكلام ، المادة الجميلة برعت وأبدعت في الافصاح عن مكنون الجمال الإلهي وكلامه النفسى الذى لا حرف له ولا صوت ، فالأشجار تحدثنا ، والأزهار تؤنسنا ،

والنجوم قد ههنا ، والجبال تنهشنا ، وكل ذلك آثار ذلك الجمال والكمال : ما العالم إلا حركات ، فإن كان في الأثير فهو المادة ، وإن كان في الهواء فهو الكلام ، الصور المادية لا تكون إلا بدوران الأفلاك والليل والنهار والصور اللفظية لن تكون إلا بلسان وشفة وحلق ، ويتردد الصوت بالشهيق والزفير بين الخلق والشفيتين ، فهنا تنوع ، حروف ، فكلمات ، فجمل ، فأمثال وخطب ومواظ على مقتضى تصور العقول .

### تفنن في صور المادة وتفنن في صور الألفاظ

أحدث الناس بصفاء نفوسهم قصصا وروايات ، وأودعوا فيها حكما وعلمًا ، تقليدا لتلك الحكمة العالية المبدعة في المادة جمالا وجمالا ، فجمال المادة لحياة المتعلمين ، وجمال الكلام لهداية الانسان ، للصور المنظورة ملايتناهي من المنفعة والجمال ، أوالسطوة والاذلال ، وللصور اللفظية ملاحقه من الهداية والاضلال جنود جراحة : تتردد الشمس في أبراجها ، والقمر والكواكب في منازلها ، فتكون صور الموجودات ، ويتردد الصوت بين الخارج كالحاء في الرحمن الرحيم والحمد ، والعين في العالمين في ﴿ سورة الفاتحة ﴾ ، والغين في المنضوب عليهم ، والهمزة في إياك ، والهاء في الله ، ( وهذه حروف حلقية ) وبين اللام والهمزة والميم وغيرها من حروف شفوية أو نحوها فتكون تلك الحروف ، وتكون تلك الكلمات : كما يتردد النهار والليل ، والصيف والشتاء ، فتكون تلك المخلوقات .

عجب ! جنود لفظية ، وأخرى نورية ، وثالثة عقلية ، وكلها بالحركات ، واختلافها باختلاف أوضاعها ، واتفقت الغايات ، إن للصوت سهولة وصوله كما أن للطبيعة دولة وصوله .

هاهوذا الزمان الذي ظهرت فيه سهولة اللسان وحنود الرحمة لأئمة الاسلام ، ناموا أجيالا وأجيالا ، وكانوا في القرون الأخيرة أطفالا وجهالا ، إلا حكماءهم وعلماءهم العظام الذين كانوا غير آمنين ، أما اليوم فانهم أخذوا يصولون ويجولون ، ويؤلفون وينصحون ، ولقد امتدت صولة القلم النائب عن اللسان بالكتابة وانتشرت الكتب ، وأسرع المسامون للترحيب بجنود العلم ، جنود النور ، وأخذ المصلحون يضربون لهم الأمثال ، فهبوا من رقبتهم وبهثوا بعثا جديدا من أجدانهم وهم يحثون .

فقال صاحبي : إن هذه المعاني غريبة عن هذا الموضوع ، ولكنها دخلت فيه بهيئة أنها من عناصرها فأرجو أن تبين لي كيف خطرت لك هذه المعاني ؟ وفي أي وقت ؟ فقلت : هذه المعاني خطرت لي أمس ( يوم السبت ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٣١ م ) فاني كنت في مزرعتنا بالرج ، وبينما أنا راجع وقد جرت عادتي أن أكون في ذهابي وإيابي ماشيا على قدمي ، وذلك ربما يبلغ ١٢ كيلو أو أكثر . ويكون السحاب والاياب في يوم واحد غالبا ، أوفي يومين إذا بت هناك ، فبينما أنا راجع إذ نظرت مزرعة ( ذرة شامية ) ضحى وألفت تحتها حشائش تبلغ الذراع ارتفاعا ، لها زهر جيل ، وقرون طويلة دقيقة ، وذلك الزهر ذولون أبيض ، يميل للزرقة ، ولها قليل من الرائحة العطرية ، وتلك الحشائش تترشح ذات اليمين وذات الشمال ، تحت أعواد الذرة المائسات القدود ، الحراشعور ، اللاتي تتدلى على « المطر » وهو الذي يسميه العامة الكوز ، وهو الذي فيه الحب ، فأعجبني ذلك المنظر ، وكأنني لم أر هذه الحشائش إلا ذلك الوقت ، وبينما هذه المناظر آخذة بعجامع عقلي من طريق البصر ، إذا طنين الذباب ، وغوير الأعشاب ، يطربني من قبل السمع ، فهناك طرب فوقه طرب ، والفلاحون يغدون ويروحون حولي ولا هم يفكرون ، فأخذت بعض تلك الحشائش ، وسألت الفلاحين عن اسمها ؟ فقالوا : هذه لم نرها إلا منذ سنتين اثنتين ، ولا نعرف لها اسما ، وهناك تذكرت حادثة حدثت لي أيام أن دخلت مدرسة « دارالعلوم » ، فبينما أنا مع التلامذة في السنة الاولى ، ولا عهد لي

إلا بالأزهر ربي لقول ، وقد أنست بها وجهي ، إذا بالمدرسة تصطف من الملازمة ثلاثة وأنا منهم لا تكون مع المرحوم أستاذنا (الشيخ حسن الطويل) في الأوبرا الطيرية ، إن الطيرى ترفيق باشا سيكون فيها تلك اليلة ، وهذه أول مرة رأيت فيها القليل ، فرأيت إذ ذاك عجبا ما فوقه عجب ! غير أنى لا أتصوره ، ولكن لما فقت في نفسي عن الجمال الذى كنت أحس به في الحقل ، وطنيين الشمرات ، وتمايل الأغصان ، ومنظر النجوم ، ألفت أن ذلك القليل الطبيعى في الحقل كان أهدى عند نفسي وأجل ، وخيل لى أن هذا رقبته عند نفسي كرتبة الجمال الصناعى بالنسبة للجمال الطبيعى ، وصرت أتعجب من نفسي كيف كان ذلك حكمها ، فهذه هي النكرة التي خاطرت لى عند مشاهدة ذلك النبات في الذرة أمس فحى ، ثم خاطرت أيضا ما تقدم من صور المادة وصور الألفاظ وبنودهما ، وأن الأمم التي لا تهب عقول مصلحيها لإحداث الصور العقلية لأصلاحي شأنها لأصلاحيها ، فحمدت الله على ذلك ، وقلت : ها هو ذا هذا الكتاب جند من الجنود النورية والحمد لله رب العالمين .

فقال صابى : الموضوع طال فهل تسمح لى بتلخيصه ليتصوره الأذكىاء . فقلت نعم :

( ١ ) نحن في ﴿ سورة الفتح ﴾ والله قد فتح للنبي صلى الله عليه وسلم فتحا مبينا .

( ٢ ) هذا الفتح بجنود انسانية مسامة .

( ٣ ) ومعلوم أن زمن النبوة ينتهى والباقي إنما هو الدرس والفهم ، فأخذ الله سبحانه يفهم المسلمين ماهى الجنود ؟

( ٤ ) فذكر أن الجند ليس خاصا بالجنود التي ترونها . كلا .

( ٥ ) ففي السموات جنود وفي الأرض جنود .

( ٦ ) ومن جنود الأرض الميكروبات التي تقتحم جسم الانسان فتمرضه أو تهلكه ، وبنود أخرى في نفس الجسم تطاردها في كل أطراف ملكة الجسم .

( ٧ ) وهناك تكون قلاع ، وحصون ، وحرب ، وخنادق ، وتبئة الجنود ، إذن هذه من جنود الله المذكورة ، إذن هذا درس عام لا خاص بزمان النبوة يدرس على مدى الزمان .

( ٨ ) وهناك قسمت الجنود أربعة أقسام : معنوية ومعنوية ، فالحسية لإهلاك الأعداء تارة ، ولإبقاء الأولياء تارة أخرى ، وهذا ظاهر في النمل والجراد والأسود والتمرور والسباع والانسان ، ومن الجيوش المعنوية أيضا إصلاح وفساد ، فالإصلاح بالأقوال الجميلة ، والافساد بالقول الفتن والاضلال والافتراء ، فلأولى جنود نورانية ، والثانية جنود ظلمانية .

( ٩ ) وبيان أن هذه الجيوش كلها من صور تحدثها أضواء الكواكب فتنتطبع في الأبصار ، فتدركها البصائر فتعقلها وتحدث لها نتائج ، أو من ألفاظ تحدثها الشفتان واللسان والخلق والحنك إلى آخر ما في علم التجويد وفن القراءات ، أو من نفس العقل واستنتاجه ، فهذه كلها جنود مبصرات أو مسموعات أو محقولات .

( ١٠ ) وأن الأمم الاسلامية اليوم قد أمدها الله بجنود نورية ، منشؤها العقل ، ومصورها اللسان والشفقتان الخ .

( ١١ ) وينوب عنها الكتب المنشورة اليوم في بلاد الاسلام التي أقسم الله بها فقال : « ورق منشور »

( ١٢ ) وهذه الجنود النورية بعثها الله في بلاد الاسلام لتظهرها بما يشبه العمليات الجراحية في أجسام الانسان ، وذلك بضغط الأمم عليهم وإدخالهم ، فهذه الجنود العلمية أشبه بالميكروبات في جسم الانسان الواحد الخ ، إذ تسطو على الميكروبات القاتلة فتغلبها وتطردها من الجسم على هيئة



قيح وحديد ، وذلك هو الحاصل الآن في بلاد الاسلام ، فان العلم المنتشر اليوم فيها يطرد عدوين :  
عدوا مافيا ظاهريا وهي الاعرافات والجهالات ، والضلالات ، وعدوا محسبا بجهلها ناديا وهم الأمم  
الارورية ، وهذه الأمم لن تبقى في أمة ظهر فيها نور انوارها .

(١٣) ولما سألتك عن هذه المسألة الأخيرة متى خذرت لك ؟ ذكرت لي أنها خطرت لك لما كنت  
راجعا من منزركم وأنت متوجه إلى الرج ، وذلك إن ذاك أبهجك ، نظرا لشائش التي لم تعرف  
لها اسم تحت النرة ، ورايت بين ابتهاجك بمناظر الطبيعة ومناظر الصور المتحركة ، وذكرته  
حادثتك في ذلك أيام دخول « دار العالم » .

هذا مجمل ما تقدم . فقلت : لله درك ، لقد خلصت فأجبت وأحسنت . فقال الحمد لله رب العالمين ، ثم قال  
لي : ولكن لا يزال هذا المقام بقايا . فقلت : وما هي . فقال : إن الجنود النورية يسوزها إيضاح أتم ، وعلم  
أجل ، وحكمة أعم . فقلت : إن الجنود النورية على قسمين : أولهما الجنود النورية الحسية ، وثانيهما  
الجنود النورية العقلية ، والقسم الثاني أحق باسم الجنود من القسم الأول . فقال : حدثني رعاك الله عنهما ؟  
فقلت : لأقدم مقدمة فأقول :

### الناس أضياف ربهم في هذه المادة يحرسهم بجنوده

فقال : إن هذا العنوان غريب جمع بين الضيافة والحراسة بالجنود ، فقلت إن لهذا سببا ، إلى أمس  
في ليلة السبت التي هي آخر شهر أكتوبر سنة ١٩٣٩ كنت في منزركنا وقد جرى حديث الضيافة وجاء  
حديث حاتم الطائي مع مخطوبته (ماريه بنت عفر) وهي من بنات ملوك اليمن ومعه النبيق والسابفة ،  
فهؤلاء الثلاثة لما خدعوا أنفسهم قالت لهم : سأزوج أكرمكم وأشعركم ، فأنصرفوا ثم لبست ملابس عجوز  
ومررت عليهم في ديارهم ، وكل منهم قد ذبح ناقة له ، وأخذت تستجديهم ، فأعطاهم حاتم أحسن ما في الناقة  
وأعطاهم الآخران ذبلي الناقين ، فلما حضر الثلاثة عندها بعد ثلاثة أيام ، وأتوا لها بالهدايا ، ووضعت الطعام  
أمامهم ، وجد كل منهم أن ما أمامه هو الذي أعطاه لاهرة شمطاء (هي نفسها) فخبجل الرجلان من فعلهما  
فأما حاتم فإنه رمى ما أمامه من الطعام وأعطاهما مما أمامه ، وقال كل منهما شعرة قبل الطعام ، وكان  
شعر حاتم الأبيات المشهورة وهي :

أماويّ ان المال غاد ورائح \* ويبقى من المال الأحاديث والذكر  
أماويّ إني لا أقول لسائل \* اذا جاء يوما حلّ في مالي النذر  
أماويّ ان يصبح صدأي بقفرة \* من الأرض لأماء لذي ولاخر  
تري أنما أنفقت لم يك ضرّني \* وأن يدي مما بنحت به صفر  
لقد علم الأقوام لو أن حاتما \* أراد ثراء المال كان له وفر

فأما أشعار الآخرين فإنها كانت كلها نغرا على هذا النحو ، وما فرغا من الطعام حتى قام الرجلان وبقى  
حاتم وتزوجها . انتهت الحكاية في المسامرة ليلة أمس .

### انتقال نفسي بعد ذلك إلى الضيافة الإلهية

وما أتممت هذه المسامرة متى أخذت نفسي تفكر في هذه الدنيا : الله أكبر : نظرت النخل أيلام أمام  
القرية عند منيعتنا والقمر في السماء ، وهنالك طاربي وقلت في نفسي : عجب يا ربنا ! الناس يفرحون ويعدسون  
ويحبون رب الله إذا قدم لهم طعاما ، وأوقد لهم مصباحا ، ومنجهم فراشا ، ويفرحون أعينهم عن كل جمال

في الأرض وبهاء ونعمة ، ويفسون الجمال العام في الأرض والسموات ، وهم غافلون ساهون لاهوت رب دارهم الكبري ، وقناديله المعلمة في السماء ، وأصناف الأشجار والأزهار والأنهار والبحار الواسعات ، حقا « إن الإنسان لغالوم كفار » .

يمسح رجلا أجلسه في دار ضيقة محصورة ، وأعطاه بعض طعام وغطاء ، وقد جهل الدار الواسعة ، وهي الأرض والغطاء الأكبر وهو السماء ، والمائدة الواسعة ، وهي هذه المزارع والأشجار والأزهار ذات الرائحة العطرية الجميلة المنظر ، والأنعام ، والقناديل المضيئة ، المشرقة ليلا ونهارا ، فياليت شعري أين الثريا وأين الفانوس وأين الشمعة ، اللهم إنك حبست هذه الأرواح في الأجسام فغفلت عن جمالك .

### الجنود صنفان ، ولا حصر لأفرادها

ولئن كان لرب الدار خدم وحشم وحرّاس ، فهم قوم محصورون ، واسكن للدار الواسعة ، وهي هذه الدنيا - حرّاس لا حصر لهم ، وهم قسمان : قسم هي الأنوار المشرقات المحسوسات ، ذات البهجة والأنوار ، وقسم هي العقول الكبيرة والصغيرة ، وأنواع الالهام والفرائز .

عجبا ياربنا ! أرضنا فيها أنوار جزئية : في شمع العسل ، والبتول ، والغاز المستخرج من الفحم ، وأنوار الزيت المستخرج من الزيتون ، وبذرة القطن ، والسمسم ، والقرطم وأضرابها ، وأنوار الكهرباء . سبحانك اللهم وبحمدك : ماهذه الأنوار ؟ هي لنا هداية ، ولولاها لسكننا في الأرض عميانا لا نرى شيئا ، فهذه الأنوار جنودك الهادية لنا بمساعدة أبصارنا لطرقنا وأعمالنا ، وهذه الجنود لا حصر لها ولها قائد أعظم وهي الشمس ، لولا الشمس لم يكن شمع العسل ، إذ لولاها لم يكن مطر ولا سحب ولا رياح ، فلا نبات يحمل زهرا ، ولا نخل يشتر منه العسل فيأكله فيصير عسلا ، ولولاها لم يكن زيت يستخرج منه القرطم والسمسم والزيتون ، إذ لا شجر فلا زيت ، ولولاها لم يكن غاز الاستصباح الذي خزن منذ مئات الألوف من السنين ، خزنته الشمس في الأشجار بأشعتها فاستخرجته الناس الآن .

الله أكبر : الشمس قائد ، وجميع الأنوار على الأرض جنود ، للشمس ضوء فيه سبعة أضواء : وهي الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والبنفسجي ، وهذه كلها تصبح لونا واحدا ، وهو النور المعروف ، وهذه الألوان بهيئها نراها في جميع أنوارنا التي نوقدها .

الله أكبر : الجنود الحسية التي تكفل هدايتنا في الحياة الدنيا وهي الأنوار مشتقة من قائدها الأعظم وهي الشمس ، وهذا الصنف من الجنود مثال لما هو أعلى منه وهي :

### الجنود المعنوية العقلية

جلّ الله : أبان لنا جنودا نراها بأعيننا ، وأظهر لنا أنها مشتقات من قائدها الأعظم ، ثم وهب لنا عقولا وهي الجديرة باسم الجنود ، هي التي تستحق الاعظام والاحلال ، فلئن هدتنا الأنوار إلى سبل الحياة فما ذلك إلا بواسطة عيوننا ، وهل لعيوننا عمل إذا لم تكن لنا نفوس وعقول ؟ كل إنسان ، وكل حيوان له عقل وعقول تدبرها ، وتقوم بأودها ، وتصون حياتها ، وتحفظ كيائها . فللنملة عقل ، وللناموسة ، وللصرصار ، بل للخلية الواحدة من خلايا الجسم ، وللخلايا الأولية التي تعيش في الماء الآسن ، ولا يفنيها إلا أن ينقطع عنها الغذاء ، أو يأكلها الأعداء ، فشكل هذه لها عقول على مقدار ما تحتاجه . قال الشاعر :

سقى الله أرضا يعلم الضب أنها \* بعيد عن الآفات طيبة البقل

بنى بيته فيها على رأس قنّة \* وكل امرئ في حرفة العيش ذو عقل

هذا قول السري الجاهلي ، وهو نفس ما قرره علماء النفس في عصرنا الحاضر إذ قلوا : « كل قوة إدراكية في حيوان أيا كان فهي عقل ، سواء أكان ذلك الحيوان انسانا أم حشرات ، أم طيرا ، أم ميكروبا » كل ذلك يسمى عقلا ، وهذا الاطلاق نفسه قاله الشيخ الخواص ، وندد على الناس في جهلهم أن للحيوان عقولا ، إذن الصوفية المساهرون نطقوا قديما بما أتى به العلم الحديث .

الله أكبر : هذه العقول الانسانية ، والعقول الحيوانية ، التي لا يحصرها العد ، ولا يحيط بها حد ، هي جنود الله في أرضنا ، جنود وأى جنود ، جنود تهندس المباني والمساكن والقلاع والحصون ، جنود تهندس أقراص العسل ، وتظهر نسج العنكبوت ، وآجام الآساد ، وأعشاش الطيور ، وحييل الثعالب ، وكرهاو فرها ، وحيالها في جاب قوتها ، وتدير الحرب والضرب ، في حرب النمل ، وترتيب الجيوش الفعلية ، وبناء المدائن المتقنة لحشرة الأرض .

الله أكبر : هذه جنود الله ، اللهم أنت الحكيم ، أنت العليم ، خلقت هذه الجنود العقلية فينا نحن بني آدم وحيواننا ودوابنا .

### جنود العقول الانسانية والحيوانية

وما يوازيها من جنود الأنوار السماوية

لك يا الله جنود عقولنا ، وعقول الحيوانات في أرضنا ، أنت هديتها بادراكها بواسطة عيونها الناظرات بأضواء الكواكب ، وأضواء السرج الأرضية ، عقول جزئية ، أوجنود أرضية ، استخرجت الأنوار الأرضية فاستعملتها ، استخرج الانسان من الشمع نورا ، ومن الغاز المستخرج من الفحم ضوءا ، وهكذا من البترول والكهرباء . جنود عاقلة استماتت بجنود محبوسة وهي التي استخرجتها . يا الله عجب لنا ! تحيط بنا أنوار الشمس ونحن لانحمد عليها ، فهي مفسية ، فأخذت تذكرنا بالظلام ؟ وتحكم علينا أن نستخرج من الأرض نورا نستضيء به ، عقولنا اضطرت لاستخراج النور من مواد الأرض ، جزئي استخرج جزئيا ، وهذه الأضواء مشتقات من أضواء الشمس ، أضواء الشمس مركبة من ألوان سبعة ، وهذه مثلها ، لولا الشمس لم تكن أنوار هذه المواد الأرضية ، لأنها سببها .

### الاستدلال بالعقول الأرضية الجزئية على العقول الكلية السماوية

وهل يجوز في العقول الانسانية أن يستند الضوء الجزئي إلى ضوء كلي ويكون مشتقا منه ؟ ( أي ان أضواء القناديل الأرضية مشتقات من ضوء الشمس في السماء ) ثم يكون الضوء المعنوي العقلي مستقلا غير مشتق من عقل أكبر منه ، وهل تكون هناك شمس هي أصل لأنواع الأضواء الأرضية المحبوسة ، ثم لاتكون هناك عقول كلية منها تستمد هذه العقول الصغيرة علومها وإلهاماتها ، هذا لا يكون ، قضى العقل أن للعقول الأرضية حيوانية وانسانية عقولا أكبر منها هي مناط استمدادها ، ومبادة آرائها ، ونسبة عقولنا إلى تلك العقول الكلية كنسبة ضوء الصباح إلى الشمس ، ونسبة آراء عقولنا إلى آراء تلك العقول الكبيرة كنسبة ضياء الشمعة إلى ضياء الشمس .

هذا برهان صادق لا خطأ فيه ، يرجع للقضايا البديهية ، والمعومات الأولية ، غاية الامر أن النوع الانساني اليوم نوع حيواني ، غافل عن هذه الامور العالية ، جاهل بما حوله ، اللهم إلا انه غارق في الامور العملية ، كأن يطير في الجو ، ويهلك المدن ، ويخرب البلاد ، اناس اليوم في أرضنا أطفال جهال ، عيونهم مقلدة ، لا يحسون بما حولهم ، إن عناصر عقولنا هي عناصر العقول الكبيرة ، كما أن عناصر الضوء في الكهرباء والبترول هي نفس عناصر ضوء الشمس ، وهي الألوان السبعة . وإذا كان في ضوء البترول السبعة الألوان

المعروفة ، ونظيره ضوء الشمس الذي هو أصابه ، فهكذا عقولنا فيها ذاكرة وحافظة ومفكر ، ونفيل وحسن مشترك وهكذا ، فهذه كلها عناصر عقولنا تنحل إليها وترجع لها بعد تحليلها ، هكذا تلك العقول الكبيرة ، لابد أن تكون لها ذاكرة وحافظة الخ منها استمدت عقولنا هذه العناصر ، ويختلف الأكر والأصغر في عناصرهما بحسب صغرهما وكبرهما ونوع عليهما وأحوالهما ، وما هذا إلا مجرد تشبيه لا يطبق تطبيقاً تاماً ، لأننا نجهل أحوال الأرواح المجرّدة .

### النتيجة صادقة لمقدمات أولية محسوسة

إن المقدمات محسوسة ، فضاء الشمس ، وضوء نجر البترول نراهما راسخين ، وعقولنا وعناصرها التي منها تكونت خمس بها ، فهذه أشبه بمقدمات منطقية اثنتان محسوستان وواحدة منقولة بالوجدان ولم يبق إلا الرابع وهو نتيجة الثلاثة ، وما ذلك الرابع إلا العقول الكبيرة ، فإذا كانت عقولنا لا تنتفع بضوء أرضي إلا إذا استخرجته بفطنتها ، وما استخرجته تنتفع به ، هكذا تلك العقول الكبيرة التي منها اشتقت عقولنا تدبر حركات الشمس في عالم الأثير حتى تستكمل وتقوى وتقضى وهي التي تسخرها بأذن الله في إيجاد ما أراده الله في هذه العوالم الأرضية بالحركات المنظمة ، كما أننا نمنع مصنع طعماناً مثلاً على ضوء الكهرباء والبترول الخ .

عقول كبيرة تنشئ شمساً كبيرة ، وعقول صغيرة تصنع منازل وما كل وشمعا وعملا ونسيج عنكبوت ، عقول كبيرة تنتج عقولا صغيرة ، فالأولى للسمرات ، والثانية لأهل الأرض ، شمس عظيمة مصنوعة ومدارة بواسطة تلك العقول الكبيرة تستق منها أجسام نورية أرضية لأعمال صغيرة أرضية ، أضواء الشمس الكبيرة مشابهة لأضواء المواد الأرضية المضيفة ، عقولنا الصغيرة عرفنا عناصرها ورمّ ركبت ، فهكذا يجب أن نقول في العقول الكبيرة التي تدبر الشمس ، إن عقولنا على منوالها والاختلاف غالبا يكون بالسّم ، كما أن الاختلاف كذلك في ضوء الشمس وضوء البترول .

### نتيجة هذا القول تفسير آية : ولله جنود السموات والأرض

#### وآيات كثيرة في القرآن

بهذا وبهذا وحده نفهم : « ولله جنود السموات والأرض » . الله أكبر : عطف جنود الأرض على جنود السموات ، لأن الثواني مشتقات من الأوائل ، وتالله إني في أثناء هذه المباحث العقلية ما كان ليخيل لي أن في هذا العطف سرّه الحبيب ، قدّم الله جنود السموات على جنود الأرض ليفتح لنا بذلك بابا كان مغلقا على أكثر الناس : وإمكن أكثر الناس لا يعلمون .

جنود الأرض مشتقات من جنود السماء ، لذلك قدّم المشتق منه على المشتق ، وهذا عجب من أسرار القرآن : فله جنود في السموات ، وهي التي نسميها ملائكة ، نعم علماء الأرواح قالوا نفس هذا القول ، وتقدّم ما نقلته في هذا التفسير مرارا أن الاسناد (أوليفرلودج) يقول : « إن هناك عوالم روحية تحيط بنا نسبتنا إليها كنسبة عقول النمل إلى عقولنا ، وهي تهتم بأمرنا ، وهي تحافظ علينا » .

إيه أيها المسلمون ، إيه أيها المسلمون ، هذا هو كتاب ربكم ، كتاب ربكم نفس العلم الحديث ، إذن هذا القرآن جاء لأمر بعدنا ، نعم هو كلام الله ، وكلام الله أنزل لعباده المساكين في الأرض ، أليس من عجب أن يقول هذا القول علماء الأرواح في زماننا ، ثم يقوم البرهان الحسي الذي ذكرناه عليه ، نراه في نفس

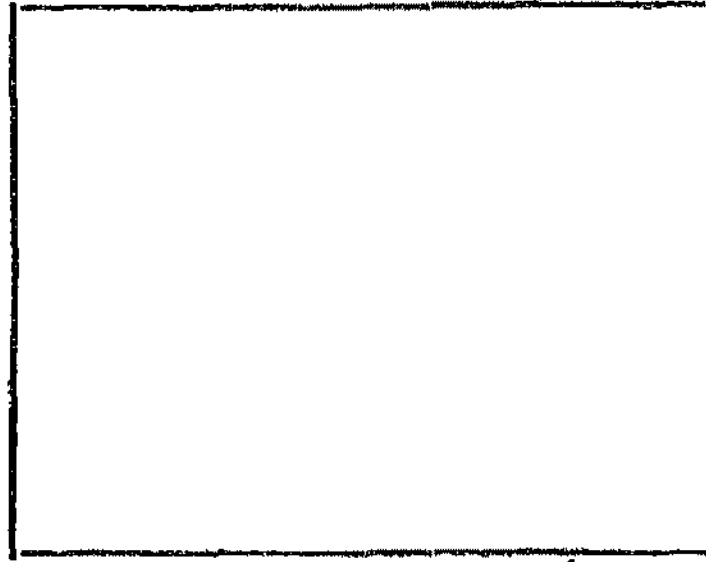


القرآن ، نسمع الله يقول لنا : أنا لى جنود فى السموات ولى جنود فى الأرض ، فياخذها أكثر من قبلنا  
أخذنا مجرّدا من البحث ، ومن عرف من آباؤنا منها شيئا كتمه خوفا من العامة .

هاهوذا أيها المسلمون وضح الدين ، القرآن نزل لفهم ما حولنا وما يحيط بنا والحمد لله رب العالمين .  
فقال صاحبي : إن أصل سؤالك إنما كان موجها لايضاح الأنواع الحسية والمعنوية ، فكيف  
حضرت هذه البراهين فى ذهنك ، وهل كانت هذه فى ذاكرتك ؟ فقلت نعم . فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت :  
إن أمرنا لحجب ! لم تسألنى سؤالا إلا كان جوابه منظما فى نفسى قبل أن تسألنى ، فكأن هناك بين روى  
وروحك وسائل أو رسائل بها تعلم روى ما ستوجهه أنت إليها ، فترتب السؤال والجواب أولا ، حتى إذا سألتنى  
كان العلم حاضرا فى النفس . قال : أنا لا أفهم هذا ؟ فقلت : أريد بهذا القول أنك قبل أن تسألنى مثلا فى  
هذه المرة كنت متوجها إلى ناحية الأزهر ، ونفس هذا السائل كنت كأنى أطلعها أمامى فى صحيفة وكأنى  
أقروها فيها ، أنا أمشى والناس حولي ، واسكن هذه المهانى وأنا فى شوارع القاهرة كانت أمام مخيلتى ،  
وهذه صورتها :

(عقل) سماوى يصنع ويدبر (الشمس)

وهي  
تستقى  
منها



تستقى  
منها

(عقل) أرضى به يستخرج .... سراج ينتفع به

هذا ملخص ماضى كله ، كنت كأنى أطلعها فى صحيفة أمامى ، فلما سألتنى أخذت أكتب لك ما طالعته  
هذه هى الحقيقة ، وليست هذه الصحيفة أمام عيني ، بل هى فى مخيلتى ، وهى كتبت ما طالعته ووضعته فى  
الورق تذهب تلك الصحيفة من خيالى ولا رجعة لها بل أنساها ، وإذا أردت استرجاعها صعب على ذلك .  
فيأليت شعرى : ما هذه المهانى ، وما هذه الصحيفة إلا أنها من عوالم تحيط بنا ونفوسنا متصلة بها وهى التى  
رسمت لنا هذه الخطط ، غاية الأمر أنها لا تعطى العاوم إلا على مقدار استعداد الأشخاص والأهم ، وما تعطيه  
لنا من العلم الآن قد استعنت له أمنا الحالية ، وعقولنا الانسانية ، وبها فهمنا آية : « ولله جنود السموات  
والأرض » وقد قسمنا الجنود إلى مهلكة وحشية ، ولا جرم أن قوله فى الآية الأولى : « وكان الله عليا حكما »  
إنما كان ذلك عند ذكر جنود المؤمنين المجاهدين ، واسكن لما قال : « ولله جنود السموات والأرض »  
وكان الله عزيزا حكما » كما قدمنا كانت العزة مناسبة لجنود النار التى أعدت للتعذيب ، إذن التقسيم الذى  
قسمناه للجنود من مقاصد القرآن ، فنفس الآية لوحت لتسمى الجنود ، جنود ذكرت معها العزة ، وجنود  
لم تذكر معها بل ذكر العلم ، وهذا المقام به نفهم : « والمدرات أصرا » ونفهم : « وأن عليكم لحافظين »  
كراما كاتبين » يعلمون ما يفعلون » ، ونفهم : « أن كل نفس لما عليها حافظ » ، ونفهم : « ما يلفظ من  
قول إلا لديه رقيب عتيد » ، ونفهم : « فالمقسمات أصرا » ، ونفهم كيف أمرنا أن نؤمن بالله وملائكته  
إلى آخره ، ونفهم : « إن الله وملائكته يصلون على النبي » ، ونفهم : « شهد الله أنه لا إله إلا هو

والملائكة وأولوا العلم» فمراف أولي العلم على الملائكة لأنهم كالمتفكرين منهم ، وهذا عجيب ! أن يكون ما ذكرناه هنا (من العقول الكبيرة السماوية والعقول الصغيرة الأرضية إنما هي آثار العناية الربانية والله معلم الملائكة وهؤلاء يفيضون الاطعام والعلم على الناس والحيوان بأمر ربهم ، فالله عالم العلم ، والملك يتلقى منه الخ) هو الذي جمعه الآية في ثلاث كلمات .

### ملخص ما تقدم وما بينى عليه

- (١) الله أكبر : في الجسم جنود هي الميكروبات السامة الداخلة فيه ، والخلايا التي في الجسم المدافعة عنه ، فهذان صفان من الجنود : جند مهاجم ، وجند مدافع .
  - (٢) وفي العالم المشاهد مثل ما في الجسم جنود مسامة تحارب جنودا كافرة .
  - (٣) في العالم كله عوامل الحدث ، وعوامل القضاء ، فهما جندان كجندى الجسم وجندى الانسان .
  - (٤) ورد أن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأن ما يصل إلى القلب إمارة من الشيطان واما إلهام من الملك . إذن هما جيشان أيضا مرسلان للنفوس كالجيشين المرسلين للأجسام ، فاذا جاء الشريع بالنوع الأول فقام جاء علم الطب بالثاني أشبه بضرب مثل للأول .
  - (٥) جيشا النور والظلمة ، والحر والبرد ، كل يعقب الآخر وينظره كجوش الجسم المحسوسة وما تبعها
  - (٦) جنود النور الكبرى من الكواكب وجنود النور الصغرى التي يصنعها الانسان فيما تقدم كجنود العقول الكبرى وهي الملائكة وجنود عقول الانسان والحيوان في الأرض .
- هذا ما فتح الله به في فهم قوله تعالى : « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » .  
وقوله : ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما . كتب بعد فجر يوم الثلاثاء ٣ نوفمبر سنة ١٩٣١

\*\*\*

لما اطعم على ما تقدم صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . قال : لقد اطلعت على حديث للمهاتم غاندى ، فوجدت به ما يشبه أن يكون ذيل هذا المقام ، فانه ذكر أمرين : حبا وخوفا ، ولينا وشدة ، وجعلهما محور كلامه ، أفلا نلحق هذه الصفات بالجنود . فقلت : - حدثني بما قاله غاندى . فقال هالك ماجاء في جريدة الاهرام بتاريخ ١٧ اكتوبر سنة ١٩٣١ م وهذا نصه :

### غاندى يصف رحلته

في المياه المصرية

المقاومة بالعنف

قال المهاتم غاندى في مقالة نشرتها له جريدة الهند الفتاة ما يأتى : « من محاسن الصدف أن الحديث بعد صلاة المساء دار على مسألة « المقاومة من غير عنف » وأتيح لأصدقائنا المصريين الذين ركبوا الباخرة من السويس فرصة سماع شيء عن هذا الموضوع ، ولا أرى بأسا في إعادة بعض ما قلته بهذه المناسبة : اننا بأعمالنا اليومية نتناوم بعضنا بعضا من غير عنف ، وقد نفعل ذلك بعلم منا أو بغير علم ، وكل الجهليات الصالحة قائمة على قاعدة اجتناب العنف ، وقد تبين لى أن الحياة معارضة الوجدان على الرغم من انها محوطة بسوامل الهدم والهلاك ، وهذا دليل على وجود ناموس أسمى من ناموس الهدم والتدمير ، ولا يمكن لجمعية حسنة النظام أن تكون قريبة من الفهم إلا اذا كانت تحت ذلك الناموس ومن غيره لقيمة للحياة ، فان كان هذا هو ناموس الحياة كان حتما علينا أن نطبقه على حياتنا اليومية ، حيثما تقع الاحتكاكات ، وحيثما نلتقى

بخصم ، علمينا أن نطلبه بالتي هي أحسن ، وبهذه الكيفية الساذجة طبقت هذا الناموس على حياتي ، ولست أعني أن جميع مشاكلي قد حلت ، ولكنني وجدت أن ناموس المحبة قد أدنى إلى تحقيق الغاية بطريقة لن تتاح بناموس الهدم والبناء . وقد قنا في الهند بتطبيق هذا الناموس عيانا في أعظم مجال مستطاع ، ولست أدعي أن روح اجتناب العنف قد دبت في قلوب ثمانية مليون نفس من سكان الهند ، ولكنني أدعي أنها تفلقت في النفوس أكثر من أية رسالة أودعوت في وقت وجيز لا يكاد يصدق ، ولم نتمكن كلنا نحن الهنود سواسية في اعتناق هذا المذهب ، بل كان لدى أغلبية كبيرة بمثابة ضرب من ضروب السياسة ، ومع هذا أودّ منكم أن تبينوا هل لم تتقدم الهند تقديما عجيبا ظاهرا تحت حماية « المقاومة من غير عنف » ونفوذها العظيم الشأن ؟ »

وقلت ردّا على سؤال آخر : « إن الحصول على حالة عقلية للتمسك بمذهب المقاومة من غير عنف يتطلب الشيء الكثير من العناء والتدريب ، ويجب أن يكون بمثابة نظام نسبر عليه في حياتنا اليومية وأن كنا لا نجد من نفسنا رغبة فيه ففقدنا حياة كحياة الجندي ، ولكنني أوافق على رأي القائلين : أنه إن لم يكن اعتناق هذا المذهب من صميم القلب والعقيدة التامة كان أشبه بقناع خارجي يضر بصاحبه وبالأخرين أيضا ، ولا يصل المرء إلى مرحلة الكمال في هذا المبدأ إلا متى خضع له جسما وعقلا ، وسار بموجبه قولاً وفعلًا ، ولكن المسألة هي دائما مسألة كفاح عقلي عظيم ، ليس لأنني غير مطبوع على الغضب ولكنني ألتجح في كل مرة تقريرا أن أملك نفسي وأضبط عواطفني ، وهما تسكن النتيجة فاني أشعر على الدوام بكفاح يتنازعني لا تباع مبدأ اجتناب العنف بمحض إرادتي و بلا انقطاع ، وهذا النضال يزيد المرء قوة للظفر ، فالمقاومة من غير عنف سلاح القوي ، أما الضيف إذا لجأ إليها كانت لديه بمثابة رياء ، فالخوف والمحبة على طرفي نقيض فالمحبة لا تبالي عند ما تعطى ، ولا تدقق فيما تأخذ بدلا من العطاء ، المحبة تكافح العالم كما تكافح نفسها وفي النهاية تصبح صاحبة السيادة على كل شعور ، وقد دلتني الاختبار اليومي كما دلت المشتغلين معي أن كل مسألة يمكن أن تحل إذا اعترفنا أن نجعل ناموس الحق واجتناب العنف هما في نظري وجها عملة واحدة ( كذا ) أما إذا كان الجنس البشري يتبع ناموس المحبة من حيث يدرى فلست أدري ، ولكن هذا لا يجب أن يشغل بالنا ، فهذه الناموس يسرى كناسوس الجاذبية ، سواء أقبلناه أم لم تقبله ، وهما يستطيع المتبحر في العلوم أن يأتي بالعجائب بتطبيق الناموس الطبيعي من عدة وجوه ، كذلك الرجل الذي يطبق ناموس المحبة بدقة عامية يمكنه أن يأتي بعجائب أعظم ، لأن قوى المحبة واجتناب العنف هي أعجب كثيرا وأدهى من قوى الطبيعة كالصواعق مثلا ، فالرجل الذي اكتشف المحبة وأرشدنا إليها هو في مذهبي أعظم من أعظم العلماء . على أن استكشافنا فيها لم يبلغ المدى الكافي ليتسنى للجميع أن يشهدوا مفعولها ومبلغ تأثيرها ، هذا على كل حال هو الهنديان ، أو الهوس الذي أعمل مدفوعا به ، ولكنني أصرّح أنني كلما توغلت في تطبيق هذا الناموس ازداد شعوري بمباهج الحياة ، ومباهج مشروع هذا الكون الأعظم ، وهو يعطيني سلاما وطمأنينة ويفسر لي خفايا الطبيعة بكيفية لا يسعني وصفها . انتهى

فلما أتم حديثه . قلت له : أما الشدة واللين ، والحب والخوف ، فانها من جنود الله ، لأنها من الجنود المعنوية وهي داخلة فيما تقدم . فقال : أنا إلى الآن لم أفهم مامعنى قول غاندي :

(١) إن الحياة مطردة الوجودان على الرغم من أنها محوطة بهوامل الهدم والهلاك ، ثم يقول : إن الجمعيات يجب عليها أن تسعى لنيل هذه الغاية ، فكيف يكون هدم بجنود الهلاك ، ثم يكون الحب سائدا ، فأين هذا الحب إذن في هذه الدنيا ؟

(٢) وكيف يقول إن الحب له السيادة في العالم مع أن العالم كله شقاء وهلاك وتدمير الخ .

(٣) ثم كيف يقول : إن ناموس المحبة يعطيني سلاحا وطمأنينة ويفسر لي خفايا الطبيعة ، فما هذا التفسير ؟ والطبيعة كلها شرّ وبلاء . وأنا إذا سألتك عن هذا فما خرجت عن منطوق الآية . لأن الآية فيها أن الله جنود السموات والأرض ، ومن جنوده هذه الجنود المهلكة التي يترددا غلدي ، فإن الحب السائد إذن في الأرض ؟ ولا حب ولا سلام ولا أمان في الأرض .

فقلت : قبل أن أجيب عن أسئلتك الثلاثة أشرح نقطة هامة : وهي الحب والخوف ، وهذا عجب أن ينطق بها عالم بوذي لم يدرس الاسلام حتى دراسته ، ورد في الآثار : « نعم العبد صهيبي ، ولم يخف الله لم يعصه » أي أن صهيبي رجل يحب الله ، فهو يعبد به ، لا خوف منه ، والعبادة المصادرة عن محبة للعبود هي الجذيرة أن تسمى عبادة ، والمحبون أرقى من الخائفين ، قال تعالى : « يحبهم ويحبونه » ، فالحب هو السعادة الحقيقية ، أما الخوف فأنما يجاء به لمن لا يفقهون الجدل في هذا الوجود ، فهم يخفون من العقاب والأمم ان لم يكن فيها حكماء عاشقون لصانع العالم ، يفرمون برقي عباده ، فانها تسكون آيلة للسقوط ، فالحب الذي يشرحه غلدي هو أصل من الاصول العالية في الاسلام . هذا ما أردت ذكره أولا :

(١) أما الجواب عن السؤال الأول فأقول : إن الانسان بنظره إلى هذا العالم نظرا سطوحيا يراه كله هداما واهلاكا وتبديدا وقتلا وحربا وخسفا وزلزلة الخ هذا بحسب ما يظهر لنا ، ولكن المفكرون هم الذين يعقلون الحب العام ، ولن يقسني لامرئ أن يعرف الحب العام إلا بدرس الطبيعة دراسة تامة ، فهناك هناك يعرف أن هذا العالم كله أشبه بجسم واحد وفيه كرات لا يحصرها العدد ، وهي كلها في تغير مستمر وحركة متصلة ، تدار بجنود لانراها كما تدار أجسامنا بأرواحنا ، فالاحتراق في أجسامنا وتبدل صفاتها رقي لأرواحنا كما ان تقلب عوامل العوالم كلها رقي لنفوس تدبرها ، ونفس الاهلاك والتدمير مقدسة للتجديد ، وكل ذلك ارتقاء للنفوس المدبرات للعالمات بالحب والعشق لا بالخوف وحده ، وهذا العالم كله تتخلله جاذبية من أقصاه إلى أقصاه ، فهي أشبه برسول المحبة ، أو عامل من عواملها

(٢) أما جواب السؤال الثاني ، وهو أن الحب له السيادة في العالم مع ان العالم كله تدمير فانه مترتب على جواب السؤال الأول وظاهر منه .

(٣) أما الجواب عن سؤالك الثالث ، وهو أن ناموس المحبة يعطي سلاما وطمأنينة ويفسر لي خفايا الطبيعة ، فهل بعد ما بينته لك بيان ، أليس ما ذكرته من الاجمال في الحب العام ينطبق على جميع الطبيعة : شمس يتبعها سيارات تجرى ورائها أبقار ، أليس ذلك كله محبة ؟ هل الأرض تجرى حول الشمس إلا بما نسميه جاذبية ؟ أليست أشبه بأثر من آثار المحبة ، فالعوالم والكواكب متجاذبة مرتبطة ، وأي حب بسد هذا ! فإذا اضمحلت نبات أو حيوان فان ذلك للمحبة أيضا ، فإذا كان نبات ينفع بورقه أو ثمره الخ ثم يحلل إلى عناصره ويرجع إلى المعمل العام في الأرض فيكون خلقا آخر ينتفع به الانسان والحيوان ، فانه لولا المحبة الدائمة السائدة في العالم لبق الهشيم على حاله لم يحلل فلم يكن خلقا آخر فلا تكون الفائدة ، فتكرار الهدم والتجديد تكرار للمنافع ، والهدم والتخريب تابعان للحركة العامة ، والحركة لا تكون إلا بالشوق ، والشوق مصاحب للحب ، فالعالم كله في حركة ، والحركة للجاذبية ، والجاذبية محبة ، وبالحركات تنبعث الثمرات ، فالحب هو نظام العالم والحمد لله رب العالمين . كتب ظهريوم الخميس ٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

فقال صاحبي ، هذا حسن وواضح ، وبقي عندي سؤال واحد ، وهو انه اذا كانت المحبة من جنود الله التي في السموات والأرض والخوف تقيضها وهما يتسميان القلوب ، فقلوب العامة للخوف ، والخاصة للمحبة ، وهذان الجندان بهما انتظام العالم ، فهذا صار واضحا ، ولكنني أريد أن أفهم موازنة الماهات غلدي بين المحبة في النوع الانساني وبين الجاذبية في الذرات ، وأن الذرات المادية أطاعت ربها ، وأن الانسان



قد عجزت ، فكيف يكون هذا ؟ قلت : إن النورم الانسان ممتلئ على صفات كثيرة ، ومنها صفة المحبة والفرام والاجتهاد ، والعطف العام غريزة كاملة فيه ، انك ترى الذرة الواحدة التي لا تراها قد أجمع العلماء قاطبة على أنها مركبة من قطرات كهر بائية بعدد معلوم (تقدم شرحه في سورة النور عند آية : الله نور السموات والأرض) سالها : ورحيل موجهها في الثانية الواحدة (٦) آلاف مليون مليون صرة ، ولا جرم أن سرعة الحركة وانطلاقها ، وعدم توقفها ، ودوام ذلك النظام أبدا وأمدا سرمدا ، وراءه قوة معنوية عقلية أعطته هذه الصفات ودوامها ، فلنقسم تلك القوة محبة ، لأن الحركات عند الحيوان جميعها لا تكون إلا لمحبة ، جري صغار الحيوان لأمهاتها ، وأسراع الأمهات بالعطف نحو أبنائها ، والسير في الفلوات للبحث عن الغذاء ، والجري هربا من عدو مفاجئ ، كل ذلك حركات ناشتة عن :

(١) حب الصغار لأمهاتها .

(٢) أوجب الأمهات لصغارها .

(٣) أوجب الغذاء الذي أوجبه الجوع .

(٤) أوجب البقاء ، ودوام الحياة الذي تعرض للمفاجأة بالهلاك بسبب العدو المفاجئ .

فإذا كانت الحركات التي نعرفها كلها صادرات لأجل محبة ، هكذا فلنقسم ما لانعلم على ما نعلم ولنسمها حبا ، وهذا الحب يوجب ما يضارع حب عطف الانسان على الانسان بفطرته ، فانك لن ترى شرقيا ولا غربيا على أي دين كان ، أو أمة ، أو نحلة ، إلا وله شفقة ورحمة وعطف على الأطفال الباكين ، أو الفقراء الشاكين ، أو المساكين البائسين ، بل عطفه على الانسان يتجاوز إلى الحيوان ، فله عطف عليه عظيم .

الحركات المنتظمة في كهارب الذرات المسرعات جريا ، المنبعثات المتعددة على قيام هيكل الذرة الواحدة اللواتي منها أنتجت هذه العوالم كلها فصارت شمس وأرضين لانعرف عددها كلها : قد أنتجت حيوانات لا حصر لها تعيش بالمحبة ، وحفظ النورية ، والألفة العامة ، فهذه الحركات المنتظمة في الذرة رأينا من نتائجها الأولى حركات الكواكب والشموس المنتظمة انتظام حركات الذرات ، ثم انتهى الأمر بعطف وغرام في الحيوان ، فإذا نقول في الحركات الأولى إلا ان جالها ونظامها ، وأنوارها المشرقات ، المكظومات المضغوطات المتداخلات لم تنتج إلا عن حب عظيم وراءها : أي ان هناك عقولا عظيمة تتقدم محبة وغراما لاحد له وعظما ، وهذه المحبات كانت نتائجها في آخر الأمر محبات عرفناها في الحيوان ، فهي كما تكون الشجرة من حبة فنتج حبة أيضا ، أما هذا الانسان الذي هو أرقى من الحيوان فانه خلق من هذه المحبة أيضا ولكن اعترضتها عوائق ، وأحيطت بموانع ، وغشت عليها غواش ، فهو أرواح تعد بالملايين ، أرادت أن تنقسم الأرزاق والمنافع والأرض ، ففشلت في العدل ، ووقعت في الخيرة ، فحدث التحاسد والتباغض ، أصل العقول الانسانية أنها ممتلئة على المحبة ، وهذا شائع ذائع ، يفسره عطف الأم والأب على النورية ، وعطف كل انسان على كل طفل وكل ضعيف ، ولكن العقبات الكثيرة غشت على تلك المحبة فسترها وغطتها فكان التحاسد والحقد ، وغلب الشر وخيم على العقول فنامت المحبة تتر بص الفرس ، ومتى رأتها وفقش الانسان عليها واستخرجها من قلبه ظهرت فأثارت وجه الأرض ، كما ان العلماء في ألمانيا وغيرها يبحثون عن مكنون الذرة ومخبوء ما فيها من القوى المكنونة فيها حتى اذا ظهرت أراحت الناس في أعمالهم الدنيوية ، ولكن هذه الذرة وقواها وان كانت هي أصل خلقنا ليس استخراج ما فيها من القوى كافيا لرقى الانسانية بل هذا رقى مادي لا غير ، وبعد ظهور هذه القوى يبقى الانسان على ما هو عليه ، فهو طماع حסود حقود جهول طفل غبي بعضه لبعض عدو (وهذا قوله تعالى : « قتل الانسان ما أكفره » وقوله : « إننا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا »

فالعالم كلها من الذرة إلى الأرض إلى الشمس تجري بنظام وعملها متقن ، فهي لم تنس الأمانة ولم تكن فيها ، فأما هذا الإنسان فإنه خان الأمانة ولم يحم بحقوقها للعالم وجهه ، انظر تفسير الآية في « سورة الأحزاب » والمعنى الثاني المذكور هناك .

فأما كشف ما في النفوس الانسانية من المحبات فإن هذا إذا انبث منها وبخرجت كرة أخرى بعد غيبتها عنه تصبح الانسانية كلها أشبه بشمس واحدة ، أو ذرة واحدة ، وكل نفس من النفوس الانسانية تكون أشبه بكهرب واحد من كهارب تلك الذرة المسرعات في جريها ، وهذا الاسراع في الجري أنتج ذرة كاملة هكذا هذه النفوس الانسانية الأرضية متى أسرعت في حركاتها العقلية والعلمية إلى غرض واحد ، وهدف واحد ، ومقصد واحد ، وهي المصلحة العامة ، فانها لا تجرم تأتي إذ ذاك بنتائجها الحقة ، ويكون عالم الإنسان إذ ذاك عظيماً ، وقوته لا تضارعها قوة ، وتكون نتائج هذه النفوس في انتظام حركاتها ، بعد مدى ، وأرفع مقاماً ، وأكثر منافع من انتظام حركات كهارب الذرة الواحدة ، وفرق ما بين حركات كهارب وحركات أرواح ، لأن حركات الأرواح الانسانية المنتظمة التي تسرع إلى غرض واحد وهي الخير العام للانسانية ترجع إلى مقاصد العلل الأولى وهي عالم الملائكة « المديرات أصراً » لا إلى نتائجها المادية البحتة . هذا هو السر في قول المهاتما غاندي : « إن الذي يكشف سر المحبة العامة أجدياً بجلال من كل مخترع ومبتدع » وذلك لأن كل اختراع وابتداع في عصرنا فهو راجع لنفس المادة والنفوس باقية على ما هي عليه ، عليها غواشي التحاسد والطمع الذي يغطي المحبة كما تغطي غواشي المادة من صلابة وبرودة ونحوها ما تحتها من الأنوار التي منها تركبت بحركات وراءها .

إن النفوس الانسانية يجب أن تكون كنفس واحدة ، وهذا هو تفسير ما يقوله المهاتما غاندي ، وهذا القول نفسه تفسير لقوله تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » . ألم نر أن عدد الإنسان مهما كثر على الأرض آلاف الملايين من الأولين والآخرين فإنه كله بالنسبة للعالم من شمس وشجرات أقل من جزء لا يتجزأ ، فإذا جعلناه كله أشبه بذرة واحدة مركبة من كهارب لم يك تشبيها بعيداً ، وهو نفسه تفسير لقوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » لأن هذه فطرتهم وهي « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » وإذا كان خلق الله لا يغير فاعلمنا يكون التغيير في الظواهر فصل هناك التحاسد والتخاصم كما حصل في الأرض بعد انفصالها من الشمس اختلاف أجزائها سيولة وصلابة وأحوالاً لا حصر لها ، فلما اختصم الناس أرسل لهم علماء وأنبياء وحكماء ليهدوهم ، لأنهم لم يبقوا على فطرتهم ، فلما علموهم أخذ تابعوا الأنبياء يختلفون ، فكل أتباع نبي مختلفون فيما بينهم ، وبين أتباع كل نبي والآخر اختلاف أشد وأوسع مدى ، وهذا قوله تعالى بعد ما تقدم « فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

وقصارى الأمر أن حال الأمم اليوم هو الاختلاف والاختلاف عارض على المحبة ، وعقلاء الأرض يرون أنه يجب عليهم أن يرشدوا النوع الانساني أن يرجع إلى فطرته ، وفطرته هي المحبة العامة ، وهذه هي الغاية من خلقنا في هذه الأرض ، فغاية هذه التربية الأرضية التي أرسل لها الأنبياء وخلق الحكماء أن يصل هذا الإنسان إلى فطرته الأولى ، وكل محاولة حاولها أنبياءنا وحكمائنا إنما كان المقصد منها أن يصل إلى هذه الغاية ، وما دمنالم نصل إليها فنحن نعيش على هذه الأرض في غاية الذلة في أنفسنا وفي دولنا سواء أ كنا أقوياء أم كنا ضعفاء .

فليجئ المسامون بعد في قراءة جميع العلوم ، وحوز جميع الصناعات ، وليضارعوا الأمم ، ثم ليقرروهم

إلى السلام العام بتوحيدهم وعلمهم ، وهذا الفتح العلمي العام أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ، فلئن فتحت مكة وفتحت فارس والروم ، ولئن رجع المسلمون الآن يجددون قواهم لازالة الخطار عن أنفسهم فهذا مبادئ ولكن غاياتها ماذا كونه وهو الحب العام .

كان النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يجعل الناس أمة واحدة تحت راية الاسلام ، فأول آباؤنا الأولون ذلك ففشوا أخيرا ، لان النوع الانساني لم يكن يشمل ذلك ، فلنقم نحن الآن بما علينا ، ولنذكر في إسماعيل الأهم كلها ، ولكن لن يقسنا لنا ذلك إلا بعد أن نقرأ كل علوم الأمم وندرسهم هم أنفسهم ، وبعد ذلك نقوم بدورنا ، ولكن هذا الدور ليس معناه أننا نحارب الأمم . كلا . بل نكون أقوياء تقدر على مدافعهم ونكون أقوى منهم ثم نعطف عليهم ونجعل الانسانية كلها أمة واحدة رجوعا إلى قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » .

فعلينا نحن المسلمين أن نكشف السر المصون المخوف في عقول الانسانية وهي المحبة العامة ، إن حالنا الآن أشبه بحال النبي ﷺ وأصحابه وهم في مكة يقرءون أنفسهم أولا ، وستأتي حال أخرى أرقى من هذه أشبه بحال الهجرة إلى المدينة وهي آتية لا ريب فيها .

إذن ظهر الآن معنى كلام « المهاتما غاندي » وتعليق عليه بأنه علينا نحن المسلمين أن نكشف هذا السر ، فهو يقول : « إن كشف هذا السر أحسن من كل مخترع » وإنما كان كشف هذا السر علينا لأننا أهل له ، أولا لأن نبينا ﷺ رجة للعالمين ، ثانيا لأننا وسط بين الشرق والغرب في ديارنا ، فكشف أوروبا أن تهجم على الشرق الأقصى أو علينا ، ونكشف الشرق الأقصى أن يهجم علينا أو على أوروبا . إذن علينا كشف سر المحبة لأعلى غيرنا . إذن يجب على المسلمين أن ينشطوا من الآن لهذا الكشف ، فليجدوا في العلوم كلها من الآن .

إن جنكيزخان منذ بضعة قرون هو والتر الذين معه أوغاوا في بلادنا أولا وفي بلاد أوروبا ثانيا ، فهذا هجوم من الشرق على الغرب وممانعه أخيرا إلا المصريون عند حلب ، وهام أولاء رجال التتار قبل المسيح بقرون هجموا على أوروبا فكان منهم تلك الأمم الهمجية التي كانت تحيط بدولة الرومان فأهلكتها وأنتجت أخيرا هؤلاء الأوروبيين الحاليين ، فنحن اليوم نريد أن نكشف سر المحبة لنزيل هذه الهجمات عن الانسانية ونوجهها لغرض واحد وهو النفع العام ، نحن جنود الله ، بل أعظم جنوده في الأرض ، فلنقم للعمل كما قام آباؤنا ، ولنكن خير أمة أخرجت للناس ، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، وهذا هو المقصود من قراءة ﴿ سورة الفتح ﴾ وفهمها وفهم كوننا خير أمة أخرجت للناس ، وقد ألفت كتاب « أين الانسان » وستقرأ ملخصه قريبا في ﴿ سورة الحجرات ﴾ وفيه مبادئ الطرق التي بها انتظام الانسانية كلها ، وقد أحبه حكماء أوروبا ، وارتاحوا له ، وهذا من مبادئ اكتشاف سر المحبة العامة في النوع الانساني ، فليقرأه المسلمون بعدنا ، وليتمموا ما ابتدأناه حتى نكون خير أمة أخرجت للناس ، وحتى نكون نحن الذين نكشف السر الذي طاب المهاتما غاندي كشفه .

والى هنا تم الكلام على اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « ولله جنود السموات والأرض » والحمد لله رب العالمين . كتب ضحى يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩٣٩ م



### اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بهم مغفرة وأجراً عظيماً

في هذه اللطيفة أربع جواهر

- الجوهرة الأولى في قوله تعالى : ليظهره على الدين كله .
- الجوهرة الثانية في قوله تعالى : رحماء بينهم .
- الجوهرة الثالثة في قوله تعالى : تراهم ركعاً سجداً .
- الجوهرة الرابعة في قوله تعالى : كزرع أخرج شطأه الخ .

### الجوهرة الأولى في قوله تعالى : ليظهره على الدين كله

مساهمة بيني وبين صديق العلامة الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير

اطلع على هذا العنوان فقال : لقد مضى أئام هذا في سور كثيرة ، وذكرت عموم الرسالة وشرحتها شرحاً وافياً . فقلت نعم ، ولكنني الآن اطلعت على ما لم يكن ليدور بخلدني . فما أجل أن أذكره ليطلع عليه المسلمون بعدنا . فقال وما هو ؟ قلت لأقدم لك مقدمة فأقول : إن العلم الجزئي ضارٌ ولكن العلم الكلي هو النافع . فقال : أنا لا أدري ماذا تريد ؟ فقلت : إذا رأينا عالماً نبغ في الفلك ، أوفى الهندسة ، أوفى جميع الرياضيات ، أوفى العلوم الطبيعية ، أوفى فرع منها كعلم الحيوان ، أوفى العلوم اللسانية ، أوفى فرع منها مثل علم البديع ، هل نقبل شهادته في نظام هذه الدنيا وعجائبها ؟ ونقبل حكمه ، ونعته حكماً ؟ قال . كلا . قلت حسن فما تقول أيها الحبيب في أمر أعم الإسلام ؟ أنقبل قول أيّ قائل كان ؟ أم نبحث عن من يعتد بقوله من أحاط بالأمر الإسلامية علماً من حيث أخبارها . فقال : أما أنا فلم أفهم ما تريدون ؟ فقلت : هاهوذا الاستاذ (لوثراب استودارد) العالم الأمريكي الذي لم يعتنق دين الإسلام قد نشر كتابه « حاضر العالم الإسلامي » وقرأه أهل الغرب والشرق ، أفليس يكون هذا حجة إذا وصف الإسلام من حيث أن الرجل محيط علماً بجلائل المسائل ودقائقها . فقال : أما هذا فكلامه مقبول إذا كان على هذا النمط لأنه إذا صحّ هذا كان حائزاً لشرطين : أحدهما أنه عالم بالحوادث . الثاني أنه غير متهم ، لأنه غير مسلم . فقلت حسن ، إذن أسمعك الآن قوله الذي يفيد معنى هذه الآية وهاهوذا قال في صفحة ١٣ وما بعدها في الجزء الأول من الكتاب المذكور مانصه :

« إن نشر الرسالة المحمدية لم يقم به رجال التبشير وحدهم ، ولا قصر الأمر عليهم دون سواهم ، هكذا ، بل شاركهم فيه جماعات عديدة من السياح والتجار والحجاج ، على اختلاف الأجناس . ولا يؤخذ من هذا أنه لم يقم في المسلمين مبشرون ارتشفوا كؤوس الحمام في سبيل الدعوة الإسلامية ، فعدد المبشرين الذين هم على هذا الطراز كثير ، وذلك ظاهر بين في أمر الطرق الدينية مما لا يحتاج إلى برهان ، بل أيّ دليل أقطع من المبشرين السنوسيين ، الخمس الغير الذين خرجتهم زوايا الصحراء وهم يعتدون بالالوف المؤلفة ،



وما انفكوا يجوبون كل بلاد وثنية ، مبشرين بالوحدانية ، داعمين إلى الاسلام ، وهذه الأتعمال التي قام بها المبشرون المسلمون في غرب إفريقيا وأوسطها خلال القرن التاسع عشر إلى اليوم لهيئة من الجغائب الكبرى وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر . فقد قال أحد الانجليز في هذا الصدد منذ عشرين سنة : « إن الاسلام ليفوز في أواسط أفريقية فوزا عظيما ، حيث الوثنية تختفي من أمامه اختفاء الظلام من فلق الصباح ، وحيث الدعوة النصرانية باتت كأنها خرافة من الخرافات » .

وقال مبشر بروتستنتي فرنسي : « مابرح الاسلام يسير بقوة منذ نشوئه حتى اليوم ، فلم يثر في سبيله إلا القليل ، وما زال يسير في جهات الأرض حتى بلغ قلب أفريقيا ، مدلا أشق المصاعب ، ومجتازا أشد الصعاب ، غير واهن الازم ، فالاسلام حقا لا يرهب في سبيله شيئا ، وهو لا ينظر إلى النصرانية ، نازعته الشديدة نظرة المقت والازدراء ، فلهذا هو حقيق بالفقر والنصر ، إذ بينما كان النصراني يحلمون بفتح أفريقية في نومهم ، فتح المسلمون جميع بقاع القارة في يقظتهم ، وأما السبيل الذي يسير فيه الاسلام جنوبا في أفريقية فهو من الرائع القريب ، منذ عدة سنوات عثرت الحكومة الانكليزية على غير ما توقع ، على أن المبشرين المسلمين مخترقون « نياسلندة » نداعة إلى الرسالة المحمدية ، وبعد البحث والاستقصاء ، واذكاء العيون ، وجدت تلك الحكومة أن المبشرين إنما هم من عرب زنجبار ، وقد بدأوا عملهم هذا منذ سنة ١٩٠٠ م وأنه بعد مضي عقد من السنين على شروعهم في جهاد التبشير ، كانت كل قرية في جنوب « نياسلندة » قد أسلمت وفيها مسجد ، ومدرسة اسلامية ، ومعلمون مسلمون ، ومع أن هذه الدعوة كانت كما هو ظاهر من أمرها رسالة شديدة لتضع سلطنة المستعمرين وسيطرتهم فلم تجسر الحكومة الانكليزية على مقاومتها خيفة ازدياد انتشارها في الأقطار الأخرى » .

ويقول بعض المفكرين الغربيين في هذا العصر : « انه لا يمضي مدة طويلة منذ اليوم حتى يرى الاسلام قد اجتاز (زمباري) وانتشر في جنوب أفريقيا انتشارا عاما فيطبق القارة بأسرها ، وليس ظفر الاسلام في أفريقيا مقصورا على الوثنية فحسب ، بل على النصرانية الافريقية كذلك ، إذ ترى الآن الذين تنصروا في غرب أفريقيا على يد المبشرين الفرنجة يتناقصون عددا تناقصا فاحشا ، وذلك لارتداد غالبهم عن النصرانية ودخولهم في الاسلام . زد على ذلك أن النصرانية في الحبشة ، إنما باتت في خطر شديد من جراء سيول الاسلام الطامية ، من بعد ما كانت فيما مضى سدا منيعا في وجه الاسلام ، والغريب في هذا كل الغرابة أن الأحباش أنفسهم غدوا اليوم يدخلون في الاسلام أفواجا متلاحقة ، لا على يد فتوح حربية ، بل فتوح سلمية دينية » .

وقال أحد الثقات الغربيين حديثا : « منذ خمسين إلى ستين سنة خلت كنت ترى قبائل الأحباش العديدة لا يكاد يرى فيها مسلم واحد ، أما اليوم فغالب هذه القبائل هم مسلمون مؤمنون بالرسالة المحمدية » . وربما كان ظفر الاسلام في أفريقيا اليوم أعظم ظفر لاقاه المبشرون المسلمون حديشا ، بيد أن هذا ليس جميع الظفر الاسلامي ، بل هناك غيره مثله في سائر أنحاء العالم ، وقد أتينا في الفصل السابق من هذا الكتاب على ذكر حركة الأحرار السياسية في بلاد التر الروسية ، بحيث بقي علينا الكلام على النهضة الدينية الهجبة التي رافقت تلك اليقظة الترية ، كان الترمابرحوا منذ عهد بعيد في الحكم الروسي ، وقد جهدت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية أعظم الجهد لتنصيرهم ، فأدركت في بعض المواضع بعض النجاح الذي لا يذكر ، غير أنه لما انتشرت اليقظة الاسلامية العامة ، وصل ما وصل منها إلى بلاد التر في أوائل القرن التاسع عشر ، هبّ التر للعالم يستردون إخوانهم المنتصرين إلى الاسلام . فلم يرض غيرا يسير من الزمن حتى عاد جميع هؤلاء فانتحلوا دين الرسالة ، على جميع ما بذله الكنيسة الأرثوذكسية من العناء الأشق : ولجأت إليه من

مختلف الذرائع والوسائل لتحويل دون ذلك ، فلم تاتى شيئا من المصحح بالرغم مما اتخذته الحكومة الروسية من أحكام الجزاء والعقاب ، ووسائل القهر والاكراه ، على أن يبشرين المسلمين التتر بأنفسهم وأمرهم على هذا ، بل شرعوا في نشر الاسلام في القبائل التركية الفنلندية الأثنية النسيمة في الشمال من بلاد التتر ، غير مباليين بمقاومة حكام الروس لهم ولو لاقوا من وراء ذلك من أهول ما لاقوا . انتهى  
فلما سمع ذلك صاحبي . قال : حسن والله ، هذا معنى ظهوره على الدين كله ، وهذا أمر عجب كيف ينشر الاسلام في تلك البلاد التي يتكلمها النرجعة وهم أخوف الناس وأكثرهم عدواة للإسلام . انتهى الكلام على الجوهرة الأولى في قوله تعالى : ( ليظهره على الدين كله ) . والحمد لله رب العالمين .

### الجوهرة الثانية في قوله تعالى : أشداء على الكفار رحماء بينهم

في هذه الجوهرة فصول

الفصل الأول في قوله تعالى : أشداء على الكفار

وبيان أن هذه الشدة أحسن بها أهل أوروبا في زماننا بعد الحرب الكبرى

فانظر ماجاء في هامش ذلك الكتاب بقلم الأمير شكيب أرسلان ، إذ أبان أن الدول الأوروبية التي ترعد خوفا من البلشفيك ، خافت ان هي استعانت بالمسلمين عليهم أن يهلكوها مصداقا لهذه الآية ، وهذا نصه بالحرف الواحد :

« قد نشر العالم الاجتماعي الكبير (غويفليهو فريدو) مقالة في جريدة (الايلاوستراسيون) عنوانها « أوروبا وآسيا » بين فيها أن الحرب الدامة أحدثت انقلابات متناقضة ، فبادت وقربت بين القارتين ، وأنه من العادة إذا خرجت سلطنة عظيمة ظافرة من حرب من الحروب ، ازدادت هيبتها وانبسط سلطانها عن ذي قبل ، والحال أنه بعد أن خرجت انكارترا ظافرة من أكبر حرب في الدنيا ، ثارت في وجهها أفغانستان والهند ثم مصر ، وبعد أن كانت تركية اضمحلت سنة ١٩١٨ عادت فنهضت وردت انكارترا وحليفاتها على أعقابهن ، وكذلك الصين بالرغم من الثورة التي تمزق أحشاءها ، تطالب استرداد البلاد التي احتلت منها وعدم مسّ شيء من استقلالها ، فأسيا تقوم على أوروبا على حين هي آخذة بمبادئ أوروبا وليست تأخذ من أوروبا وأمريكا أسلحة فحسب ، بل بمبادئ وأفكارا تقاثلنها بها . قال : وسبب ذلك هو انهيار الدولة الروسية فان أوروبا كانت سنة ١٩١٤ كتلة متحدة متينة متماسكة بالرغم من جميع المظاهرات والمناهضات التي كانت بين أجزائها ، فقد كانت السلطنة الروسية والسلطنة الانكليزية متناظرتين في آسيا ، ولكن من جهة أخرى كنت ترى كل واحدة منهما شاذة إزاء الأخرى ، وكانت أوروبا بأجمعها تستفيد من الرعب الذي تلقاه الروسية في قلب آسيا ، فسقوط السلطنة الروسية كان مبدءا خلاص آسيا ، وقد أشارت جريدة الطان بتاريخ (٨) حزيران سنة ١٩٢٣ إلى مقالة (فريدو) هذه وأيدت رأيه من جهة كون انهيار الروسية هو الذي كان مبدءا لتحرير آسيا ، وهذا عين ماورد في مقالة (روجرلابون) التي نشرناها عن مجلة باريز ، وكان أحد الروس اقترح علينا سنة ١٩١٩ نشر مقالة في جريدة روسية تصدر في برلين ، فخررنا في ذلك الوقت له مقالة نبين بها الأسباب الداعية إلى الاتحاد بين الروس والشرقيين وتلّون سياسة الروسية الماضية التي كانت عبارة عن قهر الشرق وملاشاة الدولة العثمانية لفائدة الدول الغربية ، فكان جمل الحسائر بالمال والرجال على الروسية ، ومعظم الفوائد لانكارترا وفرنسا ، لأنه من المحقق لولا ثقل حمل الروسية على ظهر العثمانيين ، وكونهم أصبحوا من عدواة الروس ، بحالة لا يملكون معها قبضا ولا بسطا ، لما كان يمكن فرنسا الاستيلاء على الجزائر ، ولا على

ترانس ، ولا إيطاليا دخول طرابلس ، ولا انكلترا احتلال مصر والسودان ، بل كانت الدولة العثمانية بأمنها ناحية الروسية تقدر على حماية هذه البلدان لاسيما في بداية الأمر ، فالروسيا هي التي كانت سبب سقوط الشرق وواسطة تقسيمه بين الدول الاستعمارية ، وتحول الحكومة القيصريّة إلى البلشفية هو الذي مكن اليوم الشرق من أن يتنفس : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » فهذا المهني كنت أوضّحه قبل أن ابتداء الكتاب الأوروبيون يذهبون إليه .

ثم ان هناك جملة وردت في كلام العلامة (فريدو) فيها معنى كبير ينبغي أن ينعم النظر فيه جميع لشرقين ألا وهو قوله : « إن الروسية وانكلترا مع تناظرهما وتنافسهما في الشرق كانت كل منهما شاذة إزرا الأخرى » ومعنى ذلك أن الروسية كانت تقلم أظفار الأتراك والفرس والصينيين ، فبملاشاة قوتهم أصبحوا لا يقدرّون على إغاثة المنود والأفغان والمصريين والعرب الذين مدّت يدها إليهم انكلترا بالبطش والغصب ، وكذلك انكلترا باستيلائها على هؤلاء قد شطّلت منهم كل قوّة حربيّة ، فأصبحوا لا يقدرّون أن يؤيدوا الدولة العثمانية ولا الدولة الفارسية ولا تركستان ولا الصين بشيء ، فكانت كل من الروسية وانكلترا قد شتّت إحداهما إزرا الأخرى بطبيعة الحال ، وكان بينهما تضامن وان لم يكن جرى عليه تواطؤ من قبل فهو جار بالفعل ، ومن الأمور التي تؤيد هذا وقوع هذا التضامن بدون تواطؤ ، ليس بين أوروبا والروسيا القيصريّة لحسب ، بل بين أوروبا والروسيا البولشفيكية نفسها مع شدة العداوة التي بين الفريقين ، فان الدول الغربية أثارت على البولشفيك الأميران كولاشان والجنرال دنيكين والجنرال يودينيش والجنرال فرانجل ، والمملكة البولونية ، وحاولت إثارة الأرمن والكرج ، وكل قوم ترجو فيهم النهضة لقتال الحكومة البولشفية التي ترى فيها الخطر الأعظم على كيان الهيئة الاجتماعية الأوروبية ، وقد بذت انكلترا وفرنسا في تسايح هذه الأقوام وسوقهم على الروسيا مئات الملايين ، ولاتزالان إلى هذه الساعة تقرصان الفرض وتربصان بالبولشفيك السواثر . لكن قد حذرت هاتان الدولتان كل الحذر من أن تحوّل على البولشفيك قوّة إسلامية ، فعرض بعضهم الرأي بالاتفاق مع تركيا وتسليمها وسوقها على الروسيا من جهة القوقاس حيث ينضم إلى الترك هناك الكرج والطاغستانيون والتتر ، فلم يقبل الحلفاء هذا الرأي أصلا ، ولأراق لهم أن تسليح الجهم ، ولا الأفغان ، ولا بخاري ولاخيوة ، ولا فرغانه ، ولا غيرها من تركستان ، ولأرعى البولشفيك بهذه القوآت كلها ، وماذا لك إلا لأنهم يرون الخطر الإسلامي أعظم من الخطر البولشفي مهما كان الخطر البولشفي عظيما .

ومن الأدلة البارزة على ذلك أنه لما نفي المرحوم أنور باشا من البولشفيكين ، وبرز موسكوسنة ١٩٢١ إلى باطوم ، ومنها انسل إلى بخاري ، وأثار ثورة تركستان الهائلة التي حشد البولشفيكيون فيالق جرارة لقمعها ، لم يفكر أحد بأوروبا في إمداد أنور على البولشفيك ، بل عند ماسقط أنور شهيدا في أوائل أغسطس سنة ١٩٢٢ فرح بمقتله الحلفاء ، ولم تخف الجرائد الانكليزية سرورها . وفي هذا مقنع لمن يبقى عنده شيء من الريب في شدة تضامن أوروبا بأزاء الشرق . انتهى الكلام على الفصل الأوّل والجوهرة الثانية فيه والحمد لله رب العالمين

شكيب أرسلان

### الفصل الثاني في تحفّز المساهمين لتلك الشدّة

وظهور المصلحين منهم لايقاد ناراها

ولأذكّر مصلحا منهم على سبيل المثال وهو الاستاذ المرحوم جمال الدين الأفغانى الذي نشر مبادئ الحرية وكان حرا على الملوكة المستبدّين ، ولأجعل الكلام فيه في مبحثين :  
المبحث الأوّل في عدائه للمستبدّين

جاء في هامش كتاب « حاضر العالم الاسلامي » المذكور بقلم نفس الأمير شكيب أرسلان ما نصه :  
 في أحد الأيام قدم علي جمال الدين الأنصاري رجلاً من الحجج ، بالي المذهب ، اسمه رضا آقا خان ،  
 صادف أنه وجد مع جمال الدين في الحبس واحد في قزوين عند ما اعتقله الشاه ، فخصات بينهما صيحة أكيدة ،  
 ثم تفارقا عند ما أخرج جمال الدين من الحبس ونفى إلى بغداد ، ثم أسلى سبيل رضا آقا هذا ، ولما بلغه مجيء  
 السيد إلى الاستانة جاء يزوره فيها ، فسر به السيد كثيراً ، وكان دائماً يتحدث به ، ويتكلمان على شقاء الأمة  
 الإيرانية بدوه إدارة سلطانها ناصر الدين . فقال رضا آقا خان يوماً أنه هو متعمد أن يضعي نفسه لتخليص  
 أمته . فقال له جمال الدين : ان كان كذلك فذهب وان هسل ، فذهب رضا آقا خان ، وبعد أشهر بينما  
 ناصر الدين شاه في جامع عبدالعظيم في طهران إذ دنا منه هذا الرجل وقبلة غيلة وقال له : بدى از جمال الدين  
 أى خذها من يد جمال الدين ، ووردت الأخبار إلى الاستانة وتحدث بها الناس كما لا يخفى ، فأبدى السيد  
 جمال الدين حميد سروره بهذا الخبر وشرع يقول : « قد تحقق الآن أن الأمة الفارسية لم تمت وانها أمة لم  
 تقطع منها الآمال ، لأن الأمة التي يقوم من أبنائها من يأخذ بشأرها ويفتك بالطاغى الذي على رأسها ، لا  
 تكون قد فقدت جرائم الحياة » .

وكلاماً من هذا القبيل كان يردده ، ثم لما ورد من مجلة « الاياوستراسيون » التصويرية الفرنسية  
 وفيها صورة القاتل رضا آقا خان مصلوباً مطلقاً والناس ينظرون من حوله هتف : عاق في الحياة وفي الممات .  
 وقال : انظروا كيف علقوه عالياً عليهم حتى يكون ذلك رضا إلى أنهم كلهم كانوا من دونه ، وكان الجواسيس  
 ينقلون إلى السلطان كل كلمة يفوه بها السيد ، فلم يشك عبد الحميد في كون قتل الشاه كان بسبب جمال الدين  
 وانه مازال وراء الشاه حتى أنزله في قبره كما قال : ومن الغريب أن الشاه بعد أن خلى سراح جمال الدين ،  
 وذهب هذا إلى أوروبا بلغ الشاه أن المترجم كان يسعى في تدبير مكيدة مع بعض الإيرانيين لخلع الشاه أو قتله  
 فندم جداً على افلاته ، ويقال انه هو الذي بعث إلى السلطان عبد الحميد يرجو منه استقدام جمال الدين إليه  
 ووضعه تحت المراقبة أماناً من شر غوائله ، فاستقدمه السلطان بكتاب من قلم أبي الهدى ، ولما بلغ الاستانة  
 أمر بالمباغلة في برته وإكرامه ، ليلهيته عن عداوة شاه الحجج ، فكان من ذلك ما كان ، ولا يمنع حذر من  
 قدر . فلما تحقق السلطان كيفية قتل الشاه غضب غضباً شديداً ، وأمر بتشديد المراقبة على المترجم ، ومنع  
 أى أحد من الاختلاط به إلا بإرادة سلطانية ، فأصبح السيد في قصره محبوساً ، وكانت الحكومة الإيرانية  
 شرعت في تحقيق حادثة القتل ، فثبت لديها إغراء جمال الدين لرضا آقا خان بالاشتراك مع شخص فارسي  
 آخر اسمه رضا آقا خان أيضاً ، وشخص بغدادى اسمه الشيخ ابراهيم ، فطلبت الدولة الإيرانية من الباب العالي  
 تسليمها هؤلاء الثلاثة ، فالسلطان عبد الحميد أبى تسليم جمال الدين ، ولكن الشخصيتين الآخرين بلفنى أنه  
 جرى تسليمهما ، وقتلاً في إيران بحجة اشتراكهما بالمؤامرة ، ثم ان التضييق بلغ حدّه على المترجم حتى  
 أرسل إلى « فيس موريس » مستشار سفارة إنجلترا يلتمس منه إيصاله إلى باخرة يخرج بها من الاستانة ،  
 فحضر « فيس موريس » إليه وتعهد له بما طلب ، وأذ ذاك بلغ السلطان الخبر ، فأرسل إليه أحد حجبائه  
 يستعطف خاطره باسم الاسلام أن لا يرضى بمس كرامة الخليفة إلى هذا الحد ، ولا يلتمس حماية دولة أجنبية ،  
 فثارت في أنفه سمية الاسلام ، وبعد أن كان زماً حقائقه للسفر . قال لفيس موريس : انه عدل عن السفر ،  
 ومهما كان فليكن ، ولدى المراقبة كانت لم تزل باقية ، وكل من أراد أن يشاهده فلا بد له من إذن خاص ،  
 وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر في حنكه مرض السرطان واشتد عليه ، وصدرت الارادة السفية بإجراء  
 عملية جراحية ، يتولاها قبور زاده اسكندر باشا ، كبير جراحي القصر السلطاني ، وكان هذا مقرراً جداً إلى  
 الحضرة السلطانية ، فأجرى له العملية فلم تنجح ، وما لبث إلا أياماً ذلائل حتى فاضت روحه ، رحمه الله



وعنى عنه . والى هنا تم الكلام على المبحث الأول من الفصل الثانى والحمد لله رب العالمين .  
المبحث الثانى من الفصل الثانى فى صفاته وتعاليمه

وهالك ماجاء بقلم الأمير شكيب أرسلان فى هامش الكتاب المذكور أيضا وهذا نصه : —  
ولد السيد جمال الدين الأفغانى فى مطلع القرن التاسع عشر فى « أسد آباد » بالقرب من همدان فى بلاد فارس ، وهو أفغانى الأرومة لافارسى ، يتحدر نسبا ، كما يدل لقب سيادته على هذا ، من الهرة النبوية الطاهرة ، ويجرى فى عروقه الدم النبوى البعث الكريم .

كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء ، وأمير الخطباء البلغاء ، وداهية من أعظم الدهاة ، دامغ الحجّة ، قاطع البرهان ، ثبت الجنان ، متوقد العزم ، شديد المهابة ، كأت فى ناسوته أسرار المغناطيسية ، فلهذا كان المنهاج الذى نهجه عظيما ، وكانت سيرته كبيرة ، فبلغ من علو المنزلة فى المسلمين ما قل أن يبلغ مثله سواه ، وكان سائحا جوّابا ، طاف العالم الاسلامى قطرا قطرا ، وجال غربى أوروبا بلدا بلدا ، فاكتسب من هذه السياحات الكبرى ، ومن الاطلاع العميق ، والتبصر الواسع ، فى سدير العالم والأمم ، علما راسخا ، واكتنه أسرار خفية ، واستنبط غوامض كثيرة ، فأعانه ذلك عونا كبيرا على القيام بجلال الأعمال التى قام بها ، وكان جمال الدين بهامل سمعته وطبعه وخلقه ، داعيا مسالما كبيرا ، فسكّنه على وفور استعداده ومواهبه إنما خلقه الله فى المسلمين لنشر الدعوة بحسب ، فانقادت له نفوسهم ، وطافت متعاقبة من حوله قلوبهم ، فليس هناك من قطر من الأقطار الاسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين إلا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية ، لا تخون نارها ، ولا يفتد أنوارها ، وكان يختلف عن السنوسى منهاجا ، فجمال انكب على السياسة وشؤونها وذلك على علوم الدين وترقيتها ، غير أن السيد جمال الدين الأفغانى كان أول مسلم يقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة فى الشرق الاسلامى ، وتمثل عواقبها فيما اذا طال عهدنا ، وامنت حياتنا ، ورسخت فى تربة الشرق وأدرك شؤم المستقبل ، وباسينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائية الكبرى ، اذا لبث الشرق الاسلامى على حال مثل حاله التى كان عليها ، فهب جمال يضحي بنفسه ، ويفنى حياته ، فى سبيل إيقاظ العالم الاسلامى وإنذاره بسوء العقبى ، وندعوه إلى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصبح فيها النفير ، فلما اشتهر شأن جمال الدين خشيت الحكومات الاستعمارية أمره ، وحسبت له ألف حساب ، فنفته بحجة أنه هائج المسلمين ، ولم تخف دولة جالا وتضطهده مثل ماخافته واضطهده الدولة البريطانية ، فسجنته فى الهند مدة ، ثم أطلقت سراحه ، فجاء إلى مصر حوالى سنة ١٨٨٠ وكانت له يد فى الثورة العربية التى أوقدت نارها فى وجه الغربيين ، فلما احتل الانجليز مصر سنة ١٨٨٢ نفوا جالا للحال ، فزابل مصر وأنشأ يسبح فى مختلف البلدان حتى وصل إلى القسطنطينية ، فلتاقه عبد الحميد بطل الجامعة الاسلامية بالبرّة والكرامة ، وقربه منه ، ورفع منزلته ، فسمي جمال السلطان الداهية بتوقد كانه ونفسه الكبيرة ، فقلبه السلطان رئاسة العمل فى سبيل الدعوة للجامعة الاسلامية ، ويطلب أن ماباله السلطان عبد الحميد من النجاح فى سياسته فى سبيل الجامعة الاسلامية إنما كان على يد جمال الدين ، المتوقد الهمة ، المشتعل العزم ، والتحقى جمال الدين بالرفيق الأعلى سنة ١٨٩٦ شيخا وعاملا كبيرا فى سبيل النهضة الاسلامية حتى النفس الأخير من أنفاسه ، وهالك ملخص تعاليم جمال الدين : —

« العالم الافرنجى على اختلاف أئمة وشعوبه عرقا وبفسية ، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص ، فجميع الدول النصرانية متحدة معا على ذلك الممالك الاسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصراني ككون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل ، فالنصرانية لم يزل التعصب

مستقرًا في عناصرها ، متغلغلا في أشتاتها ، ومتشيا في كل عرق من عروقها ، وهي أبدا ناطقة إلى الاسلام نظرة العداء ، والحق ، والتعصب الديني المفقوت ، وحقيته هذا الأمر ونقيضه واقعتان في كثير من الشؤون الخطيرة والمواضع الكبرى ، حيث القوانين والشرائع السولية لم تعامل فيها الأمم الاسلامية مستوية مع الأمم النصرانية ، فتجعل الدول النصرانية أعداءا لها في كل ما يشعرونها وعدوانها على الممالك الاسلامية واذلاها واكرهاها بقولها : « إن الممالك الاسلامية هذه إنما هي من الاخطاط والندى بحيث لا تستطيع أن تكون قوامة على شؤون نفسها بنفسها » وفوق جميع هذا فهذه الدول النصرانية عينها لم تفعل عمل هذا من ناحية وتندرع بألوف الشرائع من نواح أخرى ، حتى بالحرب والحديد والذار ، للقاء على كل حركة حارها المسلمون في بلادهم وديارهم في سبيل الإصلاح والنهضة ، جميع الشعوب النصرانية جمعة متفقة على عداء الاسلام ، وروح هذا العداء متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب ، جهدا خفيا مستترا متواليا لسحق الاسلام سحقا ، تأخذ النصرانية شوارع كل مسلم ، وآماله ، ورغبانه ، التي تجول في صدره ، ثم تمثلها بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء ، فان ما يدعوه الفرنجة عندنا في الشرق تعصبا مذموما محرما ، هو عندهم في بلادهم وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة ، والقومية المقدسة ، والوطنية المعبودة ، وأن ما يدعونه عندنا هم في الغرب إباءة النفس ، والشمم ، والشرف الوطني ، والعزة القومية ، يستندون في الشرق غلوا مكروها ، وافراطا في حب الوطن ضارًا ، ومقتا ، وشناعة للأجنبي الغربي .

جميع هذا يوضح أن العالم الاسلامي يجب عليه أن يتحد اتحادا دفاعيا عاما ، متمسك الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الديار عن كيانه ، ووقاية نفسه من الفناء المقبل . وللوصول إلى هذه الغاية الكبرى إنما يجب عليه اكتتاه أسباب تقدم الغرب ، والوقوف على تفوقه وقدرته » انتهى الكلام على الفصل الثاني والحمد لله رب العالمين .

### الفصل الثالث

في شدة المسلمين على الكفار في زماننا هذا وبعض آثاره

في هذا الفصل مبحثان

المبحث الأول في بيان نازر المسلمين فعلا

جاء في كتاب «حاضر العالم الاسلامي» المذكور مانصه : « في سنة ١٩١١ أغارت ايطاليا هتدية على طرابلس الغرب الافريقية التابعة للدولة العثمانية على غير ما علة سوى الاستعمار ، وفي سنة ١٩١٢ م تألبت الدول البلقانية النصرانية ، وأوقدت نار الحرب على تركيا ، فخرست تركيا في هذه الحرب جميع أملاكها الاوروبية ، فلم يبق من جميع ما كان لها في أوروبا غير القسطنطينية معرضة لخطر الغارات عليها ، ومهددة شر تهديد ، وفي تلك الغضون انفتحت انكلترا وروسيا على خلق الثورة الفارسية ، وكانت فرنسا على أثر معضلة «أغادير» تحرق الأرتم ، فعضت على سرا كش بالنواجذ ، وأنفذت فيها الخاب ، وهكذا في خلال سنتين توات الحلات الاوروبية تترى على العالم الاسلامي ، حلات العدوان والمحض ، فزقت ما كان باقيا منه حتى ذلك العهد سلما شرمزق ، فنزل ذلك على الأمم الاسلامية قاطبة نزول الصاعقة ، يهزم الأذان دويها ، فأخذ العالم الاسلامي في المشرق والمغرب يقوم ويقعد مشتعلا غضبا وعنقا ، فعادت الجامعة الاسلامية إلى سابق حالها تجري مجرى سريها ، وقد تحقق للمسلمين الآن ما كان ينبغي به على انقطاع دعاة الجامعة الاسلامية منذ خمسين سنة . الحرب الصليبية الجديدة لذلك الممالك الاسلامية دكا ، وصدق جميع ما كان يذيعه جمال الدين الأفغاني الحكيم العظيم ، وأخذت نتائج الجامعة الاسلامية تبتدىء ، ففي طرابلس الغرب انبرى الترك والعرب يقاتلون جنبا إلى جنب بروح عجيبة تبعثها فيهم دعوة الجامعة الاسلامية من بعد ما كانوا قبيل ذلك على حال

من الاذوار والتناحر شديدة ، فلقى المستدون الطليان أمامهم مقاتلة مستبسلين ، مل صدورهم ضرم من التعصب لا يطفأ ، ضرم يزيده العالم الاسلامي وقبسا مما جعل سياسة الغرب على الجبرج والارتباك شديدا ، فأخذوا يتساهلون في الخطب الكبير ، وفي الذي عساه أن ينفجر انفجارا عاما في مشرق العالم الاسلامي ومغربه . فقال غبريال هانوتو ، وهو وزير فرنسي من وزراء الخارجية السابقين : « بالله لماذا وجدت إيطاليا طرابلس غير المحصنة كوك الزبابير الاساعة ؟ أفليس لأنها لا تحارب تركيا وحدها بل العالم الاسلامي أجمع ، فأيطاليا جنت على نفسها وعلينا بناية لا يهزم غير الله عاقبتها ومتهاتها » . ولم يكن خنق انكسارا وروسيا لثورة إيران ومحق فرنسا لاستقلال سراكش بأقوى استمارة للعالم الاملاحي من حرب طرابلس ، فزادت نارا الغضب احتداما ، غير أنه لما نشبت الحرب البلقانية ، طفيح الكيل وبلغت الروح التراقي ، فبات المساهون من الصين حتى الكونفوقيون أنباء الحرب ونقيحتها ، وقاد بهم على أحر من جمر الغضا ، فلما طير البرق نبأ الكارثة التركية في البلقان أجفن العالم الاسلامي للخطب أيما اجفال ، وبلغت صرخاته عنان السماء ، فقال أحد مساهي الهند في نداء وجهه إلى بني قومه : « نوقد ملا اليونان نار حرب صليبية جديدة ، ويستنصر وزراء بريطانيا تعصب النصرانية على الاسلام ، ويأثم وزراء روسيا في بطرسبرج لرفع الصليب وشكه على قبة مسجد « آجيا صوفيا » فالיום هم يأثمرون ويتشاررون في هذا الخطب ، وغدا يفسلون مثل ذلك للاستيلاء على مسجد عمر بن الخطاب ( المسجد الأقصى في بيت المقدس ) . أيها المؤمنون الاخوة : اتحدوا وكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، فان الواجب المقدس ليدعو كل مؤمن بالله ورسوله أن ينضم إلى أخيه المؤمن تحت لواء الخليفة أمير المؤمنين ، ويجاهد في سبيل الرد عن حياض الاسلام والمسلمين » وقال أحد زعماء المسلمين في الهند مخاطبا الدولة البريطانية : « اننا ننادى الحكومة البريطانية بمل أفواهنا أن تفلح عن سياستها العدائية لتركيا ، إنقاء لانفجار بركان المثلث من ملايين المسلمين ، انفجار اجبر البلاء عظيما » ، وأعجب ما بدا أن أخذ المسلمون يوجهون النداء تلو النداء لغير المسلمين من شعوب آسيا ، يدعونها إلى التآزر والاتحاد لزام الغرب المعتدى ، فكان هذا الأمر وايم الحق غريبا في بابه لم يسبق له مثيل منذ نشوء الاسلام ، فان محمدا وقد جاء بالقرآن مصداقا للتوراة والانجيل وقال انه خاتم الأنبياء والمرسلين ، بعث الله من قبله موسى وعيسى ، أمي المرسلين باحترام النصارى واليهود ، وسماهم « أهل الكتاب » تمييزا لهم عن عبدة الأوثان ، وقد اتبع المسلمون ما أمرهم به نبيهم حتى هذا العهد الأخير ، فما كانوا قط يوما مبغضين النصارى بعضهم لاوثنيين من البراهمة والزرذنين والكنفوشيين سبيين أهل المشرق الأقصى . بيد أن هذه الحال شمرت تنقلب وتتحول منذ الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ إذ ظفرت اليابان الدولة الشرقية الوثنية ( الكافرة ) على دولة غربية نصرانية ، ودقت عنقها دقا ، فهبت غالب المسلمين يتهيجون لانصار اليابان هذا ابتهاجا ملؤه الفخر والشرقي والجماسة الاسلامية ، وتقنى كثير من رجال الجامعة الاسلامية ودعائها لو يتحل أبطال اليابان الاسلام وشرع في تحقيق هذا الأمر العظيم ، والنمست وسائل التقرب من اليابان ، ثم أشدت العلاقات معها ، وأنشئت الصحف الجديدة لنشر الدعوة ، واختير المبشرون للقيام بهذا المشروع الاسلامي الكبير ، فوفد الساطان وفدا إلى اليابان على بارجة حرية ، وأخذ العالم الاسلامي بسبب ذلك يلهج بحديث إسلام اليابان ، ويتناقل الأنباء في هذا الصدد ، ويتباحث فيه ، ويحبذه أشد التحبذ . قالت صحيفة مصرية سنة ١٩٠٦ : « إن بريطانيا العظمى وفي حكمها ستون مليون من المسلمين لتخشى كل الخشية أمر اسلام اليابان ، الأمر العظيم الذي اذا كان تغير مجرى السياسة الاسلامية العمة تغيرا كبيرا » . وقال شيخ من شيوخ مساهي الصين : « إذا شامت اليابان أن تدرك منزلة لم تدرك مثلها دولة فيما مضى وأرادت أن ترفع شأن آسيا على شأن سائر القارات فلا يتم لها ذلك بنة إلا باتخاذها الاسلام دينها » .

فاستقبلت اليابان وفد المسلمين، استقبالا جليلا ، وانحلته مثل الرعاية والاكرام . بيد انها لم تكشف عن رغبة في الدخول في دين الرسالة ، وكانت النتيجة أن وضع أساس للعلاقات الودية الحرة بين الشعوب المسلمة والشعوب غير المسلمة في آسيا ، وهازاد في ذلك القرب أن أخذت عرى الولاة تتوثق بسبب الحرب البلقانية وما تجلى فيها وما حوّلها من المطامع الاستعمارية الهائلة ، ويمكن المسلم بحالة شعور المسلمين ومبالغ ما آلت إليه من الاضطراب والاهتياج يومئذ بالوقوف على الصرخات الندائية المتوالية التي أخذ المسلمون يوجهونها نحو الهندويين (الهندوس) .

ومثال من ذلك نداء عظيم الخطر والشأن ، موسوم برسالة الشرف جاء فيه ما يأتي : « ياروح الشرق : الالهى من صر قدك ، وادنى عن الشرق هذا الطوفان الغربى ، طوفان عدوان الفرنجة وبقيهم واعتدائهم ، يا أبناء هندستان : كونوا لنا عوناً ونصراً بكمهتكم ، شدوا أزرنا بحضارتكم وتهذيبكم ، كونوا لنا نصراء بقوتكم ، قوة الهندويين آبائكم وأجدادكم ، دعوا قوة الأرواح السكائمة في قم جبال همالايا تنشق فقد حان لها وحق من أوجدتها الانبثاق ، املوا الجؤ بصلواتكم إلى إله الحرب لينصر الحق على القوة الفاشمة ، ويزهق الباطل : إن الباطل كان زهوقاً ، وارفعلوا أصوات دعواتكم ، وفي هياكل ربوات آلهتكم أن تهلك جيوش الأعداء المهتدين » .

فن تدبر هذا المسأل الذي آلت إليه حالة المسلمين ، ولا سيما تقربهم من الكفرة ، وتوثيق عرى الولاة بينهم وبينهم ، لا يسعه إلا تكبير هذا الأمر وتعظيمه ، والتعجب والاستغراب ! ولم يكن هذا التبذل الهائل مقصوراً على مسلمى الهند وحدهم ، بل شمل أيضاً مسلمى الصين ، فقد قالت صحيفة اسلامية من صحف تركستان الصينية ، تدعو إلى اتحاد الصينيين قاطبة اتحاداً وطنياً منيعاً للوقوف في وجه الغرب المعتدى ما يأتي : « إن أوروبا قد بلغت من الطغيان والجور مبلغاً لا حد له ، فهي لا تترك تنازعنا على حريتنا التي هي أقدس شيء لدينا ، وأوروبا ضربتنا بالضربة القاضية إذا لم يستنصر بهننا بعضنا ، ونهب في يوم آت هبة المدافعين عن الأوطان دفاع الأبطال » . وفي الدور الأول من أدوار الثورة الصينية ، خلع مسلمو الصين عنهم رداء العزلة ، واصطفوا إلى جانب أبناء بلادهم البوذيين والكشفوشوسيين يقاتلون «هم مستبسلين في سبيل الوطن ، وقد أثنى الدكتور (سن - بات - سن) الزعيم الجمهورى الكبير على مسلمى الصين بقوله : « إن الصينيين ان ينسوا أبداً نصر اخوانهم المسلمين لهم في سبيل تأييد نظام البلاد واستقلالها وحريتها » فلما نشبت الحرب السكونية العظمى كان العالم الاسلامى أجمع مضطرباً اضطراباً عميقاً ، ومحتتماً خفقاً على الغرب المعتدى ، وشاعراً بضرورة اتحاد اتحاداً مكيناً ، وساعياً جد السعى لعقد المحالفات بينه وبين غيره من الدول الآسيوية ليتسنى له بذلك القيام بجهاذه النوى في سبيل التحرر من ربة الغرب . انتهى الكلام على الأول ، والحمد لله رب العالمين .

المبحث الثانى فى أن أوروبا نفسها باينارها صدور المسلمين جمعت كلهم على الشدة عليهم جاء فى كتاب حاضر العالم الاسلامى أيضاً ما يأتى : « قام سياسة الحلفاء خلال الحرب ثلاث المرات ينشرون التصريحات الرسمية أن الغاية الكبرى الوحيدة فى هذه الحرب الدموية المخوذة الغمار إنما هو إنشاء نظام عالمى حديث قائم البنيان على مكارم الأخلاق ، والأسس الصحيحة ، والقواعد الشريفة ، كإعانة حقوق الأمم المستضعفة ، وإطلاق الحرية لجميع الشعوب والأمم فى اختيار حكمتها ، وتقرير مصيرها ، وإمتلاك مقدراتها فذاعت هذه التصريحات فى الشرق أيما ذبوع ، واختزتها الأمم الشرقية ، لا بل حفظتها عن ظهر قلبها ، وأخذت ترتلها ترتيلاً ، فلما وجد الشرق أن الصلح لم يبن على شيء من تلك القواعد والأسس الصحيحة ، ولا على مقتضى مبادئ التصريحات المحفوظة ، بل على المعاهدات المقطوعة بين الدول بعضها مع بعض سرّاً



وخفاء مبادئ الجشع الاستعماري والحكم والفتح ، أخذ يستخدم غضبا ، ويكبر نوازل الجور والبغى ، ويعظم  
سوم هذا الخسف والذل ، فأخذت مراحل الهداء تشتد غليانا في كل صقع من أصقاع الشرق ، فاكتمهرت  
الجو ، وقصفت الرعود ، منذرة بأهوال الصواعق ، ولم يكن هذا بالحادث المستغرب ، إذ قد سبق للكثير من  
الخبراء العقلاء الغربيين الراسخين علماء بالأمور الشرقية ، فأندروا الدول الغربية المرة تلو المرة قبل انفضاض  
« مؤتمر فرساييل » بسوء العقبى الواقعة في الشرق ، وانفجار عظيم لا بد منه . من هؤلاء المنذرين (ليون  
كايتاي دوق سرموننته) وهو ثقة من ثقات الطليان في شئون العالم الاسلامي ، فقد قال في سنة ١٩١٩ في  
جلة حديث له ذكر في نتيجة الحرب العاتية في الشرق : « إن الحرب الكونية العظمى قد هزت شجرة  
الحضارة الشرقية ، فاهتزت اهتزازا بلغ أقصى الجذور في التربة ، وبعثت فيها روحا عجيبة ، إن الشرق أجمع  
من الصين حتى أقصى سواحل البحر المتوسط لميد ميدانا عنيفا ، ففي كل رقعة وبلد ترى نار الهداء للغرب  
مشوبة ، ففي مراكش الفتنة ، وفي الجزائر الثورة ، وفي طرابلس الغرب عواصف الاضطراب والهباج ،  
وفي مصر ، وبلاد العرب ، وليبيا ، وسائر الأقطار الاسلامية ، الحركات الوطنية القومية الكبرى ، جميعها  
متماثلة السفة العامة ، وموحدة الغاية ، بتماثل العالم الشرق الاسلامي بعضه ببعض ، ومناهضته للحضارة  
الغربية ما استطاع إلى ذلك سبيلا » انتهى الكلام على المبحث الثاني من الفصل الثالث

### الفصل الرابع

في الكلام على الجامعة الاسلامية ، وهل الشدة المذكورة في الآية لاتزال محتملة في هذا  
الزمان بعد أن أذاع السلطان عبدالحيد الجهاد العام فلم يفلح  
وأن ساسة أوروبا يشهدون بأن الجامعة الاسلامية اليوم أشد منها في كل زمان ، وليس نداء السلطان  
المذكور شرعيا في نظر المسلمين :

جاء في كتاب حاضر العالم الاسلامي مانصه : « قد هاج تيار الجامعة الاسلامية هياجا هائلا ، وثار ثورانا  
عجيبا في هذه الآونة الأخيرة ، والباعث على هذا إنما هو الارهاق الغربي ، المتوالي الشدة والزيادة منذ الزمن  
البعيد ، ثم كانت الحرب العظمى فاستثارت من الجامعة الاسلامية مالم يستمر من قبل ، ثم ولى الصلح الحرب  
وهو الصلح الذي سبق لنا فأبنا قواعده ، وأركانها الفاسدة ، وما دهمي العالم الاسلامي بسببه من النوازل  
والفواجع ، ولا يعزبن عن البال أن الجامعة الاسلامية على مختلف حالاتها وتطوراتها يجب أن لاتعتبر أنها  
حركة سياسية دفاعية محمولة على الغرب ، ردًا لاعتدائه ، ودفعًا لجوره فحسب ، بل ان منشأها الأصلي هو  
المشاعر النفسانية الوجدانية العميقة في المسلمين لصيانة الوحدة وتوثيق عرى الجامعة العامة ، تلك الجامعة  
التي قلنا فيها قبلا أنها بين المسلم والمسلم لأقوى منها حقا بين النصراني والنصراني ، فان هذه الجامعة ليست  
دينية فقط ، بل إنها بحقيقة المعنى والمراد اجتماعية خلقية تهذيبية ، وأن القوانين والقواعد التي تتألف منها  
وتقوم عليها حياة الأسرة الاسلامية على مختلف العادات والأقاليم لاتتغير في موضع عنها في موضع آخر في  
جميع المعمور الاسلامي . قال السير موريسون : « إن الحق الذي لا يمارى فيه أن الاسلام أكثر من معتقد  
ديني ، إنما هو نظام اجتماعي تام الجهاز ، هو حضارة كاملة النسيج ، لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها ، وقد انقضى  
ما انقضى من العهد الذي مابرح فيه الاسلام والنصرانية على نضال ونزاع ، فما عرى وهن جانبا من جوانب  
الاسلام قط ، بل ما أنفك على الدوام يشتد بعضه مع بعض ، متماسكا متعاضدا ، حتى صار وحدة جامعة نامية  
نمو الجسم العضوي سائرا سيره بفعل نظامه الذاتي المستقر فيه » . فالمسلمون تربط بعضهم ببعض روابط هذه  
الحضارة رباطا وثيقا لا انفصام له ، وباعتبار هذا المعنى فان الجامعة الاسلامية إنما هي عامة قائمة البناء في جميع  
العالم الاسلامي حتى ان المسلمين الأحرار على ما يحبذون من الآراء الغربية التي يردون شرعتها من حيث

لا يراخون إلى دعوة الوحدة الإسلامية السياسية التي عليها على الطرق الرجعية يعبرون كل الاحقاد في وجوب  
الوحدة الإسلامية الشاملة المبنية على أصول ااربية وفرادها . بل إمام حق من أئمة زعماء المسلمين في  
الهند ، ودواغخان ماياي : « إن هناك سياسة إسلامية مبنية على دينية . ينضم إليها لونها الحرة كل مسلم مؤمن  
مخلص ، أعنى بذلك الرابطة الروحية الرجعية ، والوحدة الجامعة بين أتباع صاحب الرسالة الإسلامية ،  
فهذه الوحدة الإسلامية الروحية المبنية ، يجب أن تتهد فتتم وأبدا ، لأنها عند أتباع النبي "أس" الحياة  
وجوه النفس » . فإذا كان هذا شعور المسلمين الأحرار الواقفين بحق الوقوف على حضارة الغرب وتقدمه  
ورقيه وعمرانه ، والقائلين يوجب الاقتباس منه والأخذ به ، فما أشد شعور سواد المسلمين وهم الجاهلون  
الرجعيون المتعصبون ؟ أضف إلى هذا ما هو معروف في عامة المسلمين من الشناعة لاعداء الغرب وحضارته ،  
الشناعة التي ليس منشؤها في كل موضع سيطرة الغرب السياسية ، بل لمجرد الافراد والفاوق في التعصب .  
وقد كان للحوادث السياسية في العالم الإسلامي خلال العقد الأخير تأثير كبير في هذا الافراط والغلو ، فاتهب  
المتعصبون النهابا بالغا السلطة ، تدفعه دوافع سياسية خلقية دينية ، وتجهده حجة واحدة منها لثة متكئة في نفس  
كل مسلم ، فباتت السلم العامة في الامور الانسانية مهددة من ناحية العالم الإسلامي ، وهذا هو الواقع الذي يجب  
علينا أن نتعرف به ، وأن لا نتخذ نفوسنا فستعفر شأن هذه الحالة العصبية اليوم ، وما يمتل أن ينجم عنها  
من المخاطر الكبرى في الهند القريب ، وحتى ذلك ليس من إصابة الحقيقة في شيء أن يقال ان تركيا قد سبق  
لها فدعت المسلمين واستصرختهم إلى حرب عامة ، وحاربت جهدها اقتداح زنة الجهاد المقدس سنة ١٩١٤  
نزولا على أمر ألمانيا ، فلم يكن هناك الابراء المراد فذهب الاقتداح باطلا ، بل كان دليلا على أن الجهاد  
الحقيقي في العالم الإسلامي بات ضريبا من المحال ، إن من حمله الوهم على هذا فهو على خطل شديد ، إذ أن  
الجهاد لم يكن أبدا كل الامكان . قال ضابط ألماني ، كان من أركان الحرب في الجيش التركي خلال الحرب  
العامة قولا صريحا ، وهو : « إن الجهاد الذي أعلنته تركيا قد حبط حبوطا ، لأنه في الواقع لم يكن جهادا  
بحقيقة معنى الجهاد عند المسلمين » . وقد سبق لنا فأبنا كيف هب قادة المسلمين خارج تركيا ، فأخذوا  
يستهمجنون دخولها في الحرب ، وبسطنا مذهب إليه هؤلاء القادة من الخطط والأعمال ، فسلطة الاعتداءات  
الغربية الآخذ بعضها برقاب بعض منذ القديم حتى انتهاء الحرب العامة . وتقرر الصالح على الأسس والأركان  
التي ذكرنا صفاتها الفاسدة ، تقريرا كان من شأنه أن بات العالم الإسلامي أصبح خاضعا منضوع الذل والخوع  
للسيطرة الغربية ، جميع هذا أثار قلوب المسلمين ، فهبوا هبوب العاصف ، تقتلع كل شيء في سبيلها ، أضف  
إلى ما تقدم أن الأهب المادية ما برحت تزداد وتستوفي . وقد سبق للاستشرق الكبير العلامة أرمنيوس ق. باري  
الخبير بحق الخبرة بشؤون العالم الإسلامي ، فأذعر الغرب انذارا منذ أكثر من عشرين سنة ، قال فيه : « إن  
السياسة الاستعمارية النهمة إنما هي السبب في نشوء المخاطر العظمى في الشرق » واليك بعض ما جاء في  
مقاله الذي نشره سنة ١٨٩٨ - : « إن الخطر الباعث على حرب كونية عامة يزداد في الشرق ازديادا  
عظيما على توالي الأيام ، ولا يغيب عن البال أن روح العداء والمقاومة قد اشتدت ، والصدور وغرت ، والحفاظ  
اتقدت ، أعنى بذلك أن الشعور بالوحدة العامة والجامعة الرابطة قد صار شعورا عاما ناميا منتشرا في جميع  
الشعوب الإسلامية ، وقد كان من المساعد على ذلك الوسائل الحديثة للنقل والتواصل ، فباتت الحالة اليوم  
غيرها منذ عشرين سنين إلى عشرين سنة . وليس من المستغرب أن تقدم على تنبيه الصليبيين في أواخر القرن  
التاسع عشر إلى المنزلة العالية التي أدركتها الصحافة الإسلامية اليوم من الخطورة والشأن ، وإلى عام انتشارها  
في آسيا وإفريقيا ، وما لعظمتها البليغات ، وانذاراتها الموقظات ، من التأثير الشديد في نفوس قارئها المسلمين ،  
فلا تصحف الوطنية السيارة والدورية في تركيا والهند وفارس وأواسط آسيا وجاوه ومصر والجزائر مفعول عظيم

إذ كل ما تنكرفيه أوروبا ، وتقرره ، وتقوم على إنفاذه على ما ينال السلعة الإسلامية ، تنشر أنباءه في جميع هذه الأقطار بسرعة البرق ، وتحمل النوافل هذا الأبناء إلى كل جهة شامخة ، وصوب سحيق في الرافع الإسلامية ، حتى إلى قلب الصين وهذا الاستواء ، حيث يهب المسلمون لتلقي مثل هذه الأنباء معظمين مكبرين فالسرارة التي تستلير من جمع من مجامعنا ، أوند من أنديةنا ، أورلية من ولائنا ، فما تزال في مستطارها ومسبجها في الفضاء حتى تهوب أقاصى العالم الإسلامي فتقع وقوع الرعد القاصف وما تنشره صحيفة « ترجمان » في القريم مثلاً تردده صحيفة « اقدام » في القسطنطينية ويرين صدها عظيماً في صحيفة « الحوادث الإسلامية » في كالكتنا في الهند ، فالجامعة الإسلامية اليوم مسترخية العرى بعض الاسترخاء ، غير أن اعتماد الغرب على غير انقطاع ، وعصفه المتوالى يزداد اشتداداً على الدوام ، سيحصلان على استجماع هذه العرى بعضها إلى بعض فتماسك وترتبط فتصير الجامعة الإسلامية كالبنيان المرصوص منيع الأركان ، فيتوقع حينئذ من وراء ذلك حرب عالمية مشبوبة في أنحاء المعمور لائق ولا تذر .

منذ نشر قاعباري إنذاره هذا حتى اليوم ، ما برح الأصر بتفاقم والنصرة الإسلامية تشور في وجه السيطرة الغربية ، وقد زاد في هذا زيادة كبيرة النهضة القومية والحركات الوطنية الإسلامية التي كانت تسكاد لا تعرف في القرن الماضي ، وهي قد أصبحت اليوم على أتم ما يكون من النظام والكفاية من أسباب الذبوع والدعاية ، ولنا مثال على هذا وهو صحف الدعوة للجامعة الإسلامية وهي التي أشار إليها قاعباري ، فقد تعاضت تعاضماً غير مسبوق المثل ، ففي سنة ١٩٠٠ م لم يكن في العالم الإسلامي أكثر من مئتي صحيفة دعوية ، فبلغ هذا العدد سنة ١٩٠٦ بعد الخمسة صحيفة ، وأربع سنة ١٩١٤ على الألف صحيفة ، فالمسلمون يرحبون في بلادهم بأسباب النقل والتواصل مثل البرق والهاتف والقطارات الحديدية ، وغير ذلك مما يساعد على تطير الأنباء ونقل الأخبار ، وكل بلاد من بلاد المسلمين هي على اتصال دائم مع سائر البلدان الإسلامية إما توا على يد الرسل والسعاة والحجيج والسياح والتجار والبر ، وإما على يد الصحف الإسلامية والكتب والنشرات والمجلات ، ففي القاهرة ترى صحف بغداد وطهران وبشوار ، وفي البصرة وبومباي ترى صحف القسطنطينية ، وفي المحمرة وكر بلاه وبورت سعيد ترى صحف كالكتنا ، وأما الوسائل الكبرى للدعاية في سبيل الجامعة الإسلامية فهي الطرق الدينية التي سبق لنا الكلام عليها ، وهي حقاً كالسيل الطامى فانها ما أدركت أمة مسلمة إلا استولت على مشاعرها وقلوبها ، وسيرتها سهلة الانقياد إلى تعاليمها ، وترى دعاة هذه الطرق يقومون بوظائفهم على أساليب عديدة غريبة ، فهم يجوبون الأقطار بألوف الأزياء المتسكرة بتجارا ووعاظا ومشردين وعلماء ، وطلبة وأطباء ، وعملة ومقسولين ، وفقراء ومساكين ، حتى ومشعوذين ودجالين ، وحينما وصلوا ترى المسلمين قد تسارعوا لاستقبالهم على الرحب والسعة ، وأخفوهم عن عيون رقباء الحكومات الاستعمارية .

زد على جميع هذا أن ساد اليوم في العالم الإسلامي سيادة عامة الاعتقاد الذي يؤيد الأحرار والغلاة والمحافظون وسائر الأحزاب معاً ، أن المسلمين اليوم هم في دور النهضة والانتقال والتجدد يستردون مجدهم الإسلامي الفات ، ويستعيدون عزهم النليد . قال السريثودر موريسون : « ليس من مسلم يعتقد أن الحضارة الإسلامية فانية ، أو غير متجددة مترقصة ، إنما يعتقد أن قد عرستها قهقري قصيرة لحسب ، فقصر المسلمون أمرهم على التطويع في الإشادة بمجد الجدود ، وتعصبوا في ذلك ، وغالوا شديداً ، ولكن أمرهم هذا ما كان ليختلف في صفته عن الحال التي كانت سائدة أوروبا في خلال القرون الوسطى ، يوم كان ديجوراجهل مطبقاً جميع البلاد النصرانية ، يعتقد المسلم اليوم أن العالم الإسلامي سائر في طريق استئناف الارتقاء يأخذ عن الغرب ما يزيد في استحضائه ، ويبحث فيه عزماً واقداً ونشاطاً ، فتطورت الحياة تطورا تبتدت

دلائله في كل قطر اسلامي» (١) .

فاذا كان دعاة الجامعة الاسلامية يجهرون بمثل هذه الآراء ، ويصرخون تلك الصرخات في مفتح هذا القرن ، وقد جاءت الحرب العامة مصداقاً لما جهروا به السنين الطوال ، فلا جرم أن قويت شوكة الجامعة واتسع لها المجال فاشتدت قوة وانفعالها ، أضف إلى هذا أن القرب قد انقلب بعد الحرب العظيمي ضعيف المنية ، واهن القوة المادية وهنا كبيراً ، ثم جاء الصلح مبني على أركانه الباطلة ، وطفق الخلاف ينشب بين الغالبين بعضهم مع بعض نشوباً قووض مكانهم تقويضاً وقضى القضاء الأخير على منزلتهم في عيون الشرقيين ، وقد كان من شأن النزاع والمشاادة بين كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا في الشرق أن يساعد المسلمين مساعدة جائلة على زيادة تسليحهم وتماسك بعضهم مع بعض . فاشتد إيمانهم بأدراك البتة ، ثم إن هذا التعادي الذي قام به الحلفاء في الشرق قد سبب اضطراباً سياسياً عظيماً في الغرب ، فبعد التباين واتسعت فرجة الخلاف .

قال أحد كتّاب الفرنسيين في الآونة الحديثة ينذر أوروبا انذاراً شديداً : « إن العالم الاسلامي بات لا يترف بحدود أملاكنا الاستعمارية ، والمقابل الذي يريد اعتبار الحقيقة لا يجهن من ذلك أقل عجب مادامت الدعوة الكبرى التي نشرها ورفع علمها جبال الدين في المسلمين تسير سيرا دراكاً .  
وأى شيء أدل على هياج الاسلام ، وغليان مراحل حقه من ذلك الثوران الهائل الذي يقوم به السبعون مليوناً من المسلمين في الهند ، احتجاجاً على تجزئة المملكة العثمانية ؟ والأمر الأخطر أن هذا الثوران الاسلامي ليس مقصوراً على الهند فحسب ، بل انه شامل المعمور الاسلامي ، وعلى ذلك فلم يقال (السرثودر موريسون) بانذاره :

« لقد كان وأيم الحق للأمة البريطانية أن تعتبر وتدبر خطورة ما هو جار في الشرق ، فإن العالم الاسلامي أجمع ليعج غضباً ، ويحتدم حنقا ، من جراء تجزئة تركيا ، وما هذه اللوامع النارية التي تبدو في كابل والقاهرة إلا البرق الذي تتلوه الرعود القواصف فالصواعق المزلزلة ، إني قد أقت في الهند أكثر من ثلاثين سنة عرفت في خلالها المسلمين حق المعرفة ، وأرى من الواجب على الآن أن أنذر أمتي البريطانية بشر عقبي هذا الثوران الاسلامي الناشئ عن تجزئة تركيا التجزئة المنوية ، فإن سياسة مؤتمر فرساي قد خلوا تركيا في الأناضول منقطعة عن سائر العالم الاسلامي ، فليس من شعب يغضب لها ، ولا من أمة تفارعلها فما أسوأ هذا الخيال الباطل ، والوهم القاتل ! فن شاء البرهان فليتنظر إلى هذه الوفود الاسلامية العديدة الحلة بين طهرانينا في لندن كأنها الاله لا يصطلي به ، فالمسلمون قاطبة في الهند من بشوار حتى أركوت قائمون قاعدون لما يرونه قد حل بساحة تركيا والمسلمين ، حتى باتت النساء المسلمات يعولن احوالاً شديداً ، ويمكن حالة الاسلام بكاه الأمهات أطفاهن ، وترى التجار وهسم أبعد طبقات الأمة عن مزاولة الشؤون السياسية يفرّون من حوائثهم ومتاجرهم خفافاً إلى حيث ينظمون رقائع الاحتجاج ويطيرونها بالبرق إلى أنحاء العالم وترى الطوائف العديدة من رجال الدين المتقشفين ، المتشددين ، المضروب بهم المثل في شدة انقطاعهم عن جاري الحوادث في العالم يخرجون من المساجد مواكب مواكب ليشتروا في القيام بالتظاهرات والاحتجاجات ، وأغرب ما في الحالة أن الأحرار قد أخذوا ينتظمون أكثر فأكثر في عداد رجال الجامعة الاسلامية ويؤيدونها بما استطاعوا من القوة والحول ، على اعتقادهم بوجوب الأخذ عن الغرب واقتباس الآراء والأفكار منه ، وذهابهم مذهباً مخالفاً لغلاة الجامعة الاسلامية ، وأرباب الطارق الرجوعية ، والحامل كل

(١) ذكر المؤلف في هذا الموضع كلاماً مقتبساً من كتاب « يقظة الشعوب الاسلامية في القرن الرابع عشر للهجرة » لمؤلفه يحيى صديق ، أضربنا عن ترجمته . شكيب أرسلان



الحامل لهم على ذلك هو اشتداد الضغط والعنف الأوروبي ، فهم إزاء هذا الخطب الكبير يسعون في رده  
بمؤالاة الأحزاب الأخرى والتحالف معها ولو إلى حين مع علمهم أن الأحزاب الوطنية المغالية وأحزاب الجامعة  
الإسلامية إذا أثارت حرباً عامة باسم الجهاد ، فن شأن هذه الحرب أن تفتج غورا بعيد المهوى بين الشرق  
والغرب ، وتقضي على تلك العوالم والمؤثرات السارية من هذا إلى ذاك وهي التي ترى اليوم دابة في كل عرق  
من عروق العلم الإسلامي ، باعثة فيه القوة والعزم ، ومع علمهم أيضا أن حرباً كهذه تشعل نار التعصب  
الرجوعية في المعمور الإسلامي ، ذلك التعصب الذي إذا عاد فاتقد أوهن حركة الإصلاح الحديث في الإسلام  
إيماناً شديداً فأخرها مدة مديدة . ولعل الذي عرف حتى اليوم من ثوران لإسلام لا يعد أكثر من مقدمة  
لما سيحدث في السنين المقبلة ، ولنا دليل على هذا ظهور الدعوتين العظيمتين للإصلاح الديني في الإسلام  
اصلاحاً ضارباً إلى التعصب ، أما الأولى فهي دعوة الإخوان التي نشأت منذ نحو عشرين سنة في نجد قلب  
بلاد العرب وهي الوهابية عينها التي كانت نشأت منذ مئتي سنة خلت ، وهذه الوهابية الحديثة ما برحت تنتشر  
انتشاراً سريعاً حتى طبقت كل نجد ، وعلى رأسها زعيم صحراء بلاد العرب الكبير ، أعني به ابن السعود ،  
خليفة سعود الذي كان رأس الدعوة الوهابية منذ مئة سنة ، وأما الإخوان الجدد فعلى تعصب شديد منقطع  
النظير ، وخطتهم هي حلم الوهابية القديم من الإصلاح الديني العام في العالم الإسلامي ، وأما الأخرى فهي  
الدعوة السلفية التي نشأت في الهند منشأ يشابه دعوة الإخوان في نجد ، غير أنها قد انتشرت في هذه السنين  
الأخيرة انتشاراً عمّ كل رقعة إسلامية ، وغرضها كغرض الوهابية من حيث الإصلاح المزيج بروح التعصب  
وغالب أتباعها من حلقات الدراويش . هذه هي الحالة التي مع ما تنطوي عليه من مختلف العوامل المبسطة  
الذكر تنخر نخراً متغلغلاً في سلم الشرق » انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الإسلامي » والحمد لله  
رب العالمين .

\*\*\*

### نور على نور

انتشار الإسلام في أوروبا وأمريكا في زماننا

وذكرياتين اثنتين

من ذلك حادثة أمريكية أسلم ، وحادثة فرنسية عظيم أسلم أيضا ، وهالك قصتهما ، فأما الحادثة الأولى فهي  
ما جاء في مجلة « جمعية الشبان المسلمين » سنة ١٣٤٩ هجرية وهذا نصه :

### كيف أسلم ؟

ترجمة المحاضرة القيمة التي ألقاها بالانكليزية الاستاذ محمد أفندي عز الدين لوما كس الأمريكي الذي  
أسلم ، بدار جمعية الشبان المسلمين في ربيع الأول سنة ١٣٤٩ هجرية — ترجمها عبد الحميد سامي بيومي  
بكلية الحقوق .

بسم الله الرحمن الرحيم

جوهر الإسلام

الإسلام في جوهره قوة وقدرة من الخالق ، وأن الله سبحانه وتعالى زيادة على وحدانيته وأبديته هو  
الموجود أزلاً ، والموجد لكل موجود : « لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي  
يشفع عنده إلا بأذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات  
والأرض ولا يشوده حفظهما وهو العلي العظيم » .

بين روح الاسلام والإله الواحد الأحد صلة وثيقة التمسك لا انفصام لها ، فهو الذي يخرج الإنسان من الظلمات إلى النور حيث يجد في ضياء الاسلام أول قبس يشع نوراً من القرآن الكريم .  
 بسم الله الرحمن الرحيم : ففي كلمة الرحمن يشع نور المؤمن أن الله تعالى هو الإله الواحد الذي يسبح على عباده النعم في الحياة الدنيا والآخرة ، وأن المسلم اسماً يستلزمه يتعرف لخالفه في صفاته الخس بالرضا والنعماء ، وأما كلمة الرحيم فتدلنا أن الله تعالى يشمل برحمته جميع الخلق ، سواء في ذلك المؤمن والكافر ، لأنه سبحانه وتعالى يعلم قبل أن يخلق الكافر أنه سيكفر ، وأنه لولا لفظ الرحيم لما سمح للكافر أن يكون حياً يرزق في الوجود الإنساني ، فمن هنا نرى حقيقة لا بد منها الشك أن هذا النور الأعظم وهو نور الإله إنما هو الشفقة والرحمة ، ولذا نجد أن الله الرحيم لا يميت عيسى ابن مريم من جوار خطايا هذا العالم الدني .  
 إن روح الدين الاسلامي الحنيف تعلمنا أن الله لم يخلق شيئاً عظيم النفع بلبل القدر لأجل أن يرد إليه نارة أخرى ، وأن تقرب إليه القرايين عن سبيل التضحية مقابل اقرار الإنسان للسكرات والآثام ومثل هذا كما يأخذ الإنسان من أحد جيوبه مبلغاً من المال ثم يضعه في أحد جيوبه الأخرى .

أما الآية الأخرى من الكتاب الكريم وهي : « الحمد لله رب العالمين » فتعلمنا أن المحامد في مجموعها وكايتها صرجمعها إلى الله مالك الملك ، والمحيط علمه بكل شيء . وأما الآية الرابعة فتعلمنا على أن الله تعالى مالك يوم الدين ، لأنه هو المستثنى من الحساب : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

لقد أرحى الله سبحانه وتعالى إلى سيدنا محمد ﷺ روح الاسلام الذي جعله يجهر بالقول في تعاليم الشريعة السمعة للذين يقرءون ويكتبون من المسلمين ، ومن هنا نعلم أن من يوحى إليه الله بتعاليمه وأحكامه لابد وأن يكون منزهاً ومفضلاً عن الناس كافة ، فسلام الرحيم على نبينا محمد صلوات الله عليه وعاليه بركات الايمان واليقين .

ولقد نفذت روح الاسلام من محمد رسول المسلمين إلى الهداة والمصلحين أمثال عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وأن هذه الروح القوية الأثر هي التي حدث النبي ﷺ إلى الهجرة من مكة إلى المدينة بينما كان أعداؤه من المشركين يجتهدون في البحث عنه ليذيقوه ريب المنون ، ومن الغريب أن أعداء النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتنعوا بأنفسهم بترك مكة ، بل تعقبوه في هجرته ، وهناك ضربوا على نزاله سياجاً من الحيطه لأجل القبض عليه ، ولكن روح الاسلام الدفينة في الأعماق أطمعت بأن يتناول قبضة من تراب وينفذها عليهم ، فأخذتهم سنة من النوم تمكن النبي ﷺ من النجاة منهم في الصحراء حيث اختفى في غار هناك ، ولا تقل إن اختفائه في الغار يحول دون هلاكه وحرقه ، ولكن الاسلام وما في ثنائه من روحانية وقوة جعل الحسام يبيض على باب الغار ، ولما أفاق أعداء النبي ﷺ من غشايتهم تتبعوا أثره إلى الغار مدهرئين وأخذتهم هواجس الظن اعلمهم أن النبي ﷺ لا يمكن بأي حال أن يكون في الغار ! فمن يريد أن يؤمن بوحداية الله فليدرك أن يشاهد بسهولة يد الله المحركة للكائنات من غير أن تبصرها العين المجردة ، وبخاصة عندما أحيطت حياة النبي ﷺ من يد الهدوان برعاية الطير الذي اندفع إلى حياية محمد ﷺ بيد الإله الخافية عن الأبصار .

### متى وكيف اتصل الاسلام بقلبي وهداني سواء السبيل ؟

ولدت مسيحياً ، ومسقط رأسي الولايات المتحدة ، حيث لادين هناك خلاف المسيحية ، وحيث لا يعثر في تلك الجهة على أي نوع من أنواع الأدب التي تقود إلى الدين الاسلامي القيم ، بل إلى هذا الضوء اللامع ، والضياء الساطع ، إلى القوة التي يرمز إليها بروح الاسلام ، وهناك لا يزالون يهابون الناس أن المسلمين عبدة أوثان ، ولكن (ولله الحمد) في عام ١٩١٧ ميلادية اعترفت مشاعر نفسانية دخيلة ، حركت قلبي ، ودفعت

إرادتي إلى اجتياز خمسمائة ميل ، لأفقات من فضلات ورائحة المسلمين ، ولأفهام من أديبات روح الدين الاسلامي  
بنصيب .

لقد كنت قبل الدخول في الاسلام والتشبع من هذا الدين : مدمنًا على تسلي الخمر ، لاهيا بالألعاب  
الاجتماعية ، أما اليوم فتركت هذه الامور ظهرياً ، ولا علم لي بالدافع الذي حركني لترك هذه الطفليات ،  
ولسكني أقول وأبزم القول بأنني (أن) وأتسكلم ما بأففة الاسلام ان الروح الدينية الاسلامية هي التي  
أوحى إليّ بهذا الخير ، ولقد شمرت في نفسي بأنني على استعداد للخدمة في الكنيسة ، ولسكني إزاء ذلك  
وجدت أن ما استقر في نفسي كان يتنافر مع أوضاع الدين المسيحي وتعاليمه ، فانتظرت خارج الكنيسة ولم  
أندمج في سادتها ريثما ينبثق دين أحسن من هذا الدين الذي كانت الكنائس في الولايات المتحدة سائرة على  
منواله ، سالكه سبله بخطاه .

عام ١٩٢٦ في مدينة شيكاغو انتشع النشأ عن عيني عند ما ابتدأت في مطالعات آداب الاسلام  
الحقة ، وأن جوهر هذا الدين حرك دكتوراً هندياً يدعى ميليك بمدينة لاهور بمقاطعة البنسباج بالهند أن  
يكتب في مجلته قواعد الدين الاسلامي الخمس التي تعتبر الأركان الأولية الأساسية الجوهرية للاسلام ، وهالك  
نصها : —

﴿ أولاً ﴾ : كلمة أشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله .

﴿ ثانياً ﴾ : الصلاة : على كل مسلم عريق في إيمانه أن يؤدي الصلوات الخمس يومياً بعد الطهارة والوضوء  
بالماء النقي الطاهر كي تبقى أرواحنا ، وأجسادنا ، وقلوبنا نقية طاهرة قبل الوقوف أمام الله

﴿ ثالثاً ﴾ : الصوم : وهي فريضة صيام شهر رمضان من كل سنة حتى تقف بأنفسنا على ألم الحرمان  
من الغذاء ، وتأملنا قشيرة الشفقة ، وحساسية الرحمة على المعوزين من أبناء السبيل  
والفراء من يتضورون جوعاً ، وبذلك نجني من قوة الاسلام ونفوز على الأرواح لإيماننا  
ثابت الدائم لا تحركه هزات الأباطيل .

﴿ رابعاً ﴾ : الحج : وهو فرض على كل مسلم يملك القيام بأداء مناسك الحج في مكة ، وحيث يستشعر  
المؤمن بالمظمة الربانية ، ويشاهد البيت ، ومقام ابراهيم ، وكل الأعمال الجليلة التي  
أودعها الله بمكة .

﴿ خامساً ﴾ : الزكاة : وهي فريضة من اليسر بكان ، فإذا كان المسلم مولعاً باقتناء المال وكثره ، أي  
أنه كان حائزاً للثواب الشرعي الذي فرضه الله على المسلم ، ومع هذا لم يدفع حق الله  
المفروض عليه سنوياً فقد باء بخسران من الله عظيم ، وحلت عليه الضلالة من بارئه .

هذه الأركان الخمسة التي انطبعت في شخصي الضعيف ، واسترجمت بنفسى امتزاجاً قويا شديد الالتحام  
من روح الاسلام جعلتني أدين بالعبودية لإله واحد لا اله الا هو كما يقول دعاء المسيحية . انتهى

محمد عز الدين : الخادم المطيع للاسلام

المهرب : عبد الحميد صامى ييموى

هذه هي الحادثة الأولى ، وأما الحادثة الثانية فهي أيضاً ما جاء في مجلة « جمعية الشبان المسلمين » تحت

العنوان الآتي في الصفحة التالية ونصه :



## « لكم دينكم ولي دين »

من كتاب الحج إلى بيت الله الحرام

تأليف الحاج ناصر الدين دينه والحاج سليمان بن ابراهيم

الحاج ناصر الدين دينه هو المستشرق الفرنسي . المشهور المشهور ، أول من قدمه لقرّاء العربية في مصر وعرف المسامحين الشرقيين به الاستاذ راشد بك رستم بتعريبه رسالة « أشعة خاصة بنور الاسلام » التي وضعها ذلك الفرنسي المسلم الكبير . وفي سنة ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٩ م لم يقدّم به كبرسنه عن تأدية فريضة الحج برفقة صديقه الحاج سليمان بن ابراهيم الجزائري ، وبعد عودتهما وضعها مذكراتهما التي دونتا فيها رحلتهم إلى الأقطار الحجازية المباركة ، وبعد وفاة ناصر الدين في ديسمبر سنة ١٩٢٩ م تولت مكتبة (هاشيت) الشهيرة بباريس طبع ونشر تلك المذكرات فجاءت كتابا وافيا ، يشتمل على مقدمة وسبعة فصول وخاتمة وملحق ذي فصلين ، تقع جميعا في أكثر من مائتي صفحة ، وقد حلاها السيد ناصر الدين بثمان صور من صنع يده ، مثل صورة الكعبة المكرمة ، والحرم الشريف ، ومنظر الحج بعرفات ، وصلاة المغرب حول الكعبة ، وجبل النور الذي تلقى عنده الرسول الأمين الوحي عند نزوله أول مرة ، وجبهة آية في فن التصوير . وقد رأيت أن أعرب لحضرات قرّاء مجلتنا الزاهرة خاتمة هذا الكتاب لما ورد فيها من أمور حيوية جدير بالمسامحين أن يتنبهوا إليها لعلّ لهم فيها عظة وذكري .

لقد استرعت أنظارنا بصفة خاصة أثناء رحلتنا أمور ثلاثة على جانب من الأهمية بالنسبة للمستقبل وهي :  
﴿ أولا ﴾ : قوة الحياة الكامنة في اللغة العربية ﴿ وثانيا ﴾ : قوة العقيدة الاسلامية ﴿ وثالثا ﴾ : إصرار أوروبا في عداوتها للإسلام إصرارا ظاهرا أو مستترا :

### أولاً : قوة الحياة الكامنة في اللغة العربية

اتخذ بعض اللاتينيين ديدنا لهم إظهار اللغة العربية الفصحى بمظهر لغة ميتة وغير مفهومة عند ثلاثة أرباع المتكلمين بها من العرب ، أما لغة الكلام فهي في نظرهؤلاء اللاتينيين عبارة عن طجحات عامية لا ارتباط بينها ومصيرها الفناء بعد زمن قليل : ولكن حسب الانسان أن يذهب إلى الشرق ، إلى مصر ، أو سوريا ، ليتجلى له البرهان القاطع على أن اللغة العربية التي وثقت قبل أن يحين أجلها هي على عكس ما يذهبون إليه لغة حية بكل ما في الحياة من قوة ، لدرجة أن جميع الأجانب المقيمين في هذه الأصقاع لا يجدون مفرا من تعلمها ، والاحيل بينهم وبين القيام بتصرف أمورهم ، وفي مكة على وجه الخصوص يشاهد الانسان أكبر مظهر من مظاهر حياة اللغة العربية ، فإن لغة الكلام هناك تكاد تكون الفصحى بهيئتها ، ومن السهل أن يفهمها جميع الناطقين بالضاد في جميع الأقطار . أما الاختلاف الواقع بين اللهجات المتعددة فعديم الأهمية لأنه لا يحول دون تفاهم المرء كشيئين والسوريين واليمنيين وغيرهم فيما بينهم إذا جهتهم الظروف في مكان واحد والعناء الوحيد الذي يلاقيه المتكلم ينحصر في اللهجة المصرية بسبب اختلاف النطق بحرفي الجيم والقاف ، وهناك الألوف من الحجاج الأعاجم (غير العرب) الذين يقبلون على تعلم اللغة العربية بشغف زائد ليتسنى لهم قراءة القرآن واستيعاب معانيه ، والكثيرون منهم يقدرّون على التعبير بها من غير ما خطأ بالرغم من سقم نطقهم ، ولقد تسنى لنا محادثة بعض الجاويين ، والهنود ، والفارسيين ، والخراسانيين ، وأهالي البوسنة والأتراك ، والالبانيين ، وأهل القوقاز ، والسنهال ، والسودان ، من غير أن تصادفنا صعوبة تذكر .

أما العرب والبعدو من سكان الحجاز ونجد فقد تولتوا الدهشة من الشبه الكبير بينهم وبين بدو صحراء



أفريقيا الشمالية في تسمياتهم ونفوساتهم وأفكارهم . واللغة العربية الفصحى تشابه في الواقع اللغة الفرنسية ، وهي مثلها لغة حية ، وتتفق وإياها في طريق التمييز والادلاء ؛ أما اللغة السامية فلا تختلف لهجاتها عن بعضها بأكثر من اختلاف لغة فلاحي شمال فرنسا عن لغة فلاحي جنوبها ، ويجد الإنسان في دراسة تلك اللغة الجبسية ميزة خاصة بها ، فانها (من بين جميع اللغات القديمة) اللغة الوحيدة التي لا تزال حية الآن ، ولوعاد اليوم أحد مفاصرى النبي ﷺ لما وجد آية صعوبة في الفاهم مع جميع الناطقين بالزاد ، على حين أنه لو عاد أحد مفاصرى قيصر لما تأتى له إلا أن يتكلم مع بعض الأساتذة المدرسين ، ومع ذلك فن المشكوك فيه أن يقنى له أن يفهمهم كل الفهم ، كما أن أحد مفاصرى (فرنسوا الأول) لو عاد لوجد صعوبة نامة في التخاطب مع فرنسي اليوم .

وآداب اللغة العربية (دون آداب اللغات الحية) أقلها انتشاراً ، لأنها أدق على الفهم ، ولأن الموجود منها بين أيدينا مترجماً إلى اللغات الأوروبية معظمه مخشوش بالأخطاء وعلى جانب من السخافة المزرية ، وفي الواقع لأجل الإلمام بآداب اللغة العربية ، تفهيمها للغير يجب أن لا يكون المترجم لها ممن درسوا اللغة العربية حقاً دراستها فسيب ، بل يجب أن يكون شاعراً ، وأن يكون ممن عاشوا بين ظهرائى العرب المسلمين وعاشروهم مدة طويلة ، فأمثال هؤلاء يجهلون في آداب العربية كنوزاً متخزة قل أن يوجد لها نظير في جبالها ونوعها ، واللغة العربية ميزة أخرى ، وهي أنها منتشرة في أقطار واسعة تمتد من شواطئ الاطلانطيق إلى بلاد فارس وخليج الحبحم ، ومن شواطئ البحر المتوسط إلى بلاد السودان ، وكثيراً ما يقابل الإنسان جماعات كبيرة من المسلمين يتكلمون العربية في الأقطار الواسعة الواقعة بين بلاد فارس والهند وشواطئ المحيط الهادى ، وإن في دراسة اللغة العربية فوائد لا تنكر لاسيما للفرنسيين ، بل هي أكبر أهمية من دراسة اللغة اليونانية القديمة واللاتينية ، وتبادل دراسة اللغتين : الانكليزية والألمانية ، ويجب أن تدرس في جميع المدارس الثانوية في فرنسا والجزائر وتونس والمغرب الأقصى .

### ثانياً : قوة العقيدة الإسلامية

وقف الفراء فيما أوردناه في هذا الكتاب على مقدار قوة العقيدة الإسلامية الماثلة ، ولذلك لا حاجة بنا إلى تكرار ما رأيناه من المهجرات التي تجلبت لنا من جراء فشل هذه العقيدة بالنفوس ولكن من باب التذليل على عظمة هذه القوة نقطف فيما يلي بعض الفقرات الواردة في الكتاب الذى وضعه القس (زويمر) والذي أتى فيه على شرح انتشار الاسلام أيقظته المحن التي نزلت به منذ الحرب الكبرى . قال : « منذ سنة ١٩٠٥ عاد خمسون ألفاً من الروسيين الذين كانوا يتسمون بأسماء مسيحية إلى حظيرة الاسلام (صفحة ٢١٠) وأن السودان الواسع الأرجاء يسكنه بالملايين ٥٠ مليوناً من النفوس ، وقبيلة هاوسا الكبيرة ، وقبائل بلاد النيجر ، والشاطئ الذهبى ، أسلم الكثيرون منهم ، بل هم على وشك أن يصيروا جميعاً مسلمين ، ولا ريب أن الموج يرتفع قهراً دون أن يلقى مقاومة (صفحة ٢٣٥) وفي البنغال (مقاطعة من مقاطعات الهند) أسلم أكثر من ١٠ ملايين نفس ، وكذلك في برمانيا (بنجوار الهند) زاد عدد المسلمين بنسبة الثلث في نحو عشرين سنة (١) وأخيراً نثبت هنا ما فات زويمراً أن يذكره ، وهو أنه يوجد في جميع أنحاء أوروبا وأمريكا من اعتنقوا الاسلام ، وإذا كان هذا الأمر لا يزال قليل الأهمية بالنظر لقلّة عدد المعتنقين (وإن كان عددهم لا بأس به) فإنه ذو أهمية كبرى نظراً للمركز هؤلاء المعتنقين الذين ينتمون إلى الطبقات الراقية المتعلمة ، ونذكر منهم على سبيل المثال (اللورد هيللى) الانكليزى ، وصديقنا المأسوف عليه المرحوم كريستيان شرفيس أحد تلاميذ

(١) انظر كتاب « الاسلام » تأليف س . و . زويمر

أوغست كومت ، وأديب من أدباء فرنسا الممدودين ، وفيلسوف من فلاسفتها المشهورين .  
ولو كان الاسلام الحقيقي عروفا في أوروبا لكان من المحتمل أن ينال (أكثر من أي دين آخر) من  
العطف والتأييد من جراء روح الدين التي نجمت عن الحرب الكبرى ، فإنه والحق يقال يلائم جميع ميول  
معتقيه على اختلاف مشاربهم فهو (ببساطته المتناهية كما يذهب إليه المعتزلة ، وباشتماله على روح التصوف  
كما يذهب إليه أهل الصوفية) يهدي علماء أوروبا وآسيا إلى الطريق المستقيم ، ويوجدون فيه تهزية وسأوى  
من غير أن يتحول بينهم وبين حريتهم التامة في آرائهم وأفكارهم ، كما أنه هدى وتهزية لزواج السودان الذين  
ينتزعهم من أحضان أوهامهم الوثنية ، ويرقى بروح ذلك التاجر الانكليزي وجبل العمل الذي يعتبر الوقت  
من ذهب كما يرقى بروح الفيلسوف المدين ، ويسمو بنفس الشرقى المفكر ذى التأملات والخيال ، كما يسمو  
بنفس الغربى الشغوف بالفن والشعر ، بل هو يستعرب الطبيب المصرى بما قرره من الوضوء المتكرر  
كل يوم ، وبما فى الصلاة من حركات منتظمة ، تفيد الجسم والروح معا ، وفى وسع حرة الفكر (وهو  
ليس ملجدا حتما) أن يعتبر أن الوحي الاسلامى عمل من أعمال تلك القوة الخفية التى نسميها (الالهام)  
وأن يمتد به من غير أية صعوبة بما أنه لا يحتوى على أسرار خفية لا يسيفها العقل .

### ثالثا : عداوة أوروبا للإسلام

إن الكثيرين من القراء يعترضون على ملاحظتنا الخاصة بعداوة أوروبا للإسلام ، فإن هذا الشعور  
السيئ لوجود له فى الحقيقة عند عامة الأوروبيين ، بل هناك الكثيرون من غواة الفن وعشاق السياحة  
يشعرون بعطف خالص على الاسلام وأعجاب كبير بذلك الدين الجذاب الذى أثنى بآيات الإعجاز .  
ولكن مما يؤسف له أن أوروبا متمسكة بتقاليد سياسية يرجع تاريخها إلى عهد الحروب الصليبية ولم تحدد  
عنها الآن ، وكلما همت بنسيانها قام فى الحال أعداء الاسلام أمثال (غلادستون) و (كرومر) و (بلفور)  
ومطران كنتربرى والمبشرين من جميع المذاهب فى وجهها ، لصدها والعودة بها إلى تلك التقاليد العداوية  
(وهنا استعرض المؤلفان بعض الحوادث السياسية مما لا يجهله القراء وهما يخرج بنا عن الخطة التى ارتسمتها  
المجلة لنفسها ، ولذلك لم نربدا من إغفال ما ذكرناه فى هذا الصدد) .

### كراهية الاسلام تحت ستار العلم

جرت العادة عند ما يدرس أحد العلماء موضوعا من المواضيع أن يشغف به كل الشغف ، ويرى جميع  
المحسن مجتمة فيه ، وما يزال عاقا بأذهاننا ما كان يبيديه أحد أساتذتنا من الحماسة والأعجاب بأشعار فرجيل  
التي كان يحتم علينا استظهارها ، وكذا الحماسة التى كان يظهرها أحد علماء التاريخ الطبيعى عند ما يقع نظره  
على الديدان الموجودة فى أحشاء كلب ميت .

ولا يوجد لهذه القاعدة سوى استثناء واحد ، والاسلام هو فى هذه المرة أيضا محور هذا الاستثناء ، وفى  
الواقع توجد اليوم جماعة من المستشرقين لاغرض لهم من دراسة اللغة العربية والبحث فى الدين الاسلامى  
سوى تشويهها والطمع فىهما . انتهى ماجاء فى « مجلة جمعية الشبان المسلمين » وبهذا تم الكلام على  
الجوهرة الأولى فى قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » والحمد لله رب العالمين .

## الجوهرة الثانية في قوله تعالى : رحماء بينهم

مع قوله تعالى في سورة الحجرات الآية بعد هذه : إنما المؤمنون إخوة  
وفيها فصلان : الفصل الأول

جاء في مقدمة كتاب « حاضر العالم الاسلامي » للعالم الأمريكي (لوثر روب ستودارد) ملخص ما يوضح معنى : « رحماء بينهم » ومعنى : « إنما المؤمنون إخوة » وذلك بتدوين تاريخ الرسالة المحمدية ، وبيان أخلاق العرب القدماء وتفرقهم ، والنصارى وخرافاتهم ، والقيصرة وظلمهم ، والأكاسرة واستبدادهم ، وكيف جاء الاسلام فجمع هذه الأمم على الاخوة الاسلامية ، ثم أبان أيضا كيف أصاب هذه الاخوة ما شئت سماها ، وفترق جمعها ، وذلك بحب الاستبداد بالخلافة والرجوع إلى العصبية الجاهلية في الأمم العربية ، فتبع ذلك أن استبدت الترك الحفافة الفلاظ بالأهم الاسلامية فتفرق الجمع ورجع الاسلام القهقري ، واستعرت نيران الخلاف بين الفرق المتباينة الاسلامية ، ولما كثرت الظلم ، واشتد الحيف وزداد ، وبلغ السيل الزبي ، امتدت نيرانه إلى النصرانية ، فضيق الترك المسلمون عليها الخناق ، في غدوها ورواحها للحجج ، فكانت الحروب الصليبية ، ولولا أخلاق الترك لم تكن هذه الحروب .

ولقد أصيب الاسلام في الشرق بالمفول وعلى رأسهم جنكيزخان ، وأصيب في الغرب في بلاد الأندلس بتفرق كلمة العرب ، فزالت الدولتان الشرقية والغربية ، وهنالك ظهر الترك العثمانيون فلكوا أقطار الاسلام كلها بعد أن أقفرت أعظم ديار الاسلام أيام المفول ، وخربت بغداد ، وبلاد العراق ، ثم إن أوروبا أخذت تستيقظ إذ ذاك فهجمت على بلاد الاسلام واقسمتها ، فقام المسلمون اليوم وعرفوا الحقائق ، فاستيقظوا من سباتهم العميق ورجعوا الآن إلى آية : « رحماء بينهم » وآية : « إنما المؤمنون إخوة » .

هذا ملخص المقدمة التي كتبها مؤلف « حاضر العالم الاسلامي » الأمريكي ، كل ذلك قصصه على صاحبي العلامة الذي يحدثني في هذا التفسير . فقال : هذا كلام جميل في الرحمة والاخوة الاسلامية ، والله انه نور على نور ، وكيف لا يكون ذلك والكتاب « أولا » حديث العهد « ثانيا » ان كاتبه أمريكي نصراني « ثالثا » إن فيه ملخص تاريخ النبوة وملوك الاسلام « رابعا » ان الاخوة الاسلامية التي جاءت في هذه الآية ظهرت في أول تاريخ الاسلام ورجعت تظهر الآن ككرة أخرى لاسعاد أهل الأرض ، والله إن هذا التفسير لو لم يكن فيه سوى هذا المقال لكفى ، بل لو لم يكن للنبي العربي مجزة سوى هذه لكفت ، بل لو لم يكن للمسلمين الحاليين نبراس وسادة ومنعة وعزة سوى هذه الآراء لكفتهم في رقيبهم ، فاذا أنت نقلت نفس هذه المقالة لتسمعهما الأمم الاسلامية المنبثة في أقطار المسكونة ، فانك حقا تلهب في قلوبهم نار الحساسة الأخوية والمحبة الاسلامية ، وتسرع في رقيبهم بها ، وبما همون ما هم عليه من اليقظة والقوة ، وتذهب تلك الوسواس والخوف والتشاؤم واليأس ، ويحل في القلوب نور التفاؤل والتقدم والسعادة والفلاح . فقلت : جاء في الكتاب المذكور في المجلد الأول تحت عنوان « تمهيد للمؤلف » مانصه :

إن العالم الاسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، قد تغلغل فيه عوامل الانقلاب أبعد متغلغل ، وانبثت في عروقه فواعل التبديل أوسع منبث ، حتى كمل اختباره ، وتم استعدادده ، فراح يجتاز هذا الدور الخطير في التحول ، ثوار القوى إلى ملاحته ، فاذا ما سرحت بعصرك نحو العالم الاسلامي رقعة رقعة ، من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان إلى الكونغو ، رأيت ال... .. من المسلمين قد ثارت نفوسهم مشتدة الحركة والانفعال ، نازعة إلى كل ضرب جديد من ضروب الآراء والافكار ، والمطامح والآمال ، وأن عتبي هذا الانقلاب الشامل لعظيمة جدا ، وستأثر بنتائجها العميمة أمة الأرض جمعاء ، والله الأمر من قبل

ومن بعد .

على أن العامل الأكبر في هذا الانقلاب هو الحرب العامة ، وإن كان منشأه يراه المستقضى أقدم عهداً وأبعد أصلاً ، إذ أن بذوره قد أقيمت في ترب السلام الإسلامي قبل الحرب الكبرى بمائة سنة بل أكثر ، ومنذ ذلك الحين درجت هذه البذور نموها وزيادة الاستعداد والقوة الحيوية ، نحواً مستسراً المنهج ، بطرق الحركة في أول العهد ، ثم على التوالي صار أوضح سبيلاً وأوسع انتشاراً ، وهزال الانقلاب الإسلامي على مساهم هذا حتى أدركته الحرب العامة التي قد تضعف منها السكبان ، فكانت عامل الثورة فجأة في الممور الإسلامي فطفق يشور ويهتاج منتقلاً من حال إلى حال ، سرّاً الجور بقاتم السعيب ، لا يسمع فيه السامع إلا القواصف . وإن وصف هذا الانقلاب الجحيب ، ودور الذخول العظيم ، وما إليهما من مختلف الأسباب والعامل والتأثير هو غرضنا الذي قد ابتغيناه من إخراج هذا الكتاب للناس ، وقد كنا في ذلك من الذين يصورون الشيء كاملاً تاماً ، فأثينا على بيان كل صور الانقلاب من دينية وتهديفية وسياسية واقتصادية واجتماعية ، وفي كل من هذه تناولنا الكلام على سببها وتكوينها ، ونشوتها وترقيتها ، وعمومها وانتشارها ، وصفاتها وحالاتها ، وما فيها من قوة انسياق وباطل ، أضف إلى هذا أننا لم نغفل لإيضاح مافي بعض المواضع من الاختلاف بسبب الاقليم والبيئة ، من حيث أننا قد بسطنا تلك المضارعة العامة والعصنة الكلية ، مما هو مناسب لجميع الحركات على اختلافها مصاحبة دالة على ماهناك من وحدة متوخاة في هذا الانقلاب الإسلامي .

إن موضوع الكتاب وإن كان مختصاً بالعالم الإسلامي في المقام الأول ، غير أنه تناول الكلام على غير المسلمين كالعناصر الهندوية (الهندوس) في الهند وسواهم استيفاء للفرض من جميع الوجوه التي لها صلة بالموضوع ، لذلك جعل الكلام كافياً وافياً في شأن الشرقيين الأدنى والأوسط ، أما الشرق الأقصى فلم نتناول الكلام في أحواله مباشرة ، ولكننا قد أشرنا إلى ما هو مشاهد من الشبه والمماثلة بينه وبين العالم الإسلامي في المساجرات العامة إشارة ينبغي للقارئ أن يقيم لها وزناً اه

ولنشرع الآن في ذكر مقدمة الكتاب المذكور ، فقد جاء فيه تحت العنوان التالي مانصه : —

### نشوء الإسلام وارتقاؤه وأخطاؤه

يفنى البرايا ويأتي الوقت مختلفاً به لينخرج الدهر تاريخاً من الرمم

كاد يكون نبأ نشوء الإسلام النبأ الأعجب الذي دَوَّن في تاريخ الإنسان ، ظهر الإسلام في أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضة السكبان ، وبلاد منحطة الشأن ، فلم يمح على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الأرض ، ممزقاً عمالاًك عالية النرى ، مترامية الأطراف ، وهادماً أدياناً قديمة كبرت عليها الحقب والأجيال ، ومغيراً ما بنفوس الأمم والأقوام ، وبانياً عالماً حديثاً متراصاً الأركان ، هو عالم الإسلام . كما زدنا استقصاء باحثين في سرّ تقدم الإسلام وتعاليمه ، زادنا ذلك العجب العجيب بهراً ، فارتدنا عنه بأطراف حاسرة ، عرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت ثم أنشأت تسير في سبيلها سبيراً بطيئاً ، ملزقة كل صعب ، حتى كان أن قبض الله لسكل دين منها ما أراد له من ملك ناهض وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ، ثم أخذ في تأييده والذب عنه ، حتى رسخت أركانه ، ومنعت جوانبه ، بطل النصرانية قسطنطين ، والبوذية اسوكا ، والمزدكية قيا كسرو ، كل منهم جبار أيد دينه الذي انتحل بهما استطاع من القوة والأيد ، إنما ليس الأمر كذلك في الإسلام ، الإسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية ، تجوب فيافيها شتى القبائل الرحالة التي لم تكن من قبل ربيعة المسكان والمنازل في التاريخ ، فليسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته في جهات الأرض ، مجتازاً أفدح الخطوب وأصعب العقبات ، دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ولا أزر



مشدد ، وعلى شدة هذه المكاره فقد نصر الاسلام نصرا ، بينما عجيبا ! إذ لم يكن يمضي على ظهوره أكثر من قرنين حتى باتت راية الاسلام خفاقة من « البربريس » حتى « جلایا » ومن صحارى أواسط آسيا حتى صحارى أواسط أفريقيا .

كان لنصر الاسلام هذا النصر الخارق عوامل ساعدت عليه ، أكبرها أخلاق العرب ، وماهية تهاليم صاحب الرسالة وشريعته ، والحالة المآلة التي كان عليها المشرك المعاصر في ذلك العهد ، إن العرب وإن كان ماضيهم مبرح منذ عهد متناول في القام ، يعني عصر الرسالة ماضيا غير مشرق باهر ، فقد كانوا أمة استودعت فيها قوة عجيبة ، تلك القوة السكينة التي بدأت منذ نشوء الاسلام تظهر بعلية إلى عالم الوجود ، فقد ظلت بلاد العرب أجيالا طويلا من قبل محمد ، مباءة يستند فيها نضار القوى الحيوية ، وجيشان العوامل الروحانية ، كيف لا وكان العرب قد قاتلوا آباءهم وأجدادهم إغلا في الشرك والوثنية ، وانقضى عليهم وهم على هذه الحالة عهد ليس بالقليل حتى استحوطت عناصر أصحجتهم من شدة ذلك كله فصاروا تواقين بفعل غرائزهم وأخلاقهم إلى تبديل ماظم ، وتبديل شأنهم ، هكذا كانت حالهم العقلية والنفسيات حالة الاستحالة الكبرى والانقلاب العظيم ، والاستجداد الكبير ، لما صاح فيهم نضار الاسلام ، إن محمدا وهو عربي من العرب ، وروح قومه متجسدة ، ونفسهم متجسمة ، استطاع وهو يشر بالوحسدانية تبشيرا عاريا عن زخارف الطقوس والأباطيل أن يستثير حتى الاستثارة من نفوس العرب الفيرة الدينية ، وهي الفيرة السكينة متمكنة على الدوام في كل شعب من الشعوب السامية ، وإذهب العرب لنصرة دهرية ابن عبد الله ، من بعد ما ذهبت من صدورهم الإحسان الزمنة ، والعداوات الشديدة التي كان من شأنها من قبل النهاب بحولهم وقوتهم ، وانضم بعضهم إلى بعض كالبنیان الموصوص تحت لواء الرسالة في رأسه نور للناس وهدى للعالمين ، أخذوا يتدفقون تدفق السيل من صحاريهم في شبه الجزيرة ليفتحوا بلاد الإله الأحمد الفرد الصمد .

أجل ، هب الاسلام من شبه الجزيرة هبوب العاصف الزرع ، فلاقى في سبيله جوا روحانيا خاليا ، في ذلك العهد كانت كلتا مملكتي فارس وبيزنطية بائيتين للعيان كأنهما اللحاء الجاف فاروق عوده لانه في ولا حياة ، وكان الدين في كل من هاتين المملكتين صار دينا يزرى عليه ويسخر منه ، أماني فارس فقد كان دين المزدكية القديم قد انحط انحطاطا كبيرا حتى أصبح مجوسية باطلة وصناعة خداعة بين أيدي الموابذة يظلمون به الخلق ويضطهدونهم بكل قسوة ، فمكره الناس ذلك الدين في الباطن كرها شديدا ، ومقتوه مقتا عظيما .

وأما في القسم الشرقي من المملكة الرومانية ، وهو مملكة بيزنطية فقد ألبس الدين فيها لباسا غير لباسه الأول فاستحوط إلى الأباطيل الشركية وانتشرت فيه الأهام والخزعبلات التي كان يقوم بها علماء الدين اليونانيون ذور العقول السقيمة والآراء الفاسدة ، ففسدت النصرانية عبثا وسخرية ، وعلى الجلة فقد كانت البدع والضلالات قد مزقت المزدكية الفارسية والنصرانية البيزنطية شرا مزرق ، وبذرت في كل منها بذور الاضطهادات الهرمجية ، والعداوات الوحشية ، فنمت تلك البذور نموا هائلا ، ولا يعزبن عن البال أنه كان على رأس كل من بيزنطية وفارس سلطان مستبد قاهر ، وملاك عات أرهق الرعية إرهاقا لا قبل لأمة باحتمال مثله ، فماتت كل عاطفة من عواطف حب الوطن والاخلاص للدولة ، زد على جميع ذلك أن هاتين المملكتين كانتا على حال من الضعف شديدة بعيد حرب طاحنة ، التظت نيرانها بينهما ، خرجت كلاهما منها مفتوتا في عضدها ، منهوكة قواها .

هكذا كانت حالة العالم لما غشي طوفان الاسلام ، وعلى هذا الاعتبار فإن العاقبة التي رآها العالم بعيد ذلك كانت مما لا بد منه ولا منتدح عنه ، وجميع ما في الأرض أن كتائب المملكة الرومانية الشرقية ومتدعة

فارس ، كانت من قبل خواضة حرب فتاكة ، لم تقو الآن على صد حملة الحامليين عليهما من أمة الصحراء المتعصبة ، فسقطت أمام الفاتحين العرب سقوط التلاشي والاعياء ، فلهذا لم يدافع المغلوبون عن أوطانهم جسداً أبطالا ، بل ان هذه الأمم التي كانت حتى الفتح الاسلامي مدقوقة العنق من جانب ملوكها ، قبلت الفاتحين مستسلمة ، فقام عديد أرباب البدع يتهلون فرحا وسرورا لنجاتهم من نير المظلمين الممقوتين ، ولم يمض سوى اليسير من الزمن حتى كان السواد الأعظم من هذه الأمم المغلوبة قد دخل في دين النبي العربي أفواجا ، إيثارا له بجدته وسنابجته على ذنوب الدينين اللذين صارا غاية في الانحطاط والتسدي ، وقد عرف العرب بدورهم كيف يستدني الحكم ويوثق السلطان حتى دانت لهم أمور الملك واستقرت نقطة دائرتها في أيديهم ، فالعرب لم يكونوا قطة أمة تحب إراقة الدماء ، وترغب في الاستلاب والتدمير ، بل كانوا على الضد من ذلك ، أمة موهوبة بجليل الأخلاق والسجيا ، توافقة إلى ارتشاف العلوم ، محسنة في اعتبار نعم التهذيب تلك النعم التي قد انتهت إليها من الحضارات السالفة ، واذ شاع بين الغالبين والمغلوبين الزواج ووحدة المعتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريرا ، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة ، الحضارة العربية وهي جماع متجدد التهذيب اليوناني والروماني والفارسي ، ذلك الجماع الذي نفخ فيه العرب روحا جديدة ، فنضروا زهر ، وألفوا بين عناصره ومواده بالعنصرية العربية والروح الاسلامية ، فانحد وتماسك بعضه ببعض فاشرق وعلا علوا كبيرا ، وقد سارت الممالك الاسلامية طيلة القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ - ١٠٠٠ م) أحسن سير ، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورقيا ، وتقدما وعمرا ، مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة ، والخواضر العاصرة ، والمساجد الفخمة ، والجامعات العلمية المنظمة ، وفيها مجموع حكمة القدماء ومخترن علومهم ، يشعان اشعا باهرا ، طيلة هذه القرون الثلاثة ما انفك الشرق الاسلامي يضيء على الغرب النصراني نورا ، ثم غابت كواكبه ، وأفلت أنجمه ، حتى أدركته ليليه السوداء ، وأجياله المظلمة ، لم يكده يستهل القرن العاشر حتى تبتت الظواهر الواضحة تدل على حينونة العهد الذي أخذت فيه الحضارة العربية في الانحطاط ، وما كانت تلك الظواهر لتكذب فيما دلت عليه ، غير أن تلك الحضارة إنما كانت في أوائل عهد الانحطاط تهبط دركة دركة ، وعلى هذه الحال المستمرة ، وانقضاء العصر العربي في منذ القرن العاشر فقد دامت الحضارة العربية جلدة قمتزع حياتها من مخالب الفناء انتزاعا ، وسابقة للغرب النصراني حتى حاول النازلة الكبرى التي حلت بساحتها في القرن الثالث عشر ، وكانت الأسباب في انحطاط الحضارة الاسلامية جمة أشدها أن روح الشقاق القديمة الأصل ، تلك الروح التي كانت على السوام آفة سياسية تنفخر في جسم الدولة عادت فظهرت إذ نشأ النزاع على إمارة المؤمنين ، وهذا النزاع قد أفضى إلى فتن دموية ، وهذه الفتن وما فيها من حوادث الاغتيال وسلب الأرواح قد أفنت تلك الحرارة التي عرفت في صدر الاسلام ، فقام مقام الأبطال الاول ، مثل أبي بكر وعمر ، حاملي لواء الاسلام الأولين ، أمراء دنيويون ، اتخذوا الخلافة وسيلة للجهور والظلم ، والتباهي بمتاع الدنيا وأعواضها ، وكانت الخلافة في المدينة في الحجاز ، ثم نقلت إلى دمشق في سورية ، ثم إلى بغداد في العراق ، أما في الحجاز فلم يكن البني ولا الاستبداد هناك مستطاعا ، لان عرب الصحراء الأشداء ، أهل الاستقلال والحرية ليس من شأنهم الخضوع لحاكم قاهر ، ولا الانقياد لآمر مرهق ، وقد أوصاهم النبي بالحرية والشورى فقال لهم قولا مبينا : « إنما المؤمنون إخوة » وقد كانت الخلافة في الحجاز شورية قائمة على قواعد الاسلام الصحيحة وأركانه ، فالأمة هي التي اختارت أبا بكر وعمر وولت كلا منهما عليها خليفة ، وكلاهما كان ينزل على رأي الأمة وحكمها ، وذلك على مقتضى الشريعة التي أوحى الله بها إلى نبيه محمد وهي القرآن الكريم . وأما في دمشق ، ولا سيما في بغداد ، فقد تحولت الأحوال ، وتبدلت الامور ، ولا يجبن من ذلك والعرب الصرخاء الأقحاح ، الجاري في عروقهم الدم العربي البهت ،

السم المتعذر إليهم من أصلاب أبناء الجزيرة ، إنما كانوا فئة قليلة في أفواج الناس ، وطوائف الخلق الذين لا عداد لهم من أهل الشام وفارس وغيرهم من سائر المفلوطين المنتهلين الاسلام حديثا ، فامتزج دم الغالب بدم المغلوب ، وجعل الاسلام بين الأجناس المختلفة والنحل المتنوعة ، ولما كانت جميع هذه الشعوب المغلوبة قد سئمت النذل من ما تركها السابقين ، فعادت بسبب ذلك لا تقوى على احتمال الأرهاق والصبر على الجئنة ، لحدثان مادانت خاضعة مصافية للخلفاء المسلمين الذين أخذوا على التوالى يصطنعون ويستكفون من هذه الرعايا عمالا وحاشية ، وبالتالي جنسدا لحراسة سياج الملك والذبح عن حياض السولة ، وما زال الأمر هكذا حتى عرا الملك العربي ماعراه من النوائب ، فأخذ ظل سلطان العرب ، وقد ولت غرر أيامهم يتقلص إلى الصحراء ، وأنشأت حكومتهم تنقلب إلى مطية من مطايا الاستبداد الشرقي ، ولما نقلت الخلافة إلى بغداد بقيام دولة بني العباس ( ٧٥٠ م ) ازدادت كامة الفرس نفوذا ، وامتد شأنهم وسلطانهم إلى كل زاوية من زوايا الدولة ، وما الخليفة الأعظم هرون الرشيد بطل ألف ليلة وليلة إلا الملك العربي على شاكلة ملوك الفرس مثل قيا كسرو وكسرى أنوشروان ، خلافا كل الخلاف لما كان عليه أبو بكر وعمر ، وفي بغداد كما في غيرها من سائر حواضر المملكة الاسلامية كان الاستبداد مقوفا لأركان الدولة أيما تقويض ، ففسدا خلفاء النبي وهم على هذه الحال طغاة موسوسين ، وألغيب بين أيدي الخطايا ، لا يستطيعون القيام بعد بهب من أعباء السلطان ، ولا القيادة بزمام من أزمة المملكة الاسلامية .

ما انفكت المملكة تهبط وتتهقر حتى تقطعت أوصالها ، وتفككت أجزاءها ، وسلمت منها ، فسارت الوحدة السياسية مما لا استطاع دوامه لافتتار الدولة إلى قواد محنكين ، ولعفاء ذلك المزاج الاسلامي الصافي الجامع لسجاياء عرب الصحراء الاول ، وقبيل ظهور الاسلام كان أهل كل مصر من الأمصار التي انتشر فيها ظلم أ كاسرة الفرس وقياصرة الروم ، ينزعون منزعا قوميا ويحاولون نهضة وطنية ، فجاء الفتح الاسلامي طاميا قاضيا على جميع هذه المنازع ، أما الآن والمملكة الاسلامية محتضرة في النزاع فأني استطاع المجيء بمثل ما جرى به في صدر الاسلام ؟ استطاع الاسلام أن يجعل الملايين من الخلق على اختلاف عناصرهم وأهملتهم ومعتقداتهم يفتحون الرسالة المحمدية دينا ، ولكنه لم يستطع أن يحيل هذه الملايين إلى صورة إسلامية متماسكة البنيان ثابتة الصبغة ، فاعترض الازدراء شجعا ، وساء الهضم فسادت نتيجته ، دها محمد العرب فلبوا دعوته حقا ، لأنه إنما أتاهم بكتاب وآيات مما كانت عقولهم وطبائعهم مستعدة بالفطرة لقبوله أحسن قبول ، وناداهم مستغزا نفرتهم وحميتهم ، وهم اخوان نخوة سمجية وخلقا ، فاستجابوا نداه طائعين ، فلما دخلت شعوب مختلفة غير عربية في الاسلام ، أخذ كل شعب من هذه الشعوب يفسر نوحى غريزته رسالة النبي على ما يلائم منازعه الشعبية ، وميوله التقليدية الخاصة ، ويرافق روح التهذيب الذي كان عليه ، فنتج عن جميع ذلك أن الاسلام الحقيقي الذي شاهدته العالم في أول منشئه قد اعوجج والتوى ، ولما أجلي دليل على هذا ما حدث في بلاد فارس حيث استعجالت الوحدة التي نادى بها محمد إلى مذهب الشيعة ، فبات أهل فارس الشيعة على صلات واهية تسكاد لا تربطهم بعالم السنة الاسلامي ، واستعجالت الوحدة أيضا عند البربر سكان البلاد المغربية الافريقية وغيرهم إلى حال عبادت معها الأولياء ، وحدث مثل هذا عند المسلمين في الهند ، على أن جميع ذلك لما شدد النبي في تحريمه والنهي عنه نهيا قاطعا .

وما كفى ما حدث من الاختلافات الدينية ، وما أصاب صورة الرسالة النبوية ، حتى عمت البلوى بأن منى الاسلام بتمزق الوحدة السياسية ، والانشقاقات الزمنية ، فأول ما حدث من هذا النوع كان في أوائل عهد الدولة إذ فر أحد المضطهدين من بني أمية إلى الأندلس حيث أنشأ في قرطبة خلافة منافسة لتلك التي في بغداد ، فاعترف مساهموا الأندلس قاطبة بهذه الخلافة حتى وبرابرة شمال افريقية ، ومن بعد ذلك بعهد أنشأت

خلافة أخرى في مصر هي الخلافة الفاطمية وخطاؤها مستدرون على ما ذكرنا من فاطمية ذات الرسول ، أما الخلفاء العباسيون في بغداد فابرحوا به بطون حركات الاستعلاء ، ويقفون من دولتهم - لظهورهم - في داروا بعد مدة من الزمن عبيدا مطاريع بين أيدي الترك ، المستعرب العرب ، الدانيل عليهم .

وقبل أن نشرع في بيان كيفية انتقال الدولة من أيدي العرب إلى أيدي الترك ، وخطورة ذلك عظيمة في تاريخ الاسلام ، نؤثر أن نقول كلمة في أسباب اندثار التهذيب والدارك العقلية عند العرب ، ذلك الانسباط الذي رافقه تمزق الوسيلة السياسية في جميع الأدوار الأخيرة من العصر العربي .

كان العرب في عصر صاحب الرسالة أمة قديمة الأطلاق ، سادة الطبايع ، نيرة السجانيات ، مقادير يركبون ، كل صعب ، تحركهم روح الرسالة بغاية غاياتها ، وتبحث فيهم نواشيدها ونسيرة متوقدة ، كانوا أشقاء العصبيية الدينية ، وهي العصبيية المعروفة في كل جيل من الأجيال السنية ، وعلى شدة هذه العصبيية فانهم لم يكونوا فيها على غير هدى ، بل كانوا مستبصرين ، يفتشون بنور العقل ، وهدايتهم ، وملتصكين بشدة شديدة بمعتقدات دينهم وأركانها وأصوله ، فغير أن دينهم هذا إنما كان دينا سهلا لا كتمان والمأخذ وافحا جليا ، كان يعوهم تعاليم محمد الوحدانية مع السنة المعلومة ، فالاعتقاد كل الاعتقاد بأن لا إله إلا الله ، بأن محمدا رسوله من لدنه كما أنزل في القرآن ، والقيام بالفرائض السنوية المنيعة ، كالصلاة والصوم والحج ، إنما هذا فحسب ، هو جملة الأركان التي تألف منها الاسلام الذي كان عليه العرب يوم أصعدوا في الأرض يفتقدون العالم الشرقي .

فلاسلام وهو هذا الدين البين الصريح ما كان ليقيد عقل العربي ويطبق عليه سجوناً فوق سجون ، والعربي كان قد أدرك حالا ثارا فيه جدته ، واشتدته ، فبرته ، فبات نواحا إلى اقتباس العلوم واستثناء ثمراتها والتبسط في شؤون الحياة وتوفير أحوالها ، والتكليف على حديد مقتضياتها والخروج بها عما ألفه أزمانا في غياي الصحراء وكشبانها ، لهذا لما نشر العرب فتوحهم ، ومدوا سلطانهم على الأقطار الأجنبية لم يقصروا نفوسهم على التمتع بالنعم المادية واستلذاذ الترف ورخاء العيش فحسب ، بل عكفوا جادين على ترقية الفنون والعلوم والآداب وآراء الحضارات القديمة ، ففشا عن جميع هذا الجهد والترقيات أن أخرج للناس تهذيب عربي سام فأضاعت العقول وازدهرت ازدهارا كان نخر الحضارة العربية ، وواسطة قلاذتها ، وحررة تاجها ، وكان ربح من الزمن كانت فيه هذه الحضارة مشرقة الشمس ، يانعة الثمار ، وأروعة الظلال ، فسادت الحرية العقلية ، وابتكرت الآراء والأفكار الملهية ، ووضعت القواعد والأصول واستقبطت الأحكام ، بيد أن هذا لم يكن من صنع العرب وحدهم ، بل شاركهم فيه كثير من كانوا متغللين ظلت دولتهم من النصارى واليهود والفرس الذين كانوا في عهد ملوكهم قبل الفتح الاسلامي يذوقون الأسير ويسامون خسفا شديدا في سبيل آرائهم ومعتقداتهم الدينية التي كانوا يخالفون فيها النصرانية البرزخية والمجوسية الفارسية .

على أنه كان لهذا العصر الزاهر حد وقف عنده ، ثم عمرا شمس كسوف فظلام مطبق ، فظهرت فرق رجعية ، فبا برحت تستقوى وتناهض غيرها من الفرق الحرة حتى تغلبت عليها ، ثم أنشأت تسوق سيادة شديدة ممتدة ، وانقضت الأيام التي قامت فيها الفرق الحرة المعروفة على العسوم بالمعزلة مستمسكة بلباب الاسلام وجوهره الصحيح ، وذاهبة إلى أن العقل إنما هو مقياس كل شيء ، وقامت الآن الفرق الخلافية المحافظة من بعدها ذاهبة إلى أن النقل والسنة إنما هما مقياس كل شيء ، وأخذ من على هذا المذهب وفيهم كثير من النصارى الذين دخلوا في الاسلام وكانت أمزجتهم مابرحت مشربة روح دينهم البرزخي القديم يفسرون القرآن التكريم ويؤولونه ثم يؤلفون بين هذا التفسير والتأويل وبين السنة التي نقلتها الصحابة عن النبي ، وأوغلوا في ذلك إغلا بعيدا فنتج عن ذلك أن أصيب الاسلام بشمل ما أصيبت به النصرانية في الأجيال المتأخرة من قسيس الدين عقائد غير عقائده ، ونسبة الآراء الدينية الجافة إليه وهو براء منها ، فلا غرو إذا اشتد الخلاف واتسعت شقته وطال



عهد بن الدين اعتصموا بالسنة والنقل فقاموا عليهم ما وبين الذين جعلوا العقل نفسه مقياسا لكل شيء ،  
 واذ قد انتهى الحال بالاسلام الى مثل هذا الفالسية الأخيرة إنما باتت متوقفة وهي غلبة عقيدة السنة والنقل  
 على العقل ، وفي الواقع فان تاريخ السنة والتقاليد في كل بلد من بلاد الشرق إنما هو تاريخ السير وأدوار  
 الاستبداد وعواقبه المشؤومة ، كانت قد تبلدت في سماء الشرق بسحب سوداء قائمة ، فلما أشرفت عليها شمس  
 الاسلام الأولى من الصحراء معقبة من الزمن عن قتها وبتدتها ، وكيف لا تضيء تلك السحب وقد سادت  
 الحرية العقلية والفكرية ، غير أنه بعد انتضاء هذا الدور الدور والحرية ، عادت القباوة والعقائد والأوهام  
 تملأ فضاء الشرق وتستولي على عقول أبناء ، وما ساعد على ذلك استبداد الخلافة الاسلامية من الشورى  
 السياسية الصحيحة إلى الاستئثار بالاستبداد .

فاما ريسخ الاستبداد في الدولة وجاوز أفاقها بعيدا أخذت آثار ذلك تبدد جليلة في موضع موضع والاستبداد  
 بطابعه هو عدو الحرية وقاتلها أينما وجدت ، سواء أكانت حرية العقل والفكر أم حرية العمل ، وكان  
 بعض الخلفاء من بنى أمية في دمشق ، وقد استهواهم مذهب المعتزلة في بدء الأمر يوسعون في حرية الفكر  
 ويرتاحون إليها ، ولما أخذت روح المعتزلة تظهر بمظاهر السياسة أجفأوا منها أيما اجفأ وأضروا لها  
 القضاء عليها ، فالمعتزلة حقاً لم تقصر أمرها على الآراء الفلسفية - نسب بل تخطت ذلك فأنشأت ترفع عقيرتها  
 منادية بالرجوع إلى حكم مثل حكم الخلفاء الراشدين ، يوم كان أمير المؤمنين ينتخب للإمامة انتخاباً ولا يرثها وراثته  
 وهو منقاد لرأي الأمة ، ونازل على حكمها وشوراها ، وقام الخوارج وهم من قلب شبه الجزيرة ومن أشد  
 العرب عصبية يؤيدون تراثهم من حرية الصحراء ويذودون عنه وينادون بتوسيع نطاقه غير معترفين  
 بسلطة الخليفة ، ولما بالين بهيبة أمير المؤمنين ، وذاعبين في السلطة إلى أبعد من الحكم الجمهوري نفسه ،  
 فنشأ عن ذلك أن الخلفاء أخذوا يستندون أتباع الفرق المحافظة وبقربونهم منهم ويعتضدون بهم ويقصرون  
 عنهم الفرق الحرة كالمعتزلة ويشددون عليها النكبر ويستعبدون بالمشايخين لهم من العرب الهجلاء ويستبدون  
 بهم أزهرهم ، مؤثرينهم على العرب الصرخاء من شبه الجزيرة ، حتى باقت الحكومات في الدولة العباسية حكومة دينية  
 مستبدة فوسخت عقائد الدين ملبسة لباس التقاليد وقررت حدودها ، واضطهدت أتباع مذاهب المعتزلة وقتلوا بقيت  
 وما كاد يكون القرن الثاني عشر من التاريخ المسيحي حتى أمتحت كل معالم الحضارة العربية وقوضت  
 أركانها ، وجف كل عنصر من عناصر الحياة فيها ، وقضى على كل فكر مبتكر ، ورأي مبتدع ، وعاد لا يسمع  
 صوت من أصوات المعتزلة ، ولا يرى لأحد منهم أثر ، وجمع العقل الاسلامي هيجته الطويلة ، وبازال مفرقا  
 فيها حتى استفاق اليوم استفاقته السكبري مذهورا .

في أوائل القرن الحادي عشر م تجسم انحطاط الحضارة العربية تجسماً تاماً ، وبعد أن اختفت الروح  
 العربية الأولى التي هبت من الصحراء هبوبها العجيب ، أخذ العرب الهجلاء يرون ملكهم السياسي يذهب  
 من أيديهم إلى أيدي غيرهم من السخلاء ، وكان هؤلاء السخلاء الوارثون للدولة العربية هم الترك ، والترك  
 هم العرق الغربي من الجبل الطوراني ، جيل القبائل الرحالة التي كانت عند عهد لا يعرف أوله تجويز انجاد  
 أواسط آسيا وشرقيها ، ولما كان العرب يقتحمون فارس تحاكت قوادهم وسنودهم بالترك الرحالة ، وهؤلاء  
 عهدئذ يهوجون المفوز محولين جواز حدود فارس الشمالية الشرقية ، غير أن العرب وهم في إبان سلطانهم  
 يخشع غالب قطين الأرض لذكر خلفائهم ما كانوا ليرهبوا الترك أو يسبوا لهم حساباً ، بل رأوا في الترك  
 نفعا لهم ، والترك قوم عرفوا بالجفاء والقسوة ، لا يحسنون شيئاً أكثر من طاعة أمرهم والقتال كالجائنين ،  
 فلهمنا ما كان الخلفاء لينفروا منهم في أول الأمر ، بل أخذوا يستأجرون منهم جنوداً من الطراز الأول لاعزاز  
 الجيش والحدود عن دمار الدولة ، ويستكثرون منهم بطانة وحرسا .

قلنا ان العرب ما كانوا يرهبوا الترك في أول الأسر ، ولكن لما وهن عظم الخلافة وذهبت ريحها تحولت الحال فالت غير مأل ، إذ تمكن الترك المستأجرون من الحلول في كل موضع قوى من مواضع الدولة ولا سيما في الجيش العربي ، فأنشأوا يتصرفون تصرف السيد الأمر والمطاع ، ففتحوا أبواب الترخوم العربية الشرقية ، ومهدوا السبيل تهديدا لأبناء جندسهم ، فأخذ هؤلاء يتدققون كالوج وعلى رموس طوائفهم قواد أسراء ، وطفقوا يعيشون في البلاد أحرارا أتى شادوا ، ويقيمون حيث طاب لهم المقام ، ويجوسون خلال الديار ، ويسلبون وينهبون ، ويفجسون ويفتكون .

ولما شرع الترك يدخلون في الدولة كانوا يقبلون سريعا على الدخول في الاسلام أيضا . بيد أن الاسلام لم يدمت من جفائهم ، ولم يقوم من أودهم كثيرا ، ومتى ما جئنا نعتبر شأن هؤلاء الترك الدخلاء يجب علينا أن نفرق بينهم وبين الترك العثمانيين المعاصرين سكان القسطنطينية وآسية الصغرى ، فان الترك العثمانيين اليوم إنما يجري في عروقهم دم مزيج بعضه أوروبي وبعضه الآخر اسيوي غربي ، ويخالط مزاجهم عنصر غربي وعنصر شرقي عربي ، فهم والحالة هذه مختلفون اختلافا كبيرا ، تهديبا وخلقا ، عن آبائهم وأجدادهم الأولين وعلى هذا كله فان العثمانيين المتأخرين مبرحت فيهم السيم الطورانية الخشنة التي يتميز بها ترك قفقاسيا المعروفين بالتركان عمن سواهم من الترك المقيمين في غربي آسية ، فكيف كان التركي القديم بطباعه وسجاياه ترى ؟ إنما كان في المقام الأول جنديا مجربا ، ومقاتلا بأسلا ، وهو لم يكن في ذلك العهد ذا فكروثاقب ، وعقل مبتكر بل كان فيه شيء من حياء الاطلاع والاستشفاف ، فلم يقتبس غير القليل من الآراء العسكرية في شؤون القتال ، فالطاعة العمياء هم الطاعة العمياء وقتال الاستبسال فحسب ، هما جميع ما كان عليه التركي يوم تقدم ليتناول قيادة الاسلام من الخليفة العربي المضعف الواهن العظم .

حقا مادهي الاسلام وسائر العالم معا مثل هذه الداهية ، وما نزل بالحضارة العربية مثل هذه النازلة ، وكفى الاسلام انه دان لحكم أمة متعصبة مغالية جافة جاسية ، لم يكن الرقي مستطابا في ظل دولتها ، فبات ضربا من ضروب المستحيل . أجل : لا ينكر أن الاسلام قد اعترى بقوة حربية كبيرة جديدة ، ولكن قد سىء التصرف بهذه القوة حتى جنت على الاسلام جنائيات هائلة ، وبحرته جروحا كبيرة ، فبات نزيفا يتقهقر سريعا ، وأول عمل قام به الترك الزاحفون هوا كتمساحهم آسية الصغرى واستيلائهم على بيت المقدس في أواخر القرن الحادى عشر م . غير أن جانبا من آسية الصغرى مابرج حتى اليوم قسما من العالم النصراني ، ولما أخذ سيل الفتح العربي يتدفق في القرن السابع م من شبه الجزيرة ، فإيزال يطمو على سورية حتى بلغ جبال طوروس فصدمه الروم هناك إذ استجمعت الأمبراطورية الرومانية الشرقية من قواها ما استجمعت واستطاعت أن توقف الفتح العربي عند حد عند تلك الجبال على عناء وتعب شديدين ، أما الآن فاجتاز الترك الحدود البيزنطية ودوخوا آسية الصغرى تدويحنا ، وأخذوا يهددون القسطنطينية وهي الحصن الشرقى الحريز للنصرانية ، وكان بيت المقدس في أيدي المسلمين منذ الفتح العربي (٦٣٧ م) وكان الخليفة عمر يرضى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية أيما رعاية ، وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره ، فلاضيقوا على النصراني ، ولانالوا بمساءة طوائف الحجاج الوافدين كل عام إلى بيت المقدس من كل فج من أفاف العالم النصراني . بيد أن الترك بعد فتحهم البلاد لم يجروا على مثل ماجرى عليه العرب من قبلهم ، فالترك لما كانوا لا يرون لذة في غير السلب وكره غير المسلمين أخذوا يستلبون الأماكن المقدسة ويمتهنون حرمة النصراني ويحولون دون الحج فبات مستحيلا .

فاكتساح آسية الصغرى والاستيلاء على بيت المقدس معا إنما نزل نزول الصاعقة على النصرانية فقامت لهذا الخطب وقعدت ، وطفقت أوروبا تمد من أقصاها إلى أقصاها مشتتة بغضا دينيا ومحتدمة غضبا وحنقا ،

وقام ألوف مؤلفة مثل بطرس الناسك يلهبون الصدور نارا دينية ويحضون على حماية بيت المقدس وقبر المسيح حتى جنّ الغرب النصراني جنونه الكبير، والتهبت الفيرة الدينية في كل جوارحه وعرق من عروقه، وغشى التعصب على أبصاره، فهب يبعث البعوث الصليبية، والمحافل الجواردة درا كالقتال الشرق الاسلامي في سبيل الصليب.

فداهية الترك ونازلة الحروب المقدسة الصليبية كانتا شعرت طعنة طعن بها صدر العالم وسببا دائما في سوء العلاقات بين الشرق والغرب. ففي سنة ١٠٠٥ م كانت العلاقات النصرانية الاسلامية أخذت تستقيم وتسير سيرا منبعا بالكف عن العداء ومبشرا بازدياد تحسن الحال وخير المصير، وكانت الاعتقاد التي ثارت على أثر تدفق الاسلام على حال التسلاشي والاضمحلال، وظهر عهدئذ أن الحدود الجغرافية بين عالم الاسلام وعالم النصرانية كادت تستقر فليس أي الفريقين يطمع بهد في الخروج على الآخر، ولم يبق ثمة أمر من أمور النزاع شأنه خطير وكبير غير الأندلس، حيث كان هناك مصطلم الاسلام والنصرانية المصطلم الأخير، بل على كل كانت الأندلس إذ ذاك قد باتت تعسدا حادا فصالا بين العالمين، وعلى الجلة فقد كانت علامة ازدياد الوئام والطمأنينة بين الاسلام والنصرانية متجلية واضحة، وناحية منحنى جيما، فلو قدر لهذه الحال أن تستمر وتسير بحيث يسكن كل عالم إلى أخيه لسكانت أنت بنعمة من النعم الكبرى الباقية على الحضارة والانسانية، فالعالم الاسلامي كان ما برح حتى ذلك الأوان سابقا لأوروبا الغربية سبعا بعيدا، وفائقا عليها علما وتهديبا. بيد أن الحضارة العربية كان قد أخذ الكمد والكف يبدوان عليها في الحين الذي طفقت فيه نفس الغرب النصراني تجيش ونهمته تشتد للأفلات من ربق جهسه، والخروج من ظلمته وبربريته، فأى خير كان أعظم من ذلك الخير الذي كان يرجى من الود الوليد الذي ظهر في القرن الحادي عشر م، بين الشرق والغرب فيما لوقيض له النمو أمدا بعيدا؟ بل ترى أي نفع كان أجل من تقارض العالمين بهما البعض العون واقتسام السرّاء والضراء؟

أجل: لو كان ذلك لسكان به نجاة كبيرة ولسكانت الحضارة العربية الاندلسية وفيها عاوم اليونان والرومان قد أيقظت نهضتنا من صرقتها قبل استيقاظها بعهد طويل، ولسكانت روح الغرب التي تمشت في جوارحه في الأجيال الوسطى، تلك الروح الجبارة هبت فتناولت الشرق وتغلغلّت في أحشائه متغلغلها في الغرب، فنجحت الحضارة الاسلامية من متخبطها ومتعثرها في ذلك الحلك الداجي الذي طال عهده.

غير انه ما كان ذلك ليكون فقد اخنق العربي الدم الخلق، اللين العريكة، وجاء من بعده التركي المتعصب الخشن القاسي، فهاد الاسلام يشب ويحتاج، ولسكن شمتان بين اهتياجه الأول بالأمس واهتياجه اليوم، أما بالأمس فقد كانت تحرك العرب روح الرسالة وفضائلها ومثلها العليا، وأما اليوم فما يحركه الترك إنما هو روح الطمع والفتك وحافر الاستيلاء والغصب، ومن ذلك الحين بدأ العراق يشتر، وناره تنقد بين السولة التركية والحضارة الغربية التي كان نشوءها صرجوا لها عهدئذ، ودام هذا العراق قرونا، وما كانت الحروب الصليبية سوى ردّ الغارة على الترك الذين أخذوا منذ ذلك العهد يوالون غاراتهم على النصرانية برهة ستائة سنة، حتى صدموا الصدمة الكبرى عند أسوار « فينا » سنة ١٠٨٣ م وقد كان من الطبيعي أن تأصل العداء، واستحكمت الشئنة، واستقرّ التعصب بين الاسلام والنصرانية مما ما برحت جرائمه حية، وسوموم ثماره نامية حتى الآن، وهذا النضال الذي تتلو أنباءه في صحف الأخبار اليوم، النضال القائم بين مصطفى كمال ومقاتله الوطنيين وبين اليونان في آسية الصغرى إنما هو حلقة من سلسلة حروب بين الاسلام والنصرانية، حلقتها الأولى كانت في فلسطين بين الترك والصليبيين منذ ثمانمائة سنة، وحلقتها الأخيرة إلى اليوم هي هذه الحرب بين الترك واليونان في أغوار الأناضول وأنجادها.

وليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نبين تاريخ الحروب التي قامت بين الترك والنصاراة إنما ما يجب حفظه في البال أن تلك الحروب ظلمت إلى اليوم عداء منمنا وعلّة دائمة بين الشرق والغرب .  
أما الشرق الإسلامي فقد قتل له بعد أن دارت الأيام بحضارته العربية وحنا عنقه للنير التركي الثقيل أن يلاقى فوق ذلك أهوالاً شتت وأفدح ، منهالة عليه كغيرها من الجبل الطوراني ، ففي أواخر القرن الثاني عشر هبت العروق الشرقية من الجبل الطوراني ، ملتفة ملتزمة حول بعضها بعضاً ، دكونه وسعة دامت مدة ، وعلى رأسها زعيم بجباريات هو « جنكيزخان » . اتخذ هذا الطاغية (الطاغية الذي لا يغلب) لقباً له وطلق يزحف ناهباً العالم نهبا ، فاكتمسح في أول أسهم العيين الشمالية وأنزل بها هزلاً شديداً ، ثم اتجه غرباً زاحفاً مدسراً ، وناهباً مخرباً ، فرأى العالم من بلائه ما لم ير مثله من عات قبله ، هذا هو النهوض الذي نهضه المغول في ذلك العهد ، وهذا اسمهم ما برح حتى اليوم إذا ما جرى على الألسنة وجرى في القلوب ، راقبت منهُ الأبدان ، زحف جنكيزخان بكتائب من الجند لا تحصى ، مستعصبا مهرة المهندسين الصينيين لصنع البارود في تخريب المدن والحصون ، فسكان وفرسانه سيلاً جارفاً ، وباراً آكلة ، وأعظم بلاد ملّ بالبشرية ، لم تسكن غاية المغول الفتح والاستيطان ، حتى ولا الفهم ولا الانساب فحسب ، بل هراقة الدماء ، وتعذيب الأرواح ، ودرس البلاد وملاشاة العمران ، فذبخوا الشعوب تذيبها ، ودكوا المدن دكا ، بحيث لم تنج بلاد حلت فيها المغول من الهول ، وكان شأنهم في قمار شأنهم في سائر الأقطار .

ومات « جنكيزخان » بعد بضع سنوات من زحفه هذا فقام خلفوه من بعده واتبعوا نهجه في الزحف وتعميم النازة ، فالمغول حققوا طعنوا الإسلام والنصرانية معا طعنة خارقة ، إذ حاق بأقطار شرق أوروبا مثل ما حاق بغيرها من الأقطار الآسيوية ، وتلك آثار الهول المغولي في روسيا ما برحت شاعرة على بربرية المغول وهمجيتهم . غير أن الهول الذي نزل بالعالم الإسلامي كان أشد منه في العالم النصراني ، فالمغول بزحفهم على روسيا لم يتجاوزوا تخوم بولندا قط فنجحت بذلك أوروبا الغربية ، لكن ما أريد لأوروبا الغربية من النجاة لم يرد مثله لجانب من العالم الإسلامي ، إن العاصفة المغولية بهوبها من الشمال الشرقي في آسيا استطاعت أن تطبق العالم طراً من الهند حتى مصر ، مقتلعة جارفة كل شيء في سبيلها ، وقد كانت فارس وهي إذ ذاك ما برحت منهيب الكتائب التركية تحاول النجاة بحضارتها الوليدة فدھمتها الجوارف المغولية غاشية ماحقة ، فتلاشت قوة فارس وتضعف كيائها أيما تضعف ، ثم تقدم المغول نحو العراق ليعطوا بغداد مدينة الحضارة والتهذيب نصيبها من الهول ، وكانت بغداد عهدئذ قد ذهب الكثير الزاهر من عزّها ومجدها ، فدوت نضارتها من بعد هرون الرشيد ، وتمسك الدهول ذلك المليون من السكان ، بيد أن بغداد على كل هذا كانت ما برحت مدينة عظيمة من أمهات المدن الكبرى ، فيها كرسى الخلافة ، ومركز الحضارة العربية ، فانقض عليها المغول سنة ١٢٥٨ م وأعملوا فيها أيدي التخريب والتدمير فذبخوا أهلها تذيبها وكادوا يمحونها محواً من على وجه الأرض ، على أن هذا لم يكن جميع البلاء ، كانت بغداد عاصمة العراق ، وكانت ما برحت في العراق سدود الرى العجيبة من جفر التاريخ تشمل مهارة بناتها الأولين وقدرتهم ، وتقى البلاد من مهايب أعاصير الصحراء ، فسكانت العراق على السلام وفيها هذه السدود الكبرى جنة الأرض دهرى العالم ، وقد نهاقب الفاتحون الكثر في البلاد دوراً بعد دور ، وعصراً بعد عصر ، فسكان من شأن كل فاتح أن يبقى على هذه السدود ، لابل يعظم شأنها وشأن بناتها ، ويعتبر كل الاعتبار قدر نفعتها وخيرها للبلاد ، فلما غشى المغول العراق سرعان ما قوضوا هذه السدود تقوينا بحيث لم يبقوا منها حجراً على آخر ، فعفت أقدم حضارة عرفها العالم ، وخرب مهد التهذيب البشري ، ومحيت آثار أعمال جدت في سبيلها البشرية طيلة ثمانية آلاف سنة على الأقل ، فخوت العراق خواءها هذا المشهود حتى اليوم ، وباتت سر تدمية حلة من الجفاف المحرق ومنشأ



لأوبئة الحى المنتشرة متى ما كان فيضان ، يسكن قراها الخيرة أقوام من الفلاحين ، ويجوب رحابها رحالة من البدو ، يرعون ماشيتهم أرضا كانت من قبل منابت الحضارة والتهديب ، فالنازلة التى حلت ببغداد إنما كانت ضربة قاضية على الحضارة العربية ولاسيما فى الشرق ، وكانت هذه الحضارة قد أصيبت من قبل نازلة المغول بضربة أخرى فى الغرب وهى نازلة الأندلس العربية ، ووجز ذلك أن الاسلام بعد انتشاره فى جميع افريقية الشمالية جاز البحر وطبق اسبانيا من أقصاها إلى أقصاها ، خفقت فيها أعلامه ، وأشرقت شمسوه ، وازدهرت الحضارة العربية الاسلامية الأندلسية ازدهارا كاد لا يرى مثله فى أى قطر آخر من الأقطار الاسلامية الشرقية ، وكانت قرطبة عاصمة الأندلس ، وفيها كرسى الخلافة العربية ، فبلغت هذه العاصمة من العظمة والمجد مبالغا كبيرا ، حتى أهلها كانت تفوق بغداد عينا رقيما وحضارة ، وقد عاش ملك العرب فى الأندلس قروا عديدة ملكا زاهرا آمنا والعرب حاصرون للنصارى فى الكور الجبلية الشمالية من البلاد ، فلما بدأ سلطان العرب يضعف وبني وقوتهم نهى أخذ النصارى يدفعون المسلمين جنوبا مستردين منهم البلاد كورة فسكورة ، وكانت معركة (لاناغادى طولوزد) سنة ١٢١٣ م خفدت فيها شوكة العرب ، وفنت فى عضدهم فنا كبيرا ، ثم من بعد ذلك صارت تتوالى انتصارات النصارى على غير عياء حتى سقطت قرطبة فى أيدي المستردين من نصارى اسبانيا المنعصبين ، فبادر هؤلاء إلى استئصال شأفة الحضارة العربية الأندلسية على نحو ما كان يقوم به المغول عندئذ فى الشرق ، فذهبت الأندلس من أيدي المسلمين ، فلم يبق لهم من جميع ذلك الملك الذى كان زاهرا سوى رقعة صغيرة واقعة فى الطرف الجنوبى من البلاد وهى غرناطة التى بقيت فى حوزة المسلمين حتى استكشف كرويلوس اماركة ، ثم بعد ذلك طردوا منها ، فانخفت على الأثر معالم الحضارة العربية فى الغرب .

وكان الشرق الاسلامى مازال يشقى وتعالى عليه جفائع المغول وأهوالهم ، وأمامنا الآن آخر داهية من داهيهم ، وهى زحف تيمورلنك فى أوائل القرن الخامس عشر ، وفى هذا العهد كان المغول الاول الفريون قد صاروا مسلمين ، غير أن الاسلام لم يذهب بالكثير من وحشيتهم وبربريتهم ، واقتفى تيمورلنك آثار جنكيزخان فى تضييع الخلائق وتدمير البلاد ، فما كانت نفسه تقبض بشئ اغتباطها بمنظر الاهرام من حجاجم البشر ، وأى هرم أكبر من ذلك الذى شيده تيمورلنك من سبعين ألف جمجمة بعد تخريبه مدينة أصفهان فى بلاد فارس وانقضى عهد المغول الهائل فى الشرق الاسلامى ، ثم جاء الترك بدورهم زاحفين .

الترك العثمانيون هم من أصل القبائل التركية العديدة التى جاءت آسيا الصغرى من بعد سقوط المملكة الرومانية البيزنطية ، وغالب الفضل فى تشييد المجد الذى شيده ، وعزهم الذى بنوه ، إنما هو عائد إلى حديد سلاطينهم الذين كانت لهم الغلبة على سائر القبائل المجاورة ، فاستطاعوا بذلك أن يوحدوا جميع القوى التركية العظيمة ، ثم طفقت فتوحاتهم تمتد شرقا وغربا ، وفى سنة ١٤٥٣ م دك الترك صرح الأمبراطورية البيزنطية دكا ، وفتحوا القسطنطينية ، وخلال قرن تال فتحوا الشرق الاسلامى من فارس حتى صهاكش ، ودوخوا شبه جزيرة البلقان من أقصاها إلى أقصاها ، وتغلغلوا فى أحشاء هونغاريا حتى بلغوا أسوار (فيينا) واستطاع الترك العثمانيون ما لم يستطعه أبناء عمهم المغول من قبلهم ، فبنوا ملكة منيعة الأركان ، غير أن ملكهم هذا كان فيه جانب وبربرية ، وذلك إنما كان لبعدهم عن روح التهديب والتثقيف ، فانهم لم يبرعوا فى شئ براعتهم فى فنون القتال ، بل كانوا فيها من أشهر الأمم وأشدها قوة وبأسا وصراسا ، ولما كانوا فى إبان مجدهم وساططانهم كانت خيالتهم ورجالتهم من أفضل طراز الجيوش التى شهدتها العالم ، فأرعبوا بها أوروبا رعبا شديدا ، وفى هذا العهد كانت أوروبا قد بدأت تسقيظ وتسير سير التقدم الصحيح ونفسي حضارة متدرجة مدارج الرقى والثبات ، وبينما كان الشرق الاسلامى يئن من الأهوال المغولية والفتوح التركية كان الغرب

النصراني يشمل مصابيح النهضة ، و بعد أسباب استكشاف اماركة وطريق الهند ، ذلك الاستكشاف الخطير الشأن ، العظيم النتائج مما لا يخفى على أحد ، وما يزيد خطورة هي الحالة التي كانت عليها أوروبا في ذلك العهد ، فانه لما كان كولوموس وفاسكادي غاما يقومان بأسفارهما البحرية قبيل ختام القرن الخامس عشر كانت الحضارة الغربية محاصرة في نطاق ضيق لا تجوز دائرته القسم الغربي من أوروبا الوسطى وهي إذ ذاك في أكره يوم من أيام نضالها وجلادها مع البربرية الطورانية ، كانت روسيا تمزقها سنابك خيول التتروالمغول وكان الترك وهم ثملون بشوكتهم الحربية ، يغيرون مستعمرين من الجنوب الشرقي ، مهددين قلب أوروبا شرق تهديده ، هكذا كانت البربرية الطورانية مطبقة آسيا وشمال أفريقيا وشرق أوروبا يوم كانت الحضارة الغربية وهي طفلة في المهد تستقبل حكم القضاء النازل إياها وأما عليها ، وعلى الجلة فقد كانت الحضارة الغربية تنازع في سبيل بقائها أشد منازعة ، مولية ظهرها السور العظيم (سورالوقيانوس) فلذلك لانكاد نستطيع أن نتصور حق التصور كيف واجه أجدادنا الاوقيانوس ، وشرعوا يعخرون عبايه في تلك الليلة الظلماء ، والفترة العصيبة من الأجيال الوسطى ، لاجرم ، كانت أوروبا في تلك الحقبة إنما تذود عن بقائها بجميع ما كان فيها من قوة وبأس ، وترد عنها غاشية البربرية الآسيوية ، وماهى إلا ليله ونحهاها فاذا بلبل الخطر الاسيوى وقد انجلي ، وبالاوقيانوس بات طريقا آمنة ، فصارت أوروبا من بعد ذلك سيدة المحار ثم سيدة العالم بأسره .

قضى الأمر ودارت الأقدار بالشرق والغرب أعظم دورة عرفها الانسان ، فبعد أن ركبت أوروبا متن المحار صارت تستهزئ بجبابرة آسيا وعنتاتها ، وكانت من قبل بردح ترى النصر عليهم أبعد منالا من الجوزاء ثم أخذت سرارد الثروة تفيض على أوروبا من وراء البحار ، فأنقد نشاط القارة واشتعلت قوتها ، ولايجب من ذلك وأوروبا قد كشفت القناع عن اباكار بلدان ، فأخذت تستورد منها خبرات لانفاذ لها ، غذاء طيبا لحياتها وصناعاتها ، فباتت والشرق شتان مامها ، فأى موارد كانت للشرق الاسلامى الحرب المهشم إزاء اماركة الجنوبية والشمالية وجزائر الهند ؟ هكذا دبت الحياة ديبها الهائل في الحضارة الغربية ، فانتفضت وهبت من مرقدها ، وأخذت تخطو إلى الأمام خطوات الجبابرة ، محطمة أغلال أجيالها الوسطى تحطيا ، وقابضة على طلاسع العاوم ، جادة نحو العصور الحديثة .

وعلى كل هذا فقد ظل الشرق الاسلامى جامدا ساكنا ، ملتقا بخلقان الحضارة العربية التي طال على خوائها الأمد ، ومتسكها في ديجور الظلام ، ولم يكن ذلك جميع شقائه حتى تضعفت قوته الحربية وبلغت حد انتلاشى ، فوهن عظم الترك بعد الشدة ، واستفرقوا في انحطاطهم فصاروا لا يستطيعون مجارة أوروبا اختراعا وارتقاء ، ولاتحسين فن من فنون القتال ، وقد كرت حقب كان الغرب فيها يقاتل بعضه بعضا قتالا عنيفا ، فلم يستطع الجلة على الشرق ، فعلت منزلة اسم العثمانيين علوا كبيرا ، بيد أنه لما أغار الترك على أسوار فيينا سنة ١٦٨٣ م فردوا على أعقابهم خاسرين ، أيقنت أوروبا حينئذ أن هناك كان منقلب قوة المملكة العثمانية ، فأخذ جد العثمانيين يعثر ونجمهم يأفل ، ومنذ ذلك الحين شرع الغرب يكر على المملكة العثمانية الكثرة بعد الأخرى ، منتاشا منها ما استطاع ، ولولم تورت نار الحسد بين بعض الدول الغربية بعضا فتطمع كل دولة فيما طمعت فيه غيرها ، أعنى لولم تختلف هذه الدول في اقتسام الغنيمة لمزقت الأمبراطورية العثمانية شرا تمزق منذ عهد عهد .

ثم توالى الأيام على العالم الاسلامى وهو هاجع لا يستيقظ حتى كان القرن التاسع عشر ، فتامل في مهجعه مستقلا وطأة الغرب ، وفي خلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تحمل على جوانب العالم الاسلامى وتخضع لها الأقطار في شرق أوروبا وجزائر الهند ، وأما جل العالم الاسلامى ومعظمه من مراكش حتى

أواسط آسيا فقد ترك شأنه ، فما كان ليقتدر هذه الفترة السانحة ، بل ظلّ مستغرقاً في هيجته مستهزئاً بكفرة أوروبا ، راضياً بما أن شقاءه إنما هو بمشيئة من الله ، لا يقيم لرقّ أوروبا وزناً ، ولا يحسب استنطاقها حساباً ، هكذا كانت حالة العالم الاسلامي لما استيقظ استيقاظه في مطلع القرن التاسع عشر فإذا بأوروبا تقف بازائه مجنونة بشورتها الصناعية ، مدججة بأسلحة العلم الحديث ومجائب الاختراع ، وبين يديها الفاشستين الطبيعية مسخرة مفضوحة أسرارها وآلات حربية جهنمية لم يحلم أحد من البشر بمثلا من قبل ، فكانت النتيجة المتوقعة لما شرعت حملات أوروبا تفشى الشرق الاسلامي أخذت أقطاره تسقط الواحد تلو الآخر في أيدي الحاملين عليه ، فلم يمس غير اليسير من الزمن حتى كانت دول أوروبا الكبرى قد اقتسمت جميع العالم الاسلامي ، فاستولت بريطانيا على الهند ومصر ، وعبرت روسيا القوقاس وبعثت سلطانها على أواسط آسيا ، وفتحت فرنسا شمال أفريقيا ، وقامت سائر الدول الأوروبية غير الكبرى واستولت بدورها على الأقطار الصغيرة الباقية من الفتيمة الاسلامية ، ومازالت الحالة هكذا حتى جاءت الحرب الكونية العظمى ، فكانت شاهداً على آخر دور من أدوار إذلال الشرق الغرب ، ولما وضعت شروط المعاهدات بعيد أن وضعت الحرب العائمة أوزارها قضى على كيان الدولة العثمانية ، فلم تبقى من بعد ذلك دولة اسلامية مستقلة استقلالاً صحيحاً ، فتمّ اخضاع العالم الاسلامي ، ولكن على القرطاس !

أجل ، تمّ ذلك على القرطاس فحسب ، والسبب في ذلك أنه لما ظهرت سيطرة الغرب على الشرق هذا المظهر القاهر اسرعان ما هبت عليها عواصف شديدة عجيبة لم يسمع بمثلا من قبل ، كان الشرق الاسلامي طيلة هذه المئات من السنين التي كرت عليه وهو حان عنقه للغرب تتطور قواه الباطنية تطوراً عظيماً وينفعل بعضها ببعض انفعالا كبيراً حتى آن الأوان فانفجر البركان فكان منفجعه هائلاً .

وهذا المثل ، مدبحر المطامع الغربية الطامح قد غالى في إيلاام الشرق مغالاة شديدة ، فتحرك الشرق الجامد الساكن أخيراً ، ودار الشرق الاسلامي حول نفسه ، فرأى تعاسة حاله وما هو حالّ بساحته ، فأخذت نفسه تجيش وتضطرب ، ومشاعره تهتاج وتنبعث ، وقواه ثور ثوراناً عجباً بلغ أقصى أعماقه ، واستيقظت روح الاسلام في كل رقعة من رقاع العالم الاسلامي ، فهبت الـ ٢٥٠٠٠٠٠٠٠ من أتباع النبي محمد من صراكش حتى الصين . ومن تركستان حتى السكونفو ، هبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مستقرّها قدح الزناد في صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ثم أخذ الشرر يتطاير إلى كل جانب من جوانب العالم الاسلامي ، إذ في الصحراء هذه نشأت الدعوة الوهابية في مطلع القرن التاسع عشر وهي دعوة الإصلاح الاسلامي ، ثم كان من أصرها أن ترق وتوسع حتى بلغت في نطاقها دور النهضة الاسلامية ، ثم عرفت بالتالي بالجامعة الاسلامية ، ولم تكن عوامل هذه التبدلات والتحوّلات في العالم الاسلامي مقصورة على تلك العوامل الداخلية المنبثقة عنه فحسب ، بل إن هناك عوامل وآراء وعقائد ومذاهب سياسية واجتماعية ما انفكت تتدفق من الغرب على الشرق ، وجميعها يبتث في الشرق الاسلامي روح الاستيقاظ والثوران : من ذلك عقائد الحكومة النيابية والعصبية الجنسية ، والعوامل العملية ، وحقوق العمال ، حتى وأكثر من ذلك حقوق المرأة ، والاشتراكية والبلشفية .

فثوران العالم الاسلامي هذا الثوران ، وشدة التضييق الأوروبي الضارب فيه ومن حوله على غير انقطاع ولا حد يزيدان في هيجانه فيشهلان فيه روح الحركة والعمل ، إن الحرب الكونية العظمى قد أتت بمجائب عظيمة ، وأرت مالم ير من قبل ، فأنشأ الاسلام يمد ويضطرب ويتمخض تمخضاً شديداً ، منتقلاً من حال حاضر إلى آخر مقبل ، ومجتازاً دوراً غايته تجدد عالم اسلامي حديث ، وليبيان كيفية هذا الانتقال والتجديد اللذين سترى ثمارهما في عالم اسلام المستقبل قد وضعنا هذا الكتاب . انتهى ما أردته من كتاب «حاضر

العالم الاسلامي» وبهذا تم الكلام على الفصل الأول : الحمد لله رب العالمين .

## الفصل الثاني

في قوله تعالى : « رجاء بينهم » أيضا

اعلم أن الرجاء بين الأمم الاسلامية اليوم قد تجأت بأجلى مظاهرها ، ولكننا نحن في ديارنا لا نشدر أن نصفها ، ولكن القادر على وصفها رجس قد أعطى صفتين : أولا التفرغ للاطلاع . ثانيا عدم التعيز ، وهاتان الصفتان قد ثبتتا في صاحب كتاب « حاضر العالم الاسلامي » ولأنقل لك من الجزء الثاني من كتابه فصولا :

## الفصل الأول

في أن انكسارا وفرنسا كانتا جاهلتين حال تركيا والعالم الاسلامي إبان الحرب الكبرى ، ولكن ايطاليا كانت تعرف الحقيقة فتردتهما . وهذا نص ما جاء في الكتاب المذكور :

« جرت الامور في تركيا بحاريها التي سبق لنتي رئيس الوزارة الإيطالية فتحبا عنها ، فأكره رجال الحلفاء وهم سينك سادة القسطنطينية السلطان على تعيين وزارة مصافية ، ففعل السلطان ذلك ، فشجعت الوزارة حركة « مصطفى كمال » ورجاله العصاة ، وأوفدت وفدا اختير أعضاؤه اختيارا إلى مؤتمر « سان ريمو » في فرنسا حيث وقعوا بالرضا والتسليم المهامسة التي أعدها الحلفاء الذين استطاعوا بذلك « تأييد صراهم » على قصاصات الورق لا غير ، وما كان ذلك الأمر الغريب ! لأن كل انسان فيه مسكة من العقل يتيقن أن جميع هذه الصفقة التي رام الحلفاء عقدها إنما هي ضرب من الخبل والجنون وأن كل فرد من أفراد الحكومة « المصافية » من السلطان حتى أحقر الكتبة ما هو إلا مصطفى كمال يتلهب غيرة ووطنية ، وأن العصاة التركية الحقيقية إنما باتت أنقره لا القسطنطينية ، وأن قوة الحلفاء لا تتجاوز في الواقع غاية صراهم ، أما مصطفى كمال فقد قال في شأن معاهدة سيفر ( معاهدة صلح تلك ) : « اني مستعد لقتال العالم بأسره مشرقا ومغربا ، فباتت الحلفاء في مأزق خرج لاريب فيه ، ولا سيما من بعد ما أصبحت كلمة الحلفاء تدل على بريطانيا وفرنسا لا غير ، أما ايطاليا فلم تشارك في إلقاء دلوها في الدلاء ، بل فعلت كما قال ( نيق ) : ولم ترسل جنديا واحدا ولم تدفع ليرة واحدة » لذلك لم تستطع فرنسا ولا بريطانيا حشد الجنود الكافية لسحق مصطفى كمال في الحين الذي تنكبدها فيه نفقة مائتي ألف جندي ( ٢٠.٠٠٠ ) لتسكين الحال في الأقطار العربية الهائجة وغيرها ، وما كان سحق القوة الكاليسية بالأمر السهل ، إذ قدر أركان الحرب الفرنسيون الجيش المقتضى لذلك ( ٣٠.٠٠٠ ) مقاتل تام العدة ، على أنه قد بقي في أيدي الحلفاء سلاح آخر هو اليونان ، فتقدم فنزيوس رئيس الوزارة اليونانية وأخذ على نفسه خضد شوكة الترك ودق عنقهم ، وذلك على شريطة أن تنال اليونان في مقابلة عملها هذا امتيازات كبيرة في مناطق آسيا الصغرى ، فقبل ذلك منه ، وبعد حين نزل جيش يوناني إلى برّ أزمير عدده ( ١٠.٠٠٠ ) مقاتل ، غير أن هذا الجيش قد لقي الخيبة والفشل إذ أن المائة ألف مقاتل هلى كثرتها كانت أشبه بالغناء ، واجتنب مصطفى كمال الاشتباك في معارك فاصلة ولكنه ثابر على مضايقتهم ، وإيقاع الحيف بهم ، بالحرب غير النظامية كما كان شأنه مع الفرنسيين في كيليكية في الطرف الآخر من الميدان ، فتوغل اليونانيون في البلاد توغلا فاحشا ، وثورتوا ثورتا شديدا ، كاد يقضى عليهم على بكرة أبيهم ، فازدادت القضية التركية إعضالا راشكالا ، وعلى مظهر أن فنزيوس ظلّ يبتغي نزال الترك والمضى معهم في الحرب ، وذلك بصفة كونه المنتدب الثاني من قبل الحلفاء ، لكن الشعب اليوناني أتي عليه ذلك لأن اليونان ما برحوا منذ سنة ١٩١٢ يخوضون غمار الحرب من ميسدان إلى آخر حتى نهكت قواهم أشدّ النهك ، فرأوا الاستراحة ولوقليلا ، فلما كانت انتخابات تشرين الثاني ( نوفمبر ) أسقطوا فنزيوس



بـ ٩٩٠٠٠٠٠ صوت إزاء ١٠٠٠٠٠٠ صوت ، ثم دعوا ملكهم قسطنطين الذي كان الحلفاء قد دخلوه منذ ثلاث سنوات ليعود فينبوا العرش ، فكانت النتيجة الصافية أن اليونان باتت كإيطاليا خارجة عن أرباب الصفة ، أما الملك قسطنطين فقد استأنف القتال مع الترك من تلقاء نفسه . فكان عمل اليونان هذا العمل مناقضا لذلك الموقف الذي رقفوه في عهد فنريوس ، وعلى الجبهة فان الحلفاء باموا بالخسران ، فرد كيدهم في نحرهم ، وسقطوا دون أمنيته التي حسبوها من الهبات الهيئات .

في ذلك الحين كان مصطفى كمال يجهد ليس لتوحيد قوته وسلطته في آسيا الصغرى فقط ، بل لاكتساب أحلاف له في الخارج ، ففي المقام الأول كان ينشئ علاقات وثيقة مع العرب الأحرى الذي قد يبدو لأول وهلة من الغرابة بـ مكان ، إذ يرى أن العرب والترك هما العدوان بعضهم لبعض ينقلب من العداوة المرة إلى الصداقة الحلو ، ولكن ذلك ليس في الواقع بالغريب البتة ، لأن السياسة الفرنسية البريطانية هي التي قد خلقت هذه الأعجوبة ، وأنت بهذه الحارقة ، والسبب الذي من أجله عاد الاتفاق بين العرب والترك قد جلا لورانس المعروف « بروح الثورة العربية » - حق الجلاء ، فقد قال بعد فراغه من الخدمة العسكرية في بيان نشره في الصحف البريطانية : « إن العرب قد ثاروا في وجه الترك خلال الحرب العامة ، ليس لأن الحكومة التركية كانت فاسدة فسادا شديدا ، بل انهم ابتغوا نيل الحرية ، وراموا إدراك الاستقلال فلم يخوضوا المعركة لكي يستبدلوا سادة بسادة كأن يخوضوا لبريطانيا أو فرنسا . كلا . بل لكي ينشئوا لهم دولة عربية ، على أن هذه الحقيقة قد أفرغها أحد زعماء العرب وهو قائد من قادة النهضة الوطنية المشتغلين بالقضية العربية في قالب أبين عن القصد ، وأفصح عن الغرض ، وذلك في مقال نشره في صحيفة فرنسية راديكالية جاء فيه ما يأتي .

« ينبغي لفرنسا وبريطانيا أن تعلم أن اليقين أن العرب إنما هم للترك اخوان في الدين توحدوا وياهم توحدوا سياسيا قرونا عديدة بحيث هم لا يرغبون البتة في الانشقاق عن اخوانهم المؤمنين ، وشركائهم المسلمين ، الذين هم وياهم كانوا في الحروب الخالية يقاتلون العدو جنبا لجنب وصفا إلى صف انشقاكا ليس من ورائه سوى خضوع أعناقهم ليدولة أوروبية مهما كان شكل سلطان الحكم الذي تتقلده هذه الدولة . . . . فلذلك أي جدوى ياترى من القول الذي يقوله المسيو ميلران : لم يدر في خلدنا قط أن نعتدى بوجه من الوجوه على استقلال الأمة العربية ، فليس أحد من العرب اليوم يمكن إضلاله بمثل هذا التويه وأخذنه بمثل هذا الخداع ان الهدنة وقعت على حسب الشروط والمبادئ التي أعلنها الرئيس ولسن ، ولكن لما تضعفت ألمانيا وتضعفت أحلافها معها ديت شروط الهدنة وعهودها كما ديت الأربع عشرة مادة بالأقدام ، على أن النكث الذي أصاب اليهود المقطوعة للعرب قطعاً جزماً لازماً في منحهم الاستقلال التام ، تلك اليهود المكررة المؤكدة عشرات من المرات قد جعل العرب والترك على الاتفاق من جديد واستئناف الإخاء بحيث لم تمض إلا أشهر معدودات حتى تم ذلك بين الأمتين ، فلم تستطع فرنسا بحفظها جيشاً مؤلفاً من ١٥٠٠٠٠٠ ألف جندي في سورية ، وتسكبها اتفاق البسلايين من الفرنكات أن تخضع عرب سورية إلى ميقات ، بيد أن ذلك ليس جميع مافي الأمر ، ولا الضامن لسلامة العقبي ، حدود سورية ، ترامية إلى ما يليها من البلاد التي قطينها عرب وكرد وترك ، وممتدة إلى الصحراء الكبيرة ، فاذا ما شرعت فرنسا في قتال الأربعة ملايين من عرب سورية لم يبق ذلك مقصوراً على قتال هؤلاء فحسب بل يتناول قتال عدو عدده أكثر من ١٥٠٠٠٠٠٠ مليون عربي منتشرين في جميع الأقطار الشرقية من القبائل المسلحة الشديدة التكتيم ، الصلبة القناة ، هذا ماعدا الأمم الإسلامية الأخرى المجتمعة معهم في الوحدة المتراسة الإسلامية ، والحامل على جميع ذلك إنما هو اوراق الحلفاء وتوالي ضرباتهم الساحقة على غير رجعة ، فان قال قائل : إن في هذا غلوا فما عليه إلا أن يواقع الحقائق ومواجهة ويراها عن كسب مستبصراً مستقصياً ، ولكن

لعمري أية نفع يرجى من الندم ولات ساعة مندم بعد أن تجرى الدماء في الأنظار العربية أنهارا وغدراناً . وفي الواقع باتت الأدلة على الوفاق التركي العربي مشهودة جليلة في مواضع عديدة ، غير أن هذا الوفاق القاضي بمعاونة هؤلاء هؤلاء لم يعترف به علناً من جانب مصطفى كمال ولا من جانب الملك فيصل الذي أنزل من عرشه ، وجاء من بعد خروجه من دمشق إلى إيطاليا حيث طفق يوالى القيام بمناقشات سياسية ، مع هذا فقد اصطفت العرب مع الترك جنباً إلى جنب في كيليكية وقتلوا الفرنسيين العدو المشترك ، واشترك الترك والكرد مع العرب السوريين في إبعاد النتن السورية التي ظلت تشب في موضع موضع ، وأما ما كان مصطفى كمال من اليد في إشعال الثورة العراقية على البريطانيين فظاهر ظهوراً يفنى عن البيان . انتهى

### الفصل الثاني فيما يقوله ساسة أوروبا وعلمائها

من أن الاسلام دين الحرية ، وأن المسلمين أول الأمم في الحرية من أية صنف كانوا  
قال الحجة الثقة أرمينيوس فامباري : « كان الاسلام وما برح الدين الفائق سائر أديان العالم شوري وديموقراطية ، الدين الذي هو على الدوام مصدر الحرية وينبوع العدل وشرعة السواء ، فان كان العالم قد شهد حقاً منذ أول عهد العمران البشري إلى اليوم حكومة شورية دستورية فهي لعمري حكومة الخلفاء الراشدين » اهـ

وقال محقق انكليزي كبير خبر في شؤون الشرق الأدنى : « إن بلاد العرب التي يضرب فيها البدو الرحل هي البلاد الفذة في العالم المشتملة على صحيح الديموقراطية والشورى ، فالعرب فيها أبداً سادة ، حريتهم يزدرون عن سياجها بشفارسيوفهم ، ودهج أكبادهم ، وشبه الجزيرة هومنت الحرية ، فلا تعيش فيها نبتة الاستبداد » انتهى

وقال العلامة ليبيار في شأن ثورة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ م : « قال بعضهم إن تركيا لم تكن على استعداد لنحيا الحياة الدستورية النيابية بعد الثورة ، إنما ذلك وهم شديد ، فقد كان لتركيا صران سابق على الحياة الدستورية وكانت تواق إلى إنشاء الحكومة النيابية ، وعلى جانب كبير من الاستعداد لذلك . أجل ثم أجل ، إن النظم الشرعية والمدنية التي كانت عليها تركيا إنما هي أفضل أسس يشيد عليه الحكم النيابي ، كان محمد صاحب الرسالة الاسلامية يجعل الحكم شوري بينه وبين صحابته ، وقد جرى العلماء المسلمون وهم أقطاب الدين ، وقادة الشرع الشريف على هذا النهج ، وما برحوا هكذا حتى اليوم يتشاورون ويسترنى بعضهم بعضاً في شؤون مصالح المسلمين ، فالشرعية الاسلامية هي ديموقراطية وشورية بطبيعتها وجوهرها ، وعدو شديد للاستبداد ، وباعتبارها شريعة أساسية ، فمن شأنها إذن أن تمكن الشعوب الاسلامية كافة حتى أبعدها إغراقاً في التبدل من إدراك معنى الشورى والدستور والنظام النيابي » .

ثم بين العلامة ليبيار في موضع آخر أن السلاطين القدماء كان لهم « ديوان » وهو مجلس يضم أركان الدولة والوزراء وأصحاب الخطط العليا والمناصب الكبرى يجتمعون فيه على مقتضى نظام في مواقيت معلومة لمناقشة السلطان في شؤون الدولة وامداده بالمشورة الحكيمة ، وقد ظلت الحال هكذا أمداً طويلاً حتى أنشئ في العهد الأخير مجلسان : الأول يعرف بمجلس الدولة ، والآخر بمجلس الوزراء ، زد على هذا فقد أنشئ مجلس نواب مرتين : الأولى في سنة ١٨٧٧ م والأخرى في ١٨٧٨ م ومع أن هذين المجلسين لم يعيشا طويلاً إذ قضى عليهما الاستبداد الجدي ، فقد كانا على كل حال من سوابق المراتن القانوني والمراس الشرعي على نظام الدستور والحكم النيابي .

وختم العلامة المذكور كلامه بقوله : « فلذلك يجب أن لا يعتبر إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ م

أصرا مستحدثا مما لم يسبق له مثيل في بلاد اسلامية ، بل يجب اعتباره من النظام الاسلامي المؤلف ، كان من قبل على ماهيته هذه ، ولكن خرج به الآن إلى نطاق واسع ومجال أرحب » انتهى

### الفصل الثالث

في أن أوروبا شورية في بلادها مستبدّة في غير بلادها  
وأهل الشرق والمسلمون لابد فأتزون

جاء في كتاب « حاضر العالم الاسلامي » ما يأتي : « وقد أجاد (ايونل كرتس) الكاتب الانكليزي الذائع الصيت أيما إجادة في جلاء هذا القول وتبصيره في كلام له في شأن الهند بين فيه أن التعليم والتهديب والثمرات والخيرات التي جاء بها الحكم البريطاني ليست بكافية بذاتها لإعداد أهل الهند إعدادا صحيحا للقيام بأعباء الحكومة النيابية ، بل الأمر على ضد من هذا ، فالعليم والتهديب ينقلبان خطرا كبيرا وبلية إيجابية ما لم يقترنا بمنح الهنود أزمة شؤونهم السياسية وتبعثها شيئا فشيئا ، إن الشعب مهما كان مهذبا راقيا لن يستطيع المران على فن الحكومة الذاتية إلا في حين الخبرة الحقيقية المحسوسة والمباشرة الفعلية لافي حيز النظر والتصور والخيال . قد يقول بعضهم إنني أخرج في طلبي الذي بينت فيه أنه يجب علينا الشروع في نقل السلطة شيئا فشيئا نقلا صحيحا لا غش فيه من عائق الحكومة البريطانية إلى عائق حكومة الشعب ، وأنه يجب على موظفي الحكومة البريطانية في تلك البلاد أن يقوموا بكل مساعدة ممكنة وعون مستطاع ومشورة صادقة للحكومة الجديدة التي تطالب منهم هذا بحق ، نعم يجب عليهم أن يسدوا كل حسنة إلى هذه الحكومة الفتية ، وأن يعطفوا عليها عطف الأم الحنون على وليدها وفلذة كبدها ، لا عطف الظاهر المأجورة التي سواء عندها أعاش الرضيع أم مات ، وإذا ما أريد حقا تعليم هذه الحكومة الجديدة فن الحكم الذاتي ، وجب أن تكون حرة من كل جانب لا مطلقة من ناحية ومصددة بالأغلال من ناحية أخرى ، فإن لم يكن هذا فليس من سبيل إذن لهذه الحكومة الفتية لأن تشعر حق الشعوب بأنها مسئولة لدى الشعب الذي هو من ورائها ، حتى ولا الشعب يستطيع على هذه الحال أن يعلم ويوقن أنه هو المالك لنفسه من ضرر ونفع ، هذا ليجلبه وذاك ليدرأ عنه ، نعم ان السبيل شاقة ولكن الشعب الذي يعني بمل إرادته حكما ذاتيا لا يتسنى له الوصول إلى غرضه السامي وغايته الكبيرة إلا في الجهاد قائما أبدا ، واجتياز طريق الصهاب التي تشق عندها الأنفس وتركب الأهوال ، وربما إلى عهد طويل حتى يستطيع بعد جميع هذا أن يذوق طعم الاستقلال الصحيح ، ويعلم ماهيته فيطرب منه المزيد ، وكما وفر نصيبه منه ازدادت عزته حتى تستقر فيه ملكة السيادة على نفسه . إنني لأخبر فخرا كبيرا بما جلبته بريطانيا العظمى إلى الهند من الخير والنفع من إنشاء النظام وتثديته ، وحمل أهل البلاد على العلم بأن الحكومة المنتظمة ما أعظم شأنها وأخطر مكانتها في عمران البلاد ، غير أنني على كل هذا لأعتقد أن النظام الذي أنشأناه وتمشينا عليه حتى اليوم يظل صالحا بعد دون أن ينقلب إلى مجلبة الضرر على أخلاق الشعب كما كان مجلبة الخير من قبل . يجب علينا وقد حان لنا أن نشرع في تأدية هذه الأمانة الكبرى إلى أهل الهند أصحاب البلاد من بعد ما حملناها على عواتقنا حقبة ليست بالقليلة ، تأدية مشفوعة بالصدق والاخلاص . يجب أن يكثروا الهنود في دواوين الحكومة من حيث يجب علينا أن نقوى ساعدتهم ، ونزيد حورهم ، ونعلى من منزلتهم ، وذلك لا يتم إلا اذا مكناهم من التمرن على الواجبات التي تنقل إلى نطاقهم نقلا مزدادا ، لأن صران الشعب على الحكومة الذاتية ليس أمره كأمر الطلبة الذين يتلقون العلوم النظرية جالوسا على المقاعد . لاوصول إلى الغاية التي بينها حديثا وزير الهند إلا بركوب المشقة ومعاناة الصعب في سبيل وعرة ، الأمر الذي يجب علينا العلم به حق العلم ، ذلك أننا قد استطعنا

الوصول إلى هذا الدور الحالى من مهمتنا في الهند بعد العناء الكبير . الانتهاء إلى هذه الحال انتهاء ملائما كل الالتزام مع ما هو معروف لنا من التقاليد ، ومابقى أمامنا من القيام بالمهمة فأمر واجب علينا خدمة لئلا نخلفنا ولو كان في ذلك بذل لكل عزيز لدينا وتضحية حتى لنفوسنا .

إن كلمات المستر كرتس الأخيرة يمين معها ما هو واقع اليوم في الهند كما في سائر الأقطار الشرقية ، أن الحرب العمة قد ألهبت العصبية الجنسية الشرقية حتى تركتها لظئ شديد من حيث أوهنت السيطرة الغربية وزلزلتها شر زلزال ، ففعلنا مقبض أوروبا على الشرق مسترخيا استرخاء متواليا يدل على قرب الزوال ، وسواء كانت العاقبة من بعد ذلك خيرا أم شرا ، فتقلص الظئ أمر واقع لا سبرد له ولا مدافع ، مما يدل على أنه لن ينقضى منذ اليوم جيل بل عقد من السنين حتى يفند غالب الدول الاسلانية في الشرقين : الأدنى والأوسط متمتعا بالحكم الذاتى وربما بالاستقلال التام لا عيب فيه ، أما التساؤل أنسى هذه الشعوب التى ستصبح حرة اغتنام الفرصة فتعود تنحصر معانئ الاستبداد والفوضى ، أو تصبح حقا عالية الجبين فى إنشاء الحكومات الدستورية المنظمة الثابتة فتنبعث هذه فى طريق التقدم والارتقاء ، فذلك أمر سيكشفه المستقبل ، وإن قد بينا لغاية الآن العوامل المختلفة العاملة فى أفق تطور السياسة ، سالبها وموجبها ، ندع القضية مستاقفة فى مجراها الطبيعى بهذه العوامل ، مراقبين تقلبها المستمر فى هذا الدور التحول ، ونفتقل للكلام على العصبية الجنسية .

## الفصل الرابع

### فى هياج العالم الاسلامى

قال المؤلف المذكور فى صفحة ٨٩ وما بعدها مانصه : « كان العالم الاسلامى (قبل أن أخذ يصطدم بالغرب النصرانى الاصطدام الأكبر خلال القرن التاسع عشر) هاجما هيجمه التى قد تقدم الكلام عليها بعيدا من التنبه القومى وثورة العصبية الجنسية ، وكان غالبه منقسما إلى امارات متناثرة ، ولكنها قوية المراس شديدة الشكيمة ، وأن ما كان فى نفوس قطينه وسما كنه من العاطفة الوطنية إنما كان متجها نحو السلالات الحاكمة على نحو الحالة التى كان عليها سلاطين الترك العثمانيين ، غير أنه كانت مظاهر العزة القومية ومبادئ الشمم والإباء جليلة فى غالب العناصر كالأمة العربية (أمة الرسالة) إذ فى العرب كانت أسباب العصبية الجنسية على بيان فى الظهور وقوة فى الانفعال والنمو ولكنها كانت متفرقة وغير منتظمة تنظيما كافلا لائتلاف المزاج الذى تغدوبه العصبية عاملة فعالة ، أما الشعب الاسلامى الذى كان حقا يتشى فى عروقه ما ينبغى لنا تسميته بروح العصبية الجنسية الصحيحة ، فهو الشعب الفارسى حبيب بلاده ، وعاشق موطنه القديم ، وأما سائر الشعوب الاسلامية فقد كانت على شئ من مبادئ الشعور الوطنى واليقظة الجنسية والروح النزاعة إلى الوحدة والنضام ، وكانت هذه الروح مستمعة بأسبابها للارتقاء والانساع حتى تبلغ دور العمل الصحيح والحركة المؤثرة . على أن فى الأمر اعتبارا آخر ، ان الاسلام قد نهى فى مواضع عديدة عن العصبية ، فلما انتهت الشعوب الاسلامية إلى هذا العصر عصر العصبية الجنسية ، بات الفرض الذى يفرضه الاسلام على المؤمنين أن يكونوا إخوة متضامنين متساوين لافرق بين عربهم وبين عجمهم ، وأنصحت الغاية السياسية المقصودة فى الاسلام من وحدته الامامة الكبرى ، أو الشورى الشرعية العامة أمرا مقاوما بطبيعة الدور والزمن بسبب إنشاء القوميات المستقلة والعصبية المتميزة فى الملة الاسلامية كما كانت الحال فى مبدأ عصر النهضة فى أوروبا إذ كانت النهضة القومية فى مطلع ذلك العصر تصطدم اصطداما عنيفا بالعقائد الدينية الشائعة ، والآراء الدائرة حول وحدة البابوية والمملكة الرومانية المقدسة . »



وقال أيضا في صفحة ١٣١ وما بعدها من الجزء الثاني مانعه : « غدت الحياة السياسية في أقطار شمال أفريقيا المختلفة العناصر والاصول حياة اضطراب تستر بها الانشقاقات والانقسامات ، وكانت صرا كش وما برحت أكثر الأقطار الافريقية الشمالية وحدة والتشاما ، وثباتا في مجموعها السياسي ، مع أن سلطة السلطان النافذة حقّ النفاذ لم تمتد قط يوما إلى الجبال التي تنطهر القبائل المختلفة ، وأما الممالك المعروفة بالممالك البربرية ( الجزائر وتونس وطرابلس ) فقد كانت أكبر قليلا من الثغور البحرية تمتد على طول السواحل ، وأما البلاد الوراثة فقد كانت متمتعة بالاستقلال البدوي التام ، على هذه البلاد المتبللة طفق الفتح الفرنسي يتدفق فبدأ غاصرا الجزائر سنة ١٨٣٠ حتى انتهى بمراكش اليوم ، إن فرنسا قد أرخت على البلاد سكينه ، وكبنتها نظاما ونجحها ماديا ، غير أن هذه المنافع والفوائد التي أتت بها السيادة الأوروبية في هذه الأقطار الافريقية كما في غيرها من الأقطار الشرقية قد كان من شأنها أن خلقت نوعا حديثا من الوحدة والتضامن والتماسك بين أهل البلاد حتى غدوا جميعا على مستوى متماثل في الاجماع على شاعة الفتح الأوروبي ، وعلى نيل المطمح العام الذي يطمحون إليه وهو الاستقلال والتمتع بالحكم الذاتي بمزلة عن السيادة الأجنبية بنة ، لذلك قد شهد العالم خلال الجيل الماضي نشوء « الجزائر الفتاة » و « تونس الفتاة » وفيهما الأحزاب السياسية يقودها رجال فرنسيون من أهل العلم والنهذب المتشبعين كل التشبع بعقائد الحكم الذاتي والحرية . أما المتجه الذي تتجهه هذه الأقوام في نهضتها فهو بغايتها أميل إلى إنشاء الوحدة الافريقية الشمالية الكبرى ثم إلى الجامعة الاسلامية العامة كما تقدم الكلام على هذا منه إلى إنشاء أمة تونسية أو جزائرية منفصلة عن غيرها من سائر الأمم الاسلامية ، ولا يعزبن عن البال أن جميع هذه الشعوب والأمم إنما هي على صلات شديدة وروابط متواتقة توثقا كبيرا مع السنوسي ، تلك الصلات والروابط التي قد أسلفنا الكلام عليها في قسم الجامعة الاسلامية .

### معجزة جديدة لم تعرف من قبل

مقالا بديها يظهر لنا بوضوح حديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »  
 ويفهمنا حقا معنى : « رجاء بينهم » والحق يقال ان هذه أجل معجزة اسلامية ،  
 فالويل لأوروبا اذا جهلت هذا

قال أيضا في صفحة ١٥٠ وما بعدها مانعه : « مما لا ريب فيه أن الحرب العامة قد هاجت الجامعة العربية هياجا شديدا ، وبشت فيها قوة كبيرة ، ولا سيما بما قضت به الحرب من إنشاء مملكة عربية مستقلة في الحجاز ، مدلية بحقوق لها في سورية والعراق ، وقد غمر الشعوب العربية المختلفة طوفان من الطياح والاضطراب ، والهرج والمرج هنا وهناك ، وثار تطلب الاستقلال ، مطالعة نحو إسقاط السيادة الأجنبية ومحوها محو تاما ، وهي السيادة البريطانية والفرنسية والاطالية المنتشرة في مصر وسورية والعراق وطرابلس الغرب وسائر الأقطار العربية ، وقد استغرق الطياح هذه البلدان جميعها استغراقا جعل تلك العاية الكبرى المتوخاة من الجامعة العربية وإن كانت لم تبرح عالم لا شديدا غير ظاهرة كما كانت من قبل في صدر البرامج التي في أيدي رجال العرب القاميين بالنهضات القومية الوطنية ، الدائدين عن حروض العصية الجنسية العربية . زد على ذلك أن الجامعة العربية مشتبكة الفسيح ( كما قلنا قبلا ) بمبدأين عامين شاملين ، لا يختصان بعنصرية أو جنسية دون أخرى ، وهما مبدأ الجامعة الاسلامية وجامعة العصبية الجنسية الاسلامية ، ولعل هذا المبدأ الأخير يبدو لنا نحن الغربيين موضوع التناقض الغريب من حيث هو ليس كذلك عند الشرقيين ، إن الشرق وإن استمسك جهده بمبادئنا وأفكارنا في الجنسية والوطنية ، وانتحل ما انتحل من عقائدا فيها ، فهذه المبادئ والأفكار والعقائد اذا انتقلت إلى الشرق تشربتها العقول الشرقية الملاي بصنف آخر

من المبادئ والعقائد الرامية إلى الوحدة الإسلامية وتآلف جميع المؤمنين على اختلاف الأقسام والفرق بحيث نشأ عن ذلك التماس الجامع بين القديم والجديد ، وحصل التآلف المختلف إلى حد ضئيل عند المسلمين متى ما استعملوا الكلمات التي نستعملها نحن مثل « الجنسية » و « الجنس » ذهبوا في فهم معنيهما مذهبا محظرا لمذاهبنا ، وقس على هذه الاختلافات والفروق التي بيننا وبين الشرقيين ما هو شائع في أفق جميع المبادئ والعقائد السياسية ، فذلك مثلا كلمة « الدولة » فإن الدولة الإسلامية التي يرمح اتخاذها مثلا للمقارنة ليست كالسولة الغربية المشتغل بتحديداتها على وحدة معينة من الناس وأرض يسكنونها مقررة الحدود وساطان ممارس نافذ تمام النفاذ في كل مكان داخل حدود الدولة ، بل إن الدولة في الشرق الإسلامي إنما هي كناية عن كناية قلت أم كثرت ، غير مستقرة الشكل ولا النصاب ، ولا منتظمة التركيب ، لها نواة مركزية هي مصدر السلطة المنبثقة منها انبعاثا مشتملا على معنى الاستقلال للمهم التعديدي ، تعديدي آفات الفوضى و يشوبه الاختلال ، ومن المعلوم أن غالب الدول الإسلامية ما برحت منذ نصف قرن تجتهد في تنظيم حكوماتها ، وإصلاح شؤونها ، وسائر أحوالها ، ناسجة في ذلك على منوال الدول الغربية ، غير أن المنازع التقليدية لم تبرح حية مشهودة المثال كما في أفغانستان حيث إن القبائل التي عند الحدود الهندية الشمالية الغربية ، وهي قبائل أفغانية متمسكة باستقلال أعمالها صحيجا ، كانت تقوم من تلقاء نفسها في المدة بعد الأخرى بشن غارات عنيفة على الانكيز ، غارات حروب استطاع أمير أفغانستان أن يفصل من تبعها تنصلا انقطع عنده دهاء الانكيز ، والأمر كذلك في الجنسية عند المسلمين ليست الولادة في البلاد ، ولا التعديس على الأصول الرسمية شرطا لمن يريد أن يكون فردا من أفراد الأمة الإسلامية في قطر من الأقطار متمتعاً بحق التمتع بحقوق الجنسية الإسلامية ، فوطن المسلم هو العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، لذلك يستطيع الهابط أية بلاد إسلامية أن ينال للمحال أي وقت شاء حقوق الوطني المكرم ذي المقام والمنزلة بين ظهراني القوم ، فالعبارة : « مصر للمصريين » مثلا لا تعني ذلك المعنى بعينه الذي تصوّره نحن في الجارى المعتاد ، فإذا ما أقام مسلم جزائري أو دمشقي في القاهرة فليس هناك من حائل يحول دون تصرفه وسلوكه واعتباره « مصريا وطنيا حرا » بصحيح المعنى والعبارة ، والسبب في ذلك أن من منازع الإسلام على السواص صيانة الوحدة بين المسلمين ، الوحدة الدينية والجغرافية الإقليمية ، جميع الأقطار والممالك والبلدان الإسلامية معروفة عند المسلمين « بدار الإسلام » ( ورضا دار الحرب ) وهي المواطن التي قاطنها مسلمون يجب عليهم باعتبارهم أمة واحدة متحدة الذب عن سياجها والذيد عن حياضها ، وهذا هو السبب في أننا نرى أنه كما أصاب اعتداء أجنبي طرفا من العالم الإسلامي هاج الطرف الآخر واضطرب وقام وقعد على غير أن يكون هناك اشتراك في المصلحة المادية يحمله على ذلك كأنما المهور الإسلامي جسم واحد باعتلال عضو منه تتأثر وتعتل سائر الأعضاء ، وإنما بعد جميع ما تقدم نستطيع أن نعلم كم هناك من المفكرين من المسلمين .

وقال في صفحة ١٥٤ وما بعدها مانصه : « ولعمري الحق ليس من الغرابة في شيء أن نرى الشرق وقد ارتوت نفوس شعوبه وأمه بضروب من الطامع القومية والآمال الاستقلالية التي هاجتها الحرب السكونية أعظم هياج فصيرتها نارا ذات لهب أن ينقلب بسبب خاتمة الحرب التي نزلت عليه ويلا عجميا وبلاء شاملا ، صرجلا شديد الغليان فوارا ، وبركانا ثائرا : من المعلوم البين أنه قد كان من المستطاع عقد مصالحتات سليمة من النقائص والمشايين ، وذلك بالجرى على السياسة الصحيحة الشريفة النسيج ، السوية النهج ، لكن مؤتمر فرسايل السلمي كان وباللأسف الشديد متجسدا عن كل سياسة رشيدة ، وتسوية حكيمة ، وحصافة في الرأي ، ونظر بالعواقب ، فنجم عن ذلك أن تلك التسويات الفاسدة التي وضعها هذا المؤتمر قد حبطت شرّ حبوط ، ليس في ضمان السلم لأوروبا بحسب بل كان من شأنه إمطة اللثام ورفع الحجاب عن موقف الغرب

الحق بقرى إزاء الشرق ، ذلك الموقف الرائع الذي عاد فظهرت فيه تلك الروح التي عرفت قبل الحرب ، روح التوسع الإمبراطوري والجشع الاستعماري ، روح استلاب الشعوب وارهاقها ، وانهاب ما بين أيديها وما خلفها واستنزاف دماؤها ، وشدة الأخنقة على ماسول رقباتها ، زد على هذا أن الحلفاء الظافرين طفقت بصائرهم تعمه أشد العدم ، غير مهترين شيئا من التطورات النفسانية الهائلة التي حدثت في الأمم الشرقية من جراء الحرب فلم يلجئوا إلى تبديل موقفهم بأفضل منه على ما تقتضيه الحال المستجدة ، وإلى انتهاج نهج سياسي خير من ذلك الذي انتهجوه قبلا ، بل ظلوا على المضي في مهاملة الشرق بالخفة والازدراء ، كأنهم يحسبون أن الحرب العظمى التي أن من فدح عيها الثقلان ، ومادت من شدة وطأتها وكابوسها هذه السيرة الأرضية ما كانت سوى مساجلة ومناوشة ، وأن آسيا ما برحت ذلك الجبار المستغرق في هججته كما كان منذ قرن خلا .

أجل ، شرع الحلفاء يستهزئون بما كانوا قد نشره خلال الحرب من أنواع التصريحات التي قرعوا بها أسماع الشعوب مئات من المرات ، وضمنوا بها قواعد الحرية وأساس العدل ، وأقبلوا يخلفون بوعودهم التي قطعوها لشعوب الشرق الأدنى في تقرير المصير خلال المجمعان الأكبر ، وطفقوا يفسرون على الملأ سلسلة من المعاهدات السرية (المعقودة بين بعض وبعض منهم في الحين الذي كانوا فيه يصرون بالنياد عن الحرية وتقرير المصير) وأرادوا بمقتضاها تقسيم الإمبراطورية العثمانية ، إشباعا لشههم الكبي ونهمهم الوحشية ، عتئين شرّ امتهان إرادة أهالي البلاد ورغبتهم فيما يشتهون أن يكونوا عليه من الحكومة ، وكان مؤتمر فرساي كشافا عن واقع المقاصد السيئة والأغراض الخبيثة التي انطوى عليها الحلفاء ، إذ تجلى ذلك بتلك الطريقة الخداعة التي ألزم جانبها المؤتمر في رفضه قبول وفد إيران الذي أوفدته حكومته لبسط القضية الإيرانية ( وإيران كانت ما برحت مستقلة استقلال اسميا ظاهرا ) فكان من الأمر أن حل المؤتمر الوفد على البقاء في باريس مدة جعل يعالها خلالها بالسراب الذي يراه المسافر فيحسبه ماء بينما كانت الحكومة البريطانية تشد الحناق على عتق حكومة الشاه في طهران إلى أن أكرهتها إكراها على إبرام اتفاق بانت إيران كلها بمقتضاه بلادا محمية في كنف الإمبراطورية البريطانية ، وأما المصريون (الذين كان دأبهم ودينتهم على الدوام تزجية الاحتجاجات على الحماية التي أعلنتها بريطانيا منفردة من تلقاء نفسها في مصر سنة ١٩١٤) فقد أوفدوا إلى باريس وفدا لبسط قضيتهم ، فرفض مؤتمر فرساي الاضاحة لأقوال الوفد ، بل أفهم رجاله أن المؤتمر إنما يستبر الحماية البريطانية في مصر أصرا قضى وحكما أبرم ، فنجح عن جميع ذلك ماعة نتيجة من نتائج الحرب وهو أن السيطرة الأوروبية على الشرقين : الأدنى والأوسط قد شدت أطناها ، وتوطدت عمدها ، واتسعت آفاقها ، من حيث كان يجب تهوين خطب الاستعمار وتضييق ظله .

### بيان أن فرنسا وانكلترا بعثتا الحمية في نفوس العرب

فأحرق الأمتين نار ثورتهم

وقال في صفحة ١٧٣ وما بعدها من الكتاب المذكور مانعه : « من المعلوم أن هذه الخدعة الكبرى التي قامت بها بريطانيا وفرنسا على مسرح المسكر من وراء الستار لم يكن للعرب علم بها ، ولا وقفوا عليها بل أبرمت خفية عنهم من حيث أن بريطانيا جهدت كبير الجهد ، وبذلت غاية المستطاع طياح الآمال الاستقلالية في صدور العرب رائدة العصبيّة والمطامح القومية في نفوسهم ، فكان ذلك خير وسيلة ، وأنجح ذريعة ، لاستشارة نخوتهم في الثورة فجعلوا يتسارعون إلى مجل الحرب ، ويندفعون إلى مقاتلة الترك وخضد شوكتهم وأنفذت الحكومة البريطانية إلى العرب عددا من نخبة الضباط المختارين أشهرهم الأميرالاي لورانس التي



الفتى اللوذعى النابه الشأن ، الذى ما أسرع ما نال من نفاذ السكامة والساطة على أسراء العرب وزعمائهم ، مما لا حد له ولا غاية حتى دعى « روح الثورة العربية » لكن هؤلاء الضباط الأكفاء العارفون بشؤون العرب والمعروفون بميلهم إليهم وعطفهم عليهم ، إنما قدماختبروا ليقوهوا بما اتقدبوا إليه من حيث لم يكونوا هم أنفسهم قد وقفوا ولا اطلعوا على المهادت السرية التى عقدت خفية عن العرب ، وكان القصد من ذلك فى الواقع أن لا يعرف هؤلاء المستبشرين فتور ولا انكسار ، ولا يثلم وفؤدهم للعرب بينما هم يستبشرونهم هم ويستوقدونهم نار القتال ، وكان القواد البريطانيون لا يذنبون عن تزجية الوعود العرب مودعة فى المنشورات والتصریحات التى كانوا يذيعونها آخذا بعضها برقاب بعض ، ثم تمت خاتمة هذه الرواية عند نهاية الحرب فأصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية مشتركين معا منشورا أذاعته فى جميع الأقطار العربية جاء فيه ما يأتى : « إن الفاية التى من أجلها خاضت فرنسا وبريطانيا فى معان الحرب فى الشرق ، الحرب التى أثارها على العالم المطامع الألمانية هى أن تضمننا لجميع الشعوب التى طال عابها عهد الجور من الترك تحريرهم من الاستعباد تحريرا تليا باقيا ، وأن تنشأ حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطانها من رغبات الشعب وادعته المطلقة دون منازع » فلم يلبث أن برح الحلفاء ، وانجلي المستور ، وإن الصبح لذى عينين ، فتبدلت الحال غير الحال ، عند ما وضعت الحرب أوزارها ، ورجعت السيرف إلى أعماها ، وضيق العدو شر مزق وانتهت الرواية ، وأرخى الستار ، الستار الذى تبدت حقائق نيات الحلفاء ومقاصدهم منقوشة فيه نقشا جليا ، فقرأها العرب وعلموا الأسرار ، ووقفوا على بواطن الأمور ، بهد أن أخذوا بظواهرها ، وظهرت الجنود الفرنسية تحتل شاطئ سورية ، وعلم العرب حق العلم كيف سددوا وحتلوا ، وغشوا ، فذعروا وأجفلوا ، وقاموا وقعدوا ، وأرغوا وأزبدوا ، واشتعل غضبهم ، وهاجت هائجات الثورة فى نفوسهم . ولولا أهل الحصافة والروية من زعمائهم ، ولا سيما الأمير فيصل بنجل شريف مكة المكرمة ، الأمير الذى برهن حق البرهان على فائق كفايته لقيادة الرجال والقتال فى الحروب ، والذى استطاع الآن أن ينزل من بنى قومه منزلة لا ينزع فيها من النفاذ وعزة السلطان لربما انفجر بركان العرب وتطير من حمله ما أظلمت البلاد جميعها ، لكن فيصلا كان يعرف مبلغ قوة الحلفاء العسكرية ، فأيقن أن ركوب الحرب معهم إنما هو مركب خشن ، وغاية فى الاستهداف والمخاطرة ولا سيما فى آونة مثل تلك الآونة ، واذ أدرك حق الإدراك قوة العرب المعنوية والأدبية فى ذلك الموقف الذى كانوا فيه طلب من أبناء قومه وبلاده أن يقوموا فى بسط القضية العربية والدفاع عنها لدى مؤتمر السلم الذى كان على وشك الانعقاد ، فقام بهذا الأمر راجيا تنجية البلاد من يوم عصيب ، فظلت الأقطار العربية خلال سنة ١٩١٩ هادئة ، ولكن هدوء الانتظار على ارتياب ، والنار تحت الرماد ، والأمير فيصل بسط لدى مؤتمر السلم قضيته ببلاغة معنى وفصيح منطق يحف بموقفه الوقار ، لكنه لقي خيبة فى المسعى ، إذ اشتمل عهد عصبة الأمم على بيان دال على الفرق والعطف وذلك أن الأقوام المألومة التى كانت من قبل فى الحكم التركى ، وقد بلغت من الارتقاء مستوى استطاع عنده الاعتراف بكيانها أمما مستقلة استقلال معلنا عليها أن تتلقى المشورة والمساعدة الادارية من دولة منتدبة حتى يأتى يوم تصبح فيه هذه الأقوام قادرة على السير بنفسها فيطلق حبلها إذ ذاك على غاربها . ثم فقه العرب معنى الانتداب واكتتبوا ماهيته وسرته ، وقد كان من شأن لويد جورج أن يجود ببعض العبارات المنمقة والجل الرائقة مثل قوله : « إن العرب قد ونوا حقا بعهودهم ، وبروا بوعودهم ، لبريطانيا العظمى ، فيجب علينا إذن أن نقابل الاحسان بمثله فنفي بعهودنا ونبر بوعودنا لهم » غير أن العرب كانوا قد قرءوا المعاهدات السرية واطلعوا عليها فبان من العبث والأفن بعد محاولة اصطيادهم بالأشراك والأحاييل مرة أخرى ، إذ عاد الختل من الدرائع الباطلة ، وأمسى الخلداع من الوسائل الكاذبة ، وبالتالى علم العرب علما مكينا أنه يجب عليهم الاعتماد على نفوسهم وقوة



سواء عدهم ، ومساعدتهم ومجاهديهم ، وذلك إما في مجال السياسة ، وإما في مجال الحرب . انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » والحمد لله رب العالمين .

### نظرة عامة في هذه المقالات

تلك المقالات المنقولة من ذلك الكتاب الذي حرره رجل عالم أمريكي نظر نظرة عامة في الاسلام : « إن أكثر المسلمين يعيشون ويموتون ولاهم يذكرون ، يعيش المسلم غالبا وهو يجهل تركيب أعضائه وجاها ونظام العالم المحيط به ويجهل تركيب جسم الأمة الاسلامية التي هو عضو منها وأن كاتب هذه السطور أحد المسلمين الساكنين الذين يجهلون نظام أمم الاسلام ، وما أقيح الجهل وما أفضطه ، أفليس من المؤلم أن نجهل ونحن في مصر ( المشهورة بالعلم ) بلاد الاسلام وما حصل فيها ؟ ثم يأتي رجل نصراني قد درس هو وقومه بلادهم وعرفوها ، ثم أخذ يدرس أمم الاسلام ، وأنا الساعة أنقل عنه ، فكيف نفهم معاشر المسلمين قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » ، ما هو هذا الظهور ؟ وما معناه ؟ نعم نفهمه الآن بقول رجل بعيد عن الفرض لأنه ليس مسالما ، فإذا يقول ؟ يقول فيما قدّمناه :

( ١ ) « إن أحد المبشرين الانجليز منذ ( ٢٥ ) سنة يقول : إن الدعوة النصرانية باتت خرافة من الخرافات .

( ٢ ) ويقول : إن مبشرا بروتستانتيا يقول : « إن الاسلام يسير في سبيله منذ بدايته إلى اليوم فلم يغير في سبيله إلا القليل ، وهو لا يمت المسيحية ، فلذلك فاز فوزا مبينا ، النصراني يحسون بفتح أفريقيا في القدم وفتحها المسلمون في العلانية .

( ٣ ) ويقول : « إن نيوزيلانده مبشروها من عرب وتجار ابتدوا ذلك منذ ( ١٩٠٠ سنة ) وبعد عشرين سنة أصبح في كل قرية مسجد ، ومدرسة اسلامية ، ومعلمون مسلمون ، الانجليز عجزوا عن مقاومتهم .

( ٤ ) ويقول بعض المفكرين الغربيين بعده بمدة قليلة : « من الآن يجتاز الاسلام زيمباري وينتشر في جنوب أفريقيا فيطبق القارة بأسرها » .

( ٥ ) ويقول : « الاسلام يهجم على المسيحية كما هجم على الوثنية ، إذ أصبح الذين تنصروا في غرب أفريقيا على يد المبشرين يدخلون الاسلام ، بل الحبشة أيضا تسلم بعد أن كانت سدا منيها »

( ٦ ) « منذ خمسين سنة ما كنت ترى في الأحباش مسالما واحدا ، أما الآن فغالهم مسلمون »

( ٧ ) « ظفر الاسلام اليوم في أفريقيا عظيم » .

( ٨ ) « إن التتار بعد أن ظلم الروس بعض المسلمين ونصروهم هبوا فأرجعوا اخوانهم جميعا للاسلام في القرن التاسع عشر لما استيقظ المسلمون .

( ٩ ) ومقال العالم ( فريدو ) ملخصه أن الحرب العامة لم تصبح ظفرا لأوروبا ، بل صارت ظفرا للشرق وأشار إلى قيام الصين والأفغان والهند ومصر ، وأن روسيا التي كانت سبب إذلال فرنسا وانكلترا للشرق قد أصبحت بعد الحرب الكبرى نصيرته ، أقول : وملخص هذا كله قوله تعالى هنا : « ليظهره على الدين كله » ، فبينما الاسلام ينتشر في أفريقيا شرقا وغربا إذا آسيا يزول السكابوس الذي كتم أنفاسها فانتعش الاسلام .

( ١٠ ) ويقول : « ظلم أوروبا أوقد نار الجامعة الاسلامية ، ومثاله ما حصل في طرابلس من اجتماع الترك والعرب على مناوأة الطليان .

- (١١) ويقول : « الحرب الباقائية زادت تقارب المسلمين » .
- (١٢) « إن مصطفى كمال بعد أن حُرقت الدولة العثمانية غاب أوروبا كلها ، وقل لهم : أنا أحارب العالم كله ففاز ، وهذا نصر للإسلام » .
- (١٣) واتفق العرب والترك سرا ، وحاربا معا في كيليسكية ، وإن كانوا لم يظهروا ذلك .
- (١٤) ويقول أرمينوس : « إن الدين الاسلامي هو الدين الفائق سائر أديان العالم شوري وديموقراطية إلى آخره » . أليست هذه الجلة من حجة ثقة عند أوروبا بأجمعها هو نفسه معنى قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » ، وهذا عجب يارب ! أعيش في مصر بلادى ، وأجد كشيرا من الطبقة المتعلمة لا يصاون الصلاة المفروضة احتقارا للدين بسبب انتشار المبشرين بيننا ، ثم أسمع هذا العلامة في أوروبا يقول : « إن هذا الدين يفوق أديان العالم » أليس أمثال هذا القول وما تقدمه أكبر معجزة للقرآن في هذا الزمان .

- (١٥) ثم يقول أيضا : « إن جزيرة العرب حفظت الاسلام والحرية الخ » .
- (١٦) « ملخص كلام المستر ( كرتس ) : « أن أوروبا لن تبقى طويلا في الشرق ، ولا يمضى جيل بل عقد من السنين حتى تصير الدول الاسلامية متمتعة بالحكم الذاتي » .
- هذه زبدة مستخلاصة من هذه المقالات عرضتها عليك حتى يحضر في عقلك أيها الذكي منظر العالم الاسلامي العجيب ويظهر لي أنك متعجب من هذه الأخبار ! وتراها غريبة عليك كحالي حينما كنت أقرأها ، فذهبا جليلة خالصة ، فأنت الآن تقرأها واخوانك المسلمون في أقطار الأرض يقرءونها ، وهل بعد هذه الأخبار يبقى ذل لأهم الاسلام ؟ كلا . ثم كلا . أنا أكتب هذا وقد ظهرت لى أهم الاسلام شرقا وغربا كأنهم في خيالى قدر بطهم رابطة الاخوية العامة كما قال تعالى « إنما المؤمنون إخوة » ولقد ظهرت الآن ظهورا واضحا .

### خطاب المؤلف

أيها المسلمون : أنتم سادة هذه الأرض ، أنتم الظاهرون فيها . أيها المسلمون : أوروبا نحن علمناها وهامى ذه تظهر علمها لنا نفدوه . أيها المسلمون : أنتم رجاء ، واعلموا أن الأمم ستبلغ رشدها ، فكونوا أنتم القدوة ، وانشروا السلام ، وهل تنشرون السلام وأنتم ضعفاء ؟ ستكونون أقوىاء فتهاكم الأمم لقوتكم ، وتجهكم لرحمتكم . إياكم أن تكونوا كأوروبا الشرهة الظالمة ، بل كونوا رجة للعالمين .

أيها المسلمون : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » عجب لأهم الاسلام ، ولدين الاسلام ! هذا الدين الذى نزل من السماء نورا مشرقا ، وما كاد يصل إلى الأرض ويسير قليلا حتى امتزج بالظلام ، وأول هذا الظلام الاختلاف والشجار الذى وقع بين عظماء الأمة لأجل الخلافة ، فتشاجر الأمويون والعباسيون والعاليون أمدا طويلا . ثم ذهبت الدولة كأمس الدابر ، وبقى العلم ولكن فى الوقت الذى فيه كانت تحتضر المملكة العباسية أخذ العلم يرجع القهقري ، فرأينا الحكمة نامت نوما عميقا ، وفى بلاد الأندلس وشمالى أفريقيا نرى ابن رشد ، وبات الذى يقرأ الحكمة مذموما مدحورا ، فهرب العلم من وجه المسلمين إلى أوروبا وهاموذا رجع إلينا ثانيا .

### إن المسلمين اليوم أرقى منهم فى كل زمان بمد عصر الصحابة والتابعين

وكيف لا يكونون أرقى من السابقين فى ألف السنة الماضية ، وهم اليوم يقبلون كل علم وكل حكمة ، اللهم لك الحمد ، ولك الشكر ، ولك النعمة ، أنت المنعم المتفضل ، أنت تحفظ الجليل والحقير والكبير والصغير

يا الله : نراك جعلت الجوهر الفرد مألودا من القوى المدخرة التي لو أطلقت منذ انفتحت العالم كله ، نراك رحمت الغلة وأعطيها أعيننا تهت بالمشات ، والذبابه أعيننا تهت بالألوف ، وأبدعت هذه العيون كما أبدعت عين الانسان ونظمها تنظيما بديها تقدم بعضه ، وسيأتي قريبا ما هو أجمل ، نهل بعد هذا وبعد ما جاءنا من الأخبار عن أُمّ الاسلام يدخل في قلوبنا وهم أرسلك أنتك تترك هذه الأمم ، فهل الذي يرعى تلك الحشرة الخفية لا يرعى هذه الأمم الكبيرة ؟ إنك ترعى المسلمين ، إن وعدك حقّ وصدق ، هاهوذا القرآن ظهرت معجزاته ، هاهم أولاء المسلمون متحفزون ، أليس من أعجب العجب أن يخفى العلم بعد نفي ابن رشد بالأندلس فيظهر في الشرق وفي الغرب رجال عظماء ، فيظهرون باسم الصوفية ويذوقون العلم المشهور ، ويملكون الناس بقدر إمكانهم كمحبي الدين بن عربي رحمه الله وأمثاله ، ونرى نفس ذلك العصر يظهر فيه السيد الرفاعي الكبير ، والسيد عبد القادر الجيلاني ، والسيد أحمد البدوي رضي الله عنهم أجمعين الذي تحتفل الأمة المصرية بمولده الآن (جادي الثانية سنة ١٣٤٩ هـ) وهو من ذرية السيد محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي رضي الله عنهم أجمعين ، وقد ولد في فاس ( سنة ٥٩٦ هـ ) وتوفي بطنطا ببلادنا المصرية ، فالسيد أحمد البدوي قد اجتمع بالجيلاني والرفاعي في بلاد العراق ، أفليس من عجب أن نرى القرن السابع يظهر فيه ابن الفارض ، والرفاعي ، والدمسوقي ، والسيد أحمد البدوي ، وابن عربي ؟ فهذه ثمان قرون مضت ، وهؤلاء لهم القدح الممل في الاسلام ، فإذا جرى اذن ؟ أصبحوا هم وأصبح كثير غيرهم لهم عجائب وغرائب وكرامات لم تنقل عن رسول الله ﷺ ولا عن أصحابه ، فهؤلاء الصالحاء العظماء أصبحوا بعد موتهم قبله الأمة ، لماذا ؟ لأن كراماتهم لا نظير لها ، فمنهم من يأتي بالأسرى ، ومنهم من يحيي الموتى وهكذا ، فتلقى العامة ذلك بالقبول ، وسارت الأمة أجيالا وهي فرحة برحبها ، لأن جلاله وحكمته تظهر بخوارق العادات التي يظنون أنها أعظم مظهر للالهية ، وحجبوا عن جلاله الحقيقي ، وهي عجائب السموات والأرض ، ونظام هذا العالم .

إن كل نفس تواقه إلى الجمال ، والجمال التكويني إنما هي عجائب السموات والأرض بالعلوم ، فلما طمست البصائر ، ونامت الأمة ، حوّلت عقولها إلى أكاذيب وخرافات تفرح بها الصبيان .  
فيا عجبا ! رباه : دين يذبذبنا ، ولا يعرف الناس إلا خرافات منسوبة إليه ، ثم يبقى إلى زماننا هذا ، ثم نراه ينتشر انتشارا مدهشا ، أليس هذا أيضا من العجب ! ثم نرى ما نكتبه الآن في التفسير مقبولا مع أنني لم آل جهدا في مزج الفلسفة به والمسلمون يتقبلونها ، هاتم أولاء أقبلتم على زمان العلم « هارم اقرءوا كتابيه » ، أنا أحمد الله عز وجل إذ جعل هذا الكتاب فاتحة خير لأُمّ الاسلام التي تمطشت للعلم ، ولا يحصى لها منه ، بعد أن أحاطت بها أوروبا ، ورأت مخترعاتها وعالمها ، فاسلام بلا عمل لا بقاء لأهله بعد زماننا ، والمسلمون في المستقبل حقا هم « خير أمة أخرجت للناس » .

لقد قرأت في الاحياء ما يفيد أن الامام الغزالي كان يخاطب أهل زمانه كمن يخاطب نحن الآن الأطفال ، لاننا أخاطب أنا المسلمين الآن ، فانه لما أراد أن يفهم علماء زمانه أن الأسباب تترتب عليها المسببات لم يأت بمثال إلا بالوضوء والفعل ، لأنه رأى أن فقهاء زمانه كانوا لا يفهمون إلا بالفقه . وقال هو أيضا : إن ترتيب أجزاء كتاب الاحياء قد جعله هو على ترتيب كتب علم الفقه ليكون ذلك أنسا للفقه .

أما نحن الآن فاننا نخاطب أمة استيقظت ، وعقولها ارتقت ، ونفوسها علت ، نحن الآن نخاطب المسلمين علماءهم وعامةهم ، خطابا صريحا ، وننقل لهم عن القرنجة الحق فيقبلون ، ولقد قال الامام الغزالي رحمه الله تعالى : « إن المسلم الذي لا يقبل العلم إلا عن مسلم ، وينبذه اذا كان عن غيره أشبه بمن قدم له الماء في محجم الحجام وهو فاسول نظيف فلم يقبله بحجة انه كان فيه دم ، فكذا هؤلاء الأغبياء من المسلمين الذين

لا يقبلون الحقائق اذا وردت عن الكفار .

فأما نحن في زماننا فلسنا في حاجة إلى ضرب هذه الأمثال ، لأن أمتنا اليوم قد باغت الحلال التي بها تستحق أن تتولى زمام العلوم ، وهل بعد البيان بيان ! هاأنذا أعاين حال المسلمين بما يرد من جميع الأقطار أنهم بكل علم مغرمون ، اللهم لك الحمد إذ خلقتنا في زمان النهضة ، وصرفت عنا السوء ، وهاتنا ، وأنعمت علينا بالقبول ، أنت خير الناصرين ، أنت الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين .

### فصل في ذكر مثال واحد لرحمة المسلمين لغير أمة الاسلام من رجال العصور المتأخرة لأنهم رجة للعالمين

فأما سمع ذلك صديق العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . قال : كل ما تقدم حسن وجيل ، ولكني أريد الساعة أن تذكر لي خبرا عن عظيم من عظماء الاسلام كان نعمة على أمة غير المسلمين ، على شرط أن لا يكون من أمثال عمر وأبي بكر ، وعن مههما من الخلفاء الراشدين ، ولأمن غيرهم من المشهورين في سائر الأقطار ، ليكون ذلك مثالا لرحمة المسلم لغير المسلم ، لأن ظاهر الآية : « رجاء بينهم » ربما يظن بعض الناس أن رحمة المسلم خاصة بالمسلمين . فقلت : إن المسلم رحيم بالمسلم وبالذمي ، وبكل معاهد ومؤمن ، فالذمي له مالنا ، وعليه ماعليتنا ، ونحن لانحارب ، ولا نعادي إلا من حاربنا ، وهم الذين في دار الحرب ، أما المثال الذي تريده فهو ما جاء في هامش كتاب « حاضر العالم الاسلامي » المذكور بقلم الأمير شكيب أرسلان في الجزء الأول ، وانختم به الكلام في هذه الآية تحت عنوان « السيد الأجل » فقد اطلعوا في ينان على تاريخ محرر في سنة ١٩٨٤ يقال فيه انه لما زحف جنكيز خان إلى الغرب جاء السيد الأجل عمر بألف فارس وقدم له الطاعة فأكرمه وجعله من بطانته (١٢٠٦ - ١٢٢٩) ولما آل الأمر إلى السلطان أوغوناي (١٢٣٠ - ١٢٤٢) ولاه ثلاث ولايات وهي : (فونغ ، تسينغ ، يون ناي) ثم استدعاه إلى باكين ، وعهد إليه بمنصب عال ، ثم لما تولى السلطان نانفو (١٢٥١ - ١٢٥٩) عهد إليه بإدارة ست نظارات بالاشتراك مع (تاؤل هوان) ثم جعله مديرا عاما لمقاطعة (يان كينغ) فأحسن الإدارة جدا ، فعهد إليه بنظارة الاستخبارات ثم لما زحف السلطان إلى بلاد (تسوتشوان) جعله ناظرا للميرة العسكرية ، فقام بها أحسن قيام ، فلما تولى السلطان (قويلاي) أعطاه رتبة الوزارة ، وجعله عضوا في مجلس أمانة السر لأعلى ، وكان كما تقدم عملا ظهرت فيه فضائله ، وحاز رضا السلطنة ، وسنة ١٢٧٤ تقدم إليه السلطان في أن يقبل ولاية ينان ، وكانت أسوأها مختلفة ، وكان أهل ينان شديدي الغباوة والجهل ، فلما ذهب إلى هناك وجد القيادة في يد أمير من بيت السلطنة ، خاف هذا منه وأراد أن يجاذبه الحبل ، إلا أن السيد الأجل بحكمته وحسن سياسته استماله إليه وصبره صديقا ، وكانت تلك الولاية في غاية الانحطاط والبلاد خرابا ، فنشر السيد الأجل العلم وبنى المدارس واعتنى بتهديب الأخلاق ، وكذلك وجه همه إلى عمارة الأرضين ، فهدى الطرق ، وبنى المعابر والجسور والسدود لأجل المياه مما تلافي به خطر القحط ، فسكنت بعض الأنهار تطفئ على الأراضي فتذهب بها زروع الفلاحين فجعل لها حواجز تقي من ضرر الطغيان ، وكانت أراضي أخرى تهطش في الصيف من قلة المياه ، فبنى خزانات وحيضا احتياطا من جراء العطش ، وأزال المغارم والمظالم ، وأبطل السخرة ، وشيد ملاجئ للأيتام والحجزة ، وخفف المكوس ، وأحدث نموذجات زراعية يحتذى على مثالها ، وحفر الآبار ، وأقام الأسواق ، وأدخل في طاعة الدولة مالا يعد ولا يحصى من الأقوام ، وأثناء وجوده في تلك الولاية عمر مساجد للاسلام ، ولكنه شيد أيضا هياكل لكونفوشيوس ولبودا ، وكانت ولايته تضم عشرين مقاطعة ، فيحدثها من الشرق سونغ ، ومن الغرب بيرمانيه ، ومن الشمال التبت ، ومن الجنوب آنام ، وبحسن سياسة السيد الأجل خضع ملوك التونكين وآنام لسلطان الصين .



ومن نوادر حكمته أن ملك لوبان ثار على السلطنة ، فصدر الأمر للسيد الأجلّ بالزحف إليه ، فلما سار بالجيش رآه الناس خزيًا كئيبًا ، فسألوه عن سبب كآبته فأجاب : لست كئيبًا لكوني ذاهبًا إلى الحرب ، بل لكوني أنصوري منكم كثيرًا سيهلكون في هذه المعركة بدون ذنب اقترفوه وانهم سيقنّون وينهبون أناسًا كثيرين موادعين لا ذنب لهم أيضًا ، ولما وصل إلى مكان الثورة أرسل إلى الثوار يعرض عليهم التسليم ، فلبثوا ثلاثة أيام لا يجابون ، فهاج العسكر ، وطلب القواد الاذن بالهجوم ، فلم يأذن لهم ، بل راجع رئيس الثوار في أمر التسليم ، فأظهر الطاعة ولكنه لم يسلم البلدة ، فوثب رؤساء الجند على البلدة ، فغضب السيد الأجلّ ، واستدعاهم وقال لهم : إن ابن السماء أمرني أن أتولى بلاد ينان ، وأحكم فيها بالعدل والأمان ، لا بالقتل والعدوان ، فلا أرضي أن تهاجوا البلد ، مادام الثامرون وعدوا بالطاعة ، فان أيتيم إلا سفك السماء جفراؤكم القتل ، ثم أوثق الضباط الذين أرادوا الهجوم خلافا لأمره ، فلما سمح الثوار بما حصل جاءوا وساءوا ، وسكنت البلاد ، وأطاعت عن بكرة أبيها . وكان سائر العمال يقتدون بسيرة السيد الأجلّ ويتباهون بأعماله ، فأمنت السواحل ، واستراحت الرعية ، وساد العدل ، وفاضت الخيرات ، وعمرت البلاد ، وصار يقال هنيئًا لبلاد ينان ، أما آثاره في الزراعة فلا تزال بقاءها إلى الآن ، وأن كثيرًا مما بناه من الجسور لا يزال قائمًا إلى يومنا هذا . وكانت بلاد (تشاويان) تطغى عليها الأنهر ، فتم تحويل إلى بحيرة ، فحفر السيد الأجلّ نهرا حدر إليه تلك المياه كلها ، فصرفها عن الأراضي التي كان الماء يغمرها من قبل ، وحفر ترعا كثيرة ، وخلقها لسقيا البقاع المحتاجة إلى الري ، وجعل بريدا مؤلفا من ٣٦٠ فارسا وحراسا بقدرهم يسهرون على السدود بحيث إذا حصل فتق في أحدها أسرعت البرد بأخبار الحكومة ، فجعلت الحكومة الأهالي ، ومنهضوا لرتق الفتق .

ومات السيد الأجلّ رحمه الله سنة ١٢٧٩ فكان له مأتم عمّ الصين بأسرها ، وبكاه أهل ينان كما يبكي الأولاد أباهم ، وعمّ الحداد البلاد المجاورة إلى بلاد (سونغ) و(تبت) وغيرها ، وذبحت القرابين في البلاط السلطاني ، وخلف خمسة أولاد و ١٩ حفيدا ، فكان خلفه في الامارة ابنه ، ثم ابن ابنه ، وتداول أحفاده الامارة ، وكانوا جميعا أعضاء للسلطنة .

وفي أيام دولة (مينغ) راجع السلطان (تاي تسوكا هوانغ تي) (١٣٦٨-١٣٩٩) تراجم وزراء الدولة السابقة ، فلم يجد بينهم في الحكمة والعدل والرفق بالرعية ، ووفرة آثار العمران ، مثل السيد الأجلّ ، فأمر بتسجيل سيرته في كتاب خاص بقيد المآثر اسمه (ين تشه شو) وأن يدرس هذا الكتاب للطلبة وينشر في المملكة ، وقد ثبت هذا السلطان لقب السيد الأجلّ ، وهو « الأمير الأمين المحسن » وأمر ببناء هياكل فيها القرابين عن روحه ، سنة ١٤٠٥ صدر أمر الحكومة الصينية بتأليف سيرة للسيد الأجلّ بقلم (تشينغ هو) . ويوجد في بلاد ينان هيكل باسم الأمير (هيان يانغ) وهو لقب السيد الأجلّ عند الصينيين . ولا تزال أعقاب السيد الأجلّ إلى اليوم ، وأسرته معروفة منذ سنة ٨٥٠ انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » وبهذا تم الكلام على قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رجاء بينهم » . كتب ظهر يوم الاثنين ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣١ م والحمد لله رب العالمين .



## الجوهرة الثالثة في قوله تعالى : توأموهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً

سماهم في وجوههم من أثر السجود

اعلم أيها الذكي أن هذا الانسان فوق الأرض المخلوق من الطين في الأعم الأثر ، هاهم على وجهه ، جاهل لا يدري لم خالق ؟

الله أكبر : إن الانسان يشبه ماشع وذاع في زماننا ، من أن الجواهر الفردة والذرات الدقيقة أصبحت الآن موضع عناية علماء الألمان خصوصاً وعلماء العالم عموماً ، إذ يقولون ان فيها قوى كامنة ، وتلك القوى المخبوءة يعوزها أعمال عظيمة حتى يمكن استخراجها ، ذلك أن كل مادة فانها مكونة من مواد كهربائية سالبة وموجبة وهي مكبوسة مكتسبة مغنطية ، فأصفر المادة الذي لا يرى إذا أزلنا مغنطه وخرجت القوى الكامنة فيه غيرت لنا معالم الحياة ، لأنها قوى لاحد لها ، وقد تقدم هذا كثيراً .

أقول اذا كانت هذه حال الذرات التي لانراها في الطين والتراب والماء . الله أكبر : فكيف تكون حال هذا الانسان إذن ؟ الانسان نهاية الابداع في أرضنا هذه ، فإذا كانت هذه حال الذرات التي منها تركيب عالمنا ، فكيف يكون حال الانسان الذي هو نهاية الابداع ؟

الانسان يشبه هذه الذرة ، فهو بهم على وجهه ، ويعيش كالحيوان منبذ كالذرة . والجوهر الفرد ولكن يستخرج قواء أناس عنه محببولون على صفات خاصة به خرجوا من هذا الطور الطبيعي وأيقظوه إلى استخراج ما كمن فيه من القوى ، ولذلك تجد الرجل المهذب الراقى يوحى أو بتعليم يقدر أن يؤثر في نوع الانسان كله بأرائه وأفكاره ، ومن أوليات هذه الوجهة التي أتى بها الأنبياء الصلاة والركوع والسجود فان هذا الانسان الذي يعاشر السباع والطيور والأنعام يقف ويقول : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض الخ » وهذا عجب ! الجوهر الفرد قواء مادية باستخراجها يرفعنا مادياً ، ولكن هذه النفس الانسانية باستخراج ما فيها من القوى ترجع إلى أصل هذا الوجود وهو الله ، فنخطأ به قائلين : « إياك نعبد وإياك نستعين » .

يا عجب ! هذا الانسان المركب من ذرات أرضية وما حولها يركع ويقول : « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت الخ » ، ويقول : « سجدت وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره » .

هذا الانسان الصغير الجسم الضئيل يعاشر الحيوان ، يقف ويخطب خالق هذا العالم كله وطبقاته التي لم يعرف الناس لها حداً إلى الآن ، وفيها شمس يمدونها بالآلاف الملايين وبعضها كما في الجوزاء أكبر من شمسنا (٢٥) مليون مرة ، وضوء شمسنا بالنسبة لها أصغر صغير . سبحان الله : أهذا الانسان هو الذي يخاطب خالق هذه العوالم كلها ، ثم هو نفسه الذي يفسد في الشرق والغرب ، وفي أعلى وفي أسفل ، في ثانية واحدة نعم الانسان هذا وصفه ، وهذه حاله ، أيقظ الأنبياء وهذبوه وربوه ، وغاية الأمر أن الديانات القديمة كانت تنزل على الناس بمقتضى استعدادهم ، وكل دين أرقى مما قبله ، ولما جاء ديننا رفع تلك الشبهات والخرافات ، لأن الله يريد أمماً أرقى من السابقة موحدتين صادقين ، وقد أحسن جميع الأمم أن تتحد به ، وما من دين إلا وقد أحسن متبعيه بالصلاة والتوجه لله ، ألم تر إلى غاندي المصلح الهندي الشهير ، فانظر كيف يصف الصلاة في دينه البوذي الذي نزل به بوذا قبل نزول المسيح عليه السلام ، وكيف نراه يوقن بالصلاة ونفعها ، أنا لا أقول ان هذا الدين لم يفسخ . كلا . هو منسوخ بديننا وإنما الذي يهمني أن أقوله ان وجود الصلاة إلى الآن في دين البوذية ، وإعلان غاندي أن الصلاة نافعة معجزة لديننا ونبينا ، لأن الله يقول : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل الخ » ويقول : « ولقد وصينا

الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله» ، ويقول : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بأذن الله » .  
 فإذا أسمعك ما قاله المهاتما غاندى فى الصلاة فأتى أسمعك مجهزة ، أسمعك شيئا لم تألفه ، أنت تعرف أن اليهود والنصارى لهم صلوات وإن كانت منسوخة بصواتنا ، ولكنك فى الغالب لم تسمع إذا كنت بعيدا عن ديار الهند أن هناك صلوات وإن كانت منسوخة يتلوها قوم وينتفحون بها ، لأن الله رب الناس ورب الحيوان ، أما كون الدين منسوخا فشيء آخر ، وإذا كان المهاتما غاندى ينتفع بالصلاة ، فكيف يكون المسلم إذن ؟ وهذا نص ما قاله بالحرف الواحد . جاء فى جريدة الاهرام يوم ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٣١ تحت العنوان التالى مانصه :

### الصلاة فى نظر المهاتما غاندى

وقم نظرى على أحد أعداد جريدة « الهند الفتاة » الصادرة أخيرا وفيها فذلكة مختصرة عن رأى المهاتما غاندى فى الصلاة فرأيت ترجمتها لكى أشرك اخواننا ( الشبان بالاختصاص ) فى أراء ذلك الرجل العظيم خصوصا أن الكثير منهم ينظر الى الصلاة نظرة استهزاء وسخرية ويعتبر التمسك بها نوعا من الجور قال المهاتما من ضمن أحاديثه على ظهر الباخرة « راجونانا » :

« وربما كانت مسرتى عندما أقوم لصلاة المساء تفوق ما أشعر به من الغبطة والمغزل دائر بيسدى . ويشترك معى فى صلاة المساء جميع أصدقائى من هندوس ومسلمين وبارسين وسينغ أمانى صلاة الصباح المبكرة فلا يشترك معى منهم الا القليل ، ولقد سألتى صديق مسلم عن الصلاة وما أراء منى أن أعطيه وصفا نظريا ولكنه سألنى عما شعرت به نحوها من تجارب عملية ولقد رافقتى سؤاله هذا كثيرا وليس غريبا على أن أصرح على رموس الأشهاد بأنه لم يكن لى سبيل إلى النجاة إلا بسبب الصلاة كما أنى لأنكر الناس أنى لولم اكن أصلى لكنت تضمنى الآن إحدى دور المجازيب . ولقد أتى على حين من الدهر كثير ما لقيته فيه من صرارة العيش ومن اليأس الوقتى الذى رمانى فيه بعض الجاهيلين ما كان أسرع نهوضى من يأسى وقنوطى ببركة صلاتى وقنوتى .

لم تكن الصلاة فيما مضى جزءا لازما من حياتى ولكنها أتت بنت الضرورة حينما وجدت أنى لن أكون سعيدا بدونها وكلما زاد اعتقاد الناس فى الله زادت رغبتهم فى الصلاة . ولربما اكون قد بدأت حياة الاخاد ولكن قد أتى على نور من الله حينما بدأت أشعر بان لزوم الصلاة للروح أكثر من لزوم الاكل للجسم : لان مرض الجسم يحتاج إلى الحية لكى يصح ولكن كلنا يعلم أنه لا يوجد حية من الصلاة لكى تصح الروح ، وفى حين أن التخممة ربما تأتى لنا من كثرة الأكل فاننا لانجد تخمة صلاة للروح

ولقد ترك لنا ثلاثة رجال عظماء وأعنى بهم بوذا ، وعيسى ، ومحمد ، اعترافا بأنهم لم يروا سعادة الحياة الاعلى ضوء مصباح الصلاة كما أن ملايين من الهندوس والمسيحيين والمسلمين الاتقياء لا يجدون لهم سلاوى إلا فى الصلاة وقد يهتفهم البعض كذابين ، ولكنى كباحث عن الحقيقة المجمة أحب أن أو من بهذا الكذب لأنى وجدت أن نتيجة تصديقى له كانت عماء نجاحى ، ومع أنى لا أستبشر خيرا من الجؤ السياسى ولا أرى فى أفقه إلا يأسا فأتى دائما فى غاية الاطمئنان والأمان لدرجة أن الكثيرين صاروا يحسدوننى على اطمئنانى هذا ، وما كل ذلك الا من الصلاة .

انى لست رجل تعاليم راقية ولا فلسفة عميقة ولكنى بكل خضوع يمكننى أن أدعى بأنى رجل صلاة ولست مع كل هذا أعلن كبير أهمية على الطريقة التى بها تؤدى الصلاة فالنتيجة فى النهاية واحدة .

بقيت مسألة صعبة ، وهي أن البعض لا يعتقدون بوجود إله لا يمكنني أن أقول لهذا البعض إلا أن يرى بتلك العلوم التي تربك عقوله عرض الحائط ويسلم بأننا بنى البشر ما أوتينا من العلم الاقيلا فلندرس هذه المسألة بعقل طفل صغير وفي الحقيقة اننا أصغر حتى من الذرة لأن الذرة المتناهية في الصغر تطيع قوانين الطبيعة من شد وجذب وسقوط وارتفاع ، ولكننا بنى الانسان في كبرياء جهلنا رقة آمالنا وعجرفة صلفنا نتف وجها لوجه ضد هذه القوانين ونسكرها . ومادمت قد سلمت بوجود إله وكنت به من المؤمنين فاني لأرى ما يمنعك لحظة واحدة عن الصلاة ولا أقبل فلسفة من يدعى بان مجرد حياتنا في الدنيا هي نوع من العبادة ، وعلى ذلك لالزوم للصلاة لأن الأنبياء أنفسهم وقد كانوا على اتصال دائم بالروح الماوى كانوا يقومون بالصلاة ويجددون إيمانهم كل يوم ، فما أولانا بنى البشر بأن نصلى وتتضرع إلى الله يوميا ونجدد إيماننا . إني أيها الاخوان ضامن لكم بعد ذلك خلوكم بالسك من كل ما يمكن أن يسبب له أقل تهاية أو أدنى شقاء . انتهى بتصرف .

أ . حلمي مطر

( إستاذ علوم من جامعة منشستر )

### فضل الله على الناس

إن الله ذو فضل على الناس ، الناس محبسون في الأرض ، أنا لا أدري كيف كان هذا الانسان قبل أن ينزل إلى الأرض وإنما أنا أصف الانسان الساعة بما وقر في نفسي ، فأقول :  
اني الآن موقن إيقاننا تماما بأن صانع هذا العالم لاحد لرجته ، رحمة وعدل وحكمة وجمال وبهاء وابداع في الصنع ، لا يسع من يقرأ هذا التفسير وما فيه من العلوم إلا أن يقول ذلك ويعتقده ، وليست تعقل نفس بعد هذا أن يكون وجود الناس في الأرض لقصد التعذيب . كلا . فكل عذاب لم يرد به إلا السعادة ، هذا لا أشك فيه ، فهو يقين ( نعم هناك ماهو فوق عالمي وطاقتي ، ولايتسنى لي معرفته ، بل أسلم به ، وأومن به وهو عذاب الكفار الدائم ، فهذا آمنة به ، ولو أننا عرفنا سره لكننا من عالم أرقى من عالمنا ، فكفانا ما عرفنا الآن ، ونسكل أمر الباقي إلى الله ، حتى يطلعنا على السر بعد الموت ان استحققناه ) .  
فإذا كان هذا هو اليقين عندي ، فاني أبني عليه ما يأتي . فأقول : لاهل أرواح الناس كانت قبل نزولها إلى الأرض غيبية جاهلة بتفصيل العوالم ، وان كانت تعرف السكيات فملوها تحيط بالسكيات وتجهل الجزئيات فبعث الله فيها غريزة حب المادة وعشقها فالتحدرت إليها وانغمست فيها وحبت . ومن عجب أن يكون هذا السجن الأرضي أشبه بستان جيل ، وهو أعظم سجن وأبدعه ، وهو يعطينا درسا بأنه يقول لنا : أناسجنتكم في الأرض لأعلمكم ، أرسلت أنبياء وحكماء وعلماء ، وأنزلت ماء ، وأمرتكم بالطهارة والصلاة لتسكموا ، ووضعت فيكم غرائز الطعام ، والشراب ، واللباس ، والحرب ، والعداوات ، ليكون ذلك كله مهمازا يدفعكم إلى العلم والعمل ، وهذا كله هو الرقي والسعادة ، وأوعزت إلى علماء اسبارطه باليونان أن يمرتوا الصبيان من الصغر على تحمل الضرب ، فيشبون على الشجاعة ، وأوعزت إلى بعض قبائل السودان أن يضربوا الشاب أمام الفتيات ضربا موجعا قاسيا فلا يصرخ ، فيستحق أن يتزوج الفتاة لشجاعته ، وألهمت بعض القبائل أن لايتزوج الشاب فتاة فيها إلا اذا قتل سبعا ، أوغرا ، أوخوذ ذلك ، كل ذلك لاستخراج ما كمن في نفوسكم من العجائب والقوى الكامنة ، فلا شجاعة إلا بالتحمل ، ولا أنوار للنفوس إلا بالصلاوات والحكمة والعلم .

أنتم يا أهل الأرض مسجونون ، ولكن الذي سجنكم حكيم ، ولم يرد من السجن ذلكم ، بل أراد استخراج كنوز نفوسكم ورفيها واسعادها .



وقد وضع لكم في الأرض أشجارا وأزهارا وأنهارا وجبالا وأودية وبحارا لتسكون هذه كمالات لكم ،  
تارة بالنصب والتعب في استخراج ما بطن فيها ، وتارة بتعاطي ما فيها من الأغذية والأدوية والثمار ، وكل هذا  
تكميل لكم ، واستخراج لقواكم ، وخير السجون ما جمع بين الحبس والعمل والطهارة ، انظر ما كتبناه في  
(سورة البقرة) عند قوله تعالى : « إن الله يحب المتطهرين » ، وكيف يقول (بنام  
الانجليزى) في كتابه « أصول القوانين » : « إن النظافة والاستمرار في العمل يقللان الجرائم ، والطهارة  
في الشريعة الاسلامية من محاسنها ، فلن ترى نظيفا عاملا إلا وهو بعيد عن الجرائم ، قليل الأوزار » .  
وازن أيها الذكي بين أدنى الحيوان ، وهي تلك الخلايا الصغيرة التي تعيش في الماء ، ولا تموت مطلقا إلا  
بعدو يفاجئها ، أو بانقطاع غذائها ، وكيف تعيش دهورا ودهورا لولا الطوارئ ، كيف كانت حياتها ضئيلة  
من حيث الارتقاء ، وفيها طبعها أرواح ضئيلة ، ثم انظر إلى الحيوانات التي هي أرقى منها وأرقى إلى أن تصل  
إلى الانسان فتجد علما وحكمة ورقيا وشجاعة وقربا إلى الله بالصلاة حتى يقول الله في المسامين : « تراهم  
ركعا سجدا يفتقون فضلا من الله ورضوانا » انتهى الكلام على الجوهرة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين  
كتب صباح يوم الخميس ٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ م .

### الجوهرة الرابعة

في قوله تعالى : « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع  
ليغيظ بهم الكفار »

صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده . لك الحمد اللهم ولك الشكر ،  
ما أعظم نعمك ، إن هذا الزمان هو الذي اشتد فيه ظهور المعجزات ، معجزات النبوة المحمدية ، كيف لا ،  
ألم أذكر في السور الأولى من هذا التفسير أن الفرنسيين انقضوا على بلاد سوريا فقتلوا أهلها فتكادزيعا  
وقتلوا القوم تقتيلا . ألم أقل في (سورة آل عمران) عند قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من  
الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم » . الآيات ، إن هذه الآيات إنما نزلت لأجل رقينا نحن  
أبناء المسامين عموما ، والعرب خصوصا ، وقلت ان (الم) في أول السورة تشير إلى هذه القصة المبتدأة بهذه  
الحروف (الم) وأن اليهود لما انكلوا على شفاعة آبائهم ، وعلى تخفيف العذاب عنهم يوم القيامة ذهب  
ملكهم ، وملك المسامون بلادهم ، وقلت إن المسلمين اليوم قد دخل عليهم من الخرافات والجهل في الدين  
ما أزال نخوتهم ، وفرق جمعهم ، وأبنت هناك أن أبناء العرب من بحر الظلمات ، وهو المحيط الاطلانطيقي ،  
وبلاد السودان إلى بلاد العراق والموصل وما بينهما متفرقون مع أن بلادهم متلاصقة وتفرقهم إنما جاء من  
الجهل المحيط بهم ومن بعض الشيوخ المخرفين والرؤساء المغرورين الدجالين وما أكثرهم في بلاد الاسلام ،  
هذا نموذج لما قلته هناك من أسرار (الم) التي نزلت ليقاظنا نحن الآن ، لأننا نحن الذين حبستنا أي  
الأرض ، ونحن في حاجة إلى الهداية ، فهدايتنا جاء بعضها عن طريق هذا الرمز العجيب ، كنت أقول  
هذا هناك وأنا واثق برقي هذه الأمة ، ولكن لم يكن ليخطر لي أن هذا الرقي أصبح قاب قوسين . كلا .  
أنا كنت واثقا برقي المسلمين عموما وأبناء العرب خصوصا ولكن هل كان يدور بخلدني أنني أعيش حتى أقرأ  
ما سقسه أيها الذكي الآن ؟ بل هل كان يهيجس في خاطري ، أو تحدثني نفسي بأن ما سقسه الآن يحصل  
ونفس هذا التفسير لا يزال يطبع . كلا . لم يكن ذلك بخلدني ، ولكن زماننا هذا زمان انقلاب في كل شيء  
انقلاب في الشرق ، وانقلاب في الغرب حتى أقرأ اليوم في جريدة الاهرام أثناء طبع هذه السورة يوم ٤ نوفمبر

سنة ١٩٣١ تحت عنوان « العراق وعصبة الأمم » وهذا نصه :  
 « جنيف في ٢ نوفمبر ( روتر ) قال السرفرئيس همفريز المندوب السامي البريطاني في العراق أمام لجنة الانتداب : « في أيديكم مفتاح الباب الذي لابد لهذه البلاد النامية من المرور فيه إلى الباطن التام والتحرير الكامل ، فأسألكم أن تفتحوا هذا الباب . وقال أيضا : ان العراق برهنت على أنها أهل للقبول في مجمع الأمم المتمتدة الراقية » . انتهى . وعلمت الجريدة على هذا التلغراف بمقال هذا نصه :

### العراق وعصبة الأمم

بعد إلغاء الانتداب ، ومستقبل الحالة في سورية  
 خطب السرفرئيس همفريز المندوب السامي البريطاني في العراق أمس أمام لجنة الانتدابات الدائمة في جنيف مؤيدا طلب انضمام العراق الى عصبة الأمم بعبارات مؤثرة .  
 والذي نعرفه أن مسألة انضمام العراق الى العصبة في السنة المقبلة قد بت نهائيا بين الدول وأنه لم يبق لتقريرها رسميا الا بعض معاملات شكاية لا تؤثر في الموضوع ، وانضمام العراق الى العصبة يعني إلغاء الانتداب الذي فرض عليها في مؤتمر سان ريمو فرضا . وقد رفضته منذ إعلانه وتمسكت بهذا الرفض الى النهاية . ولم تشأ انجلترا أن تضيف الى مشاكلها الكثيرة في تلك البلاد مشكلة أخرى بمحاولة اكراهها على الاعتراف رسميا بالانتداب ، بل جعلت علاقاتها معها على أساس المعاهدات المعقودة في سنة ١٩٣١ ثم في سنتي ١٩٣٦ و ١٩٣٨ . وقد كفلت لنفسها في هذه المعاهدات الاشراف على المصالح المسؤولة عنها لدى عصبة الأمم بصفتها دولة منتدبة ، ومكنت العراق في الوقت نفسه من عدم الاعتراف بالانتداب وعدم التقييد بنصوصه وأحكامه ، فكانت دولة منتدبة على العراق في نظر عصبة الأمم ودولة مخالفة له في نظر حكومة بغداد . على أن الشعب العراقي الذي رفض الانتداب رسميا لم يسعه القبول به ضمنا تحت ستار المعاهدات ، فكان دائما يطالب بتعديل ما يراه ماسا باستقلاله ، من موادها وكانت معظم الوزارات التي توالى في دست الحكم تصطدم بالانجليز من جراء ذلك فتفوز ببعض الشيء أحيانا وتفشل أحيانا الى أن وقع الاصطدام الأخير مع وزارة المرحوم عبد المحسن السعدون ، وهو الاصطدام الذي أدى الى انتحاره بعد ما بددت الآمال التي عقدتها على حسن نيتهم وشعر بقوة ضغط الشعب عليه وضياع مركزه لدى الوطنيين من أبنائه . ووقع اصطدام آخر أثاره الهاشمي باشا وزير المالية في عهد وزارة ناجي باشا السويدي . وبلغت الأزمة حينئذ أقصى حد من التعقد حتى خيل الى الجمهور أن الملك سيحجز عن تأليف وزارة جديدة .

ودارت مباحثات خطيرة في تلك الأثناء حلت جلالاته على الاقتناع بأنه أصبح في الامكان الوصول الى اتفاق مع الانجليز ، فأقنع نوري باشا السعيد بذلك وعهد اليه في تأليف وزارة اشترك فيها بعض الوطنيين المتطرفين ، وأسفرت المفاوضات التي قامت بها وزارة نوري باشا السعيد عن عقد معاهدة تنص على الجلاء والاستقلال ، ولاتبقى لانجلترا من مظاهر السيطرة غير ثلاثة مطارات اثنان منها غربي الفرات والثالث في جهات البصرة . ولم تقابل هذه المعاهدة على ما فيها من مزايا لا يستهان بها بارتياح المقامات الوطنية اطول مدتها من جهة ، ولأن العراقيين يريدون استقلالاً خالصاً من كل شائبة من جهة أخرى .

وقد أيدت انجلترا طلب العراق الانضمام الى عصبة الأمم ، وأعلنت أنه أصبح في حالة من الرقي لا يحتاج معها الى إرشاد دولة منتدبة . وسيدخل العراق العصبة في السنة القادمة على أساس المساواة التامة مع الدول المشتركة فيها ومن دون أقل قيد أو تحفظ يتعلق بالأقليات أو غيرها ، سوى القيود التي تنص عليها المعاهدات العامة ، كما صرح جلالة الملك فيصل المندوب الاكرام في أثناء مروره أخيرا بالاسكندرية .

ومتى دخلت العراق عصابة الأمم وخطت هذه الخطوة الواسعة في طريق استقلالها . تهذر إبقاء البلاد المجاورة لها ، والتي هي أقرب الى الحضارة منها تحت الانتداب . وهذا ما أدركته فرنسا وصرح به مندوبها أخيرا في عصابة الأمم . فالطريق الذي سار عليه العراق ستسير عليه سوريا أيضا إذ لا يسهل أن يقبل السوريون - كما قال ممثل فرنسا لدى لجنة الانتدابات - بنظام أبعد عن الاستقلال من نظام العراق ، مع كونهم لا يقلون عن العراقيين سلما وحضارة وخبرة في شؤون الحكم .

وخلاصة القول : أن دخول العراق عصابة الأمم سيكون فاتحة دور جديد في تاريخ الشرق الأدنى ومقدمة لانقلابات سياسية خطيرة قد تكون في مصلحته ومصلحة السلم . انتهى ماجاء في جريدة الاهرام أقول : هل كان يخطر لي وأنا حيّ أرزق ، ونفس هذا التفسير يطبع أن أسمع أن العراق وسوريا على أبواب الاستقلال . اللهم انك أنت الواسع المغفرة ، الحكيم العليم العدل ، أعدت إلى الشرق شرفه وكراله وعزته بعد أن أدبته ورقيقته بالنوازل والمحن ، إن كتاب ( بالتشديد ) زماننا المسلمين خصوصا والشرقيين عموما من أسعد الكتاب ( بالتشديد ) في الأرض ، لأنهم يرون ما يدعون اليه من الرقي قريب المال ، سريع الحصول ، والله هو الوليّ الحيد . انتهى الكلام على الجوهرة الرابعة والحمد لله رب العالمين .

## الفتح الاسلامي في زماننا

### وآثار النبوة المحمدية في نهضة الشرق الأقصى

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والحكمة ، وعلى الفتح المبين ، اللهم إنك أنت الفتح العليم ، المحسن المهيمن ، الجليل الرحيم . تالله لم يكن ليخطر لي في الخيال ، ولا في الأمانى ، ولا في الأحلام ، أن أقف في حياتي قبل أن أموت على ما سمعت به الآن عن بلاد الاسلام من الفتح الاسلامي المبين ، حقا إن هذا زمان الفتح المبين ، الذي يضاهي الفتح المبين أيام النبوة ، وأيام عصر الصحابة والتابعين ، نعم هو حق ، هو حق وصدق مبين ، كيف لا وقد كنت قبل اليوم أظن في نفسي أن هذا التفسير ربما تقرأه أمم قراء جديده بعد موتي ، وتشور به في وجه الجهالة العمياء ، فتطمس معالمها ، وتزهق روحها ، وتجعلها في خبر كان . كنت أقول ذلك أشبه بالأمانى والأحلام ، ومعلوم أن الأمانى والأحلام تضليل ، ولكن ماذا حدث ؟ اليوم ، حدث ما لا عين رأت إلا قليلا ، ولا أذن سمعت إلا نادرا ، ولا خطر على قلب كثير من المؤلفين ، حدث ما ذكرته في تفسير البسملة في أول هذه السورة من حضور الشاب التركستاني الذي قصّ على أخبارا ونشرها في الجرائد فوق ما كتبه في أول السورة ، هذا الشاب اليوم أي في شهر ديسمبر سنة ١٩٣٩ م قد قبل في كلية الآداب في علم الفلسفة في الجامعة المصرية ، فذا يقول ؟ يقول : لقد فتحت مدارس في بلادنا التركستان الصينية ، ودرسنا فيها العلوم الحديثة ، وأنا درستنا فيها ، وأن السبب في ذلك انتشار كتاب « نظام العالم والأمم » و « التاج المرصع » ، ومثل بلادنا بلاد الصين ومسلموها نحو (٧٠) مليونا ، وبعض أهل اليابان أسلموا ، واتصلوا باخوانهم في التركستان والصين ، واسلام أهل اليابان بسبب رجل من بلاد التتار أحضر لهم « التاج المرصع » مترجما (انظر مقالة تحت عنوان معالومات جديدة في المقطم يوم ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٩) أكتب هذا الآن ذاكرا نعم الله عز وجل ، أكتبه وأنادهش أن بعض الكتب التي سبقته ونشرت قبله قد أدّت الغرض المقصود الذي كنت أرجوه منه بعد مفارقتي هذه الدار .

إن هذه الأخبار فيها معان سامية ، ومهرام شريفة ، وأسرارها ما بعدها فتح سريع ، وخطوات واسعة ، اتصل المسلمون اتصالا لم يعمدوه ، وانتشر الاسلام انتشارا غريبا لم نهده ، واتصل الافريقى بالاندنوسى ، والجاوى والسومطرى ، والصينى واليابانى ، والأفغانى والهندي والتركستاني ، والتتارى والقازانى . اتصل

المسلمون ، اتسلاوا اتصالا لم يهتدوه .

هذا من آثار : « إنا فتحنك لك فتحننا مينا » فرحم الله الشيخ السباغ لأنه هو الذي قرأت عنه أن الفتح معناه الفتح العالمي ، ذلك الفتح الذي نشر أيام النبوة في سائر الأقطار ، ثم أصبحت بقايا العلم الاسلامي أشبه ببقايا الماء الآسن في البرك والمستنقعات ، ثم كانت الحركة العلمية الحاضرة ، فانبث المسلمون ونفضوا غبار النمل ، وغادروا الكسل ، وأخذوا يجتهدون مجدا مضى ، وعزّا قضي ، وسعادة أدبرت وملا كاهب ، وأخذنا نسمع باقترابهم وتواصلهم ، فله الحمد وله المنة .

أكتب هذا وسبقوه شبان هم يعيشون الآن معنا في هذه الحياة الدنيا وهم مفكرون ، وآخرون لا يزالون صبيانا ، وآخرون هم أجنة في بطون أمهاتهم ، وآخرون هم في ظهور أصلاب آبائهم . كل هؤلاء وهؤلاء سيقومون ما كتبناه الآن أو يسمعون به فيبعث في قلوبهم من الحجة العلمية الاسلامية مالا أعلمه أنا ولا أكثر المسلمين الحاليين ، وسيحدث ذلك في قلوبهم شهورا قويا يحملهم على ركوب الطيارات التي أنا الآن وأنا أكتب هذا في صباح يوم الأربعاء ٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ بعد الفجر ، كآني أراهم فوق طياراتهم راكبين من بلاد التركستان الصينية ، أو البلاد اليابانية ، أو البلاد الصينية ، وقد وصلوا بها إلى البلاد المراكشية والجزائرية والتونسية وهم يحلقون فوق رهوس إخوانهم المسلمين ، وقد قابلوهم بالتصفيق والفرح المبين ، هذا هو الذي أتخيله الآن ، كأنه حقيقة أراها بعيني ، ولقد أطمعني ما تحقق من انتشار ما أكتبه وذيوعه في بلاد الاسلام أن هذه الحقيقة قد قرب وقتها ، وأظلل زمانها ، وأقبل حينها : « ولها من نبأ بعد حين » وهكذا يقابل المصري والسوري والمراكشي والطرابلسي جيل شبان الشرق الأقصى بعثله ، فيركبون طياراتهم ، ويردون إليهم الزيارة قاصدين الأفغان والتركستان والصين واليابان والهند وإيران وبلاد الترك وغيرها من بلاد الاسلام . كل هذا خيال اليوم وحقيقة الغد « ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » .

ومالي أذهب بعيدا ، إن زماننا زمان انقلاب اسلامي عجيب ! فبينما يخبرني هذا الشاب التركستاني المابفة الذي يجيد أربع لغات ، وهول يتجاوز الثانية والعشرين بما ذكرت عن الشرق الأقصى ، وتسمع أذني هذه الأخبار السارة العجيبة ، إذا بالجرائد والأخبار تأتي سراعا بأخبار مدهشة ، ذلك أن المسلمين اجتمعوا في مؤتمر إسلامي عام في القدس في ٧ ديسمبر سنة ١٩٣١ وتلقت رئاسة المؤتمر بركات التأييد من الملك علي بن الحسين والأمير عبد الله أمير شرق الأردن ، والامام يحيى عامل اليمن ، وخديوم مصر السابق ، وقد حضر المؤتمر مندوبو البوسنة والهرسك واليوغسلاف والهرب ، وكانوا يكررون صارا « الله أكبر ، الله أكبر » عند ذكر أسمائهم والحضور نحو (٢٠) ألفا . ثم اشتغل المؤتمر بتأليف لجانه الفرعية ، فقرآن بحرى تأليف اللجان الآتية : —

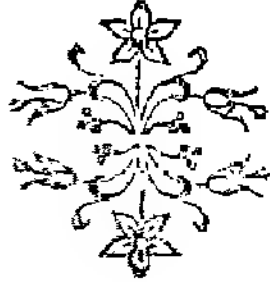
- (١) لجنة المحافظة على الأماكن المقدسة والبراق .
- (٢) لجنة الثقافة الاسلامية وجامعة المسجد الأقصى .
- (٣) لجنة سكة حديد الحجاز .
- (٤) لجنة الاقتراحات .
- (٥) لجنة الدعاية والنشر .
- (٦) لجنة الوعظ والارشاد .
- (٧) لجنة المالية والتنظيم .
- (٨) لجنة القانون الأساسي .

هذا ماجاء في الجرائد المصرية يوم ٨ ديسمبر سنة ١٩٣١ أثناء طبع هذه السورة .



اللهم إنا نحمدك ونشكرك ، أسألك صنعك ، وأجابت تدبيرك ، وبطلت تفسير هذه السورة موافقا في زمان طبعه طائفة حضور الشاب التركستاني إلى البلاد المصرية يحمل لنا نبأ بلاده ، ولما دثته المؤثر الذي هو الآن منبثق في فلسطين ، وقد حضره مندوبون من أكثر أقطار الإسلام .

اللهم إنا هذا هو النصر المبين ، وهو عينه الفتح الإسلامي . اللهم إنا المسلمين اليوم أشبه بالمسلمين أيام النبوة قبيل الهجرة ، ففتحهم الآن فتح علمي سامي تليسي ، وسيعقبه قريبا الفتح السياسي العظيم ، وسيكون المسلمون مباحي النظام العام ، وسعاة العدل والرجة لسائر الأمم والأجناس ، وسيكونون « خير أمة أخرجت للناس » يحملون السلام لأهل الأرض ، لأن فتحهم فتح علمي ، والأمم الآن سيكون فتحها فتحا علميا ، لأن الناس اليوم يسمعون ويستقون ، وإلى هنا تم الكلام على ﴿ سورة الفتح ﴾ والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأربعاء ٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ م



## تفسير سورة الحجرات

( هي مدنية )

آياتها ١٨ — نزلت بعد المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ \*  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ  
بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ \* إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ  
عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ أُمْتَحَنُ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ لِيَتَّقُوا اللَّهَ لَّهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ \*  
إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ \* وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ  
إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ  
فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ \* وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ  
اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي  
قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ \* فَضَلَّ مِنْ  
اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ \* وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ  
بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِي إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا  
بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ \* إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ  
أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى  
أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ  
وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأُسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ  
الظَّالِمُونَ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا  
وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمُ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا  
اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ \* يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ \* قَالَتِ الْأَعْرَابُ  
 ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ  
 وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا  
 بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمْ  
 الصَّادِقُونَ \* قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ  
 بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ \* يَمْشُونَ عَلَىكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَتَّبِعُوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ  
 عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
 وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ \*

### هذه السورة ثلاثة أقسام

﴿ القسم الأول ﴾ في تفسير البسملة .

﴿ القسم الثاني ﴾ في آداب المؤمنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول السورة إلى قوله تعالى

« والله غفور رحيم » .

﴿ القسم الثالث ﴾ في آداب المؤمنين بعضهم مع بعض من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم

فاسق بنبأ فتبينوا » إلى آخر السورة .

### القسم الأول في تفسير البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم

جرت عادة الشعراء أن يبدعوا قصائدهم بالفهرام ، ليكون ذلك داعية لاستماع القائل ما بعده ، يصف جمال  
 المرأة ومحاسنها ، فيصني السامعون للشاعر ، ثم ينتقل بهم إلى المدح ، فالاستجداء ، فيخرج بالجواهر السنية ،  
 والهيئات الذهبية ، ولقد تقدم أن الخلفاء الراشدين منعوا ذلك ، أما القرآن فان براعته استهلاله بالبسملة ،  
 والبسملة تصف الله بالرحمة ، رحمة هي مصدر جمال الرجال والنساء ، وجمال النجوم والجبال والشجر والدواب  
 وما جمال الفتيات الساحر إلا أثر من آثار الرحمة ، ولكنه جمال يهيج الشهوات ، والشهوات غريزية في  
 الناس ، فليست في حاجة إلى ما يهيجها ، والأمم اليوم في حاجة إلى إثارة ما كن من صفات السكال في الناس  
 وفي آثار الرحمة من الجمال ملاحظه .

واقعد شرح الله الرحمة فجعل لها سورة بأكلها ، فقال : « الرحمن علم القرآن الخ » ، إذن سورة  
 الرحمن الآتية من مفعولات الرحمة في البسملة كما قدمنا في غير هذا المكان ، فصلت الرحمة هناك تفصيلا واضحاً ،  
 وفي ﴿ سورة الفتح ﴾ قبل هذه السورة جعلت أصول الرحمة هناك الفتح وهو انكشاف الحقائق الذي ترتب  
 عليه كل فتح في الاسلام ، فاذا قيل في ﴿ سورة الرحمن ﴾ : « الرحمن علم القرآن » ففي ﴿ سورة الفتح ﴾  
 يقال : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » ، وعلى هذا الفتح دانت أمم وأمم ، وفتحت بلاد وبلاد ، أما الرحمة  
 في هذه السورة ، فاعلم هي الرحمة العملية ، أي رحمة الفضائل والأخلاق :

- (١) أدب مع النبي صلى الله عليه وسلم وعدم رفع الصوت حتمه .
- (٢) وعدم الإصغاء إلى نقل الكلام حتى يتكلم السابق ويبطل الباطل .
- (٣) والصالح بين الطائفتين .
- (٤) واحترام الاخوة الاسلامية .
- (٥) واجتناب الاستهزاء والسخرية ، وكل فعل يؤذي الاخوان .
- (٦) وترك المز .
- (٧) والتناوب بالألقاب ، والسباب .
- (٨) واجتناب كثير من الظن .
- (٩) والتجسس .
- (١٠) وترك الغيبة ونحو ذلك .
- (١١) ثم التعارف .
- (١٢) والايمان بالبرهان واليقين .

ولما أتممت هذا المقال ، جاء صاحبي الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير ، فقال : كأنك فهمت أن الرحمة هنا موجهة إلى ما في السورة وهي المطالب الثانية عشرة . فقلت : إن الرحمة عامة ، وههنا جاءت هذه المطالب تذكرة بها ، وأمثلة لها ، وهذه من المطالب التي نقلت عن سيدنا علي كرم الله وجهه ورضي عنه إذ قال : « لو شئت لأوقرت سبعين بهيرا في تفسير البسملة » أوامعنا فهو من نحو هذا الباب دخوله ، ومن هذه الناحية وجهته ، وبها وصوله ، وإن كان له علم فوق ما عرفناه وحكمة فوق ما ألفناه ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله . فقال : إنك قد جعلت أكثر السور على هذا النحو ، فانك قد فسرت البسملة في أكثر السور بالمطالب التي فيها ، فجعلت تلك المطالب مثلا للرحمة كما هنا ، ولكن يخيل لي أن في هذه السورة طرائف مستحدثة ، وبدائع مستعسنة ، ولكن لأجد في لساني قدرة على التحرير والتصوير ، ولا في جناني قوة على التقدير والتفكير . فقلت نعم ههنا معان شريفة ، ودقائق منيفة ، ولطائف بديعة ، وعوارف رفيعة ، وجواهر مكنونة ، وطرائف مصونة ، وطرائق مسنونة . افتارعاك الله إلى هذه الآيات ، ففيها آداب الأمم ، وأحوال اجتماعها وتعارفها ، بحيث لا يكون هناك اختلاف ، ولا اضطراب ، ولا غيبة ، ولا نعمة ، ولا حرب ولا جدال .

وههنا يبدو للخطوط سؤال ، فيقال : إن الله هو الرحمن الرحيم ، ومن أجل الرحمة أن لا يجعل في النوع الانساني هذه المثالب ، وأن يخلصهم من تلك الشوائب ، حتى لا يعوزهم النصائح القرآنية ، ولا الزواج الاسلامي ، وهذا السؤال يعوزه بحث هام ، وتنقيب عن مصادر هذه العوالم ومواردها ، وأولها وآخرها ، حتى نفهم الرحمة ، ونعرف هاتيك الآيات البينات .

اعلم أهلك الله الحكمة ، وجنبك الزلل ، وأماط عنك الفوائل ، وألبسك ثوب الوقار ، أن ما نراه من هذا الوجود الذي اختلط فيه الخبيث والطيب ، والحسن والقبيح ، ان هو إلا حركات في خيال هذه الأكران وخطرات فيه كالأوهام .

لقد علمت أيها الأنح الذكي مما مرّ بك في سورة النور أن الجواهر الفردة والنرات التي وصل إليها التحليل ليست هي بمادة ، وما هذه المسماة بالمادة إلا نقاط كهربائية يجري سالبها حول موجبها ، أما نحو ستة آلاف ملايين الملايين ، وأما أقل ، وأما أكثر ، فإن كانت أقل ، فلتسكن الأنوار والأصوات ، وإن كانت أكثر فلتسكن الأجسام الصلبة ، والأجسام الثقيلة ، ولقد مرّ هذا غير مرّة في هذا التفسير .



سبحانك اللهم وبمحمدك ، أنت القدوس ، جميل جليل ، لا إله إلا أنت ، ان عالمك إلا حركات ، فما هذه الحركات ؟ هي حركات في أثير ، وما هو الأثير ؟ وما المحرك لها في ذلك الأثير ؟ إلى هنا وقفت عقول الأمم في زماننا ، وصفوا الأثير بأنه عالم لو جسم لكان أثقل من الحديد أضعافا مضاعفة ، انظر هذا المقام في أول ﴿سورة الصافات﴾ ولكن لا يحجم له ، ولا يحس به ولا يرى ، ونحن نقول إذن هو خيالنا .

الله أكبر : إن في خيالنا حركات ، وتلك الحركات لها وجود حقا ، ولكن حركات خيالنا نتائجها معقولات لها نتائج في خارج أجسامنا وأعمالنا في رقي مدتنا ، ونظام أخلاقنا ، إذن هي موجودة وحركات العوالم موجودة ، ووجود ما في أذهاننا ضعيف ، ووجود ما في الخارج قوى ، فالأول سريع الزوال ، والثاني نراه آمادا طويلة ، ولكن الأصل هو الحركات على كل تقدير ، فلتقدم الأحجار والجبال والنجوم ، ولتعرض دهورا ودهورا ، ثم تفتي ، ولكنها معدومة أوفى حكم المعدومة ، فهذا الجبل الذي نراه ، والحجر الذي فيه ، والشمس والقمر ، والشجر والذباب ، كهن حركات وأضواء متراكبات ، ظهرت للعيون بهيئات مختلفات ، ولكن العلم يقول . كلا . ثم كلا . أيتها العيون ، أيتها الأسماع ، لا وجود ، لا وجود ، كل هذا حركات ، والمحرك لا نراه ، له وجود كامل ، وهو تام الرحمة ، ومن رحمته انه أراد أن يصور في هذه المجهول أرواحا ويألمها علما ، ويحبها ويحبها ، فإذا يصنع ؟ صنع هذه الحركات ، فأبرز بها نور الكهر باء ، فضغطه ، فتراكم وازدحم وانحصر انحصارا شديدا في الذرات والجواهر الفردة ، وبهذا التراكم أصبح مشاهدا محسوسا ، وما عوالمنا إلا تنوع وتجديد ، واختلاف في الصور والأشكال ، وإذا كان أصل العوالم سالب الكهر باء وموجبها ، فهكذا نشأت كلها على هذا النمط ، سماء وأرض ، وجاد وحيران ، أعلى وأسفل ، حي وميت ، أسود وأبيض ، رفيع ووضيع ، كافر ومؤمن ، عالم وجاهل ، ماوك وسوقه ، ذكي وبليد . وهناك تفاعل وتفاعل ، فهذا التفاعل به دوام الوجود وترقى هذه الصور تعيش الأرواح الحيوانية ، وهي لأحياء لها إلا بهذه الصور التي مبدؤها تلك الحركات ، وأقرب شيء إلينا مامر في ﴿سورة الفتح﴾ من أن في كل قطرة كسن الابرة لا تزيد على جزء من عشرين ألف جزء من البوصة المربعة خمسة ملايين خلية جرام بها يحمر الدم ، وهي عاملة فاصبة جاهدة ، وتسعة آلاف خلية بيضاء هي المدافعة عن المملكة الجسمية ، لتحافظ عليها من الذرات الداخلات في الجسم لاهلاكه ، إذن أرواحنا لا ارتقاء لها إلا في جو مشبع بالعراك والخلاف ، والاشتباك ، والاختلاط ، والاختلاج ، وكل أم يتبعها ولدها ، فإذا كان هذا هو الأصل البعيد والأصل القريب ، والأخير يشبه الأول فهكذا تكون هذه النفوس ، ففيها تكون العداوات والشحناء ، والحسد والبغضاء ، كما تكون المحبة والولاء والشوق بالوجدان .

هذه طبائع عوالمنا ما هي إلا حركات ، والحركات متضادات ، وبغير هذا لا وجود للمادة ، والمادة فيها تربي الأرواح ﴿وبعبارة أخرى﴾ ان وجود العالم وجود ناقص والانسان تبع للناقص مستمد منه ناتج عنه ، والنتائج على مقتضى المقدمات ، ولقد قلنا أن الله رحيم ، ومن أجل رحمته أنه يخلق خلقا من روحه هو وهي النفوس الانسانية ، وهذه النفوس أيضا ناقصة ، ولا كمال لها إلا بالتطور والتشكل ، والتطور والتشكل إنما يكونا في المادة ، والمادة ناقصة ، فإذا كان هذا طبع الوجود الناقص ، طبعه التناقض ، فلم تبق إلا مرتبة واحدة وهي تصفية هذه الأخطا ، وإزالة هذه النقائص ، لذلك أنزل الأنبياء والحكمة في الأرض ، فأعطوا الناس دروس المحبة والمودة والموعظة الحسنة ، ومنها هذه السورة ، فالله (وان كان رحيمًا) لا يخلق المستحيل ، ومن المستحيل أن تخلق أرواحنا كاملة ، كما كان من المستحيل أن يكون للمادة بوجود أولى ، فإذا كان أصل الوجود المادي معدوما فالكمال معدوم من باب أولى ، فمن الرحمة انتهاج خطة ارتقاء النفس في مدارج الكمال ، وهذا هو الذي جاء في ﴿سورة الحجرات﴾ .

إن ارتقاء النفوس البشرية لا يسير إلا بالتدرج نحو الكمال ، فليست كل نفس في أول حياتهم كالأسود دراسة وكالأنعام شراة ، فليرتفعهم العلم إلى درجات الملائكة الكرام ، والوجود الكامل لخير صانع العالم مستحيل فقول القائل : لم يخلق الله نفوسنا ناقصة ثم هو يكملها ، وهلا خلقها كاملة من أول وهلة ؟ معناه لم يكن كل إنسان أصلا للوجود ، وبعبارة أخرى : لم يكن كل إنسان إلهيا إذ لا كمال إلا له ، فإذا خلقنا نحن كاملين فعنه أنا آلهة ، وهذه هي الحقيقة ، كل ما عدا ما صنع العالم أصله الصدم والوجود طارئ عليه وهو لا يقبل من الوجود الطارئ إلا قليلا قليلا حتى يصل للكمال الذي يليق به ، وبعبارة أخرى أيضا : يصل إلى مرتبة لا يتعداها ، وغيره يصل إلى أقل أو أكثر منه ، هذه هي الحقيقة ، وهذا هو جواب أصل السؤال

### جمال في جمال

يخيل لي وأنا أكتب هذا الموضوع أن كل ذرات الوجود مشرقات ، وانها تفتتحت أكمالها ، وازدهرت فأشرق الأنوار المحبوبة فيها التي يحاول علماء الألمان وروسيا استخراجها للاقتفاع بها في الأعمال ، وكأنها كلها الآن مضيئة .

الله أكبر : نعم كلها موسيقى ، ألم تر أن حركاتها منتظمات ، ألم تر أن حركاتها في النور تكون من أربعمائة مليون مليون في الثانية إلى ٧٠٠ مليون مليون فيها ، أي من ابتداء لون الحرة إلى انتهاء لون البنفسجي . جميل والله هذه المناظر ، حركات تعد بالملايين في الثانية في ذرات لا حصر لعددتها ، قد حجب روحها عنها ، روح التي تعيش في وسط هذه الأنوار وهذه الحركات ، روح المسكينة المحبوبة الممنوعة عن أن تسمع تلك الحركات وتشاهد تلك الأنوار ، نعم حجبها الله ، حجبها عن ذلك الجمال وعن تلك الأنوار رجة منه بروحي ، لأنها لو سمعت تلك الموسيقى ، أورت تلك الأنوار ، وشاهدت أساليبها في الحديد والنحاس والرصاص والماء والهواء والجمال ، وشاهدت أفانينها المختلفة ، وضروبها العجيبة ، وسمعت تلك الأغاني ، وأنواع الموسيقى ، وضروب اللحن الشجية لذابت من اللذة ، وهلكت من وفرة الجمال ، أنا الآن أعيش في جمال منظور ، وجمال مسموع ، ولكنني عنه محجوب ، رجة من الله بي .

ومن رحته بالحيوان أيضا انه غشى على عقله ، وعلى بصره ، وعلى سمعه ، وشغله بتحصيل قوته ، ومطاردة عدوه ، ولولا ذلك لشاهد تلك الأنوار ، ولذهل من جمال الأصوات في موسيقى النرات . ألم تر أن الجمال تهيم عند سماعها للفناء ، وأن الحيتان في البحار العظيمة تصطاد بالآلات المطربات الشجيات النغمات ، إذن الجمال محبوب عند كل حيوان كما هو محبوب عند الإنسان ، فكان احتجابه عنه رجة به ، والا هلك الأولون والآخرون .

الذرات مركبات من جمال وباختلاف حركاتها وتنوع صورها كان هذا الوجود ، المملوء بالتناقضات المؤلمات المؤذيات ، من الحرّ والبرد ، والخلو والمليء ، والخبيث والطيب ، ولكن أصل الوجود غلب عليه وهو الجمال ، ألا ترى إلى الشجرات المزهرات ، والشموس الطالعات ، ألم تركب ترى صباحا قطرات الندى على الورق وهي أشبه بقطع الماس الجيلات ، ألم تركب يستبين لك منظر نسيج العنكبوت ، وقد جلله الندى بهيئة خيمة من الجواهر البديعة والماس المشرق البهيج ، غلب الجمال على ظواهر الطبيعة بعد أن ظهرت بظهور الغضوب الشموس ، لأنها تريد أن ترجع إلى أصلها ، وتظهر أصل جمالها ، فإذا غاب عنا تنوع حركات السكرباء في الترات من حيث جمال ألوان أضوائها ، وبهجة موسيقاها ، فوالله لم يغيب عن عيوننا مشاهدة باهر جمالها في الليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، فالجمال باق وان أحاطت به المؤلمات والمزعجات ، والإنسان يشاهد ذلك ، والعناية الإلهية تريد أن ترقيه ، فإذا تصنع ؟ خلقت فيه قوى متضادة ، وألهته

بالحسد والحقد والعداوات والحروب ، وقالت أيها المسلمون : عاربوا كل من يؤذيك وأنتم تفسرون دعوة الاسلام ، وياعلماء الألمان والرومان والروسيا وجميع أوروبا اخترعوا المهلكات ، وابتسدهوا ما تشاءون من المندرات ، واشغلوا نفوسكم بذلك حتى تغيب عقولكم عما أمامكم من الجبال الذي ينم على أصل الجبال ، وبهذه الشواغل تعيشون أمدا مقظرا ، ولأن الجبال غاب عقولكم عما تشاهدون ولم تشبه شوائب الحسد والطمع والمباراة والمنافسة طلبكم واصرتم في خبر كان .

وهذه المزعجات جعلت رياضة لكم ، ليكون الكمال الوارد إليكم قليلا قليلا بقدر ما تسمح به قواكم فتستنبطونه استنباطا في أثناء مجادلانكم . كما ان خير الماء كل في صحة أبدانكم ما كان غير مركز فتأخذ منه الخلايا حظها قليلا قليلا . فأما الأغذية المركزة فانها تعطي على الجسم شرا طفيان ، فتكون فيه بشور وقروح وأصراض .

إن كل ما أخذ بلائيب ونصب ، فهو عنده من ناله صريح منبوء ، لا تعيره نفسه التفاتا ، ولا له عندها منزلة ، فكل مبدول مغرور ، وأحب شيء إلى الانسان ما منع .

فلما سمع صاحبي ذلك وهو شديد الاصفاء إلى . قال : إن هذا لون آخر من ألوان العلم ، وصورة محبرة ، ونعمة ونعيم ، وحكمة من الله الحكيم العليم ، لم يرد على نعطها درس فيما درسناه ، ولم نر لها شيئا فيما قرأناه . فقلت : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . انتهى الكلام على القسم الأول في تفسير السورة ، والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣٦ م

## القسم الثاني من السورة

### التفسير اللفظي للسورة كلها

#### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قبل البدء في تفسير هذا القسم ، نذكر صلة هذه السورة بما قبلها ، فنقول : ﴿ سورة الفتح ﴾ قد ذكرت بعد القتال ، لمناسبة أن الأولى كالمقدمة ، والثانية كالنتيجة ، إذ الفتح إنما يكون بعد القتال . أما هذه السورة فهي أشبه بما يعقب الفتح ، فإن الأمة إذا جاهدت ثم فتح عليها والنبي ﷺ بينهم وقد استتب الأمر ، فاذن يجب أن توضع القواعد التي تكون بين النبي ﷺ وأصحابه ، وكيف يعاملونه ؟ وما الآداب التي يكونون عليها ؟ فانهم اذا كانوا في الأمثال المضروبة في التوراة والانجيل قد تراجوا فيما بينهم وسجدوا وركعوا وعبدوا ، ثم نموا وعظموا ، وقووه ، وغاظوا الكفار ، فليكن البحث بعد ذلك في طريق المعاملة بينه وبينهم ، ثم كيف يعامل بعضهم بعضا ؟ فهذا هو ملخص السورة وترتيبها ونسقتها مع ما قبلها ، ولنشرع في تفسير الألفاظ ، فنقول : قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله ) أي لا تتقدموا ، من قولهم : مقدمة الجيش المتقدمين ، ان حقيقة قولهم جلست بين يدي فلان أن تجلس بين الجهتين المسامتين ليمينه وشماله قريبا منه ، فسميت الجهتان يدين مجازا للجاورة ، ومعنى لا تتقدموا بين يديه ، لا تفعلوا أصرا من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة ، وهذا على سبيل الاستعارة التمثيلية صور المعقول بصورة المحسوس ( وبعبارة أخرى ) لا تقطعوا أصرا دون أن يحكما به ، وفي ذكر الله معه تعظيم له صلى الله عليه وسلم ، والمقصود من هذا المعنى الانقياد لأوامره ونواهيه فلا يعجلون بقول أو فعل قبل أن يقول صلى الله عليه وسلم ، أو قبل أن يفعله . فلا يذبحون يوم عيد الأضحي قبل ذبحه ، فإن الذبح بعد الصلاة ، ولا يصوم أحد يوم الشك وقد نهى عنه ، ولا ترفع الأصوات عنده كما حصل من الشيخين ، إذ اختلفا في أمر

فارتفعت أصواتهما بحضرته لما قدم وفد من بني تميم ، وهذه أمثلة قد أسند لكل منها أنه سبب نزول الآية وهي عامة شاملة لا تخص ما ذكر (واتقوا الله) في التقسيم ومخالفته لمتكم (إن الله سمع) لأقوالكم ورفع أصواتكم عنده (عليه) بما تملكون ، ولما كان ثابت بن قيس بن شماس يروى الصوت ، وفي أخيه وقر ، كان يتأذى رسول الله ﷺ بصوته ، فنزل فيه ، في أمثاله قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) إذا كلمتموه ، فإذا نطق فمدكم أن لا ترفعوا بأدواتكم وراء الحد الذي يلائمه بصوته ، وإذا كلمتموه وهو صامت فإياكم أن تلهوا به الجهر الدائر بينكم ، وأن تقولوا يا محمد يا أحمد ، بل خاطبوه بالنبوة مع السكينة والتعظيم : وهذا قوله تعالى (ولا تجهروا له بالتكلم كجهر بينكم لبعض) في الأمرين المتضمنين خشية (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) ففي الرفع والجهر استغفاف قد يؤدي إلى الكفر المحبط إذا ضم إليه قصد الإهانة وعدم الإيالة ، ولما نزلت هذه الآية تخلف ثابت بن قيس ، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله : لقد أنزلت هذه الآية ، وإنى رجل جهر بصوته ، فأخاف أن يكون عملي قد حبط فقال عليه الصلاة والسلام : لست هناك ، انك تعيش بخير وتموت بخير ، وانك في أهل الجنة . فقال : رضيت بيشري رسول الله ﷺ لا أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أبدا . فأنزل الله تعالى (إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله) صراحة للأدب (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) أي ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتسكيات الشاقة حتى ظهرت تلك الثواب وصفت بما كابدت من الصبر على المشاق ، وقال عمر رضي الله عنه : أذهب الشهوات عنها ، والامتحان اختبار بليغ (لهم مغفرة) لأنوبهم (وأجر عظيم) لأنفسهم وسائر طاعاتهم :

(١) ويروى أن رسول الله ﷺ أخبر ثابتاً بأنه سيقتل في سبيل الله ، فلما كان يوم اليمامة في حرب مسيلة قتل ، وكان عليه درع فرأه رجل من الصحابة بعد موته في المنام . فقال له : إن فلانا رجلا من المسلمين نزع درعي فذهب به وهو في ناحية من العسكر فمده فرس يستأن في رطيله ، وقد وضع على درعي برمته فأت خالد بن الوليد ، فأخبره حتى يسترد درعي ، وأت أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم ، وقل له إن عليّ دينا حتى يقضيه عني ، وفلان من رفيقي عتيق ، فأخبر الرجل خالدا ، فوجد السرعة والفرس على ما وصفه فاسترد الدرع ، وأخبر خالد أبو بكر بتلك الرؤيا ، فأجاز أبو بكر وصيته ، قال مالك بن أنس : لا أعلم وصية أجزت بعد موت صاحبها إلا هذه .

(٢) ولما نزلت الآية الأولى كان أبو بكر لا يكلم رسول الله ﷺ إلا كاخى السرار ، وما حدثت عمر النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ، فسمع النبي ﷺ كلامه حتى يستفهم مما يخفص صوته ، لذلك مدحهم الله بغض الصوت عند رسول الله ﷺ ثم إن العرب كانوا يعاملون النبي ﷺ على عاداتهم فيما بينهم

\*\*\*

(١) لما بعث رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم سرية إلى بني النضير ، وجاءوا بغيالهم سبياء إلى رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم ، وكان رئيس السرية عيينة بن حصن النزارى ، جاء بعد ذلك رجالهم يقدون النزارى ، فقدموا وقت الظهيرة ورسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم قائل في أهله ، فجعلوا ينادون يا محمد اخرج إلينا ، حتى أيقظوه من نومه ، فخرج إليهم ، وأعتق نصف النزارى ، وقبل فداء النصف الثاني .

(٢) وأيضا لما جاء عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، والزبرقان بن بدر وأفدين على رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم في سبعين رجلا من بني تميم وقت الظهيرة ، وهو راقد نادوه : وقالوا يا محمد اخرج إلينا ، وذلك للفاخرة كما هو معلوم في فن الأدب والحديث ، لذلك ولأمثاله نزل قوله تعالى : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) من خارجها سواء أكان من خلفها أم من قدامها ، والحجارة قطعة أرض محجورة يحاط



والمراد حجرات نسائه صلى الله عليه وسلم (أكثرهم لا يعقلون) لأن العقل يقتضي حسن الأدب ومراعاة الحشمة ، لا سيما لمن كان في منصب النبوة (ولأنهم صبروا حتى تخرج إليهم لسكان) الصبر (خيرا لهم) من الاستعجال لما فيه من الأدب (ورأته غفور رحيم) لأنه اقتصر على النصيح والتقرع هؤلاء المسيئين للأدب . وبهذا تم الكلام على القسم الثاني من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

### القسم الثالث من السورة

روى أنه صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عتبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ، وكانت بينه وبينهم احنة في الجاهلية ، فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين إليه ، فحسبهم مقاتليه ، فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قد ارتدوا ، ومنعوا الزكاة ، فبعث خالد بن الوليد فوجداهم يصلون ، فسأوا إليه الصدقات ورجع فنزل : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ) أي بأي نبأ (فتبينوا) فتوقفوا فيه ، وتطلبوا بيان الأمر وانكشف الحقيقة ، ولا تهمدوا قول الفاسق ، فإن من لا يبالي بالفسق لا يبالي بالكذب الذي هو نوع منه . والفسوق الخروج من الشيء ، يقال فسقت الرطبة عن قشرها ، وفي مقابلها فقست البيضة إذا كسرتها وأخرجت ما فيها ، وأيضا فقست الشيء إذا أخرجته من يد مالكه مفتصبا له ، ويستعمل في الخروج عن القصد بركوب الكبر ، وقوله « فتبينوا » في قراءة أخرى « فتثبتوا » ، والتثبت والتبين متقاربان ، وهما طلب البيان ، يقول فتثبتوا كراهة (أن تصيبوا قوما بجهالة) أي كراهة إصابتكم قوما جاهلين بحالهم (فتصبروا) (على ما فعلتم نادمين) مفتمين غما لازما ، متمنين أنه لم يقع ، فقوله فاسق على هذا هو الوليد بن عتبة ، وأنت ترى أن الفسوق خروج عن الحق ، وهل كان الوليد كذلك ؟ إن الوليد أخطأ في ظنه فليس فاسقا ، فالأولى والأحق أن يراد المصوم أي أي فاسق ، والتقييد بالفاسق يدل على قبول خبر الواحد العدل ، إذ لو توقفنا في خبره لسوينا بينه وبين الفاسق ، ولخلا التخصيص من الفائدة (واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم) المعنى أن فيكم رسول الله على حال يجب تغييرها وهي أنكم تريدون أن يتبع رأيكم في الحوادث ، ولو فعل ذلك لعنتم ، أي لوقعتم في العنت ، وهو الجهد والهلاك ، وكأن هذا يشير إلى الرواية السابقة على ما قيل أن بعض المؤمنين زينوا له صلى الله عليه وسلم الإيقاع بيني المصطلق وقصديق قول الوليد ، وأن بعضهم كانوا يتصونون ، ويزعمهم جاهدتهم في التقوى عن الجسارة على ذلك ، وهم الذين استثناهم بقوله (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان) فخيرهم للإيمان إلى آخره جلهم على ذلك لما سمعوا قول الوليد (أولئك هم الراشدون) أي أولئك المستنون هم الذين أصابوا الطريق السوي ، ومن أي نصرة ، قال : قرأ أبو سعيد الخدري رضي الله عنه « واعلموا أن فيكم رسول الله » إلى قوله « حبب إليكم الإيمان » قال هذا نبيكم يوحى إليه وخيار أئمتكم لو أطاعهم في كثير من الأمر لعنتموا فكيف بكم اليوم ؟ أخرجه الترمذي وصححه ، وقوله (فضلا من الله ونعمة) أي حبب إليكم الإيمان فضلا الخ مفعول لأجله (والله عالم) بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز (حكيم) يفضل وينعم بالتوفيق على الافضال (وان طائفتان من المؤمنين اقاتلوا) فقاتلوا (فأصلحوا بينهما) بالنصح والسماح إلى حكم الله (فان بغت إحداهما على الأخرى) تعذت عليها (فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله) ترجع إلى حكمه ، أو ما أمر به (فان فأت فأصلحوا بينهما بالعدل) بفصل ما بينهما على ما حكم الله (وأقسطوا) وأعدلوا في كل الأمور (إن الله يحب المقسطين) يحمدهم فعلمهم بحسن الجزاء ، نزلت في قتال حدث بين الأوس والخزرج في عهد رسول الله ﷺ بالسيف والذراع ، ولما نزلت قرأها صلى الله عليه وسلم ، فأصلحوا وكف بعضهم عن بعض ، وهذا دلالة أنه يجب مداونة من نبى عليه بعد

تقديم النصيح والسعي في المصالحة ، وأيضا الباغى مؤمن وإذا قبض عن الحرب ترك ، لأنه فاء إلى أمر الله (إعما المؤمنون إخوة) لأنهم منتسبون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية (فأصلحوا بين أخويكم) إذا اختلفا واقتتلا ، ذلك أن الإيمان قد عقد الاخوة بين المؤمنين ، فهي كأخوة النسب أو أحق وقد جرت العادة أنه إذا حصل مثل ذلك بين الأخوين في النسب فأنهم يجتنبون في رفقه بالصلح ، فالأخوة في الدين أحق بذلك ووضع الظاهر موضع الضمير في أخويكم بضافا إلى المؤمنين للمبالغة في التقرير والتخصيص (واتقوا الله) في مخالفة حكمه والإهمال فيه (لهلككم ترجون) على تقواكم (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن) أي لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض ، إذ قد يكون المسخر منه خيرا عند الله من الساخر ، والقوم مختص بالرجال وهو جمع قائم كزائر وزور ، ويقال أيضا أنه مصدر نعت به فشاع في الجمع (ولا تلهوا أنفسكم) أي ولا يعب بعضكم بعضا ، فإن المؤمنين كنفوس واحدة ، ويصح أن يقال ولا تفعلوا ما تلهون به ومن فعل ذلك فكأنما لزل نفسه ، والزل الطعن باللسان (ولا تنازوا بالألقاب) ولا يدع بعضكم بعضا بلقب السوء ، فإن النبز مختص بلقب السوء عرفا (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) الاسم هنا الذكر من قولهم طار اسمه في الناس بالكرم ، أو بالثوم ، أي بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم الإيمان واشتبارهم به . يقال إن الآية نزلت في صفة بنت حبي رضي الله عنها أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن النساء يقلن لي « يا يهودية بنت يهوديين » . فقال لها : هلا قلت إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد (ومن لم يقب) عما نهى عنه (فأوائك هم الظالمون) حيث وضعوا العصيان موضع الطاعة (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن) كونوا منه على جانب ، فليتنازل المؤمن وليحتفظ حتى يعلم أمن الأمور العملية ذلك الظن فيجب اتباعه ؟ أم من حسن الظن بالله فكذلك ؟ أم في الاهليات والنبوات حيث يخالفه الدليل القاطع ؟ فيحرم اتباعه ، أم هو ظن سوء بالمؤمنين فكذلك ؟ أم هو في الأمور المعاشية فيباح (إن بعض الظن إثم) أي ذنب كالثالث والرابع فيما تقدم (ولا تجسسوا) ولا تبجسوا عن عورات المسلمين من الجسس ، وفيه معنى الطلب كالتمسس ، وفي قراءة بالخاء من الحسن الذي هو أثر الجسس ، كما يقال للجواس الجواس . وفي الحديث : « لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته » يروى أن سلمان الفارسي كان مع رجلين موسرين وهم مسافرون للجهاد ، فقالا له يوما : انطلق فاطلب لنا طعاما فانطلق إلى أسامة بن زيد بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو خازن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يجد عنده طعاما ، فأخبرهما ، ثم أرسلهما إلى طائفة من الصحابة فلم يجد ، فأخذا يتجسسان هل عند أسامة ما أمر لهما رسول الله ﷺ فلما جاء إلى رسول الله ﷺ قال : مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما قالا والله يا رسول الله ما تناولنا يوما لحما . فقال : ظلماتا تأكلان لحم سلمان وأسماء فنزلت هذه الآية (ولا يفتب بعضكم بعضا) ولا يذكر بعضكم بعضا بالسوء في غيبته ، والغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه ، فإن كان فيه فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته (أحبب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا) هذا تمثيل وتصوير لما يناله المقتاب من عرض أخيه على أخس وجه ، والمبالغة في الآية ظاهرة في الاستفهام التقريري واسناد الفعل إلى أحدكم ، وجعل المأكول لحمه أيا وهذا الأخ ميت ، وعن قتادة : « كما تكره أن وجدت جيفة ممدودة أن تأكل منها كذلك فأكره لحم أخيك وهو حي » (فكرهتموه) أي إن صح ذلك وعرض عليكم هذا فقد كرهتموه ، ولا يمكنكم إنكار كراهته (واتقوا الله) بترك ما أمرتم باجتنابه ، والندم على ما وجد منكم منه ، فإذا اتقيتم تقبل الله توبتكم ، وأنعم عليكم بثواب المؤمنين التائبين (إن الله تواب رحيم) يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى من آدم وحواء فكيف يفتاب بعضكم بعضا ؟ وكيف يسخر بعضكم من بعض

بعض وتتنازرون الخ (وجعلناكم شعوبا وقبائل) الشعب الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد ، وهو يجمع القبائل والقبيلة تجمع العماثر ، فالبطون ، فالأنحاذ ، فالفضائل . فخرجة شعب ، وكثانة قبيلة ، وقريش عمارة وقصى بطن ، وهاشم نخد ، وعباس فصيلة (اتعارفوا) ليعرف بعضكم بعضا لا للتفاخر ولا للمعز والنبز والسخرية ، وظن السوء بالأخ في الدين (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فبالتقوى من العلم والأخلاق والأعمال الشريفة تتفاضل النفوس لا بالأنساب ، فمن أراد الشرف فليتمسه منها . قال عليه الصلاة والسلام : « من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله » . وقال عليه الصلاة والسلام : « يا أيها الناس إنما الناس رجلان : مؤمن تقى كرم على الله ، وفاجر شقى هين على الله » . (إن الله عليم) كرم القلوب وتقواها (خبير) ببواطنكم يروى أن نفرا من بني أسد قدموا المدينة في سنة جدية ، وأظهروا الشهادتين ، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، يريدون الصدقة ويمنون ، فنزل : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا) إذ الإيمان تصديق مع ثقة وطمأنينة قلب ولم يحصل لكم والامنا منتهم على الرسول بالاسلام وترك المقاتلة (ولكن قولوا أسلمنا) فإن الاسلام اتياد ودخول في السلم ، واظهار الشهادتين ، وترك المحاربة يشعربه (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) أي ولكن قولوا أسلمنا ، واحال انه لم تواطى قلوبكم ألسنتكم بعد (وان تطيعوا الله ورسوله) بالاخلاص وترك النفاق (لا يلبسكم من أعمالكم) لا ينقصكم من أجورها (شيئا) يقال لات يلبس اذا نقص (إن الله غفور) لما فرط من المطيعين (رحيم) بالتفضل عليهم (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) لم يشكوا ، يقال رابه فارتاب (وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) في طاعته ، والمجاهدة بقسميها تصليح للعبادات المالية والبدنية (أولئك هم الصادقون) الذين صدقوا في إيمانهم (قل أتعلمون الله بدينكم) أي أخبرونه بقولكم آمنا (والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم) لا يخفى عليه خافية (يمنون عليك أن أساموا) أي يهدون اسلامهم عليك منة وهي النعمة الثقيلة من المن (قل لا آمنوا على اسلامكم) أي باسلامكم منصوب على نزع الخافض (بل الله يمتن عليكم أن هذا لكم للإيمان) على ما زعمتم مع ان الهداية لا تستلزم الاهتداء (إن كنتم صادقين) في ادعاء الإيمان فله المنة عليكم ، وهذه الجملة بجواب ان (إن الله يعلم غيب السموات والأرض) ما غاب فيهما (والله بصير بما تعملون) في سركم واعلانكم ، فكيف يخفى ما في ضمركم . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة والحمد لله رب العالمين .

### خاتمة في مباحث هذه السورة

مباحث هذه السورة قسمان : قسم بين النبي ﷺ والأمة ، وقسم يخص الأمة ، والثاني إما تخلية بترك الرذائل ، وإما تخلية بالفضائل ، والقسم الأول هو : —

- (١) لا يقدم المؤمنون على أمر من الأمور دون الاهتداء على أسئلة الكتاب والسنة .
- (٢) التهييب والاجلال له .
- (٣) لا يتجاوز صوته صوته .
- (٤) تكون أصواتهم أخفض من صوته دلالة على الترحيب ومراعاة الأدب .
- (٥) لا يخاطبون باسمه وكنيته كما يخاطب بعضهم بعضا ، بل يخاطبونه بالنبي والرسول .
- (٦) من خفضوا أصواتهم عند رسول الله ، كما كان يفعل عمر وأبو بكر وثابت رضي الله عنهم ، امتحن قلوبهم للتقوى وخلصت بالاختبار كما يمتحن الذهب بالنار ليخرج خالصه .

- (٧) بنو الصبر الذين نادوه من وراء الحجرات ، وهكذا عيينة بن حصين ومن معه من وفد بني تميم إذ قالوا وقت الظهيرة وهو راقد : يا محمد انزع إلينا أكثرهم لا يعقدون .
- (٨) الصبر خير لهم حتى تخرج وتكلمهم .
- (٩) ذمّ المنّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان ، وأنّ المنّ إنما يكون لله إذ هداهم إلى الإيمان إن صحت لهم الهداية .
- وهذه المسائل التسع فتح باب لمعاملة ذوي العلم وخفض الصوت عندهم ، واحترامهم لشيخ العلم والفضلاء في الاسلام .

### القسم الثاني في التخلية بترك الرذائل

- (١) لا نسمع كلام الفاسق بل نقبض لفظ الحقيقة وإلا وقعنا في فتنة جهل ، ونندمنا غما .
- (٢) نقبل كلام العدل ، وهو يوجب الظن لا اليقين .
- (٣) إذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة ، فاستنصروا عن طاعة الامام العادل بتأويل محتمل ، ونصبوا لهم إماما ، فالحكم فيهم أن يبعث إليهم الامام ويدعوهم إلى طاعته ، فإن أظهروا مظلمة أزالها عنهم ، وإن لم يذكروا مظلمة وأصرّوا على البغي قاتلهم الامام حتى يفيثوا إلى طاعته ، ثم إن هؤلاء لا يقبض مدبرهم ، ولا يقتل أسيرهم ، ولا يذفف على جريحهم ، أي لا يجهز عليه . وأتى على عليه السلام يوم صفين بأسير ، فقال : « لا أقتلك صبرا إني أخاف الله رب العالمين » ثم انه لضمان في نفس أموال على إحدى الطائفتين ، فأما اذا كان البغاة فئة قليلة لامنعة لها ، ولم يكن لهم تأويل ، ولم ينصبوا إماما ، فلا يتعرض لهم اذ لم ينصبوا قتالا ولم يتعرضوا للمسلمين ، فان فعلوا ذلك فيهم كقطاع الطريق في الحكم . هذا ملخص ما جاء عن الأئمة في قتال الباغين . أما الآية التي نحن بصددّها ، فالسكلام عليها أعمّ ، فليصلح المسلمون بين المتقاتلين قالوا أو كثروا فان بغت إحدى الطائفتين ، فلتقاتل الباغية ، ومتى فاعت فليكن الصلح بالعدل .
- (٤) العدل في كل الامور .
- (٥) شوق الله المسلمين وحضهم على الصلح بين اخوانهم ، وحجب إليهم ذلك بذكر الاخوة وتكرارها
- (٦) تقوى الله وعدم مخالفة أحكامه ليرحمهم بتلك التقوى .
- (٧) ترك السخرية ، فلا يسخر رجل برجل ، ولا امرأة بامرأة .
- (٨) ربما يكون المسخور منه خيرا من الساخر ، كما كان الأنبياء يسخر منهم الجهال ثم يعاونهم كما حصل لنوح عليه السلام : « إن تسخروا منا فانا نسخركم كما تسخرون » .
- (٩) لا يكن لزم من المؤمن للمؤمن ، وهو الطعن والضرب باللسان ، واذا عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه ، واذا فعل الانسان ما يستحقّ به المز بأن عرّض نفسه لذلك ، بسبب الوقوف مواقف التهم مثلا ، فكأنما لزم نفسه وعابها ، وأيضا اذا عاب الانسان غيره كان ذلك حاملا لذلك على عيبه فكأنه عاب نفسه .
- (١٠) لا يكن تنابز بالألقاب ، فاذا عمل الرجل سيئات ثم تاب عنها ، فان الله نهى أن يعير بما سلف من عمله ، وأيضا لا يقول المؤمن لأخيه : يا فاسق ، يا منافق ، يا كافر ، يا جبار ، يا خنزير ، وهكذا كل ما يكرهه المنادي به ، أو يفيد ذمّا له ، فأما الألقاب التي صارت كالأعلام : كالأعمش ، والأعرج ، فلا بأس بها .



(١١) النهي عن ظن السوء بالمسلم مع التكامل به كما قال سفيان وغيره لم يقيس بذلك ، ومن سوء الظن بالله .

(١٢) لا يبحث المسلم عن العيوب المستورة ، ولا يتتبع عورات الناس ، حتى لا يظهر ما ستره الله . يقال : « نظر ابن عمرو إلى الكعبة ، فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك » .

(١٣) لا يذكر بعض المؤمنين بعضا بالسوء في غيبته : روى أن عائشة ، قالت : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : حسبك من صنفية كذا وكذا : أي قصيرة . فقال : لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته ، أي خالطته مخالطة يغير بها طعمه ويريكه ، لشدة نيتها وقبحها . وقال ميمون بن سيار : بينما أنا نائم إذا بجيفة زنجي وقائل يقول : كل يا عبد الله . قلت : وما آكل ؟ قال : كل بما اغتبت عبد فلان . قلت : والله ما ذكرت فيه خيرا ولا شرا . قال : ولكنك استهت ورضيت فكان ميمون لا يفتاب أحدا ، ولا يدع أحدا يفتاب أحدا عنده .

(١٤) تقوى الله في أمر الغيبة ، وفي جميع المنهيات . هذه هي التحلية عن النقائص المذكورة في هذه السورة ، والحمد لله رب العالمين .

### القسم الثالث : التحلية بالفضائل

(١) إن الناس مخلوقون من ذكر وأنثى ، ثم كانوا شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، فيكون الناس على هذا كأغصان الشجرة وأوراقها وأزهارها وأثمارها ، فانها كلها متصلة متحدة مجمعة على أصل واحد ، وكما أنه لا فضل لورقة على ورقة في الشجرة ، إلا بما امتازت به ، ولا فضل لزهرة على ورقة ، ولا لثمرة على زهرة إلا بما فضلت به الزهرة وفضلت به الثمرة ، هكذا لا فضل لأحد من الناس على آخر إلا بالتقوى ، فالأتقياء كالأزهار والأثمار ، وغيرهم أقل من ذلك ، يقال إن ثابت بن قيس لم يفسح له رجل في المجلس ، فقال فيه (ابن فلانة) ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من الذاكر فلانة ؟ قال ثابت : أنا يا رسول الله . قال انظر في وجوه القوم ، فنظر ، فقال : ما رأيت يا ثابت ؟ قال رأيت أبيض وأجر وأسود . قال : إنك لا تفضلهم إلا بالدين والتقوى ، فنزلت في ثابت هذه الآية ، ونزل في الذي لم يفسح له : « يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجلس الخ »

(٢) قيل لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالا حتى علا على ظهر الكعبة وأذن ، فقال عتاب بن أسيد بن القيص : الحمد لله الذي قبض أبى ولم ير هذا اليوم ، وقال الحرث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ، وقال سهل بن عمرو : إن يكره الله شيئا يغيره ، وقال أبو سفيان : لا أقول شيئا ، أخاف أن يخبره رب السماء ، فنزل جبريل فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قالوا ، وسألهم عما قالوا فأقرتوا ، فأنزل الله هذه الآية ، وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال ، والازراء بالفقراء ، لأنهم متساوون في النسب ، فلا تفاخر لبعض على بعض ، لكونهم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة ، وفي البخاري لما سئل : « أي الناس أكرم ، قال : أكرمهم عند الله أتقاهم ، فلا زالوا يدققون في السؤال حتى قال في العرب : خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا أي تعلموا » . وعن ابن عمر أن النبي ﷺ طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه ، فلما خرج لم يجد مناخا ، فنزل على أيدي الرجال ، ثم قام فخطبهم

حمد الله وأثنى عليه ، وقال الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية الجاهلية وتكبرها ، يا أيها الناس : إن الناس رجلان : برّ تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله ، ثم تلا : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى الخ » ، ثم قال : أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم . -  
قوله المحجن : عصا مكنية الرأس كالصولجان ، وقوله عبية الجاهلية أي كبرها ونفرها اه

### تذييل السورة

اعلم أن ترك الرذائل المذكورة مقدم على التحلية بفضائل الائتلاف ، ولذلك قدم في السورة على تعارف بني آدم ، فأولاه تعظيم الرسول ، وقبول قوله ، ثم الآداب المأمة بين الناس ، ثم يكون اتحادهم بالتعارف وبالبحث والعلم ، وهذا هو المقصود الأعظم . ألا تعجب من هذا المقام ! ألا تعجب كيف يؤذن بلال على ظهر الكعبة وأبناء العرب واقفون ! أنظر إلى هذا تجده رمزا إلى اتحاد نوع الانسان كله كأنه يقول : ليس الاسلام كاليهودية ، إن اليهودية جعلت دينا خاصا بجنس واحد وهم بنو اسرائيل ، أما دين الاسلام فلا أبيض ولا أحمر ، ولا عربيا ولا عجميا ، بل الناس فيه سواء ، أنظر أيها الذكي للأمة الحاضرة ، أنظر إلى أمريكا التي مدحت اتحادها لك سابقا ، وذمت الأمم الاسلامية الحاضرة لجهلها وتقاطعها ، انظر إلى ايس البيض هناك يحقرون أن يكونوا مع السود في مركبة واحدة في القطار ، ذلك لمجرد اللون ، انظر كيف سبقونا في العلم والأخلاق ، ولكن لانزال فيهم تلك النقيصة المزرية ، وهي اعتبار اللون فارقا ، انظر كيف يؤذن بلال على ظهر الكعبة والعرب الذين هم أهلها واقفون ، انظر : ان ذلك ناطق بأن هذا الدين هو الذي سيجمع الأمم جمعاً حقيقياً لاجتماع صناعاتها ، فليجد النوع الانساني ، فالأمم الاسلامية التي بعدنا ستفهم هذا ، وستقرأ كل العلوم والصناعات وتجد وتحوز الحكمة ، واذن يقودون أهل الأرض . انظر كيف يقول صلى الله عليه وسلم : « خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا » ولم يقيد التفقه بعلم خاص ، يريد إذا علموا كل ما يجب علمه في أحوال الدنيا والآخرة ، ولا جرم أن العرب الذين قال الله فيهم ذلك هم نحن أبناء مصر وطراباس وتونس والجزائر ومراكش وسوريا واليمن ونجد والحجاز وحضرموت والبحرين والعمان والموصل والسودان فهؤلاء خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام على شرط العلم الذي لم يقيد به إلا بعض الفقهاء بالحق ، فهل نحن الآن خيار الأمم ؟ أقول نعم على شريطة العلم الذي يلزم للأمة في دينها ودنياها ، واسكننا الآن لسنا خيار الأمم ، لأننا جهلاء ، والمخرج من هذا الجهل أن يقوم أهل العلم بحث هذه الأمم المتجاورة على العلم كما شرحت في سورة آل عمران فيدرسون العلم في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، واذن يتعارفون ، لأنهم تقاطعوا بالجهالة الكتفاء فصاروا أمما عمياء متفرقة متشاكسة ، فاذا عرفوا وتعلموا جميع العلوم التي درستها أوروبا واليابان وأمريكا وزادوا عليها ، ثم اتحدوا مع اخوانهم الترك والفرس والأفغان ، وسائر أمم الاسلام ، فاذن يكون خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام ، وهذا الذي أقوله الآن سيكون بعد نشر هذا التفسير وغيره وسيعرف أبناء العرب ذلك ، ويعملون به قريبا ، وسيكون قرءاء هذا التفسير قاندي تلك الحركة من أمم الاسلام . انتهى صباح يوم الجمعة ٢٦ يونيه سنة ١٩٢٥ م



## لطائف هذه السورة

## اللطيفة الأولى

في قوله تعالى : أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى

اعلم أيها الذكي أن هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع :

في هذا الشهر وهو شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ منذ أيام كنت سائرا إلى جهة النيل لمجرد الرياضة حيث المنسى ، والحبو جيسل ، والدنيا مشرقة ، والنيل جار ، والأشجار منزهات ، والزروع نضرات ، إذا باصراً صريضة ، تمشي وهي عرجاء صفراء ، قد ازداد ضعفها ، ونحل جسمها ، فطارت لي أن هذه لا تطلب للزوج ، ولا يرغبها الأزواج ، وما كان أسرع الخاطر إذ ذاك إلى أرشاء العنان ، والخوض في المعمعان ، والعروج إلى طرائف المعاني ، والوصول إلى درجات المعالي .

هنالك هنالك أخذ العقل يقول : الناس جميعا في الأرض ممتحنون ، لا يطلب الرجل امرأة لزواجه إلا بعد أن يألس بجملها ، ويرتاح خلاطها ، ويسرّ مرآها ، ويروقه مبدؤها ومنتهاها ، نعم هذا نوع من الامتحان ، امتحان في الجمال ، امتحان في الأخلاق ، امتحان في القوة الجسمية والقوى العقلية ، فالمشوّهة الخلقة ، والقصيعة الوجه ، والسيئة الخلق ، والغبية العقل ، لا يرغبها أحد من الرجال إذا أيقنوا بذلك ، ولكن النقص فاش ، والطيور على أشكالها تقع ، والكمال درجات .

فيا عجباً النظرة فائرة ، وخلسة ماضية ، أحضرت علما وحكمة ، وأفادت نورا وفهما . القبح ذكر بالجمال والمرض أذكّرنا بالصحة والكمال .

خلال ثلاث يحد في طامها الانسان : خلة الصحة في الجسم ، وخلة انتظام الخلق ، وخلة الكمال في تفكير العقل . هذه هي الخلال الثلاث التي قدّمناها في ﴿سورة الفتح﴾ وكانت من آيات الله في زماننا ، إذ كانت هذه الثلاث هي كما قدّمنا الفتح العالمي : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » والأخلاق الجيلة « ويهديك صراطا مستقيما » وينصرك الله نصرا عزيزا . ومن مقدمات هذا قوة الأبدان ، وهذه الثلاثة هي مقاصد العلم في زماننا كما ترجمته لك من أقوال علماء زماننا .

أفلا تجب الآن أن ترى الله يقول لنا في هذه السورة : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » ولا جرم أن هذا الامتحان يرجع إلى علم الأخلاق من حيث تطبيقه عملا وهو إحدى الدعائم الثلاث ، إذن دعائم الحياة الثلاثة هو ذا الامتحان حصل في أحدها ، فالله امتحن قلوب طائفة زمن النبوة ، ولا جرم أن امتحان القلوب أغمض من امتحان الأجسام . الحياة كلها امتحان ، امتحن الله قلوب بعض المؤمنين بالقوى لبعلمنا الامتحان في الأعمدة الثلاثة ، لأنه إذا امتحن فيما أغمض ، فالامتحان فيما هو أسهل من باب أولى . وصرّح بالامتحان في سورة أخرى سماها باسم « الممتحنة » فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لاهن حلّ لهم ولا هم يحلون لهن » إذن الله امتحن قلوب قوم بالتقوى ، وأمرنا يوما ما أن نمتحن النساء المهاجرات فالأعلم يمتحن من هو دونه ، والرجل أعلم من المرأة ، فهو يمتحنها فيعلم إيمانها .

كل هذه الأوليات الدينية تفتح لنا أبواب الامتحان ، فلنمتحن كل شيء في هذه الدنيا ، والامتحان عقل الانسان فامتحان جسمه وأخلاقه وامتحان كل صغير وكبير في هذا الوجود من باب أولى ، ومن ترك

الاختبار والامتحان ، وعاش حالة على المجموع لم يفكر وهو يحول على تفكير غيره وامتحاناه فأنما هو طفل يتم يديه المحسنون .

يتمتع الطبيب المريض إما بحس نبضه بحاسة اللمس ، وإما بسماع عدد ضربات ، وشدة رضعها بسمعه ، وإما بمشاهدة البول في القارورة بحاسة بصره ، وبمشاهدة لسانه أظفاه أم عليه طبقة تفشيه ، هكذا علينا أن نتمتع ما نباشر من أعمالنا من جميع وجوهه ، ومن الطرق المختلفة : من أن نكمل على غريزته فهو أشبه بالحيوان ، والغريزة يحجزها ظاهر الأمور ، ألم تر إلى الذراش يرى النار فيتجه إليها فيحترق ، وإلى الباب يقع في العسل فيموت ، هكذا اغرائنا إذا وقفنا عندنا أخفنا بنافى أخرج المواقف وأشد الأزمات ، فنهره رائع الجلال واغتر به ، وأودنه بهائنه ، وأعطت به خطيئته ، وقامت بتجهله قيامته ، فطواهر الجلال ، لا تقنى عن دخال الأهمال ، وزخرف الظواهر وزينتها تفر الجاهلين ، وتقعده بالعجزين ، وتودى بالفاولين ، وهالك جوهره نفيسة ، وزهرة جميلة ، أختتم بها هذا المثل ، وهي ما قرأته في كتاب « سررات الحياة » للورد أفبرى المولود سنة ( ١٨٣١ المتوفى سنة ١٩١٣ ) تحت عنوان « الرجل الكامل » قال : « ما تلك الصفات التي نتوخاها في الرجل الكامل في هذه الحياة ؟ وما هي المزايا حتى يتمتع بها العصامي العبقري ويمتاز عن سواه ؟ ثم أجاب قائلا : هي أولا العقل الرزين المصون ، ثانيا العواطف الشريفة كالروية ، والإحسان ، والحب العام ، والكرم ومكارم الأخلاق ، وثالثا صدق النظر في قضايا العقل والتثبت في أحكامه ، ورابعا قوة بدنية تصون هذه الخلال وتحفظها من الزوال ، وتساعد على تنفيذها في المجتمع العام ، وإذا لم يكن العقل رزينا صائب الحكم أسرع في حكمه ، فكان الخطأ حليفه ، والألم نصيبه ، وقد أحاطت به المصيبة ، وإذا لم تكن العواطف نبيلة ، والأخلاق شريفة ، والنفوس عفيفة ، فإن الإنسان يكون عابدا لنفسه ، واقفا عند حسه ، جاهلا بحب جنسه ، بعيدا عن الأنس به . وإذا لم يكن الجسم حديديا والأعصاب قوية متينة ، فإن عمله يكون ضئيلا ، ونفعه قليلا ، وحرمانه طويلا ، لا يدرك نارا ، ولا يدفع غارا ، ولا ينفع جارا . وإذا كان القصد نبلا ، والنية حسنة ، ولكن قوة الحكم عاجزة عن إدراك الحقائق ، متعثرة الأذيال ، غيبة العمياء ، فإن ضررها يكون أكثر من نفعها ، وخطؤها أكثر من الصواب .

قال نيكيري : « نحن نمدح الرجل فنقول هو عبقري ، هو كامل ، كيف يكون هذا الكمال ؟ أيكون بالشرف ؟ أم يكون بالظرف واللاطف ؟ أم يكون بالشجاعة والاقدام ؟ أم يكون بالعقل ؟ أم يكون باجتماع هذه الأوصاف كلها فيه ؟ وظهور أثرها على يديه ، بأسلوب تصحبه الرقة واللاطف والشفقة والعطف والحنان ، إن الرجل الكامل يجمع ذلك كله ويفوقه هو أندرومن الكبريت الأحمر ، وأعز من بيض الانوق ، هو أبعد مما نظن . إن الملوك يقدرون أن يعطوا الناس ألقاب الشرف ، وصفات الاعظام والكمال . ولكنهم لن يتسنى لهم منح نفس الكمال ، فهم يمنحون الأقوال خصب ، وكل منا يتسنى له أن يكون كاملا نبلا متى أردنا » انتهت ترجمة تلك القطعة من ذلك الكتاب .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : هذه القطعة الانجليزية تشبه نظيرتها في « سورة الفتح » وغاية الأمل أنها هناك مجملة وهنا أشبه بتفريع عليها ، ولكن خطرت لي هنا سؤال وهو : إذا كان الامتحان مشروعا شرعه الله وقد أمر المسلمين وقتا ما أن يتمتعوا المهاجرات في حال خاصة ، وهو نفسه امتحن قلوب رجال للتقوى أفلا نفكر نحن في المسألة المشهورة الاجتماعية ، وهي ان الزوجين يتمتعان عند الزواج ، أهما صحيحان أم مريضان ؟ فقلت : هذا حسن ولكنه بسورة المتعنة أليق ، فانتظره هناك في تفسيرها إن شاء الله تعالى . وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ م



### اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » إلى قوله : « إن الله عليم خير » وفي هذه اللطيفة (١) أربع مقالات : المقالة الأولى في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » بفت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفي إلى أمر الله فان فاعت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المتسطين بما إيمان المؤمنين إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »

يأمر الله المسلمين أن يصلحوا بين أي طائفتين من المسلمين اقتتلوا ، وليكن الصلح بالعدل ، فلا يذهب لمن كان من غير أمته ، كما لا يجوز للإنسان أن يشهد لأبيه ، وأخيه ، أو لغيره ، أو لغير الخ كما تقدم في (سورة النساء) .

فاذا بفت طائفة ولم تقبل الصلح فليقاتلها المسلمون ، ومتى رجعت الباغية فليكن الصلح بالعدل ، ولم يقتصر على الصلح بين المسلمين ، بل جعلهم إخوة ، ثم أمر المسلمين بالتقوى ، وهذا يعقبه الرحمة العظمى ، والرحمة هنا في الأرض الأمن والسعادة ، والفز والسودد ، وعظمة الأهم الإسلامية ،

هذه يارب أوامرك ، ولقد علمنا علما يقينا أن نبينا صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين كانوا على هذه الشريعة ، ولكن الخلفاء الأمويون والعباسيون لم يتقوا الله في أمر الخلافة وان كانوا في حكم الرعية غالبا عادلين . عصي المسلمون أمرا الله وتعصوا لقبائلهم وأنسابهم . لم يرض عمر رضي الله عنه أن تساق الخلافة إلى ابنه عبد الله بن عمر ، لماذا ؟ لأن الأمر شوري بين المسلمين ، أما ان يأتي خليفة فيقول : إن الخلافة لابني فهذا ليس له ، بل هو حرام عليه ، لأن المسلمين ليسوا قطيع فتم يورثون ، فأين الشورى ؟ وأين آية : « وان طائفتان الخ » وآية : « إنما المؤمنون إخوة » ؟ ولقد جاء في كتاب « تاريخ المحدثين الاسلامي » في صفحة ١٠٩ وما بعدها من الجزء الرابع ما يأتي :

« ظهر بنو أمية وتسلطوا واستبدوا ، وآل علي بن أبي طالب يطالبون بالخلافة ، ويسعون في إدراكها ، وأول من طلبها بعد علي ابنه الحسن ، ثم نازل عنها معاوية سنة ١ هـ هجرية ، فغضب أشياخ العالويين في الكوفة من تنارله وهاجوا ، وأمر الكوفة يومئذ زياد بن أبيه الداعية الشهير ، فشدد في اخضاع الثورة ، وقتل جماعة من أشياخ علي ، فيهم حمزة بن عدي وأصحابه ، فتربص العالويون بانتظرون موت معاوية لعن انتعاب الأمة يقع على واحد من أبناء علي فترجع الخلافة إلى أهل البيت ، ولم يخطر لهم أن يبايع معاوية لابنه ، فلما علموا بيعته قاموا عليه ، وزادهم نعمة ما علموه من تهتكه وقصفه ، واشتغاله بالصيد عن أمور الخلافة . ومن قول عبد الله بن هشام الساهلي في ذلك :

خشينا الغيظ حتى لو شر بنا بم دماء بني أمية ما رويانا

لقد ضاعت رهيبتكم وأنتم تصيدون الأراب غافلين (١)

وكان أوجه العالويين يومئذ الحسين بن علي ، فلما مات معاوية سنة ٤٠ هـ هجرية وتولى ابنه يزيد أني الحسين أن يبايعه ، على أن أكثر الذين بايعوه من أهل التقوى هادوا بيعتهم خرقا لحرمة الدين (٢) وكان الحسين في المدينة ، فلما طلبوا منه أن يبايع يزيد فر إلى مكة وأكثر شيعته في الكوفة ، فسكتبوا إليه وحرّضوه على القدوم إليهم لينصروه ، فلما علمهم ، ولما اقترب من الكوفة قعدوا عن نصرته ، وبعث إليه أمير الكوفة يومئذ عبيد الله بن زياد جنودا حاربه ، فدافع عن نفسه وأهله حتى قتل قتله المشهورة في

كر بلاء يوم عاشوراء من سنة ٦١ هجرية ، ثم ندم الشيعة على قعودهم من مناصرتهم ، فخرجوا بعد وفاة يزيد وبيعة مروان بن الحكم سنة ٦٤ هجرية يدللون بدنه ، وسموا أنفسهم « التوابين » وأمير السكوفة لايزال عبيد الله بن زياد فأخرجوه منها ، وولوا عليهم رجلا منهم ، فقتل ابن زياد عليه ، فنهض المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وهو من جلة الذين طمعوا بالسيادة لا بتزاز الأموال في أثناء تلك الفوضى واختلال الأحوال ، وكان المختار على الهمة ، فجاء السكوفة يطالب بدم الحسين ، ويدعو إلى بيعة محمد بن الحنفية أخي الحسين من أبيه ، فتبعه على ذلك جماعة من الشيعة سماهم « شرطة الله » وزحف على ابن زياد فهزمه وقتله ، وقتل أكثر قتلة الحسين ، ولكن محمد بن الحنفية لم يكن راضيا بتلك الدعوة ، فبعث إلى المختار يتبرأ منه ، فحول المختار دعوته إلى عبد الله بن الزبير ، وكان عبد الله قد نهض عند نهوض الحسين ، لأن أباه الزبير بن العوام كان من جلة الطامعين بالخلافة بعد مقتل عثمان كما تقدم ، وأقام عبد الله في مكة يدعو إلى نفسه ، على أن المختار لم يخلص النية في دعوته لأحمد ، لأنه إنما كان يريد لها نفسه ، فلما علم ابن الزبير بفرضه بعث أخاه مصعبا على العراق فحارب المختار وقتله سنة ٦٧ هجرية . أما الشيعة العلوية فانتسبت بعد مقتل الحسين إلى فرقتين : إحداهما تقول ان الحق بالخلافة لولد علي من فاطمة بنت النبي ، والأخرى تقول بتحويلها بعد الحسن والحسين إلى أخيهما محمد بن الحنفية وهي الفرق الكيسانية ، وأكثرهما ظهورا وتصديا للفرقة الأولى ، فبايعوا بعد الحسين ابنه عليا المعروف بزين العابدين ، وتسلسلت الخلافة بعده في أعقابها حتى صار الأئمة ١٢ إماما وهم : علي ، والحسن ، والحسين ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلي رضا ، ومحمد التقي ، وعلي النقي ، وحسن العسكري ، ومحمد المهدي . وتفرع من الشيعة العلوية أيضا فرق أخرى بايعت غير واحد من أعقاب علي كالزيدية نسبة إلى زيد بن علي بن الحسين ، والاسماعيلية نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وفرق أخرى لا محل لذكرها . وكان بنو أمية إذا سمعوا بظهور أحد دعاة العلوية بذلوا جهدهم في قتله ، فقتلوا بعضهم وسموا البعض الآخر ، وصلبوا آخرين فأصبح دعاة الشيعة يسترون خوف الفتك بهم ، فلاقى العلويون في أيام بني أمية ضنكا شديدا ، وكادوا يهلكون جوعا ، وأصبح هم أحدهم قوت عياله ، حتى تولى خالد القسري عامل بني أمية المتوفى سنة ١٢٦ هجرية ، فأعطاهم الأموال ورفق بهم ، فعادوا إلى طلب الخلافة (١) وخالد هذا غريب الأخلاق ، فمكونه من عمال بني أمية ، فقد كان ينصر العلويين ، ويستعمل أهل الذمة كما تقدم . انتهى ما أردته من كتاب « تاريخ المدن الاسلامي » والحمد لله رب العالمين .

\*\*\*

هذه حال المسلمين بعد العصر الأول ، فأين الصلح ، وأين الحق ، وأين الشورى ؟ معاوية أمر الناس بالمبايعة بالخلافة لابنه ، كيف هذا وأين الشورى ؟ ترى العلويون موت معاوية ، ولهم الحق لأن الأمر شورى ، ولكنه أمر بمبايعة يزيد ، إذن لا شورى ، إذن هو ملك عضوض ، إذن القرآن لم يعملوا به ، ثم هؤلاء الشيعة العلوية بعد قتل الحسين رضي الله عنه اختلفوا ، فالكيسانية ساقوها إلى محمد بن الحنفية ، وغيرهم جعلوها في ولد الحسين رضي الله عنه حتى صارت الخلافة إلى محمد المهدي ابن حسن العسكري وهم ١٢ إماما ثم كانت فرقة الاسماعيلية وغيرهم ، وكل طائفة تعتقد أن إمامها معصوم ، وهذا ورب العرش هو الارتباك . هذه أمور لا توافق القرآن ، بل هي اعتقادات أضرت بالمسلمين .

أيها المسلمون : الشورى بينكم والصلح ، أيجوز في ديننا أن نسمع أن طوائف من المسلمين تكفر غيرها لمجرد شبهة ! « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

## الشيعة العباسية والعلوية

لو كان الأمر شورى بين المسلمين كنص القرآن ، وكفعل أصحاب النبي ﷺ واجماع الصحابة رضوان الله عليهم ، أى لو فعل المسلمون بدليلين يقينيين ، وهما نص الكتاب ، ودليل الاجماع ، لم تسكن هناك شيعة عباسية وعلوية يطالبان بالملك ، بل كان أولو الرأي يجتمعون ويقررون الخلافة لمن حاز صفاتها ، ولكن المسلمون هربوا من ذلك خيفة ظهور الحقائق ، فالتجأوا إلى العصبية وأيدوها بالسيف .

ظلم بنو أمية العباسيين والعلويين ، وقتلوا رحلهم ، فإذا جرى بعد ذلك ؟ اتحد الفريقان ، ودبروا المكائد ، لنيل الخلافة سرًا ، وهما معا من بني هاشم أعداء بني أمية من أيام جاهليتهم ، وبابع السفاح والمنصور محمد بن عبد الله بن حسن المثنى ابن الحسن بن علي الملقب بالنفس الزكية لتقدمه عليهم في الفضل ، فالأصم إذن شورى بين الرهطين ، وهذا حسن جدا ، سارت دعوة العباسيين في بلاد الفرس وغيرها وسكت العلويون لأن العباسيين بايعوهم ومنهم السفاح والمنصور . وأمر إبراهيم الامام العباسي أبا مسلم الخراساني وهو رئيس شيعتهم أن يقتل كل من يشك فيه ، وقتل مروان بن محمد إبراهيم الامام ، فانقلبت الامامة إلى اخوة الامام المقتول ، والعلويون وأنصارهم لا يهتضون ، لأن عدوهم لا يزال حيا ودولته قائمة ، ولما سقطت دولة الأمويين غدر المنصور بالعلويين ، وقتلهم قتيلا ، ومنهم صاحب البيعة محمد بن عبد الله .

اللهم ليس هؤلاء على سنن القرآن ، استقبل الأمويون بالخلافة ، وتركوا الشورى ، وحاربهم العباسيون ، والأمويون يطاردونهم ، ففازوا ، فيكون القدر والقتل ، فأبى الآية ، وأبى الشورى ، وأبى القرآن ؟ اللهم إنك عظيم وعلى ، أنت تعلم ضعف أهل هذه الأرض ، وأنهم ضعاف لم يصلوا إلى السكال ، ولذلك حبستهم في هذه الأرض ، والمحبوسون قد اعتادت الحكومات أن ترسل لهم قوما يعظونهم في السجون ، ولكن تغلب عليهم طباعهم ، فهؤلاء غلبت عليهم طباعهم ، ورجعوا إلى الجاهلية في الخلافة ، أما في حفظ الدولة فلا

فلما سمع صاحب ذلك . قال : هذه أمور عظيمة فذكرني بالتفصيل في هذا المقام ، فالاجال لا يفي عن التفصيل . فقلت يا صاحب إن أردت إلا الافصاح ، فاسمع ما جاء في الجزء الرابع من كتاب « تاريخ القمندان الاسلامي » في صفحة ١٠٨ وما بعدها تحت عنوان « الشيعة العباسية » وهذا نصه :

« وكان في جملة المطالبين بالخلافة من أقرباء النبي صلى الله عليه وسلم بنو العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، لكنهم كانوا لا يتصدون لطلبها ، والأمويون في إبان دولتهم ، وانما كانوا يدعون إلى أنفسهم سرًا ، وكان العلويون والعباسيون في أيام ضيقتهم واضطهادهم يتقاربون ، لأنهم من بني هاشم ، وكلا الرهطين أعداء بني أمية من قبل الاسلام ، والمضطهدون يتقاربون في أى حال .

وظل العباسيون يتسترون في دعوتهم وهم مقيمون في الحيمة من أعمال البلقاء بالشام حتى ضعف شأن بني أمية ، فهموا بالنهوض ، واتفق في أثناء ذلك أن الفرقة الكيسانية دعاة ابن الحنفية صارت دعوتها بعده إلى ابنه أبي هاشم ، وكان أبو هاشم هذا يقد على خلفاء بني أمية من المدينة إلى الشام فيمر في أثناء الطريق بالحيمة ، ففي بعض وفداته على هشام بن عبد الملك آنس هشام منه فصاحة وقوة وورثاسة مع علمه بطمعه في الخلافة ، فخافه ، فهدس إليه في أثناء رجوعه إلى المدينة رجلا سمه في لبن ، فشرع أبو هاشم بالسهم وهو في بعض الطريق ، فخرج إلى الحيمة ، وصاحب الدعوة العباسية يومئذ محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فنزل عنده ، ولما أحس بدنو الأجل خاف ضياع البيعة وهو بعيد عن أهله ، فأوصى إلى محمد المذكور بالخلافة بعده ، وكان معه جماعة من شيعته سلمهم إليه وأوصاه بهم ، فلما مات أبو هاشم نهض محمد بالخلافة وأيقن بالنجاح ، لأنه اكتسب حزب الكيسانية جيها ، فأخذ في بث الدعوة سرًا ، ثم توفي وقصد أوصى

بالخلافة بعده إلى ابنه إبراهيم وعرف بالامام ، فأخذ إبراهيم الامام في بت دعائه ، وبدأ بخراسان لوثوقه بأهلها أكثر من سائر أهل الأمصار ، ولأن الشيعة الكيسانية أكثرهم في خراسان والعراق وقد نصرها العلويين سراراً ، فبعث إليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع أبي هاشم وأرضاهم أن يطلبوا بيعة الناس باسم « آل محمد » أي أهل النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يبين العلويين ولا العباسيين ، وكان الخراسانيون قد ماوا الدولة الأموية ، فهان عليهم أن يبايعوا آل محمد ، وهم يحسبون الأصر يكون مشتركاً بين العباسيين والعلويين ، وتوفق إبراهيم الامام في أثناء ذلك إلى أبي مسلم الخراساني القائد المجيب فأتم أمرهم وسلم لهم الدولة كما هو مشهور .

### بيعة المنصور للعلوية ونكثه

وكان بنو هاشم العلويون والعباسيون لما رأوا اختلال أمر بني أمية اجتمعوا بمكة وفيهم أعيان بني هاشم علويهم وعباسيهم ، وتداولوا في قرب انحلال دولة الأمويين ، وفي من يخلفهم من آل البيت ، وكان في جملة الحضور أبو العباس السفاح وأخوه عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس وهو أبو جعفر المنصور وغيرهما من آل العباس ، فأجمع رأيهم على مبايعة أوجه العلويين يوسف وهو محمد بن عبد الله بن حسن المثنى ابن الحسن ابن علي الملقب بالنفس الزكية ، فبايعوه لتقدمه فيهم ، ولما علموا له من الفضل عليهم ، وبايعه أبو جعفر المنصور في جلنهم (١) ولعل هذه المبايعة هي التي أكتت العلويين عن طلب الخلافة في أثناء انتشار دعاة العباسيين في طلبها كأنهم انفقوا أن تكون الخلافة مشتركة في أهل البيت ، لأن العباسيين كانوا يطلبون بيعة الناس باسم « آل محمد » وليس باسم الامام إبراهيم أو غيره من بني العباس .

أما دعاة الشيعة العلوية الذين كانوا يدعون للعلويين في العراق وفارس وخراسان قبل انتقال البيعة إلى العباسيين فقد رضوا بذلك الانتقال غير مخيرين ، وفي جلنهم أبو سلمة الخلال المثنى الفارسي الشهير ، وكان يقيم في حزام أعين بضواحي السكوفة ، وكان شديد التمسك بدعوة العلويين ، وقد بذل ماله وجاهه في سبيل نشرها ، فلما سمع بانتقال البيعة إلى بني العباس كظم وتر بهن يرى ما يقول الناس ، ثم علم أن إبراهيم الامام عين أبا مسلم وأرسله إلى خراسان ومعه الوصية المشهورة « من انتهت فاقته » ، وقد أطاعه النقباء فأطاعه أبو سلمة في جلنهم ، وهو يتوقع أن تكون البيعة شوري بين الشيعة (٢) ولما بلغه أن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قتل إبراهيم الامام أضمر الرجوع إلى الدعوة العلوية (٣) ثم جاءه أخوه الامام ، وفيهم أبو العباس السفاح وأخوته وسائر أهل بيته ، ونداءت البيعة إلى أبي العباس المذكور ، فأنزله أبو سلمة عنده ، ورأى نفسه عاجزاً عن نقل البيعة ، فسكت ، فبقيت آل العباس ، وكان أبو مسلم وسائر النقباء والقوادح يمارون عساكر الأمويين في خراسان وفارس والعراق ، فلما غلبهم وملكوا خراسان وما يليها جاءوا العراق وبايعوا أبا العباس ، فسكت العلويون خوفاً على أنفسهم من ذلك التيار العظيم ، وهم يتوقعون مع ذلك أن تكون الخلافة شوري بين الرهطين ، وعلم العباسيون بما كان يضمره أبو سلمة من نقل الخلافة إلى العلويين ، فشكوه إلى أبي مسلم سراً ، فدى إليه رجلاً قتله بالسكوفة غيلة ، وأشاعوا أن بعض الخوارج قتله ، وقد قتلوا كثيرين غيره من شكوا في إخلاصهم حتى تم الأصر لهم .

أما آل الحسن بن علي الذين كانوا قد بايعوا أحدهم محمد بن عبد الله في المدينة ، وبايعه معهم سائر بني هاشم ، ومنهم أبو جعفر المنصور ، فلما علموا بذهاب دولة بني أمية ومبايعة أبي العباس السفاح سنة ١٣٢ جاءوا إليه

(١) ابن خلدون ٣ ج ٤ وابن الأثير ٢٤٣ ج ٥ والفتوح ١٤٧

(٢) الفرج بعد الشدة ١٢٠ ج ٢ (٣) المسعودي ١٥٠ ج ٢



في الكوفة يطالبونه ببيعهم ، فاسترضاهم أبو العباس بالأموال ، وقطع لهم القطن ، وكان في جملة القادمين إليه عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة ، فأكرم السفاح وفادته ، وعرض عليه ما رضاء من المال ، وقال له : استنكم علي ، فقال عبد الله بألف ألف درهم فاني لم أرها قط ، ولم يكن هذا المال موجودا عند السفاح ، فاستقرضه له من رجل سير في اسمه ابن أبي مقرب ، ودفعه إليه ، واتفق وعبد الله المذكور عند السفاح أن يعض الناس جاءه بالجواهر التي كانت عساكر العباسيين قد اغتتمتها من مروان بن محمد ، فحصل السفاح يقلب الجواهر بين يديه وعبد الله ينظر إليها ويبكي ، فسأله عن السبب ، فقال : « هنا عند بنات مروان ، ومارأت بنات عمك مثله قط » فبناه به ، ثم أمر الصيرفي أن يبتاعه منه ، فابتاعه بثمانين ألف دينار (نحو مليون درهم) وأمر أبو العباس بكرام عبد الله وانزله على الرحب والسعة ، وهو يتوجس مما في ضميره ، فبث عليه العميون ، فأنس هذه طعما ، فزاده عطاء ، فعاد عبد الله إلى المدينة مثقلا بالأموال ، ففرقها في أهله ، وكانوا أهل فقة ، فلما رأوا تلك الأموال سرّوا .

وأما عبد الله فإزال مضمرا المطالبة بالخلافة لابنه (١) على ما تمت المباينة عليه ، والعباسيون يخافون ذلك ، والسفاح يسترضيه وسائر أهله بأموال كثيرة ، فلما توفي السفاح سنة ١٣٥ هـ هجرية خلفه أخوه أبو جعفر المنصور ، وكان رجلا شديد البطش لا يبالي بما يرتكبه في سبيل تأييد سلطانه ، فسكان هم قبل كل شيء أن يتحقق ما في نفس بني الحسن في المدينة ، لأن لهم في عمقه بيعة ، فبث عليهم العميون ، وأراد اختبارهم ، فبث بعطاء أهل المدينة على جاری العادة من قبل ، وكتب إلى عامله فيها : « أعط الناس في أيديهم ولا تبعث إلى أحد بعطائه ، وتنفذ بني هاشم ومن تخلف منهم عن الحضور ، وتحفظ بمحمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن » ففعل العامل ذلك ، فلم يتخلف عن العطاء إلا محمد وإبراهيم المذكوران ، فسكتب إليه بذلك ، فتحقق المنصور أنهما ينويان القيام عليه وقد سكتا في أثناء خلافة أخيه ، لأنه كان يكرههما ، ويعسق الأموال عليهما ، والمنصور لا يرى ذلك ، فلما رأوا تضيقه عزموا على الخروج ، فبثوا الدعاة في خراسان وغيرها يدعون شيعةهم إلى بيعتهم ، فلم أبو جعفر بذلك ، فبعث من يقبض على كتبهم في الطريق واحتمال في استطلاع أسرارهم ، وأراد استقدام ابني عبد الله ، وكتب إليه يستقدم بهما ، فأنكر عبد الله أنه يعرف مقرهما ، فأصبح هم المنصور التخلص منهما ومن سائر طلاب الخلافة من العلويين ، وخصوصا بني الحسن وهم يقيمون في المدينة ، فبعث إلى عامله فيها أن يقبض عليهم جميعا ، ثم أمره أن ينقلهم إلى العراق فقتلهم وهم مشاكون بالقيود ، والأغلال في أرجلهم وأعناقهم ، وقد جعلهم على حال بغير وطء ولكن ليس فيهم محمد ولا إبراهيم ابنا عبد الله لاستقرارهما ، فجاءوا ببني الحسن وعندهم بضعة عشرة رجلا ، فأمر المنصور بقتلهم بقلعة نقتلوا إلا بضعة قليلة . أما محمد بن عبد الله صاحب البيعة ، فلم يقع في الفخ ، فبعث المنصور إلى عامله في المدينة يشدد في طلبه ، فلم ير محمد بدئا من القيام ، فظفر بالدعوة ، فبايعه أهل المدينة بعد أن استفتوا إمامهم مالك بن أنس ، فأفتاهم بالخروج معه . فقالوا : « إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر » . فقال : انكم بايتموه مكرهين ، وأن بيعة محمد بن عبد الله أصح منها ، لأنها انعقدت قبلها (٢) . وكان أبو حنيفة أيضا على هذا الرأي يقول بنزل محمد هذا ويحتاج إلى حقه ، فحفظ لهما المنصور هذا القول ، فتأدت إليهما الحنة بسبب ذلك ، فلما تمسكن من محمد وقتله سنة ١٤٥ هـ هجرية أصبح من أكبر المضطهدين لهما فغضب مالكا على الفتيا في طلاق المكره وحبس أبا حنيفة على القضاء كما هو مشهور . وكان لنكت المنصور ببيعة محمد بن عبد الله تأثير عظيم في أذهان العلويين ، لأنها جاءتهم بغتة ، وكانوا يظنون ذلك لا يدر من أهل البيت ، كما صدر من بني أمية فتحسروا على أيام بني أمية وتمنوا رجوعها .

(١) العقد الفرید ٢٧ ج ٣ (٢) ابن الأثير ٢٥١ ج ٥ وابن خلدون ٣ ج ٤

ذكروا عن محمد بن عبد الله في أثناء قيامه على المنصور أنه سمع شاعرا يرثي بني أمية ، فبكى فقال له عمه : أنبكي على بني أمية وأنت تريد بني العباس ماتريد . فقال له : يا عم لقد كنا نقمنا على بني أمية ما نقمنا فينا بنو العباس إلا أقل خوفا لله منهم ، وأن الحجة على بني العباس أوجب منها عليهم ، وأقد كان للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر (١) .

### سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم القتل على التهمة

قد رأيت فيما تقدم أن بني العباس قاموا يدعون إلى أنفسهم وهم بين خطرين عظيمين : الأول أن يحاربوا بني أمية وبتغلبوا على أخراهم . والثاني أن يأمنوا جانب العلويين في مسابقةهم إلى الخلافة . وكانت الحوادث قد علمتهم أن الدولة لا تقوم بالدين والتقوى فقط كما قامت في عصر الراشدين ، وكما أراها بنوعلي ، وأن العلويين إنما عجزوا عن نيلها لاعتمادهم في دعوتهم على شرف نسبهم ، وصدق تدينهم ، وأن معاوية لم يغلب إلا بالدهاء والحيلة ، وأن عبد الملك لم يستطع استبقاءها إلا بالفتك وشدة البطش ، فلما انتقلت البيعة من العلويين إلى العباسيين بمبايعة أبي هاشم بن محمد ابن الحنفية لمحمد بن علي العباسي كما تقدم ، ثم أفضت بعده إلى ابنه ابراهيم الامام ، وتوفى هذا إلى أبي مسلم الخراساني ، ورأى فيه الشدة والدهاء جعله قائدا على نقبائه ودعاته ، وأوصاه وصية هي محور سياسة العباسيين في تأييد دولتهم هذا نصها :

« انك رجل منا أهل بيت ، احفظ وصيتي ، انظر إلى هذا الخبيث من اليمين ، فالزمهم ، واسكن بين أظهرهم ، فان الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، وانهم ربيعة في أمرهم ، وأما مضر فاتهم العدو القريب الدار واقتل من شككت فيه ، وإن استطعت أن لاندع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ، وأما غلام بلغ خمسة أشبار واتهمته فاقتله » . (٢)

نخرج أبو مسلم من عند الامام ابراهيم بهذه الوصية ، وقد عمل بها ، وعول عليها ، فكان يقتل كل من اتهمه ، أو شك فيه ، فبلغ عدد الذين قتلهم في سبيل هذه الدعوة ٦٠٠٠٠٠ نفس قتلوا صبورا (٣) بدون حرب في بضع سنين ، وفي جملتهم جماعة من كبار الشيعة ، وفيهم خير واحد من جلة النقباء وكبار الدعاة كأبي سامة الخلال الذي نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها أبو مسلم بسيفه ، وكان يقال له وزير آل محمد كما يقال لأبي مسلم أمير آل محمد ، فلما استشار السفاح أبا مسلم بشأنه ، واتهمه بنقل الخلافة إلى العلويين أشار أبو مسلم بقتله ، فقتلوه ، وقتلوا عماله على الأطراف ، وفعل نحو ذلك أيضا سليمان بن كثير ، وهو من أكبر دعاة الدولة العباسية قبله وكان شيخا جليلا لم يدخر وسعا في نصرة تلك الدعوة ، فبعد قتل أبي سامة بلغ أبا مسلم عنه مثل ما بلغه عن أبي سامة ، فأحضره إليه ، وقال له : « أنحفظ قول الامام لي من اتهمته فاقتله ؟ » قال نعم ، قال : فاني قد اتهمتك ، نفاف سليمان ، وقال : أناشدك الله : قال : لاتناشدني فأنت منطو على غش الامام ، وأمر بضرب عنقه (٤) ناهيك بمن قتلهم من غير الشيعة وفيهم الأمراء والقواد ، قتل بعضهم بالحيلة والبعض الآخر بالعدو ، ومنهم الكرمانى وأولاده وكبار رجاله (٥) وغيرهم بشرك كثير حتى سئم الناس فعله وملاوا سفك الدماء ، وأصبح المسلمون حتى رجاله لا يدعى أحدهم إلى مقابلاته الا أوصى وتكفن وتحنط ، وثار من ذلك بعض الأمراء من شيعة بني العباس ، وصاح في رجاله : « ما على هذا اتبعنا آل محمد أن تسفك الدماء وأن يعمل بغير الحق » فتبعه على رأيه أكثر من ٣٠٠٠٠ رجل فوجه إليهم أبو مسلم جندا قاتلهم وقتلهم .

(١) الأغاني ١٠٦ ج ١٠ (٢) ابن الأثير ١٦٥ ج ٥ (٣) ابن الأثير ٢٢٧ ج ٥

(٤) ابن الأثير ٢٠٨ ج ٥ (٥) ابن الأثير ١٨٣ ج ٥

## المنصور والدولة العباسية

فهذا وأمثاله مهد أبو مسلم الخلافة لبني العباس فساعدتهم أولا على إخراجها من بني أمية إلى أهل البيت ولم يكسب ببيعة أبي العباس ، وقتل سرران بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، ولكنه حرضهم على قتل من بقي من بني أمية بالأغرام أو التخويف على السنة الشعراء ، ويقال أنه هو الذي أوعز إلى سديف الشاعر مولى بني هاشم أن يقول ذلك الشعر في مجلس السفاح وفيه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان السفاح قد أمه وأكرمه وأمن سائر بني أمية ، فيقال أن سديفا دخل يوما على السفاح وعنده سليمان بن هشام ، فأشدد سديف قوله :

لا يفرّتك ما ترى من رجال \*\*\* إن تحت الضلوع داء دويا

فضم السيف وأرفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فتأثر السفاح ، وأمر سليمان فقتل ، ودخل شاعر آخر ، فقال شعرا آخر ، وكان عند السفاح نحو سبعين من رجال بني أمية ، فقتلهم ، وبسطوا النطوع على جثثهم ، فأكلوا الطعام وهم يسبحون أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا (١) . وقيل في كيفية قتلهم خير ذاك ، وأن الذي قتلهم عبد الله بن علي عم السفاح ، وهو مشهور بكرهه لبني أمية ، وشدة نقمته عليهم ، ولكن لاختلاف في أنهم قتلوا غداة سنة ١٣٣ هجرية وهم آمنون كما قتل الأمراء المماليك بمصر في أوائل القرن الماضي . والغالب أن أبا مسلم أوعز إلى العباسيين بقتلهم لئلا يقفوا في سبيل دولتهم ، فأشار إلى سديف أن يحرضهم على ذلك بشعره ، ولم يقل سديف ذلك حبا لبني العباس بل كرها لبني أمية ، وانتقاما لآل علي ، لأنه من الشيعة العلوية ، وهو يظن الخلافة شورى بين الشيعة ، فلما رأى المنصور استقل بها بعد ذلك نقم على العباسيين ، وهجمهم بأشعار باغ خبرها المنصور فكتب إلى عامله أن يأخذ سديفا فيدفنه حيا ، ففعل (٢) .

وبعد أن قتل العباسيون من كان في قبضتهم من الأمويين عمدوا إلى استئصال شأفتهم من سائر البلاد ولم ينج منهم إلا قليلون ، أهمهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، ففرّ إلى الغرب ، وأسس دولة بني أمية بالأندلس كما سيأتي ، وتولى استئصال شأفة الأمويين من بني العباس عبد الله بن علي ، فبالغ في ذلك حتى نبش قبورهم ، ومثل بجثثهم ، انتقاما لما فعلوه قبلا بالأئمة من آل علي ، وخصوصا زيد بن زين العابدين ، فاستخرج جثة هشام بن عبد الملك من قبره ، وهو لم يبل ، فضر به ثمانين سوطا ، ثم أحرقه (٣) .

وبعد أن تخلص المنصور من الأمويين لم يتخرب أبو مسلم وسعا في تخلص الدولة له من أقربائه آل العباس أنفسهم ، وفي جلتهم عبد الله بن علي المتقدم ذكره ، وقد طمع بالخلافة ، فخاربه بأمر المنصور ، وغلبه ، وقبض على مافي عسكره من الغنائم والأسلحة ، فأراد المنصور أن يوجهه همه إلى بني الحسن منافسيه في الخلافة ، فاشتغل خاطره بأبي مسلم ، وأصبح خائفا منه على سلطانه بعد ما بلغ إليه من النفوذ والشهرة والدالة ، ولم يكن همه إلا قتله ليتفرغ للأمويين ، فانهمم بأنه ينوي إخراج الملك منهم ، فاستعققت التل عملا بوصية الامام . وكان المنصور قد خاف أبا مسلم وعزم على قتله من عهد خلافة أخيه أبي العباس ، ولكن أبا العباس لم يرد الاقدام على ذلك ، فلما مات السفاح وخلفه المنصور صمم على قتله ، ولكنه استخدمه في حرب عمه عبد الله بن علي ، ففرض عدويه أحدهما بالآخر ، فأيهما قتل صاحبه انفرد فيسهل على المنصور قتله ، فلما فرغ أبو مسلم من حرب عبد الله بن علي احتال المنصور في استقدامه إليه من خراسان في حديث طويل ، وأدخله عليه دخول الزائر الأمين ، وقد أكن له أناسا بالسلاح وراء الستر ، فأخذ سيفه منه وحادثه ، وتدرج

(١) الفخرى ١٣٤ والعقد الفريد ٢٧٩ ج ٢ (٢) العقد الفريد ٣٢ ج ٣

(٣) ابن خلكان ٢٠٥ ج ٢

من العتاب إلى التوبيخ حتى إذا أُرِفَت السامة صفى المنصور ، فخرج السكانون بأسلحتهم وقتلوه سنة ١٣٣٧ هـ هجرية ، فأمر به فلفوه بالبساط ، ثم دعا بعض رجال خاصته ، وشاورهم في قتله ، ولم يقل لهم أنه قتله ، فقال له أحدهم : « ان كنت قد أخذت من رأسه شهرة فاقطعه ثم اقله » فأشار المنصور إلى البساط فلما رأى أبا مسلم فيه وتحقيق موته قال : « عد هذا اليوم أول يوم من خلافتك » (١)

ولما فرغ المنصور من أبي مسلم لبث يتوقع ما يبدو من رجاله الخراسانية لعلهم انه ارتكب بقتله خطرا عظيما فاعلم أن نار عليه جماعة منهم يعرفون بالراوندية وكادوا يفتكرون به لو لم يدافع عنه هين بن زائدة . فقتل الراوندية جميعا واسكنه أصبح لا يأمن على نفسه من مثل هذه الثورة فبنى مدينة بغداد بشكل حصين بقيه غائلة ذلك عند الحاجة : ثم عمده إلى تخليص الخلافة من آل علي فارب محمد بن عبد الله وقتله . ثم رأى من آل العباس من ينازع عليها ، منهم عمه عبد الله . وكان أبو مسلم قد غلبه ، ولما لم يتمكن من قتله فاحتال المنصور في استقدامه بأمان بعثه إليه مع ولديه فجاء خبسه عنده . ثم علم سرا أن ابن عمه عيسى بن موسى ينوي الخروج عن طاعته ، وكان واليا على الكوفة . فتجاهل وبعث إليه ، وقد دبر أمرا كتمه عن رجال بطائته : فلما جاء عيسى استقبله المنصور بالترحاب والاكرام ثم أخرج من مكان في حضرته من الحاشية واستبقاه وحده وأقبل عليه . وقال : « يا ابن العم إني مطلقك على أمر لا أجد غيرك من أهله ولا أرى سواك مساعدا لي على حمل ثقله فهل أنت في موضع ظني بك وعامل مافيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي » فقال له عيسى : « أنا عبد أمير المؤمنين ونفسي طوع أمره ونهيه » فقال المنصور : « ان عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطائته واعتمد على ما بعضه يبيع منه ، وفي قتله صلاح ملكنا نفذه اليك واقطعه سرا » فأطاعه عيسى فسلم إليه عمه فضى به إلى الكوفة . وأضر المنصور أن ابن عمه عيسى اذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص وسلمه إلى أعمامه إخوة عبد الله ليقتلوه به فيكون قد استراح من الاثنين معا . أما عيسى فكانه شك في نية المنصور ، والناس يومئذ يتهم بعضهم بعضا خوفا من وصية الامام : فانتشار بعض ذوي مشورته خذروه من عاقبة ذلك فبس عمه ولم يقتله . ولما طلبه المنصور منه دفعه إليه حيا فقتله في بيت جعل أساسه على الملح (٢) .

وأمثله ما أتاه المنصور من الدهاء والفتك في تأسيس دولته كثيرة . وكان يعطى الأمان ثم ينكث كما رأيت فعلاه بعمه عبد الله وكما فعل بابن هبيرة عامل بني أمية على واسط لما يبيع السفاح ، وأرسل أخاه المنصور لمحاربه : فجرت السفراء بينهما واتفقا على أن يدخل ابن هبيرة في أمان بني العباس : فكتب له المنصور أمانا ظل ابن هبيرة أربعين ليلة وهو يشاور فيه العلماء حتى تحقق صحته ورضى به فبعثه إلى أبي جعفر فأنفذه أبو جعفر إلى أبي العباس فأمره بامضائه . وكان رأى أبي جعفر في بادئ الأمر أن يني بما أعطاه ، ولكن أبا مسلم (وكان لا يزال حيا) أشار على السفاح أن يقتله قائلا « ان الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسدت . لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة » فبعد ان جاء ابن هبيرة إلى أبي جعفر مستأمنا غدر به وقتله (٣) لانه اتهمه ثم اتهم أبا مسلم وقتله بعد ان آمنه كما رأيت ، وشاع نكث الأمان والغدر عن المنصور وتحدث به الناس : فلما قام محمد بن عبد الله العلوي في المدينة خافه المنصور كما تقدم فبعث إليه يرض عليه الأمان ويعدده خيرا فأجابه محمد : « أي أمان تعطيني أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله أم أمان أبي مسلم (٤) »

وظل المنصور وأبو مسلم قدرة لمن جاء بعدهما بالدهاء والفتك . على أنهم لم يكونوا يبطشون أو يفتكون

(١) المستودع ١٦٧ ج ٢ (٢) المستطرف ٦٣ ج ١ . وابن الأثير ٢٥٧ ج ٥

(٣) ابن خلكان ٢٧٩ ج ٢ (٤) ابن الأثير ٢٥٤ ج ٥



الافى من نازعهم على الخلافة فنهنا يقتافونه على الشك . أما أحكامهم فيما خلا ذلك فى نهاية العدل والرفق كما سياتى . أما من كان فى نفسه مطمع فى الخلافة أو ما يتعلق بها فحكمه حكم المجرمين : فشكل من يطلب الخلافة لنفسه أو يسعى فيها لأحد كانت حياته فى خطر فإذا دعى للأول بين يدي الخليفة اغتسل وتحنط استعدادا للبيت .

وكان المنصور أيضا قدوة لعدد الرحمن بن مملوك مؤسس دولة بنى أمية فى الأندلس وقد فر من العراق فالتجأ الى المغرب فخراف من القتل فنصره رجاله ، رخصوا مامولى له اسمه بدرسى فى تأييد سلطانه مثل سعى أبى مسلم فى الدولة العباسية ، فلما استتب له الأمر سلبه كل نعمة وسجته : ثم أقصاه حتى مات وفعل نحو ذلك فى رؤساء الأحزاب الذين نصره ، وسياتى الكلام على ذلك .

واشتهر فتك العباسيين بالذين ينصرونهم فى تأييد دولتهم حتى صار الخلفاء أنفسهم يشيرون الى ذلك اذا أعوزهم الاستدلال به . فالأمين لما رأى طاهر بن الحسين يتفانى فى نصرة أخيه المأمون وقد تولى قيادة جند الخراسانيين وغلب على جند الأميين وكاد يذهب بدولته كتب الأمين اليه : « بسم الله الرحمن الرحيم اعلم انه ما قام لنا منذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه الا السيف فانظر لنفسك أر دع (١) » وفى الواقع ان المأمون لما استتب له الأمر فى الخلافة بسيف طاهر المذكور عمل على قتله بحجة مثل حجة المنصور بقتل أبى مسلم فأهدى له خادما كان رباة وأمره أن يسمه ففعل (٢) . اهـ مأودته من كتاب التاريخ العبدى الاسلامى والحمد لله رب العالمين .

\*\*\*

فانظر أعزك الله أيها الملك فى هذه الأمم الاسلامية ، وكيف :

- (١) يأمر هشام بن عبد الملك سرا بقتل (أبى هاشم) ابن محمد بن الحنفية الذى تدعوه الفرقه الكيسانية
- (٢) ثم إن أبى هاشم لما أحسن بانوت أوصى بالخلافة لمحمد بن على بن عبد الله بن عباس .
- (٣) ولما تولى ابنه ابراهيم الامام أصبح ما كان يأمر به كأنه كتاب منزل ، وكيف يأمر أبى مسلم بقتل كل من يتردد فيه ، وكيف يقتل ٦٠٠٠٠ غدر فى منازلهم وفى طرقهم ! والله حرم القتل ! فهل يباح القتل لأجل الملك ؟ فأين الشورى ؟ وأين آية : « وان طائفتان الخ » .
- (٤) وكيف بايع العباسيون باسم آل محمد ، ثم استبدتوا بالملك وقنوا العلويين ، بأى كتاب ؟ أم بأية سنة ؟ وبأى عقل ؟

- (٥) وكيف يقتل أبرسامة الخلال المثرى الشهير غدرا وظلها المتمسك بالعلويين ؟

- (٦) وههنا أمر عظيم محل بالأمة ، هذا عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة جاء الى السفاح الذى اغتصب الملك من ابنه فأكرمه وعرض عليه المال فأعطاه أثاث ألف درهم ، وفى نفس الوقت حضرت جواهر نهىها عسكر العباسيين من مروان بن محمد ، فلما رآها عبد الله أخذ ينظر إليها ويبكي الى آخر ما تقدم من أنه يبكي لأن هذا كان عند بنات مروان ، ومارأت بنات عمك مثله قط ، وأعطاه تلك الجواهر . هذه الحكاية وحدها ان صحت تدل على تغير الأخلاق فى بعض آل البيت ، ذلك لأن عصر النبوة كان عصر زهد فهاهنا البكاء ، وما هذا النحيب ؟ إن أخلاق الأمة إذ ذاك تغيرت ، لأن الأمة نسبت أخلاق النبوة ، وأنس الناس بالترف والنعيم ، وبيت النبوة الذى هز النور المشرق فى الأمة أيضا انحطت ببعض حجراته الظلمة ، النبى ﷺ وأبو بكر وعلى وغيرهم يحرقون المال ، وفاطمة رضى الله عنها تطحن على الرحى ، ثم انا نسمع أن عبد الله يبكي

لجواهره ويفرح بالمال ، ذلك تغير عظيم في أخلاق الأمة حتى سرت إلى بعض رجال بيت النبوة ، تغيرت أخلاق الأمة ، فبعد أن كان الخليفة يحارس المال الأمانة كحرس رضى الله عنه أصبح مترفانمعا كالعباسيين والأمويين ، واشترأت لهذا أعناق العلويين . هذا كله لأن الخلافة بعد أن كانت عفيفة عن مال الأمة أصبحت شرهة على ما لها ، وطابت لذلك ، وكل من وصل إليها اعتبرها غنيمة له ، وما أقبح هذا الجليل بأمة الاسلام ١

(٧) ثم كيف نرى أبا جعفر المنصور يبحث في طلب بني الحسن الذين كانوا نصراؤه بالأندلس ، وكيف يقتلهم جميعا بعد أن أحضرهم مقلين بالقيود والأغلال ؟ وكيف يضرب مالكاً على فتواه في طلاق المكره ؟ وكيف حبس أبا حنيفة ؟ ذلك لأنهمما أفتيا بأن بيعة محمد بن عبد الله صحيحة ولا بيعة للمنصور ، ثم كيف يقتل من كان هو مبايعاً له بالأندلس من آل بيت النبوة ؟

(٨) اللهم انك أنت المهيم من العليم الحكيم ، أمر إبراهيم الامام باذلال العرب على يد أبي مسلم الخراساني فقتل منهم مئات الألوف في منازلهم ، حرمة الله الملك إذ قتله الأمويون ، تولى أخوه السفاح بعده فلم يشفق على بني أمية لما تم له النصر ، وأهلك النوم ، فلم يدم له الملك ، ومات ولا ذكر لعقبه . فنولى أبو جعفر المنصور ، فأوقع بالطائفتين الدوايين من ناحية وأقاربه العباسيين من جهة أخرى ، وقتل أبا مسلم . كل ذلك مخالف للقرآن والعقل ، وتولى الخلافة ذريته فلم تطل المدة حتى رأينا ما يأتي :

(٩) اختلف الأميين والمؤمنين ، وكل أنصار ، فأنصار الأول العرب ، لأن أمه زبيدة حفيدة المنصور وأنصار الثاني الفرس ، لأن أمه فارسية ، وكان في خراسان بين أخواله وشيعته فتنصره الخراسانيون كما نصره أجداده ، إن الفرس هم الذين أقاموا هذه الدولة ، ولهذا حقروا العرب بعد أن كان بنو أمية رافعي شأنهم ، وههنا زاد إتهان العرب ، فالدولة عربية ظاهراً فارسية حقيقة ، فلما مات المؤمن سنة ٢١٨ تولى الخلافة أخوه المعتصم ، وأمّه تركية من بلاد (السغد) في تركستان ، فشب محبا للأتراك ، وصار لا ياتمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الأمين ، وهي أول مظاهر جراتهم على الخلفاء ، ولم يكن له ثقة بجند العرب ، لأن العباسيين أذلّوهم فضعموا واستسكانوا ، ومن المدهش أن أخاه المؤمن أوصاه بمحاربة العرب ، ولذلك منهوا من أعمال الدولة ، وآخر عربي تولى عملاً عنيسة بن اسحق الضبي سنة ٢٣٨ هجرية ، ولقد أراد المعتصم كما زهد في رجال العرب أن يزهد في بلادهم ، فبنى سائراً بالقرب من بغداد ، وأقام فيها جنده ، وأنشأ فيها كعبة ، وجعل حولها طوافاً ، واتخذ بني وعرفات ، غرباً بذلك أمراء كانوا معه لما طلبوا الحج خشية أن يفارقوه ، فصار بذلك لفظ عربي مرادفاً لأحقار الأوصاف عندهم . ومن قولهم : « العرب بمنزلة الكلب اطرَح له كسرة واضرب رأسه » . وقولهم : « لا يصلح أحد من العرب إلا أن يكون معه نبي ينصره الله به » وأصبح الأمراء والوزراء وسائر رجال الدولة من الفرس والترك والديلم وغيرهم ، وصار الخلفاء يؤيدون مناصبهم بالأجناد وبذل المال ، وقلت العناية بالعرب وأحزابهم ، وهذا سرّ انك تسمع ابن طولون والاشيد والمماليك البرية والبحرية كانوا يحكمون مصر ، وتلك هي السنة التي سنّها العباسيون من التجأهم إلى غير العرب وانحيازهم إليهم ، ناهيك ما فعله المنصور ، إذ أمر رجاله أن يلبسوا القلائس الفارسية الطويلة ، تدعم بعيسدان من داخلها بدل العمام ، أو يعمموا فوقها بعمامة صغيرة ، وأن يعلقوا السيوف في أوساطهم ، وأن يكون اللباس الاسود عاماً فيهم ، وهو شعار العباسيين كما كان البياض شعار الأمويين ، فلا بد للداخل على الخليفة العباسي من لبس جبة سوداء يسمونها « السواد » تغطي سائر ألبستهم ، وألبستهم المنصور درار يع

كتب على ظهورها : « فسيكفيكمهم الله وهو السميع العليم » وبعث إلى عماله في سائر الأقطار أن يأمرُوا رجالهم بمثل ذلك .

### نتيجة أعمال الأمويين والعباسيين في الاسلام

نحن الآن أيها الذكي لم نكتب هذا حبا في التاريخ ، إن التاريخ لا معنى له إلا الاعتبار والذكرى والناسي والله يقول : « أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » تلك القرى نقص عليك من أنبائها الآيات .

الله أكبر : نحن الآن في تفسير آية : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » الآيات التي تأمر بالصلح أولا والاخاء ثانيا ، ولما قرأنا تاريخ أسلافنا ، ألفيناهم بعد العصر الأول هجروا الشورى بتانا ، ورجعوا إلى عادة الجاهلية الأولى ملطفة بالاسلام . فلما فعلوا ذلك أخذوا يتخذون غير العرب لاذلال العرب .

الله أكبر : إن الغنم بالغرم ، أذل العباسيون العرب ، لماذا ؟ لأجل الخلافة ، ولم ذلك ؟ لأن الخلافة تعطيم الحرابة في الأموال والدولة ، واسكنها لو كانت تلك الخلافة خلافة صادقة بحيث لا يتصرف الخليفة في مال ولا في حال إلا بالشورى ، لم يتناحروا ولم يتقاتلوا عليها ولم يبيك عبد الله بن ذريرة الحسن ورضي الله عنه أمام السفاح لأجل الجواهر والمال ، لبس العباسيون ملابس الفرس ، هجروا العرب أمر المتصم بالأيأخذوا من العطاء فإذا جرى ؟ أصبح أولئك الخلفاء تحت إمرة الفرس تارة والترك أخرى ، فقتلوا من الملوك العباسيين ٣٨ من ٥٩ خليفة ، وبعضهم سملوا عينيه ، وأصبح يسأل الناس على أبواب المساجد (اقرأ هذا المقام موضحا في ﴿سورة الأحقاف﴾ عند آية « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » فهناك ترى كيف قتل باغر التركي المتوكل وهو في حال سكر ، وكيف قتل غيره وغيره) .

إذن بنو العباس استعانوا بغير العرب لاذلال العرب ، فصاروا هم أول من أذهم الفرس والترك . كل ذلك ترك الشورى ، ونسيان القرآن ، واتباع العصبية الجاهلية ، يتعصب العباسيون ؟ لمن يتعصبون ؟ لأجل المال لا غير والسلطان ، فتكون النتيجة الوبال على الذرية . إن ماصنعه العباسيون مع العرب بقي أثره إلى الآن ، ألم تركب حداثا التاريخ بالممالك البرية والبحرية وبالأمة العثمانية التي أذلت المصريين وأكثر بلاد العرب ، ذلك لأن الأمم العربية ذهبت غالبا عصبيتهم فناموا ولم يظهر فيهم نابضون يذكرونهم مجدهم مثل من ظهوروا اليوم فناموا نوما عميقا . إن ما فعله العباسيون سرى في بعض أمراء الأندلس ، فانهم كانوا يستعينون بجيرانهم من الفرنجة على اهلاك المسلمين . وانظر إلى قصة برّاق في ﴿سورة الأحقاف﴾ أيضا في الآية المذكورة . وكيف كان يقابل بابا رومه ودوق فينيزيا وبارونات أوروبا . وكيف جاء بوعد من البابا لأمر أشبيلية (جندل بن حمود) انه هو الذي يكون أميرا على بلاد الأندلس على شرط أن يعبر على قرطبة ليخضع شوكة المسلمين ، ففعل بهذه الوصية ، وأغار على قرطبة ، فسكان الفرنجة في نفس الوقت مغبرين على أشبيلية ، وفضحوا البكر والمرأة بحضرة أبيها وزوجها ، وقتل ٣٠ ألف لأجل المحافظة على العرض ، ومثلهم وأكثر منهم لأجل المحافظة على الدين ، كل ذلك وجندل بن حمود مغرور بوعد البابا وبارونات أوروبا ودوق فينيزيا ، وقد خاب ظنه ، فانهم قتلوه في قرطبة غدرا بعد أن ساعدتهم في إذلال المسلمين ، أما عسكره فانهم رجعوا فوجدوا أشبيلية مدينتهم قاعا صفصفا ، وقابلهم عسكر الفرنجة بالقتل والاهلاك ، فطلبوا الأمان .

هذا مثل واحد مما ذكرته هناك في ﴿سورة الأحقاف﴾ عند آية : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا » إلى آخره .

الله أكبر : إذن أم الاسلام بعد أزمان النبوة قد خالفوا كتاب الله تعالى وسنة نبيه واجماع الأمة .  
الله أكبر : إذن بعض ما نحن فيه الآن نتائج ما كان من آباءنا . اللهم إني أجدك جدا كثيرا على نعمة العلم ، وعلى أن وفقتني للإسلام بما حصل لأمتنا حتى يكون ذلك نبراسا لمن بعدنا ، فنسكون أرقى حالا مما نحن عليه الآن .

اللهم اننا نحن الآن مغمورون في بحار من الجهالة ورثناها عن بعض أسلافنا الغابرين . هاجم أولاء بعض شيوخ الطرق في زماننا ، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، يحمون الرايات ، ويتخذون النقباء ، ويمطون اليهود ، ويطوفون بالبلاد ، لماذا هذا ؟ هم لا يعلمون سر ذلك ، ولكن سره أظهره التاريخ كان العباسيون والعلويون يفعلون ذلك لما فاتتهم الخلافة ، وكان أبو مسلم الخرساني تحت امرته نقباء بني العباس وبهذه اليهود والمريدين والتلاميذ استرجعوا الخلافة ، وفكسوا بمن هم أحق منهم وهم العلويون ، ذهبت الدولة العربية ، ولكننا لانزال نرى النقباء والتلاميذ في جميع بلاد الاسلام ، وهؤلاء وان كانوا يريدون التقوى والصالح كان أمرهم فيما مضى راجعا لطلب الخلافة كما ترى في دولة الفاطميين بمصر ، وحسن بن الصباح ببلاد الفرس في قلعة الموت . هذه فكرة عامة ، وصورة مصغرة ترىنا حالهم المنظر في مستقبل بلاد الاسلام .

### اعتراض على المؤلف

فلما اطلع صديقي العلامة على هذا ، ودرسه حق دراسته . قال : مأجل هذا البيان ، اننا كثيرا ماقرأنا التاريخ ، ودرسنا القرآن وتفسيره ، ولكن تطبيق التاريخ على القرآن نادر عند آباءنا السابقين ، فأنا أجد الله على نعمة العلم وانتظام التاريخ مع آي القرآن . ولكن هنا تبدى لي سؤال ؟ وهوانك بهذا البيان قد كسرت قلوبا صحيحة ، ونفوسا بريئة ، فانه بناء على هذا البيان يكون مجدنا القديم ضائعا ، إذن تاريخنا أسود وأبؤنا ظالمون جهلاء ، إن هذا القول يقبض القلب وينكس الرأس ، ثم انك نقلت عن الفرنجة الذين لا يرجي منهم مودة للمسلمين مدح هؤلاء الملوك فكيف تجمع بين الذم والمدح ، وهل المقول تقبل الصديق ؟ ياسبحان الله : إذن جميع المدح إنما هو تظاهر من المادحين ، لأن ما فرأته الآن في هذا المقام ظاهر من التاريخ فهو لاشك فيه إذن المدح هو المشكوك فيه . فقلت له : أيها الصديق ان المدح والقدح كلاهما حق . فقال : وكيف ذلك ؟ قلت : لقد قدمت في هذا التفسير في سورة سباء وغيرها أن الأمة أشبه بطفل ، وكل قرن في حياتها يعتبر سنة واحدة في حياته ، إذن الأمة اليوم كمرأى في السنة الرابعة عشر ، ولكنها اليوم أدركت البلوغ قبل ١٥ سنة كما يدرك الشاب بالاحتلام قبل السن ، والدليل على ذلك انها اليوم تقبل العلم والحكمة المنشورة بعد أن كانت لا تقبلها ، ولا تعرف لها وزنا ولا طعما .

إن الطفل في أول أيامه يصبه التخبط والجهالة ، لاسيما اذا كان يتيم ، وهذه الأمة لما فقدت الخلفاء الراشدين بعد النبي ﷺ أخذ المسلمون يتخبطون في ديجور الظلام ، ونسبت الأمة الشورى ، لأن الشورى إنما تكون بين البالغين ، فأصبحت الأمة ككرة طرحت بصوالة تلقفها الأمويون فالعباسيون فالأسماء الخارجون عليهم وأسماء الأندلس ، ثم دالت الدولة ، ولكن بقيت الذكرى والذكرى تنفع المؤمنين .

ان ما اتفق لآبائنا هو الأس الذي بنى عليه نظام مدينتنا ، وكيف نتجه للشورى ونحرص عليها ، نصطفى الأمراء ورؤساء الجمهوريات إلا اذا رأينا عبر الدهر في آباءنا الأولين ، والذي منعنا أن نسير على الطريق المستقيم إنما هو الجهل بالتاريخ وبخطائه وآلامه وبالشرع نفسه ، أما الآن فقد عرفنا الحقائق ، وأن آباءنا كانوا في زمان لم ينضج فيه العقل الاسلامي في أمر الخلافة والحكومات فشردوا كل مشرد ، وباءوا وأصبحوا ذا كرى للذاكرين



هذه ذكرى لنا ، ولقد عرفنا اليوم والمعرفة أساس العمل ، فهذه سائق للحكومة المنظمة وقائد ، أما السائق فهي الآلام التي حلت بآبائنا الأولين ، وأما القائد فهو ما نراه من الحكومات المنظمة في بلاد أوروبا وأمريكا واليابان وغيرهما ، وهؤلاء لم يكن لهم نظراء قبل ظهور نبينا العربي عليه الصلاة والسلام ، هذا ما كان من أصي الحكومات العام .

### النظام العام في الاسلام

فأما فيما عدا ذلك من النظام العام فكانت دولهم أعدل دول الأرض ، وقد بقي ملك العباسيين إلى القرن السادس وملك الأندلس إلى القرن التاسع ، فهذه حكومات كان العدل هو الغالب فيها ، وظهر في تلك الممالك العلماء والحكماء والشعراء والمهندسون ، وجميع من يحتاج إليهم العمران ، بل هم قدوة أوروبا وحاملو لواء العلم في العالمين .

داهوذا الشرح والمذاهب والقرآن باقية محفوظة ، هاهوذا القرآن والشرعة باقية لم تمسهما يد الخلدان فلم يقدر المنصور أن يمنع الحج بقبته التي بناها لتكون مظاف الحجاج ببغداد ، ولا المعتصم لما جعل في سامرا مناسك الحج ولا غيرهما ، فهذه مناسك الحج والقرآن باقية ، وهل من رقت تلك الفرق المتشاكسة وهي اثنتان وسبعون فرقة دين الاسلام ؟ كلا ، بل من رقت وحفظ الاسلام .

أشرق دين الاسلام في العرب وانتشر في الأقطار ، وتنقلت رئاسته من العرب إلى الفرس إلى الترك إلى أمراء في سائر الأقطار ، هذه سنة الله في خلقه ، تنتقل الشمس في أبراجها والقمر في منازلها ، والمادة في صور الجساد والحيوان ، إن المادة خلق الله والدين لله وهو القائل : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » فهذا هو العدل وحسن النظام .

إن المسلمين في المستقبل غير المسلمين الماضين ، فهؤلاء يسلم لهم الدين والعلم والحكمة والاعتبار بالتاريخ وسيكون الأمراء والملوك والخلفاء آباء الأمم الاسلامية ، لاذنابا يفترون المسلمين ، وسيكون أمرهم شورى بينهم . المسلمون السابقون كانوا خير أمة أخرجت للناس في زمانهم ، ذلك أن دولهم كانت خيرا من دولتي الفرس والروم ، ولما ضعف أمرهم ارتقى النظام في ممالك أوروبا ، فنحن الآن لا نكون خيرا من أمة أخرجت للناس إلا إذا اعتدنا في الخلافة والامارة ، وكان أمراءنا أشبه قوم بأبي بكر وعمر وعثمان والنبى صلى الله عليه وسلم . هذا من حيث النظام العام في المملكة ، فأما الأفراد فانهم سيملكون ما نقوله في هذا التفسير ، ويعملون به عن اعتقاد وإخلاص وصدق ويقين ، وذلك ما قررناه مئات المرات من أن القيام بأى عمل من أعمال الأمة لنظامها فرض من فروض الكفايات ، فهو من جهة عمل نافع للأمة ومن جهة أخرى سعادة للرء في الآخرة بل يقول إمام الحرمين وغيره إن ذلك أفضل من فرض الدين لأن القائم بهذا العمل دفع الخرج عن بقية أمة الاسلام . وأمة هذا اعتقادها ويقينها لا جرم تكون خيرا من أمة أخرجت للناس ، فإذا كانت الأمم يعمل أفرادها للجهاد والمال مثلا فهذه أمة الاسلام يعملون الأعمال العامة تقربا لله تعالى ، فيكونون أرقى من جميع الأمم . هذه هي أمة الاسلام في مستقبل الزمان . انتهى



## جمال العلم . ونور الحكمة . وأزهار الهدائق العلمية . وبهجة القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك اللهم وبحمدك ، أنت المنعم المتفضل الحكيم ، معلم الحكمة ، وملهم كل حشرة ودابة وإنسان وملاك كريم .

بينما كنت أكتب في مقالة في سورة (ق) في بيان جمال العلم وبهجة الحكمة وأسرار اليقين في معنى (الم) في قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وقد استبان بعض أسرار (الم) وأن هذه الحروف في سورة (ق) لها صلة وثيقة بها في أول (سورة البقرة) وانها فيها مفتاح فتحت به أسرار في زماننا كانت مغلقة الأبواب ، وأن الشبان في عصرنا وفما بعد عصرنا سيفتتحون بهذه الحروف خزان كانت مغلقة على القرون المتأخرة في أم الاسلام الذين أغرقتهم مطامع آبائهم في أحوال هذه الحياة ، ومطامع الأمم الذين يحيطون بهم ، نأهتهم عما يحيط بهم من العلوم كالفلك وعلم النبات والحيوان ، فخرجنا نحن في الأرض حائرين لا ندري أين تتوجه ؟ فألقينا هذه المفاتيح التي أعدها الله لزماننا ، فبأنس بها الشبان الأذكياء ، فينالون منها ما يريدون ، ويضارعون الأمم المحيطة بهم ، بل يكونون أرقى الأمم ، لأنهم إذ ذاك يكون ما يعملون لدنياهم هو عين ما يقرت بهم إلى ربهم ، وهذه منزلة لم يسبقها سابق ، وإن يلحقها لاحق ، وقد فصلت هناك المقام تفصيلا ، واستبان من قراءة التاريخ في ابن خلكان وغيره أن ملوك المسلمين تداولوا هذه الحروف فيما بينهم وجعلوها رموزا في السكتات الرسمية ، فأدت الغرض الشريف ، وحقت دماء ، وحفظت ممالك ، ولكن لم يفض ختام تلك الأسرار من الوجهة الإلهية والنظام الاجتماعي إلا في زماننا أي عند الحاجة إليها كما استعملها أوائل الملوك في أغراضهم السياسية ، تمهيدا لما زاولناه في هذا التفسير من المناهج الشريفة ، والمقاصد المنيفة ، واسعاد الأمم ، وإثارة الهمم ، وطمس معالم التفرق والانحلال ، وتشديد حصون الوثام ، ورفع بنود الارتقاء والاتحاد ، واستباق الخيرات في سواء السبيل .

أقول : بينما أنا أكتب ذلك إذ حضر صديقي الملاية الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . فقال : ما أجل ما وصفت ، وما أحسن ما صنعت ، ولكنني أذكرك بما أبنت في (سورة الحجرات) من تفرق وانحلال ، واختباط واختلال ، وبهتان وضلال ، وجهل ووبال ، في الممالك الإسلامية ، وما أحيط بها من كل ضرر وبلية ، فقد ذكرت أنهم كانوا في غيهم يلعبون ، وهم في كل واد يهيمون ، ويقولون ما لا يفعلون .

فما كادت شمس الذات المحمدية تغرب من سماء الوجود ، وتلاها الشفق بعد الغروب في أزمان أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، حتى عسعس الليل ، وعبس الدهر ، وكأج وجه الزمان وبسر ، وأصبحت الخلافة ملكا عضوضا ، لافرق فيها بين الأمويين والعباسيين والفرس والترك والأندلسيين ، وكل دولة إسلامية هذا شأنها وذلك دأبها ، ولما كان هذا التفسير لم يقصد به مجرد إرشاد الأمم ، وإثارة الهمم ، بل أريد به ما فوق ذلك من إظهار الحكم الإلهية ، والظم الحكيمية ، وآثار العجائب الربانية ، أليست هذه الأمم المختلفة النظام في حكوماتها ، الشاردات في غيها وشرها ، خلقا خلقه الله بيده ، فليكن تبيان الحكمة في ذلك الاضطراب بعد النظام ، والملاية بعد الخلافة .

إن النفس تواقفة إلى مناظر أزهار الحكمة في رياضها ، وإلى ثمار العلم في سعداتها ، حتى تطمئن إلى حقائق التكوين ، وبدائع الابداع ، إن الأمم التي وقفت عند ظواهر التشريع ، ولم تعرف السر المصون ،

ولا الجوهر المكنون ، في النظام العام تسمى وتصبح وهي خاملة ، وتصبح ديارها فيما بعد خاوية على عروشها ، وبثرتها معطاة وقصرها غير مشيد . إن القاصرين على ظواهر التشرية مثلهم كمثل « شجرة مخيطة اجتمعت من فوق الأرض ما لها من قرار » ، والذين أدركوا سر النظام مثلهم كمثل « شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها » ، فالأولى كشجرة الخنظل ، والثانية كشجرة النخيل . إذا تقرّر هذا فأنا أرجو أن تبين لنا ما السر ؟ ما هذا الخلاف ؟ والتفرّق والانحلال بعد العصر الأوّل ، وكيف ينزل دين من السماء عظيم ، يزلزل الأرض زلزالا شديدا ، ثم يرفع الانسانية أجيالا ، ثم يختفي وراء الحجاب ، وتلبس الأرض رداء الحداد عليه ، وتلبس الانسانية ثوبا قشيبا من مدنية حديثة ، وحامو هذا الدين نائمون هائمون . فأنا أودّ أن تشرح لنا هذا المقام ليتحد التشرية مع التكوين ، وتلتئم الحقائق مع الظواهر ، والعقائد مع الفروع ، وهذا به ارتقاء الأمم وسعادتها إلى حين ؟ .

فلما أتمّ ذلك ، قلت له : لقد أجدت في صوغ عبارات السؤال واصطفيتها بصفاء نفس وجودة قريحة ، حتى تجلت بيضاء نقية للقارئ . فاعلم أيّدك الله بالفهم ، وأهلك الحكمة ، وأثار بصيرتك بالعلم ، أن آية (ق) التي ذكرتها : « أفلم ينظروا إلى السماء الخ » فيها الجواب عما تقول . فقال : وكيف كان ذلك ؟ فقلت : إن فيها ذكر النبات ، والنبات أنواع مختلفة ، ولكم من نبات قد خفيت منافعه حينما عن البصائر ثم ظهرت فجأة إلى الوجود كما حصل في زماننا هذا ، فإن امرأة افرنجية في مصر نشرت (قبل أواخر سنة ١٩٣٩) الفرنجية أي قبل ثلاثة أشهر من كتابة هذا الموضوع) في الجرائد المصرية أنها جرّبت الرحلة المسماة « البقلة الحقاء » وهي كثيرة في بلادنا المصرية تقول انها جرّبتها إذ شربت ماءها بعد أن عصرتها وقد كانت مريضة بالسكر وكان السكر ٩٠ في المائة ، فأخذ يقلّ حتى شفيت تماما . وما كادت تعلن هذا في الجرائد حتى صنعت آلات لعصر الرحلة ، ويبت للناس ، وأخذ المرضى يفعلون ذلك رجاء الشفاء .

هذا هو الذي تمّ في أيام كتابة هذا الموضوع في بلادنا المصرية ، وانما ضربت هذا المثل المفيد في علم الصحة بتجربة امرأة أرادت الخير للناس إلا لأجعله نظير ما في القرآن من العلوم ، فالدين نزل من السماء بقول الله ، ونظام الزرع بفعل الله ، فإذا رأينا نظامه الذي صنعه بيسديه تخفي أسرارها على نوع الانسان . ينظر الأشجار والزرع ولا يفقه منها إلا قليلا ، ويسم الزهر في وجوه الناظرين وهو يقول : انظروا إلى جمالي ولكن ما أوتيتم من علمي إلا قليلا ، فهكذا يسمع الناس الكلام الموحى به ، ويتعجبون ببلاغته ، ان كانوا من الأمم العربية ، أو باحترامه وتقديسه ان كانوا من غير الأمم العربية ، ثم يسمعون خطاب الوحي : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ويسمعون أيضا : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم » فنوع الانسان على الأرض ليس مقياسا لنظام الطبيعة المنظورة ، ولانظام الكتب السماوية المسموعة ، لأن السمع والبصر ليسا يقدران على الحكم في قول بليغ ، ولا نظام زهر بديع ، بل الحاكم العقل الانساني ، والعقل الانساني مغموس في سحابة الطين ، فهو يعطى من العلم بقدر كما اتفق لهذه المرأة الافرنجية في « البقلة الحقاء » وكما يلقي من الفكر لأناس يعيشون في زماننا وبعده لا يدرك بعض أسرار الآيات القرآنية كالمفاتيح الآتي ذكرها في سورة (ق) كما قدّمناه .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : أنا أقارضك الثناء ، فأنت أثبتت على تنميق السؤال وإيضاحه ، وأنا كذلك بدوري أثبت ثناء مستطابا على الاجابة ، ولكنّها ليست بكافية ، وانما علمتنا مسألة طيبة جاءت للتنظير والتشبيه ، ولكن المهم أن ندرك سر اختلاف الأمم الاسلامية التي سبقتنا وقد أوضحناها ، ما سرّ هذا الاختلاف وهذا الخلود الطويل ؟ وما حكمته التكوينية ؟ ولم أستفد من هذا الجواب إلا أن بعض أولى الألباب ياتي إليهم فهم أمور في الاسلام كما أتى إلى هذه المرأة في الطب .

وما يخصه أن أهم لاسلام المتأخرة غشى على عقول كثير من أكابرها فهاب عنهم كثير من النقائق ، و يعضها أخذ يظهر الآن ، أى أن السر كل السر إنساها إلا تعداد . فلا استعداد إذا رقت ، عند هذا محدود بها أسير به من غواشى الظلم داخل وخارجا يفت من انهم ، إذن الذين فيه السر المصور ، والجوهر المستنور ، والصراط المستقيم ، ولكن العقول لم تهتد إليه ، رستتدى الآن وتنظم دول الاسلام . هذا شرح ما أجهلته ، فإن سر النظام هنا أن الفضائل ( وإن كانت موجودة فلا ) لا تعطى إلا لمن يستحقها ، فهذا الجواب مع تناسبه عجّل لا يشفى الغليل . فقلت : سيالك الله و يالك ، فإن أثبت يصاح إلا الانصاح ، فوالله أنقى حلياك التامعيل بعد الاجتهال .

اللهم منك الحول ، ومنك القوة ، اعلم أيها الأخ الواقى للحكمة ، الفرح بها ، المستعدّ انهم بها ، أن الناس إذا لم يفهموا المحسوسات لا يدركون المعقولات ، ومن عجز عن فهم ما أدركته الأبصار فهو عن ادراك ما وراءها أعجز ، ومن كثرت مدركاته البصرية وكل محسوس وعقلها برؤية كثرت ما وراءها من ماومه الحسكية . فلا شرح الآن لك أيها الذكى خمسة أنواع من العلوم :

- (١) نظام النبات .
- (٢) نظام الفلسفة العام .
- (٣) نظام الحكومات كحكومتنا المصرية اليوم .
- (٤) نظام البيانات العام .
- (٥) النظام الجمل للذاهب الاسلامية .

وكل ما سأفصله في هذا المقام فهمته مما فتح بفتاح : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بفيهاها وزيناها وما لها من فروج \* والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج \* تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

فهذا الذى ذكرته الآن هو نفس هذه التبصرة وهو الذكرى ، فانا إذا فكرنا فى أمر النبات وجدناه يحلّ هذه المشا كل كلها . والنبات منظور ، وهذا المنظور يحلّ لنا مشا كل المسموع والمعقول . فقال : إن ما تذكره الآن أشبه بالألغاز ، والتعريف يجب أن يكون أوضح من المعروف ، فأين الايضاح هنا ؟ فقلت : خلق الانسان من عجل . ههنا خمسة فصول :

### الفصل الأول فى النبات

إن فى النبات فاكهة وحبا وخضرا للانسان ، وفيه حشائش وتين للحيوان ، وفيه أغذية لأدنى الحشرات ولكل حيوان ، وكل فى الأرض من فضلات نباتية وحيوانية عفنة قدرة يعيش عليها أدنى الحيوان من خلق ودود ونحوها من المحاوقات ، إذن النبات يغذى أشرف حيوان يكاد يلتحق بالملا الأعلى وهو الانسان وأخس حيوان يكاد يلتحق بالطين اللزب وهو الدود ، وبينهما درجات لا يكاد يحصرها العدد ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، فلا الدود يبنى فوق مالهيه ، ولا الانسان يتنزل عما أمده به ، فهذه الحيوانات اقتسمت النبات وأكلته ، وكل يسعى لطلب رزقه فيما استعد له وله خاق ، وهو معرض عما وراء ذلك ، وهو بذلك فرح سعيد ولم نجد من هذه الأنواع من الحيوان أحدا يلتقى نظرة عاقمة على جميع النبات إلا بعض خواص الانسان .

### الفصل الثانى فى نظام الفلسفة العام

قلنا فى الفصل السابق ان الدود قد يعيش فى فضلات النبات والانسان يأكل منه ، وأنهما هما وما



بينهما من أنواع الحيوان منقسمات أنواع النبات ، وقلنا ان هذا الانسان وحده هو الذي فكر فلاسفته في النظام العام لهذا النبات . ان المفكرين في النبات أيضا ، أي المذكور في حيز (الم) في (سورة ق) (وهي الحروف التي هي مفتاح من مفاتيح العلوم الآتي أيضا هنا) يكونون فرقا شتى ، فمنهم من يبحث في خشبه للصناعة ، ومنهم من يبحث في شيرجه وزيته للأكل ، أو حبه للتجارة ، أو منافعه للطب ، إلى غير ذلك من مباحث لا يستطيع حصرها إلا في مجلدات ، وإذا رفقنا طرفنا إلى ما فوق ذلك وجدنا هذا النبات إن هو إلا نوع واحد من أنواع الوجود ، ولكل نوع هلماء اختصوا به كما رأيت لكل طائفة من النبات حيوانات خاصة تعاطاه وتغتذى به ، فقررنا للنظر في عموم النبات من حيث تكوينه ونسبته إلى الحيوان ، وقررنا يدرسون نفس علم الحيوان ونسبته إلى النبات ، وآخرون يدرسون علم المعادن ، وآخرون يدرسون الطبائع العامة للعوامل كالمغناطيس والضوء والسكره باء والحرارة والصوت ، وهذه طبائع عامة لا تختص بقسم من أقسام الطبيعة ، وهذا كله في العالم الأرضي ، وهناك طوائف يرتفع بعضها إلى العلويات ويكونون فرقا شتى ، وأعلامهم من ينظرون نظرا شاملا في تركيب النجوم والشموس والأقمار والسيارات والأرضين وذوات الأذناب والمجرات والسدم ويحصرون العوامل حصرا عاما . وآخرون فوق ذلك يحصرون العالم العلوي والسفلي بهذين يكونوا قد أحكموا العلوم الرياضية بقدر طاقتهم ويفكرون في النظام العام . هذه نظرات أكابر الفلاسفة في الدنيا الذين مثلهم بالنسبة لأصحاب العلوم الجزئية في العوالم السماوية والأرضية كنسبة نوع الانسان بالنسبة للحيوانات الأرضية التي قاسمتها الأغذية في المخاوقات النباتية ، فكما كان السود مشاركا لإنسان والحشرات وغسيراها في اقتسام الأغذية النباتية ، واختص الانسان بالبحث العام في النبات ، هكذا المفكرون في الأمم اقتسموا النظر في العوالم العلوية والسفلية ، واختص أكابر الحكماء بالنظر العام في العوالم كلها ، وانتقلوا منها على جهة اليقين والسررات والبهجة إلى صنائع العالم ، وتعلقوا بالصنائع ونسوا الصنعة وراءهم ، وقرءوا : « وأن إلى ربك المنتهى » .

إذا فهمت هذا أيها الصديق فتس عليه نظام الحكومات ، وأضرب لها مثلا نظام حكومتنا المصرية ، لأنه أقرب إلينا في التمثيل ، وهذه الأمثال كلها جعلناها مقدمة لما نريده أيها الأخ الذكي من إدراك السر في التناقض والاختلال والاختلاف الواقعات في القرون الإسلامية الخالية حتى تلتئم العقائد والنظام العام مع التشريع الظاهري كما طلبته أيها الأخ العليم ، فهذا تفصيل الكلام على :

### الفصل الثالث : نظام حكومتنا المصرية

- إن حكومتنا المصرية نراها مكوّنة من :
- (١) قرية لها عمدة ومشايخ وخفراء .
- (٢) مركز مكوّن من قرى .
- (٣) مديرية مكوّنة من صراكر .
- (٤) فوزارة الداخلية المكوّنة من مديريات .
- (٥) فوزارة العامة المكوّنة من وزارات : وهذه الوزارة فيها وزارات مثل الداخلية والخارجية والحقانية والأشغال والزراعة والمالية ، وفيها مصالح كثيرة ، كل هذه تبع للوزارة العامة ، وكل جماعة في وزارة يكون على عملهم ، لا يعرفون إلا قليلا عن عمل غيرهم في الوزارات والمصالح الأخرى كما لا يعرف حيوان البر عن حيوان البحر إلا قليلا ، وكما لا يعرف عالم الحيوان الأرضي عن عالم الكواكب إلا قليلا .

(٦) وفوق هذه الوزارة القوّة العليا التي تولى تلك الوزارات التي تستند إلى رجال دار النيابة الذين تصعّب عليهم الأمة للقيام بتمثيلها .

فأنت ترى أيها الذكيّ أن كل طائفة تقوم بعملها وتعرض عما سواه ، وإذا خالفت ذلك اختلّ النظام كما تنقسم أنواع الحيوان من أقلها وهو الدود مثالاً إلى أعلاها وهو الإنسان أصناف النبات ، ولكن فريق واحد يكون نظره عاماً في الأمة كلها وهو القوّة التي تنظر في شؤون الوزارات كلها ولا تهتمّ بجزئيات الأعمال بل أعماها عامة ، وليس لها أن تنزل عن السكيات كما يختص نوع الإنسان دون سائر الحيوان بالنظر العام في النبات المشترك بينه وبين الحيوان ، وكما يختص الحكميم العظيم في نوع الإنسان بالنظر العام في الوجود وإن شاركه غيره في النظر في الجزئيات العلمية ، وقس على حكومتنا المصرية حكومات العالم المتحضّر فهذا مثال له مجمل ، وهذا توضيح وشرح لما بعده ، وهو نظام الديانات العام في الأرض .

### الفصل الرابع في نظام الديانات العام في الأرض

اعلم أن في الأرض من أنواع الديانات ما يختلف باختلاف العقول والأفهام اختلافاً كاختلاف أنواع النبات باختلاف أصناف الحيوان في التغذية والانتفاع ، فكما رأينا من بقايا النبات المتعفن المنبوء في الأرض والبرك والمستنقعات ما يتعاطاه الدود وأخصّ أنواع الحشرات والعلق ، ورأينا منه ما هو فاكهة وسحب لنوع الإنسان الذي يكاد بعضه يكون من نوع الملائكة الكرام ، هكذا نرى من الديانات ما تنزل إلى دركات الانحطاط لفجأة مستنقيه وانهم في نوع الإنسان أشبه بالدود في نوع الحيوان ، فأعوزهم ذلك إلى دين يواتيهم ويستجيب حاجاتهم ، ويكون ذلك الدين على قدرهم لا يتجاوز ما تقبله نفوسهم ، وتمتليّ به أفئدتهم ، وهم به فرحون .

ومثال ذلك ما استراه في ﴿ سورة البينة ﴾ في الجزء الأخير من القرآن ، إذ ترى هناك في حديث رئيس البعثة الأزهرية الصينية أن عدد الديانات في تلك البلاد خمسون ديناً ، وعدد السكان ( ٥٠٠ ) مليون إنسان ومن الديانات عبادة الجمال والنور والنار والدواب المختلفة ، وكذلك ترى في تفسير نفس تلك السورة أن في الحبشة من يعبدون الأشجار ويقدمونها ، وبعضهم يقدر الطيبة ويعبدها ، وترى الذين يعبدون الأشجار يقومون حولها في كل عام ، ويقومون بواجبهم الديني ، وكيفية ذلك أن يدهنوا جذوعها بالسمن ويقفون حولها وهم يرقصون ، ويغنون مختلف الأغاني ، ويقصد أهالي قبيلة ( لادرمون ) بعض الجهات التي تكثر فيها الأشجار ، ويقنولون حولها بعض المشروبات ، كالجعة واللبن وشراب العسل وغيرها .

هذا قلّ من كل من ديانات هذا الإنسان . ماهذه الديانات المختلفة في عالم الإنسان إلا نماذج مطابقة لمختلف العقول والعواطف والأميال على النحو الذي اختلفت فيه أغذية الحيوان في النبات من دود يتهاطى القاذورات ، ومعه حشرات كذلك ، إلى أنعام تأكل الأب ، إلى الإنسان يتهاطى الفاكهة والحب ، وما مثل دين الإسلام إلا كمثّل النوع الإنساني فيما مثلنا ، إذ نظر نظرة عامة في جميع النبات فبعثه وفسكر فيه وإلا كمثّل حكماء الأمم الذين نظروا نظرة عامة في أنواع العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية وجتوا فيها ، فاتخذوا كايا من الجزئيات وكلا من الأجزاء ، ونظروا نظرة عامة وتوجهوا به إلى صانع العالم ، وأخذوا يشوقون الأمم إلى الوحدة العامة ، والنظام العام ، وإلى صانع ذلك النظام ، وهذا هو مقصود دين الإسلام ، فهو لا يحصر المتدين في مصنوع من المصنوعات وإن كان في كل مصنوع سرٌّ من أسرار الربوبية ، ولكن دين الإسلام يقول : « فأينما تولوا فثمّ وجه الله » ، فهذا دين عام يعوزه مفكرون يقومون به من نوع الإنسان ، تكون نسبتهم إلى هذا النوع الإنساني كنسبة الإنسان إلى الحيوان من حيث النظر في أمر النبات من حيث عمومها لا من حيث اقتسام أصناف الحيوان لأصنافه المختلفة تغذية وتمتعاً وحباً ، بل يكون نظرهم عاماً لمنفعة العموم ، وإذا ظهر هذا السرّ المسكون في هذه الفصول الأربعة فقد وصلنا إلى المقصود من هذا المقال وهو :

## الفصل الخامس في النظام المجلد للمذاهب الإسلامية

لا جرم أنك أيها النكبي بأدنى النفاثة لما نضحي تعرف سر المذاهب الإسلامية التي بدراستها تصل إلى مقصودنا من هذا المقال ، فها هذه المذاهب الإسلامية ؟ هي الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، ومذاهب الشيعة المختلفة ، والزيدية ، والاباضية ، وفرق مختلفة متفرقة ، وكل امرئ اتبع مذهبا من هذه المذاهب أكب على عمله ، مخلصا فيه ، واثقا به متقربا إلى الله ، قائما بعمله على الوجه الذي أراده الله له ، فترى الشافعي مكبا على قراءة الكتب المقررة مثلاً في الجامع الأزهر ، كبن قاسم ، وكتاب الخطيب الشربيني على متن أبي شجاع ، والتحرير ، والمنهج ، وأمثالها ، وقس على ذلك بقية المذاهب ، وكل هذه مستخرجات من الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وتراهم يستدلون بالأحاديث المتنوعة والأدلة المختلفة ، وكل طائفة تتبع أقوال أئمتها وإن خالفوا أقوال غيرهم في الفروع التي لا ضرر فيها على الأصول ، وبدوام ذلك أجيالا وقرونا أصبح كل مذهب كأنه عقيدة راسخة ، وإن كانوا يتوارثون عن الآباء والأجداد ، احترام المذاهب الأخرى كابرا عن كابر ، لا جرم أن هذه المذاهب ليست إلا جزئيات لهذا الدين المسكبي ، فبينما ترى الشافعي والحنبلي والزيدى والامامي ونحوهم يدرسون شروط الصلاة وأركانها ، ونواقض الوضوء ، وأركان الحج ، والبيع الصحيح والفساد والطلاق والرجعة ، والدعوى والبيئات ، والشركة والاجارة ونحوها .

تراهم لا يفكرون ، وإن يفكروا ، بل إن يخطر بأذهانهم النظام العام لهذا الدين الاسلامي الذي جاء لانقاذ الانسانية كلها من شر الملوك الظالمين ، والمسلطين القاهرين ، ذلك أن كل فريق من هؤلاء المتعصبين المخلصين لا يعدو أن يكون مثله كمثل عمدة قرية من قرى مصر ، أو شيخ من مشايخها ، أو أمور من مأموري المراكز المصرية ، أو مدير من المديرين ، أو وزير من الوزراء ، ولا جرم أن كل واحد من هؤلاء ليس له أن يتجاوز وظيفته في الحكومة المصرية ، هكذا هؤلاء العلماء قد وضعوا في صرا كثر خاصة فإليهم أن يقووا بها حق القيام ، وليس من حقهم عادة أن ينظروا نظرة عامة في الأحوال العامة للأمة الإسلامية فيكونوا في أم الإسلام أشبه بالقوة المدبرة في الحكومة المصرية التي تولى الوزراء ، وتعطى كل ذي حق حقه ، وتنظر نظرة عامة في مصالح المصرية ، أو يكونوا أشبه بالإنسان في مثل النبات ، إذ يختص من بين الحيوان بنظرة عامة لنظام النبات ، أو كمثل دين الإسلام إذ جاء لنظرة عامة في جميع الكائنات ، هكذا كانت ولا تزال أحوال أم الإسلام إلى وقتنا هذا ، ولا عيب على الناس في ذلك ، فلا لوم على حنفي ولا شافعي ولا زيدى ولا مالكي في هذا القصور ، لأنه قصور موروث من أيام أن اضطربت الأمة اضطرابا شديدا ، وزلزلت زلازها ، وقال المسلمون : ما لهذه الأمة ما لها ، فرجعت الأمة إلى بعض جاهليتها ، وأحيت مآلات من عوائد العصبية والنسب وارجاع الخلافة للأنسب وحدها ، وأخذ الأموي يناري العباسي ، والعباسي يناري العلوي ، ويناري جميع هؤلاء الأمم الأخرى من ترك وفرنس وكرد متقلبين .

وكل يدعى وصلا ليلي \* ويلي لا تقر لهم بهذا كما

أنزل الله هذا الدين على محمد صلى الله عليه وسلم وقال : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوها بينهما فان بقت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي الخ » . وقال : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

هذه المزية هي التي قامت بها النبوة خير قيام ، فما كاد عصر النبوة وأيام الصحابة بعدها تمر حتى عصفت عاصفة الأنساب ، ورويت لها الأحاديث ، وقامت الضجة ، واعجبا ! ليست الخلافة للمال ، وكل خليفة يجمع المال ولا يكون كأبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم ، فهو ليس خليفة ، لأن هذا ليس على طريقة ديننا ،

شرب الخلفاء الخمر ، لبسوا الحرير ، كنزوا المال ، هل هذه خلافة ؟ صدق رسول الله ، فهي ملك مخصوص لا عجب إذا رأينا أبا حنيفة يضرب ، ومالك كاهان ويؤذى ، واستمرت اذلال الباباء في أعصار خلعت ، ولم يكده أحد يرفع بصره إلى النظر في الأمر العام الذي أعد له هذا التفسير حتى ينج في السجن ويؤذى ويهان ودامت الأمة على ذلك أجيالا وأجيالا ، وأرباب المذاهب في أعمالهم دائبون محتصون إذ لا خلاص لهم ولا منفذ إلى المستوى الأعلى الذي فيه ينظرون نظرة عامة في دين الاسلام ، وكانوا كلما جاء المسلمين عالم بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ففرقا كذبوا وفرقا يقتلون ، ومنهم من كان يكتب ما شرحناه الآن تحت ستار التصوف ، وآونة تحت ستار الفقه كما ترى منه شذرات في كتب الفقه في المذاهب الاسلامية المختلفة لأهم الاسلام ، ذلك هو الحاصل في أهم الاسلام إلى هذا اليوم .

### نظرات حكماء الاسلام الذين أعدّهم الله لهم ، لم يحن بعد ظهور هذا التفسير

إن هؤلاء الذين منهم من هم اليوم أحياء يدرسون ، ومنهم من هم في بطون الأمهات ، أوفى ظهور الآباء ، هؤلاء سيكونون مستنيرين بالنور الإلهي ، وذلك بدراسة العلوم المحيطة بنا في الأرض وفي السماء ، هؤلاء تشرق نفوسهم بالأنوار الإلهية ، لأن هذه الحجائب مملوءة نورا إلهيا ، وبالبصيرة فيها يزددون قوى وعلماء وحكمة ، وتشرق عقولهم ، هؤلاء بمد تلك الدراسة ينظرون في دين الاسلام فيقولون : « هذه المذاهب إلا أنوار جزئية للدين كلى ، وهذا الدين السكلى يهوزة حكماء يفكرون فيه فيكونون للمذاهب المختلفة أشبه بالإنسان المختص بالنظر العام في النبات مع مشاركته للحيوان في التغذية بالنباتات ، وكالقوة الحسوية المستمدة من نواب الأمة ومجلس الشيوخ ، والأعيان التي تخصص لكل وزير عمله ، وكل الحكيم الذي ينظر للعلوم كلها نظرة عامة ، وقد شارك علماء الحيوان والنبات والفلك الخ وارتقى عليهم ، وكدين الاسلام الذي جاء ومقصده عام لا يتقيد بشجر ولا بحجر ولا بكيسة : « فأينما تولوا فثم وجه الله » . فهذه الطائفة هي التي تجهل لأهم الاسلام وحدة عامة للعالم كله ، لأن هؤلاء يقولون للمسلمين : « أيها المسلمون : إن الخلافة والرئاسة ليست للمال ، إن هذا خطأ محض وجهل فاضح ، ليس هذا ديننا : قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . وإذا كان أطعمهم رغبة لمسكين يحتاج إلى اخلاص بالجزاء ولا شكورا كما نرى نور الشمس يسيل إلى أهل الأرض ، هكذا يجب أن يكون خليفة المسلمين ، فإن كان غير ذلك فهو كاذب ، الخليفة ليس هو ذلك المترف المنعم . كلا . فاما أن يكون كأبي بكر وعمر وعلي وعثمان ، واما لا ، نحن لا نطلب خليفة محجبا ولا منعما ، إن هذه جهالة أعظم الجهالات هنالك نهت كل ما بناه الآباء من الخلاف والشجار الذي شجر بينهم وهم كانوا مجتهدين فيه ، فلمهم جميعا أجر فيما اختلفوا فيه ، لأنهم كانوا فيه مخلصين ، وكل منهم كان يعتقد أن الحق في جانبه ، ولا يكلم الله نفسا إلا وسعها ، ذلك هو تحقيق الحق ، وهذا هو الجواب عما سألتني عنه أيها الصديق ، فهذه الأمم الاسلامية لما كانت في مبدأ أمرها لم تطلق صبرا على الأخلاق الشريفة النبوية والعمرية والبكرية والعلوية والعثمانية ، فرجعت القهقري درجة فدرجة ، فلما علم الله منهم ذلك ، وأمرهم لا يحملون الامانة كما أدبت إليهم ، ولا يتورعون عن ذلك سلطان الله على العرب الفرس فدخلوا بينهم والترك وغيرهم ، وقال : أيها الأمم : إن العرب قد أدخلوا بشروط النبوة فادخلوا معهم وفرقوا جهنم ، لأنهم لم يجعلوا الخلافة بالشورى ، بل جعلوها للعصبية ، فإذا كان الأمر كذلك فاني أذنت للأمة أن يزاحمهم « بجزاء وغنا » ، فدخل الفرس فزاحمهم ، ودخل الترك كذلك ، ثم استبدوا بهم ، ذلك هو العدل الإلهي ، وهانحن أولاء الآن وأنا أكتب هذا وأنا من النسب العربي الصميم ، أقول هذا هو التاريخ الاسلامي مجلا ، وهذا كان شأننا ، وهؤلاء الحكماء الآتون بعدنا سيصلحون



ما أفسده الزمان ، وأتى به الحداثان ، وسيقولون للأهم الإسلامية كفى كفى :

مامضى فات والزمن غيب \* ولك الساعة التي أنت فيها

فقال صديقي بعد ذلك : هذا حين وكيف بقي هذا إلى هذا الزمان ، وهذه نصف و١٣ قرنا ، وهي زمان طويل ، فلماذا تأخر هذا الإصلاح إلى هذا الزمان ؟ فقلت : أيها العزيز : اعلم أن هذا العالم فيه أشران اثنان أحدهما يعمل في ثانيهما ، فالعامل هو العقل العام المسلط على ثانيهما وهي المادة التي ماهي إلا حركات في خيال السكون المسمى بالآثير ، وانما سميناها خيالا لأنه يشبه خيالنا نحن ، فخيالنا نحن فيه بقوة عاقلة منظمة وأخراته في الأثير المنبث في هذا الفضاء الذي عبرنا عنه بالخيال هي هذه المادة ، فالمادة مجموع حركات منظمات ، يتصرف فيها عقل ، وأظهر هذه المادة الشمس والأقمار والنجوم الثوابت والسيارات ، تشرق الشمس على الآفاق فيكون نبات ، وهذا النبات يأخذ في النمو أمدا على مقدار ما حدد له ، وبهذه نصبه وتعبه تظهر فيه أزهار جيلة تحكي أنوار المشرقات وتستمد منها الضوء ، بل تتجه للشمس عند طلوعها وعند مغيبها اتجاهها ، هكذا تلك العقول السكينة المدبرة لهوائنا الأرضية تربي عقولا جزئية في أرضنا كالعقول الإسلامية ، ولكن زهر تلك العقول لا يأتي إلا في حينه ، ولن يتعدى طوره ، تقديمها وتأخيرها ، فإذا رأينا أمنا الإسلامية اليوم قد بزغ فيها فجر الإصلاح ، وأخذت أزهار العقول الإسلامية في نباتها تضيء للآلاف فهذا هو الناموس العام ، فلا زهر لشجر إلا بعد حين يناسبه ، وهذا الدين لم يمض له إلا ١٣ يوما من أيام الله الصغرى وهي القرون بعد أن استهدت الأمة لظهور مصلحين هم أزهارها كما لم يزهر النبات إلا بعد استكمال قواه في أمده المعلوم .

هذا جواب ما سألتني عنه أيها الأخ في أمر أم الإسلام من حيث خلاف الأولين وشجارهم ، والفلة المستحكمة ، ثم اليقظة الحديثة ، ثم الإصلاح الذي بزغ فجره ، وما حكمته الله في ذلك ؟ وما سن النظام ؟ . فقال : لم أكن والله لأتوقع هذا الكشف والايضاح ، ولم يكن ليخطر لي أن أنال هذا الفتح المبين ، ولكن مانوع التعاليم التي تخص بها طائفة المصلحين في أم الإسلام ؟ فقلت :

### بهجة وجمال في ذكر التعاليم الخاصة بالمصلحين من حكماء الإسلام في مستقبل الزمان

اعلم أيها الصديق أن هذه الطائفة في أم الإسلام مثلها كمثل من ذكرناهم في الأمثلة السابقة ، بل كل ما أسأله الآن يستتبع مما قررت له لك الآن ، فهم كالمملوك الذين يستندون على الشورى بالنسبة لوزرائهم ، وكالحكام السكبار بالنسبة لعلماء العلوم الجزئية ، وكالأنبياء بالنسبة للمجتهدين كأبي حنيفة والشافعي ، ومجتهدى الشيعة وهكذا ، وكالإنسان بالنسبة للحيوان في مثال الاغذية النباتية والنظرة العامة فيها ، فهو لاء علومهم هم تكون موجهة للكميات كما ترى في القرآن : إن القرآن والنبوت موجهان للأمور العامة ، ولو أن النبوة اختصت بجانب دون جانب من العلوم لم تكن نبوة ، بل هذا الاختصاص لطوائف يخلقون تابعين للنبوة ، وقد جاء في كتاب « الاتقان ، في علوم القرآن » في الجزء الثاني في صفحة ١٧٦ وما بعدها نصه : — « قال ابن تيمية في كتاب ألفه في هذا النوع : يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه ، فقوله تعالى : « لتبين للناس ما نزل إليهم » يتناول هذا وهذا ، وقد قل أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرءون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قلوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا ، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة . وقال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جده في أعيننا ( رواه أحمد في مسنده ) وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين ( أخرجه

في الموطأ) وذلك أن الله قال : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليذنبوا آياته » وقال : « أفلا يتدبرون القرآن » وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن ، وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالطب والحساب ولا يشرحونه ، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم ، وهدى نجاتهم وسعادتهم ، وقيام دينهم ودنياهم ؟ ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلا جدا ، وهو وإن كان بين التابعين أكثر منه بين الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم ، ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة ، وربما تكلموا في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال ، والاختلاف بين السلف في التفسير قليل ، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع ، لا اختلاف تضاد ، وذلك صنفان : أحدهما أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه يدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى كتفسيرهم الصراط المستقيم بعض بالقرآن أي اتباعه ، وبعض بالاسلام ، فالقولان متفقان ، لأن دين الاسلام هو اتباع القرآن ، ولما كان كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر ، كما أن لفظ صراط يشعر بوصف ثالث ، وكذلك قول من قال هو السنة والجماعة ، وقول من قال : هو طريق العبودية ، وقول من قال : هو طاعة الله ورسوله ، وأمثال ذلك ، فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة ، لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها . الثاني : أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع ، لا على سبيل الحد المطابق للحدود في عمومته وخصوصه ، مثاله ما نقل في قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا » الآية ، فعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيق للواجبات ، والمتنكب للحرمان . والمقتصد يتناول فاعل الواجبات ، وتارك المحرمات ، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات ، فالقصدون أصحاب الدين والسابقون السابقون أولئك المقربون ، ثم إن كلا منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات كقول الفائل : السابق الذي يصلي في أول الوقت ، والمقتصد الذي يصلي في أثنائه ، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار ، أو يقول : السابق المحسن بالصدقة مع الزكاة ، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة فقط ، والظالم مانع الزكاة . انتهى ما أردته من كتاب « الاتقان ، في علوم القرآن » والحمد لله رب العالمين .

\*\*\*

وقد أطال في ذلك صاحب الاتقان ، ونحن نكتفي بهذه الشذرة استدلالا على ما أردناه وهو أن هذه الطائفة آراؤها عامة موجهة لاسعاد المجموع بما هو عام ، فأما الفروع فلها شأن آخر ، إذن سلف الأمة الذين شادوا مجدها لم يكن نظرهم محصورا في الجزئيات كما هو شأن جميع المذاهب الاسلامية في الأعصر المتأخرة ، فانهم أفرغوا جهدهم في استقصاء الفروع ، ونسى أكثرهم النظام العام الذي كان يثبت النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه في تعليمهم ، أفليس هذا من العجب ! أوليس من العجب أنهم كانوا إذا تلمهوا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل كما قدمناه هنا قريبا ، ويقولون : « تعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا » ، وقد كانوا يبقون مدة في حفظ السورة ، وانظر كيف يقول أنس : « كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جذا في أعيننا » ، وكيف يقيم ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين ، وكيف يقول صاحب كتاب الاتقان : « إن كتب الطب والحساب تشرح وتفهم فكيف بكتاب الله تعالى ؟ » .

عجب وألف عجب يارب ! إذن ما جاء في هذا التفسير موافق ومناسب لما كان عليه الصدر الأول ، إذن هذه سنة اسلامية جيلة ، فاجد الله على العلم والحكمة ، إذن الفكرة العامة وحب العلم ، وحب الله ، وحب الأمة ، نتائج هذا القرآن ، وهو المقاصد العامة التي يبشها هؤلاء المصلحون الآن في أمم الاسلام .

## آراء (جون راسكن)

المولود سنة ١٨١٩ المتوفى سنة ١٩٠٠

أفلا تعجب أيها الذكي من علماء أوروبا : أولئك الذين شربوا من مناهل علوم أباثنا كيف يقولون ، هذا ، راسكن يقول في قطعة تحت عنوان « التعليم الحقيقي »

« ان التعليم سواء أ كان لأدنى الطلبات أو أعلاها لا عبء فيه بما كثر منه أو قل على شريطة أن يكون مغريا للتعليم ، إلى الاكباب على العلم ، وأن يعرف كيف يدير حركة أعماله ويتقنها الخ » اه .  
وأوضح منه وأصرح وأنسب لموضوعنا قول غيره تحت عنوان « تعليم الأطفال »

« ان مقاصد التعليم الهامة تنحصر في توجيه همة المتعلم إلى الاكباب على القراءة والفهم » ثم قال : « كما أننا لا نتعاطى جميع ما يهوزنا من الطعام طول النهار وقت الصباح ، هكذا لا نحمل أذهاننا مشاق تحصيل جميع العلوم في صباح الحياة وأول العمر : بل العمر كله زمان مهيج لتحصيل العلوم ، ومن ذا الذي يهتد الطالب لذلك ، ويحدث في قلبه غراما وعشقا للتحصيل أمد الحياة إلا الاساتذة المعلمون والمدرسون الصادقون الخ » .

فهذان الرأيان جهمان على أن الغرام بالتحصيل ، والولوع بالعلوم هو الذي يبعث في الأمم رجالا يكونون مصاييح يضيئونها ، وقناديل ينثرون سبلها ، وكواكب في دجنات الظلمات ، وحناس دهر الدهارير ، مع معرفة ما يعملون ، وادراك كنه ما يراولون .

## ضرب مثل لحكام الأمم الإسلامية في المستقبل يمسوب النحل

(١) قال فاضرب لى مثل هؤلاء المصلحين في أمم الاسلام بعدنا الذين يصلحون ما أفسدته يد الأيام وحوادث الدهر ، ويعلمون أمم الاسلام كيف يصلحون بين طائفتين من المؤمنين اقتتلوا ؟ وكيف يقومون بالعمل بآية « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » ويصرفونهم عما وقع فيه أبائهم من الشجار على الخلافة والامارة ، وان ذلك إنما جعله الله تجربة يحترس من مثلها الانباء فلا تكون الممالك المتحدة ولا اليابان ولا الصين ولا ألمانيا أولى منهم بالاتحاد والاجتماع وترك الشجار على عرض الدنيا الزائل ، وان كان للآباء في ذلك تأويل ، وهم جميعا ناجون ، الخداعي منهم في اجتهاده ، ومن هو على صراط مستقيم .

(٢) ثم ما علامه هؤلاء المصلحين : فقلت . انما مثل هؤلاء الذين يأتون بعدنا من حكماء أمم الاسلام كمثل الخشرم : فقال ؟ وما الخشرم : فقلت . يمسوب النحل وهي الملكة التي تقود الآلاف المؤلفة من النحل في الخلية ، فقال : وما المناسبة بين المشبه والمشبه به : فقلت لملك اطاعت في خلايا النحل على تلك الاشكال المسدسات المنتظمت الملتبثات المجتمعة معا . قال نعم اطاعت ، فقلت وهناك ترى من تلك الاشكال المصنوعة من الشمع ماملئ عسلا ، ومنها ما جعل منزلا لبيض النحل يربي فيصير ذكورا للنحل أو يصير نحلا عاملة ( انظر هذا المقام في سورة النحل ، والاشكال هناك مرسومة موضحة ) وهناك أيضا ترى منازل أخرى ممتازة بيضاء وهي قليلة بالنسبة لغيرها ، فهذه البيوت تربي فيها تلك الملكات أو اليعاسيب أو الخشارم ، فتري الملكة تأمر أن تغذى الذرية العاملة والذي كور بعسل معتاد : أما اليعاسيب الصغار فانك ترى عسلهن أنقى وأجمل وأصفى : قد اصطفاه النحل من مواد خاصة حتى تخرج اليعاسيب أو الملكات ذوات أجسام أقوى وغرائز أصفى فتدبر

الخلية كلها وتسكون حفاظا ونورا للجميع هذا في المثل به : أما الذي ضرب بنا له هذا المثل ، وهم المسلمون في أمم الاسلام المستقبلة فانهم طائفة نسبتهم في التلة الى أمم الاسلام كذنبه الياسيب الى الآلاف المؤلفة في الخلية الواحدة ، وهذه الياسيب عند باوغيه سنا معاومة يقاتلون ومن جلب فهو القائم بنظام هذه الدولة النحلية الصغيرة ، وهذه الطائفة الاسلامية التي ضرب بنا لها هذا المثل يقرءن من العلوم آجلها ويخربون في كل علم بسبهم ، وتسكون تلك العلوم أغذية لنفوسهم كما اغتذت المملكات النحلية بأنواع مايجناء الفعل من رحيق الزهر الجليل ، وهذا التشبيه حق ، فان العلوم زهرات هذه الدنيا وثمراتها ، والرحيق المختوم المخبوء في تلك الزهرات هو محاسن نظام هذه الدنيا الجليل ، وحب صانع العالم ، وحب الامم الانسانية ، وارتقاء النفس عن السفاسف وشوق النفوس ، وحشقتها للانسانية ، ورقيتها وسعادتها ، فهذا هو الرحيق المختوم المخبوء في زهرات هذه الدنيا ، وزهرات هذه الدنيا : هي العلوم والمعارف .

فما مثل العلماء المتحدين في الامم الذين أغرموا بعلمهم اللغات كعلوم اللغة العربية الاثني عشر ، وعلوم اللغات الأخرى ، أو بعلوم خاصة من رياضية أو طبيعية أو فرع من فروعها أو صناعة من الصناعات المتفرعة عليها أو بعلم القانون في أي أمة من الامم أو بعلوم ظواهر دين من الديانات . أقول ما مثل هؤلاء الا كمثل النحل العاملة في خلايا النحل الا في تناو عند رؤيتها « ونامنا الاله سقام » مساوم » فكل منها عمل خاص ، وأعمال الخلية موزعة عليها توزيعا عادلا ، والمملكة رباط الجميع ، فهؤلاء الذمات كاهن اقتسم أعمال المملكة ، وغذاؤهم وهم أجنة ليس من العمل المصنفي : فهذا الغذاء غير المصنفي في الصفر مناسب لأعمالها عند ادراكها : فاعمل فرعى والغذاء غير مصنفي : أما اليهسوب فغذاؤها مصنفي ، وعملها عام للجميع .

فاذا رأينا علماء اللغة أو الفقه أو الرياضيات أو صناعة من الصناعات ، فان هؤلاء كالمعمل انشغلت بأعمالها في الخلية ، واذا رأينا المغمرين بالحكمة العاشقين للعالم الذين يلمون بجميع أطراف هذه العلوم ويختصون هم بالمثل الأعلى قلنا هؤلاء هم حكماء هذه الأمة القائمون بتدبيرها بهدانا ، المجتهدون في اصلاحها : هذا جواب سؤالك الأول .

أما علاماتهم فأقول : ان لهم « علامتين : العلامة الأولى » تؤخذ من الجواب الأول ، فهم المغمرون بجمال هذه الدنيا من العلويات والسفليات ، العاشقون لكل علم ولكل فن ، المسكبون على صفوة العلوم المحبون لصانع العالم ولعباده الواهلون بأمم الاسلام أن ترقى .

« العلامة الثانية » أن الناس يصغفون اليهم ، ويميلون الى كلامهم ويستمعون لهم ، وتقبل القلوب عليهم ، ويعمل العقلاء بأقوالهم وآرائهم بشوق وتوق : فهانان هما العلمان . فقال : حسن ولكن أي الكذب يقرؤنا الانسان حتى ينال هذه الدرجة الرفيعة ؟ فقلت : السموات والأرضون والبحار والأنهار والسحب والجبال ، هذه هي الكتب التي يقرءونها ، وكتاب الله الدال على ذلك . فقال : هذا أجل ان هذه المذكورات مبنولة للناس جميعا ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

فقلت : فان أردت يا صاحب إلا التخصيص فاني أقول : إن هذا التفسير وما يمثله من الكتب العامة المؤلفة الاسلام في زماننا وفيما قبله مضارع تنبت فيها وتزهر عقول وعقول ، والاستعداد هو الذي به يمتاز الجيد من الرديء ، والخبث من الطيب ، والسابق والمقتصد ، والاول والآخر ، « وربك يخلق ما يشاء ويخار ما كان لهم الخيرة سبحانه الله وتعالى عما يشركون . وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون » فاذا رأيت أيها الصديق أمثال الخلفاء الراشدين وسداد حكمهم وبارع حكمتهم وما أوتوا من ذكاء وفطنة ، حتى قال بعض حكماء أوروبا في عصرنا ونقلنا عنهم ذلك في هذا التفسير : انهم كانوا أذكى من قياصرة الروم وأكاسرة



الفرس في زمانهم ، فما ذلك الا من التسليم التي كانوا يتلقونها من النبوة عند تلاوة الآيات القرآنية كما تقدم  
وأنتهم كانوا لا يحفظون شيئاً حتى يفهموا حقائقه ، وما هي هذه الحقائق ؟ هي التي ظهر لنا نتائجها في أعمالهم ونراهم  
يحفظون أمهم والأهم الخاضعة لهم بمطهرهم ورحمتهم ، لأنهم فهموا معنى آية « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »  
فصارواهم رحمة للعالمين ، لا للمسلمين وحدهم ، نعم عدلهم وفهموا أن الغنائم لم تكن لأجل شهواتهم بل كانت  
لإصلاح المجموع : فإذ ذلك فبغوا التمتع ظهرياً ورضوا بالخبر الذي لم يدخل وتركوا عرض الحياة الدنيا وهكذا ،  
وهذا نرى في سورة التاوم التي بصفتها أئمة المسلمين بعدنا الذين يكونون مثلهم في أهم الإسلام كممثل الإنسان  
في نوع الحيوان أو كممثل دين الإسلام بالنسبة لساير الديانات يعلم عليهم . فهوؤلاء المصلحون بعدنا تكون  
وجهتهم المصلحة العامة وقيادة مجموع الأمة يحترمونها المذهب كلها ويحبون المساوم كلها ويكونون للمسلمين  
أباء ، فإذا رأوا الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية والشيعة والزيدية والاباضية وأمثالهم مكبكين على فروع  
زاولوها ، وأحاديث تلقوها وعاشوا على ذلك وماتوا فليقروهم وليغرمواهم بحمال العوالم ، وحب المجموع  
الإسلامي ، وحب الله عز وجل ، وتوجيه هم المسلمين الى المثل الأعلى .

ذلك أيها الأخ جواب ما سألتني عنه . فقال : بقي لي سؤال واحد ، وأنا لك شاكر . فقلت : وأنا إن شاء الله  
مجبب . فقال : من أين أتت لك هذه الاجابات مع أنك قبل أن ألقى السؤال عليك لم يكن لك به علم . فقلت :  
ان الاجابات أحسن بها في قلبي وقت السؤال فيشرح صدرى للاجابة فأجيب . فقال : وهل كل ما يشرح صدرك  
له يكون علماً . فقلت : ذلك له ميزان . فقال : وما هو ذلك الميزان . فقلت : الميزان هو الدين أولاً ، والعقل  
ثانياً ، والنظر لحاجة الأمم الإسلامية ثالثاً ، فان وافقها فهو حق ، وان خالف الدين أو العقل أولم يكن له دخل  
فيما يحتاج اليه المسلمون لم يكن خيراً جواب فلا أجيب به . فقال : لقد أطلت عليك بالأسئلة ، ولقد أفدت  
خير إفادة ، فأنا أحمده الله على هذه النعم . فقلت : « ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر  
الناس لا يشكرون » . انتهى ظهر يوم الثلاثاء ٥ يناير سنة ١٩٣٢ م النصف الثاني من شهر شعبان  
سنة ١٣٥٠ هجرية .

## نور على نور

في أخلاق عصر النبوة ، وفي الخلافة الإسلامية ، وفي فروع الدولة العباسية المنفصلة

عنها ، وفي جميع الممالك الإسلامية من عصر النبوة الى الآن .

حضر داعي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير في اليوم التالي لكتابة هذا المقال : وقال .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله الكرام . أما بعد : فإني اليوم أريد منك أن تبين لي  
أمرين ، قد أشكلا عليّ فيما تقدم : أما أولهما فأنك ذكرت في الأمر السادس عند تعليلك على أعمال  
الدولة العباسية أن عبد الله بن الحسن والد داعي البيعة جاء الى السفاح الذي اغتصب الملك من ابنه فأكرمه  
وعرض عليه المال فأعطاه ألف ألف درهم الخ ، وأن ذلك يدل على أن أخلاق بعض آل بيت النبوة قد  
تغيرت في القرن الثاني بعد القرن الأول ، وأن الترف صار مرغوباً فيه بعد أن كان مبتعداً عنه ، فأرجو  
أن تذكر لي شذرة من أخلاق رجال العصر الأول ليسكون تذكرة وتبصرة . فقلت : أذكر أن المغيرة  
( كما ذكرته في بعض هذا التفسير ) لما قال له رستم القائد الفارسي في أثناء واقعة القادسية « انكم  
تموتون فيما تطلبون » فقال المغيرة « يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار ، ويظهر من بقي منا

على من بقي منكم» وكنقول عبادة بن الصامت للمقوقس صاحب مصر : لما أخوفه بجمع الروم وأنه لن يقدروا عليهم وهم يحاصرون حصن بابل : فقال عبادة :

« يا هذا لا تفرّج نفسك ولا أتعابك . أما أخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وأنا لا تقوى عليهم ، فلهي ما هذا الذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه . وإن كان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم وأشد الحزننا عليهم . لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه أن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته ، وما شيء أقرّ لاعتقنا ولا أحب لنا من ذلك ، وإنما منكم حينئذ لعل إحدى الحسينين أما أن تعظم لنا بذلك غنيمته الدنيا إن ظفرتنا بكم أو غنيمته الآخرة إن ظفرتنا بنا ، ولأنها أحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا . وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » وما منا رجل الا ويدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة ، وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده . وليس لأحد منا همّ فيما خلفه ، وقد استودع كل منا ربه أهله وولده . وإنما همنا أماننا . وأما قولك : انتا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة : ولو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه » اهـ

فلما سمع صاحبي ذلك قال كفاني ما ذكرت في الأمر الأول . نحن الآن في تفسير آية « وإن طائفتان من المؤمنين اقاتلتا أو أصلاهما بينهما » . هاهو ذا الخلاف المستحكم بين المسلمين في العصور الأولى مائل أماننا ، فإرايك أنت في الخلافة ؟ فقلت : رأيي ذكرته في بعض أجزاء هذا التفسير . فقال أريد أن تصرح به هنا لأن هذا مقامه فقلت قد كتبت في مجلة « المعرفة » في شهر يناير سنة ١٩٣٢ فقال أرجو اثباته هنا مأخوذا من خوى ما هنا ، فقلت قد جاء فيها تحت العنوان الآتي ما يأتي ، وهذا نصه :

### آراء خطيرة في الخلافة الإسلامية

مبحث الخلافة الإسلامية مبحث مهم من المباحث العامة الإسلامية ، وكل علم لا يعرف الناس أدوار تاريخه يكونون في دراستهم له ، وأحكامهم فيه أشبه شيء بمن يبنى بيته على شفا جرف هار ، ومن يستسمن ذا ورم وينفخ في غير ضرر .

إن الخلافة الإسلامية في العصر الغابرة لعبت دورا عظيما ، وهما ، وشغلت أم الإسلام قاطبة ، وتفرقوا فيها فرقا شتى وأحزابا متباينة ، وينشأ الناشئون من الأبناء على ما عودهم الآباء . وينشأ ناشيء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

وكل حزب بما لديهم فرحون ، وهل يتسنى لطفل تربى على مذهب خاص في أمر الخلافة أن يفكر في القرآن وفي الاجماع ؟ بل يظل على عقيدته حافظا لطريقته لا يتعداها ، جامدا عليها لا يتخطاها . إن أكثر نوع الانسان في الأرض مقلدون ، سجدت القرائح وتعارضت الظنون ، ووقفت الحركة العامة الإصلاحية في جميع الشؤون ، حتى إذا قرعت القارعة ، وأصابت الصاعقة ، وأحاطت بنا الأم « وهم من كل حذب يفساون » أذاقونا سوء العذاب ونحن غافلون . فتهالوا أيها المسلمون أنل عليكم نبأ الخلافة ، وأبد رأيا مجمل يقبل التفصيل والتحويل .

إن أمر الخلافة لن يستقر قراره ويتم الرأي فيه الا بالبحث في أحوال الخلفاء السابقين والوقوف على أعمالهم حتى نستنتج نتائج منها ، ثم نعتبر بما فعله أسلافنا ، ونبنى على ذلك الأساس عملا بقوله تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » وقوله تعالى « أفلم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » .

إن الخلافة إذا كانت مقيدة بالشورى ، وجهة للمصلحة العامة بأخلاص ، تصبح خدمة عامة لا ينتطح في أمرها عتزان ، ولا يرثها الأبناء عن الآباء ، فإن كانت غير ذلك كانت أداة سرور تتقاذفها في أيدي الجهال وتأتي أن ينالها الأبطال . توفي رسول الله ﷺ وخلفه أبو بكر فعمرو فعثمان فعلى رضي الله عنهم . درسنا مجمل أخلاق الخلفاء الراشدين فلم نجد أبا بكر وصي بها لابنه ، واستنكر عمر قول من طلبها لابنه عبد الله ، ثم لم نر أحدا منهم استنكر من الأموال واتبع الشهوات ، ذلك شأن الخلافة في الاسلام . إن أمر الخلافة شورى بين المسلمين « وشاورهم في الأمر » « وأمرهم شورى بينهم » هذا هو الصراط المستقيم .

منى عصر الراشدين ، وتولاها الأمويون وأولهم معاوية فاستبدوا بالأمر فقاومهم بنو هاشم فقتل بهم الأمويون فتركوا ذريتها ، ثم اشتد العباسيون والمولويون في مقاومة الأمويين ، وساعدتهم شيعةهم الفارسيون وبطلهم أبو مسلم الخراساني ، وأكثروا من موضوعات الاحاديث ، وما كاد الأمر يتم للعباسيين حتى قلبوا ظهر المجن للمولويين وقتلوا بهم فتركوا ذريتها ، وقتل المنصور محمد بن عبد الله ، وهو الخليفة الحقيقي صاحب البيعة الصحيحة .

هنالك أصبح الخليفة العباسي بيد تشريد الأمويين يقتل المولويين باليمين وأبناء عمه العباسيين بالشمال بل كثيرا ما كانوا يقتلون شيعةهم غدرا كأي مسلم الخراساني وجعفر البرهكي وغيرهما كثير . ولقد تعالى العباسيون في إذلال العرب كما تعالى بنو أمية في إعلاء شأنهم على غيرهم ، ومات ابراهيم الامام لابي مسلم « من ترددت في أمره فاقتله » وحرضه على قتل العرب فقتل منهم ٩٠٠ ألف رجل غدرا وهم آمنون .

مات الرشيد وخلفه الأمين والمأمون وأمّ الأول عربية ، وأمّ الثاني فارسية فنصر الفرس ابن أخهم وشردوا العرب كل مشرد وأذلّوهم ومنعهم المعتصم العطاء . ولما كانت أمّ المعتصم تركية من بلاد الصفد أصبح مغرما بالترك غير واثق بالعرب ولا بالفرس أجمعين .

هناك أصبحت الخلافة في العباسيين اسما بلا معنى ، وتنازع القواد من غير العرب الرئاسة وصار الخلفاء آلات صماء في أيديهم فقتلوا منهم ٣٨ من ٥٩ وسحبوا أعين بعضهم حتى زالت الدولة على أيدي التتار ، وكل ما حصل للعباسيين تم نظيره في الأندلس ، وقد كانوا يستغيثون بحيرانهم من الاسبان على اخوانهم ، فيهلك الفريقان ، فرما كانوا يقتلون المستجير بهم غدرا كما حصل لجندل بن حود أمير أشبيلية اذ وعده البابا ودوق فينيزيا وبعض دوقات أوروبا أن يكون ملك الأندلس كما اذا ساءلهم في فتح قرطبة فبرّ بوعده لهم فقتلوه غدرا وخربوا أشبيلية .

هذه شذرة من تاريخ الخلافة وما يتبعها من الامارات في الاسلام . وكان ذلك كله عقابا على ترك الشورى المنصوص عليها في القرآن . والذي أراه :

(أولا) — أنه يجب على كل أمة « عربية أو غير عربية » أن تعمم التعليم للذكور والإناث بقدر الامكان .  
(ثانيا) — يجتمع أمراء الاسلام المفوضون من أممهم في أمر الخلافة ، لينتخبوا أميرا منهم لها ، على شريطة ألا يبرم أمرا الا بمشورتهم : من صلح أو حرب أو غيرهما كما كان يفعل الخلفاء .

(ثالثا) — أن يكون الانتخاب لسنين محدودة أولدة الحياة ، فاذا انقضت المدة في الأول أومات في الثاني فلينتخبوا سواء بالشورى ، فاذا أعيد انتخابه في الحالة الأولى قلد ذلك .

(رابعا) — يجب أن يرعى في الخليفة أمران مهمان وهما (١) أن يكون جيشه أقوى جيوش الامراء (٢) أن يكون أهل مملكته أعلم من سائر الأمصار ، ولا يكون للنسب فضل إلا في الترجيح اذا تعارض أميران واستوفيا ماذكرناه . ونستأنس للشرطين المذكورين بقوله تعالى « وزاده بسطة في العلم والجسم » .

(خامس) - كل أمير تسيطر عليه دولة أجنبية لا يتقواه في تولي أس الخلافة ، لأن رأيه تابع لرأي من فوقه ، وهذا ضار بالساميين .

(سادس) - إذا قلنا لا يتماع في هذا الزمان «الضعف أو افتراق كلمة» فليتردد المسلمين الوقت المناسب . فأما الخلافة الضعيفة التي يتولاها ، من لا يتوز هذه الثقة ، فما هي إلا شبكة صائدين ، وحيلة محتالين ، فهل المسلمون عقار يتناولوه الأبناء عن الآباء ؟ كلا ، إنهم خير أمة أخرجت للناس ، وهم شهداء عليهم فليكونوا بالأولى خلفائهم ، مطاعين ولهم مشيرين وعلى أعمالهم شاهدين ولا عوجاجهم مقومين .

هذا ما أراه في شأن الخلافة وفوق كل ذي علم عليم . هذا هو ما كتبت في مجلة المعرفة ، والحمد لله رب العالمين . فلما سمع صاحب هذه المقالة قال : حسن هذا الرأي ، ولقد ذكرت فيه : أن الدولة العباسية اضمحلت وضعفت واستبد بها عمالها ، فهل من سبيل إلى معرفة الفروع التي تفرعت لها تلك الدولة أيام ضعفها ؟ فقلت نعم جاء في الجزء الأول من تاريخ التمدن الاسلامي ما يأتي :

وجعلت سلطة الخلفاء تنقلص حتى وسعها السواديين الفرات ودجلة . ولم يكده يدخل القرن الرابع للهجرة حتى انحصرت سلطتهم في مدينة بغداد ، واليك فروع المملكة الاسلامية على عهد الرازي بالله في الربع الاول من القرن الرابع للهجرة :

الولايات	حكامها
البصرة	في يد ابن رائق
خوزستان	» البريدي
فارس	» عماد الدين بن بويه
كرمان	» أبي علي محمد بن الياس
الري وأصفهان والجبل	» ركن الدولة بن بويه وغيره
الموصل وديار بكر ومضرو وبيعة	» بني سعدان
مصر والشام	» الاخشيدي
خراسان وماوراء النهر	» السامانية
طبرستان وجرجان	» الديلمي
البحرين واليمامة	» القرامطة

### استبداد الجند والخدم

ومما زاد الامر استفحالا أن الخدم والاجناد أصبحوا مطلق الايدي في قصور الخلفاء يستبدون في أعمالها ويسومون الخلفاء صنوف الاهانة وأنواع العذاب . كما فعل جند المغاربة والأتراك في المعتز سنة ٢٥٥ هـ لما خلعه لأنه قصر في عطايتهم . فانهم دخلوا حجرته وجروه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالديابيس وخرقوا قميصه وأوقفوه في الشمس . فكان يرفع رجلا ويضع الاخرى لشدة الحر . وبقي بعضهم يلطمه ، وهو يتقي بيده وأدخلوه حجرة وأحضروا ابن أبي الشوارب القاضي وجاعة فاشهدوهم على خلعه ثم سلموه الى من يعذبه ومنعوه الطعام والشراب ثلاثة أيام . ثم أدخلوه سردابا وجصصوه عليه فمات (١) . ومع كل ما لحق الخلفاء من الذل والضعف لم يخطر للفرس ولا للأتراك ولا لغيرهم من غير عرب قرش أن ينزعوا الخلافة من أعناق بني العباس . فما زالت الخلافة العباسية في بغداد حتى جاءها التتر من مفازة الصين فافتتحوها وقتلوا خليفتها

(١) ابن الأثير ٧٧ ج ٧



سنة ٦٥٦ هـ ففر من بقي من أهله إلى مصر ولتجأوا إلى سلاطينها المماليك فأنزلوهم على الرحب والسعة إلى أن فتح السلطان سليم العثماني مصر سنة ٩٢٣ هـ فأخذ الخلافة منهم . وبلغ عدد الخلفاء العباسيين جميعها نيفا وخمسين خليفة منهم ٣٧ في العراق ، ولهم السفاح وآخرهم المستعصم والباقون في مصر . فلما سمع صاحب ذلك قال ما أحسن التفصيل بعد الاجمال ، ولوأنا وفقنا على مجمل الدول الإسلامية من أول عصر النبوة إلى الآن : لكان ذلك أشد جمالا وكمالا . فهاك جدولاً يبين ذلك وهذا نصه .

### جدول الدول الإسلامية منذ ظهور الاسلام إلى الآن

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضاءها هـ
الخلفاء الراشدون	مكة	٠٤	٠١١	٠٤٠
الدولة الأموية بالشام	دمشق	١٤	٠٤١	١٣٢
العباسية	بغداد	٣٧	١٣٢	٦٥٦
الأموية بالاندلس	قرطبة (الاندلس)	١٩	١٣٨	٤٢٢
الحمدية	مالقة	٠٩	٤٠٧	٤٤٩
»	الجويرة	٠٢	٤٣١	٤٥٠
المهالبة	اشبيلية	٠٣	٤١٤	٤٨٤
الزيرية	غرناطة	٠٥	٤٠٣	٤٨٣
الجهورية	قرطبة	٠٣	٤٢٢	٤٦١
ذوالنونية	طليطلة	٠٣	٤٢٧	٤٧٨
الحامرية	بلنسية	٠٧	٤١٢	٤٧٨
التوجيعية	سرقوسة	٠٩	٤١٠	٥٣٦
ملوك دانية	دانية	٠٢	٤٠٨	٤٦٨
النصرية	غرناطة	٢١	٦٢٩	٨٩٧
الادارسة	مراكش (افريقيا)	١٠	١٧٢	٣٧٥
الاغلبة	تونس وغيرها	١١	١٨٤	٢٩٦
الزيرية	»	٠٨	٣٩٢	٥٤٣
بنو حماد	جزائر الغرب	٠٩	٣٩٨	٥٤٧
المرابطون	مراكش وغيرها	٠٦	٤٤٨	٥٤١
الموحدون	شمال افريقيا	١٣	٥٢٤	٦٦٧
بنو حفص	تونس	٢٢	٦٢٥	٩٤١
بنو زيان	جزائر الغرب	١٠	٦٣٣	٧٩٦
بنو مرين	مراكش	٣٥	٥٩١	٩٧٥
الشرفاء	»	٢٨	٩٥١	لا تزال
الطاولونية	القطائع (مصر)	٠٥	٢٥٤	٢٩٢
الاششيديية	الفسطاط (مصر)	٠٥	٣٢٣	٣٥٨

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ماوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضاءها هـ
الفاطمية	القير واز والقاهرة مصر	١٤	٢٩٧	٥٦٧
الايوبية (١)	القاهرة (مصر)	٠٩	٢٦٤	٦٤٨
المماليك البحرية	»	٢٧	٦٤٨	٧٩٣
» الشراكسة	»	٢٢	٧٨٤	٩٢٣
العائلة الخديوية	»	٠٧	١٢٢٠	لا تزال
الزيادية	زبيد (اليمن)	٠٩	٢٠٤	٤٠٩
البهقرية	صنعاء الخ	٠٩	٢٤٧	٣٤٥
النجاشية	زبيد	٠٨	٤١٣	٥٥٣
الصليحية	صنعاء	٠٣	٤٢٩	٤٩٥
الهمدانية	»	٠٨	٤٩٢	٥٦٩
المهديّة	زبيد	٠٣	٥٥٤	٥٦٩
الزيرية	عدن	٠٨	٤٧٦	٥٦٩
الرسولية	اليمن	١٧	٦٢٦	٨٥٨
الطاهرية	»	٠٤	٨٥٠	٩٢٣
الأئمة الرسية	صعدة	١٧	٢٨٠	٧٠٠
أئمة صنعاء	صنعاء	٠٠	١٠٠٠	لا تزال
الحدانية	الموصل الخ (سوريا)	٠٩	٣١٧	٣٩٤
المرداسية	حلب	٠٧	٤١٤	٤٧٢
العقيلية	الموصل وغيرها	٠٧	٣٨٦	٤٨٩
الروانية	ديار بكر	٠٥	٣٨٠	٤٨٩
المزبدية	الحلة	٠٨	٤٠٣	٥٤٥
الدلمية	كرديستان (فارس)	٠٥	٢١٠	٢٨٥
الساجية	اذر بيجان	٠٤	٢٦٦	٣١٨
العلوية (الزيدية)	طبرستان	٠٤	٢٥٠	٣١٦
الطاهرية	خراسان	٠٥	٢٠٥	٢٥٩
الصفارية	فارس (فارس)	٠٣	٢٥٤	٢٩٠
السامانية	تركستان وفارس	١٠	٢٦١	٣٨٩
خانات ايلاك	تركستان	٢٤	٣٢٠	٥٦٠
الزيارية	جوجان	٠٦	٣١٦	٤٣٤
الحسنويهية	كرديستان	٠٣	٣٤٨	٤٠٦
بنوييه	العراق وغيرها	٢٠	٣٢٠	٤٤٧

(١) هذه الدولة فروع كثيرة حكمت مدات متفاوتة في دمشق وحلب وبين النهرين وجاه ص وبلاد العرب وعددهم كلهم ٣٧ سلطانا

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضاءها هجرية
السكاكوبية	كردستان	٠٢	٣٩٨	٤٤٣
السلجقة وفروعهم	جنوبي آسيا	٥١	٤٧٩	٧٠٠
المانشندية	سيواس وغيرها	٠٥	٤٩٠	٥٦٠
الانابكة البوريون	دمشق	٠٦	٤٩٧	٥٤٩
» الزنجيون	سوريا و بين النهرين	٢٠	٥٢١	٦٤٨
» البكتجينيون	ار بلا وغيرها	٠٣	٥٣٩	٦٣٠
الارتقية	ديار بكر	٢٥	٤٩٥	٧١٢
شاهات ارمينية	أرمينية	٠٨	٤٩٣	٦٠٤
اتابكة اذربيجان	اذر بيجان	٠٥	٥٣١	٦٢٧
السافرية	فارس	٠٩	٥٤٣	٦٨٦
الزارسية	لورستان	١٤	٥٤٣	٧٤٠
شاهات خوارزم	خوارزم	٠٨	٤٧٠	٦٢٨
الخانات القتلغية	كرمان	٠٨	٦١٩	٧٠٣ (١)
آل عثمان	الاستانة العلية وغيرها	٣٥	٦٩٩	لا تزال
خانات المغول	زقارية وغيرها	٣٤	٦٠٣	١٠٤٣
مغول الفرس	فارس	١٧	٦٥٤	٧٥٠
خانات العشائر الذهبية	قاراخيتاي	٤٠	٦٢١	٩٠٧
» القرم	القرم	٤٦	٨٢٣	١١٩٧
» جاغتاي	تركستان	٢٦	٦٢٤	٧٦٠
الجيلاريون	العراق وغيرها	٠٦	٧٣٦	٨١٤
المظفريون	فارس وكردستان	٠٦	٧١٣	٧٩٥
السربداريون	خراسان	١٢	٧٣٧	٧٨٣
الكرتيون	هراة	٠٨	٦٤٣	٧٩١
انقراقيونليون	اذر بيجان وغيرها	٠٥	٧٨٠	٨٧٤
اق قيونليون	»	١٢	٧٨٠	٩٠٨
شاهات الحجم	ايران وغيرها	٣١	٩٠٧	لا تزال (٢)
التيموريون	تركستان والتتر	١١	٧٧١	٩٠٦
الشيدانيون	»	١٩	٩٠٦	١٠٠٧
المنجينيون	»	٠٦	١٢٠٠	١٢٨٤
خانات خيوا	»	٣٥	٠٩٢١	١٢٨٩
» خوقند	»	١٧	١١١٢	١٢٩٣
البجانيون	استراخان	١١	١٠٠٧	١٢٠٠
الزنويون	افغانستان و بنجاب	٢٢	٣٥١	٥٨٢
الفوريون	» و هندستان	٢٠	٥٤٣	٦١٢

(١) قد أسقطها مصطفى كمال باشا ، وصارت الآن جمهورية (٢) سقطت أيضا في مصرنا

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ماركها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضاءها هجرية
سلطين دهلې	هندستان	٣٨	٦٠٢	٩٦٢
ملوك البنغال وحكامها	البنغال ( الهند )	٥٥	٥٩٩	٩٨٤
» جانبور الشرقيون	جانبور »	٠٩	٧٩٦	٩٠٥
» مالوا	مالوا »	٠٧	٨٠٤	٩٢٧
» كجرات	كجرات »	١٤	٧٩٩	٩٨٠
ملوك خاديش	خاديش ( الهند )	١٢	٨٠١	١٠٠٨
البهمنية	الدكن »	١٨	٧٤٨	٩٣٣
الشاهات العمادية	برار »	٠٥	٨٩٠	٩٨٠
» النظامية	أحمد نيجر »	١٠	٨٩٦	١٠٠٤
» بريد	بيدر »	٠٧	٨٩٧	١٠١٨
» العادلية	بيجابور »	٠٨	٨٩٥	١٠٩٧
» القطبية	كولكندا »	٠٧	٩١٨	١٠٩٨
امبراطور والمغول	هندستان »	٢٦	٩٣٢	١٢٧٥
امراء افغانستان	افغانستان	١٥	١١٦٠	لا تزال (١)

و خلاصة ذلك ان الدول الاسلامية التي ظهرت من أول الاسلام الى الآن نيف ومائة دولة عدد رؤسائها نحو ١٢٠٠ رقيس فيهم الخلفاء والسلطين والملوك والامراء والانا بكة والاشيذية والخيديون والشرفاء والبايات والدايات وغيرهم . من العرب والفرس والأتراك والشراسة والاكراذ والهنود والتستر والمغول والافغان وغيرهم . ومن عواصمهم المدينة والسكوفة والشام و بغداد ومصر والقيروان وقرطبة والاسنة وصنعاء وعمان ودهلي وغيرها . انتهى ما أردته من كتاب تاريخ التمدن الاسلامي والحمد لله رب العالمين

### بهجة الجمال في تاريخ الأمم الإسلامية

في جواب اعتراض على المؤلف في هذا المقام

حضر صديقي العالم الذي اعتاد مسامرتي في هذا التفسير . فقال : يخيل لي أن هذا المقام قد خرج عن دائرة التفسير خروجا يؤدي إلى أن يحسب الانسان نفسه في تيهاء المعارف ومفاوز العلوم ، أو كأنه غريب في وسط هذا المععان العلمي ، فأين آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوها بينهما فان بخت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبنى حتى تفيء إلى أمر الله » من هذه الدول المتشاكسة ، والأحوال المتناقضة التي لا حد لها ولا نهاية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أنت بما صنعت هنا خرجت عن دائرة المفسرين جميعا فانهم قليلا ما ينطرقون إلى مثل هذه المشا كل والمشاجرات والحوادث علما منهم بأن كلام الله لم ينزل لمشل هذه الامور ، هو نور ، والنور غير الظلمات .

فقلت : حياك الله أيها الأخ ، أنا أعلم انك تعبر بهذا عن آراء كثير من اخواني المسلمين شرقا وغربا ، وهذا القول أثار في نفسي آثارا جييلة صالحة :

وحركت وجدى بعد ما كان نائما ، برأى الضعفى مشغوفة بالترحم

فلوقبل مبكها بكيت صباية ، بسعدى شفيت النفس قبل التندم

(١) سقطت وآخرها أمان الله خان



ولكن بكت ليلى فهيرج لي البكا \* بكاهها فقلت الفضل للمتقتم  
أذكرني بقول ابن الفارض :

أجد الملاحة في هواك لذينة \* حبا لذكرك فليأمني اللوم  
إن ملامتك أبها السديق إغراء :

دع عنك لوى فإن اللوم إغراء \* وداو في بالتي كانت هي الداء  
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها \* إن مسها ضجر مسه سرّاء

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : أخذت في القول بدل الإجابة ، وذكرت الخمر المذمومة طبا وشرعا . فقلت :  
« وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتذكرون » ، هاجت بلابل شوقي للباحث الجميلة ، والآيات البديعة ،  
في هذا الوجود وحكمته ، والعلم وروعه .  
أيها الأخ النكي : سأحدثك الساعة بحبيبا عن اعتراضك بما يثالج صدرك ويشرح به ، ويصلح بالك ،  
فأجعله في ثمانية فصول :

- (١) في النظر في عالم الحيوان .
- (٢) وفي بروز الإنسانية من وسط معاصم الهيجاء الشائرة في الشهوات البهيمية ، والسطوة السبعية ،  
وتسلطها على القوتين ، والاعتدال فيهما .
- (٣) وأن هذه النظرات العلمية ظهرت على لسان ( كوفيشيوس ) الفيلسوف الصيني في القرون الأولى
- (٤) ثم قفاه (سقراط) في جمهوريته وانتجى نحو آخر في سياسة الأمم ، وهما في النتيجة متآخيان  
متقاربان ، وإن لم يعرف أحدهما أخاه ، لتباعد الديار ، وانقطاع الأخبار .
- (٥) ثم تطبق عالم تلك الأمم البائدة على الأمم الإسلامية في القرون الأولى ، وكيف تطوّروا في  
سياساتهم على مقتضى ما ذكره (سقراط) فكان أوائلهم على المنهج الأتم ، وتنزل الأبناء عن سنن  
الآباء دركة فدركة إلى أن انحطوا إلى أسفل سافلين في سياساتهم .
- (٦) ثم تبين أن ذلك لم يخلقه الله سدى ، بل جعله بصائر ونور لنا نحن المسلمين في هذا العصر الذي  
جاء كالفاصل بين أمدنين متناقضين : أمد مضى بحوادثه وتجاربه التي جعلت سلالا يصعد عليها  
الجيل الآتي والجيل المقبل إلى قمة السعادة والهناء .
- (٧) ثم بيان أن تجارب الآباء وحوادثهم لم تظهر آثارها أكمل إلا في زماننا هذا ، لأن الله يريد أهما  
تسكون في سعادة وحبور .
- (٨) ثم تبين نعمة الله علينا وعلى الناس بالعلم والعرفان في هذا الزمان .

### الفصل الأول : نظرتي في عالم الحيوان

اللهم ان نورك مشرق علينا ، في كل حين شمس تشرق ، وقر يضيء ، وكواكب تزين ، ومجرات  
كثيرات الشموس ، وسديم بعيدات الأمكنة ، طويلات الأزمنة ، من حيث وصول أنوارها إلينا .  
رباه : جل صنعك ، بهرت حكمته . رباه : خلقتنا في وسط هذا النور والجمال ، وجعلت فينا قوى  
تتحسن على أعمال لنا نحن ، فإذا وجدنا ؟ وجدناك يارباه بعثت في الحيوان نشاطا بقوى ثابتة فيه سميناها  
« القوى الشهوية » ، تلك القوى حركته لطلب القوت ، وطلب النسل ، وعاش في هناء وحبور ، رأيناك  
منحته غرائز ، تلك الغرائز تكفلت بحفظ الفرد ، وحفظ النوع ، وحفظ السعادة الزوجية ، في مقابلة أحوالنا

المنزلية ، وحفظ الجماعات في مقابلة أهوالنا السياسية .

هذه ياربى حال الحيوان الذى يحيط بنا ، أنت الفاعل بشأه ، فالنور الذى يحيط بنا من كل جانب وتراه حيواننا قد أعطى الحيوان فى داخله قوى تضىء له طرق الحياة ، مشابهاة من حيث حقائقها له مشابهاة ما . إن الحيوان بنوره الداخلى الموازى لنور السكواكب الخارجى من حيث الهداية قد كفاه أمر السعادة الشخصية المنزلية والسياسية ، ولكننا من جهة أخرى وجدنا أموراً عجيبة ، وجدنا قوى الغضب فى كواسر الحيوان أغرته أن يسطر على أمثال الفزلان والأرانب من آكلات الحشائش . تسطر السكواكب من الطير على بغاثها ، والسباع والنمور والوحوش على ذوات الظلف والحافر وغيرها ، مجزرة هائلة ، وميدان واسع للقتل والفتك والنهش ، بينما يرى كل نوع من مشرعات ، أو طير ، أو زواحف ، أو كواسر ، مسوقاً بغير رزته للتعاطف والتواد والتراحم ، بالحوافط تعارضت واتجهت إلى اتجاه الإهلاك والتدمير والذعر والخوف والعداوة والعدوان ، ملحمة مجزرة مهلكة ، جناثر تتبعها جناثر ، وضحايا وراءها ضحايا ، فى وسط هذه المعامع والمجازر برز خالق جديد .

### الفصل الثانى فى ظهور الانسان بين أنواع الحيوان

ظهر بين هاتيك المجازر والمعامع خلق جديد هو الانسان ، وما هو ؟ هو حيوان اجتمعت فيه القوة الغضبية مع القوة الشهوية ، فهو ساج وغزال ونمر وأرنب وذئب وطاووس ، هو جماع كل حيوان ، فظهر التضارب فى أخلاقه ، والخلط فى أهله ، كما كان بين الأسد والشاة والنمر والغزال ، ولكننا رأينا له حالا ثالثة سميناها «عقلا» عقلت القوة الآسدية أن تطفى ، والقوة الشهوية أن تحيد عن الصراط السوى ، وهناك كان الظن أن يكون هذا الانسان معتدلا ، ولكن \* ما كل ما يمتنى المرء يدركه \* فاننا رأينا المجازر والمذابح والفارات التى تشنها الآساد على الفزلان ، تفعل مثلها وأشد منها الأمم القوية مع الضعيفة ، ومن المنجمل أن السكواكب من الطير ، والفوانك من السباع لها العذرى الفتك بالآكلات الحشائش ، فأما الانسان فانه حيوان زاد فى شره عن كل حيوان ، فهو يغير على غيره ليا كل من تهبه وعرق جبينه ، ليكون الغنى له والفرم على غيره بلاعلة إلا طغيانه . ولا سبب إلا جهله وخطئه الميّن .

هذه صفات أكثر نوع الانسان ، ولقد ارتقت عن هؤلاء طائفة منهم فقالوا : قف أيها الانسان قف ، أين عقلك ؟ انك لفرى ميّن ، نحن ننزلنا عن الحيوان شرفا ، ونزلنا دركات فى طرق العماية ، ألسنا أشرف منه قدرا ، ألسنا أرفع منه مرتبة ؟ أفلا نكون نحن بررة أتقياء ، فعلينا أن نجعل المجموع مساعدا للمجموع فلنقم بالقسط ، ولنترك لكل امرئ ما كسب ، بل لنزهد نحن فيما فى أيدي غيرنا ، ولنسكن آباء رجاء للناس ، هذه منيتنا لا غير ، لقد علمنا مما جربنا أن الله سريع الحساب ، وبهذا نزل الكتاب ، ألم تروا أيها الناس أن الانسان اذا أكل فوق طاقتة ، فانه يتحمل تبعه جهله ، ويعطى الدواء المرّ الكريه ، فيكون الغنى بالفرم ، أليست البطنة تذهب الفطنة ، بل ألم يظهر فى علم الطب حديثا أن كل ما كول قد طبخناه نقص من مادة الحياة فيه مقدار عظيم ، ومالا يطبخ يعطى قوة الحياة لنا كاملة ، إذن أيها الناس نحن غافلون ، اتباع اللذات والشهوات له رد فعل ، فالله سريع الحساب لنا فى نفس الحياة فضلا عما بعدها ، وأيضا اذا توغلنا فى اللذات وجدنا قوانا ضعفت ، وكل جيل يكون أضعف مما قبله ، والعاقبة مخزوية موقعة فى الدمار والهلاك فهذه الطائفة من نوع الانسان قالت . كلا . فلتسكن حكومات ، وليسكن نظام ، فانظر :

## الفصل الثالث فيما نقل عن كونفشيوس الفيلسوف الصيني العظيم

بقلم الكاتب الأمريكي (ول. دورانت) مؤلف قصة « الفلسفة وعصور الفلسفة » وقد ذكر أسماء ١٢ عظيماً اختارهم من بين عظماء التاريخ مثل :

- (١) إن التقويم المصري عثر عليه قد ألف سنة ٢٤٤٩ قبل الميلاد وهذا من عجائب العلم .
- (٢) ومثل بوذا المتوفى سنة ٥٤٣ ق . م .
- (٣) ومثل كونفشيوس المتوفى سنة ٣٧٨ ق . م .
- (٤) ومثل سقراط المتوفى سنة ٣٩٩ ق . م .
- (٥) ومثل قيصر المتوفى سنة ٤٤ بعد الميلاد .
- (٦) ومثل المسيح .
- (٧) ومثل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المتوفى سنة ٦٣٢ ب . م .
- (٨) ومثل روجر بيكن المتوفى سنة ١٢٩٤ ب . م . الذي يدعون أنه أول من استعمل البارود (١)
- (٩) ومثل غوتنبرج المتوفى سنة ١٤٥٤ ب . م مخترع المطبعة .
- (١٠) ومثل كولمبوس كاشف أمريكا سنة ١٤٩٢ ب . م .
- (١١) ومثل (جيمزوط) مخترع الآلة البخارية سنة ١٧٦٩ م .
- (١٢) الثورة الفرنسية .

هذه هي الحوادث التي اختارها ذلك الكاتب الأمريكي التي يعدها بحسب نظره هو أنها أعظم ما أثر في العالم الانساني ، وأنا الآن لست أريد إلا سيرة كونفشيوس الفيلسوف الصيني الذي عاصر سقراط ولم يكن بينهما معرفة ولا مواصلة ، فهل لك أن أحدثك عن أولهما ، ثم أحدثك عن ثانيهما ؟ أحدثك عن أولهما في هذا الفصل ؟ لماذا ، أحدثك عنه ، لأنه شرح المسألة التي أنا الساعة بطريق حلها ، مسألة نظام هذه الدنيا ، هذه الدنيا الجيلة في نظر الفيلسوف ، المرتبة الموحشة في نظر الجاهلين .

الله أكبر : أنت كبير ، أنت عظيم ، عجبنا يارب هذا الابداع ! عجبنا يارب لابداعك ! تعاليت وارتفعت عنا ، وأرسلتنا إلى الأرض ، رقلت لنا أيها الأطفال اذهبوا إلى الأرض فعيشوا فيها ، وستموتون موتاً وحياة ، وعزا وذلاً ، وقاهراً ومتهوراً ، وغالباً ومغلوباً ، وحيوانات ذرية تسطو على الانسان ، وعلى الأسد ، والأسد يسطو على الانسان ، وانساناً يحارب انساناً بالسيف والنار والحديد والبارود والغازات السامة ، فتذهلون من هذا المنظر ، وتقولون موت وحياة ، وفراق ووصال ، ماهذا ماهذا ؟ ولكني اخترت منكم طائفة يعيشون بينكم وهم غرباء عنكم ، يعيشون فيكم وأرواحهم في الحقيقة كأنها مخلوقة منفصلة عن أجسامهم ، وكأنهم في عزلة عن المادة ، أشهدتهم صني ، وأفهمتهم حكمتي ، وأن ما يشاهدونه إنما هو المظاهر التي تشبه مظاهر السينما (دار الصور المتحركة) يراها المتفرجون صوراً تتبعها صور والنفس باقية خادمة لن تموت ، وما هذه الصور إلا أحوال مختلفة عارضات على النفس التي لا خلاص لها من هذا البحر المتلاطم وهو المادة إلا بما يعترىها من نحس وسعد وموت وحياة ، فالأهل والأحباب على سريرهم وميتهم يكون ، والنبي والحكيم والفيلسوف يضطربون سروراً لما تجرى به المقادير عليهم وعلى غيرهم ، لأنهم للناس آباء ، والناس كلهم أبناءهم ، وقد أشهدهم الله وأطلعهم على مجمل سرّ المصون المكنون ، فعرفوا أنه رحيم وماعمله إلا لتخليص النفوس من الجهالة ورقبها إلى أن تصل إلى مبدعها الحكيم ، فتشاهد الجلال والجلال ، فهذه الطائفة

(١) وهذا خطأ لأنه اختراع اسلامي .

منهم كنفوشيوس وهو حكيم كبير . قال الكاتب الأمريكى فى ذلك المذكورا فى « مجلة المقتطف » فى شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ م :

« ولابد لنا من رضى يمشى الصين ، الصين العظيمة التى يدعوها أبناؤها « كل ماتحت الشمس » . والصين القديمة التى مازالت تدون تواريخ مآزكها وأعمالهم منذ أربعة آلاف سنة إلى الآن ، وانى لأغتم هذه الفرصة لأعرض على نظر القارئ فقرة من كتابات كنفوشيوس ، فانها تحتوى على حكمة خالصة من الشواهد وهى من كتاب « المعرفة العظيمة » . قال : - « إن الأقدمين الأجداد كانوا اذا أرادوا أن يوضحوا الفضائل السامية وينشروها بين الناس ينظمون أحوالهم ، وقبل أن ينظموا أحوالهم كانوا يهذبون أخلاقهم ، وقبل أن يهذبوا أخلاقهم كانوا ينقون نفوسهم ، وقبل أن ينقون نفوسهم كانوا يتناولون أن يكونوا صادقين ومخلصين فى تفكيرهم ، منزهين فى أغراضهم ، وقبل أن يكونوا صادقين ومخلصين ومنزهين ، كانوا يوسعون معارفهم ، وتوسيع المعرفة كان يحى عن طريق البحث والملاحظة ، شاهدوا الأشياء والأفعال فأكملت معارفهم ، ولما اكتملت معارفهم خلصت أفكارهم وتنزهت أغراضهم فتهذبت أخلاقهم فتنت نفوسهم فانتظمت أسرهم ، ولما انتظمت أسرهم انتظمت دولهم وأصبحت الأرض كلها ترح فى السعادة والوثام » .

« ولما كنا هرائين فى الفكر ، ونرفض أن نرى الأشياء على حقيقتها ( كالديمقراطية مثلاً والزواج والاستعمار ونظام الطبقات فى أوروبا وأمريكا ) ، فنحن لسنا مخلصين فى تفكيرنا ، ولما كنا غير مخلصين فى تفكيرنا تهذر علينا أن نبلغ بنفوسنا مراتب الكمال ، وأن ننظم حياتنا ، ولما كنا لانستطيع أن ننظم حياتنا الشخصية لم نستطع أن ننظم أسرنا ، واذن فدولنا فى حالة اضطراب وفوضى » .

هذا هو الدرس البسيط الذى يلقيه علينا كنفوشيوس ، اننى أحسد أولئك التلاميذ الصينيين الذين كان يفرض عليهم أن يحفظوا أقوال كنفوشيوس عن ظهر قلب ، فقد وجدت كل سطر من سطره يصل إلى صميم الحقيقة ، وفى الوقت نفسه يمكن تطبيقه ، واذ أخو إلى نفسى أقول : لو أن بعض هذه الحكم طبع فى نفسى من عشرين سنة لكنت فزت باتساق النفس ، والسكرامة الروحية ، والفهم الطادى ، والخلق المتين ، والأدب الخالص ، وهى الصفات التى يتصف بها الصينيون المتقنون الذين عرفتهم ، أنا لأعرف رجلاً طبع أمة بطابعه كما طبع كنفوشيوس أمة الصين ، فلنأخذ تاريخ وفاته رمزاً وحافزاً ، إن هذا الرمز ينطوى على القصائد الغنائية البديعة التى نظمها شعراء دولة « تانغ » الصينية ، وصور المشاهد الطبيعية المتسمة بسمة التصوف والشوق ، والآنية الصينية الكاملة شكلاً وزخرفاً ، وحكمة حكماء الصين وفلاسفتها ، إن حضارة من أعظم الحضارات القديمة تلخص فى اسم كنفوشيوس . وبهذا تم الكلام على الفصل الثالث والحمد لله رب العالمين .

### الفصل الرابع : فى آراء سقراط فى جمهوريته

لقد عرفت أيها الأخ الذكى أن كنفوشيوس فى الصين بنى نظام المدينة والأخلاق كلها على اتساع المعارف واتساع المعارف بناء على البحث والملاحظة ، وبالبحث والملاحظة كملت المعارف فخلصت الأفكار ، وهذبت الأغراض والأخلاق وصفت النفوس فانتظمت الأسر فلدول .

يا سبحان الله : إذن أم الاسلام لارتقى لها إلا بمعرفة المشاهدات واستقصائها بحثاً وتنقيهاً ، فيعرفون إذن علوم السكائنات حولهم ، ويطالعونها ، ويدرسون آثار الأمم البائدة التى ورثوا هم أرضهم وديارهم ، ومتى درسوا ذلك عرفوا الخطأ فتحاشوه ، إذن لندرس الآن هذه العوالم المحيطة بنا من صنع الله تعالى ،



وندرس توارىخ أسلافنا من العباسيين والأمويين والصحابية والتابعين ، ثم نرى الحسن فنعمله ، والقيح  
فنجتبه ، لا اننا ننفي بسطوة الملوكة وجبروتهم ، ومنذ هم الشمرام أموال الأمة جزافا ، ولأننا نكل ما كان  
فيه استبعاد كبريات الخلافة الإسلامية بالمبايعة القسرية ، وتوارث المسلمين بها كما توارث النعاج والحراف ،  
كل ذلك ان يكون إلا بالدراسة ، وهذا الاجمال الذي قاله فيلسوف الصين فعلمه سقراط المصا رله ، فقد جاء  
في الجمهورية في الكتاب الرابع حكاية عن (ادمنتس) الذي تدخل في الموضوع وسأله قائلا : وبماذا تدفع  
عن نفسك يا سقراط (يريد بذلك أن سقراط حرّم على رجال الدولة القائمين بالحكم أن يتمتعوا بالأموال ،  
بل يجب أن يكونوا زهادا على الهيئة التي رأيناها في أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم ، وأن لهم  
هم سعادة روحية ، وتبتلا ، وصلة بر بهم ، تجعلهم أسعد ألف صرة من المترفين البائسين الجاهلين) اذا احتج  
أحد عليك بأنك لم تبلغ رجال هذه الطبقة «الحكام» أوج السعادة ؟ مع ان الاوم عليهم في عدم سعادتهم  
لأن السولة دولتهم عند التحقيق ، ومع ذلك فليس لهم فيها حظ الذين يملكون الأراضي ويشيدون الأبنية  
الفخمة ، ويفرشونها فرشاً يتفق مع نفقاتها ، ويذبحون الذبائح ، ويولون للأصحاب ، ويملكون الفضة  
والذهب ، وكل ما هو ضروري لاسعاد الناس ، وقد يقال انهم كصغار المستخدمين ليس لهم في المدينة إلا  
الخفارة .

(سقراط) نعم ، بل يظهر انهم يقتصرون على القوت ، ولا يأخذون معه مالا كالأخرين ، فلا يمكنهم السفر  
على نفقتهم اذا أرادوه ، ولا تقديم الهدايا للاخطايا ، وانفاق الأموال على الرغائب الأخرى ، كما يفعل المحسبون  
سعداء ، وأمثال ذلك من الامور مما طويت عنه كشحها .

(ادمنتس) فأضيف ذلك إلى شكواي .

(سقراط) أفقتسأني أيّ دفاع أقدم ؟

(ادمنتس) نعم .

(سقراط) أظن اننا اذا استأنفنا السير في الجهة نفسها أدركنا الدفاع المطلوب ، مع انه لا يستغرب كون  
هؤلاء الحكام أسعد السعداء حتى في هذه الأحوال ، على اننا لم نؤسس الدولة لنجرد اسعاد قسم من أهلها ،  
بل لاسعاد الجميع معا على قدر الامكان ، ففرضنا في انشاء السولة اكتشاف العدالة ، كما اننا في دولة أخرى  
ساء نظامها نكتشف النعدي ، وبعد اكتشاف هذى وتلك يمكننا البتّ في المسألة التي أمامنا ، فنحن  
جادون في الوقت الحاضر في انشاء دولة سعيدة ، لاني أن نخص أفرادا منها بالسعادة ، بل أن نسهّد جميع  
أفرادها على السواء ، ثم ننظر في دولة هي تقيض هذه أحوالا ، فلو صوّرنا شخصا بشريا فانتقدنا منتقدا بأننا لم نزين  
أجل أقسام الصورة بألوان ، لأن العيون وهي أجل أعضاء الجسم لم تلوّن بالأرجواني بل بالأسود  
فيجب أن نفكر في أنه دفاع كاف قولنا له : «أيها الناقد مهلا ، لا تتوقع منا أن نلوّن العيون باللون الجليل  
بحيث لا تبقى عيوننا ، وهكذا يقال في بقية أعضاء الجسم ، ولكن انظر اننا جعلنا الجسم كله جيلا بتلوين كل  
عضوفيه باللون الملائم ، فجزيا على الطريقة نفسها في مثلنا الخالي توجب علينا أن نسيغ صنوف السعادة على  
الحكام فيصيرون غير ما هم اه

وجاء في الكتاب السادس من الجمهورية في صفحة ١٥٥ : «ان هؤلاء الحكام فضلا عن زهدهم  
في المال ، واهم آباء الدولة ، يجب أن يدرسوا كل علم ليصلوا إلى معرفة الله عز وجل الذي عبر عنه هو بالخير ،  
وهذه الدراسة مفصلة في هذا التفسير ، مجلّة في الجمهورية ، وانما طلب ذلك لأن تلك الدراسة توجب حب  
صانع العالم ، ومتى كان هذا الحب تمت السعادة وصار هؤلاء الحكام خلفاء له في إدارة أرضه : «يادادونا  
جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى الخ» .

وقسم في الكتاب الثامن من الجمهورية الحكومات إلى خمسة أقسام : (أرستقراطية ، ديموقراطية ، وأوليغارشية ، وديموقراطية ، واستبدادية) فالأرستقراطية حكومة الفلاسفة ، وهي الحكومة العادلة المشروعة شرعا وجيزا فيما تنظم ، ثم يظهر بها ذلك الخلل على غير طريقة السالف ، فيظهر خلف الفلاسفة غير مراعين الحكمة ، فيصبح الأمر بيد القواد ، ويقومون بالدولة بدل الفلاسفة ، وهي التيموقراطية ، ثم يظهر بعد ذلك الطمع في المال ، وتذهب الحساسة من الجنود ، ويصبح المال هو المقصود بعد أن كانت الحكمة في الأرستقراطية ، والحساسة في التيموقراطية ، فلما إذن يكون هو المقصود في الأوليغارشية ، فإذا أصبح هذا مقصودا كبر الأمة فهم إذن مجرمون ، لأنهم يخدعون الشهوة الساقطة ، شهوة البطن والفرج ، وإذن يصبح المال في يد الحكام ، فيقوم الشعب ويحاسبهم حسابا عسيرا ، وتنزع الأمة إلى الثورة ، فتسكون الحكومة بالانتخاب ، والانتخاب يرجع فيه إلى الأفراد كلهم وهي الديموقراطية وتسكون الحكومة الاستبدادية إذا لم يمكن ضبط الأفراد .

هذه هي الحكومات وأنواعها ، ومن رأى سقراط أن أعلاها أولها ، وآخرها أقلها شأنا . والديموقراطية وهي الرابعة على حسب زمانه لقلة المواصلات رديئة ، ولكن في زماننا قيمتها عظيمة ، وهذه الحكومات ذكرناها هنا لتبني عليها ما يريد من الكلام في الفصل الخامس .

### الفصل الخامس في تطبيق علوم تلك الأمم على أممنا الإسلامية في القرون الأولى

فإذا رأينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يبذل قصارى جهده في التبرى من مال المسلمين ويكتفى بأقل القوت ، ورأينا أبا بكر قبله والنبي صلى الله عليه وسلم وعلياً وعثمان رضى الله عنهم ، فأننا نقول هذه الحكومة فيها اقتراب مما وصفه سقراط ، وإذا رأينا أن العصر الأول لما ذهبت درلته ، ورأينا الأمويين والعباسيين في القرن الثاني يقاتل بعضهم بعضا وإن كانوا مجتهدين والمجتهد له أجر ، ورأينا أمثال عبد الله من ذرية الحسن وقد حضر عند السفاح ، ورأى المال المنهوب من بنى أمية ، وهو جواهر وحلى للنساء ، وهو يطلبه من السفاح لأن ابنه كان هو صاحب البيعة فأننا لانشكل أن هذا الجيل أقل من الجيل في القرن الأول ، لأن بعض آل البيت أحبوا المال وقد كان علي رضى الله عنه وعمر يترآن منه ويهربان ، وهذا يأخذ ألف ألف درهم ، ويأخذ جواهر لبنات آل البيت ، وقد كانت تنفر منه وتحقره فاطمة رضى الله عنها ، فالسفاح في المثال المتقدم المشروح آنفا قبل هذا المقام في الطبقة الثانية وهي التيموقراطية فهو إلى الحساسة أقرب ، وعبد الله من ذرية الحسن أشبه بالطبقة الثالثة وهي الأوليغارشية ، وهي التي مقصد أربابها المال فهو إذن في رتبة شهوية كما كانت التي قبلها حماسية (وبعبارة أخرى) إن أمثال الخلفاء الراشدين إلى الحكمة أقرب ، وأمثال السفاح إلى الحماسية أميل ، وأمثال عبد الله المذكور إلى دولة المال أقرب ، وهي التي يعقبها الاضطراب .

\*\*\*

هذا ما استنتجناه من قراءة التاريخ المذكور هنا ، ثم أصبح أبناء الخلفاء بعد ذلك جميعا على نسق واحد ، وهو هذه الطبقة . طبقة المال والشهوة البهيمية ، فأما جنودهم من الترك والفرس وغيرهم فهم أقرب إلى الحماسية ، فأصحاب الحساسة أذلوا أصحاب الشهوة : أي الطبقة الثانية ذات الطبقة الثالثة .

اللهم إنك أنت الحمود على نعمة العلم ، نحمدك أنك عرفتنا لماذا انتقمتم من المسلمين بعد العصر الأول وساطت بعضهم على بعض ، وألبستهم شيئا ، وذاق بعضهم بأس بعض ، لأنهم لم يكونوا في الذروة العليا من مقاصد الملك ، وهو العدل والصدق والاخلاص ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، أي انهم لم يكونوا خلفاءك

أنت على عبادك في الأرض ، وبعضهم أخذك إلى الأرض ، وأتبع هراء في الليل إلى عصبية ، وأبناء بيئته ،  
وتفضيلهم على سواهم ، وأنت ما أرسلت نبيك محمدا صلى الله عليه وسلم إلا للسند العام ، وهجر العصبية  
الجاهلية ، لذلك عاقبتهم بالتخاذل ، وجعلت الملك في أيدي خيبرهم ، وجعلتهم خاضعة أعناقهم لقوادهم من  
الترك وغيرهم .

ههنا ظهرت الحكمة في تسليم بني هاشم بعضهم على بعض : فالعباسي يقتل العاصي ، والعاصي يطالب  
بالمالك ، والله يقول . كلا . لا ملك لأنكم تريدون مطلباً أدنى وهذا الدين نزل لما هو أعلى ، فكونوا متعادين  
لأسلط بعضهم على بعض ، وذلك جزاء الذين لا يعدلون .

### خطاب من المؤلف إلى السفاح العباسي وعبد الله الحسني

« أيها السيدان العظيمان : أزلتما دولة الأمويين ، وأخذتما جواهرهم ونقودهم ، لمن هذه النقود ،  
ومن هذه الجواهر ؟ أهى لكم أم للأمة ؟ ستقولان إن لنا في بيت المال كذا وكذا ، وتحتجان بفروع علم  
الفقه ، والفقهاء مختلفون ، وعمر رضى الله عنه يرى غير رأيكما ، لنضع فروع الفقه جانبا ، نحن نريد تربية  
الأمة ، إن الأمة لا تربي بهذه الطريقة ، لا تربي الأمم بأن تجعل طائفة منها تختص بالمال ، وتجعل غيرها  
مسخرة لها ، فهذا مثال العين وصفها بالصبيح الأرجواني الذي ذكره سقراط ضربه مثلا لطبقكم الشريفة  
يرى علم الحكمة المدون قبل النبوة : أن طبقة الحكام أولى بأن تزهد وترضى كما ترضى العين بصيفها البسيط  
وتباعد عن أن تزين كما تزين العرائس ، وأن تكون مترفة ، إن المترف لذيل ، وكثرة المترفين تسقط  
الأمم ، الوقوف عند فروع الفقه والجدل فيها إضاعة لجمال الاسلام . يقول الله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك  
قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

أليس هذا هودين للاسلام ؟ أليق بنا أن نجعل جسم أمتنا مصابة بالشلل ، لنضع الفلسفة والحكمة  
العقلية جانبا ، ونرجع إلى النبوة ، ماذا رأينا فيها ؟ رأينا إعراضا تاما عن مال الأمة من نبينا صلى الله عليه وسلم وخلفائه  
فاذا جرى بعد هؤلاء ؟ رأينا كما أيها السيدان تنهاديان مال بني أمية : فأنت ياسفاح تواسي به عبد الله  
الحسني لأنك اغتصبت الخلافة من ابنه وهو يتشوق للمال ويفرح ، وأنتما معا نسيتما أن المال مال الأمة أن  
لم يكن بعلم الفقه ، فليكن بعلم الأخلاق ، وعلم القرآن ، وعلم النبوة ، وسيرة الصحابة ، أين رأى الأمة في  
هذا المال ، نحن أيها السيدان نحفظ حقا وشرفا ونعد كما مجتهدين ، والمجتهدين مخطئا ومصيبا مرحوم  
ولكن الاجتهاد شيء وتربية الأمة شيء آخر ، هاهو ذا كونهوشوس الفيلسوف الصيني يجهل نقاوة الضمير  
وتهذيب النفس ، ونظام الأسرات ، ونظام الممالك : كل ذلك موقوف على البعث في المحسوسات وفهمها  
ودرسها ، وهاهي ذه النبوة المحمدية الشريفة قد ظهرت أنوارها في الخلفاء الأربعة : نسمع أصحابه رضى الله  
عنهم يقولون : « من حفظ البقرة وآل عمران جدد في أعيننا » وهذا عجب ، ونسمعهم يقولون : ( ما كنا  
نحفظ آي القرآن حتى نفهمها ) وهذا تقدم قريبا : هذه البقرة ، وهذه آل عمران ، ونحن الآن نحفظهما  
ونحفظ القرآن كله ، ونحفظ علوما وعلوما ، ولكن أين ملوكنا وحكامنا وقضاتنا الذين أشبهوا أبا بكر وعمر  
وأمثالهما ، أخبراني أيها الشريهان العظيمان ، وقولاني يقع في خاطري أن النبوة كانت تلقى عليهم تعاليم  
تبعثهم على النظر في ملكوت السموات والأرض ، حتى ترسخ محبة الله ومحبة الخير للناس في نفوسهم أولا ،  
وتعاليم أخرى تجعلهم يفكرون في الأمم والدول والأخلاق والأحوال ؟ والافلماذا نسمع كما تقدم أن بعضهم  
يحفظ السورة في سنين معدودة ، وما هذا البطء إلا بتفهم المعاني التي ذكروا أنهم يتعلمونها من  
نبينا صلى الله عليه وسلم .

## خطاب المؤلف المسلمين

أيها المسلمون : نحن اليوم نسلم تسليما قاطعا أن تعاليم الخلفاء الراشدين ومن كان معهم بحجولة عندنا ، ونقرّ ونشهد كما جاء في الأحاديث السابقة المنقولة عن **الإمامين** للسيوطي أن حفظ آيات من القرآن أيام النبوة كانت متبوعة بمعان نجهلها نحن الآن ، بدليل أننا نجد رجالا يضارعون الخلفاء الراشدين في فهمهم العدل في الأمم ، نقرّ بهذا ونعترف به ، ونقرّ بأن التعاليم التي فهمها الصحابة وأكثرهم لم يعرفوها أكثر الناس بعد ذلك وضمروا عنها الذكر صفحا . نعم : الشريعة كلها بلغت هذا لاشك فيه إنما الأمور التي وقرت في الصدور ، وهي التي تهذب الأخلاق وتحفظ الدول ، وتحفظ المال للأمة جعلت نسيها منسيا غالبا . أقول : فلعل ما أطلنا به في هذا التفسير يحوم حول بعض تلك المعاني الشريفة : ففيه بهجة الجبال السامري والأرضي ، وفيه نظام الدول والممالك ، وكيف يكون زوال الملك نابعا للشهره على المال : فلعل هذا الكتاب يكون فاتحا بابا يلججه المسلمون بعدنا ويدخلون منه الحقائق الخلقية والنظم الدولية ، فلا عجب في ذلك فقد رأينا النيل يجري من خط الاستواء وبين منبعه ومصبه في البحر الأبيض المتوسط ما يربو على ألفي ميل ، ولم تظهر ثمراته إلا بالقرب من مصبه في بلادنا المصرية : أما في السودان فثمرته قايمة ، فلعل دين الإسلام كذلك بالنسبة لزمانه القديم بعد العصور الأولى وزمانه الحديث اليوم ، والله هو الولي الحميد وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

## الفصل السادس ، في أن الله عز وجل هو الذي أسس ذلك التاريخ لنا نحن

ذلك أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . والعلم والدين لا تظهر قوائدهما التامة إلا بعد التجارب الكثيرة ، وهانحن أولاء رأينا تجارب الآباء سنأخذ اليوم حذرنا مما وقعوا فيه ، ونؤسس الممالك على الشورى ، ولا نكون مغرمين بالمال كالطبقة الشهوية ، ولا بالعظمة كالطبقة الجاسية بل نكون مغرمين بالعدل ، سائرين على منهاج الخلفاء الراشدين ، وما هذا ذلك فنحن ندعه : وهانحن أولاء عرفنا حقيقة التاريخ ، والله بالمرصاد لمن غفل في السياسة ، كما إنه بالمرصاد لمن غفل في تدبير الطعام والشراب فالقصر والمقال فيهما مخول مقهور مهان ذليل ، فمن أكثر من الطعام أورثه الأسقام ، وشرب الدواء الكريه المر هكذا من طغى في الملك منع لذيذ النوم ، وأصبح محسورا مقهورا .

## خطاب الله للأفراد والأمم

إن ماراه من عقاب للأفراد وللأمم من حيث الإسراف في المأكل والمشرب ، ومن حيث الجهل بالحجة العامة في الأمم يفهمنا فهمنا عاميا ، كأن الله عز وجل يخاطب الأفراد قائلا : أيها الناس . هاأنذا أنزلتكم في الأرض ، وأعطيتكم الحب والفاكهة والخضر ، وبوأتكم في الأرض منازل وقصورا لأنظروا تكفرون بجهل نعمي ووضعها في غير موضعها ، أم تشكرون بالنظام العام ؟ وقد أعددت لكم المدة ، وثقت العدل بينكم ، وأنا سريع الحساب في الدنيا قبل حساب الآخرة ، فمن أكل فوق طاقته ، واتبع شهوته ، فاني أعددت له أمراضا مختلفات تله ثم تقتله ، وإذا أراد البره منها أعددت له أطباء وأمرتهم أن يحضروا له العقاقير المنافية لزوجهم ولنسوقه ، وأعطينهم الأسلحة والمشارط ، وقلت لهم : أيها الأطباء من استغاث من هؤلاء الجاهلين بنظامي وهو مريض فجرّعه ككؤوس الأدوية يشربها صبرا وعلقا ، وحسّوا قوا جلده بأسلحتكم المعدّة لذلك ، وأدخلوا تحت جلده مواد تحقنونه بها ، زيادة في تعذيبه ، ونسكالا به ، لأنه جهل نعمتي ، وهذه الأدوية



المرّة ما هي إلا أنواع من السموم التي تتحمل أجسامهم تحملها ، وتقصر على أن تسوغها وتمثل بها ، فن عاش من هؤلاء عاش مليلا سقما ، ومن كثرت أدويته أوردته موارد الملكة ، وحملت به إلى عالم الأرواح ليصرف مستقره ودرجته في عالم الأموات .

هذا خطاب الله الذي يخيّل لنا أنه يخاطبهم به في كل زمان ومكان ، وكأنه عز وجل يخاطب الأمم قائلا : « أيتها الأمم : ها أناذا خلقتكم والحشرات وبقية الحيوان حولكم ، وكثير منهم من هائماتك منظمات ، ومحبة ومساعدة تامة كالنمل والنحل ، أما أنتم فإن أيّ أمة جهات المحبة العامة وتقاطعت ، وأصبح أفرادها بعضهم لبعض عدو كما حصل في أمم العرب وأمم الإسلام المتأخرين ، فوعزّي وجلالي لأسلطن عليهم من هم أكثر منهم النشاما ، وأوصلهم رجما ، وأقربهم محبة ، وأحسن منهم نظاما في مدنيّتهم وإن كان دينهم أقلّ من دينهم ، وشرفهم أدنى ، ولتكن المودة العامة نامية ، فهؤلاء أسلطهم على هؤلاء المتقاطعين يسومونهم سوء العذاب ، وينتكون بهم فتكاذريها ، ويزيدونهم تقاطعا بالوشايات والنكيات ، ويصيرون لهم أشبه بالخدم والعبيد حتى يستيقظوا من نومتهم .

فالأمم العظيمة التي استحكمت نظامها وإن كان كثير من رجالها فاسقين أسلطهم على الأمم المتقاطعة وإن كان أكثر رجالها صالحين ، لأنّي أريد المودة العامة ، والمحبة الملتزمة ، التي تشمل الأمة كلها نظاما واتقانا ، فأىّ أمة قصرت في ذلك فإن من هي أحكم منها نظاما تسطو عليها ، وتمتلك سترها ، وتذلها ، وتغير عليها بسلاحها ومدافعها وبارودها وطياراتها ، فتقذف عليها النار من الجوّ ، ومن السفن البحرية ، ذلك جزاء الجاهلين .

هذا ما خطر لي اليوم ١٤ يناير سنة ١٩٣٢ ميلادية — ٥ رمضان ١٣٥٠ هجرية بعد الظهر والحمد لله رب العالمين .

### الفصل السابع : في بيان أن تجاوب أيامنا هذا زمان ظهورها

إذا رأينا الفارس إذا مات في الهجاء اختص باللعن الطيور ، وبالعظام الوعوش ، وأخذ الخيالة ما عليه من سلاح وكراع ، وهذا هو المسمى (بالسلب) كسبب كما يقول عنتره شعرا :

لي النفوس وللطير اللعوم وللوعوش العظام وللخيالة السلب

وإذا دفن في جدته ، فلا دود والحشرات تراث لحه وعظمه ، ولورثته ماله وعقاره ، وللأمة والتاريخ حوادثه وأخباره ، لم يخلق الله خلقا عبثا ، فإذا مات أبوانا الأول ، فلنا نحن أفضل ميراث عنهم ، وهي العبرة في التاريخ : لأنّ الدود استوفى حظه ، والورثة نالوا صرادهم ، فلنستوف نحن ميراثنا الآن ، ولنقل أن الأئمة رضى الله عنهم كمأني حنيفة ومالك وابن حنبل ومن بعدهم كانوا تحت سلطان قاهر وسيف مسلط ، وماؤك مفتصبين ، فأهان المنصور الأوّل والثاني ، وأما الثالث فقد امتحن وأهين في مسألة خلق القرآن ، إذن فلا سبيل إلى إطاعتهم في عصر نظام السولة إلا بمقدار : أما أنهم يجسرون على تطبيق القرآن على الدول والممالك .

(١) مثل أن يستنجوا من آية « ألم تر إلى الملاء من بني إسرائيل من بعد موسى الخ » إن المدار في

الملك على قوّة جسمه وعامه : وأما مسألة شرف الآباء فليست مقياس ذلك ، وهامهم أولاء بنو إسرائيل يقولون : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه لأنه لا نتا من بيوته ، ونسلنا أرفع من بيت طالوت ونسبه ، وأيضا ليس عنده سعة من المال والمدار في الملك على المال والنسب ، أى أنهم يريدون الطبقة الثالثة ، وهي التي تملك بسبب سلطان القوّة الشهوية ، وهي (الأوليغاركية) أى المالية فيصبح المدار في الملك على المال : فقال الله لهم . كلا . أيها الناس : المدار على العلم

بدل المال ، واستعداد المرء من حيث ذاته هو لا أصله : فهذا رجوع الى أعلى طبقة ، وهو طبقة الأكارب والحكام بقدر الامكان : فهذه الآية تهدم الركن الركين في استيلاء الباسيين والأمويين ويرجعون الى الشورى .

(٢) وهل يستطيع أصحاب الشافى ومالك وابن حنبل وأبي حنيفة أن يرفعوا أصواتهم أمام ملك هذه الدول : فيقولون أيها الملك : أما سمعتم قول الله « وأسرهم شورى بينهم » وقوله « وشاورهم في الأمر » وقوله من قصة بلقيس : « قالت يا أيها الملك أفقتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولوا قوة وألوا بأس شديد » الخ وقوله في قصة فرعون اذ يشاور الملك في أمر موسى « إذ قال للملأ حوله فإذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه » الخ : يا عجبيا مملكتان شريقتان يذكرهما القرآن ، ملكة تقول « ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » ، وملك عات « يقول للملأ حوله فإذا تأمرون » القرآن صريح في الشورى ، لملك يورث ، ولا مال يؤخذ الا بأمر نواب الأمة أي أهل الحل والعقد : فهذا كله ترك منذ العصور الاولى لأن الحكومات مستبدة وكل من رفع رأسه قتل أو أهين ، ودرج الخلف على ماسنه السلف ، ورضى الناس بالملك وعاشوا في ظلالهم وهم كارهون أو غافلون :

أكتب هذا الليلة : ليلة الثلاثاء ٤ شهر رمضان سنة ١٣٥٠ هـ أكتبه وأنا مقبل على زمان سعادة وهناء لأمة الاسلام بعدنا ، وسيكون هذا من عقوبات البعثات ، وبناء الحكومات على أساس زطيد ، فلا المال ولا النسب ، ولكن السكامة والعلم وضبط الملك ، فهنا نحن أولاء جئنا في زمان لا سرح فيه على السكانيين نظرنا في تجارب الآباء فاستنتجنا منها هذه النتائج ، وهي واجبة علينا فأما من قبلنا فقد كانوا في زمان لا يستطيعون فيه أن يرفعوا أصواتهم حتى يرفع السيف على أعناقهم ، وأنا لست أقول إنهم لم يدوتوا ذلك هم دونوه ، ولكنهم لم يطولوا فيه كما أطالوا في البيوع والزكاة والصلاة وما أشبهها ، والعلة هي الخوف مع ان هذه المسألة حفاظ لما عداها : لانه لا صلاة ولا حج ولا غيرها والناس غير آمنين في منازلهم ، والأمن يكون أكل إذ أسند الأمر إلى أهله .

### الفصل الثامن . في تبيان نعمة الله علينا وعلى الناس في زماننا وبهذه

إن الله عز وجل سيسأل كل ذي علم عن علمه ، والله سيسألي عن تقصيري في النشر بعد الفهم : يقول الله تعالى « وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليعينه للناس ولا تكتمونه الخ » ويقول « لست الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وينذروا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » .

وسيسمع هذا أقوام بعدنا فيرون أن أهم ما في القرآن وترك ، فلم يستسخ منه الناس علوما فيوجبوا قراءتها (مثال ذلك) علوم الآثار كآثار الآشوريين ، والبابليين ، وقدماء المصريين ، والفرسي ، وما أشبه ذلك ، تلك الأمم الحالية التي عثر الناس عليها في الحفائر والمقابر ، وعلى الألواح والطروس ، والورق ، ورق الغزال ، والبردي ، أليست هذه هي التي يقول الله فيها كما قدمناه مرارا « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لنزول منه الجبال فلا تحسبن الله مخلف وعده رساله الخ » أليست ترى أن هذه الآية منطبقة تمام الانطباق على مكر الملوك المستبدين في الامم الاسلامية الذين ذكروناهم ، وكيف كانوا يكرون ويخنالون في

حيارة ماسكهم ، وإنما نحن يجب علينا أن ندرس ذلك ، ومن المدهش أن علماء الاساطير أجملوا ذلك ، فجعلوا تلك العلوم من فروض الكفريات ، ولكن المسامون تركوا ذلك كله جهالة كما أرضعناه .

إن هذا المقال يطول إذا استطرنا فيه بذكر قصص القرآن وحوادث الأمم : كل ذلك ذكر لنظام العمل والممالك ، وأنا أجدك يا الله إذ وفقت لوضع نبذ في هذا المقام تعمل على البقية وعلى من يأتون بعدنا ، أن يدرسوا الفلسفة ، ويستخرجوا خلاصتها مع خلاصة القرآن ويرقوا الأمم : إن هذا الزمان مهبطاً للأمم أسعد حالاً وأرق شأناً ، ولذلك أنعم الله بهذا التفسير « فإله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » .

كتب ليلة الثلاثاء الساعة ١٢ أى نصف الليل في رمضان سنة ١٣٥٠ هـ - ٢ يناير سنة ١٩٣٢

## نظرتي في عوالم العقول وعوالم الحقول . والمزارع . والثمرات

والسلام لله المناسبة ما كتبته في هذا المقام

رباه : أصرت نبينا صلى الله عليه وسلم أن يسلم وجهه لله ، وأمرتنا بذلك التسليم في آية : « فان حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن » الآية .

وأمرت المسلم أن يقول في أول كل صلاة : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً » رباه : هانحن أولاء وجهنا ووجهنا لك ، وسألنا أمورنا إليك ، ورجعنا إلى كتابك ، وانتظرنا الفتح منك . رباه : هانحن أولاء نزلت أرواحنا إلى هذه الأجسام في أرضك ، ونظرت في أحوال الأمم التي نعيش معها ، والأمم الخالية فألفينا عجبا ! ألفيناك فعلت في عقولنا ما فعلته في حقولك وحقولنا :

(١) ذلك أنك أنزلت المطر مدراراً في خط الاستواء أكثر أيام السنة ، ولم يموز المخوقات الحية هناك حوث للأرض ، ولا ري للشجر ، فالأرض تجود بالشجر والمطر فوقها والثمار غزيرة ، والمخوقات الحية قريرة العين بثلث الثمرات اللاتي تؤتي أكلها كل حين باذن ربها .

(٢) ثم رأينا أمة أخرى في مناطق أخرى يعوزها حوث الأرض لاستخراج نباتها ، وقد كفاه المطر السقي (٣) وأمة أخرى كأمتنا المصرية يعوزها أصران : حوث لأرضها لتقليب الطين فيها ، واستخراج اللب من الآبار ومن النيل حتى يكون لها زرع وثمر . هكذا رأينا المواهب العقلية والحكمية :

(١) فهانحن أولاء نرى أنبياء ظهرت، الحكمية في قلوبهم فبشوها للأمم ، وهؤلاء الأنبياء لا يعوزهم معامون أرضيون ، وليسوا في حاجة إلى دراسة النظريات الفلسفية .

(٢) ونرى حكماء في الأرض يعوزهم بحث وتنقيب في مقابلة القسم الثاني فيما تقدم .

(٣) ونرى علماء يعوزهم أصران : تدريب عقولهم بالبحث ، واستخراج العلم من مخزون علوم الانبياء والحكماء .

هذه أقسام المواهب العلمية المقابلة لمناخات المزارع والحقول والأشجار الأرضية : إذن نحن اليوم من الفريق الثالث ، فعلينا أن نجتد لاستخراج ما كمن في عقولنا من المواهب في مقابلة حوث الأرض لاستخراج الزرع منها ، وأن نقرأ ما نبعث من منبع النبوة من العلم ، فلا ندع عقولنا بلا تفكير لئلا تهلك الأمة كما تهلك أمتنا المصرية جوعاً إذا تركت حوث أرضها ، ولا ندع علوم آبائنا الأولين ولا حكماء الأمم ولا علم الرسالة المحمدية ، لئلا تهلك أمتنا الإسلامية كما تهلك الأمة المصرية إذا تركت ماء النيل جانبا وأخذت ترقب المطر ، ولا مطر غزير في بلادها : رباه هذه طريقتنا في حياتنا الدنيا ، نكتب هذا ، وسيكتب نظيره من بعدنا ، ونسلم أمورنا إليك ، ونحن نوقن أن هذه المواهب وهذه المعارف ليست لنا ، بل هي منك وهي هبة إلهية لك

فكل من كانت لديه أى حكمة من أهم الإسلام فى زماننا أو بعده : فانه بأمر أن يسلم أمره لله ، وأن يسعى فى نشرها فى أمته ، وأن يعلم أنه لا فضل له فى معرفتها ولا فى نشرها : كما لا فضل لأشجار خط الاستواء فى غزارة ثمراتها ولا لحقول الزرايع المصريين فى تنفيذ عبادك بحروبها ، فأنت الزارع فى الحالىن ، وأنت المهيمن على الأمم منها : فها أنا ذا أفوض أمري إليك ، وأقول أسألت رجعتى لله إنباعا لانيك ، لاسيما خاتم الرسالة صلى الله عليه وسلم ، وأوقن أن ما كتبته ما هو الاغيض من فضل رحمتك ، وما عقولنا ولا أبحاثنا إلا كالقلم فى يد كاتبه يصرفه كيف يشاء ، أنت منزل الماء من السماء وبحي الأرض بعد موتها ، وأنت منزل الوحي ومصرف العقول ، وهاديا الى ما نشاء من طرق الهداية . بها تنبي أممنا ، بأهل هذه الطرائق الحبيثة فى أممنا الاسلامية ، نرجع بالناس الى المصير الأسمى النبوية ، وبورقة السلام والاعتقاد لأصرك والسير على نصوص كتابك ، والاهتداء بأنوارك ، وقيام أهم ودول ، تسكون أقرب الى عصر النبوة فى حبك وفى الاشراف على عبادك بحسن السياسة وانتظام الشمل ، (وبعبارة أخرى) يكون المسلمون فى مستقبل الزمان راحة لعبادك لانك رب العالمين اه .

### إشراق شمس الاسلام بعد إظلام ليله

لقد أبنا فى تفسير هذه الآية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بقت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » اختلاف الأمم الاسلامية فى القرون المتأخرة ، وأفضنا فيه إفاضة كافية وافية ، ومن عادة الله عز وجل أن يجعل بعد العسر يسرا ، و بعد الضيق سعة : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

اللهم إنا نحمدك جدا يوفى نعمك ، ويكفى مزيديك ، رباه قد نلنا ما كنا نتمناه فى أهم الاسلام ، رباه لقد أنلتنى ما كنت أتوق إليه وأنا حى ، نعم نلت ذلك ، فيا سبحان الله : هل كان يدور بخلدى أن أعيش حتى أطلع على الاتفاق بين إمام اليمن والملك ابن السعود ، فبذ أيام اختلافنا على جبل بينهما ، فوكل الأول الحكم للثانى ، فحكم الثانى للأول ، وفى هذا اليوم جاء فى جرائدنا المصرية أى يوم الاثنين ١٨ يناير سنة ١٩٣٢ الموافق ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية تحت العنوان الآتى مانصه :

### الاتفاق بين جلالة إمام اليمن والملك ابن السعود

« تم الاتفاق بين العاهلين العربيين ، وذلك على عدة نقط ، النقطة الأولى ان الأربعة الخلفاء التى كانت تابعة للسيد على بن محمد الادريسي ، والذين انقضوا عليه بعد وفاة والده السيد محمد الادريسي ، والذين أخذوا منه المدافع التى كانت معه من مترايوز والجبخانه ، وقد ظلوا حاكمين نفوسهم مدة من الزمن ، غير أنه حصلت الفوضى بينهم ، واختل الأمن والاطمئنان ، ثم أصبحت من غير راع ، فما كان من كبارها إلا أنهم اتفقوا على أنهم يسلمون أنفسهم لجلالة الامام يحيى ، وذهبوا الى أقرب نقطة تابعة لحكمه تسمى (ساقين) وطلبوا من عامل تلك الجهة أن يتقدم ليتسلم أمورهم ، ويجرى ضبطها ، قبل استفعال الفوضى بها ، والزموه الحاجة ، فطلب منهم تسليم المدافع والجبخانه الموجودة معهم ، وتسليم الرهاين بحسب العادة المتبعة هناك ، فأجيب طلبه ، فأرسل الجيوش المتوكيلة واحتلت الجهة تماما من غير أى مقاومة ، ولما بلغ الأمر الى ابن السعود من عامله بصبياء أرسل من طريق جيزان تلعرافا لعامل الامام بميدى ، وهو القاضى عبد الله العرشى



الذي منه رفته إلى جلاله الاسم يحيى ، فخصمت المخبرات بين الماهدين ، ثم نقارحاً إرسال مندوبين من الطرفين كان على رأس مندوبي اليمن حاكم بيدي القاضي العرشى ومعه شيخ مشايخ بلاد خولان راجح ، وشيخ بلاد مجور ، وشيخ بنى جماعة ، واجتمع الوفدان عدة مرات ، ثم قرّر القرار على أن البلاد التي احتلها جيش الامام تضم إليه ، ويتوقف مؤقتاً عن التقدم إلى جهة صيدا ومايلها ، ثم ان رفق ابن السعود طلب أن تعين الحدود ما بين عسير واليمن ، فرفض الامام يحيى ذلك ، بحجة أن عسير من أمها اليمن ، وقد أجرى الصلح مؤقتاً بهذا وبناء على ذلك تم الاتفاق ، وأمضى الفريقان المهادنة . اهـ

أفليس من العجب أن يكون هذان الأبران ابني تليكم الأمم التي لم تعرف إلا المشاجرة والتنازع في القرون المتأخرة ، وقد رجعا لمصر النبوة كرة واحدة اتباعاً لآية الصلح بين الطائفتين . هذا ومن عجب أن المسلمين يسرعون في الرقي ، فهل كان يدور بخلدائ أثناء طبع ﴿سورة سبأ﴾ التي كمل طبعها في شهر شوال سنة ١٣٤٨ هجرية أي منذ أقل من سنتين (وأنا الآن أكتب هذا يوم الاثنين العاشر من شهر رمضان سنة ١٣٥٠ هـ) أن ماتمته لبلاد اليمن ، بل ما توقعته يتم قبل مضي سنتين اثنتين . أفليس هذا من عجائب صنع الله تعالى التي توقعتها في هذا التفسير ، حقا حقا ان الله أذن برقي أم الاسلام .

كم ذكرت في هذا التفسير أن هذا زمان رقي أم الاسلام . كم ذكرت هذه الجملة ، نعم كررتها ، ولادليل عندي إلا دافع نفسي ، وهذا الدافع كان كافياً لما أكتبه ، وليس هذا الدافع برهانا عقلياً ، إذ البراهين العقلية غير الامور الوجدانية القاصرة على صاحبها ، وليكم ضلّ قوم بوجدانهم فكثيراً ما يخطئ الوجدان ، ولكن في هذا المقام صدق الوجدان ، وتمّ ما كنت أتوقعه لهذه الأمة أوجله ، حتى أصبح ذلك عندي يقيناً صدقته الحوادث .

فاظركيف كتبت في تفسير ﴿سورة سبأ﴾ المذكورة انني كنت فسرته تفسيراً أولياً بدون اطلاع على ما كتبه المسلمون والاوروبيون عن الآثار في أرجاء اليمن ، ثم عاقت العوائق عشر سنين اطلعت في أثناءها على تاريخ تلك البلاد ، وسبب اضمحلالها ، وأن القوم أهملوا أعمال زراعتهم ، وصيانة سدودهم ، فانهار السد ، ففترقوا شذرو مذر ، فكان الاستنتاج الاجالى الأولى هو عين التفصيل التحقيقي بعد ذلك ، وفي هذا التفصيل ظهر الكشف الحديث وفيه آثار بلاد سبأ ، وخريطة «مدينة مأرب» بعد خرابها ، وخريطة «سد العرم» ، وذكر العلماء الذين نقبوا عن تلك الآثار ، وما لا قوا من الذلة والمهانة ، وهم من أم مختلفة وكيف نشروا صور تلك الآثار في أنحاء أوروبا ، والمسلمون لجهلهم ببلادهم وبلادهم ، وعلوم الأمم حولهم ، ولغاتهم خامدون نائمون جاهلون كأنهم لا يسمعون ، أو كأنهم غير موجودين في هذا الكوكب الذي تعيش عليه ، وختمت المقال هناك بنداء وجهته لأمة الاسلام ، وقلت : إيه يا أمة الاسلام ، أهكذا يكون المسلمون ؟ إلى أن قلت : يجمل في دين المروعة والشرف أن يكون الجاهلون يعمرون أرض الله أكثر من المسلمين إلى أن قلت : لا لا إن أمة الاسلام ستأخذ دورها عن قريب . أمة الاسلام النائمة قد افقضى دورها ، وستأني أمة الاسلام اليقظة التي تحفظ نعمة الله الخ إلى أن قلت : لم ذكرت سبأ ؟ القصة تذكر . كلا . والله ذكرت لما الآن ، ذكرت لمن يتعظون ، دفن الله المال والعلم في الصخور والألواح وعلى الجدران ، ثم أخرج ذلك الآن الخ .

هذا قلّ من كل مما كتبه في ﴿سورة سبأ﴾ . أفليس من العجب العجيب أن نرى في صحيفة الجهاد في نفس النارجح المتقدم تحت عنوان «أخبار اليمن» مانصه :

«تقدمت الجيوش المتوكلية شرقاً واحتلت وادي سبأ ومأرب والبيضا والسودا والحرا وبنى نوف والعوالق وبيجان والمصعبين وصراد والجوبة ، والجميع يسمون البلاد إلى القائد العام السيد عبد الله الوزير من غير

أى مقاومة ، وفى أثناء هذه المدة يجرى التنقيب فى مأرب باهتمام عظيم بواسطة الاختصاصيين الألمانين من مالوك حير وكنوزهم المدفونة تحت الجبال ، وقد اهتمت الحكومة الهيمانية إلى استخراج مدفن بجهة مأرب ، ووجدت فيه كمية واسعة من الكنوز الذهبية والأشجار الكريمة ، وأيضاً وجدت مدفن آخر بجهة بلد تسمى « النخلة الحمراء » وهى تابعة لبلاد الحذاء ، وتبعد عن صنعاء ١٠ كيلومترا ، والمشراف على اخراج ما بها من الكنوز سيف الاسلام محمد بن أمير المؤمنين ، وأيضاً وجد كنز بجهة بلدة تسمى « غيمان » وقد وجد بها تمثال لملك من مالوك حير ، وعدة تماثيل : منها ماهو على صور الخيل ، ومنها ماهو على صور أخرى ، وأما المالكة قرينة الملك فهم ينقبون عنها فى بلد تسمى « سيان » وهى تبعد عن صنعاء ١٠ كيلومترات ، والتنقيب يجرى باهتمام عظيم . انتهى ماجاء فى الجريدة المذكورة والحمد لله رب العالمين .

كل هذا لما كتبته وسمعه صديقى العالم الذى اعتاد مناقشتى فى هذا التفسير سرّاً أيام سرور ، وقال : هذا هو النصر والفتح المبين . هاهم أولاء القوامون على أمر اليمن قد نشطوا لاستخراج كنوزها ، ولكن خير لهم أن يعلموا أهل بلادهم كل علم وكل فن حالا كما فعلت اليابان ، وهاهم أولاء أمراء الاسلام غيروا طريقة آبائهم فى القرون المتأخرة التى كانت كلها محننا وبلاد فالحمد لله رب العالمين .

فقلت : إن أم الاسلام اليوم تخطو خطوات واسعات نحو المجد ، وأنا أقول : ستشهد الإنسانية مشهدا اسلاميا لا يشابهه إلا عصر النبوة ، وينتشر الرقى الاسلامى انتشارا لم يعهده له نظير ، وهذا ابتداء دوره فى أثناء طبع هذا التفسير ، وهذه أمة مقبلة لاحد ليكاملها ، ولا تنتهى لسعادتها .

فقال صديقى : إن الأمر فوق ذلك ، إن اتساع المعارف أخذ يمتد بين أمم الاسلام جميعها ، فليس قاصرا على أمة العرب ، بل المدهش أن الأمم التى ليست بعربية أخذت ترتقى طفرة ، لافى الآثار وحدها ، ولا فى الصلح بين الطوائف ، بل فى سائر الشؤون الحيوية ، وهل أتاك حديث « المقطم » يوم الثلاثاء ٢٩ ديسمبر ١٩٣١ تحت عنوان « معلومات جديدة » عن بلاد التركستان وهذا نصه :

### معلومات جديدة

عن بلاد التركستان الصيفية (كشغر)

نصف ساعة مع السيد منصورخان

كثيرا ما كنت أحنّ إلى مصر حنين المرضع الرؤوم إلى فطيمها ، وكأما زمت حقائى بقصد السفرتها كسنى الظروف وتعدنى الحوادث ، وما فتحت عيني من نوم إلا وارى صورة الأزهر الشريف ماثلة أمامى ، لا تكاد تفارقنى حتى أراد الله ، وكنت من جملة المدعوين إلى المؤتمر الاسلامى للعام ، فلم أربدا من زيارة مصر التى باتت منى قاب قوسين أو أدنى ، وبين عشية وضحاها كنت فى مصر أسير فى شوارعها جيئة وذهابا ، وفى ذات يوم ضمنى مجلس مع شاب يدعى « السيد منصور أمين خان » من بلاد تركستان الصيفية (كشغر) وهو فى العقد الثالث من عمره ، يحسن خمس لغات : التركية ، والفارسية ، والعربية ، والفرنساوية ، وجانبا من الانكليزية ، وهو أسمر اللون ، معتدل القامة ، طلق الحيا ، يمتلى الجسم ، لا يتكلم اللغة العربية إلا بأسلوبها الفصيح ، حتى أنك اذا مزجت كلامك بكلمة غامضة يطلب منك تفسيرها ، وأنت تقرأ فى جبينه عنوان الشرف والمبادئ السامية عند ما يقع بصره عليه ، فطلبت منه أن يتحدثنى بمعلومات عن تلك البلاد النائية ، فتفضل علينا بالحديث الآتى :

(س) — ما السبب الذى جعلك على مفارقة الوطن ؟ وهل زرت غير مصر من البلاد الاسلامية ؟

(ج) — كنت تلميذا فى المدرسة الثانوية فى (كشغر) والعلوم المصرية قليلة فى بلادنا جدّا بالرغم

من رقي العلوم الاسلامية والآداب العربية والفارسية ، فمضت عصور قديمة كانت بلادى واخوانى المسلمون غرقى في لجة الجهالة ، بحيث لا يمكننى تفصيل أحوالهم الاجتماعية في هذه المدة القصيرة ، فها أنا ذا أريد الآن أن أرفع من شأن بلادى وشعبى (وهم مسلمو تركستان الصيفية) بالعلوم المصرية ، تلك العلوم التى كانت منذ أزمنة متطاولة حتى زماننا هذا معدودة من أسباب الزندقة والاحاد في البلاد بل الكفر ، وأن كل من يتعلم علما عصرىا يعدّه قومي مارقا من الدين ، إلى أن بزغ في آفاق عالم الاسلام شمس أحرقت بأنوارها حجب الجهالة ، فتجلى جمال الحقيقة ، وأزيل الغطاء عن عيون شباب بلادى جميعا في بضعة سنين ، الأصغر الذى عجزت عنه القرون المتطاولة ، والمؤلفات التى كانت تصدر آنا فآنا لفلاسفة الاسلام ، وما هذه الشمس التى مزقت تلك الحجب وأحرقتها إلا مؤلفات فيلسوف الاسلام الأوحى فضيلة الاستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى المصرى الذى سحر عقول بلادنا في مدة وجيزة ، وأبدع قرنا جديدا في الحياة الاجتماعية الاسلامية ، ووفق بين القرآن والعلوم المصرية ، مما لا يدع مجالاً للشك والريب في أن تلك العلوم هى نفس الدين ، وأخص بالذكر من المؤلفات (التاج المصم) الذى أهدها ليكاكو اليابان و (نظام العالم والأمم) و (تفسير الجواهر) وكتاب (القرآن والعلوم المصرية) . ومن العجب أنى في أى بلاد مسرت بها في سفرى إلى تركيا كنت أقابل من يعرف فيلسوف الشرق الشيخ طنطاوى جوهرى وفي يده أثر من آثاره القيمة يريد أن يتحقق به ، أو يتحقق به غيره ، والحق يقال ان آثار الفيلسوف على ما أعتقد ستؤثر في عقلية الشعوب تأثيرا يشبه تأثير المصلح في الدين المسيحي «لوثر» . ولما كنت في بلادى كان شباب تركستان الصينية يتشاورون فيما بينهم أن يشيدوا باسم الفيلسوف الجوهرى جامعة تكون تذكارا لاسمه ، وتقديرا لأعماله ، إن تلك الآثار القيمة أثرت في عقلية شبان تركستان الصينية الذين كانوا يتيهون في بيداء آسيا الوسطى حيارى لا مرشد لهم ولا دليل ، في عزلة عن الأمم المتعدنة ، فلما رأوها أقبلوا عليها ، وحلّ في قلوبهم شوق إلى العلوم المصرية ، فسموا إلى منابعها في جامعاتها في الممالك المتعدنة الاوروبية والاسلامية ، وأن هذه الكتب الطنطاوية هى التى بعثتنا في أقطار الشرق والغرب لدراسة علوم الأمم مما حرم منه جميع أجدادنا وآبائنا ، وأنا واحد من أول وفد قام من البلاد ، وعددنا ثلاثون شابا ، وقام بعدنا وفد آخر ، كل ذلك بتأثير مؤلفات هذا الفيلسوف ، فها أنا ذا غادرت بلادى إلى تركيا لاقتباس العلوم المصرية ، وللارتشاف من مناهل حياضها .

(س) ذكرتم أن في بلادكم مسلمين ، فككم عددهم ومن كمهم ؟  
(ج) عندنا أكثر من عشرة ملايين من الأتراك المسلمين الذين يتكلمون بلهجة قديمة من اللغة التركية ، أما المسلمون في بلاد الصين فانهم أكثر من سبعين مليون مسلم يتكلمون باللغة الصينية ويهتدون العادات والتقاليد الصينية ، ويدينون بالديانة الاسلامية المحمدية ، وأن الذى يتكلمهم هى الحكومة الصينية الأمبراطورية .

(س) هل تضيق الحكومة عليكم في دينكم ؟ أم هل تقيمون الشعائر بكل حرية ؟

(ج) نحن أحرار بكل معنى الكلمة .

(س) هل زرتم غير مصر وتركيا ؟

(ج) الأفغان وايران في طريقى إلى تركيا .

(س) هل مكثتم طويلا في بلاد الأفغان .

(ج) جئت في الأفغان ستة أشهر ، وأن رفيقى أمين أفندى الكاشغرى دخل في إحدى المدارس الأفغانية مجانا تحت حماية أمان الله خان الملك السابق ، فحيما ذهبت إلى وزارة المعارف الأفغانية أخبرنى معاون الوزير أنه في صدد ترجمة كتاب (نظام العالم والأمم) للاستاذ طنطاوى جوهرى إلى اللغة الفارسية لشبان الأفغان

(س) قلتم ان كتاب (التاج المرصع) لهذا الفيلسوف أهداه مساعده لأمبراطور اليابان ، فهل لهذا الكتاب أثر في تلك البلاد اليابانية ؟

(ج) إن التاج المرصع لما وصل إلى اليابان أكتب المسلمون اليابانيون الذين أسلموا من ربع قرن بارشاد المشهور عبد الرشيد ابراهيم السباح ، والآن في اليابان على ماسمعت من بعض الثقات أكثر من عشرين ألف مسلم ياباني ، فصار هذا الأثر النفيس (دولة) آى تتداوله الأيادي ، وأثر في زيادة محبتهم لدينهم ، والآن ينتشر الدين الاسلامي بتأثير تربية هذا الأثر انتشارا واسع النطاق . انتهى ملجاء في الجريدة المذكورة  
محمد سعيد درويش من سوريا الباب : نزيل مصر

\*\*\*

فلما سمعت ذلك وكتبته . قلت : صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، هذا من فضل ربي ليبارك أشكر أم أكفر ومن شكر فأنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ، وقرأت : « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » . كتب يوم الاثنين ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية و ١٨ يناير سنة ١٩٣٢ م .

هذا هو نهاية الكلام على المقالة الأولى في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تنفي إلى أمر الله فان فأت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحون » والحمد لله رب العالمين .

### المقالة الثانية

في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلهووا أنفسكم ولا تباذوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يقب فأولئك هم الظالمون » يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم »

إن ما تضمنته هذه الآيات فيه « مقامان : المقام الأول » في غوائل اللسان من السخرية والاستهزاء والمز والتنازع بالألقاب والغيبة وما أشبهها « المقام الثاني » في غوائل الأعمال القلبية ، وقد أشير لها بالنهي عن كثير من الظن ، ويقرب منه التجسس ، فهنا أمران خطيران : هما اللسان والجنان . قال زهير بن أبي سلمى :  
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده \* فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

إن القلب هو العالم النورى الجليل العالى الشريف ، الذى يجمع صور العالمين الدنيوى والأخروى ، واللسان ينوب عنه في أداء ما كمن فيه من المعانى والعلوم والمعارف ، وكل خير وشر ، إذن أمرهما عظيم ، ولا جرم أن فتح المدارس والمعاهد الدينية والكميات والجامعات ، كل ذلك لتكميل العقل وتدريبه . ولقد كانت عناية الناس باللسان لها مقام عظيم أيضا ، ألا ترى أن العلوم اللسانية كلها في الشرق والغرب ترجع إلى تهذيب اللسان ، وفي لغتنا العربية ١٢ علما : كالتحقيق والصرف واللغة والمعاني والبيان والبديع والخط والانشاء والتاريخ والاملاء والشعر والخطابة ، كل هذه وما يشبهها إنما جعلت لترقية اللسان ، كما ان العقل يرقى العلوم الرياضية والطبيعية ، والعلم الأعلى وهو العلوم العامة التى تبحث في نظام العالم العام ، وفي علم النفس وفي علوم الأخلاق والسياسة والله والأرواح والملائكة ، إذن العقل واللسان أمرهما عظيم ، لذلك كان لزاما



على في هذه المقالة أن أبين لك أيها القارئ عجائب القوى والحكمة ، وهذه الثروة السامية التي ورثناها عن آباءنا الأولين ، وكيف دفنت هذه الثروة في ثنايا الكتب مئات السنين ؟ وكيف نبقت الأمم الأوروبية في هذه الثروة الآن ولكن بهيئة غير الهيئة الإسلامية ، والنتيجة واحدة .

أنا أرى الآن أنك قد نهبت نفسك أيها القارئ للنيان ، وشاقها ماسأقوله في هذا المقام ، واني سأعجل لك ذلك الآن فأقول :

يا سبحان الله . اللهم إنك أنت المعلم ، أنت الهادي ، أنت الحكيم ، أنت معلم الطيور في أوكارها ، والوحوش في أوجارها ، والحشرات في أكنانها ، والذرات الميكروبية في أطوارها ومستقرها ومستودعها ، وكل من هذه له طريقة تناسبه ، وحال تلائمها ، فهكذا نوع الانسان قد جعلته أشبه بتلك الأنواع ، انا نرى أن الكلام في تهذيب اللسان يتخذ طرقا متباينة ، وأحوالا شتى ، ونرى ديننا الاسلامي فيه من كنوز العلوم في هذا المقام وغيره ما به ينتفع الصادقون الخالصون ، فهذه الامام الغزالي قد ذكر في الجزء الثالث من الاحياء آفة اللسان فجعلها عشرين مستقرها قريبا ، وأبان مضارها ، والاحتباس منها ، وهما هي ذمة جمعية المباحث النفسية في انكسارها تبحث في غوئس اللسان كما بحث علماءنا ، ولكن بطريق أخرى ، فانظر ماذا جرى ؟ جعلوا العقل أشبه ببطارية الكهرباء ، واللسان أشبه بتخزين لتلك الكهربية ، فإذا حافظ عليها اللسان ولم يبعثرها وسكت ، فإن تلك الكهربية تكون عوننا لصاحبها في جذب القلوب واقبال الناس على الانسان وسهولة المعاملة وجميع مصالح الحياة ، إن هذه الطريقة نافعة لمن يريد العاجلة ، وطريقة علماءنا نافعة لمن يريد الآخرة ، والطريقتان تسهيان لغرض واحد ، وهذا أمر عجب ! إن أسلافنا ظهر منهم الخطباء والحكماء والعظماء وأرباب الحجج بدين أن يموزهم ما ذكره الأوروبيون ، فهم عملوا بما وصى به الله ونبيه والعلماء فانتفعوا ، ولكن علماء المباحث النفسية أدركوا أن الناس الآن لا يهتمون إلا بالنتائج القريبة اللهم إن ظهور نتائج حفظ اللسان عند علماء المباحث النفسية في زماننا من أكبر المعجزات وأعظم الفوائد في ديننا الاسلامي ، فلا ذكر لك أولا مأسطرتة من أقوال علماء جمعية المباحث النفسية ، ثم أتبعه بما قاله الامام الغزالي في الاحياء ، وهذان في حفظ اللسان وهو المقام الأول ، ثم أختتم بما ذكرته في كتابي في علم الأخلاق المسمى « جوهر النقي » في الذنوب القلبية كالخسد والحقد بعد ذكر الذنوب اللسانية ، وهو المقام الثاني من المقالة الثانية وهالك ما قالته :

### جمعية المباحث النفسية

#### المغناطيسية الشخصية

### الفصل الأول : معرفة القوة

إننا كل منا فيه بطارية كهربية ، يؤثر ويتأثر ، فالجذب من الناس لتيار منك وأنت لاتعلم ، وكذلك النفور ، فالمرء يؤثر ويتأثر طوعا وكرها .

### وجود التيارات العقلية

هناك قوة غير القوة العاقلة تعمل بغير العقل فلذسمها مغناطيسية وان كانت هي غيرها ، وقد تعمل أعمال الكهرباء ، والقصد أن نعرف كيف نحكمها كما حكمنا الكهرباء وان لم نعرف حقيقتها كما جهلت الحياة .

### الفصل الثاني

من هو الرجل المغناطيسي ؟ الرجل كالمرأة في المغناطيسية

- (١) ترناح الماشية .
- (٢) رزين لا يتأثر بسرعة .
- (٣) الاحساس بقوة خفية فيه ، ( لا في حديثه ولا سلوكه ولا سكناته ولا معاملته ) بل هي جزء منه .
- (٤) يستولى على جزء من كهر بآيتك فتذهب إليه .
- (٥) ينظر نظرات رجة بين عينيك في أول الأنف بدون أن تشهر باسمه ثم مع اللطف عند أول كلامه منك .
- (٦) يصنى إلى حديثك دائماً .
- (٧) لا تقف أمامه عقبة ، ولا يتلف على مطالبه ، بل هو واثق بها ، لأنه متشد لا ارتكانه على المعرفة ، وأنه ينال مقصوده .
- (٨) لا يمدح نفسه ألبتة .
- (٩) يزداد القوى قوة في مغناطيسيته ، والضعيف يزداد ضعفاً ، هذه قاعدة .
- (١٠) لا يفرم باظهار العلم ، بل حديثه عادي .
- (١١) لا يظهر الرغبة في الحديث وأنت تعجب به لاعتقادك أنه قادر على الاخبار بالمعجائب وهو لا يريد وتظن أنه لا يهتم بذلك ، ويظهر لك كأنه فوق المدح والاطراء .
- (١٢) إذا ترقى في هذه الصفة لا يسر بآثاره في أصحابه كالأول لأنه أرقى من ذلك .
- (١٣) يترقى دائماً .
- (١٤) مميزات المغناطيسية الشخصية : السطوة ، والتأثير ، والثروة ، والجاه ، والقبول عند الناس ، وهي نتائج منطقية للقدّمات السابقة ، ويجلب المحبة تجذب الثروة والأفراد .
- (١٥) يهزّ عليك مفارقتة ، تتعلق به تعلق الطفل بأمه .
- (١٦) يسلب علمك ، وهو يحفظ علمه ، ولو شاء لأسمعك فتحدثه وهو ساكت ، يصغى أخذ علمك .

### الرجل غير المغناطيسي

- (١) يخيفك وتكره مصاحبته .
- (٢) يزيدك حزناً وانقباضاً .
- (٣) يكدو المجالس .
- (٤) يشكو القدر ، والأصحاب ، والجو ، وكل شيء .
- (٥) متغير المبدأ ، سريع التقلّب فيه ، وفي الحديث ثقل عليك ، ولا يقنع بشيء ، عابس الوجه ، خائب ، لا يحب إلا الاطراء الكاذب ، فتخلص منه بالاطراء الكاذب .
- (٦) تفرح عند خروجه من عندك ، ولا مغناطيسية عنده ، هي سالبة ، فقد أخذ منك شيئاً وهو بعض المغناطيسية .
- (٧) سببه أنه لا يعتمد على نفسه ، لا يستقل ، والرجل المغناطيسي لا يشكو ، ولا يبكي ، هو قوة تخضع له الظروف ، ويؤثر في البيئة التي حوله .
- (٨) مسرف في أحواله .
- (٩) منهزم سريعاً .
- (١٠) النتيجة أنه لا يلاقى إلا الدمار تبعاً لقوانين الطبيعة الصادقة .

## القاعدة الذهبية

- (١) لا تشكِّر لخلق الملك .
- (٢) ولا تسع وراء اكتساب المدح ، ولا الشفقة من الناس .
- (٣) وفي كل رغبة قوّة مغناطيسية يجب حفظها للانتفاع .

### الفصل الثالث : طبيعة التيارات العقلية

- (١) كل رغبة لأي مطلب هي تيار عقلي عملي يحمل قوّة مغناطيسية ، يؤثر الرجل المغناطيسي على اخوانه ، ويعمل في هذا المستوى بقانون الجذب والتنافر .
- (٢) استخراج القوّة من الرغبة ، هذه الرغبات اذا عسيدها وحفظناها كانت قوّة حفظناها لأنفسنا وان جرينا ورامها وقلنا مبتغاه فقدناها ، فلندحرص عليها ، لأننا ألهوج إليها فنخزنها .
- (٣) فلا نانية والفخر الكاذب ، وقلة الصبر ، وتوجب أفعالا تصرف بها عنا تلك القوّة .
- (٤) لا تدع مجالا لتيار الرغبة أن يفلت من يديك ، ولا تحقق تلك الرغبة لتسكون لك قوّة تنضم إلى اخوانها فتسكون قوى الجذب لفيرك ، فاذا رغبت أن تدهش اخوانك بأخبار عجيبة ، ورأيت فيك مطمحا لذلك فاسكت وهذه قوّة حفظتها ، فان حققت ذلك أضعفت مغناطيسيتك .
- (٥) السكتان : اذا رأيت أن تخبر أحد أصدقائك بخبر ولو كان لقيمة له فاكتمه ، فهذه رغبة مكتومة حفظت لك مغناطيسية ، وهذه أشبه بالجمام في البرج ، يجلب إليه اخوانه ، وكلما كثرت الأمثال تضاعفت الزيادة ، وهذه تخدمك أجل خدمة .
- (٦) إياك أن تظن أن حفظ هذه القوّة هو الجود والوقوف . كلا . بل كلما زادت حفظا زادت قوّة كأنهر كما علا سنده زاد ضغط الماء عليه فيسهل الانتفاع بها أكثر .
- (٧) إن قوّة الرغبة موجودة ، ألم تر أنك قد تحملك الرغبة على المشي وركوب العربى لاخبار صديقك فاذا حفظت هذه القوّة حفظت لك كل قواك التي كانت ستصرفها .
- (٨) نحن لا يؤثر فينا غرابة الذكاء ، وانما يؤثر فينا نفس الذكاء ، فقابل الخبر المرقص بسكون كأنك فوق ذلك ، لا انك لا تميل لسماعه . كلا . وكأن نفسك عميقة ، وأعجابنا بما يبدو من الأذكىاء أقل من أعجابنا بأنهم أعمق منا ، اجعل معارفك واخوانك في ظلام دامس من جهة أفكارك ، وحتى فملت ذلك فجأة أعجب بك أصحابك حالا .
- (٩) السكتان جعل الأتباع يظنون في المتبوعين قوّة فوق طاقتهم ، ولولا السكتان ما جهلت الحقائق والجهل بها أورث الاتباع إعظاما لمتبوعيههم ، فعظماء الرجال سادوا بالسكتان .
- (١٠) من اتصف بهذه الصفة تشارلس استيوارت الزعيم الأراندى وهو فوق نابليون ، وكان كثير من هؤلاء معضلات عند أصحابهم ، وكان استوارت بارتل قليل الكلام جدا ، ولا خشنة في صوته ، ولا يتكلم إلا باللازم ، وكان هادئا في حديثه .
- (١١) الصمت المذكور له أوقات كالأدوية المختلفة ، ومعنى هذا الصمت أن أخبارك تحفظها في نفسك وتعود التفكير فيها فتسكون قوّة حقة ، أما اذا تسكمت وصرت بأفكارك فقد ذهبت مغناطيسيتك ، فاذا لم تطلعهم على سرّك كنت ذا جاذبية قوية تجذبهم إليك كما يجذب المغناطيس قطع الحديد .

(١٢) لا تنهر اخوانك انك قرأت المغناطيسية فذلك يسقط قيمة عملك ، بل اكتم هذا تكون قوة عظيمة ، أما اذا علموا كانت أعمالك ضائعة ، واجتنب الاطراء ، فإلننى يابى أفعاله يزيد عليه الساكت الحافظ لرغبته ، فالناس هم السادحون له .

### الفصل الرابع

انظر في حياتك الماضية تجد أنك أنت و ٩٩ من المائة من الناس ينهزون الفرص لاخبار اخوانهم بما فعلوا لتظهر ذباهتهم ، هذه فطرة حب الاطراء والمدح ، وهى تيار من تيارات المغناطيسية الانسانية العقلية فى المخ يتسرب من النفس كما تضع السكر باء فى الجو بدون عمل اذا لم تحفظ ، إن هذه الفريزة فىنا متى تركت وشأنها أضعفت قوانا وأخذت منا منافع لانهاية لها ، وهى تضاد المنافع الواجبة لنا فلنعددها ، فلتحذر هذا ولتجتهد أن تكون منقبا ، فلا تحقق رغبة الاطراء ولو فى أبسط الأشياء ، فاحفظها تكسب غيرها بلا تعب ، فسوف تشهد النتيجة محسوسة ، فى زمن قصير ترى ﴿ أصمين : الأول ﴾ أنك بعد أن تقرأ هذه الأخلاق وتعمل بها ترى تغيرا محسوسا فى نفسك ، وفى حياتك اليومية ، يزيد احترامك لنفسك وتذكرك بها ، وتعالو هيبتك ووقارك ، وتحس بالقوة الحقيقية تسرى فى عروقك ، بعد التغلب على كل تيار تشعربه ﴿ الثانى ﴾ انك ترى اخوانك قد تغيروا لتعوك تغيرا كاملا ، يزدادون رغبة للبحث عنك ، والمحادثة والبقاء معك ، يمكنك الزيادة فى كل وقت اذا اتبعت ما يأتى : « لا تحقق رغبتهم فى معرفة شؤونك ، واترك أصحابك حيارى من جهتك ، وإياك أن تظهر أنك تفعل ذلك متعمدا » انتهى الفصل الرابع .

### الفصل الخامس : كيف يمكن استعمال القوى المضادة لما تدرك الشخصية

كل رغبة تيار موجب أو سالب يريد الاتحاد مع ضده فيحدث التعادل وترجع إلى ما كنت عليه كما يجذب القطب الموجب المغناطيسى القطب السالب ، ألانرى إلى السكير كيف يضرب بالفضائل عرض الحائط ، ويفضح نفسه ، ويخالف ضميره ، تلك قوة قاهرة باطشة ، فلا تستفيد منها كما يستفيد المصارع اليابانى من خصمه ، وتدون وبالا عليه .

### معرفة القوة القابلة للاستعمال

ق . علمت القوة المغناطيسية السكامة فى التكتم ، ونبت الأناية بالنسكام والفخر ، كل دافع للذيلة نعمة متنكرة فليقابلها اللبيب بصد رحب على أى شكل كانت ، فزيد النوة المغناطيسية ، فيضيف جاذبية على جاذبية عنده ، فان اتبع هواه رجع كالعادة وتضعف البطارية العقلية . إن العازل الواقى لك من ضياع المغناطيسية هو العلم الذى تقرأه فى مثل هذا .

### تمرين هام لامتنصاص الطاقة

اذا عرض لك خاطر مزعج مما كان يؤثر فيك سابقا ، فافرح فانك أرقى منه ، وفكر فى أنك ستملكه وتنفع به ، فى أثناء التفكير :

(١) خذ نفسك ببطء مقدار ٨ ثوان وكرّر العبارة الآتية : « سأسمى حالا بارادتى لامتلاك القوة السكامة هذه الرغبة » .

(٢) بعد ذلك احفظ الطواء فى رثيك ٨ ثوان ، وكرّر الجملة الآتية فى أثناء ذلك : « سأسمى الآن فى



امتصاص هذه القوة التي ستصبح من الآن ملكاً لي .  
 (٣) أخرج الهواء من رثيتك ببطء نحر ٨ ثوان وردد الجلة الآتية في نفسك أثناء ذلك : « أنا الآن في هدوء تام ، ويمكنني به أن أحكم القوة المغناطيسية التي أحرزتها » ويمكنك أن تكرر هذا القرين عدة مرات إذا أردت .  
 هاأنذا شرحت لك طريقة الامتلاك والامتصاص والهدوء ، وذلك ليس لحفظ القوة فقط ، بل العلماء يعتقدون أن هناك صلة بين الرئين ، وبين طبيعة الشعور البشرية .

### يتغلب على هوى نفسه

إن هوى نفسك يفقد سلطانه عليك متى اعتقدت وعرفت أنك قادر على التغلب عليه ، وانك تسلبه قوته ، وتستعصمها لأغراضك ، ففي خطوة واحدة صرت أرقى من الهوى النفسى ، وأعلى من العواطف ، والناس يسعون لهذا طول حياتهم ، وقليل منهم الواصل . مثل الرغبة والعواطف كمثل قبلة فيها فتيلها المحترق الذى ينتهى بفرقتها ، فان تركها الرجل الجاهل تفرقت وقتلت ، أو شوّدت جسمه ، وان رفع الفتيل منها (ولا أخالك إلا فاعلا ذلك) صارت ملكاً حلالاً تلتفع بها في حياتك متى شئت ، فالإنسان تحت العواطف هالك ، والمالك لها سعيد . انتهى الفصل الخامس .

### الفصل السادس : الوقت اللازم لظهور النتائج

سيقول قائل : هذه الفصول الخمسة لم يحى فيها أمور عالية هي معقدة سر ؟ فنقول : عليك باتباع هذه التعاليم ، والنتيجة أشبه بنتيجة الزرع ، والقوانين هنا كالشمس ، الزرع لا يورق ولا يزهر ولا يثمر إلا في زمان ملائم ، هكذا هنا فليست النتائج بفت يوم أو بعض يوم .

### بعض النتائج في الحال تشاهد

الطالب الجديد يشاهد في ٥ أو ٥ أيام على الأكثر بعض النتائج ، وفي الحال يشعر باحترام نفسه ، والثقة بها ، وكما زدت كبحاً للنفس زدت قوة في أعصابك ومخك تزيد في أبحاثك وثقتك بمغناطيسيتك الشخصية ، وهي ليست أنانية ، بل هي طمأنينة وراحة بها يتأكد لك عظيم نفوذك وتأثيرك ، وهي لا تدعو للمباهاة ، ولا المفاخرة أبداً ، وليفتقد كل طالب نفسه بصراحة في كل لحظة ، فلا يقع فيما يقع فيه الناس من الخطأ ، فلا تظن أن فقدك الجاذبية من أنانية الأصحاب وذوقهم السقيم ، فالخطأ منك أنت لأنك فقدت الجاذبية .

### ضرب مثل

إن زيدا الذى كنت تحب إعجابه بك وهو صديقك قد أقبل ، وقد كنت تستجلب مودته وهو لا يلتذ بها شرتك ، ولا تسره صحتك ، سبب ذلك أنك كنت البطارية المرسله وهو البطارية القابلة ، فكنت فاقداً لشرارتك الكهر بائية ، فأضعت قوتك وراء الفخر والمباهاة طويلاً أو كرهاً ، وهو حاز ثقتك واحترامك بلا تعب ، يمكنك أن ترجع إلى عقلك الآن ترى أن القوانين المتقدمة تدل على أنه سحبت منك ولم تسحب منه .

### ما يجب عليك ؟

اسكت الآن قليلاً ، اترك صاحبك ثلاثة أيام أو أربعة ، هل سرّك شيء تخبر به أصحابك كما حدثك ؟ احفظه . اترك المادة القديمة ، تهلب على تلك الرغبة ، رغبة الاخبار والمباهاة : هذا التغلب سهل في الأول ، صعب

بعد ذلك ، لم تكن العادة منك ، ولست أنت فوق كل صعب ، لأنك قوى العزيمة ، ولست من تقف أمامه العقبات ، ولقد كانت تهرب منك تلك القوة ، وأأسفاه : فاحفظ رغائبك المادية والمعنوية لا تفر منك ، وليس هذا نكران الذات إنما هو القانون العلمى الذى يتحكم انبياءات ، فإذا عملت بهذه القوانين وطبقتهما بذكائك أمكنك أن تحفظ قوتك ، وتقارم رغباتك ، وقوة ذلك تصير ملكا لك . انتهى الفصل السادس :

### الفصل السابع

لعلك تقول قبضت على قوتى المادية والمعنوية بيد من حديد ، وجعلتها فى بطاريتى العقلية ، فالنتيجة ؟  
 ﴿ الجواب ﴾ القوة التى ملكتها وحفظتها سوف تجذب إليها ما يصادفها من مغناطيسية الآخرين كالسكرباء الموجبة تجذب السالبة بدون عمل منك ولا فكر . وجهك يتغير ، وأخلاقك تتغير ، وأعمالك وأنت لا تشعر ، والذى كنت تطلبه فلا تصل إليه يجرى إليك مخنرا بلاسى منك ، يأتى إليك اضطرارا بالقانون والجذب العام ﴿ والنصيحة ﴾ أن لا تنسى إذا لم يأت لك نفس ما طلبته بهينه الذى كنت تسعى إليه ، انه سوف يأتى لك يوما من الأيام .

### التغير الطبيعي المشاهد

متى ابتدأت فى العمل والتمرين والتقوية بهذه القوانين :

- (١) فالجسم يتغير .
- (٢) العين أكثر لمعانا .
- (٣) البشرة تزيد بياضا .
- (٤) القامة أكثر اعتدالا .
- (٥) يترك الخوف ، والقلق ، والحزن ، والتأمل ، والسامة ، والتأثر .
- (٦) يكون هادئا ساكنا .
- (٧) صار الآن ليس هو ذلك الضعيف الذى تلعب به الطبيعة البشرية ، أصبح قوة لا يستهان بها فى الوجود ، تتغير الدنيا فى عينه ، تلبس حلة جديدة ، تبدل أفسكاره من جهنمها ، ويستمر فى فهم قوته المعنوية ، فيزيد إيمانا وعقيدة وطمأنينة ، نفسه أصبحت تفهم معنى الحياة ، والعلم قوة ليس بعدها قوة .

يجب الانتباه لأبسط الأشياء ، فإذا ترك فرصة واحدة أضاعت كثيرا من قوته ، هناك ظاهرة طبيعية ، لا يعتد بها صغار العقول ، وتكون سببا من أسباب اليأس ، وداع من دواعى الخيبة ، اذا سرت فى هذه الأعمال انقادت لك السعادة ، وأصبح ما كان صعبا عليك فى غاية السهولة ، ولكن ربما تقف عند مآلته فاعلم أن القوة لا تنهاى ، فاطلب الأعلى ولا تقف عند ما وصلت إليه ، فليس للسعادة نهاية ، وللاقوة غاية .

### الفصل الثامن : اقترحات نافعة فى الامور العملية

قد عرفت هذه القوانين ، وفهمت كيف تحفظ كهر بائيتك ، وتريد أن تستعمل هذه الموهبة فى أمر ، كأن تتوجه إلى رجل فظ غليظ قاسى القلب ، وتريد أن تخلص منه وتؤثر فيه فيكون لك لاعليك ، فهذه القوانين تساعدك :

- (١) تظاهر أمامه بمظهرك الأدبى الحقيقى مع الفتور وعدم الاهتمام ، شاعرا انك قادر أن تكون أرق

من ذاك والطف في حضرتك ، واسكنك لا تريد ذلك . وتبتدىء المحادثة وأنت متسلط لقوتك المحفوظة في بطايتك حق قدرها . تتكلم بهدوء وطمأنينة . لا يظهر على وجهك علامة التلهف والاشتياق . لا يظهر الملل عليك ، ولا اليأس على وجهك ، اجعل السرور يهاوئ أسارير طائفتك مع السكينة والهدوء والثقة بكل نجاح ، وكل حركاتك دالة على ما سبق ، وعند ابتداء الكلام انظر إلى البقعة بين عيني في أعلى الأنف ولتعتقد أنها موضع ضعف الرجل ، هؤلاء الخشنون ضفاف ، فستنظر عيناه يمينا وشمالا ، ولا تنظر لها بعين برائة بل بهدوء وطمأنينة فتبتعد عيناه عنك بقلق زائد ، اجتهد في أن ينظر إليك وأنت تتكلم ، وإذا ابتداء في الكلام فارفع عنه نظرك وانظر إلى أي نقطة أخرى من جسمه ، اصغ إليه باحترام ، فإذا ابتدأت الكلام انظر النقطة بغير وضوح بحيث لا يتنبه ، الهدوء والسكينة مفتاح نجاحك ، وبعد ذلك لا ينسك أبدا وسوف يعرف أنك أثرت فيه

### كيف تحصل على الراحة والطمأنينة والثقة بالنفس ؟

تدرب على الخطابة في الأماكن الخالية ، أرفى حجراتك انى لا يجاس مملك فيها أحد ، وخذ النفس بلطف وأخرجها بلطف هكذا . دقائق ، والادخال والاخراج بالتدرج ، وبعد ذلك قف على قدميك ذاهبا جانبا ملقيا كلمات ذات رنان في أي موضوع على شخص ، أو أشخاص ، أو صورتك في المرآة ، وقبّل بصوت جهورى ، مشيرا بأصبعك ، مفكرا في كل جملة قبل النطق بها ، كامل الثقة ، وثقا ثقة تامة بالقول ، حاصرا فيه فكرك ، وتخرج الألفاظ كمداقات الأجواس من أعماق صدرك ، والكلام في أي خاطر يطرأ عليك ، ولو كانت الكلمات غريبة ، أو الأقوال غير معقولة ، وتؤثر على السامع الخيالي وكأن الحادثة حقيقة .

التأثير « قسمان : الأول » زيادة الثقة بالنفس وله نتائج عديدة بأشكال مختلفة مباشرة وغير مباشرة وعلى كل حال سوف تعرفها بنفسك وتشعر بها في حينها : متى شعرت بملل واحتجت إلى زيادة ثقته بنفسك فاقض في هذا القمير نصف ساعة ترّ الحجب الحجاب . والقسم الثاني تأثير العقيدة ، فإذا كان الحديث في قضية معلومة استفاد من هذه القوة العجيبة فائدة ، وحصل على ما يريد على حسب ما طلب في حديثه ، وكأن تلك الأشياء ملك له فلا تلبث حتى تأتي له ، ووجهة تأثير العقيدة نظرية شائعة في أوروبا اليوم . وإلى هنا تمّ الكلام على المقالة الثانية والحمد لله رب العالمين .

هذا ما أردت ذكره من آراء مباحث الجمعية النفسية ذكرتها لأريك أن القوم في أوروبا أخذوا يحتالون على حفظ اللسان بمثل ذلك وإن كنت أعارض في بعض ملجاء فيه ، وأنت ترى أيها النكي أن هذه الجمعية احتالت على تهذيب اللسان بالنتائج العاجلة بحسب ظنها . وهذه النتائج الدنيوية وصل لها المهذبون من المسلمين سابقا بما أقصه عليك من نبأ الأخبار والآثار التي ذكرها الامام النزال في الاحياء . وسترى عجباً من توافق النتائج في الحالين وكيف كانت هذه الثمرة المحزونة عندنا ضائعة . وظهر عند غيرنا ما يوافقها في نتائجها . فانظر ما سئد ذكره فيما يلي وهو :

### القسم الثاني من المقام الأول في المقالة الثانية

نذكر هنا ما جاء في الجزء الثالث من كتاب الاحياء في صفحة ١٠٠ وما بعدها وهذا نصه :  
« ونحن بتوفيق الله وحسن تديره نفصل مجامع آفات اللسان ، ونذكرها واحدة واحدة بحدودها وأسبابها وغوائلها ، ونعرف طرق الاحتراز عنها ، ونورد ما ورد من الأخبار والآثار في ذمتها ، فنذكر أولا فضل الصمت ونردفه بذكر آفة الكلام فيما لا يعنى ، ثم آفة فضول الكلام : ثم آفة الخوض في الباطل ، ثم آفة

المراء والجمال ، هم آفة الشهوة ، هم آفة الشهرة في الكلام بالتشدي ، وقد كذب السبع والفساحة ، والتشنع فيه ، وغير ذلك مما جرت به عادة المنافقين الذين للخطابة ، هم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان ، هم آفة اللعن إمام الحيوان أو جناد أو انسان ، هم آفة الغناء والشعر . وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيد ، هم آفة المزاج ، هم آفة الخرية والاستهزاء ، هم آفة افشاء السر ، هم آفة الوعد الكاذب ، هم آفة الكذب في القول واليمين ، هم بيان النار يض في الكذب ، هم آفة الغيبة ، هم آفة الغيبة ، هم آفة ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعاديين ، فيكلم كل واحد بكلام يوانقه ، هم آفة المدح ، هم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ في غوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأول الدين ، هم آفة سؤال العوام عن صفات الله عز وجل ، وعن كلامه وعن الحروف أهى قديمة أو محدثة ؟ وهي آخر الآفات ، وما يتعلق بذلك ، وجعلتها عشرون آفة » ونسأل الله حسن التوفيق بمهنة وكرمه :

### بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت

اعلم أن خطر اللسان عظيم ، ولانجاة من خطره إلا بالصمت ، فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه فقال صلى الله عليه وسلم (١) « من صمت نجى » وقال عليه الصلاة والسلام (٢) « الصمت حكم وقليل فاعله » أى حكمته وخزم (٣) روى عن عبد الله بن سفيان عن أبيه قال قلت يا رسول الله : أخبرني عن الاسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم قال قلت فما أتقى ؟ فأومأ بيده إلى لسانه (٤) وقال عقبة بن عامر قلت يا رسول الله ما النجاة ؟ قال أمسك عليك لسانك ، وليسكك ببيتك ، وابك على خطيئتك (٥) وقال سهل ابن سعد الساعدي قال رسول الله ﷺ : « من يتكفل لى بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « من وقى شر قبحه وذنبه وقلقه فقد وقى الشر كله » القبح هو البطن ، والذنب الفرج ، والقلق اللسان ، فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق ، ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين : البطن والفرج (٧) وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكبر ما يدخل الناس الجنة فقال تقوى الله وحسن الخلق ، وسئل عن أكبر ما يدخل النار فقال الأجوفان الفم والفرج فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لأنه محله . ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذه ، فقد

(١) حديث : من صمت نجى (ت) من حديث عبد الله بن عمرو بسند فيه ضعف وقال غريب وهو عند الطبراني بسند جيد .

(٢) حديث : الصمت حكمه وقليل فاعله : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف ، والبيهقي في الشعب من حديث أنس بلفظ حكم بدل حكمه وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت ، قال : والصحيح عن أنس أن لقمان قال ورواه كذلك هو وابن حبان في كتاب « روضة العقلاء » بسند صحيح إلى أنس .

(٣) حديث سفيان الثقي : أخبرني عن الاسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك الحديث (ت) وصححه (ون ه) وهو عند (م) دون آخر الحديث الذي فيه ذكر اللسان .

(٤) حديث عقبة بن عامر : قلت يا رسول الله ما النجاة ؟ قال أملك عليك لسانك الحديث (ت) وقال حسن

(٥) حديث سهل بن سعد : من يتوكل لى بما بين لحييه ورجليه أتوكل له بالجنة . رواه خ

(٦) حديث : من وقى شر قبحه وذنبه وقلقه الحديث أبو منصور الديلمي من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ : فقد وجبت له الجنة .

(٧) حديث : سئل عن أكثر ما يدخل الجنة الحديث (ت) وصححه (وه) من حديث أبي هريرة



قال (١) معاذ بن جبل : قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول ؟ فقال : ثكلتك أمك يا ابن جبل ، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم (٢) وقال عبد الله الثقفي : قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعظم به ؟ فقال قل ربى الله ثم استقم . قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف على ؟ فأخذ بلسانه وقال هذا (٣) وروى أن معاذ قال يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فأخرج رسول الله ﷺ لسانه ثم وضع عليه أصبعه (٤) وقال أنس بن مالك قال صلى الله عليه وسلم : « لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « من سرته أن يسلم فليلزم الصمت » وعن سعيد بن جبيرة مرفوعا إلى رسول الله ﷺ أنه قال (٦) إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكرك اللسان أى تقول : اتق الله فينا فانك ان استقممت استقمنا ، وان اعوججت اعوججنا (٧) وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى أبا بكر الصديق رضى الله عنه وهو يمد لسانه بيده فقال له ما تصنع يا خليفة رسول الله ؟ قال هذا أوردنى الموارد ان رسول الله ﷺ قال : ليس شئ من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حديثه (٨) وعن ابن مسعود أنه كان على الصفا يلبي ويقول : « يا لسان قل خيرا تفهم ، واسكت عن شئ تسلم ، من قبل أن تندم » فقبل له يأبى عبد الرحمن أهذا شئ تقول له أوشى سمعته ؟ فقال لا بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه » (٩) وقال ابن عمر : قال رسول

(١) حديث معاذ : قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول ؟ فقال ثكلتك أمك ، وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم (ت) وصحيحه (وهك) وقال صحيح على شرط الشيخين .

(٢) حديث عبد الله الثقفي : قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعظم به ؟ الحديث رواه (ن) قال ابن عساكر وهو خطأ ، والصواب سفيان بن عبد الله الثقفي كما رواه (ت) وصحيحه (ه) وقد تقدم قبل هذا خمسة أحاديث .

(٣) حديث : ان معاذ قال يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فأخرج لسانه ثم وضع يده عليه ، الطبراني وابن أبى الدنيا فى الصمت ، وقال : أصبعه مكان يده .

(٤) حديث أنس : لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت والخرايطى فى مكارم الأخلاق بسند فيه ضعف .

(٥) حديث : من سرته أن يسلم فليلزم الصمت ، ابن أبى الدنيا فى الصمت وأبو الشيخ فى فضائل الأعمال والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بأسناد ضعيف .

(٦) حديث : إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكرك اللسان الحديث (ت) من حديث أبى سعيد الخدرى رفعه ، ووقع فى الأحياء عن سعيد بن جبيرة مرفوعا وإنما هو عن سعيد بن جبيرة عن أبى سعيد رفعه ، ورواه (ت) موقوفا على عمار بن زيد وقال هذا أصح .

(٧) حديث : ان عمر اطلع على أبى بكر وهو يمد لسانه فقال ما تصنع يا خليفة رسول ؟ قال ان هذا أوردنى الموارد ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس شئ من الجسد إلا يشكو إلى الله عز وجل اللسان على حديثه ابن أبى الدنيا فى الصمت وأبو يعلى فى مسنده والدارقطنى فى المجلد والبيهقى فى الشعب من رواية أسلم مولى عمر ، وقال الدارقطنى ان المرفوع وهم على الدارورى ، قال وروى هذا الحديث عن قيس بن أبى حازم عن أبى بكر ولا علة له .

(٨) حديث ابن مسعود أنه كان على الصفا يلبي ويقول : يا لسان قل خيرا تفهم ، وفيه مرفوعا : إن أكثر خطايا بنى آدم فى لسانه ، الطبراني وابن أبى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب بسند حسن

(٩) حديث ابن عمر : من كفى لسانه ستر الله عورته الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت بسند حسن

صلى الله عليه وسلم : « من كتمت لسانه ستر الله عورته ، ومن كتمت غضبه وقاه الله عذابه ، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره » (١) وروى أن معاذ بن جبل قال يا رسول الله أوصني : قال اعبد الله كأنك تراه ، واعد نفسك في الموتى ، وان شئت أنبأك بما هو أم لك من هذا كله ، وأشار بيده إلى لسانه (٢) وعن صفوان بن سليم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق » (٣) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » (٤) وقال الحسن : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رحم الله عبدا تسكلم ففهم ، أوسكت فسلم » وقيل لعيسى عليه السلام : « دلنا على عمل ندخل به الجنة ؟ قال : لا تنطقوا أبدا ، قالوا لا نستطيع ذلك . فقال : فلا تنطقوا إلا بخير » وقال سليمان بن داود عليه السلام : « إن كان السكلام من فضة فالكسوت من ذهب » (٥) وعن البراء بن عازب . قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : دلني على عمل يدخلني الجنة ؟ قال : أظعم الجائع ، واسق الظمآن ، وأسر بالمعروف ، وأكفر عن المنكر ، فإن لم تطق فكف لسانك لإلأمن خير . وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « اخزن لسانك لإلأمن خير ، فإنك بذلك تغلب الشيطان » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله عند لسان كل قائل ، فليتق الله امرؤ علم ما يقول » وقال عليه الصلاة والسلام (٧) « إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فإنه يلقي الحكمة » (٨) وقال ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس ثلاثة : غانم ، وسالم ، وشاحب ، فالغانم الذي يذكر الله تعالى ، والسالم الساكت ، والشاحب الذي يخوض في الباطل » وقال عليه الصلاة والسلام (٩) « إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه وأن لسان المنافق أمام قلبه فإذا هم بشيء أمضاه بلسانه ولم تدبره بقلبه »

(١) حديث : أن معاذ بن جبل قال يا رسول الله أوصني ، قال اعبد الله كأنك تراه الحديث ، ابن أبي الدنيا في الصمت وطب ، ورجاله ثقات ، وفيه انقطاع .

(٢) حديث صفوان بن سليم مرفوعا : ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق ، ابن أبي الدنيا هكذا هم ساد ورجاله ثقات ، ورواه أبو الشيخ في طبقات المحدثين من حديث أبي ذر وأبي الدرداء أيضا مرفوعا .

(٣) حديث أبي هريرة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت ، متفق عليه .  
(٤) حديث الحسن : ذكر لنا رسول الله ﷺ قال : رحم الله عبدا تسكلم ففهم أوسكت فسلم ، ابن أبي الدنيا في الصمت والبيق في الشعب من حديث أنس بسند فيه ضعف فإنه من رواية إسماعيل ابن عياش عن الحجازيين .

(٥) حديث البراء : جاء أعرابي فقال : دلني على عمل يدخلني الجنة ؟ قال أظعم الجائع الحديث ، ابن أبي الدنيا باسناد جيد .

(٦) حديث : اخزن لسانك لإلأمن خير ، الحديث (طص) من حديث أبي سعيد وله في المعجم الكبير ولابن حبان في صحيحه نحوه من حديث أبي ذر .

(٧) حديث : إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فإنه يلقي الحكمة (هـ) من حديث أبي خلاد بلفظ : إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهدا في الدنيا وقلة منطلق فاقربوا منه فإنه يلقي الحكمة وقد تقدم

(٨) حديث ابن مسعود : الناس ثلاثة : غانم وسالم وشاحب ، الحديث الطبراني ، وأبو يهلى من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ المجالس ، وضعفه ابن عدي ، ولم أجده ثلاثة من حديث ابن مسعود .

(٩) حديث : إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ، الحديث لم أجده مرفوعا وإنما رواه الخرائطي في مكالم الأخلاق من رواية الحسن البصري قال كانوا يقولون .

وقال عيسى عليه السلام : « العبادة عشرة أجزاء : تسعة منها في الصمت ، وجزء في الفرار من الناس » .  
وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (١) « من كثر كلامه كثرت سقطته ، ومن كثرت سقطته كثرت ذنوبه ، ومن كثرت  
ذنوبه كانت النار أولى به » .

وهما ورد في الآثار : كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حصاة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام ،  
وكان يشير إلى لسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد . وقال عبد الله بن مسعود : والله الذي لا إله إلا هو  
ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان . وقال طاوس : « لسانى سبع إن أرسلته أكلنى » . وقال وهب  
ابن منبه : في حكمة آل داود : حق على العاقل أن يكون عارفا بزمانه ، حافظا لسانه ، متقبلا على شأنه .  
وقال الحسن : ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه . وقال الأوزاعي : « كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله :  
أما بعد : فإن من أكثر ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير ، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما  
يعنيه » . وقال بعضهم : « الصمت يجمع للرجل فضيلتين : السلامة في دينه ، والفهم عن صاحبه » . وقال  
محمد بن واسع لمالك بن دينار : « يا أبا يحيى : حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم » .  
وقال يونس بن عبيد : « مامن الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله »  
وقال الحسن : « تسكلم قوم عند معاوية رحمه الله والأحنف بن قيس ساكت ، فقل له مالك : يا أبا بحر لا تسكلم  
فقال له أخشى الله أن كذبت وأخشاك أن صدقت ، وقال أبو بكر بن عياش : « اجتمع أربعة ملوك : ملك  
الهند ، وملك الصين ، وكسرى ، وقيصر . فقال أحدهم : أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل . وقال  
الآخر : أنا إذا تسكلمت بكلمة ملكتنى ولم أملكها ، وإذا لم أتسكلم بها ملكتها ولم تملكنى . وقال الثالث :  
عجبت لتسكلم أن رجعت عليه كلمته ضرته وإن لم ترجع لم تنفعه . وقال الرابع : أنا على رد ما لم أقل أفدمنى  
على رد ما قلت » . وقيل أقام المنصور بن المهتر لم يتسكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة . وقيل ماتسكلم  
الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة ، وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاسا وقلم فسكر ماتسكلم به كتبه  
ثم يحاسب نفسه عند المساء ، فإن قلت فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من  
الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخصومة  
والفضول والتعريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات ، فهذه آفات كثيرة ، وهى سبابة إلى  
اللسان لا تنقل عليه ، ولها حلاوة في القلب ، وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان ، والخائض فيها قلما  
يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يجب ويمسكه ويكفه عما لا يجب فإن ذلك من غوامض العلم كما سيأتى  
تفصيله ، ففي الخوض خطر ، وفي الصمت سلامة ، فلذلك عظمت فضيلته ، هذا مع ما فيه من جمع الهم ودوام  
الوقار والفراغ للفسكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة ، فقد قال  
تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » . ويدل ذلك على فضل لزوم الصمت أمر وهو أن الكلام أربعة  
أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة ،  
أما الذى هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه ، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تنفى بالضرر ، وأما لا منفعة فيه  
ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران فلا يبقى إلا القسم الرابع فقد سقط ثلاثة أرباع  
الكلام وبقي ربع وهذا الربع فيه خطر إذ يترجى بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس  
وفضول الكلام امتزاجا يخفى دركه فيكون الإنسان به مخاطرا ، ومن عرف دقائق آفات اللسان على ما سنذكره

(١) حديث : من كثر كلامه كثرت سقطته الحديث ، أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف ،  
وقد رواه أبو حاتم بن حبان في « روضة العقلاء » والبيهقي في الشعب . ووقفا على عمر بن الخطاب

علم قطعاً أن ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب حيث قل (١) : « من صمت نجاً » (٢) فلقد أوتي بالله جواهر الحكم قطعاً وجوامع الحكم ، ولا يعرف ما تحت آحاد كلماته من إشارات المعاني إلا خواص العلماء ، وفيما سند كره من الآفات ونسب الاحتياز عنها ما يدرئك حقيقة ذلك إن شاء الله تعالى ، ونحن الآن نعد آفات اللسان ونبتدئ بأخفها ، ونترقى إلى الأغاظ قليلاً قليلاً ، ونؤخر الكلام في الغيبة والنميمة والكذب فإن النظر فيها أطول ، وهي عشرون آفة ، فاعلم ذلك ترشد بدون الله تعالى .

### الآفة الأولى : الكلام فيما لا يعينك

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التي ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها وتسكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلاً لأنك تسكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه ، فانك مضيع به زمانك ، ومحاسب على عمل لسانك ، وتسبيل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفسكور بما كان يفتح لك من نفحات راحة الله عند الفكر ما يعظم جدواه ، ولو هالت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيراً لك ، فسك من كلمة يبني بها قصر في الجنة ، ومن قدر على أن يأخذ كنزاً من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسراً خسرانا بيناً ، وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه ، فانه وإن لم يأثم فقد خسرت حيث فاتته الرحمة العظيم بذكر الله تعالى (٣) فإن المؤمن لا يكون صمته إلا فكراً ونظرة إلا عبرة ونطقة إلا ذكرًا هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ، بل رأس مال العبد أوقاته ، ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يتخير بها ثواباً في الآخرة فقد ضيع رأس ماله ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم (٤) « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » بل ورد ما هو أشد من هذا . قال أنس (٥) استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه حجراً مربوطاً من الجوع ، فسححت أمه عن وجهه التراب وقالت : هنيئاً لك الجنة يا بني ، فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره ، وفي حديث آخر (٦) أن النبي صلى الله عليه وسلم فقد كعباً فسأل عنه فقالوا صريض نفرج يمشي حتى أنه ، فلما دخل عليه قال أبشريا كعب ، فقالت أمه هنيئاً لك الجنة يا كعب ، فقال صلى الله عليه وسلم من هذه المنألية على الله ؟ قال هي أمي يا رسول الله قال وما يدريك يا أم كعب لعل كعباً قال ما لا يعنيه

(١) حديث : من صمت نجاً تقدم .

(٢) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الحكم (م) من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

(٣) حديث : المؤمن لا يكون صمته إلا فكراً ، ونظرة إلا عبرة ونطقة إلا ذكرًا ، لم أجد له أصلاً ، وروى محمد بن زكريا العلأني أحد الضعفاء عن ابن عائشة عن أبيه قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله أمرني أن يكون فطقي ذكراً ، وصمتي فكراً ، ونظري عبرة .

(٤) حديث : من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه (ت) وقال غريب (و) من حديث أبي هريرة .

(٥) حديث : استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه صخرة مربوطة من الجوع الحديث وفيه : لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره (ت) من حديث أنس مختصراً وقال غريب ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت بلفظ المصنف بسند ضعيف .

(٦) حديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم فقد كعباً فسأل عنه فقالوا صريض الحديث ، وفيه لعل كعباً قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يعنيه ، ابن أبي الدنيا من حديث كعب بن عجرة بأسناد جيد إلا أن الظاهر انقطاعه بين الصحابي وبين الراوي عنه .



أو منع مالا يعنيه ومعناه أنه ما تنهى الجنة لمن لا يحاسب ، ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه وان كان كلامه في مباح فلا تنهى الجنة مع المناقشة في الحساب فانه نوع من العذاب . وعن محمد بن كعب (١) قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة ، فدخل عبد الله بن سلام فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك وقالوا أخبرنا بأثرنا عمل في نفسك ترجوه ؟ فقال إني لضعيف وان أرتق ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك مالا يعني « وقال أبو ذر (٢) قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان ، قلت بلى يا رسول الله ؟ قال هو الصمت وحسن الخلق وترك مالا يعنيك . وقال مجاهد : سمعت ابن عباس يقول : « خمس طعن أحب إلى من الهم الموقوفة : لا تتكلم فيما لا يعنيك فانه فضل ، ولا آمن عليك الوزر ، ولا تتكلم فيما لا يعنيك حتى تجد له موصفا ، فانه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فغنت ، ولا تدار حلما ولا سفيها ، فان الحلما يقلبك والسفيه يؤذيك . واذكر أخاك اذا غاب عنك بما تحب أن يذكره به ، واعفه بما تحب أن يعفك منه ، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به ، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالاحسان ، مأخوذ بالاجترام » وقيل للقمان الحكيم ما حكمتك ؟ قال لا أسأل عما كفيت ، ولا أنكف مالا يعني . وقال موريق الجعفي : « أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه ، قالوا وما هو ؟ قال السكوت عما لا يعني » . وقال عمر رضي الله عنه : « لا تنهض لما لا يعنيك ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله تعالى ، ولا تصحب الفاجر فتعلم من فجوره ، ولا تطلع على سرّك ، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى » : وحدّ الكلام فيما لا يعنيك . أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر به في حال ولا مآل ، مثاله : أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار ، وما وقع لك من الوقائع ، وما استعصمت من الأظلمة والشباب ، وما تهجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم ، فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر ، وإذا بالفتى في الجهاد حتى لم يخرج إنكابتك زيادة ولا نقصان ولا نزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة ، ولا اغتياب لشخص ، ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك ، وأنت تسلم من الآفات التي ذكرناها ، ومن جلتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك ، فأنت بالسؤال مضيع وقتك ، وقد أبلغت صاحبك أيضا بالجواب إلى التضيق ، هذا اذا كان الشيء مما لا يتطرق إلى السؤال عنه آفة وأكثر الأسئلة فيها آفات ، فانك تسأل غيرك عن عبادته مثلا فتقول له : هل أنت صائم ؟ فان قال نعم كان مظهرا لعبادته فيدخل عليه الرياء وان لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر ، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات ، وان قال لا كان كاذبا ، وان سكت كان مستحقرا لك وتأذيت به ، وان احتال بدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه ، فقد عرّضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعجب في حيلة الدفع ، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته ، وكذلك سؤالك عن المعاصي ، وعن كل ما يخفيه ويستحي منه ، وسؤالك عما حدث به غيرك فتقول : ماذا تقول وفيه أنت ؟ وكذلك ترى انسانا في الطريق فتقول من أين ؟ فر بما يمنعه مانع من ذكره فان ذكره تأذى به واستحيا وان لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب

(١) حديث محمد بن كعب : ان أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة فدخل عبد الله ابن سلام الحديث ، وفيه : ان أوثق ما أرجوه سلامة الصدر وترك مالا يعني ، ابن أبي الدنيا هكذا مررلا وفيه أبو نجيح اختلف فيه .

(٢) حديث أبي ذر : ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن الحديث ، وفيه : هو الصمت وحسن الخلق وترك مالا يعنيك ، ابن أبي الدنيا بسند منقطع .

فيه ، وكذلك تسأل عن مسألة الحاجة بكثرة إليها والمسئول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لا أدري ، فيجيب عن غير بصيرة ، ولست أعني بالتسكلم فيما لا يعني هذه الأجناس فإن هذا يتطرق إليه إثم أو ضرر ، وإنما مثل ما لا يعني : ما روى أن لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعا ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم فجعل يتعجب مما رأى ! فأراد أن يسأله عن ذلك ففتته حكيمته ، فأمسك نفسه ولم يسأله ، فلما فرغ قام داود وابسه ثم قال نعم المدرع للحرب ، فقال لقمان : « الصمت حكم وقليل فاعله » أي حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال ، وقيل أنه كان يتردد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال ، فهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط في رياء وكذب وهوها لا يعني وتركه من حسن الأسانم فهذا حده ، وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه ، أو المباشرة بالكلام على سبيل التودد أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها ، وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه وأنه مسئول عن كل كلمة ، وأن أنفاسه رأس ماله ، وأن لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين ، فاهماله ذلك وتضييعه خسران مبين ، هذا علاجه من حيث العلم ، وأما من حيث العمل فالعزلة ، أو أن يضع حصاة في فيه ، وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه ، حتى يستاد اللسان ترك ما لا يعنيه ، وضبط اللسان في هذا على غير المعتزل شديد جدا . انتهى الكلام على الآفة الأولى .

### الآفة الثانية : فضول الكلام

وهو أيضا مذموم وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول : أي فضل عن الحاجة وهو أيضا مذموم لما سبق وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر . قال عطاء ابن أبي رباح : « إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدون فضول الكلام ماعدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ وأمرهم بمعروف ، أو نهيا عن منكر ، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها ، أنشكروا : إن عليكم حافظين كراما كاتبين . عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، أما يستحيي أحدكم إذا نشرته صحيفة التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه » . وعن بعض الصحابة . قال : « إن الرجل ليكافئ بالكلام لجوابه أشهى إلى من الماء البارد إلى الظمآن فأتارك جوابه خيفة أن يكون فضولا » . وقال مطرف : ليعظم جلال الله في قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للسكاب والجار : اللهم أخذه ، وما أشبه ذلك ، واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر ، بل المهم محصور في كتاب الله تعالى . قال الله عز وجل : « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » وقال صلى الله عليه وسلم (١) : « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه ، وأنفق الفضل من ماله » فانظر كيف قلب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان . وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه . قال (٢) : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط

(١) حديث : طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه ، وأنفق الفضل من ماله ، البغوي وابن قانع في معجمي الصحابة والبيهقي من حديث ركب المصري ، وقال ابن عبد البر أنه حديث حسن ، وقال البغوي لا أدري سمع من النبي صلى الله عليه وسلم أم لا ، وقال ابن منده : مجهول لا نعرف له صحة ورواه البزار من حديث أنس بسند ضعيف .

(٢) حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من بني عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا الحديث (دن) في اليوم والليلة بلفظ آخر ، ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف

من بنى عامر فقالوا : أنت والدنا ، وأنت سيدنا ، وأنت أفضلنا علينا فضلا ، وأنت أطولنا علينا طولا ، وأنت الجفنة الغراء ، وأنت وأنت . فقال : قولوا قولكم ولا يستهويكم الشيطان إشارة إلى أن اللسان إذا أطلق بالثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها ، وقال ابن مسعود : أنذركم فضول كلامكم ، حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته . وقال مجاهد : إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل ليكتب ابنه فيقول : أبتاع لك كذا وكذا فيكتب كذا . وقال الحسن : « يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثرا وأقل » . وروى أن سليمان عليه السلام بعث بعض عفاريتة وبعث نفران يظنون ما يقول ويخبرونه فأخبروه بأنه مسر في السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى الناس وهز رأسه فسأله سليمان عن ذلك فقال : عجبت من الملائكة على رؤوس الناس ما أسرع ما يكتبون ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يعملون . وقال إبراهيم التيمي : إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فإن كان له تسكلم والا أمسك ، والفاجر انما لسانه رسلا رسلا . وقال الحسن : من كثر كلامه كثرت كذبه ، ومن كثرت ذنوبه ، ومن ساء خلقه عذبت نفسه . وقال عمرو بن دينار (١) : تسكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال له صلى الله عليه وسلم « كم دون لسانك من حجاب ؟ فقال شفتاي وأسنانتي ، قال : أفأكان لك في ذلك ما يرد كلامك ؟ » وفي رواية أنه قال ذلك في رجل أثنى عليه فاستهتر في الكلام ، ثم قال « مأوفى رجل شرا من فضل في لسانه » وقال عمر بن عبد العزيز رجة الله عليه : أنه ليمعنى من كثير من الكلام خوف المباهاة . وقال بعض الحكماء : إذا كان الرجل في مجلس فأعجبه الحديث فليست ، وإن كان ساكنا فأعجبه السكوت فليستكلم . وقال يزيد بن أبي حبيب من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع ، فإن وجد من يكفيه فإن في الاستماع سلامة ، وفي الكلام تزيين وزيادة ونقصان . وقال ابن عمر : إن أحق ما طهر الرجل لسانه ، ورأى أبو البرداء امرأة سليطة ، فقال : لو كانت هذه خرساء كان خيرا لها ، وقال إبراهيم : « يهلك الناس خلتان : فضول المال ، وفضول الكلام » فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباطل عليه ، وعلاجه ما سبق في الكلام فيما لا يعنى . انتهى الكلام على الآفة الثانية .

### الآفة الثالثة : الخوض في الباطل

وهو الكلام في المعاصي ، كحكاية أحوال الفساق ، ومقامات الفساق ، وتنعم الأغنياء ، وتجبر الملوكة ، ومراسمهم المذمومة ، وأحوالهم المكروهة ، فإن كل ذلك مما لا يحسن الخوض فيه وهو حرام ، وأما الكلام فيما لا يعنى أو أكثر مما يعنى فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه ، نعم من يكثر الكلام فيما لا يعنى لا يؤمن عليه الخوض في الباطل ، وأكثر الناس يتجالسون للنفرج بالحديث ، ولا يعشرون كلامهم التفكه بأعراض الناس ، أو الخوض في الباطل ، وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفنتها ، فلذلك لا مخلص منها إلا بالاعتصام على ما يعنى من مهمات الدين والدنيا ، وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستعدها ، فقد قال بلال بن الحرث (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة » وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة » ، وكان علقمة يقول : كم من كلام

(١) حديث عمرو بن دينار : تسكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر ، فقال : كم دون لسانك من باب ، الحديث ابن أبي الدنيا هكذا مرسل ورجاله ثقات .

(٢) حديث بلال بن الحرث : إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله الحديث د ت وقال حسن صحيح

منه فيه حديث بلال بن الحرث ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم (١) : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يفسدك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا » وقال أبو هريرة : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالاً يهوى بها في جهنم ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالاً يرفعه الله بها في أعلى الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل » ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « وكنا نخوض مع الخائضين » وبقوله تعالى : « فلا تفتقدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إن كنتم مثلهم » ، وقال سلمان : أكثر الناس ذنباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً في معصية الله ، وقال ابن سيرين : كان رجل من الأنصار يمر بجبلسهم فيقول لهم توبوا فان بعض ما تقولون شر من الحديث ، فهذا هو الخوض في الباطل ، وهو وراء ماسياتي من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها ، ويدخل فيه أيضاً الخوض في حكاية البسيع والمذاهب الفاسدة ، وحكاية ماجرى من قتال الصحابة على وجه يومهم الطعن في بعضهم ، وكل ذلك باطل ، والخوض فيه خوض في الباطل ، نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه . انتهى الكلام على الآفة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

### الآفة الرابعة : المراء والجدال

وذلك منهى عنه ، قال صلى الله عليه وسلم (٣) : « لا تمارأخاك ولا تمارحه ، ولا تعده موعداً فتخلفه » وقال عليه السلام (٤) : « ذروا المراء فانه لا تفهم حكمته ، ولا تؤمن فتنته » ، وقال صلى الله عليه وسلم (٥) : « من ترك المراء وهو محق بنى له بيت في أعلى الجنة ، ومن ترك المراء وهو بطل بنى له بيت في رضى الجنة » وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت (٦) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما عهد إلى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال » ، وقال أيضاً (٧) : « ماضل قوم بعد أن هداهم الله

- (١) حديث : إن الرجل ليتكلم بالكلمة يفسدك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند حسن ، والشيخين (وت) : إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوى بها سبعين خريفاً في النار ، أفظ (ت) وقال حسن غريب .
- (٢) حديث : أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل ابن أبي الدنيا من حديث قتادة مرسلاً ورجاله ثقات ، ورواه هو والطبراني موقوفاً على ابن مسعود بسند صحيح .
- (٣) حديث : لا تمارأخاك ولا تمارحه ولا تعده موعداً فتخلفه (ت) من حديث ابن عباس وقد تقدم .
- (٤) حديث : ذروا المراء فانه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته (طب) من حديث أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك ورواه ابن الأسقع بأسناد ضعيف دون قوله لا تفهم حكمته ، ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا موقوفاً على ابن مسعود .
- (٥) حديث : من ترك المراء وهو محق بنى له بيت في أعلى الجنة ، الحديث تقدم في العلم .
- (٦) حديث أم سلمة : أن أول ما عهد إلى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني والبيهقي بسند ضعيف ، وقد رواه ابن أبي الدنيا في المراسيل من حديث عروة بن رويم .
- (٧) حديث : ماضل قوم إلا أوتوا الجدل ت من حديث أبي أمامة وصححه وزاد : بعد هدى كانوا عليه ، وتقدم في العلم ، وهو عند ابن أبي الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف .



إلا أوتوا الجدل» ، وقال أيضا (١) : « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وان كان محقا »  
 وقال أيضا (٢) : « ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان : الصيام في الصيف ، وضرب أعداء الله بالسيف ،  
 وتحجيل الصلاة في اليوم السابع ، والصبر على المصائب ، واسباغ الوضوء على المكاره ، وترك المراء وهو  
 صادق » . وقال الزبير لابنه : لا تجادل الناس بالقرآن فانك لا تستطيعهم ولكن عليك بالسنة . وقال عمرو بن  
 عبد العزيز رحمه الله عليه : من جعل دينه عرضة للعصومات أكثر التثقل ، وقال مسلم بن يسار : إياكم  
 والمراء فانه ساحة جهل العالم وعندها يبتنى الشيطان زلته . وقيل : ماضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدال .  
 وقال مالك بن أنس رحمه الله عليه : ليس هذا الجدال من الدين في شيء . وقال أيضا : المراء يقسى القلوب  
 ويورث الضغائن . وقال لقمان لابنه : يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك . وقال بلال بن سعد : اذا رأيت الرجل  
 لجوجا مارييا محجبا برأيه فقد تمت خسارته . وقال سفيان : لو خالفت أخي في رمانة فقال حلو وقمت حاضنة  
 لسبي بي إلى السلطان . وقال أيضا : صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تمهلك العيش .  
 وقال ابن أبي ليلى : لا أماري صاحبي فاما أن أكذبه واما أن أغضبه ، وقال أبو السرداء : كفي بك إثمًا أن  
 لاتزال مارييا ، وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « تكفير كل لحاء ركعتان » وقال عمر رضي الله عنه : لاتعلم  
 العلم ثلاث ولا تترك ثلاث : لاتعلمه لمباري به ، ولاتباهي به ، ولاتترائي به ، ولاتتركه حياء من طلبه ،  
 ولا زهادة فيه ولا رضا بالجهل منه ، وقال عيسى عليه السلام : « من كثر كذبه ذهب جلاله ، ومن لاجى  
 الرجال سقطت صروته ، ومن كثر همه سقم جسمه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه » . وقيل ليمون بن  
 مهران : « مالك لا تترك أخاك عن قلى ؟ قال لأني لأأشاريه ولأأماريه » وماورد في ذم المراء والجدال أكثر  
 من أن يحصى : وحد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه إما في اللفظ واما في المعنى واما في  
 قصد المتكلم ، وترك المراء بترك الانكار والاعتراض ، فكل كلام سمعته فان كان حقا فصدق به وان كان  
 باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقا بأمور الدين فاسكت عنه ، والظعن في كلام الغير تارة يكون في لفظه باظهار خلل  
 فيه من جهة الدعوى ، أو من جهة اللغة ، أو من جهة العربية ، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير  
 وذلك يكون تارة من قصور المعرفة ، وتارة يكون بطغيان اللسان ، وكيفما كان فلاوجه لاظهار خلله ، وأما في  
 المعنى فبأن يقول : ليس كما تقول وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا ، وأما في قصده فبأن يقول : هذا  
 الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وإنما أنت فيه صاحب غرض ومايجرى مجراه ، وهذا الجنس ان  
 جرى في مسألة علمية ربما خص باسم الجدل ، وهو أيضا مذموم بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض  
 الاستفادة لا على وجه العناد والنكارة ، أو التلطف في التعريف لافي معرض الطعن ، وأما المجادلة فعبارة  
 عن قصد اخفام الغير وتجهيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ، ونسبته إلى القصور والجهل فيه ، وآية ذلك أن يكون  
 تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروها عند المجادل يجب أن يكون هو المظهر له خطأ ليبين به فضل نفسه ونقص  
 صاحبه ، ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل مالا يأنم به لو سكت عنه ، وأما الباعث على هذا فهو الترفع  
 باظهار العلم والفضل ، والتهميم على الغير باظهار نقصه ، وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها ، أما اظهار

(١) حديث : لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يذر المراء وان كان محقا ، ابن أبي الدنيا من حديث  
 أبي هريرة بسند ضعيف ، وهو عند أحمد باللفظ : لا يؤمن العبد حتى يترك الكذب في المزاينة والمراء  
 وان كان صادقا .

(٢) حديث : ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان وفيه ترك المراء وهو صادق أبو منصور الديلمي  
 من حديث أبي مالك الأشعري بسند ضعيف باللفظ : ست خصال من الخير الحديث .

(٣) حديث : تكفير كل لحاء ركعتان ، الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف .

الفضل فهو من قبيل تزكية النفس ، وهي من مقتضى ماني البدن من دغيان دعوى السوء والكبرياء ، وهي من صفات الربوبية ، وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السببية فانه يقتضي أن يمزق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه ، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان وإنما قوتهما المراء والجدال ، فالواجب على المراء والجدال مقو هذه الصفات الهلكة ، وهذا مجاوز حد التكراهة ، بل هو حصية مهما حصل فيه إيذاء الغير ، ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهيج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقدم في قائله بكل ما يتصور له ، فيثور الشجار بين المتحاربين كما يثور المراء بين السكابين ، يقصد كل واحد منهما أن يعرض صاحبه بما هو أعظم نكايته ، وأقوى في الخامة وإجاءه ، وأما علاجه فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على اظهار فضله ، والسببية الباعثة له على تنقيص غيره كما سيأتي ذلك في كتاب ذم الكبر والهج وكتاب ذم الغضب فان علاج كل علة باماطة سببها ، وسبب المراء والجدال ما ذكرناه ثم المواظبة عليه تجلبه عادة وطبعاً حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه ، روى أن أبا حنيفة رجة الله عليه قال لدارد الطائي : لم آثرت الانزواء ؟ قال لأجاهد نفسي بترك الجدال ، فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تتكلم ، قال ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد عليّ منها وهو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه تعسر عليه الصبر عند ذلك جداً ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتاً في أعلى الجنة » لشدة ذلك على النفس ، وأكثر ما يغلب ذلك في المذاهب والعقائد فان المراء طبع ، فاذا ظن أن له عليه ثواباً اشتد عليه حرصه ، وتعاون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض ، بل ينبغي للانسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة ، وإذا رأى مبتدعاً تطف في نصحه في خلوة ، لا بطريق الجدال فان الجدال يخيّل إليه أنها حيلة منه في التلبس ، وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا ، فغشوا البسطة في قلبه بالجدل وتأكّد ، فاذا عرف أن النصح لا ينفع اشتغل بنفسه وتركه ، وقال صلى الله عليه وسلم (١) « رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه » ، وقال هشام ابن عروة : كان عليه السلام يردّد قوله هذا سبع مرات ، وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ، ووجد لنفسه بسببه عزاً وقبولاً قويّ فيه هذه المهالكات ولا يستطيع عنها نزوعاً اذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء ، وحب الجاه ، والتعزّز بالفضل ، وآحاد هذه الصفات يشقّ مجاهدتها فكيف بمجموعها . وبهذا تمّ الكلام على الآفة الرابعة .

### الآفة الخامسة : الخصومة

وهي أيضاً مذمومة ، وهي وراء الجدال والمراء : فالمرء طعن في كلام الغير باظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير واظهار مرضية الكياسة ، والجدال عبارة عن أصري يتعلق باظهار المذاهب وتقريرها والخصومة حاج في الكلام ليستوفي به مال أو حق مقصود ، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضاً والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق ، فقد قالت عائشة رضي الله عنها (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن

(١) حديث : رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه ، ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ : رحم الله امرأ كف لسانه عن أعراض المسلمين وهو منقطع وضعيف جداً .

(٢) حديث عائشة : إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم خ وقد تقدّم .

أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» وقال أبو هريرة (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع » . وقال بعضهم : « إياك والخصومة فانها تمحق الدين » ويقال : « ما خصم ربح قط في الدين » ، وقال ابن قتيبة : سرّ بني بشر بن عبد الله بن أبي بكر ، فقال : ما يجلسك ههنا ؟ قلت خصومة بيني وبين ابن عمّ لي ، فقال : ان لأبيك عندي يدا واني أريد أن أجزيك بها ، واني والله مارأيت شيئا أذهب للدين ، ولا أنقص للرعدة ، ولا أضيع للذة ، ولا أشغل القلب من الخصومة قال فقامت لأصرف فقال لي خصمي مالك ؟ قلت لأخاصمك ، قال انك عرفت أن الحق لي ، قلت لا ولكن أكرم نفسي عن هذا ، قال فاني لا أطلب منك شيئا هولاك ، فان قلت فاذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أوفي حفظه مهما ظلمه ظالم فكيف يكون حكمه ، وكيف تدم خصومته ؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم مثل وكيل القاضى فانه قبل أن يتعرّف أن الحق في أي جانب هو يتوكل في الخصومة من أيّ جانب كان فيخاصم بغير علم ويتناول الذي يطلب حقه ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللد في الخصومة في قصد القسطة ، أو على قصد الإيذاء ، ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحق واطهار الحق ، ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحق ذلك القدر من المال ، وفي الناس من يصرّح به ويقول إنما قصدي عناده وكسر عرضه واني ان أخذت منه هذا المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي وهذا مقصوده اللد والخصومة والعجاج وهو مذموم جدا ، فأما المظالم الذي ينصر حجة بطريق الشرع من غير لد واسراف وزيادة لجأ على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام ، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا ، فان ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر ، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب ، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه وبقى الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساةة صاحبه ويحزن بمسرة ويطلق اللسان في عرضه ، فمن بدأ بالخصومة فقد تهرّض لهذه المذنوبات ، وأقل ما فيه تشويش خاطره ، حتى انه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حد الواجب ، فالخصومة مبدأ كل شر ، وكذا المراء والجدال ، فينبغي أن لا يفتح بابه إلا لضرورة ، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذرا جدا ، فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم ولا تدم خصومته إلا أنه ان كان مستغنيا عن الخصومة فيما خاصم فيه لأن عنده ما يكفيه فيكون تاركا للأولى ولا يكون آنما نعم أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب ، إذ أقل درجات طيب الكلام اظهار الموافقة ، والانخشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذي حاصله إما تجهيل وإما تكذيب ، فان من جادل غيره أو مراه أو خاصمه ، فقد جهله أو كذبه فيفوت به طيب الكلام ، وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) « يمكنكم من الجنة طيب الكلام واطعام الطعام » وقد قال الله تعالى : « وقولوا للناس حسنا » ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « من سلم عليك من خاف الله فاردد عليه السلام وان كان مجوسيا إن الله تعالى يقول : وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » ، وقال ابن عباس أيضا : « لو قال لي فرعون خيرا لرددت عليه » ، وقال أنس (٣) قال رسول الله ﷺ « إن في الجنة لفرقا يرى

(١) حديث أبي هريرة : من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع ، ابن أبي الدنيا والأصفهاني في الترغيب والترهيب ، وفيه رجاء أبو يحيى ضعفه الجمهور .

(٢) حديث : يمكنكم من الجنة طيب الكلام واطعام الطعام ، الطبراني من حديث جابر وفيه من لأعرفه ، وله من حديث هاني أبي شريح بإسناد جيد : يوجب الجنة إطعام الطعام وحسن الكلام

(٣) حديث أنس : إن في الجنة لفرقا يرى ظاهرها من باطنها ، الحديث (ت) وقد تقدّم .



ظاھرھا من باطنھا و باطنھا من ظاھرھا أمثھا الله تعالى ابن آدم الطامع و آلائه الكلام ، و روى أن عيسى عليه السلام صرّ به خنزير فقال صرّ بسلام ، فقبل : ياروح الله أنقر هذا الخنزير قال : أكره أن أعق لساني الشر ، و قال نبينا عليه الصلاة والسلام (١) : « الكلمة الطيبة صدقة » . و قال (٢) : « اتقوا النار ولو بشق تمرة فان لم تجدوا فبكلمة طيبة » ، و قال عمر رضي الله عنه : « البر شيء هين ، ربه طليق و كلام لين » . و قال بعض الحكماء : « الكلام اللين يغسل الضمائر المستسكمة في الجوارح » . و قال بعض الحكماء أيضا : « كل كلام لا يخط ربك إلا انك ترضى به جليستك فلا تكن به عليه بخيلا فانه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين » . هذا كله في فضل الكلام الطيب و تضاده الخسومة و المراء و الجدال و اللجاج فانه الكلام المستكره الموحش ، المؤذي للقلب ، المنفوس للعيش ، المهييج للغضب ، الموغر للصدر ، فسأل الله - من التوفيق بمنه وكرمه . تمّ الكلام على الآفة الخامسة و الحمد لله رب العالمين .

### الآفة السادسة : التقصير في الكلام و التشدق

التقصير في الكلام بالتشدد و تسكف السجع و الفصاحة و التصنع فيه بالتشبيبات و المقتضات و ما جرت به عادة المتفاحين المدعين للخطابة ، و كل ذلك من التصنع المذموم ، و من التسكف المذموم ، الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا و أتقياء أمّتي برآء من التسكف » . و قال صلى الله عليه وسلم (٣) « إن أبغضكم إليّ و أبعدكم مني مجلسا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون في الكلام » و قالت فاطمة رضي الله عنها (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم ، يأكلون ألوان الطعام ، و يلبسون ألوان الثياب ، و يتشدقون في الكلام » . و قال صلى الله عليه وسلم (٥) : « ألهلك المنتظمون ثلاث صرات ، و التمتع هو التعمق و الاستقصاء . و قال عمر رضي الله عنه : إن شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان » ، وجاء عمرو ابن سعد بن أبي وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة فتسكف بين يدي طيبته بكلام ، فقال له سعد : ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (٦) : « يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلاء بلسانها » . وكأنه أنكر عليه ما قدمه على الكلام من التشب و المقتمة المصنوعة المتسكفة ، و هذا أيضا من آفات اللسان ، و يدخل فيه كل سجع متسكف ، و كذلك التفاسيح الخارج عن حد العادة ، و كذلك التسكف بالسجع في المحاورات إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة في الجنين فقال بعض قوم الجاني (٧) كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل

- (١) حديث : الكلمة الطيبة صدقة (م) من حديث أبي هريرة .
- (٢) حديث : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، الحديث متفق عليه من حديث عمري بن حاتم و قد تقدم .
- (٣) حديث : إن أبغضكم إلى الله و أبعدكم مني مجلسا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون ، أحمد من حديث أبي ثعلبة وهو عند (ت) من حديث جابر و حسنه بلفظ : إن أبغضكم إلى .
- (٤) حديث فاطمة : شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم ، الحديث ، وفيه و يتشدقون ابن أبي الدنيا و البيهقي في الشعب .
- (٥) حديث : ألهلك المنتظمون (م) من حديث ابن مسعود .
- (٦) حديث سعد : يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلاء بلسانها ، رواه أحمد .
- (٧) حديث : كيف ندى من لا شرب ولا أكل الحديث (م) من حديث المنيرة بن شعبة و أبي هريرة و أصلهما عند (خ) أيضا .



ومثل ذلك بطلان ؟ فقال أسجما كسجج الأعراب ، وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتصنع بين عليه ، بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده ومقصود الكلام التفهيم للعرض وما وراء ذلك تصنع مذموم ، ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتشديد من غير إفراط وأغراب فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها ، فإرشافة اللفظ تأثير فيه فهي لا تقي به ، فأما المحاورات التي تجري لفضاء أطجاجة فلا يليق بها السجج والتشديد والاشتغال به من التكلف المذموم ، ولا باعثة عليه إلا الرياء ، وإظهار الفصاحة والتميز بالبراعة وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويذم عنه . انتهى الكلام على الآفة السادسة والحمد لله رب العالمين .

### الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهو مذموم ومنهى عنه ومصدره الخبث واللؤم قال صلى الله عليه وسلم (١) : « إياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش » (٢) ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتلى بدر من المشركين ، فقال : لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء إلا أن البذاءة لؤم وقال صلى الله عليه وسلم (٣) : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي » ، وقال صلى الله عليه وسلم (٤) : « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها » ، وقال صلى الله عليه وسلم (٥) : « أربعة يؤذون أهل النار في النار على ما بهم من الأذى ، يسهون بين الحميم والجحيم ، يدعون بالويل والثبور : رجل يسيل فوه قيحا ودما فيقال له : ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة قد عذبة فيستلذذها كما يستلذذ الرث . وقال صلى الله عليه وسلم (٦) لعائشة « يا عائشة لو كان الفحش رجلا لسكان رجل سوء » وقال صلى الله عليه وسلم (٧) « البذاءة والبيان شحبتان من شعب النفاق » فيحتمل أن يراد بالبيان كشف ما لا يجوز كشفه ، ويحتمل أيضا المبالغة في الإيضاح حتى ينتهي إلى حد التكلف ،

(١) حديث : إياكم والفحش : الحديث (ن) في الكبرى في التفسير والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو ، ورواه ابن حبان من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث : النهي عن سب قتلى بدر من المشركين : الحديث ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن علي الباقر مرسل ورجاله ثقات وللنسائي من حديث ابن عباس بأسناد صحيح أن رجلا وقع في آب للعباس كان في الجاهلية فلطمه الحديث ، وفيه : لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا .

(٣) حديث : ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي (ت) بأسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب والحاكم وصححه وروى موقوفا ، قال الدارقطني في العمل والموقوف أصح (٤) حديث : الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها : ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الخلية من حديث عبد الله بن عمرو .

(٥) حديث : أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى : الحديث ، وفيه : إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة خبيثة فيستلذذها كما يستلذذ الرث : ابن أبي الدنيا من حديث شفي بن مانع ، واختلف في صحبته ، فذكره أبو نعيم في الصحابة ، وذكره (خ ح) في التابعين .

(٦) حديث : يا عائشة لو كان الفحش رجلا لسكان رجل سوء : ابن أبي الدنيا من رواية ابن هبة عن أبي النضر عن أبي سلمة عنها .

(٧) حديث : البذاءة والبيان شحبتان من النفاق (ن) وحسنه (وك) وصححه علي شرطهما من حديث أبي أمامة وقد تقدم .

ويحتمل أيضا البيان في أحوال الدين وفي صفات الله تعالى فإن إلقاء ذلك ثباتا إلى أسماح السوام أولى من المبالغة في بيانه إذ قد يثور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس فإذا أجهلت بادرته الغايب إلى القبول ولم تنهأوب ولكن ذكره مقرونا بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحيي الإنسان من بيانه فإن الأولى في مثله الاغماض والتغافل دون الكشف والبيان ، وقال صلى الله عليه وسلم (١) : « إن الله لا يحب الفاحش المتفحش الصياح في الأسواق » ، وقال جابر بن سمرة (٢) : كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم وأبي أمامي ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء وإن أحسن الناس إسلاما أحسنهم أخلاقا » وقال إبراهيم بن ميسرة : يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أوفى جوف كلب ، وقال الأحنف بن قيس : ألا أخبركم بأدوا الداء ؟ اللسان البذي ، والخلق الدني ، فهذه مذمة الفحش ، فأما حذره وحقيقته فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات العصرية ، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به ، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكتنون عنها ويدلون عليها بالرموز فينف كرون ما يقاربها ويتعلق بها . وقال ابن عباس : إن الله حي كريم يعفو ويكنو ، كنى باللس عن الجماع ، فالسيس واللس والدخول والصحبة كنايةات عن الوقاع وليست بفاحشة ، وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتهجير ، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها أخش من بعض ، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها ، وليس يختص هذا بالوقاع بل بالسكنية بقضاء الحاجة عن البول والغائط أولى من لفظ التفوط والخراء وغيرهما ، فإن هذا أيضا مما يخفى وكل ما يخفى يستحي منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فانه فحش ، وكذلك يستحسن في العادة السكنية عن النساء فلا يقال قالت زوجتك كذا ، بل يقال : قيل في الحجرة ، أو من وراء الستر ، أو قالت أم الأولاد ، فاللطف في هذه الألفاظ محمود والتصريح فيها يفضي إلى الفحش ، وكذلك من به عيوب يستحي منها فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير ، بل يقال العارض الذي يشكوه وما يجري مجراه ، فالصريح بذلك داخل في الفحش ، وجميع ذلك من آفات اللسان . قال العلاء بن هرون : كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ في منطقه ، فخرج تحت إبطه خراج ، فأتيناه فسأله لنرى ما يقول ، فقلنا من أين خرج ؟ فقال من باطن اليد ، والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء وإما الاعتماد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السب . وقال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « أوصني فقال عليك بتقوى الله ، وإن امرؤ غيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه يكن وبال له عليه وأجره لك ولا تسب شيئا » قال فما سببت شيئا بعده . وقال عياض بن حمار (٤) قلت يا رسول الله إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من بأس أن أنتصر منه ؟ فقال المتسابان

(١) حديث : إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش الصياح في الأسواق : ابن أبي الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف ، وله والطبراني من حديث أسامة بن زيد : إن الله لا يحب الفاحش المتفحش ، واسناده جيد .

(٢) حديث جابر بن سمرة : إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء : الحديث أحمد وابن أبي الدنيا باسناد صحيح .

(٣) حديث : قال أعرابي أوصني فقال عليك بتقوى الله وإن امرؤ غيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه : الحديث أحمد والطبراني باسناد جيد من حديث أبي جزي الهجيمي ، قيل اسمه جابر بن سليم ، وقيل سليم بن جابر .

(٤) حديث عياض بن حمار : قلت يا رسول الله إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من

شيطانان يتهاويان ويتهارجان وقال ﷺ (١) «سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر» وقال ﷺ (٢) «المستبان ماقالا فعلى البادئ منه حتى يعتدى المظلوم» وقال ﷺ (٣) «ملعون من سب والده» وفي رواية «من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والده قالوا يا رسول الله كيف يسب الرجل والده قال يسب أبا الرجل فيسب الآخرا أباه»

### الآفة الثامنة : اللعن

إما لحوان أوجاد أو انسان وكل ذلك مذموم قال رسول الله ﷺ (٤) «المؤمن ليس بلعان» وقال ﷺ (٥) «لا تلعنوا لعنة الله ولا بغضبه ولا بجبههم» وقال حذيفة ماتا عن قوم قط الاحق عليهم القول ، وقال عمران بن حصين (٦) «بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقه لها فضجرت منها فلعنتها فقال ﷺ خذوها ما عليها وأعروها فامرها ملعونة قال فسكأتني أنظر إلى تلك الناقة تمشي بين الناس لا يتعرض لها أحد» وقال أبو الدرداء ما لعن أسعد الأرض الاقات لعن الله أعصانا لله : وقالت عائشة رضي الله عنها سمع رسول الله ﷺ (٧) أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت إليه ، وقال يا أبا بكر أصدقين ولعناني كلا ورب الكعبة صرتين أو ثلاثا فأعتق أبو بكر يومئذ رقيقه وأتى النبي ﷺ وقال لأعود ، وقال رسول الله ﷺ (٨) ان اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة ، وقال أنس (٩) كان رجل يسير مع رسول الله ﷺ على بهير فلعن بهيره فقال ﷺ يا عبد الله لاتمسر معنا على بهير ملعون ، وقال ذلك انكارا عايمه واللعن عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل وهو الكفر والظلم بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين ، وينبغي أن يتبع فيه لفظ الشرع فان في اللعنة حظرا لأنه حكم على الله عز وجل بأنه قد أبعد الملعون وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى ويطلع عليه رسول الله ﷺ إذا أطلعه الله عليه : والصفات المتضمنة للعن ، ثلاثة الكفر ، والبدعة

بأس أن أنتصر منه فقال المستبان شيطانان يتكاذبان ويتهاوران (د) الطيالسي وأصله عند أحمد

- (١) حديث سباب المسلم فسوق وقتاله كفر متفق عليه من حديث ابن مسعود  
(٢) حديث المستبان ماقالا فعلى البادئ منه حتى يعتدى المظلوم (م) من حديث أبي هريرة وقال مالم يعتد  
(٣) حديث ملعون من سب والده ، وفي رواية من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والده : الحديث أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث ابن عباس باللفظ الأول باسناد جيد وانفق الشيخان على اللفظ الثاني من حديث عبد الله بن عمرو

- (٤) حديث المؤمن ليس بلعان تقدم حديث ابن مسعود ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان : الحديث قبل هذا بأحد عشر حديثا وللترمذي ومحسنه من حديث ابن عمر لا يكون المؤمن لعانا  
(٥) حديث لا تلعنوا لعنة الله : الحديث (ت د) من حديث سمرة بن جندب قال (ت) حسن صحيح  
(٦) حديث عمران بن حصين بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقه لها فضجرت منها فلعنتها الحديث رواه (٥)

- (٧) حديث عائشة سمع رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت إليه فقال يا أبا بكر لعناني وصديقين : الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت وشيخه بشار بن موسى الخفاف ضعفه الجمهور وكان أحمد حسن الرأي فيه

- (٨) حديث ان اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة (م) من حديث أبي الدرداء  
(٩) حديث أنس كان رجل مع رسول الله ﷺ على بهير فلعن بهيره فقال يا عبد الله لاتمسر معنا على بهير ملعون ، ابن أبي الدنيا باسناد جيد

والفسق ، وللعن في كل واحدة ثلاث مراتب : الأولى لعن بالوصف الأعم كقولك لعنة الله على الكافر والمبتدع والفسقة : الثانية لعن بأوصاف أخص منه كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخوارج والروافض أو على الزناة والظالمة وآكلى الربا وكل ذلك جائز ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر لأن معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور ، فينبغي أن يمنع منه العوام لأن ذلك يستدعي المعارضة بمثله ويشير نزاعا بين الناس وفسادا : الثالثة لعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك زيد لعنة الله وهو كافر أو فاسق أو مبتدع والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعا فتجوز لعنته كقولك فرعون لعنة الله وأبو جهل لعنة الله لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا أما شخص بعينه في زماننا كقولك زيد لعنة الله وهو يهودى مثلا فهذا فيه خطر فإنه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله فكيف يمكن بكونه ملعونا ؟ فإن قلت يلحق بكونه كافرا في الحال كما يقال للمسلم رحمه الله لكونه مسافرا في الحال وإن كان يتصور أن يرتد ، فاعلم أن معنى قولنا رحمه الله أى ثبته الله على الإسلام الذى هو سبب الرحمة وعلى الطاعة ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة فإن هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر بل الجائز أن يقال لعنة الله إن مات على الكفر ولا لعنة الله إن مات على الإسلام وذلك غيب لا يدري والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر وليس في ترك اللعن خطر وإذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى فلعن الأعيان فيه خطر لأن الأعيان تتقلب في الاسماء إلا من أعلم به رسول الله ﷺ فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر ولذلك عين قوما باللعن فكان يقول في دعائه على قر يش (١) اللهم عليك بأبى جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذکر جماعة قتلوا على الكفر بيد حق أن من لم يعلم عاقبته كان يلحقه فنهى عنه (٢) إذ روى أنه كان يلحق الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرا فنزل قوله تعالى ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يذهبهم فأنهم ظالمون يعني أنهم ربما يسلّمون فمن أين تعلم أنهم ملعونون وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه إن لم يكن فيه أذى على مسلم فإن كان لم يجز كما روى (٣) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر رضى الله عنه عن قبر صرّبه وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عانيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص ففضب ابنه عمرو بن سعيد ، وقال يا رسول الله

(١) حديث اللهم عليك بأبى جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذکر جماعة متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٢) حديث أنه كان أنه يلحق الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرا فنزل قوله تعالى ليس لك من الأمر شيء : الشيخان من حديث أنس دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحا : الحديث ، وفي رواية لهما قنت شهرا يدعو على رجل وذکران الحديث ولهما من حديث أبى هريرة وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه الحديث وفيه اللهم العن لحيان ورعلا : الحديث ، وفيه ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الأمر شيء لفظ (م)

(٣) حديث أن رسول الله ﷺ سأل أبا بكر عن قبر صرّبه وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عانيا على الله وعلى رسوله وهو سعيد بن العاص ففضب ابنه الحديث (د) في المراسيل من رواية على بن ربيعة قال لما افتتح رسول الله ﷺ مكة توجه من فوره ذلك الى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابن سعيد بن العاص فقال أبو بكر لمن هذا القبر قالوا قبر سعيد بن العاص فقال أبو بكر لعن الله صاحب هذا القبر فإنه كان يجاهد الله ورسوله الحديث ، وفيه فإذا سميتهم المشركين فسبوا جميعا



هذا قبر رجل كان أطمع للطعام وأضرب للهام من أبي خفافة فقال أبو بكر يكلمني هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام فقال صلى الله عليه وسلم اكف عن أبي بكر فأنصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال يا أبا بكر إذا ذكرتم الكفار فمموا فانكم إذا خصصتم غضب لأبناء الآباء فكف الناس عن ذلك . (١) وشرب نعيمان الخمر فمات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا تسكن عونا للشيطان على أخيك ، وفي رواية : لا تقبل هذا فإنه يجب الله ورسوله ، فنهاه عن ذلك ، وهذا يدل على أن لعن فاسق بهينه غير جائز ، وعلى الجلالة في لعن الأشخاص خطر فليجتنب ولا خطر في السكوت عن لعن إبليس مثلاً فضلاً عن غيره ، فإن قيل هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو أسره به ؟ قلنا هذا لم يثبت أصلاً فلا يجوز أن يقال أنه قتله أو أسره به ما لم يثبت فضلاً عن المعنة ، لأنه لا تجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق ، نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم علياً ، وقتل أبواؤاثة عهر رضى الله عنهم فإن ذلك ثبت متواتراً ، فلا يجوز أن يرمى مسلم بفسق أو كفر من غير تحقيق . قال صلى الله عليه وسلم (٢) « لا يرمى رجل رجلاً بالكفر ، ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك » . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا باء به أحدهما ، إن كان كافراً فهو كما قال ، وإن لم يكن كافراً فقد كفر بتكفيره إياه » وهذا معناه أن يكفروه وهو يعلم أنه مسلم ، فإن ظن أنه كافر ببدعة أو غيرها كان مخطئاً لا كافراً ، وقال معاذ (٤) قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنهارك أن تشتم مسلماً أو تعصى إماماً عادلاً ، والتعرض للأموات أشد . قال مسروق : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقالت : ما فعل فلان لعنه الله ؟ قالت توفي ، قالت رحمه الله ، قلت وكيف هذا ؟ قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) : « لا تسبوا

(١) حديث : شرب نعيمان الخمر فمات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تسكن عونا للشيطان على أخيك ، وفي رواية : لا تقبل هذا فإنه يجب الله ورسوله ، ابن عبد البر في الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلاً ، ومحمد هذا ولد في حياته صلى الله عليه وسلم وسماه محمداً وكناه عبد الملك ، والبخاري من حديث عمر أن رجلاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يلقب حماراً وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد جلدته في الشراب فأثى به يوماً فأمر به جلد فقال رجل من القوم اللهم لعنه ما أكثر ما يؤتى به فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يجب الله ورسوله من حديث أبي هريرة في رجل شرب ولم يسم ، وفيه : لا تعينوا عليه الشيطان ، وفي رواية : لا تكونوا عون الشيطان على أخيك .

(٢) حديث : لا يرمى رجل رجلاً بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك متفق عليه والسياق للبخاري من حديث أبي ذر مع تقديم ذكر الفسق .

(٣) حديث : ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا باء أحدهما إن كان كافراً فهو كما قال وإن لم يكن كافراً فقد كفر بتكفيره إياه ، أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف .

(٤) حديث معاذ : أنهارك أن تشتم مسلماً ، أو تعصى إماماً عادلاً ، أبو نعيم في الحلية في أثناء حديث له طويل .

(٥) حديث عائشة : لا تسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا (خ) وذكر المصنف في أوله قصة لعائشة وهو عند ابن المبارك في الزهد والرقائق مع القصة .

الأموات فانهم قد أفضوا إلى ماقتلوا . وقال عليه الصلاة والسلام (١) : « لا تسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء » . وقال عليه السلام (٢) : « أيها الناس : استظفوني في أصحابي وأصحابي وأصحابي ولا تسبوهم . أيها الناس : إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا ، فإن قيل : فهل يجوز أن يقال قاتل الحسين لعنه الله ، أو ألقى بقتله لعنه الله ؟ قلنا الصواب أن يقال : قاتل الحسين أن مات قبل التوبة لعنه الله ، لأنه يستعمل أن يموت بعد التوبة ، فإن وحشيا قاتل حمزة عم رسول الله ﷺ قتله وهو كافر ثم تاب عن الكفر والقتل جميعا ، ولا يجوز أن يلعن ، والقتل كبيرة ولا تنهي إلى رتبة الكفر . فإذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر ، وليس في السكوت خطر فهو أولى ، وإنما أوردنا هذا لنعلم الناس باللعنة وإطلاق اللسان بها ، والمؤمن ليس بلعان فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المهرودين بأوصافهم دون الأشخاص المهيئين ، فلا شغل بذكر الله أولى ، فإن لم يكن في السكوت سلامة . قال مكى بن ابراهيم : كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبي بردة جملوا يلعنونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا يا ابن عون إنما نذكره لما ارتكب منك فقال إنما هما كلمتان تخرجان من صغيفتي يوم القيامة لا إله إلا الله ولعن الله فلانا فلأن يخرج من صغيفتي لا إله إلا الله أحب إلى من أن يخرج منها لعن الله فلانا . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) أوصني فقال أوصيك أن لا تكون لعانا . وقال ابن عمر : إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان . وقال بعضهم : « لعن المؤمن يهدل قتله » . وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا : لو قلت انه مرفوع لم أبال ، وعن أبي قتادة قال (٤) كان يقال : من لعن مؤمنا فهو شل أن يقتله ، وقد نقل ذلك حديثا مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر حتى الدعاء على الظالم كقول الإنسان مثلا : لا صحح الله جسمه ، ولا سلمه الله ، وما يجري مجراه فان ذلك مذموم ، وفي الخبر (٥) « إن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة » . ثم الكلام على الآفة الثامنة ، والحمد لله رب العالمين .

### الآفة التاسعة : الفناء والشهر

وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الفناء وما يحل فلا نعيد ، وأما الشهر فالكلام بحسنه وقبحه

- (١) حديث : لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء ، الترمذي من حديث المغيرة بن شعبه ورجاله ثقات ، إلا أن بعضهم أدخل بين المغيرة وبين زياد بن علاقة رجلا لم يسم .
- (٢) حديث : أيها الناس : احفظوني في أصحابي وأصحابي وأصحابي ولا تسبوهم . أيها الناس : إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا . أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عياض الأنصاري : احفظوني في أصحابي وأصحابي وأصحابي ، والشيخين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة : لا تسبوا أصحابي ، ولأبي داود والترمذي وقال غريب من حديث ابن عمر : اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم ، والنسائي من حديث عائشة : لا تذكروا موتاكم إلا بخير ، وإسناده جيد .
- (٣) حديث : قال رجل أوصني قال أوصيك أن لا تكون لعانا ، أحمد والطبراني وابن أبي عاصم في الأحاد والثاني من حديث جرير بن عبد الحميد وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبي عاصم .
- (٤) حديث : لعن المؤمن كقتله ، متفق عليه من حديث ثابت بن الضحك .
- (٥) حديث : إن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة ، لم أقف له على أصل ، والترمذي من حديث عائشة بسند ضعيف : من دعا على من ظلمه فقد انتصر .

قبيح إلا أن التجرد له مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « لأن يمتلي جوف أحدكم قبيحا حتى يريه خيرا له من أن يمتلي شعرا » ، وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر فسكره فقيل له في ذلك فقال أنا أكره أن يوجد في صفيحتي شعر ، وسئل بعضهم عن شيء من الشعر فقال اجعل مكان هذا ذكرا فان ذكر الله خير من الشعر ، وعلى الجملة فأنشاد الشعر ونظمه ليس بمحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره . قال صلى الله عليه وسلم (٢) « إن من الشعر لحكمة » ، نعم مقصود الشعر المدح والتمجيد والتشبيب وقد يدخله الكذب ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء الكفار والتوسع في المدح ، فانه وإن كان كذبا فانه لا ياتحق في التحريم بالكذب كقول الشاعر :

ولم يكن في كفه غير روحه ✽ لجاد بها فليتيق الله سائله

فان هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء ، فان لم يكن صاحبه سخيا كان كاذبا ، وإن كان سخيا فالمبالغة من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يعتقد صورته ، وقد أنشدت أبيات ينادي رسول الله صلى الله عليه وسلم لوتبعته لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه . قالت عائشة رضي الله عنها (٤) : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفض نعله وكانت جالسة أغزل فنظرت إليه فجعل جبينه يهرق وجعل عرقه يتولد نورا قالت فبهت فنظرت إلى فقال مالك بهت فقلت يا رسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يهرق وجعل عرقك يتولد نورا ، ولوراك أبو كبير اهذلي لعلم أنك أحق بشعره » ، قال وما يقول يا عائشة أبو كبير اهذلي ؟ قلت يقول هذين البيتين :

ومبرأ من كل غير حيضة ✽ وفساد مرضعة وداء مغيل

واذا نظرت إلى أسرة وجهه ✽ برقت كبرق العارض المتهلل

قال فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده وقام إلى وقبل ما بين عيني وقال جزاك الله خيرا يا عائشة ما سررت مني كسروري منك . (٥) ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الفنائم يوم حنين أمر العباس ابن مرداس بأربع قلائص فاندفع يشكو في شعره وفي آخره :

وما كان بدر ولا حابس ✽ يسودان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئ منهما ✽ ومن تضع اليوم لا يرفع

(١) حديث : لأن يمتلي جوف أحدكم قبيحا حتى يريه خيرا له من أن يمتلي شعرا (مسلم) من حديث سعد ابن أبي وقاص واتفق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة نحوه والبخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد .

(٢) حديث : إن من الشعر لحكمة ، تقدم في العلم وفي آداب السماع .

(٣) حديث : أمره حسانا أن يهجو المشركين متفق عليه من حديث البراء أنه صلى الله عليه وسلم قال حسان اهجهم وجبريل معاك .

(٤) حديث عائشة : كان رسول الله ﷺ يخفض نعله وكانت أغزل قالت فنظرت إليه فجعل جبينه يهرق وجعل عرقه يتولد نورا الحديث ، وفيه أنشاد عائشة لشعر أبي كبير اهذلي :

ومبرأ من كل غير حيضة ✽ وفساد مرضعة وداء مغيل

فاذا نظرت إلى أسرة وجهه ✽ برقت كبرق العارض المتهلل

إلى آخر الحديث ، رواه البيهقي في دلائل النبوة .

(٥) حديث : لما قسم الفنائم أمر العباس بن مرداس بأربع قلائص وفي آخره شعره :

وما كان بدر ولا حابس ✽ يسودان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئ منهما ✽ ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه ، فذهب بابو بكر الصديق رضى الله عنه حتى اختار مائة من الابل ، ثم رجع وهو من أَرْضَى الناس ، فقال له صلى الله عليه وسلم : أقول فى الشهر بخمسين يفتخر إليه ويقول بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، إني لأجد للشهر دينيا على لسانى كديب النمل ، ثم يقرصنى كما يقرص النمل ، فلا أجد بدا من قول الشهر ، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : لا تدع العرب الشهر حتى تدع الابل الحنين . والى هنا تم الكلام على الآفة التاسعة ، والحمد لله رب العالمين .

### الآفة العاشرة : المزاح

وأصله مذموم منه إلا قلنا يسيرا يستثنى منه . قال صلى الله عليه وسلم (١) : « لا تمارأخاك ولا تمازحه » فإن قلت المماراة فيها إيذاء لأن فيها تشديدا للأخ والصدق ، أو تجهيلا له ، وأما المزاح فطائفة وفيه انبساط وطيب قلب فلم ينه عنه ، فاعلم أن المنهى عنه الإفراط فيه أو المداومة عليه ، أما المداومة فلا أنه اشتغال باللعب ، والهلل فيه واللعب مباح ، ولكن المواظبة عليه مذمومة ، وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك ، وكثرة الضحك تميم القلب ، وتورث الضغينة فى بعض الأحوال ، وتسقط المهابة والوقار ، فما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (٢) : « إني لأمزح ولا أقول إلا حقا » إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقا ، وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان ، وقد قال رسول الله ﷺ (٣) : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها فى النار أبعد من الثريا » . وقال عمر رضى الله عنه : « من كثر ضحكك قلت هيئته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن أكثر كلامه كثير سقطه ، ومن كثير سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه » . ولأن الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة . قال ﷺ (٤) : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » ، وقال رجل لأخيه : يا أخى هل أتاك منك وارد النار ؟ قال نعم قال فهل أتاك منك خارج منها ؟ قال لا ، قال ففيم الضحك ، قيل فإرى ضاحكا حتى مات . وقال يوسف ابن أسباط : أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك . وقيل أقام عطاء السامى أربعين سنة لم يضحك ، ونظروهيب ابن الوردي إلى قوم يضحكون فى عيد فطر ، فقال : إن كان هؤلاء قد غفر لهم فإهنا فعل الساكرين ، وإن كان لم يغفر لهم فهذا فعل الخائفين ، وكان عبد الله بن أبى يعلى يقول : أضحك واهل أكفالك قد خرجت

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه الحديث (مسلم) من حديث رافع بن خديج : أعطى رسول الله ﷺ أباسفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، وعيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس كل انسان منهم مائة من الابل ، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك ، فقال عباس بن مرداس : أتجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع وما كان بدر ولا حابس ؟ يفوقان مرداس فى جمع وما كنت دون امرئ منهما ؟ ومن تضع اليوم لا يرفع قال فأتى له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة ، وزاد فى رواية : وأعطى علقمة بن علاثة مائة ، وأما زيادة : اقطعوا عنى لسانه فليست فى شيء من الكتب المشهورة .

(١) حديث : لا تمارأخاك ولا تمازحه ، الترمذى وقد تقدم .

(٢) حديث : إني لأمزح ولا أقول إلا حقا ، تقدم .

(٣) حديث : إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا ، تقدم .

(٤) حديث : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، متفق عليه من حديث أنس وعائشة .



من عند القصار ، وقال ابن عباس : من أذنب ذنبا وهو يضحك دخل النار وهو يبيكي ، وقال محمد بن واسع : إذا رأيت في الجنة رجلا يبكي ألتست تعجب من بكائه ! قيل بلى ، قال فالله يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصير هو أعجب منه ، فهذه آفة الضحك ، والمعلوم منه أن يستغفر ضحكاً ، والمحمود منه التبسم الذي ينكشف فيه السن ولا يسمع له صوت ، وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) . قال القاسم مولى معاوية (٢) : أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوص له صعب فسلم فجعل كلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفرّبه فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك مراراً ، ثم وقصه فقتله ، فقيل يارسول الله ان الأعرابي قد صرعه قلوصه وقد هلك فقال نعم وأقواهم ملائ من دمه . وأما أداء المزاح إلى سقوط الوتر فقد قال عمر رضي الله عنه : من مزح استخف به . وقال محمد ابن المنكدر : قالت لي أمي يابني لا تمزح الصبيان فتهون عندهم . وقال سعيد بن العاص لابنه : يابني لا تمزح الشريف فيحقد عليك ، ولا الدنيا فيجترى عليك . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : « اتقوا الله وإياكم والمزاح فإنه يورث الضغينة ، ويجرّ إلى القبيح ، تبتثوا بالقرآن وتجالسوا به ، فإن ثقل عليكم حديث حسن من حديث الرجال » . وقال عمر رضي الله عنه : « أندرون لم سمي المزاح مزاحاً ؟ قالوا لا ، قل لأنه أزاح صاحبه عن الحق » ، وقيل : لسكل شيء بذور وبذور السداوة المزاح ، ويقال : المزاح مسلبة للنهي ، مقطعة للأصدقاء . فإن قلت قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهي عنه ؟ فأقول أن قدرت على إقذار عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن تمزح ولا تقول إلا حقاً ، ولا تؤذي قلباً ولا تفرط فيه ، وتقتصر عليه أحياناً على الدور فلا حرج عليك فيه ، ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو كمن يدورنهاره مع الزوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن (٣) لعائشة في النظر إلى رقص الزوج في يوم عيد وهو خطأ إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالأصرار ، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالأصرار فلا ينبغي أن يغفل عن هذا ، نعم روى أبو هريرة (٤) أنهم قالوا يارسول الله انك تداعبنا ، فقال أني وإن داعبتكم لا أقول إلا حقاً . وقال عطاء (٥) ان رجلاً سأل ابن عباس : أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال نعم ، قال فما كان مزاحه ؟ قال كان مزاحه أنه صلى الله عليه وسلم كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوباً واسعاً فقال لها البسيه واحدى وجرى منه ذيل كذيل العروس . وقال أنس : ان النبي صلى الله عليه وسلم (٦) كان من أفكك الناس مع نسائه . وروى (٧) انه كان كثير التبسم

(١) حديث : كان ضحكه التبسم ، تقدم .

(٢) حديث القاسم مولى معاوية : أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوص له صعب فسلم فجعل كلما دنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفرّبه وجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله فقيل يارسول الله ان الأعرابي قد صرعه قلوصه فهلك قال نعم وأقواهم ملائ من دمه ، ابن المبارك في الزهد والرقائق وهو مرسل .

(٣) حديث أذنه لعائشة في النظر إلى رقص الزوج في يوم عيد تقدم .

(٤) حديث أبي هريرة : قالوا انك تداعبنا ، قال أني وإن داعبتكم فلا أقول إلا حقاً ، الترمذي وحسنه

(٥) حديث عطاء ان رجلاً سأل ابن عباس : أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال ابن عباس

نعم ، الحديث فذكر منه قوله لامرأة من نسائه : البسيه واحدى وجرى منه ذيل كذيل العروس لم أقف عليه .

(٦) حديث أنس : كان من أفكك الناس ، تقدم . (٧) حديث انه كان كثير التبسم ، تقدم .

وعن الحسن (١) قال : أنت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة عجوز فبكت ، فقال انك لست بعجوز يومئذ ، قال الله تعالى : إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا . وقال زيد بن أسلم (٢) ان امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت ان زوجي يدعوك ، قال ومن هو ؟ أهوالذي بعينه بياض ؟ قالت والله ما بعينه بياض ، فقال بلى إن بعينه بياضا ، فقالت لا والله ، فقال صلى الله عليه وسلم : مامن أحد إلاو بعينه بياض ، وأراد به البياض المحيط بالحدقة ، وجاءت امرأة أخرى فقالت (٣) يارسول الله اجاني على بهير ، فقال بل نحملاك على ابن البهير ، فقالت ما أصنع به ؟ انه لا يحملي ، فقال صلى الله عليه وسلم : مامن بهير إلا وهو ابن بهير فكان يمزح به . وقال أنس : كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير (٤) وكان رسول الله ﷺ يأتيهم ويقول : يا أبا عمير ما فعل النغير ، لغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور . وقالت عائشة رضي الله عنها (٥) خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة بدر فقال تعالى حتى أسابك فشددت درعي على بطني ثم خططنا خطا فقمنا عليه واستبقنا فسبقني وقال هذه مكان ذى المجاز ، وذلك أنه جاء يوما ونحن بذى المجاز وأنا جارية قد بعثني أني بشيء فقال أعطينيه فأبيت وسعيت وسعي في أثرى فلم يدركني ، وقالت أيضا (٦) سابقني رسول الله ﷺ فسبقته فلما حملت اللحم سابقني فسبقني وقال هذه بتلك ، وقالت أيضا رضي الله عنها (٧) كان عندي رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة وجئت به فقلت لسودة كلي فقالت لأحببه فقلت والله لتأكلن أولا فطخ به وجهك فقالت ما أنا بذاتقة فأخذت بيدي من الصحيفة شيئا منه فطأخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها فخض لها رسول الله ﷺ ركبته لتستقيدني فتناولت من الصحيفة شيئا فمسحت به وجهي وجعل رسول الله ﷺ يضحك . وروى أن الضحاك بن سفيان السكلابي (٨) كان رجلا دميما قبيحا فلما باعه النبي ﷺ قال ان عندي امرأتين أحسن

- (١) حديث الحسن : لا يدخل الجنة عجوز : الترمذي في الشمائل هكذا مرسلًا وأسنده ابن الجوزي في الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف .
- (٢) حديث زيد بن أسلم في قوله لامرأة يقال لها أم أيمن قالت : ان زوجي يدعوك أهوالذي بعينه بياض ، الحديث الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح ، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبدة ابن سهم الفهرى مع اختلاف .
- (٣) حديث : قوله لامرأة استعملته نحملاك على ابن البهير ، الحديث أبو داود والترمذي وصححه من حديث أنس بلفظ : أنا حاملك على ولد الناقة .
- (٤) حديث أنس : أبا عمير ما فعل النغير ، متفق عليه وتقدم في أخلاق النبوة .
- (٥) حديث عائشة في مسابقتها صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فسبقها وقال هذه مكان ذى المجاز ، لم أجده أصلا ، ولم تكن عائشة معه في غزوة بدر .
- (٦) حديث عائشة : سابقني فسبقته ، النسائي وابن ماجه ، وقد تقدم في النكاح .
- (٧) حديث عائشة في لطح وجه سودة بحريرة واطخ سودة وجه عائشة فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة وأبو يعلى بإسناد جيد .
- (٨) حديث ان الضحاك بن سفيان السكلابي قال عندي امرأتان أحسن من هذه الخيرة أفلا أنزل لك عن إحداهما فتزوجهما وعائشة جالسة قبل أن يضرب الحجاب فقالت أهى أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان دميما ، الزبير بن بكار في الفكاهة من رواية عبد الله بن حسن مرسلًا أو معضلا ، وللدارقطني نحوه هذه القصة مع عيفة بن حصن الفزاري بعد نزول الحجاب من حديث أبي هريرة .

من هذه الحيرة ، وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب أفلا أنزل لك عن إحداهما فتزوجهما وعائشة جالسة تسمع فقالت أهي أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤاها إياه لأنه كان دسما . وروى علقمة عن أبي سلمة (١) أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن بن علي عليه السلام فيرى الصبي لسانه فيبش له ، فقال له عيينة بن بدر الفزاري والله ليكونن لي الابن قد تزوج وبقل وجهه وماقبلته قط ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن من لا يرحم لا يرحم . فأكثر هذه الطلایبات متقولة مع النساء والصبيان ، وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معاملة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل ، وقال صلى الله عليه وسلم (٢) سريرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمرًا : أأأكل التمر وأنت رمد ؟ فقال إنما آكل بالشق الآخر يارسول الله ، فتبسم صلى الله عليه وسلم ، قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواحيه . وروى (٣) أن خوات بن جبير الأنصاري كان جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا عبد الله مالك مع النسوة ؟ فقال يفتلن ضفيرا لجل لي شرود ، قال فغضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته ثم عاد فقال يا أبا عبد الله أمترك ذلك اجل الشراد بعد ، قال فسكت واستحييت ، وكنت بعد ذلك أتفر رمنه كما رأيته حياء منه حتى قدمت المدينة ، وبعد ما قدمت المدينة قال فرآني في المسجد يوما أصلي فجلس إلى فطوت فقال لا تطول فاني أتنظر لك ، فلما ساءت قال يا أبا عبد الله أمترك ذلك اجل الشراد بعد ، قال فسكت واستحييت ، فقام وكنت بعد ذلك أتفر رمنه حتى لحقني يوما وهو على حمار ، وقد جعل رجليه في شق واحد ، فقال أبا عبد الله أمترك ذلك اجل الشراد بعد ، فقلت والذي بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمت ، فقال الله أكبر الله أكبر ، اللهم اهدنا أبا عبد الله ، قال فحسن اسلامه وهداه الله . وكان نعمان الأنصاري (٤) رجلا مزاحا ، فكان يشرب الخمر في المدينة فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه

(١) حديث أبي سلمة عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم كان يدلع لسانه للحسن بن علي فيرى الصبي لسانه فيبش إليه ، فقال عيينة بن بدر الفزاري والله ليكونن لي الابن رجلا قد خرج وجهه وماقبلته قط ، فقال إن من لا يرحم لا يرحم ، أبو يعلى من هذا الوجه دون ما في آخره من قول عيينة بن بدر وهو عيينة بن حصن بن بدر ونسب إلى جده ، وحكي الخطيب في المبهمات قولين في قائل ذلك : أحدهما أنه عيينة بن حصن ، والثاني أنه الأقرع بن حابس ، وعند مسلم من رواية الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن الأقرع بن حابس أبصر النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن فقال إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يرحم لا يرحم .

(٢) حديث : قال لصهيب وبه رمد أنا أكل التمر وأنت رمد ؟ فقال إنما آكل على الشق الآخر ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ، ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات .

(٣) حديث : أن خوات بن جبير كان جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا عبد الله مالك مع النسوة ؟ فقال يفتلن ضفيرا لجل لي شرود ، الحديث الطبراني في الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات ، وأدخل بعضهم بين زيد وبين خوات ربيعة بن عمرو .

(٤) حديث : كان نعمان رجلا مزاحا ، وكان يشرب فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه ، الحديث ، وفيه أنه كان يشتري الشيء ويهديه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم يجيء بصاحبه فيقول أعطه ثمن متاعه ، الحديث الزبير بن بكار في الفسكاهة ، ومن طريقه ابن عبد البر من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلًا وقد تقدم أوله .

بنعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم ، فاما كثر ذلك منه قل له رجل من أصحابه انك الله فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تفعل فانه يسب الله ورسوله ، وكان لا يسئل المدينة رسل ولا طرفة إلا اشترى منها ثم أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم فيقول يا رسول الله هذا قد اشتريته لك ، وأهديته لك ، فإذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيقول يا رسول الله انه لم يكن عندي ثمنه وأحببت أن تأكل منه فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم أولم تهده لنا ؟ فيقول يا رسول الله انه لم يكن عندي ثمنه وأحببت أن تأكل منه فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر أصحابه بتمنه ، فهذه مطايات يباح مثلها على النذور لأعلى الدوام ، والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك المميت للقلب . وإلى هنا تم الكلام على الآفة العاشرة والحمد لله رب العالمين .

ونسكتفي بذكر هذه الآفات العشرة عن باقيها في هذا المقام لطولها ، ونذكر باقيها ان شاء الله تعالى في ﴿ سورة ق ﴾ عند آية : « ما يلفظ من قول إلا إليه رقيب عتيد » واذن فليكن هذا نهاية القسم الثاني من المقام الأول في آية : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلهووا أنفسكم » الآيات إلى قوله « إن الله تواب رحيم » .

### المقام الثاني من المقالة الثانية

#### في غوائل الأعمال القلبية

أى المشار لها بقوله تعالى : « إن بعض الظن إثم » والتي يشير لها قوله تعالى في ﴿ سورة ق ﴾ بآية « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » وآية « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .

والأعمال القلبية وهذه الغوائل قد شرحها الامام الغزالي في الاحياء ، وقد اقتصرنا هنا على نموذج لها أجملناه في كتابنا الذي ألفناه لطلبة دارالعلوم وهو « جوهر التقوى » فهالك ما جاء في ذلك الكتاب في صفحة ٩٩٣ وما بعدها وهذا نصه :

#### الفضيلة والرذيلة والسعادة

إذا زرعنا شجرا وتعيننا في إنمائه فغايته ثمره ، هكذا إذا نصبتنا في تحصيل الفضائل فالغاية السعادة . السعادة نيل المراد الشريف ، وراحة النفس ، والاستلذاذ بالفضائل ، ولاسعادة لقواد مضطرب ونفس فاجرة ، فما من رذيلة إلا وهما في النفس سوء الأثر ، فالجهل أشد الآلام ، والبسالة شقاء الجهال ، والنسيان والسهو بلية الانسان ، والعجب والكبر يوردان القلب موارد العطب ، ويصرعانه في المنقلب ، بالحظوظ الخسيسة والشهوات الباطلة ، والتعرض لقت الماقتين ، واستهزاء المستهزئين ، والحسد يودي بصاحبه ويقطع فؤاده ويقلبه في نار السعير ، ويعرضه لخطر كبير ، والشمره يهذب صاحبه ويوقعه كل يوم في نائبة ، ومن ظن المال غاية ما اشتهاه ، والسلطان والعز قصرى مناه ، عذب بها العذاب الأكبر . « ولا تحببك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليذهبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم » بما يصيب محبهم من الآفات ، وما يعرض له من النكبات ، وهم عادموا الصبر ، قليلوا الأجر ، كثيروا الطمع ، عظيموا الجزع ، فأنى يكون المرء من السعداء ، وقد كتب نفسه بيديه في ديوان الأشقياء ، فالسعيد من أتبع الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم بالعفة وما يتبعها ، والشجاعة والحكمة وأقسامها ، أولئك هم السعداء في الدارين ، عند ربهم يرزقون فرحين اذا اعتادوا وصرنوا على ذلك حتى صار مستلذا معشوقا ، فيأنس بالمعارف العالية ، والطبيعات وأقسامها ، والرياضيات وأفلاكها ، والاهليات وجمالها ، ويعلم ما تصله القوة البشرية من المعارف الحكمية ، ويأنس بالعدل في



عمله ، والصدق في منطقه ، والمروءة في أصحابه ، وقد أَرْضَى أشرف العقلاء ، ورضى بما ساقه القضاء ، ولا يطمعن في رضا سائر العالمين ، فإن ذلك ليس في حيز الامكان ، وغاية الأسى وقصاره التعالي عن الرعونات الدنيوية والرضا ثم الطمأنينة : « يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ أَرْجَى إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مُرَضِيَةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي » .

من هذا تعلم قول بعض علماء الغرب لبعض شباننا : « لا يملك المال ، اذا امتلأ قلبك بالفضيلة فاملاً القلب حكمة وفضيلة والجيب فضة وذهبا ، فلمعدهم محمود الفضائل ، والشرى واسع المعروف » .  
وأنا أقول : ألم تسمع أقوال النبي سليمان عليه السلام : « وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين » . انتهى

### القدوة الحسنة

ما من نبي أو عالم أو عامل إلا كان قدوة على حسب درجته ، فاصبر واجتهد حتى تكون كالشمس وضحاها والنجم الزاهر في ظلمات الدياجر ، لتكن شمسا يضيء سناها للناظرين ، وسيرتك هدى ، وعلمك نبراسا للسايرين .

أيها الطالب : إن حركاتك وسكناتك وغدواتك وروحانك أساس يبنى عليها ومقدمات لتأخر ، فاحذر الحذر كله أن تكون قدوة سيئة للبينين ، وكن خيرا القدي خيرا للمقتدين ، حتى يصدق علينا قول السموه :  
إذا مات منا سيد قام سيد ✽ فتقول لما قال الكرام فمهل

لا يرين الناس منك إلا كمالا ، ولا يطلعون منك إلا على ماجل وحلا ، ولا تقمن عين منك على قبيح ، وأصلح السريرة ، وأحسن العلانية ، وذرا المباهاة والملاحة ، والمشاقة والمرء ، وأظهر البشر ، وقل للناس حسنا ، وآت ذا القربى حقه ، واعف واصفح ، إن الله يحب المحسنين .

### علاج الرذائل

إن السبيل الأقوم ، والمنهج الأوضح ، في علاج الرذائل مقاومة كل واحدة بضدها ، والتعوّد على نقيضها ، ومحاربتها بعدوها ، فالجهل بمزاولة التعليم ، والبخل بتسكاف البذل ، ومداومة العطاء ، إلا أن المادة لتأثيرا على النفوس الحيوانية فضلا عن الانسانية ، كم من حيوان اقتاده الانسان بالتعويد فسخره للركوب وامتطاه للحرب ، وذلكه للعلب وساقه للحرث ، وصيره يسقى الزرع ، وقد كان قبل ذلك لا ذلول يثير الأرض ولا يسقى الحرث ، أفليس الانسان أرقى من الحيوان وقد علم البيان ؟ فكم من جبان ركب هول البحر وهو مضطرب الحركات ، هائج الأمواج ، فألف الصعاب وصار شجاعا ، وكم من بخيل تعوّد البذل فأعطى المال وأكرم النزيل ، حتى صار طبعها مستلذا ، وعادة مألوقة .

عجب للعادة وأى عجب ! تقلب المحبوب مكروها ، وترد المألوف مبغضا ، وتجعل السفينة حلما ، والحليم سفيا ، والجاهل عالما ، والكاذب صدوقا ، للعادة في النفوس عجائب ألا ان للجوارح لأثرا في النفوس ، وللنفوس أثرا في الجوارح ، كلبحريمطره السحاب والسحاب من البحر ، وغاية التهذيب أن تصير الفضائل لذائذ والرذائل آلاما . إلا أن امتكاف الفضائل مجاهد ، وصريد لا يزال على الصراط مسافرا ، لم ينل بغيته ، ولم يحظ بنواله ، فانه فضل على القاعد الغافل ، والساهى النائم ، والفضل كل الفضل أن يصير المتكاف مرغوبا والمكروه من الطاعات محبوبا ، قال في الحديث الشريف : « وجعلت قرّة عيني في الصلاة » ، ألا وان قوام الأمر وعماده : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » اهـ

## الغضب

الغضب ثوران يهلى به الدم ، فيرتفع في أعالي العروق ، فيحمر ظاهر البدن دفعا للأذى قبل وقوعه ، وانتقاما من المؤذى بعد حصوله ، إذا طلق القدرة على خصمه ، فإن بدا له الضعف تبدل الاصرار اصفارا ، وكثر الدم راجعا لأعماق الجسم هاربا من إيذاء الخصم وان تردد بين الاعتقادين ، وشك في الأصين ، تعاقب اللونان ، فأحمر ان قدر ، وأصفر للخور ، فالدم كالجيش المحارب ، يقدم أقدام القادر ، ويحجم إجماع الخائر : « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت » .

وللغضب آثار ظاهرة كتغير اللون ، وشدة الرعدة في الأطراف ، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام ، واضطراب الحركات والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشداق ، وتحمر الأهداق ، وتنقلب المناخر ، وتستحيل الخلقة ، ولهمرك ان قبض الظاهر أثر لقبح الباطن ، وما الظاهر إلا امرأة تجلت فيها صورة النفس ، وثمرتها ظهرت في شجرة أصلها ثابت في القلب ، وفرعها تمتد في الجوارح ، وهل انطلاق اللسان بالشم والفحش من الكلام مع نخبط النظم واضطراب اللفظ والاقدام على الضرب والتهجم والتزويق والقتل والجرح عند التمكن حتى اذا عجز عن التشفى رجع إلى نفسه فزق ثوبه ، ولطم خده ، وضرب يده على الأرض ، وغدا كالواله السكران والمدهوش المتحير ، وربما سقط فأغشى عليه ، وقد يضرب الجاد ويخطب الحيوان ، وربما رفسته دابة فوفسها ، أو انكسر القلم فشججه كما يعامل العقلاء .

هل هذا إلا من آثار اضطرام نيران القلب بصورة من قبضه ، وكلم له من صور تبرزها الأيام ، وتجليها الحوادث مع المفضوب عليه كالحقد ، والحسد ، والشهامة بالمساآت ، والحزن بالسرور ، وافشاء السر ، وهتك السر ، والاستهزاء ، فهذه ثمرات افراط الغضب .

وأما ما يضافه فالحية الضعيفة ، وثمرتها قلة الأنفة ، واحتمال الذلة ، وعدم الغيرة على الحرم ، والسكوت عند مشاهدة المنكرات من غيره ، وأن لا يغضب على نفسه فيلومها عند مقارفة الذنوب ، ومباشرة العيوب ، فلا يتوب ، فن ابتلى بذلك فليترحمته ، فكل الطرفين مذموم ، والوسط ممدوح ، هدايا الله الصراط المستقيم .

## ضرب مثل لقلب الانسان بحال الأرض

ألا إنما مثل قلب الانسان كمثل سطح الأرض ، ان خبت أنبتت القناد والشوك والحسك ، وخبيت النبات يتقلب على طيبه ، ورديته على جيده ، ومما مثل الهجر والحسد والشهامة والاحتقار والغيبة وهتك السر وايدائه بالضرب وغيره ، الناجمة من الحقد ، النابتة في أرض القلب الذي أفسده الغضب إلا مثل شوك السعدان ، وشجر الطرفاء ، ونبات الحنظل والعليق ، إذا نبتت في أرض لم يتعهدا مصلحوها ، ولم يقيم عليها أهلها ، ألا وان القلب إما جنة ذات رياض وفاكهة وروح وريحان من علم نافع وحكمة صالحة ، وأما نار تستهر ، ويحجم ترمي بشرر ، فيحترق الجثمان ، وتنحل الأبدان .

ألق ببصرك في الفضاء ، وتأمل النبات وتعجب ، ألم تر إلى ذلك النبات الأبيض المسمى بالهالوك الذي ينبت ما بين شجرات الفول فيمتص غذاءها ، ويبيد أثمارها وحبها ، تشابه هذا العالم ، وكانت الأرض مثل القلوب ، والفول مثل الفضائل ، والهالوك مثل سيئات الأخلاق ، كالحقد والحسد ، ونحن مازرعناه وإنما هو النامي بنفسه ، المعتسدي على نباتنا ، المبيد لأغذيتنا ، ألا وان ماضى الناس نام بنفسه وما نفهم يعوزه القيام عليه .

فاذا ابتليت بمن آذاك فلا تنجمل للحقد عليك سبيلا ، وأزل الرذيلة من قلبك كما تزيل الحشائش الضارة للزرع بعزقها ، وافعل ما فعله أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فانه لما حلف أن لا ينفق على مسطح قريبه وقد

تسكلم في واقعة الإفك نزل قوله تعالى : « ولا يأتُر أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤثرا أولى القرى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصنعوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » فوصله بعد القطيعة ، وأنعم عليه بعد الحرمان . انتهى

### المعجب وسببه وعلاجه

الحجب استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم ، فأما من كان خائفا ورجلا مشفقاً من زوالها ، ومن فرح بها من حيث أنها نعمة من الله فليس بمعجب ، أما سببه فالجهل ، وأساسه الوهم الذي عليه تبنى قصور الهوى ، ومحارِب الجهل ، وتماثيل الفخار . فأما علاجه فأن يعرف المرء أن ماتباهى به بين الأقران لا يخلو من أحد أمرين : إما ما يدخل تحت اختياره ويظهر بعمله ويحصل بسعيه كالعبادة والصدقة ، وإصلاح الأمة ، وسياسة الجهور ، وحشد الجنود ، ورفع البنود ، ونظام الموازين ، وتعليم الناشئين ، فهل جهل ذلك المسكين أنه مخاوق ضعيف ، مركب من عناصر مقهورة ، مؤلف من أمشاج في ماء مهين ، وماذا عمل ؟ ان هو إلا آلة مسخرة ، وطينة محيرة ، وصورة مجندرة ، وصنعة مدبرة ، وآية صغيرة ، وعظمة وتذكرة ، ففاجر من جره ، أو شاكر من برره .

وأما ما لا عمل له فيه فان كان جمالا أوقوة أو نسباً أو ميراثاً من كل ما لا اختيار له في حصوله ، ولأسباب أوصله إليه فان الأمر أهون ، والمعجب إذن أشد جهالة ، وأخسر صفقة ، وأقل فكراً ، وأبعد ضللاً ، وأسوأ حالاً . ومن أجهل ممن يعجب بما لم يفعل ، وإن المعجب مفرّ بنفسه ، آمن زوال نعمته حيث لأمان ، قتل الانسان ما أجهله . واعلم أن أسباب ذلك ستة أمور وهي : الجلال ، القدرة ، العلم ، الذنب ، الميراث ، الملك .

### العلاج

التأمل ، والتذكر ، والتدبر ، وادّكار أن الموت شامل ، والاعتبار بمن مضى من الأمم ، فأخلوا الديار فصارت قاعاً صافصفاً بعد العز والبأس ، ورسوخ الدولة ، وتتمام الزينة .

### الأحاديث ووازع الدين

قال صلى الله عليه وسلم : « لولم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك ، العجب » وقيل لعائشة رضي الله عنها : متى يكون الرجل مسيئاً ؟ قالت اذا ظنّ أنه محسن . وقال الله تعالى : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيرتكم فلم تغن عنكم شيئاً » . وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : هوى مطاع ، وشع متبع ، وأعجاب المرء بنفسه » .

### الكبر

الكبر أن يرى الانسان نفسه فوق غيرها بعلم حصله ، أو عمل أتقنه ، أو أصل نسب له ، أو جمال أطغاه ، أو مال ألهاه ، أو قوة أعزته ، أو عشيرة نصرته . فهذه أسباب تدعو أولاً للعجب بنفسه ، واستعصانه صفته والفرح بما يراه أهلاً له من صفة الكمال والجمال ، وقد يكون لحقد ملاً فؤاده ، أو لحسد أغضبه ، أو لرياء اعتراه ، فهذه أربعة أسباب تدعوه للكبرياء ، أما العجب فقد تقدّم ذكره ، وسبق شرحه .

أما من حقد على من آذاه ، وأضر له السوء ، واستبطن له الشر ، فانه يتكبر عليه ويزدريه ، وهكذا الخاسد على النعمة ، الفاقد للفضيلة ، والمرأى الذي يطلب الرفعة والسودد ، انه لا يقبل العلم أمام الجالس ، ولا يقرّ بالفضيلة للبحسودين ، ولا يسمع النصيحة في ملاء من العالمين .

### الملاج

فليعاج المتكبر نفسه بالعلم والفهم ، وليتذكر أنه مكوّن ضعيف صرّوب ، وليواظب على أعمال المتواضعين وليحذر التنزل والمذلة والابتذال ، فاذا تقدّم لآخوانه وقرنائه فسوى نعالهم وأكرم مشواهم ، وسارّهم وسرّهم وغدا إلى باب الدار معهم ، فهو المتواضع وان تنزل إلى أسفل الدرجات ، وعامل من تحت درجته معاملة آخوانه أوأخذ يمتق ، أو يتدال ، فقد تنزل إلى الأسفل ، وأضحى من المتبتلين ، فليعاج المتبتل نفسه برفعها ، ولينف المتكبر أسباب كبريائه من الحسد القاتل ، والحق المكين .

### ذم الكبر وايضاحه

الكبر شجرة أصلها ثابت في القلب ، وفرعها في الجوارح ، وثمرتها في الأعمال ، كأن يترفع عن محاسبة نظيره ، ويأنف من مخالطته ، ولا يساويه في مجالسه ، وإذا نظره عنف ، وان كلمه أنف ، ويتقدّم عليه إن ماشاه ، ولا يقبل منه نصيحته ان هداه ، وهذا الخلق غائلة العباد والزهاد ، وبلية الوعاظ والعلماء ، فضلا عن العامة الجهلاء ، وهو أعظم المحن ، وأكبر البلايا والآحن ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرّة من كبر » . والانسان ظاوم جهول قد يسوقه الغرور للتكبر على الله فيقول « أنا ربكم الأعلى » وقد يرى نفسه أحق بالرسالة ، وأولى بالشفاعة ، فيقول : ولم أرسل المرسلون ؟ واصطفي النبيون ، ومنع من تلك النعمة فلا يتبع نبيا ، ولا يرى له رسولا ، وقد يرى الناس دونه خلا ، والعامة حيرا ، فيعظم خطيئته ، ويفحش ذنبه .

### الفرق بين العجب والكبر

المعجب يرى مدلا بنفسه ، فرحا بسمته ، وان كان غيره أسمى في نظره ، وأعظم في معتقده ، والمتكبر أعظم جرما ، وأكبر إثما ، فهو يريد أن يرى غيره دونه ، وهو القاهر فوقهم ، وقد ذمّه الله تعالى فقال سبحانه « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل النقي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » . وقال : « والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يابح الجبل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين » . وقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء » . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال إني آمركما باثنتين وأنها كما عن اثنتين : أنها كما عن الشرك والكبر ، وأمركما بالإله إلا الله فان السموات والأرض ومن فيهن لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لإله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منهما ، ولو أن السموات والأرض وما فيهن كانت حلقة فوضعت فيها لإله إلا الله لقصمتها ، ثم أمركما بسبحان الله وبحمده فانها صلاة كل شيء » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا ينظر الله إلى رجل يجرّ إزاره بطرا » . وروى عنه عليه السلام انه بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليها وقال يقول الله : يا ابن آدم أتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى اذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وجيب جعت ومنعت حتى اذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأني أوان الصدقة اه

ولنقتصر من كتابنا « جوهر التقوى » في علم الأخلاق على هذا المقدار ، ونرجي باقيها إلى تفسير (سورة ق) عند آية : « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد »



إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد : ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وبهذا انتهى المقام الثاني الذي هو في غوائل النفس من المقالة الثانية في آية : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » .

### المقالة الثالثة

في قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فأذكر هنا كيف تعاملنا أوروبا الآن معاملة قاسية ايقاظا لنا حتى نرجع مجلدنا بهيئة أشرف مما كان عليه آبؤنا العظام ، ولأكتف في هذا المقال بما كتبه العلامة (لوثروب استودارد) العالم الاجتماعي الأميركي المترجم إلى العربية في الجزء الأول من كتابه المسمى « حاضر العالم الاسلامي » إذ ذكر السلطان عبد الحميد وكيف نشر الدعوة بين المسلمين ليقوموا ضد أوروبا ، وكيف كانت ثورة تركية الفتاة وثورة إيران تزيديان استيقاظ العالم الاسلامي ، وكيف زادت الحرب البلقانية الطين بلة فازداد المسلمون استيقاظا ، وكيف اتحد الترك والعرب في قتال الطليان في طرابلس وهكذا اشتد غليان العالم الاسلامي ، وقد تقدم هذا كله في سورة الفتح من نحو صفحة ١٤٢ من الكتاب المذكور إلى حوالي صفحة ١٦٤ ولنقتصر من الكتاب على ما لم يذكر هناك من بعد ذلك وهذا نصه : —

وإذ قد بلغنا في الكلام على الجامعة الاسلامية من وجهتيها الدينية والسياسية إلى هذا الحد يجدر بنا أن نقول كلمة في الجامعة من حيث وجهتيها التجارية والصناعية ، وذلك ما يعرف بالجامعة الاسلامية الاقتصادية . إن السبب في انتشار الجامعة الاسلامية الاقتصادية هو عوامل الاستنزاف ، واحتياز موارد الثروة في الشرق ، فن قبل خمسين سنة خلت كان العالم الاسلامي يتسكع في أجياله الوسطى ، فكانت الشريعة الاسلامية ومافيهما من تحريم الربا صريحة حق الرعاية بحيث لم تكن الحياة الاقتصادية بمعناها الحالي ميسورة ، وما كان هناك من بعض التجارة والصناعة إنما كان غالبه في أيدي النصارى واليهود من أهل البلاد ، زد على هذا أن التراجع الغربي جاء فانتشر فزلزل الحياة الاقتصادية الشرقية زلزالا هائلا ، إذ أن فتح أوروبا للعالم الاسلامي الفتح السياسي كان يماشيه الفتح الاقتصادي جنبا إلى جنب ، وربما كان هذا الأخير أتم نظاما وأكمل عدة فبات كل صقع شرقي في طوف من البضائع والحاج البخسة الأثمان المنقولة من أوروبا ، ووراء ذلك رهوس الأموال الغربية متدفقة لا تحصى ، تنسرب في البلاد وتنشر بأخدع الصور وأملق الأساليب كالقروض والامتيازات التي من شأنها متى ما عقدت أن تكون تمهيدا لاستقرار السيطرة السياسية الغربية ، فنصر أوروبا الذي نالته في فتحها هذا الفتح السياسي الاقتصادي النام كان باعثا للشرقيين على العداء والمقاومة ، فاستيقظ العالم الاسلامي غضبان ، فهاله مارآه في دياره من الأسباب والأدوات الغربية المأتى بها لاستنزافه واستنفاد خيراته الطبيعية ، فقد رحله إزاء حول الغرب الجبار العاتى فأدرك شققة البعد ، فطفق للتعديل يجد في سبيل التحرر الاقتصادي جده في سبيل التحرر السياسي من ربق الدل والاستعباد ، ثم أنشأ حكماء المسلمين وأرباب الدراية فيهم والرأى السديد ، يلتمسون الأسباب الغربية الفضلى ، التي من شأنها أن ترقى بالعالم الاسلامي رقىا اقتصاديا جديلا ، فمسخت الأساليب والمناهج الغربية ونسج على منوالها ، وما كانت تحريمات الشريعة لتقف سدا في وجه النهضة ، ولالتحول دون مجراها ، فنتج عن ذلك تطور عظيم في الحياة الاقتصادية أخذ ينمو ويزداد : ناهجا منهجا اقتصاديا غربيا ، ولكنه حتى اليوم ما برح يحتاز الدور الأول من أدواره ، وهو أظهر وأبين في البلاد التي هي أشد صلة ومساسا بالسيطرة الغربية كالأندلس ومصر والجزائر ، أما متجهه فواحد

في كل قطر إسلامي ، وسنفضل الكلام على هذا في فصل التطور الاقتصادي ، فليجب اعتباره في هذا المقام هو تدبر شأن هذا التطور من حيث سلته بالجامعة الإسلامية ومنزلته فيها ، وهذا الشأن هو عظيم جداً ، لأن أوثق وحدة وأهم صلة ظهرت في المسلمين حتى اليوم إنما هي الوحدة الاقتصادية بلا صراء ، ولا يهزب عن البال أن الروابط الدينية ، والعلاقات الطائفية التمهيدية ، التي تجمع بين المسلم والمسلم ، ما انفكت تزيد في توائمي المسلمين وتآزرهم ، وتعاطفهم وتضامنهم ، كأهم في المديور الإسلامي أمة واحدة بعضها يفار على بعض ، وجانب يساند آخر ، دح ما هو هناك من الأسباب الشريفة للنقل والتواصل ، المسيلة على المسلمين القيام بالأسفار إلى كل جهة أرادوا ، فازداد بذلك تعارفهم ، واستمسكت أواصرهم ، فنشأ فيهم نشء جديد ، أبناؤه مقادير ، بعداء الهمة ، أشداء العزم ، فيهم التجار وأرباب السفن البحرية والأعمال التجارية ، والصيارفة والسفاسرة ، حتى وأرباب المصانع والمعامل ، ممن لم ير أساطهم في المسلمين من قبل بقرن أو نصف قرن خلا ، وأبناء هذا النشء الجديد على غاية من التفاهم والتوافق ، تربط بعضهم ببعض الروابط الإسلامية ، ويحكمهم التراحم الفربي المنتشر في بلادهم على شدة التضامن ، فلمهم في الواقع من سعة المجال للعمل المنظم والاتحاد الوثيق ما ليس مثله للسياسة المسلمين ، إذ في الأفق الاقتصادي يتلاقى الأحرار ودعاة الجامعة الإسلامية والغلاة وسائر الأحزاب الوطنية على أتم وئام ، فلا خلاف بينهم في هذا الميدان يفضي بهم إلى الانقسام لعلة اتباع إحدى السياسات كسياسة الثورة أو الجهاد انقساماً يحكمهم على تهديد أوروبا المسلحة ، أو يؤدي بهم إلى المجازفة بالنفوس والدماء والأموال ، بل هم جميعاً في نطاق الجامعة الاقتصادية سواء ، متحدوا الكامة ، يجتدون في سبيل الحياة الاقتصادية الإسلامية ، متوخين في ذلك الطرق والأساليب التجارية التي لا يجرأ الغرب أن يحول دونهم ودونها ولا يقف في وجهها .

فما هي غاية الجامعة الإسلامية الاقتصادية ترى ؟ إنما هي ثروة المسلمين للمسلمين وثمرات التجارة والصناعة في جميع المعمور الإسلامي هي لهم يتنعمون بها وليست لنصارى الغرب يستنزفونها ، وهي نقض اليد من روس المال الغربية والاستعاضة عنها بروس مال إسلامية ، وفوق جميع هذا هي تحطيم نواجذ أوروبا ، تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين ، وذلك بعدم تجديد الامتيازات في الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجارك ، المقود التي مادامت خارجة من أيدي العالم الإسلامي فهو يظل عالة على الغرب .

هذه هي أغراض الجامعة الإسلامية الاقتصادية وجميعها حديث المنشأ ، وسببه السيطرة الغربية الشديدة في العالم الإسلامي ، السيطرة التي تتكلم عليها في الفصل التالي من هذا الكتاب . وإلى هنا تم الكلام على المقالة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

### المقالة الرابعة في جوهرتين اثنتين

الجوهرة الأولى فيما كتبه لأهم الغرب في مجلة المعرفة في عددها الرابع الصادر في أغسطس سنة ١٩٣١

وهذا نصه : —

### صوت صارخ من الشرق إلى الغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

ملكنا فكان العفو منا سجيحة ✖ فلما ملكتم سال بالدم أبطح  
فهذا وذاكم فعلنا وفعلكم ✖ وكل إناه بالذي فيه ينضح

الانسان نوع واحد من أب وأم فأصبح شعباً وقبائل فتسكاثروا أنفاذا وعشائر ليزداد السعادة ويتم  
الهناء في الأمم والأفراد . انتشروا في الأرض شرقاً وغرباً ، فكان شرقيون وغربيون ، الشرق أب والغرب  
ابنه ، والأب يعطف على ابنه بدافع المحبة والولاء ، إن الديانات كلها شرقية ففيها البوذية والسكونفوشيوسية  
واليهودية والنصرانية والاسلام ، زحف إلى الشرق منكم اليونانيون والبطالسنة والرومان من قبل وبدميلاد  
المسيح واقتسموا السلطة هم والفرس في الشرق الأدنى وهم غاصبون .

هناك قال الأب لابنه : أيها الابن العزيز : أنت رميتني بحجر لأرمينك بالحر ، لا تخرجن من دار أبيك إلا  
بعد أن أهديك الصراط المستقيم ، وهل ذلك إلا قول المسيح عليه السلام : اعبدوا الله أيها الأبناء وافشوا  
في الأرض السلام ، لاسلح ، لاقتال ، لا جدال ، كونوا عباد الله اخوانا .

وهل سبب ذلك إلا أنه رأى كم تعبدون غير الله ، فاليونان والرومان كانوا يعبدون الكواكب والأصنام  
والفونسيون تشبه عبادتهم عبادة أهل الهند الوثنيين ، والانجليز كانوا يسجدون للصخور والحجارة ولنابع  
المياه ، فأما استوريا (النمسا) والبروسية والروسيا واسبانيا والبرتغال وهولاندا والمانرك والسويد والنرويج  
وسويسره فدينهم القديم دين من ذكرناهم أولاً حذو القذة بالقذة ، فلما رأى كم على هذه الحال دعاكم إلى  
عبادة الله وإلى السلام ، فدخلتم في الدين المسيحي أفواجا ، ففرنسا سنة ٩٨٦ م وإيطاليا سنة ٥٥٠ م  
وانكلترا سنة ٥٩٦ م ويقرب من هؤلاء في التاريخ النمساويون والأسبانيون والبرتغال إلى آخر من ذكرنا  
ماعداد دولة الروسيا فانها لم تدخل إلا في نحو القرن العاشر الميلادي ، ولكن لما دخلتم المسيحية لم تهملوا بها  
عالمه المسيح من السلام العام إذ بقيتم في الشرق وازداد ظلم الرومان للشرقيين ، فإذا كان ؟ ظهر نبي عربي  
في صحراء قاحلة وقال كما قال المسيح : « افشوا السلام ، وأدعوا الصيام ، وصاوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا  
جنة ربكم بسلام » ودعاكم إلى الاسلام والسلام العام واستعمل السيف عند الحاجة بشروط خاصة لأن المسيح  
قبله لم يخضع من شوكتكم ولم تهملوا بنصيحته في السلام فتتركوا الشرق للشرقيين الذين هم أساتذة لكم  
معلمون ، لم يمض على امتشاق الحسام الاسلامي عشرون سنة حتى عادت المياه إلى مجاريها وتركتم الشرق  
لأهله ، إذن الاسلام قد أتم ما ابتدأته المسيحية لسلام أهل الأرض ، فسلام المسيح عقائد ، وسلام الاسلام  
عقائد وأعمال .

هنالك أخذ النور يمتد في الشرق ، والظلام يعم في الغرب ، واستبدت البابوية الرومانيون بكم ، وقتلوا ،  
وأحرقوا بالنار ألوفاً ، وأذلوا ملوككم ، وأذاقوكم سوء العذاب ، قال المسيح لكم : « الطوبى للرجاء فانهم  
يرجون ، الطوبى لصانعي السلام فانهم أحباب الله يدعون » فخالفتم قوله ، ففي سنة ٧٨٢ قبض شارلمان  
الكبير بإيماز الجبر الروماني على أربعة آلاف ساكسوني ونيف في مدينة وارسو ، وضرب أعناقهم في يوم  
واحد ، لأنهم أبوا قبول العماد ، وفي سنة ١٠٠٧ أحرق في مدينة أورليان جملة (أرايكيين) وهسم أحياء ،  
وتبع ذلك كثير من القتل والاحراق في سنة ١١٢٤ وسنة ١١٥٥ حتى عمّ الظلم والهلاك والتدمير ،  
وأسس ديوان التفتيش في سنة ١١٨٤ وصادق عليه البابا (انيوشنسيوس الثالث) وثبته البابا غريغوريوس  
وتسلم ماردو مينيكوس وربهانه ادارته ، وسودوا صفحات التاريخ باحراق وقتل الملايين .

هنالك ساقتم العناية الإلهية إلى الشرق كما ساقتم في المرة الأولى التي فيها اعتنقتم دين المسيح ،  
لأن في الشرق نورا اسلاميا ، ومتى أشرق على ربوعكم قل ذلك الظلام ، ان الله هو الذي رحكم بانبعث  
نفوس رجال الدين إلى اغرائكم على أهل الشرق بحجة المدافعة عن الأماكن المقدسة ، فأثرت الحروب  
الصليبية ، ودام الصراع نحو مئتي سنة ، فرجعتم تحملون في صدوركم نور العلم والاصلاح والحرية والاخاء بسبب  
معاشرة أهل الاسلام ، فلم تملكوا الأماكن المقدسة ولا بلاد الشرق ولكن ملكتم ناصية السيادة وانزعتموها

من رجال الدين الذين أغروكم على محاربة الشرنيين فكانت الهزيمة لأولئك البابائز الذين هم في الحقيقة الجانئون على الدين ومبغضيه لالشرفيين ، رجال الدين أرادوا الانتقام من الشرق ، بلا حجة وأراد الله انتقامهم سلطهم بالعدل « إن ربي على صراط مستقيم » .

فهل ظهر فيكم (لوتر) الصالح العظيم (وفولتير روسي) وأضرابهم إلا بعد اطلاعكم على كتب منقولة عن تعاليم الاسلام « وأمرهم شورى بينهم » .

ألم يقل (سديوالانسى) في كتابه المسمى (تاريخ العرب) : « إن اللاتنيين استمدوا العلوم الفلكية الأولية من العرب فان (جويرت) الذي كان بابا روما الملقب بساوستر الثاني أدخل من سنة ٩٧٠ إلى سنة ٩٨٠ ميلادية عند الافرنج العلوم الرياضية التي كسبها من عرب اسبانيا ، وادهيلارد الانكليزي ساح من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١٢٠ ميلادية في كل من اسبانيا ومصر وترجم مبادئ اقليدس من العربية بعد أن ترجمها العرب من اليونانية . وهكذا سارت أم أوردو با مثل الاستاذ (رودلف) من أهالي بروجس البلجيكية إذ ترجم مسائل بطليموس في الفلك ، وبتليون البولندي ترجم كتاب الخازن في علم الضوء والنظر ، وهكذا كثير وكثير جدا .

ها أنتم الآن اليوم رجعت مرة ثالثة إلى الشرق بلا حجة إلاهتضام حقوقه واذلال الشرقيين ، وما مثلكم في ذلك إلا كمثل النمل إذ تحارب جوشه أنواعا أخرى منه ، ويعيش الغالبون من ثمرات كدّ المساكين ، فينقرض الغالبون لكساحهم على مدى الزمان ، فأنتم في ذلك كالنمل أوكدولة الرومان .

هانحن أولاء أخذنا نوازن بيننا أيام عظمة ملكنا وبينكم في أيامنا هذه فألفينا عهدنا مع الضعفاء محفوظة فأما أنتم فلا عهد لكم مع الضعفاء ، فيها كم أيها الاخوة ماجاء في كتاب أشهر مشاهير الاسلام تحت عنوان « جندي سابور وأمان عبد أمضاء بجيش المسلمين » وهذا نصه : —

روى الطبرى أن أبا سبرة لما فرغ من السوس خرج في جنده حتى نزل على جندي سابور ورزبن عبد الله بن كليب فهاصرهم فأقاموا عليها ينادونهم ويرادحونهم القتال فلم يفجأهم يوما إلا وأبواب البلد تفتح ثم خرج الناس وخرج الأسواق وانبت أهلها فغار المسلمون من ذلك وأرسلوا فسألوه : أن مالكم ؟ قالوا رميتم إلينا بالأمان فقبلناه ، وأقرنا لكم بالجزية على أن تمنهونا ، فقال المسلمون ما فعلنا ، فقتل أهل جندي سابور ونحن ما كذبنا ، فسأل المسلمون فيما بينهم ؟ فإذا عبد يدعى مكنا كان أصله منها هو الذي كتب لهم فقالوا انا لا نعرف حركم من عبدكم فقد جاءنا أمان فنحن عليه قد قبلنا ولم نبدل فان شئتم فاغدروا ، فأمسكوا عنهم وكتبوا بذلك إلى عمر فكتب إليهم : إن الله عظم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تفوا ما دتم في شك ، جيزوهم وفوا لهم ، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم اه

هذه أخلاق خلفائنا الأربعة مع المستضعفين ، فهل فعلتم ذلك معنا بعد الحرب العظمى ؟ وقد قلتم : ساعدونا ، ونحن ما أثرناها إلا لتحرير المستعبدين ، فيها كم ما قلناه العلامة الطائر الصيت (لوثوب استودارد) الأمريكى في كتابه « حاضر العالم الاسلامى » وهذا نصه : —

« مما لامشاحة فيه أن الحرب العظمى الكونية قد أفضت بالحالة إلى المأزق الحرج والساعة العصيبة ، إذ التفت الشرق في سنة ١٩١٤ فرأى الأمم الأوروبية التي كانت مابرحت حافظة لشيء من الوحدة القائمة على اعتبارات عنصرية جيلية قد انبرت تتناحر في سوق حرب لم يحو التاريخ بين دفتيه مثيلا لها قسوة وفظاعة ، وتتناحر مدفعة بعضها بعضا نحو الجزيرة الهاالة والنييران الجهنمية ، ورأى وحدة الجيل الأبيض قد عصفت فيها ريح المطامع السياسية ، والنقااض الأدبية فزعزعتها وهدمتها تهديما ، فوقفت كل أمة من الأخرى وبينهما غور سحيق ، وهوة بهيمدة ، ولم يكن للأمم الشرقية من سبب للتأسى والصبر على بلوى الجائحة



الكبرى سوى ذلك البيان الحزنى الذى نقش ساسة الخلفاء حروفه فى أعلام دولهم ورايات جيوشهم ، ولكن لما وضعت الحرب أوزارها ، ونال الخلفاء الظفر المينى أخذت الأسرار تنضح ، فذاع للأشكاف فى الحين الذى كان فيه أقطاب الخلفاء وساستهم وقوادهم يطهرون إلى أنحاء العالم قاطبة خناهم الحرية المهربة عن الغاية التى فى سبيلها آثرت دولهم الانغماس فى الحرب الزبون وهى تحرير الشعوب المستعبدة ، وإطلاق الأسر لاؤهم المستضعفة فى اختيار حكمها ، وتقرير مصيرها ، كان دؤلاء الأقطاب الساسة فى الوقت عينه يتفارضون ويهقدون ويبرون فيما بينهم سلسلة من المعاهدات السرية لاقتسام الشرق الأدنى ، مدفوعين إلى ذلك بروح الجشع السكابي ، تلك الروح الاستعمارية التى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الإنسان ، ولما كان انعقاد مؤتمر الصلح الذى ولى الحرب أثنى بطائفة تلك المعاهدات لا بذلك الخطب الحرية التى أذاعها الأقطاب والساسة وجعلت أساسا بنيت عليه التسوية الشرقية ، ومؤداه (حبر على ورق) إخضاع الشرق الأدنى والأوسط إخضاعا تاما ، واقتيادهما بخزائم الاستعمار والسيطرة السياسية ما أفظهها » انتهى ما جاء فى الكتاب المذكور فى صفحة ٤٢ و ٤٣ .

أليس هذا نار يخنا ونار يخكم وفينا بههد عبد لنا ، ولم تفوا بهود أقطاب سياستكم ، إذن عالم الإنسان اليوم مجرم كذاب .

أيها الاخوة الغربيون : الدهر قلب « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ، الشرق هو الشرق ، وقديما هجمت عليكم أمم من قبل التاريخ المسيحى فأهلكوا الحرث والنسل ، ثم أعادوا الكرة منذ نحو سبع قرون ولا تزال أعقاب التتار فى بلاد النمسا إلى الآن ، وهامم التتار المسلمون فى قلب روسيا المسيحية ، أليس هؤلاء أمما شرقية سطت على أوروبا !

حذار حذار أيها الغربيون ، إن فلاسفتكم وأكابر علماءكم يعلمون أن عملكم عاقبته خسران لكم ميين ولكنكم لا تسمعون الناصحين ، لأن العامة يسوقون نوابكم إلى مزاولة الشهوات الزائلة ، وأعينهم فى غطاء والجهل يطمس على أبصارهم فلا يدركون سرّ المواقب ، فهل ترضون أيها السؤاس أن تكونوا أسرى العامة تابعين لأهوائهم ، ألساء ما تفعلون .

شمر الشرق أبدى ناجذيه لكم ، آن وقت الحساب ، استيقظ الشرق فهو كزرع دفن تحت الثلج ثم أرسلت الشمس أشعتها فذاب فأسرع الزرع فى نمائه ، احذروا غضبة الشرقيين ، اليابان والصين والهند والترك والفرس والعرب والأفغان ومع هؤلاء روسيا كلهم متحفزون أفلا تهقلون ؟ أفلا تملظرون !

فياليت شعرى من ذا الذى يصد ناموس النشوء والارتقاء عن مجراه ، ألكم قدرة على إيقاف الشمس عن مجراها ، أو الهواء عن مسراه ؟ إذا خطر لكم ذلك فأهون به خطرا ، وما أضلّ هواه .

أفلا تسمعون صوتا ثالثا : أفلا تسمعون اليوم أيها الاخوة صوت رجل شرقى وهو كاتب هذه السطور ، يقول لكم قولاً بعد الدينين السابقين (المسيحية والاسلام) فلكم لما اتبعتم الأول بعد صدوره بخمس قرون وانتقمتم بتعاليم الثانى فى حرّيتكم أيام الحروب الصليبية بعد نزوله بقرون تضارعها فى العهد تسمعون هذا عند صدوره بلا تأخير لأنكم اليوم علماء دارسون مهملون ، وليس كتابى دينا بل هو كتاب جهل سياسته على العلوم الطبيعية الكونية والحقائق العقلية . ها هوذا كتاب «أين الإنسان» نشرته منذ ٣٠ سنة قبل الحرب الكبرى بأربع سنين ، وبينت فيه قصور الإنسان ، وقرّظه علماءكم فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا وقالوا هذا هو الصالح لرقى نوع الإنسان ، إذ يجهل الأمم كلها أشبه بجسد واحد يستمتع الغربيون والشرقيون بها بالحرية والمساواة والاخاء ، نحن أمم الشرق الأدنى عموما وسط بين أوروبا والشرق الأقصى فلنكن نحن بين الطرفين المتباعدين واسطة سلام والمحبة والاخلاص ، نحن الآن نطلب السلام . وأنا بلسان ثلاث مئة وخمسين مليونا من المسلمين أطلب السلام فهل أنتم متهمون ؟ انتهى ما كتبتة فى مجلة المعرفة وبهذا تم الكلام على الجوهر الأول

## الجوهرة الثانية : وهي خاتمة المقالة الرابعة

في ذكر سر من أسرار آية : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا

وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

وهي من عجائب القرآن ومعجزاته في هذا الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وصحبه أجمعين .

(أما بعد) فيأيها المسلمون : هل أنا كم نبأ معجزات القرآن الحكيمية ، وعجائبها السياسية ، وحلها السندسية ، وحلها الجوهرية ، وعقودها الدرية ، وحكمها القدسية ، وأنوارها البهية ، وأسرارها الربانية ، وعلموها الدنية ، وآياتها العبقورية ، وآثارها الجليلة .

أحدثكم أبها الاخوان حديثا انه لو تعلمون عظيم ، أحدثكم عن سر القرآن ، ونور العرفان ، وبرهان الزمان ، وشرف الانسان ، وجمال الدين ، وفضل رب العالمين . بماذا أحدثكم ؟ أحدثكم عن نبأ السياسة الشرقية والغربية ، في الآيات القرآنية ، سيقول قائل ما هذا التشويق ؟ ورايم هذا التعميق ؟ قل وأوجز ، واقتصر وانجز . فأقول :

لقد خطر لي خاطر منذ عشرين سنة ، إذ قرأت في إحدى الجرائد أن انكلترا لما رأت أن ذكورها يقلون عن اناثها في كل ألف نفس ١٥ أى تزيد النساء عن الذكور ١٥ في كل ألف ، وانهم ينادون بالويل والثبور ، ويقولون : لمن نكل أمر هؤلاء النسوة ؟ وذلك في ناديهم الأكبر المسمى (البرلمان) .

فلما سمعت ذلك عجب كل العجب ! وفكرت في أمر الانسان والحيوان ، فوجدت -حقا أن النسبة محفوظة في كل أمة من أمة الأرض ، وفي كل حيوان ، وفي كل قرية ، فهالني الأمر جدا ، وأخذني العجب كل مأخذ ، وقلت في نفسي : ان عناية الخالق الحكيم قد لاحظت كل حامل من حوامل الانسان والحيوان ، وراعت النسبة بين الذكور والاناث ، ولو أن أهل مصر ، وأهل سوريا مثلا ، لم يولد لهم اناث أود ذكور مدة ثلاثين سنة مثلا لانقرضت الأمة انقراضا تاما ، إذ لا يجد الذكور لهم اناثا يلدون لهم . ثم نظرت فوجدت القاعدة مطردة ، أى انى وجدت في كل قرية وبلدة ومصر قد تساوى تقريبا ذكورها واناثها ، ولم يذر الله قرية ولا أمة من هذه المساواة ، لافرق بين المتوحشين والمتمدنين ، ثم نظرت في الحيوان فوجدته كذلك فلم يمنع الاناث أو الذكور من البقر في بلدة حتى يحتاج الذكور أو الاناث من بلدة أن يذهبوا إلى أخرى ، بل رأيت الله قد حفظ النسبة تامة غير منقوصة . ثم انى بعد ذلك اطلعت على هذا الاحصاء فأيد قولى وهو :

(١) إن القارة التى يزيد عدد النساء فيها على الرجال على وجه العموم هي أوروبا فان نسبتهم إليهم كنسبة خمس إلى أربع .

(٢) وأن نسبة الرجال إلى النساء في آسيا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٩٧٣ وفي افريقيا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٩٦٨ وفي استراليا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٨٢٢

هذا الاحصاء ربما كان تقريبا واسكنه على كل حال أيد نظريتي . هناك فكرت في أمر آخر :

## الصناعات والعلوم

فقلت : ها أناذا أنظر فأرى الأمم كلها فيها قادة وفلاسفة وحكماء ، وفيها صنائع ، وفيها عمال ، يظهر لي أن العقول لما خلقت روعيت فيها النسبة ، لأننا نرى أهل أوروبا الذين انتشر العلم بينهم أقلهم مفكرون للمجموع وأكثرهم لأعمال خاصة ، أو علوم تناسبهم ، فهالني الأمر أيضا ، وقلت : يظهر أن الحكمة العامة كما راعت

النسبة بين الذكور والاناث بالمساواة راعت النسبة في أعمال الحياة وعلومها على مقتضى الحاجة كالمعادن من ذهب وحديد وفضة ، ثم هذه صارت عقيدة عندي ، وثلت : إذن هذا الانسان ظالم جاهل لأنه لم يضع كل عقل فيما خافى له .

### الأرض واستعدادها

ثم نظرت الى الأرض التي نحن عليها فوجدتها مختلفة الاستعداد ، ففي بلادنا نزرع القطن وبلاد الانجليز لاتصالح له ، وهم محتاجون لصنع قطننا ، وهكذا كل بلدة من بلاد العالم لها خاصية ، فتتوعدت خواص الأرض وخواص العقول ، فأيقنت أن الحكمة عامة ، وأن الانسانية طفلة ، وأنه سيأتي يوم يعرف الناس هذه النظرية ويستخروا كل عقل فيما خلق له كما يستعملون كل أرض فيما خلقت له ، ومستحيل أن يسعد الناس على الأرض إلا اذا فعلوا ذلك أى شغلوا كل العقول في جميع الأرض ، فالأرض عروس ازيلت للناس وهي مخبوءة عنهم حتى يهيئوا لها جميع العقول في الشرق والغرب ، ذلك هو مهرها الذي ينالون به ثمراتها ، ثبتت هذه العقيدة عندي .

### نظرتي في الأمم

ثم نظرت في حال الأمم فوجدتهم في الشرق والغرب جميعا يجهلون هذه الحقيقة ، ومن عرفها منهم لا كها بلسانه ، وقلبه بالظلم والفس مشغول ، ونظرت في سياسات الأمم شرقها وغربها فما نوع الانسان إلا أشبه بالذئب والفمور والصقور ، كل لسكل راصد ، وله مخارب .

### تأليف « أين الانسان »

هنالك ألقت كتاب « أين الانسان » وذكرت فيه ان الله يعاقب الأمم على جهاها ولا بد من حرب يجتمع فيه أهل الشرق وأهل الغرب ، واطلع عليه أهل أوروبا سنة ١٩١١ م وذلك قبل الحرب الكبرى بأربع سنين ، ولقد كان عجب عظيم حينما اطلعت على تقريرها فطرظته العلامة الاستاذ (سانتالنه الطلياني) من فلاسفة ايطاليا وحكامهم ، فقد خلصه في مجلة بلغتهم التي نشرها في أوروبا ، هكذا ورد ذكر هذا الكتاب في تأليف العلامة (كراديفو) الفرنسي في هذه السنة (١٩٣٦ م) وسأذكر لك كلامهما قريباً هنا ، فالكتاب إذن ظهر منذ ١٧ سنة وتأليف التفسير لم يكن بطريق جدي إلا في هذه السنين ، وقد أتمته منذ سنة ونصف وهأنذا الآن أي في أوائل سنة ١٩٤٧ م وقدّم للطبعة ، فانظر ماذا حصل :

توجهت منذ أيام إلى ناحية المرج ( كما تقدم في سورة الأنفال ) وقابلني عالم بعلم الزراعة ، وأراني حشرة صغيرة تملك الأشجار ، فماذا جرى ؟ فكرت في أمر الحشرة ، وأن انائها قد تلد بغير ذكور ، وانها أشبه بالنار اذا شبت في بيت أحرقت بقية البيوت ، فهي جميع الأمراض العامة والطاعون وأمثالها اتخذت الكرة الأرضية كأنها قرية واحدة تنتقل من شجرة إلى شجرة ، ومن حقل إلى حقل ، ومن أمة إلى أمة ، هنالك تفكرت في قوله تعالى : « وأصلحوا ذات بينكم » في سورة الأنفال ، فذلك هو الاتحاد بين المسلمين وفي قوله تعالى هنا : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » .

الذكورة والانوثة اتحدنا في أدنى الحيوان ، وفي أدنى النبات ، ثم أخذ الافتراق الشخصي يظهر في الأصناف العالية فيهما ، فماذا جرى ؟ أخذ الصنفان يتعارفان بأنواع المعارف من جبال وأخلاق وآداب ، فاجتمعوا وتزوجوا وولدا ، هنالك رجعت إلى هذه الآية وتفكرت في كتاب « أين الانسان » فوجدته سكا

معنى هذه الآية ، لأنها ابتدأت بالكورة والانوثة ، وهى التى عليها بنيت كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ ، هنالك أخذنى العجب كل مأخذ ، وعلمت أن كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ الذى أعجب به أهل أوروبا وقالوا فى فرنسا وفى إيطاليا : انه ينمش العقول والأرواح هو سرّ هذه الآية ، فأنا هنالك ظننته من آيات أخرى مثل قوله تعالى « وكل شيء عنده بمقدار » الخ ولكن هذه الآية صرّحت بمبدأ الفسكرة ونهايتها ، فبدؤها الذكور والاناث ونهايتها التعارف العام بعد اختلاف الشعوب والقبايل ، وقد قدمت لك انى قسمت جميع العلوم والصنائع على الذكور والاناث ، إذن الآية تفسر بالكتاب جميعه ، وعلى هذا تكون هذه الآية خطابا للأمم كلها بدليل انه قال : « يا أيها الناس » ولم يقل أيها المؤمنون ، وانما قال يا أيها الناس لأن هذا الكلام موجه للعقل كما بينته لك ، فاني لما ألفت الكتاب لم أؤلفه باعتباره دين بل هو مبنى على العقل ، فهذه الآية وان كانت مقدسة فهى خطاب للعقل الانسانى العام ، إذن على المسلمين أن تقوم فيهم طائفة مفسكرة تبحث على نحو ما بحثت فى كتابي ﴿ أين الانسان ﴾ وذلك بعد أن يساوا الأمم فى العلوم العصرية ، وهذه الطائفة يتمون ما ابتدأته فى كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ ويخاطبون الأمم بالعقل كما خاطبناهم ، وحينئذ نكون حقيقة : « خير أمة أخرجت للناس » فيكون فى العالم الاسلامى جماعتان : جماعة تصلح ذات البين بين المسلمين ، وجماعة حكماء مفكرون للتعارف مع الأمم وتسمى « جماعة التعارف » تيمنا بالقرآن ، ويفهمون الأمم أن التعارف مبنى على البحث العقلى الذى ابتدئ بالذكور والاناث ، هذا ما سنعلم فى هذه الأيام سطرته ليكون تذكرة لمن بعدنا . وهالك ما وعدتك من ذكر ما كتبه الاستاذ (سنتلانه) والبارون (كراديفرو) وانما أكتب هذا لك هنا :

(١) ليكون أمامك ملخص الكتاب بقلم فيلسوف أوروبى حتى يقدم الشبان بعدنا على الحكمة والعلم والتعارف بالحكماء فى أوروبا والصين كما أمر ربنا .

(٢) لتعلم أن أم الأرض مستعدة للتفاهم والعقل .

(٣) وأن القرآن حقيقة دين الفطرة .

(٤) وانى مع انه ليس بينى وبين أحد من أهل أوروبا معرفة ولا مخاطبة ، ولم تسكن من المسلمين جماعة يشتدون أزرى ، بل كان الفضلاء من أهل بلادى يعرضون عنه اعراضا ، بل أكتب وحيدا فريدا لا ناصر لى إلا الله عز وجل الذى سبب الأسباب ، فطبعت الكتب وانتشرت بلاقوة تنشرها إلا قوة الايمان واليقين بالنصر .

أقول : انى مع هذا أرى حكماء أوروبا وكبراءها يقرّظون كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ ويقرّظون هذا التفسير أيضا ، فمن هذا تعلم أن للأمم الاسلامية مستقبلا باهرا ، فسيقروا هذا التفسير وأمثاله ، ويقوم فيهم حكماء وعلماء ، ويبنون على ما أسسناه ، ويشيدون ما بنيناه ، ويجدون الأمر عليهم سهلا لطيفا ، إن الله أيدنى ونصرنى نصرا مؤزرا ، وهذا النصر هو للأمم الاسلامية الذين سيقروا هذا التفسير بعدى ويقروا كتيبى الأخرى ، فسيسبرون فى طريق الرقى وهم محبتون منصورون ، ولينبغنى فيهم نابغون ، فلا بدئ بتقريظ الاستاذ (سنتلانه) الذى ترجمه المرحوم مصطفى أفندى رياض من الطليانية إلى العربية وهالك نصه : « قال الاستاذ سنتلانه : ليس من يجهل بمصر الشيخ طنطاوى جوهرى المدرّس بمدرسة المعلمين الناصرية فهو ذلك الكاتب النحرير ، والمحرّر الشهير ، ذلك الانسان ذوالعقل الكبير ، بل هو أحد رؤساء الحركة السياسية الاجتماعية التى انتشرت فى كافة طبقات الشعب الاسلامى تحت اسم الجامعة الوطنية ، وتلك الحركة ترمى إلى الاستقلال السياسى والاصلاح الدينى طبقا لمنهج مرسوم بهيد المدى مشوب بشيء من الابهام ، وذلك بقصد التوفيق بين العلم وبين ما جاء به القرآن الكريم ، وبقصد الرجوع إلى تلك التقاليد الجليلة التى



ازدادت بهاسة في غابر الأيام ، فقد أراد المؤلف أن يفكر هذه الأفكار ويبحثها بين قومه نارة بالخطابة وأخرى بالكتابة ، فما دون في هذا المعنى كتابان جديران بالذكر ، وهما « نظام العالم والأمم » و « نهضة الأمة وحياتها » وآخر ما صدر من مؤلفات ذلك العلامة الكثير الآثار هو كتاب « أين الإنسان » ذلك الكتاب الحديث الذي انقش من عهد قريب ، وهو الذي أردنا التعريف منه ، كتبه الشيخ أخيرا وقال فيه انه يقدمه لمؤتمر الأجناس العام الذي عقد بلوندره في يوليو وأغسطس سنة ١٩١١ م كهدية لحكام الخافقين ، وعلماء المشرقين ، وفلاسفة المغرب ، وساسة العالم أجمع ، والحق يقال انه لم يمل إنسان عظيم في قالب احتجاج سياسي ، ولم يك كتابه موجه إلى المصريين فقط بل للعالم كله ، لأن المسألة التي يريد حلها هي مسألة العالم بالاجماع . قال المؤلف : انه بينما كان في ليلة من شهر مايو سنة ١٩١٠ ينظر إلى السماء ليكتشف مذهب هيلي الذي أئذ علمه الفلك الناس بهودته في هذا الزمن ، صنعت له سوانح للمقارنة بين نظام العالم الجليل ، ونظام الأمم الضئيل ، فرأى بونا شاسعا مؤلما ، فسأل نفسه : أمن المحتمل أن تكون هذه الأجرام السماوية محرومة من سكان مثلنا ؟ وإذا كانت معمورة فكيف تسكون حياة تلك الجماعات ؟ أهى أقل كمالا منا ؟ وكيف تسكون حال الإنسانية بعد ضرر خسة وسبب من علما عند ما يعود المذهب لزيارتنا ، أهناك أمل أن يجد الناس أقل وحشية ، وأقل ظلما ، وأقل خشونة ، وأقل نفاقا ؟

وبينما كان في ليلة ٢٩ مايو سنة ١٩١٠ م تتجاذبه الأفكار وقع في نوم عميق إذ رأى نورا مشرقا وشابا جيل الطلعة كأنه روح طاهرة تطوف العالم آتية من مذهب هيلي لرؤية الأرض ، فقال له : أين الإنسان ؟ فأجابه المؤلف بتأثر وانفعال : نحن أولاء بنو آدم نوع الإنسان (وهنا دار بينه وبين الروح حديث دام عدة أيام) قالت الروح : أظنون أنكم تتلون الإنسانية الحقة ؟ وبأى طريقة يستحل الإنسان هذا الاسم ؟ ألم تقل في كتبك انه حتى الساعة لم ير إلا تقدم مادي في المدنية ولكن المدنية الحقة هي المؤسسة على الوجدان والصدقة والعدل والاحسان ، أفلم تترك زهورها نادرة عنكم ؟ فأجاب المؤلف : ان كان للإنسانية مساوي فإن لها أيضا فضائل وان كانت أنجبت أشرارا فلها أن تفتخر بمن أخرجتهم من عظماء الرجال كالأنبياء والقديسين والفلاسفة والحكام الذين يشرفونها ، فأجابت الروح : أظن أن ذلك يكفي ؟ أنت لا تدري حقيقة الإنسان ، إن المادة قابلة لتطورات كثيرة مبتدئة من المعادن للإنسان ، هكذا الروح الإنسانية لها قدرة غير متناهية من كمالات يظهر أن الإنسان يجهلها . لو عرف الإنسان شرف طبيعته وتعهدها كما يجب لوصل إلى مستوى ما يأمل ، ولكنه ماذا عمل بفطرته وعقله ؟ فلم يرب بين الناس سوى المشاكسة والحاربة والظلم تحت ستار من النفاق والخيانة والغدر ، وهذه القوت هي السائدة على جماعة المتمدينين ، ولإثبات ذلك نرجع إلى العلم ونسأل فلسفة (داروين) الذي رأى الأمم القوية تفتك بالضعيفة وتبيدها من الوجود ، فحكم بأن لافلاح إلا بالغلبة وقوة السلاح ، وكذلك قيل : « إن الأمم التي تأكل اللحم تقهر النباتيين » ، فكذبهم الأفعال وانتصرت اليابان في حربها مع الروس ، هكذا بينما الحيوانات التي من فصيلة واحدة تعيش براحة بعضها مع بعض فإن الشعوب التي هي أكثر حضارة على العكس من ذلك روا بطها قائمة بالمظالم والوحشية الدائمة ، فأين الإنسان ؟ ثم سألته الروح : لعنكم تفخرون بالسكك الحديدية ، والتلغراف الذي لاسلك له ، واتقان السلاح من كل نوع ، وهذه كلها لفائدة الأمم الغالبة فانها تنزع السلاح من الأمم المقهورة ، وتتخذها خدما وعبدا ابتغاء مرضاة الشهوات المادية ولزيادة الزهو والمساوي ، وعمايه تسكون نتيجة تقدم المدنية هو إعطاء الحق للأقوى فحقى يفهم الناس أنهم لم يعرفوا للآن من كتاب الطبيعة الأكبر إلا بعض حروفه ؟ ومتى يفهمون أن لافرق بين استئساد وكفاءة إنسان وإنسان وجنس وآخر ؟ واننا كلنا من نوع واحد ومن طبيعة إنسانية واحدة ؟ ألم يك أوروبي اليوم المتمدين هو سلالة أوائلك البرابرة التريين الذين خربوا ملك الرومان ؟ من يقدر أن يحزم

بأن زنجبى اليوم وهو ذلك الفقير المتوحش لا يكون له مستقبل باهر ؟ واعلم أن القضية المثيرة القائلة بأن القوى يغلب الضعيف لا تنطبق على العصر الحاضر الذى يقضى بأن العقل فوق القوة ، هنا ينحصر المستقبل فن واجب الانسانية المقدس أن تتحد حتى تحكم الطبيعة ، وتستخرج أسرارها ، وتوهم العقول لعصر جديد فى التاريخ حتى لا يصبح فيه أسياد وعبيد ، ولا يقال قاهرون ومقهورون ، ولتكون الانسانية واحدة متحدة فى العلم والعمل والمنافع العامة ، فهلا كان من الأمم حولكم أولو بقية يهون عن الفساد فى الأرض بترك زراعتها ، وعن خراب العقول بتهمدها ، وفى كليهما ضرر عظيم على المجموع الانسانى ؟ ذلك أولى من استعمالهم القوة المناوئة للضعيف واستعباد من لا يقوى على الدفاع . اعقلوا أيها الناس ! فأين الانسان ؟

عادت الروح للسؤال : ماذا تنفعه النباهة التى وهبها الله له فهو أشبه بطفل أعطاه أبوه سلاحا فضرب به نفسه لجعله استعماله ، وهنا عددت الروح كثيرا من افراط ومساوى الجمعية الانسانية كالزخرف والزينة والنفاق والكذب فى الحياة الاجتماعية ، وتسكمت على الخداع الذى ساد فى الشعوب السياسية ، أولئك الذين يعلنون بالسنتهم ما يخالف ضمائرهم تبعا لنافعهم الذاتية ، هنا انقطعت المحادثة حيث اختفت الروح ولم يرها المؤلف إلا بعد ثلاثة أشهر ، وتبع ذلك فصل فى الحكم أودع فيه المؤلف الأفكار التى أثرت فيه من منظر الطبيعة وصفاء السماء ، وجمال المنظر ، وتعريف الأطياف ، وهلم جرا ، كل ذلك قاده لفكر واحد ، وهو : أوجد فى العالم جمال كثير ، ورونى بهيى ، ونظام هكذا كامل ولا يشعر به الانسان وفى نفسه فضائل طبيعية وبذور بديهة من المحبة ، يظهر أن الانسان لا يعرف ذلك لأن شهواته وأميله أسدلت نقابا على عقله ، فلذلك هو يجهل ذاته والعلم هو الذى ينمى فيه المحبة ويقرب به لآخوانه ، فإذا كانت الطبيعة السفلى قادرة على ذلك الرونى وكان الانسان سيالا للخير ، أفلم يأن أن يأتى اليوم الذى يرى فيه نفسه حكما مستقيما بالعلم فيعرف ماله وما عليه ؟ فاليوم يستثنى بعض العلماء كالعلامة ( كينت ) الألمانى و ( هربرت سبنسر ) الانكليزى وأمثالهم من يستخدمون علومهم للتوفيق بين الشعوب ، وإزالة البغضاء من بينهم ، وسيأتى يوم تظهر فيه الانسانية بمظهر يختلف عن سابقه ، وبينما كان المؤلف يفكر فى ذلك عادت الروح إليه فى ليلة من يوليو سنة ١٩١٠ وعرضت عليه سياحة سمائية فتقبل بالارتياح هذه السياحة فى العالم السهاوى إذ رأى فرصة جديدة لوصف عجائب السموات ، ومن ثم يهرج على الفكرة الأساسية ويقول : كيف يبعد الانسان الذى يقدر أن يفهم هذا الترتيب العجيب عن المنظمات الاجتماعية ؟ فأجابه صريحا : ذلك لأن الانسان لم يترك طباعه البهيمية ولا أفكاره الأولى ، ثم أدى بهما المطاف إلى كوكب غير زحل ، كوكب لا يعرفه علماء الفلك ، فوجدوا فيه أربعة آلاف أمة مختلفة ولكنها مجتمعة فى شكل حكومة واحدة باسم نادى الأمم العام وهو ذلك الحكم الذى تصبو إليه نفوس الناس ، ولكن شتان بين اليقظة والنم ، ذلك النادى هو مجلس مؤلف من أعضاء قوّت الأمم المختلفة إليهم القيام بحكم هذه الجمهورية الشاسعة الأرجاء ، فشاهد من مزايا العدل وحسن النظام والصدق فى القول ما لا يحلم به أهل الأرض ، وقد سأله بعض أعضاء هذه الجمعية المباركة أن يصف لهم أحوال الانسان الاجتماعية ، فكانت إجابته سببا لخبرتهم ودهشتهم ، حتى أنهم لم يصدقوا أن الأرض مسكونة بالانسان بل حكموا على أهلها بأنهم وحوش ضارية فى صورة الانسان ، وهنا انقطع الحلم ، وتبع ذلك فصل فى المذكرات لاحظ فيه المؤلف الشريعة السائدة فى العالم الطبيعى والكيمائى ، ونسبة المواد الثابتة التى تتكوّن منها الأجسام المختلفة ، والنسبة المعتدلة فى تعداد الاناث والذكور فى عالم النباتات والحيوان ، ثم فسرك قائلا : أمن الجائر أن الخالق سبحانه وتعالى أعطى للمادة شرائع محكمة ، وأن العالم المعنوى الذى هو أرقى منها يتركه لحكم المصادفة ، وكيف انفصمت عرى الانسانية ، وقطعت تلك الرابطة التى نشاهدها فى العوالم السفلى ، اذا كان عضو واحد من الأسرة الانسانية ضعيفا جاهلا وحشيا فالأعضاء الأخرى تتأثر به ، لأن الانسانية متضامنة

متحدة ، فالشعوب القوية التي تذل الضعيف تربي في نفوس أبنائها عادات البطش والظلم التي يكتسبها الغالبون فيتولد عنها نتائج سيئة لمستقبلهم الاجتماعي والسياسي ، وسيعاقب كل قريبا أو بعيدا على انتهاكه حرمة القوانين الطبيعية ، كيف يسوغ لأمة أن تقول لأخرى لا نتعلم ولا تفكر ولا يكون منك جيوش ولا قواد ، نحن أعلم منك بما يلزم لحمايتك ومصلحتك ، وأنا عليك لسا هرون .

مفائدة السكيات والمدارس مادام السؤاس يقولون مالا يفعلون ، ويعلمون ذلك لشبانهم ، ويفتخرون بأن هذه سياسة ، فعلا السكيات ، اذا كان السؤاس يهدمون البناء ، أليس من العار أن العالم الذي حولنا من الأرض والسموات معظمه عالم صادق ونحن ظالمون جاهلون كاذبون ، فالجهل يفرق الناس والعلم يزيدهم محبة ، وكلما قل العلم قل الحب ، ولذلك ترى الحكماء أشد حبا للناس ، والجهال والكذابون والسؤاس أقل حبا وأكثر طمعا وجهما للمال ، فعلمنا ليس بالعلم الصحيح بل هو أبقركا قال الفزالي : « البسالة خير من الفطانة البتراء ، فتبجح بدعوى المعرفة مع اننا لم نرد إلا ما قرأناه في كرّاسة المهمل وقبلناه بغير تحقيق ، ثم ندعى خدمة الانسانية والمدنية وفي الحقيقة نخدم أنفسنا ، ليس هناك أهم حكم عليها أن تعيد للذبد في الانحطاط ، وكذا أن في عالم المعادن والنباتات نقل الأشياء الثمينة وتكثر التافهة هكذا تكون العقول البشرية فتري الأذكى في سائر الأمم يتلون ، وأما الذين يمكن استخدامهم في الامور والأعمال العادية فهم دائما كثيرون » .

وعليه فلا يمكن أن يقال لأي جنس أنت محكوم عليك أن تبقى في مكانك بغير عروج ، فالحكم على أمة بالانحطاط جنابة عليها وعلى المجموع الانساني الذي يخسر بذلك عضوا عاما فرجما نشأ فيها من العقول والآراء ما يعبر بركانه السكون أجمع : فثلاثها والحالة هذه كمثل من يستعمل الذهب والفضة لعمل عجالات السكك الحديدية وفي ليلة من شهر يوليو سنة ١٩١٠ أخذت المؤلف سنة الكرى فعاودته الروح واستصعبته معها للكوكب الجديد فرأى الناس يرضون ولا يرهبون ، وبالشوق والحب يعملون ، وسمع الموسيقى ونغمات الآلات تشف الأذان مرحبة بأعمال الحياة ، اذا شيخ جليل القدر ، وهو العالم الاحصائي في علم الأرض والمريخ قد بدأه بسؤال فقال : خبرني ماذا فعلتم بالانسانية ؟ وبماذا ارتقيتم عن الحيوان ؟ فأجابه بالصناعات والعلوم ومعرفة استعمالها ، فقال الشيخ : أنت تشرح الحيوان وما يحتاجه الجسد ، ولكني سألتك عن الانسانية : فأى حكومة أسستم ولأى نقطة وصلت الصداقة والطهارة والحياة الداخلية والمحبة الانسانية ؟ فطلق المؤلف يدافع عن الانسان بتلك الأساليب الخطابية المعروفة من حيث التضامن ، فذكره ذلك الشيخ بوحدة الطبيعة الانسانية ( بصرف النظر عن الفارق السطحي في اللون والعقيدة ) وتكوين الحكومات وما أشبه ذلك . وقال : إنما تعاليمكم الناقصة المبثورة هي التي بتغاليها في الفوارق أوجدت بين الأمم المظالم والبربرية التي لم تقررها الطبيعة ، وقد استنتج الفيلسوف اليوناني ( أبيقور ) والعالم الطبيعي الانجليزي ( دروين ) بأن الأضعف لابد أن يكون طعمة للأقوى وقاسا نظام الانسان على هذا الحيوان فرجعا بالانسان الى مرتبة دنيسة تأبأها الفطرة ويدحضها العقل ، إلا أنكم يا بني آدم نوع واحد لا أنواع ، ولكم ناموس وقانون خاص لا تتعدونه ، فأتم كجسم واحد ونفس واحدة ، فلا يصح أن يهتدى بعضكم على بعض لأن ذلك مضر بمصالح الانسانية العامة ، ألا تعلمون أن الانسان كلما كثرت أفراده زادت ثمراته على نسبة الأعداد المضاعفة ، فكما زاد العدد كثر المدد ، وبتكاثر الأمم تتكاثر الخيرات ، وعلى هذا القياس لا يصح أن يقال ان الأمم القوية تكون أفيد للانسانية ، ولكن الأفيد لهما ان كل أمة وكل قبيلة وكل فرد يهتدى لما يصلح له ، ويتبع الطريق المرسوم له من الطبيعة تبعا للعدل والعلم والفضيلة ، أفما كان الأجدر بدل الانقسام أن تجتمع الأمم فتشكل منها ناديا عاما يتعهد بتحسين الجنس البشري ، انه ينقصنا كثير من العمل للحصول على ذلك ، فأى علاج يفيد

لإصلاح سوء النظام السائد ؟

سأل المؤلف ذلك الشيخ الجليل الاحصائي في علم الأرض ، فأجابه مهيباً إليه كآيات الاستاذ ( كنت ) في علم تربية النفس : « العلاج اثنان علم وعدل ، فبهما يساس الملك ، وهما صنوان لا يترقان ، فنظام العالم يجب أن يؤسس على ما وجدته الطبيعة والانسانية ، انظروا إلى نظام الكواكب الكبيرة والصغيرة ، فشكل منها يدور في فلك لا يتعداه ، ولا يطغى كبرها على صغورها ، وهي نظرية محسوسة دلت عليها العناية الدالية والجاذبية التي هي أساس الطبيعة البشرية ، ولتكن كل أمة منكم كوكباً يحسب الأعلى الأدنى ، فلا يطغى بعضها على بعض ، ولتكن الأمة الكبرى لأخواتها الصغيرة كأنتمجس للسيارات حولها تلقى عليها أشعة عالمها ، لا تبغى منها جزاء ولا شكورا ، وليس هناك إلا طريق واحد للوصول إلى هذا الحل الانساني الأخوي المحبوب ، ألا وهو العلم ، ولتكن في جميع الممالك طرق متشابهة للتدريس لتعليم الأطفال منذ نعومة أظفارهم فضائل الحب العام ورزايا الحروب ، وبذلك تصل إلى الحل المرغوب ، ثم بين المؤلف طريقة التعلیم التي يلقنونها في الكوكب القريب من نبتون بالفصل الثامن عشر وهي مبينة على مثال الحب في نوعنا العالي الشريف الذي هو بمثابة الكهرباء لا تنور إلا بالفرك ، فانفناء والموسيقى والتأمل في جمال الطبيعة يثبت في الأطفال عادة اعتبار الانسانية كهائلة كبيرة وأن سائر الأصناف أعضاء لها متضامنون نافعون ، فيرى الانسان انه كائن مقدس ينفع أخاه ويعتبر حياته لا تنتهي عند ذاتها ، بل كدرسة تزيه الأفراس والأزواح ، والمحرمات والمشتبهات ، والانسان فيها يستعد لمستقبل زاهر . وبالفصل التاسع عشر فصل مجلس الحكماء وضرب كثيراً من الأمثال الحسية للأمور العقلية ، وكلها ترمي إلى مبدأ الكتاب الأصلي ، وهو مشروح في صفحة ١٩١ و ١٩٨ و ١٩٩ و ٢٠٠ ، ولولا ضيق المجلة وعدم امكان التايخيص اسكننا أتيناً على ترجمته إلى اللغة الطليانية بالحرف الواحد وبالصفحة ٢٠٥ نرى مظاهرات روحانية للنفس ثم لوحة الحياة الانسانية بصفحة ( ٢٠٠ - ٢٠٤ ) مأخوذة من لوحة المريخ وهو المسمى ( لغز قابس ) وهو في ذلك يرمي إلى مذهبه السياسي في النظام الذي أشار إليه ، ويصب جام غضبه على هام النفاق والوحشية والجماعات الجفسية المقول عنها متمدينة ، ويقول : ان الذهب والفضة لا يجديان نفعا ، ولا يغيان شيئاً ، بل هما للبادلة في المنافع وانهما لا قيمة لهما اذا لم يضاف اليهما تنمية النفس والفضيلة ، ومن ثم يذهب المؤلف إلى أن العوامل الخارجية بحسب الفلسفة العامة تختلف ، فتارة تكون للخير ، وتارة للشر تبعاً للظروف ، فالتى للخير لا تكذب ولا تعتسدى ومركزها الحق ونفس الانسان ، وفيها تكون سعادة الأمم جميعاً فتتعاون الأجناس بعضها مع بعض لفائدة المدنية العامة ، وسيصلها نوع الانسان في مستقبل الأزمان ، وبالفصل المتمم عشرين خلاصة الكتاب بالصفحة ٢٢٥ في بيان استخراج السلام العام في الأمم من النواميس الطبيعية ، والنظامات الفلسفية ، والفطر الانسانية ، وقد سبقت الإشارة إليه ، ثم يلي ذلك فهرست ، وبالصفحة ٢٤٧ تحت عنوان « نعمة من موسيقى الكتاب » ضمنها الأسباب التي دعتة لتحريره ثم أوضح ما كان يخالج نفسه من آيات كتاب الله العزيز ، وهي هذه : « وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » ( جزء ٢٥ - ٢١ ) . « وكل شيء عنده بمقدار » ( جزء ١٣ - ٩ ) . « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » ( جزء ٢ - ٢٣٣ ) . « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ( جزء ٣ - ٤٩ ) . وعليه فان هذه النسبة ، وهذه الشرائع ، وهذه العدالة كلها هي التي تحكم العالم الطبيعي بأجمعه كذرات الاكسوجين والايديروجين الثابتة التي تسكون الماء وتدخل في تركيب سائر المواد في العالم الطبيعي والكماوى ، وبمقابلة العالم النباتي بالعالم الحيواني معا ، وكذا بمقابلة العالم الحيواني بالعالم الانساني ترى الانسان يشاركهما في الغذاء والتناسل ، ويشارك الحيوان في الحركات الاختيارية والحواس والادراك والغرائز ولكن النبات والحيوان يولدان كاملين ، وكل منهما عنده من المبدأ جميع ما يلزم لأداء وظيفته الخاصة ،



فالمشكوت تفزل الحيوط ، والنحلة تبني خليتها بلا حاجة إلى مرشد ، أما الإنسان فعلى العكس يحتاج للعلم فيقول انه وان كانت العقول واحدة ، فالاستعداد الشخصي مختلف ، فوظيفة العلم يجب توجيهها لتنمية الأفعال الانسانية المختلفة ، ولكن التربية الحالية حائدة عن الصراط السوي ، وهؤلاء المتوحشون القاطنون حول بحيرة بناسا بالسودان تجدهم أقوى أجساما ، وأصح أبدانا ، من المتمدنين كما قال عنهم المستر (كارينتر) وترى قوة الأهالي بالسودان عظيمة جدا كما ان بعض عوائدهم طاهرة لا تشوبها شائبة .

واذا قرأنا تاريخ الرومان مثلا نجد ما يدهش العقول ، فتراهم يفتخرون بغزو الأمم وتدريج الممالك ، فالذيلة في التربية العلمية التي بثمرتها تغذى الأجسام تعطى العقول نماذج مشابهة لتلك التي عند الحيوانات المفترسة وهي التي تطفئ في الإنسان قابلية التقدم التي هي هبة الطبيعة ، وبينما ترى الناس يعطفون على بعضهم بالقول تراهم يجهرن بامتداح القواد القاتلين كنباليون ، ويشرفون الكذوب من رجال السياسة ، فتنى ترى كل طائفة فرحة بما لديها ، قانعة بما وصلت إليه ، وأن الشعور بالمحبة شامل الجميع ، ولكن رغبا من سائر الموانع نرى حركة في عالمنا الحاضر تدفع الانسانية للأمام ، فالحق كامن في النفوس يجب البحث عنه في الآفاق لظهاره للناس على سطح الكرة ، ومتى تجلت الانسانية بهذا المنظر الذي يفسده المؤلف ، فهناك الوفاق والوئام ، الإنسان آخر درجات ذلك السلم المتصل أولها بأخرها ، فن معدن لا ينمو إلى نبات ينمو ويتوالد ويتدرج بالترتيب إلى حيوان يترقى فيصعد إلى أعلى درجاته من قرد وفيل وأمثالها فيصعد الإنسان إلى أعلاه وهو الذي يكتسب بالتدرج خصال الكائنات التي تماثله مضافا إليها خصاله وفيه بذور المحبة والرحمة كما قيل في « اخوان الصفاء » : —

« منذ ستة أجيال قبل الميلاد ظهر (بوذا أوجوطامي) فأوصى بالشفقة والمحبة والرحمة والعطف على كافة الكائنات الحية ، ولما ظهر دين المسيح عليه السلام أوصى بالرحمة والشفقة وحب النوع الإنساني ، وكذلك الاسلام منع القتال في الأشهر الحرم وحرم الصيد في الحرم وقتل المحتمى به ، وأجهلوا أن يقولوا للناس : ارحموا ترجموا ، واعلموا أن للحيوان ادراكا وشعورا ، وأنه يتألم كما تتألمون ، ويشعر كما تشعرون ، فياكم أن تؤذوه ، وهناك أبناء كثيرة مأثورة عن علماء الانسانية كالحكيم سولون وسقراط وأبيقور والبارون هولباغ دلامتري وهافيتيوس ولكنهم لم يقروا على كبح جماح جهل واستبداد الإنسان . وهاهي طريقة (داروين) خطت خطوة للوراء وهكسلى أوضح أن لا فرق بين أدنى الإنسان وأعلى الحيوان إلا كما بين الحيوانات العليا والدنيا ، بل المسافة في آخرها أوسع مما في أولها ، فظنوا أنهم وجدوا كنزا وأن الإنسان الجاهل في مستوى الحيوان ، وأنه يجوز للأمم القوية احتضام حقوق الأمم الضعيفة باعتبار أنهم أدنى منهم مقاما وانهم ما خلقوا إلا ليكونوا لهم خادمين وعبيدا مسخرين ، وختم الكتاب بخطاب حماسي للعالم حتى يتخلص الناس من قيود الاستبداد والاستعباد ، ويتنسوا رائحة الحرية التي سنتها لهم الطبيعة البشرية .

هذا كتاب الشيخ طنطاوي الذي أردنا أن نوسع له في مجلتنا ، وماهى بالعادة المتبعة لديها ، لأن ذلك الكتاب من الصحف العظيمة الدالة في الوقت الحاضر على مبلغ أفكار وشعور الطبقة الراقية الاسلامية ، وليس لنا عليه ملاحظة إلا تجاهله بالنوق التاريخي وما يحدث عن العمل برأيه من اضطراب الأمم وارتباك الشعوب ، وما يصادفه القراء من صعوبة حل نظرياته ، ومن البديهي كما قال المؤلف انه لا يمكن في أقل من عشر سنوات (ان أمكن) وضع أساس اصلاح اجتماعي عظيم مثل هذا ، وذلك بواسطة جمع أعقل رجال العالم فيعملون بالكتب والرسائل لتعليم الأمم ما هو الحب العام ، وينشرون تلك المبادئ السامية بالمدارس ويلاحظون تطبيقها ، ولكن مع ذلك ومع اعترافنا باخلاص المؤلف وعلو مقاصده في هذا الكتاب مع فصاحته وبلاغته وتفوق معارفه التي يندر وجودها في الكتاب واتساع دائرة فكره لا يسعنا إلا الدهش من عدم مراعاته ذوق

الأمم التي حوله ، وتسلسل تاريخها وهو ما لما أشارت إليه جرائدنا في العصر الحاضر » انتهى مقاله الاستاذ سانتلانه الطلياني عن كتابي « أين الانسان » والحمد لله رب العالمين .

\*\*\*

وهذا مقاله الاستاذ البارون « كراديفو » وكلامه في « أين الانسان » وفي التفسير ، وهذا كانت نشرته جريدة الاهرام في أواخر سنة ١٩٣٩ وقد ابتدأ بالتفسير وختم بكتاب أين الانسان ، فذكرناهما معا لتفشرح صدور أهل العلم في الاسلام ، وليعلموا أن ديننا روح العالم الانساني ، وليشجعهم على العلم والنشر ، وهالك ما قال : -

(١) « مصر الحديثة ، روح الديانة المصرية ، جامعة الأزهر ، الشيخ محمد عبده » .

(٢) « النهضة الاسلامية للشيخ طنطاوي جوهرى » .

(٣) « نشأة مصر الحديثة في عهد محمد علي باشا » .

واننا سندين الثلاث مظاهر الرئيسية لتطور مصر الحديث وهي : -

(١) الميل الشديد الذي أظهره محمد علي باشا ورفاقه بك إلى التقدم والالتفات إلى معارف ومواهب أهل أوروبا .

(٢) العناية التي أظهرها رسلان من رجال الدين ، وهم الشيخ محمد عبده ، والشيخ طنطاوي جوهرى في تمثيل الدين الاسلامي وتأثيره في النفوس للنهوض بها إلى التطور الحديث .

(٣) الوطنية الحديثة الوهاجة التي مثلها خير تمثيل كل من مصطفى كامل وسعد زغلول .

وهذا ما كتبه المؤلف فيما بين صفحة ٣٧٥ وصفحة ٣٨٤ في الجزء الخامس من كتاب أين الانسان بعد أن قرّظ الاستاذ تفسيره للقرآن الشريف أحسن تقرّظ : وقد تقدّم ذلك التقرّظ في أول المجلد السابع عشر من هذا التفسير فلا نعيد هنا ، وقال بعد ذلك مانصه : -

« وقد نشر الشيخ طنطاوي كتاب « أين الانسان » المطبوع سنة ١٩١١ الذي قرّظه الاستاذ سانتلانه الطلياني الكبير في المجلة الشرقية بروما لصفحتها الرابعة ، والاستاذ كتب أخرى مثل : « نظام العالم والأمم » و « نهضة الأمة وحياتها » ، وكتاب « أين الانسان » هذا وضعه المؤلف بهيئة رواية فلسفية سياسية ، فهو في هذا يشبه الفارابي من حيث أصل الفكرة ، وابن طفيل من حيث الاسلوب والمنهج ، فجمع بين دقة الفكر وجمال الاسلوب وغيرهما .

« الاستاذ في هذا الاسلوب يذكرنا بأساليب علمائنا وأدبائنا في أوروبا مثل توماس موروس وكامبانيالا ومعارضنا هانوبتر .

« وصف الاستاذ الجمعية الانسانية وصفا لا يشرفها بالكمال ، بل أظهر نقائصها ، وأبان سوء أفعالها ، وأخذ يسدى نصائح ، ويبدى حججا ، لالتئام الأمم ، واتحاد الدول ، بل يطلب ما فوق ذلك ، وهو الحب والاخلاص العام والمثل الأعلى في ذلك : ويتمنى ( كما عني الفارابي ) أن تكون الدول جميعها مؤسسة نظامها على الحب العام وتبادل المنافع : ولكن دولنا الآن في الأمم الأرضية وان كانت ارتقت ارتقاء ماديا لم يؤسس ببنائها إلا على تبادل الحرب ، وتخريب المدن ، وقعة السلاح ، فأما تلك الأفكار اللذيذة والمحبة العامة فهي مغلوب عليها ، إن الأساس الذي بنت عليه الدول الآن هو ماسطره ( داروين ) الانجليزى ، وقفى على آثاره ( نيتشيه ) الألماني من إبادة الضعفاء وضلبة الأقوياء . إن المؤلف خيالا ساميا غزير المعنى واسعا ، فانه بينما كان ينظر إلى السماء في ليلة من ليالى ربيع سنة ١٩١٠ م وهو يبحث في مذنب هالى الذي يرجع مرة بعد أخرى ، أخذ يقول : يا ليت شعري : اذا كانت هذه السماء الصافية بهجة النجوم منظمة فهل فيها سكان ؟ وهل

سكامها مثنا في الظلم والقتال ؟ أم هم في هناء وعدل كما نرى في نظم السموات ، وبينما هو مستغرق في تأملاته إذ وافته روح مشرفة النور ، بهية الطلعة ، في هيئة شاب جيل حسن الشكل ، فأخذت هذه الروح تناقشه ثم اقترحت عليه أن يجول معها جولة في السموات العلاء ، فلبى طلبها بشوق عظيم ، وهذه الفكرة الخيالية تذكرنا بأحلام : باستر سيدول سويدنبرج

إلى أن قال : « ومن عجب أن المؤلف طبع هذا الكتاب سنة ١٩١٠ وتنبأ فيه بطريق حكيمى شعوى بما جرى بعد ذلك بأربع سنين وهو الحرب الكبرى . إن مقصود هذا الكتاب كله وما فيه من المحاورات التصويرية هو نشر التعليم العام ، والحب بين الشعوب والأمم بحيث يترجم بغاياتهم وأشعارهم وموسيقاهم حتى يكون ذلك إلهاما للأطفال في أول حياتهم ، وأن يكونوا محبين لجميع الأمم ، كارهين للعرب ، ناظرين لجمال الطبيعة ، محترمين الجمعية الانسانية أى احترام .

هذا الكتاب بما فيه من جمال العلم والحكمة يبعث في الشيوخ نشوة الشبان ، ويبعث في النفوس الانسانية غراما وولوعا ، ويقلب الطبائع الانسانية بما فيه من السحر الخلال ، وهو يدعو الأمم كلها أن تكون أسرة واحدة ، تامة النظام ، ويهيئ الأطفال في الأمم كلها أن يكونوا على نسق الأمم التي زارها والنصيحة التي سمعها من أوثاك العلماء .

فقل هذا الكتاب المملوء بحكمة وعلم ، الفزير المادّة ، السامى الفكرة ، الناتج من تفكير عميق ، وبحث يقل نظيره يدعو دعوة حارة إلى سعادة الأمم أجمعين ، ويدعو أيضا بالجماسة الشديدة إلى التجديد العام ، وهو مفخرة لمصر والاسلام . وقد قدم هذا السفر الجليل إلى مؤتمر الأجناس المنعقد في لندن في شهرى يوليو وأغسطس سنة ١٩١١ م » انتهى كلامه .

### بهجة المناظر الخيالية ، وآثارها العلمية

في سرّ قوله تعالى : « إن الله عليم خبير »

في ليلة الثلاثاء ٢٥ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية الموافق أول فبراير سنة ١٩٣٢ م بينما أنا بين اليقظة والنوم إذ خيل لى كأن فى الجوّ رجالا ولكنى لأرى أشخاصهم ، وهم يتسامرون ، وهذا ماوعيت من حديثهم . قال أحدهم : حدثنى رعاك الله ، لم يقول الله تعالى فى آية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . عليم خبير ! مع أن العلم والخبر مترادفان ، فقال الآخر : إن كمال العلم الاحاطة بكل شىء ، ظاهره وباطنه ، دقيقه وجليله ، وأوله وآخره ، وهذا على أنهم الوضوح والكشف على أنهم ما يمكن فيه . بحيث لا يتصور مشاهدة كشف أظهر منه ثم لا يكون مستفادا من المعلومات بل تكون المعلومات مستفادة منه ، فأما الخبير فهو الذى لا تعرب عنه الأخبار الباطنة ، ولا يجرى فى الملك والملكويت شىء ، ولا تتحرك ذرّة ، ولا تسكن ، ولا تضطرب نفس ، ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبر .

فلما سمعت ذلك ، قلت فى نفسى : هذا هو الترادف بعينه ، فأين الجواب ؟ وهناك جاشت نفسى وهى لا تزال فى حال تشبه حال النوم ، وأخذت تسأل نفس السؤال وهو أنهما مترادفان ، فما كاد الخاطر يخطر لى بذلك حتى سمعته يقول له : إن معنى العليم هو معنى الخبير ، ولكن هناك فرق ، لأن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة وسمى صاحبها خبيرا فهو أشبه بذكر الخاص بعد العام ، فهناك زاد اضطراب نفسى وقلت فى نفسى : يا سبحان الله ، ولم ذكر هذا الخاص ؟ ألنكتة العلم لا المنفعة للمسلمين ذكر هذا الاسم هنا ،

فياليت شعري هذه الآية مذكورة في أصل نظام السولة الإسلامية ، وظاهرها يقتضي أن الناس جميعا قد أوردوا فيبقى تسارفعهم ، وأرقاهم هم الذين اتقوا ، وهم الذين يذكرون ربهم فلا ينسونه ، وإطيعونه فلا يعصونه ، وما كاد الخاطر يتم حتى سمعته يقول له : إن هذا سر قول علماء من طائفة الحديث ، أن الجرح مقدم على التهديل ، وهناك استيقظت وأنا في دهش من هذا المثال ! أولا هو يوافق ما أنا بصددده ، ولكن الفائدة لم تتم ، فرجعت إلى معنى « عليم خبير » في كتاب شرح أسماء الله الحسنى للغزالي رحمه الله ، فوجدت هذه المعاني بنصها وفصها ، فلم يبق علي إلا أن أفهم ما المقصود من الجرح والتعديل ؟ وما نتائجها هنا في نظام الدول والممالك ؟ وهنا توجرت لبديع السكائنات ، وهو الذي علم تلك الأرواح العالية ، فأنا منه أقنيس المعرفة وهو معلم الأولين والآخرين ، ففتح علي وتذكرت ما ذكره ابن خلدون في المهدي المنتظر ، وتقدم ذلك في أول ﴿ سورة الحج ﴾ فقد ذكرت هناك أن ابن خلدون رحمه الله نقل جميع أحاديث المهدي ، وأن في بعض رواياتها طعنا ، وإذا كان في الراوي تعديل وجرح فالجرح مقدم ، وعلى ذلك تكون أحاديث المهدي فيها ما فيها ، ومهذه الأحاديث قامت شيع في الإسلام ودول ، ولكنها عفت آثارها ، ومن آثار هذه الأمم حسن بن الصباح الذي تقدم ذكره في ﴿ سورة الكهف ﴾ عند آية : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » وكيف أصرا أتباعه بشرب الخشيش حتى سماهم المؤرخون شحاشين ، وكيف ظهر لهم بهيئة مقدس معصوم ؟ وكيف اتقادوا له ، وكيف يكون الدرس الذي ألقاه على أتباعه في القرن الخامس الهجري هو نفسه الذي تلقاه محمد بن تومرت وهو معاصر للغزالي ( الذي يقال أنه لاقاه ) بعده حذوا القذة بالقذة ، فالأول كان في قمة الموت بنامية أصهار ، والثاني بالقرب الأقصى ببلاد السوس ، وكل منهما ترفع وتعالى على أتباعه ، واعتقدوا فيه العصمة ، وكلاهما أمر فأطيع ، ومنعنا الناس العلم ، واستند كل منهما إلى أحاديث المهدي .

### محادثات في أصل المهدي ومما سمعته لاسم الخبير المذكور في الآية ؟

وبيان أن سر القرآن يذكر هذه الأسماء قد ظهر الآن ، وأن المسلمين في مستقبل الزمان سينتفحون بهذه المعاني الجميلة البديعة

حضر صديق العالم الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير . فقال : هذا مقام غريب ، الآية جاءت لهدم التفاضل بين الناس إلا بالتقوى ، ولكن الخبرة إلى الآن لم يظهر المقصود منها ؟ ذكرت المهدي ابن تومرت وذ كرت حسن بن الصباح ، ولكن لم تظهر المناسبة القائمة بين هذا التاريخ وبين الآية ؟ فقلت يا صاح : أذكرك بأن الأحاديث الكثيرة التي وردت في المهدي جعلت أصره موكولا إلى النسب ، وهؤلاء بتلك الأحاديث مع ماضيه إليها من الأغراء والتحذير قد رفعوا أنفسهم فوق الأمم ، فاستكان المسلمون أي استكانة ، وخضعوا ، وتركوا العلوم بأصهرهم ، وحقرها ، ولا تزال آثار تلك الظلمات إلى الآن .

اللهم أنقذ المسلمين من ذلمهم وأسارهم ، اللهم أنجز وعدك الذي وعدت أن تكون خير أمة أخرجت للناس اللهم أنت الملهم المعلم ، فأنقذ أمتنا من الجهالة العمياء . فقال : أي جهالة تريد ؟ فقلت : ألم تعلم مامرا سابقا في هذه السورة وما قبلها من أخبار العباسيين والأمويين ، وأن العباسيين قاموا باسم المهديين ، وأن الأرض تملأ عدلا ونورا بعد ما ملئت ظلما وجورا ، هل برؤا بوعدهم الأمة ؟ ألم يقتل السفاح رجالات من الأمويين كانوا في ضيافته ؟ ألم ينبشوا القبور ؟ وإذا كان العباسيون هم الذين جاء الحديث بأنهم يملئون الأرض عدلا ونورا ، مخلصين المسلمين من ظلم الأمويين الذين أهانوا آل البيت ، وظلموهم ، وظلموا المسلمين ، فكيف يقدون الأمويين في العسف والجور ويؤيدون عليهم حتى أن محمد بن عبد الله الحسني الذي كانت له البيعة الصحيحة كما تقدم قريبا بكى على أيامهم ، فأين العدل ، وأين النور ؟ وأين المهديونية التي جى بها



للمسلمين ؟ أليس ذلك لاستكانة النفوس ، وتقديم التعديل على الجرح . وجعل النسب في الذروة العليا ، وعدم الاكتراث بالتقوى ، ولا الفضائل الانسانية التي جاء بها نص الآية هنا ، وهي التي يفهمها تقام الرسول وبجملها تذل ، جهلت الأم الإسلامية آيات القرآن الصريحة ، هاهنا القرآن يقول على رموس الأشهاد ، ان الفضل بالتقوى ، وهاهي ذه قصة طالوت ﴿ في البقرة ﴾ ضربت الذكر صفحا عن النسب ، وجعلت الملك تابعا للعلم والقوة ، إذن جعل المهدي تبعا للنسب من أكبر مصائب الاسلام ، لأن هذه العقيدة أخذت تتعالى بين الناس ، وأخذ الدجل والبهتان والكذب الصراح ينتشر بين المسلمين ، وأخذ أولئك الرؤساء يشنون الجهالة بين أمم الاسلام ، ويرجعون المروسين إليهم انكالا عليهم واستعاذة بهم غالبا ، وقد تقدم هذا واضحاً في آخر ﴿ سورة ابراهيم ﴾ عند ذكر أعما عمزون بالهند ، وفي ﴿ سورة الكهف ﴾ كما تقدم ، وفي ﴿ سورة الشعراء ﴾ عند آية السحر ، وفي ﴿ سورة سبأ ﴾ عند آية الرؤساء والمروسين ، وفي مواضع أخرى فلا نفيده هنا ، وهذا كله إنما جاء من عدم البحث في تاريخ المسلمين وأحوالهم حتى يستبينوا آثار التقليد الذي هدد مجد أمتنا الشاخ ، أنا لست أنكر فضائل بعض المهديين في الاسلام ، ولست أنكر اني تعلمت في الأزهر الشريف الذي هو ثمرة من ثمرات المعز لدين الله الفاطمي ، ولست أنكر أن هؤلاء أفادوا المسلمين ، ولكن المفنة إنما جاءت بسبب العقول الكبيرة المودعة في هؤلاء كالمالك الذي أقامه محمد بن تومرت وأحاطه بالأحوال المستعبدة للشعب ، فبقى الملك أمدا ثم ذهب وهكذا الفاطميون ، ولقد عاش المسلمون زمنا ليس بالقصير قررونا وقرونا وهم يتفكرون ظلال الألفاظ ، فناموا عليها ، وعكفوا عكوبا أدنى للنوم العميق ، إن تعاليم المسلمين ومنهم أهل الأزهر الذين أنا منهم قد بقيت خاضعة لظواهر الألفاظ ، وتركت جمال الطبيعة ، وجمال النجوم ، وجمال العقول ، وجهاء الحكمة ، فطمست النفوس ، وخلفت العقول ، وانكلمشت الأمة في تلك القرون حتى وقتنا هذا .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : لقد طال الكلام فليكن الهجوم على الموضوع ، لأنني أريد العلاقة بين ذكر التعاليم الخبير ، وبين ذكر تاريخ المهديين الذي ذكرته هنا ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ أريد ماهو السر في ذلك ، وما علاقة هذه الأسماء الحسنی بهذا التاريخ ؟ وبمنظام أمم الاسلام ، فأرجو أولاً ذكر حديث واحد من الاحاديث وان كان قد تقدم في ﴿ سورة الحج ﴾ لندرس الجرح والتعديل فيه . ثانيا : اذكر نتيجة ذلك لبيان المقصود . فقلت : جاء في الجامع الصغير مانصه : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فاتبعوهم فإن فيهم ولي الله المهدي » (حم ك عن ثوبان) . وقال الشارح : اسمه محمد بن عبدالله يأتي قبيل عيسى أومعه ، وقد ملئت الأرض ظمنا وجورا فيملؤها قسطا وعدلا . وقال بعد ذلك : قال الشيخ حديث صحيح .

فقال : فاذا كر لي أولا ماهذه الرموز ؟ وما تلك الرموز التي تقدمت في تخریج احاديث الاحياء المتقدمة في هذه السورة فاني لا أعرفها ، وثانيا : اذا كان الحديث صحيحا فكيف نتجاوزه ونقول إن احاديث المهدي ضعيفة ؟ فقلت : الجواب عن الأول ان الرموز تبليغ ، قال فأرجو بيانها . فقلت ها هي ذه :

(خ) البخاري .	(ن) النسائي .
(م) مسلم .	(هـ) لابن ماجه .
(ق) قهما .	(ع) هؤلاء الأربعة .
(د) لأبي داود .	(س) لهم إلا ابن ماجه .
(ت) الترمذي .	(حم) لأحمد في مسنده .

(عم) لابنه عبدالله في زوائده أي زوائده مسند أبيه  
(ك) لاهماكم .  
(خد) للبغدادى في الأدب .  
(خج) له في التاريخ .  
(حب) لابن حبان في صحيحه .  
(طب) للطبراني سليمان الأحمى في الكبير .  
(طس) له في الأوسط .  
(طص) له في الصغير .  
(ص) لسعيد بن منصور .  
(ش) لابن أبي شيبة .

(عب) لعبد الرزاق في الجامع .  
(ع) لأبي يعلى في مسنده .  
(قط) للدارقطني .  
(فر) للديلمي في مسند الفردوس .  
(حل) لأبي نعيم في الحلية .  
(هب) للبيهقي في شهاب الإيمان .  
(هق) له في السنن .  
(عد) لابن عدى في الكامل .  
(عق) للعقيلي في الضعفاء .  
(خط) للخطيب أحمد بن على .

الجواب عن الثاني : وهو قول شارح الجامع الصغير ان الحديث صحيح فأنا أذكره بما تقدم ، وهو أن الجرح مقدم على التعديل ، أنسيتها ؟ قال نعم هو صحيح قلت ولكن غيره يقول ههنا جرح لبعض الرواة . قال : فأرجو ذكر نتيجة الموضوع بتمامه مختصرا . فقلت : بسم الله الرحمن الرحيم « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » . إن الله علم قبل أن يخلق السموات والأرض أن المسلمين ستشتت غفلتهم وينامون نوما عميقا ، ويقلد الأبناء الآباء واللاميد الشيوخ ، بلا علم ولا هدى ، ولا كتاب منير ، فأنزل هذه الآية ، وجعل المدار في الفضل على التقوى ، وعلم أن أمما وأمما سيجهلون أمم الاسلام تبع أناس بأحوال خاصة ، ولا يجهلون المدار على صلاحيتهم للحكم ، فقال إماما أنزلت هذه الآية ، لأنى أخبر بواطن طباعكم ، ومن بواطنها انها تريد الاثرة والرفعة ، واستعباد الناس باسم النسب لا بالتقوى ، فجعلت التقوى هي الأصل لاني التفضل على الناس ، والحيب النسب قد يكون جاهلا أوفاسقا ، فيفضل الناس ويتخذهم خولا ، ولذلك فصل رسولى لكم ذلك بأن أمر بلالا أن يؤذن في السكبة بحضور أشرف قريش تطبيقا على معنى الآية ، فذكر خير هنا اتضح في أيامنا هذه ، لأن بواطن الأمم لم تكن معروفة قبل وجودها ، والله يعلمها قبل خلق العالم فأنزل هذه الآية ، وهذان محاسن أسماء الله الحسنى ، والسر كل السر في تلك الأسماء وهى أسماء الله وهذا هو حسنها حسنها هو جمال العلوم وجمال الوجود ، فجمال العلوم هنا ظهر في الخبرة المأخوذة من معنى خير ، لأن اختبارنا لتاريخ أمم الاسلام عرفنا أن هذا المهدي الذي جاء به الحديث المتقدم هو السفاح ، والسفاح قد تقدم تاريخه وكفى بافظه دليلا .

نقال صديقي : ولكن ذلك سيكون يوم القيامة . فقلت : هذا الحديث ينطبق عليه فان الرايات السود التي جاءت من قبل خراسان هي التي كانت مع أبي مسلم الخراساني ، وهو الذي قام بها من خراسان لنصرة بني العباس ، وقد عرفت تاريخه فيما تقدم في نفس السورة ، فهو تاريخ ملطخ بالدماء ، فقد قتل من المسلمين على مامر بك . ١٠٠ ألف مسلم غدرا بأمر ابراهيم الامام ، وهو أخو السفاح ، إذن هذه المهدوية بنيت على سفك الدماء . فقال : وما المانع من أن يكون المهدي يخرج في آخر الزمان ، وتقوم رايته السود من خراسان فقلت : إذن يكون معنى هذا اننا نعيش بلا عقول ، القرينة ظاهرة واضحة ، إن تلك الأحاديث جاءت لأجل هؤلاء ، ولماذا لا يأتي المهدي في آخر الزمان إلا من نفس هذا المكان وتكون رايته سودا ؟ ثم ما هذا المهدي الذي يأتي بالسيف ؟ .

الله أكبر : إن العلوم كلها كفروع شجرة واحدة ، فدراسة الحديث من غير مراعاة العلوم الأخرى معناه

الجهل والفظة ، وعدم الفطنة والموت . فقال : وما تقول في قول الشارح : ان اسمه محمد بن عبد الله ، سامنا أن الجرح هنا مقدم على التعديل ، وأن التاريخ أبداً ذلك ولكن لم ذكر أن اسمه كذلك ؟ فقلت : بينما كان العباسيون تخفق راياتهم السود في خراسان كما تقدم آنفاً ، وكان هذا الحديث يفسر بين المسلمين كانت تفسر أحاديث أخرى مثل حديث : « يخرج رجل من بيتي اسمه على اسمي واسم أبيه على اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً » .

وعبد الله هذا من ذرية الحسن ، وابنه هو النفس الزكية المتقدم في تفسير هذه السورة ، وهو الذي قتله المنصور فيما بعد ، وقد كانت له البيعة الصحيحة ، وأفنى به أبو حنيفة ومالك ، فاضطهدهما المنصور . هذا معنى كلام الشارح ، وحرام على أن أعرف هذا ولا أبيه للمسلمين بعدنا ، لأن عزل التاريخ وبقية السلام عن القرآن والحديث أضرت أشد الضرر بأمنا الإسلامية العزيزة على ، وهي التي قال الله فيها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » . فقال : لقد ظهر سر اسم الخبير في هذه الآية ، وظهر اشراق نور اسم من أسماء الله في علم سياسة الأمم الإسلامية ، فهل تسمح بقول تلقيه مختصراً فيما تؤمله لأمة الإسلام من أمثال هذا المقال ؟ فقلت : ان أرجى ما أرجوه لأمة الإسلام انهم بقراءة أمثال هذا التفسير سيكون فيهم محققون عظماء حكماء ، لا يشق لهم غبار ، ذلك انه قد اتضح الآن أن دين الإسلام ليس هو ذلك الدين الذي يمش على الألفاظ ويعلق عليها أهمية الحياة وحدها . كلا . إن هذا التفسير وما كتبتة قبله قد كشف السار عن هذه الناحية ، وقد فهم المسلمون فعلاً وعملوا ، ودفنت الجهالة في قبرها ، ورلد في الإسلام جيل جديد فعلاً ، بل المسلمون كلهم تأثروا بالفكرة ، فلارجمة للجهالة بعد اليوم ، وأما اليوم سعيد بأبناء بلاد الإسلام . والآن أقول ﴿ كلمتين اثنتين ﴾ بشارة لشبان المسلمين : الكلمة الأولى ما كتبتة في ﴿ سورة البقرة ﴾ من نبأ لم أوضحه إذ ذاك ، ولكني أوضحه الآن : وذلك أن ثلاثة من الشبان المصريين تلاميذي بالمدرسة الخديوية توجهوا إلى فرنسا ليتدبروا علم الحقوق ، هناك كفلهم وراقبهم الاستاذ (لمير) . ذلك ان دناوب (الذي كان أيام احتلال الانجليز مصر قابضاً بيد من حديد على التعليم بها ، منع الشبان في التعليم الثانوي من كل ما يرقى أفكارهم) لم يسر من اعتراض (لمير) الفرنسي المذكور على التعليم الثانوي لقصوره وتقصيره ، فليس بعد التلاميذ لدراسة الحقوق التي كان يرأسها الفرنسي المذكور بمصر دراسة صحيحة ، فلذلك رفته من الوظيفة ، فرجع إلى فرنسا ، وصار يستقبل تلاميذ المصريين ويعطف عليهم .

فلما رجع هؤلاء التلاميذ زاروني وأخبرني واحد منهم قائلاً : اننا نحن الثلاثة كننا نجتمع الأزهار من الحديقة ، فدعانا الاستاذ (لمير) وقال : لقد لاحظت فيكم أسراً لم أره في اخوانكم المصريين ، ذلك انكم تحبون الزهر ، فما السبب ؟ قال : فأجبنا اننا كنا سنة ١٩٠٧ م نتعلم اللغة العربية والمعلم الشيخ طنطاوي جوهرى ، وكان في دروس الانشاء يحببنا في الطبيعة ، ويجعل نفوسنا في شدة الشوق إليها . فقال : أفى مصر هذا ؟ فقالوا نعم . فقال : إذا وجد في مصر رجل مثل هذا فاماداً جئتم فرنسا ؟ ليفتح كلية ، وليعلم هو وأمثاله في نفس مصر فانها ترتقي سريعاً .

فلما سمعت هذا من أحد الثلاثة لم يتصوره عقلي ، فنظرت إلى الآخرين بدون أن أتكلم ، فكانت جوابهما : ان الكلام كان بحضورنا : هذه هي كلمتي الأولى .

### كلمتي الثانية

سترى أيها الأخ الذكي في أول ﴿ سورة الحديد ﴾ عند معنى : « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » مهوراً رأى (ستانلى هول) وهو كبرعلاء النفس في أمريكا ورئيس إحدى جامعاتها

وما يخدم كتابه في ذلك أن شرط النجاح ثمانية أشياء : ومن هذه الثمانية حب الطبيعة ، وقال : يجب على الناس أن يكثر من اشئ في الحقول لرؤية أحسن المناظر ، ثم قال : وخير الوطنية ما كانت نابعة من الحقول ومنها ترقية المواطنين ، ومنها الصحة ، ومنها كشف ما فيها من اقوى السكامة ، ففي كل منا قوة كامنة ، وهذه لابد من استخراجها ، واظهار ما فيها من العجائب ، ولا جرم أن قرأ هذا التفسير وأمله سيحبون الطبيعة حباً جماً ، وسيكون فيهم حكماء لا نظير لهم في الأمم لأنهم في حال حبهم الطبيعة يؤدّون درسا دينيا ، فهنا اتحد الدين والعقل ، وسيزول الدجل والتبليس من أُمم الاسلام بسر اسمه الخبير الذي ظهر في هذا المقام وسينبغ في الاسلام خبراء بالعلوم باشراف هذا الاسم ، وتظهر محاسن الوجود المقتبسة من حسن أسماء الله ، وإليها الإشارة بآية : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » وهذه الأمة هي الأمة الاسلامية كما تقدّم في تفسيرها فما المناسبة بين ذكر الأسماء الحسنى وبين كون الأمة الاسلامية أمة تهدي بالحق وبه تعدل ؟ لولا أن جلال أسماء الله الحسنى الذي أشرق اليوم فعلا على أُمم الاسلام قد ابتداء يكشف لهم الحقائق التي كانت مستورة ، وقد ظهرت لهم نفس العجائب الإلهية في المخلوقات ، وصارت أهمّ مافي دين الاسلام ، وهذا هو الوعد الذي وعده الله ، فقال : « ليظهره على الدين كله » وقال : « سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » .

هذه هي الهداية المستقاة من أسماء الله الحسنى ، ومن محاسن المخلوقات المشرقات التي يراها الناس صباحا ومساء وكانوا عنها غافلين ، إن الله تجلّى للناس اليوم بالعرفان ، وذلك كله سر قوله : « إن الله عليم خبير » والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الاربعاء ٢٦ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية : الساعة الثانية بعد الظهر .

### بهجة هذا المقال

### وحكم فيها وصحة وجال

في يوم ٢٢ رمضان سنة ١٣٥٠ هـ بعد العصر حضر صاحبي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال : لقد كنت أراك أمس وأنت تكتب هذه المقالة تتقد حساسة ، فإذا خطر لك بعد ذلك فحدثني به ؟ فقلت يا أخي كأنك تعلم الغيب ، انني بعد أن انتهيت من كتابة المقالة السابقة انتحيت جانبا وخلعت ملابسي ساترا العورة ، جالسا في الشمس ، عملا بما كتبت ، واستجلبا للصحة ، إذ تقدّم في أوّل ﴿ سورة يونس ﴾ عند آية : « هو الذي جعل الشمس ضياء » مقال لبعض الأطباء على الشمس من حيث إفادتها للصحة إذا وقعت أشعتها على نفس الجسم بشروط خاصة ، فها أنا ذا أمس عملت بما علمت كما فعلت مرارا ، ولم أكّد لأجلس فيها وأضواء الشمس تحيط بجسمي حتى أخذت أفكر في هذا الانسان المسكين المحبوس ، هذا الانسان الذي قتلت عاداته ، اكتمى بالملابس ، ترفا وتنعم وتجملا ، فأصبحت الملابس حلا ثقيلا ، وذلا وبلا ، وشرّا مستطيرا ، وأخذت أقول : يا الله ، يارب السماء ، يا حكم ، يا عدل ، يا حلیم ، أنا أستعيز بك من الذل ، ومن الجهل ، ومن سوء المنقلب ، يارباه قرأنا أسماء الله الحسنى فظننا أن اللفظ هو المقصود ، فأخذ علماءنا منا يحسبوننا بالجل ، وأخذوا يتلون لقضاء الحاجات ، وألف فيها البونى [شمس المعارف الكبرى] كأن هذه الأسماء نزلت من السماء لأجل السحر ، لا لأجل ارتقاء الأمم ﴿ وبعبارة أطف ﴾ لأجل قضاء الحوائج ، وقرأنا القرآن فاكتمينا بالقشور ، ونبدنا الحقائق ، ونسينا انه يجعل الفضل للفقير لا للثني ، فوقعنا في ذل وحيرة ، وجهل مشين ، حبس النوع الانساني في عاداته من حيث الملابس والأغذية ، وحبس المسلمون في اعتقادات أذلتهم دهورا ودهورا .



## تشابهت الأمم في أحوالها

هاهي ذه الانجليز في الهند اليوم في أثناء كتابة هذه المقالة تذيب الوطنيون العذاب لامتناعهم عن شراء الملابس ، لماذا ؟ لأن عمالهم يصنعونها ويبيعونها هؤلاء ، جهل والله يارب هذا الانسان الجهول ، صنع فريق من الانسان الملابس ، لماذا ؟ ليجعلها ترفا وتنعما لفريق آخر ، ليعيش من كد يده ، تيقظ هذا الفريق اليوم ، فقال : أيها الأخ : أنا لا ألبس ، لأن هذه الملابس سجون ، وذل لا عز ، لأن العلم اليوم يحدثنا أن هذه الملابس ليست ضرورية ، فقليلها يعني ، بل تعرض الجسم للشمس يزيد قوة وتانة فنعجن كنا جاهلين ، فيقول الفريق الأول : لا بد أن تلبس ، وها أناذا أضربك بقنابلي ، وعسى أن أزيد هذا المقام بيانا في ﴿ سورة الممتحنة ﴾ عند قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » وأن نبين تحريم شراء البضائع التي يصنعها من يؤذي المسلمين من الدول الحاضرة وأسأل الله التوفيق لذلك .

أف هذه الانسانية العمياء ، ومثل هذه الملابس ينطبق على عكوف المسلمين على الدراسة اللفظية ، فاكثفوا باللفظ ونسوا المعنى ، نسوا جمال النجوم ، جمال البحار ، جمال الشجر ، جمال الزهر والحقل والغابات .

فليقف المسلم في الحقل ، وليقف في الجبل ، وليقف في ظلام الليل ينظر النجوم ، فليقف وليقف ، فهناك هناك تجلى ، ثم تجلى له معاني هذا الوجود ، يقف أمام عجائب ربه في هذه الدنيا حتى يستعد للقاءه بعد الموت ، فهناك تبرز له معاني كتاب الله ، هناك تبرز له معاني أسماء الله الحسنى ، أي يعرف السر في وصفها بأنها حسنى ، وكيف كانت حسنى ؟ وكيف يصفها الله بالحسنى ، لماذا ولماذا ؟ إذن يكون المسلم في فهمه إذ ذاك بعقله مثله كمثل جسمي وهو عار مقابل لأضواء الشمس مباشرة ، فتسكون صحته أتم ، وتهتل الحيوانات الذرية المهلكة للانسان ، وتعتدل دورة الدم ، إن مثل المسلم في تلك الأحوال السابقة من حيث العلم والمعرفة كمثل جسمي والشمس تشرق عليه .

سيتعلم المسلمون بعدنا من نفس عجائب صنع ربهم ، فيعطيهم من العلم ما لا يحصر على حسب استعداد كل امرئ ، وبهذا وحده نزول تلك التوجيهات القديمة ، والرؤساء الخادعون ، والدعاوى الطويلة العريضة ، وتكون الدراسة موجهة للحقائق لا مجرد الألفاظ ، ويخرج النوع الانساني من الفرام بأصنام مشخصة مزينة ومن الفرام بأشخاص خاوية نفوسهم إلا من الایهام والدجل ، ومن الاكتفاء بالكتب المصنفة .

إن الناس يخضعون لما هو جليل ، فأصنام قدماء المصريين ، وعجولهم المنطة ، وملوكهم ، كل هؤلاء صر ينون خير زينة ، وعلى منوال هؤلاء في التزيين والتضليل الأمم التي تفلك بغيرها في زماننا الحاضر المفتوح والاستعمار ، وقولهم : جئنا لاسعادكم ، فهؤلاء أصنام خاوية كأصنام قدماء المصريين ، وهكذا أكثر من ادعوا المهدوية في الاسلام ، وكثير من الشيوخ السجاليين ، وعلى شاكلتهم العادات المضروبة في نوع الانسان كالتباهي بالملابس التي بها استعبدت بلادنا المصرية بتدخل الأجنبي .

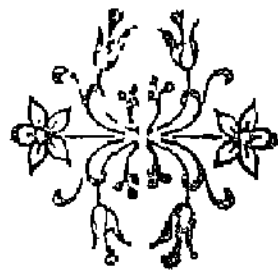
كل ذلك سيزول من بلاد الاسلام حينما يدرسون نفس الوجود ، ويفهمون الحسن الحقيقي فيه ، ويدركون سر وصف أسماء الله بالحسنى ، فالحسن الذي يجب فهمه لاسعاد الانسانية حسن هذه الأرض ، وهذه السماء ، هذا هو انكشاف الغطاء عن أعين المسلمين ، وقد آن أوانه ، وظل ابانه : من الآن ، من الآن ، فليبشر الأذلاء بالعز .

كل ذلك أيها الأخ حضر في نفسي عند ما جلست في الشمس ، لأنني لم أجد فرقا بين حبس نعمة ضوء

الشمس عن جسمي وبين مجلس العلم عن العقل بالوقوف عند الأماط ، أو بأوامر رئيس يقول : « العلم حجاب » أو بالاكتفاء بالكتب المصنفة إلى آخر ما تقدم هنا .

هذه هي الخطرات التي خطرت لي أمس وجسمي يتلقى أشعة شمس الشتاء ، وأنا معتقد في نفس الوقت أن هذه من نعمة العلم ، واني أودى واجبا ، لأن المؤلف اذا لم يعمل بما يكتبه لم يؤثر التأثير المطلوب ، فأنا والحمد لله في مطعمي ومشربي أجد في أن أعمل بأقوال الأطباء ، وهكذا وجدت في لساني ميلا إلى التكلم فيما لا ينهي فأنا أجد بقية حياتي في حفظه بقدر امكاني بعد ماسطرت الكلام على آفات اللسان قريبا ، وليس عليّ أن أنال كل مطلوب في مهما كبرت سني ، ولكن نفس الاجتهاد نعمة كبرى ، وان لم ينل الانسان الغاية . هذه حالي الآن أنشرها ذكري لمن بعدنا . فقال : إن هذا حسن ونشره يفيد بعض الأذكاء . فقلت : أنا موقن بذلك ، وعسى أن يزيد هذا المقام كشفا في أول ﴿ سورة الحديد ﴾ وفي آخر ﴿ سورة الحشر ﴾ والى هنا تم الكلام على ﴿ سورة الحجرات ﴾ والحمد لله رب العالمين .

( تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثاني والعشرون من كتاب « الجواهر » في تفسير القرآن الكريم ، ويليهِ الجزء الثالث والعشرون ، وأوله تفسير سورة : ق )



## ( الخطأ والصواب )

غلبنا التصحيح ففاننا سقط وأشياء أخرى يدركها القارئ بلاتنبية . وهذا جدول مما عثرنا عليه من ذلك وهاهوذا :

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥	٨	اعترف	اعترف	١٥٢	٥	أن يباعوا	أن يبايعوا
٧	٤	الفريية	والفريية	١٦٠	٢٤	الرابعة عشر	الرابعة عشرة
١٦	٦	والزموا	الزموا	١٧٤	١	وانه	وانهم
٢٠	٣	سخره	سخر به	١٧٧	٤	وقفنا	وقفنا
٢٠	٨	شفيع	شفيعا	١٨١	٢٣	الآتي	الحالي
٣٥	٢٧	المتروكين	متروكات	١٨٣	١٣	٤٩٢ ب م	١٤٩٢ ب م
٣٦	١	تهان	تهاون	١٨٣	٢٩	خامدة	خالدة
٣٦	٢٣	يتوضئون	يتوضئون	١٨٨	٥	وأكثرهم لم يعرفوها	أول أكثرهم لم يعرفوها
		ويصاون	ويصليان	١٨٩	٢٨	والمالك	والمالك فلا
٣٨	١٩	أقاموا بها	قاموا بها	١٨٩	٣١	ونسبنا	ونسبنا
٤١	١٢	دائرة لعلم	دائرة العلم	١٩٠	٢٧	فلم يستفسخ	فلم يستفسخ
٤٦	٤	الانساس	الانسان	١٩٣	٢٥	نعيش	نعيش
٤٦	٢٥	لحرب	حرب	١٩٦	٤	السياح	السياح على قراءته
٤٧	٦	مانسكاد	مانسكاد	١٩٨	١٠	ومجدنا	ومجدنا
٤٨	١٦	ضار	ضاراً	٢١٦	٤	طليق	طليق
٥٠	١٣	ذى	ذوى	٢١٦	٢٢	التفاصيح	التفاصيح
٥٧	٢	لميفاوية	لميفاوية	٢٢٠	١	على الكافرين	على الكافرين
٦٨	٣٢	النى أقسم	لما أقسم	٢٢٤	١٩	رئى	رئى
٧٠	١٧	منه القرطم	من القرطم	٢٢٤	٢٢	فها هذا	فها هذا
٧٣	٩	ونفس هذا	ونفس هذه	٢٣٦	٤	وروسو	وروسو
		السائل	المسائل	٢٣٦	١٩	وزر	وزر
٨٧	٢٢	المرسلين	المسلمين	٢٣٧	٥	فقد	فقد
١٣٧	٣٣	موجود	وجود	٢٣٨	٩	انهم	انهم
١٥١	٦	وقتلوا رجالهم	وقطعوا رءسهم				

( تم )

# فهرس

## الجزء الثاني والمشرين

### من كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم

صفحة	
٢	تفسير ﴿سورة الفتح﴾ مكتوبة مشككة بالحرف الكبير
٤	هذه السورة أربعة أقسام
٥	القسم الأول في تفسير البسملة ، وبيان أن رحمة الله عامة وسعت كل شيء ، وهي عامة وخاصة ، وهذه الأخيرة تختلف باختلاف الأشخاص ، ولقد كانت أمنيته في حال صفري أن أقف على الحقائق ، ولم أكن لأبالي بالصيت والعلو والعظمة ، دخلت (دار لعلوم) ودهشت لما رأيت علومها هي التي كنت أبحث عنها في الحقول من ذلك وطبيعة الخ وقد وصل انتهائي لنفسي انني كنت أظن أن نعمة الانشاء لا أستحقها ، وهنا حكاية المرحوم الشيخ محمد العالم ، ولما وظفت في الحكومة طالبت نفسي بمساعيدها وهو نشر العلم ، وهنا ألفت كتابا ، وحوادث الدهر تزجني فلم أعبأ بها ، ولقد انتشرت الكتب في جميع أقطار الاسلام شرقا وغربا ، حتى ان شابا من بلاد التركستان الصينية حضر هذه الأيام وقص قصصه في المحافل العامة ، وأنه كان في حيرة مثل سيرة المؤلف ، فأثقفه ، نها هذه الكتب مثل « نظام العالم والأمم » و « التاج الموضع » الخ ، ثم قال انه وصل إلى كابل ببلاد الأفغان فوجد الفكرة هناك منتشرة إن المؤلف هنا عرف رحمة الله الخاصة إذ نال أمنيته وهي انتشار الفكرة حتى في بلاد الصين وجميع الشرق الأقصى والأوسط ، وهذه هي الرحمة الخاصة التي لم يصل خبرها إلا في تفسير سورة الفتح وهذا عجب وهو يقول : انه ما كان ليخطر له وهو يبحث على شاطئ نهر أبي الأخضر في الصغر انه يشارك مساهمي الصين في تلك المباحث وهو حي .
٨	إن الحسين سنة الماضية كانت ذات صفة خاصة ، فاجتاز الناس أحوالا قديمة ، وارتقوا ، ونالوا سعادات بالمركبات المختلفة في الأرض وفي الجوّ الخ . إن سعادات المجموع الانساني ازدادت ولكن الأفراد لم ينالهم شيء من تلك السعادات ، فالناس أشبه بقطرات الماء في البحر الملح ، هي كثيرة ولكن القطرة فيه نظير القطرة في إباء في منازلنا ، ثم تكلم عن الحسين سنة الآتية فقال : إن الناس سيستعملون قوة المد والجزر ، وضوء الشمس ، وحرارة جوف الأرض في مصالحهم ، وستقوم الكهربية بأعمال مدهشة مع جهانا بحقيقتها ، وسيبري الناس الخطباء في أقطار بعيدة ، ويسمعون كلامهم . ويقول عالم آخر : إن هذه الآراء ليست أضغاث أحلام . كلا . سيتملي الجوّ بالمركبات ولا يكون هناك اصطدام ، وسيتحول السحاب بواسطة الكهربية إلى الصحاري والقفار ، فينزل عليها المطر فتخرج البركات والخيرات ، وسترتقي الجراحة حتى تحسن ما قبض من أشكال الناس ، وسيجدد النسل ، وربما يولدون الأطفال في المعامل الكيميائية .
١٥	القسم الثاني من السورة ، التفسير اللفظي للسورة كلها ، من أول السورة إلى قوله تعالى : « فسيؤتيه أجرا عظيما » .
١٢	القسم الثالث من السورة ، تفسير : « سيقول لك الخلفون » إلى قوله : « عذابا ألينا »



- ١٣ بيعة الرضوان ، وهى بيعة الشجرة .
- ١٥ اطائف هذا القسم ، وهى أربع اطائف : اللطيفة الأولى فى آية : « قل للخلفين من الأعراب » ، هذه الآية أعطتنا قاعدة كالتى يتبعها الأطباء وعلماء الأخلاق ، لأنهم يداورون المرض ، والخلق بضد ما هو عليه كالحرارة فى مرض بارد الخ .
- ١٦ اللطيفة الثانية : ليس على الأعمى حرج ، وههنا ايضاح الكلام على الاستعداد فليجعل كل امرئ فى الأمة فى العمل اللائق لمزاجه وصحته وقوته ، فكل مجاهد على مقدار طاقته ، هذه هى الحقيقة المثلى اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : ولتكون آية للمؤمنين ، وبيان أن الولوع بالعلوم ، والولوع برقى الأمة هما الصفتان اللتان بهما يصل الانسان إلى أعلى سعادة فى الدنيا والآخرة ، والله وملائكته يكونون معه ، هذا يؤخذ من هذه الآية : « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما »
- ١٧ جهاد الفرد وجهاد الجيش : إن جهاد الفرد أشق من جهاد الجيش ، لأن الجندي فى الجيش معه نظرائه ، أما الفرد فهو يعضى فى عمله متكللا على ربه ، والمهونة له أكثر من المهونة للفرد فى الجيش ، إن نصر النبي ﷺ فى الغار أعظم من نصره وهو فى غزوة من الغزوات ، فحرب أيها الذكى نصر الله لك وأنت وحيد كما جرت أنا أيام هذا التفسير ، فاعلم أن الله مع المجاهد بنفسه فى رقى أمته ، وقد جعل قول النبي صلى الله عليه وسلم : لا تحزن إن الله معنا ، وهو فى الغار ضرب مثل لكل عالم اسلامى يحب هذه الأمة الاسلامية ويعمل لها ، وقد أدهش المؤلف سرعة قضاء حوائجه وحل مشكلاته الدنيوية والعلمية أثناء هذا التفسير ، ومن أعجبها أنه توقف فى مسألة تسيير السفن بالكهرباء ، لأنه ليس من علماء هذا الفن ، فحدثته نفسه انه سيطالع عليها حالا ، فاطلع عليها بعد دقائق فى مجلة علمية لم يرها من قبل فكتبها فى سورة البقرة وهو مبتدئ فى تفسيرها .
- ١٩ تذكرة فى موازنة آيات الأحكام بآيات الأعمال الأخرى ، وإذا كان الحنفية والشافعية دققوا فى أمر ذبح الهدى ، أهو الحرم أم المسكان الذى أحصر فيه المحصر ؟ وذلك فى الوسائل فكيف بالمقاصد وهى ما نحن فيه من الهداية للصراط المستقيم ، إن الأئمة رضى الله عنهم دققوا فى الوسائل ليعلمونا أن ندقق نحن فى المقاصد وهى أعمال القلوب .
- ٢٠ دفع وهم : إياك أيها المسلم أن تظن أنك بمجرّد الاسلام لا تحيط بك المصائب . كلا . فهذا وهم بل الانسان يرتقى بما يقاسى من الشدائد ، وما يزاوّل من الأعمال ، وإياك أيضا أن تقول : إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم شفيها لى فأنا سعيد من غير عمل ، فإن الشهداء والعلماء شفعاء ، ومن كان مصاحبا لواحد من هؤلاء وهو تارك للأعمال فهو خاسر الدنيا والآخرة ، فالشافعون المذكورون محركون للعمل لا مبطون إن الشفاعة قد حرفها جهال المسلمين ، إن الشفيع ليس معانا للكسل .
- اللطيفة الرابعة فى معنى : سنة الله الخ وهى تدل على أن الله مع كل مخلص . الكلام على بيعة الرضوان ، وقصة مكرز وسهيل بن عمرو ، والمحاور بين النبي صلى الله عليه وسلم وعلى فى محو ذكر الرسالة من الكتاب .
- ٢١ القسم الرابع من السورة . تفسير : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا » إلى آخر السورة .
- ٢٣ المساهون ضرب الله مثلهم بزرع أخرج شطأه ليعطيهم الكفار ، ولكن المسلم الآن يرى أن بعض المسلمين أشبه بزرع هشيم تذروه الرياح ، فهم الأعيب فى يد الفرنجة ، فهذه هو الأمير عبد الكريم يريد أن يحرر مصر اكش ، ومولاي يوسف يأمره الفرنسيون أن يذيع منشورا يقول فيه : « إن

عبد الكريم ليس له حق في ذلك ، فهذا موت لاهياة » . نقول : وهذا المثل بانه الحياة ويرتقي المسلمون . اللطائف العالة في السورة وهي أربع لطائف .

٢٤ اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » : كما أن الأرض الطيبة هي التي يخرج نباتها سهلا بالانصب ولا تعب ، وثمرات زرعها تنفع كل ساكن في الأرض ، هكذا القلوب الشريفة كقلبه صلى الله عليه وسلم ، فهو يقبل العلم ويعلم النفوس الضعيفة الجاهلة ، وصفاء نفسه يجعله قابلا للكشف العاصي ، وهو الفتح على الحقيقة ، ويتفرع على هذا الفتح العلم كل فتح ظاهري كفتح مكة وصلاح الحديبية أراى فتح اسلامي في مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة ، وهذا الفتح يتقدمه صفاء النفس لقبوله ، ويعقبه تمام النعمة ، وانتشار النبوة في الأرض ، وعلو هذا الدين على غيره ، فهذه أربعة أمور هي المذكورة في الآية . آثار الفتح النبوي في زماننا ، وبيان أن المسلمين ماؤا الأرض نورا ؟ ثم وجعوا فازووا ودلوا ، ولكن جيلنا الحاضر سيرجع المجد على يديه ، ودليلنا مقاله العالم الأمريكي صاحب كتاب « حاضر العالم الاسلامي » الذي يقول : « إن أوروبا في الخمسين سنة الثانية من القرن التاسع عشر قد أخذت تخنق المسلمين خنقا وتحمل ديارهم ، وهذا العمل أحدث رد فعل وبغضا شديدا ، وأخذ المسلمون يقرءون علوم أوروبا ، وحصل التفاعل الشديد ، وليس ارتقاء المسلمين الحديث مجرد محاكاة للغرب . كلا . بل نفس الأمم الاسلامية لها من نفسها آراء وحكمة ، وبهذا وذلك حصل انقلاب في آراء المسلمين بعيد المدى ، من ذلك آراء خير الدين باشا الذي ألف كتابا لاصلاح تونس سنة ١٨٦٠ وانتشر ذلك الكتاب ثم مات المؤلف واحتلت فرنسا تونس . قال : وقد أثر كتابه تأثيرا حسنا حتى أصبح كتابا مقدسا عند أهل تونس والجزائر ، وقد جعل محور الكلام فيه على أن العدل والحرية هما أسس تقدم أوروبا . ثم قال صاحب « حاضر العالم الاسلامي » مانعه : « إن سيطرة أوروبا على المشرق مبنية على أساس واه ضعيف ، فليس الغربي محبوبا عند المشرق ، والاحترام راجع للخوف لا للمحبة ، ومما يدل على ضعف السيطرة الأوروبية في المشرق حادثة الحرب الروسية اليابانية ، فاليابان لما غلبت الروس عرف المشرقيون ضعف أوروبا ، وفرح أهل المشرق جميعا وأيقنوا أن أوروبا خارجة كلها من المشرق ، وساعد على استيقاظ المشرقيين زيادة اعتداء أوروبا على المشرق وحشيا بربريا بجشع ونهم » . وقال أرمينيوس : « اعتداء الغرب على المشرق جعل الأخير يزداد اتحادا » .

٣٠ ثم قال مؤلف « حاضر العالم الاسلامي » : « إن الخلافة في صدر الاسلام كانت منيعة الجوانب عظيمة القدر ، وبهذا ذلك صارت استبدادية وأخذ المصلحون يحاربونها يرجعوها إلى الشورى ، ثم ذهبت الحرية الدينية في خبر كان ، ولكن سيرة الخلفاء الراشدين باقية في الأذهان ، والعرب في شبه جزيرتهم هم الذين حافظوا على حريتهم إلى الآن ، وأقوال أبي بكر وعمر في الحرية لاتزال تسمع في كل آن ، إذن ليس الاسلام سبب تضعف المسلمين . كلا . بل السبب كل السبب هو استبداد الأمراء وتأويل الآيات القرآنية بما يوافق أهواءهم ، فنبذوا الحرية والشورى » .

٣١ « إن اليقظة الاسلامية اليوم تشمل الإصلاح الديني والسياسي لتخلص المسلمين من أمصارهم الظلمة ، ولكن جاء تيار ظلم أوروبا فرفق في وجه هؤلاء المصلحين وساعد الظلمة من ملوك المسلمين على اذلالهم وهذا زاد بغض المسلمين لأوروبا ، إن بعض المصلحين كمحمد علي باشا بمصر والسلطان العثماني محمود الثاني في تركيا أرادا ارتقاء بلادهم ، ولكنهم أبقوا الساطة في أيديهم فأصلحوا الظواهر ولم يبنوا على

الأساس ، فن رجال الدولة ملزمون بالطاعة العمياء ، وهناك أحزاب قامت حرة أحسن من سابقهم ، اقتبست آراء أوروبا بمطالمة المجالات ونحوها كالحركة الفكرية في تركيا في آخر القرن التاسع عشر ، فأثرت ثمرا يانعا ، ولكن الإصلاح الظاهري لأولئك الملوك المستبدين لم يفعل شيئا .

٣٣ مسامرة النجوم ، في عجائب العلوم : بعد ما كتب المؤلف ما تقدم تبدي له شخص خيالي أخذ يتحدث ويقول له : أنت مثل الآيات السابقة بشجرة لها أغصان ، فأصلها هو كشف العلوم ، وأغصانها ثلاثة : صفاء النفس المعبر عنه بالمغفرة والهداية والنصر ، فهنا قوة جسمية يشير لها النصر ، وقوة أدبية تشير لها الهداية ، وكشف نفسي تشير له المغفرة . ثم قال الخيال : أنا جئت لك من الثريا ، لأنك دائما تنظر في النجوم لأتم لك مقصود الآيات ، ولابد من تطبيقها على الأمم الحاضرة وعلى الأمم الإسلامية السابقة ، أما التطبيق الأول فهو أن ملخص تعاليم أوروبا يرجع إلى ما سيأتي ، إن التعليم له دعائم ثلاث : دعامة الأدب ، ودعامة الجسم ، ودعامة العقل . فإذا علمنا الصبي صناعة أو علمها ولم نعلمه طهارة الضمير فاننا نكون قد أعطيناه سلاحا يضر مجتمعا ، وإذا برع في العلوم وكان مهذبا ولكننا لم تقو جسمه فلا نفع فيه ، فالقوة البدنية يشار لها بالنصر في الآيات ، والقوة العلمية يشار لها بانكشاف الحقائق وهي الفتح ، والقوة الأدبية يشار لها بالهداية . أما التطبيق الثاني فهو ما ذكره ابن خلدون عن أحوال الأمم السابقة ، ذلك أن الأمة إذا تقلص الدين منها ذهبت وراءه الشفقة والحنان فالعدل فزوال الملك ، فهنا أصل هو الدين وفروعه تبع له ، والسياسة نتيجة ذلك كله ، فزوال الدين مبدأ ، فالأخلاق فسياسة الدولة ، فالدين ومعه العلم هو القوة العلمية ، والرحمة ومعها الأدب هي القوة الأدبية فأما القوة الجسمية فلها شأن آخر ، مذكور هناك في ﴿سورة النمل﴾ مثل الحديث المفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يخاف علينا إلا من كثرة الفئام والترف والمفيد أيضا تصريح النبوة بأن المسلمين سيفرقون في الترف وهو شر لهم ، وذلك هو ضعف الأبدان المنافي للنصر ، إذن المعاني المذكورة في هذه الآية طبقت على الأمم الحاضرة تعلما وعلى الأمم السابقة اضمحلالا ، أليس هذا من معجزات القرآن ؟ ﴿تذكرة﴾ إن حركات الصلاة ، وأعمال الحج ، وكذا الصوم كلها مقويات للأبدان ، وهذه إحدى الدعائم ، وبقى العلم والأدب وهما واضعان في أقوال الصلاة ، ويلحق بما تقدم في تقوية الجسم السبق والرحي ، وهما متروكان في الاسلام الآن .

مسامرتان فيهما ذكر فتاة ألمانية تزوجت مصريا ، فلما رأت أباها وأهله يصلين دهشت وأسلمت ، لأنها عرفت قيمة هذه الحركات ، وسيدة أخرى رأت تاجرا في المرح يتوضأ ويصلي ، وقد أخبرها بأن هذا يتكرر خمس مرات في اليوم . فقالت : إذن لا أحد منكم يمرض .

٣٦ نظرة المؤلف في أمم الاسلام المستقبلية . يقول : إن أمم الاسلام المستقبلية ستكون صلاتهم غير صلاة المسلمين الحاليين ، لأنهم سيقروا مثل هذا ويعرفون سر هذه الأعمال فتكون صلاتهم بعلم فيرون في الصلاة صحة كما تقدم ، وهداية للأخلاق في : «اهدنا الصراط» الخ وتحريضا على العلم في نحو : «الحمد لله رب العالمين» .

وهنا مسامرة ثالثة لازدياد شرح أن الفتح هو الفتح العلمي ، وذلك أن السيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكرة قدم الفتح العلمي كما في الآية على الفتح العملي . ذلك أن المسلمين كانوا يحكم الهند ولما دخل الانجليز الهند انتشر العلم فيها وغض الطرف عنه المسلمون وحرقوه فزال ملكهم في القرن الثامن عشر ، وكلما ثاروا صودروا في أنفسهم وأموالهم ، والهندوس هم الذين كانوا يتعلمون ، فرأى

السيد أحمد خان أن التعليم مطلوب ، فأسس المدرسة المذكورة وذلك سنة ١٨٥٦ م وجعل لغتها الانجليزية لأن الاوردية لا تصلح لذلك ، ورضى بالانتقاد الشديد على اختياره اللغة الانجليزية ، ولكن المعارضون فيما بعد سيعلمون أنه محق ، فالمدار على الغاية لا على المبدأ ، وجعل المدرسة أولاً في أكواخ والمال قليل ، وانتفع بمواهب علماء أوروبا مثل علماء جامعتي كمبردج وأكسفورد ، وكان معه ابنه السيد محمود حين زار تلك الجامعات ، وجعل المدار على الخلق والتربية الشخصية ، فلم يجد مفراً من جهل الدلاميذ يتعلمون تعليماً داخلياً ليتمّ تقويمهم ، وهكذا جعل فيها التمارين الرياضية ، إذن قامت الكلية بالتربية البدنية والخلقية والعلمية وهي الأركان الثلاثة المتقدمة في الآيات جسمية وخلقية وعلمية يد تعمل ، وقلب يحب ، وعقل يفكر ، لولا كلية «عليك» لم يكن للمسلمين صوت الآن ، لولاها لكانوا الآن خداماً وعبيداً ، وقد قالت الصحف الفرنجية عن مؤسس الكلية : انه نبي التربية ، وتوفي سنة ١٨٩٨ وقد أنشأها لتنتشر الثقافة منها في العالم الاسلامي كله . إن كلية (عليك) تحتاج إلى ٦٠٠ ألف جنيه ، وقد وصلت الآن إلى ٢٠٠ ألف جنيه بتدبير السيد أحمد خان ابن السيد محمود ، ثم قال الخطيب : ليرحل المسلم المصري فليتعلم فيها ، لأن تعليمها لا نظير له ، والأزهر لم يصل إليه الآن .

٤٢ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين الخ ان عصر الصعابة كانت السكينة فيه بأنوار النبوة ، أما عصرنا فالعامة وصغار العلماء يطمثون بما يرون من أن المسلمين مع ضعفهم وانتشارهم في الأرض محفوظون ، فأما الحكماء فانهم يزيدهم سكينة فوق ذلك ما يعرفون من عجائب الصنعة الإلهية . (مساهرة) جاء فيها أن علماء الدين في زماننا كعلماء الطب ، فكما أن عالم الدين اكتفى بتعليم العامة الوضوء والصلاة وما شابهها من الامور العلمية ، ولم يذكرهم بحمال هذا العالم وعجائبه ، هكذا عالم الطب لا يعني إلا بالمداواة ، أما حفظ الصحة المقابل لمعرفة عجائب العالم فهو متروك عنده ، فهذه أمم تعيش كما يعيش النمل ، عمل ولا علم ، إن دين الاسلام علم وعمل ، فليدرس المسلم الدنيا فانه أولا يراها عابسة مملوءة من الشرور ، ولكن بعد التروى يرى هذه الشرور مفاتيح النعيم ، ومستحيل أن يحقق هذا غير كبار المفكرين ، مثال ذلك ما ستره من الدمايل التي ماهى إلا قلاع تحتها الجرائم القتالة للأعداء الداخلة في الجسم من الثورات المهلكة من الخارج ، فالدمايل أضرار ولكنها جعلت نعمة لتخليص الجسم من الأذى ، إن الأسد جندي لاحداث الحياة لشبله ولاحداث الهلاك لفرسته فهذا مثال واحد عرفنا جنود الله المهلكة ، والجنود المعدات لاحداث الحياة .

٤٤ كما أن جسم الانسان يهلك بالعفونات ولكن أمثال الدمايل والحي تخلصه ، هكذا الأمة اذا فسدت يسلط الله عليها الأعداء ، فهؤلاء الأعداء كالدمامل ظاهريهم ضرر وباطنهم نفع . خطاب المؤلف لأمم الاسلام يقول : إن الله وعدنا أنه يرينا الآيات في الأنفس والآفاق وقد أنجز وعده ، في زماننا لأننا عرفنا ما معنى منتقم وجبار ، فاذا كان منتقماً بأمثال الحي والدمايل وحلول الأعداء الديار فهو انتقام ظاهراً راحة باطناً . وهذا كقول المؤلف أن طبيباً مصرياً مشهوراً يداوى الناس ولكنه هو ترك نفسه فلم يبال بصحتها ، فالمؤلف نصحه بأن يقلع عن ذلك ، فليحافظ على صحته ، فسمع النصيحة وانتفع ، وهذه الحادثة تنطبق على حال المسلمين ، فهم بالفقير مولعون وغفلوا عن ترقية العقول كما قد يفعل الطبيب عن صحة جسمه وهو مكب على مداواة الناس . هذا بيان أنواع الجنود ، هي حسية ومعنوية ، وكل منهما إما للإهلاك وإما لاحداث الحياة .



اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليا حكيما » . إن هذه الجنود واضحة في أجسام الناس التي تراها مشاكلة لنظام الأمم مشاكلة تامة ، وبيانه أن جسم الانسان أشبه بمملكة ، وهذه المملكة يحيط بها الأعداء من كل جانب ، ويمكن دخولها إما من الفم وإما من الجلد كما يدخل العدو المملكة من الباب أو من السور ، فإذا دخلت الميكروبات وهي الحيوانات الذرية المهلكة من الفم تلقتها الجيوش التي في المعدة فأهلكتها ، فإذا نجت منها تلقتها جنود أخرى في الامعاء وأيضا لا تجدها الا كسوجين فتموت ، فأما اذا دخلت هذه الجنود المهلكة من الجلد فان الجنود المدافعة وهي الكرات البيضاء والليمفاوية تقاثلها ، وتسكون هناك معركة دموية بسببها تجندل جنود من الاعداء وجنود من المدافعين وخلايا من الجسم ، فتصبح هذه مادة القيح ، ثم تقوم جيوش الجسم بتريق جلد الورم كالدمامل مثلا ، ففي انفتح أعقب ذلك أنها تجفف الجرح وتصلح الجسم من جديد ، وقد اعتاد العامة في مصر أن يسموا ما يرى تحت الابط من ورم « حيلة » أى قوة للجرح الحاصل في اليد مثلا ، وهذا القول عجيب لأن علم الطب الآن أثبت أن هذه ثكنة لجنود الجسم تعبأ فيها ، لنهث الجسم من الاعداء الداخلين . ومن عجب أن الانسان اذا أهمل الرياضة البدنية والاستحمام بالماء الحار والبخار والتعرض لضوء الشمس وتعفت الأغذية المتراكمة في الجسم فانه يفسد لولا أن الله يسلط على تلك العفونات فيه الحى ، تلك الحى التي تذيب تلك العفونات بدل الشمس وأنواع الحرارة المتقدمة ذكرها . إذن ظهر من العلم اليوم أن جميع هذه الامراض نعم لا تقم ، وظهر أن هذه المخالقات جنود الله لا فرق بينها وبين جنود الأمم المعروفة في كل زمان .

٤٨ إيضاح مختصر لجنود الله في الأرض ، الدم سائل لالون له ، خذ قطرة دم صغيرة بحيث تكون جزءا من عشرين ألف جزء من البوصة فانك تجد فيها ٩ آلاف من الخلايا البيضاء ، وخمسة ملايين من الخلايا الجراء ، ونفس هذا الجزء مثل سنن الابرة ، ووظيفة الخلايا الجراء أولا أنها تملون الدم ثانيا أنها تحمل الاكسوجين فتوصله إلى خلايا الجسم ، ثالثا أنها تأخذ البقايا المتخلفة في الجسم فتعطيها إلى الهواء فتخرج معه وهي المادة الكربونية ، ووظيفة الخلايا البيضاء انها تحارب الاعداء ، فهى جيوش مقاتلة مدافعة ، فهى تصطف صفوفًا وتخرق أجسام الجيوش الداخلة وتسكن أنفاسها فتموت .

٤٩ المعركة اليومية في الجسم البشرى ، الوقاية الطبيعية للجسم ، المناعة ، الميكروب وقوة أمراضه ، العداء بين الجسم والميكروب ، الميكروب في داخل الجسم ، الخلايا البالعة ، الحرب بين الميكروب والخلايا ، الوقاية النوعية ، العدوى والمرض .

٥٠ المناعة ، الميكروب وقوة أمراضه .

٥١ العداء بين الجسم والميكروب ، الميكروب في داخل الجسم .

٥٢ الخلايا البالعة .

٥٣ الحرب بين الميكروب والخلايا .

٥٥ صورة توضح حركة الأهداب التموجية وشكل البلعرات عند خروجها من الأوعية الشعرية ، وتبين الغدد والمجارى الليمفاوية ، وكيفية اجتماع الميكروبات بطرق خاصة .

٥٦ صورة تعرف كيف تمتد الأوعية وتنقل البلعرات إلى المنطقة المطلوبة ، وبيان شكل الاميبا وبيان الخلايا الهدبية المبطنة للقصبه الهوائية .

٥٨ صور تبين اتجاه البلعرات نحو الجلد لهضمه ، وتبين خروج البلعرات إلى ميدان القتال ، وتبين محاصرة

البلغمات للميكروبات .

٥٩ وفيه أشكال تبين إبادة الميكروبات بالمواد المهلكة ، وكيف تأكل البلغمات الميكروبات ، وكيف تخرج البلغمات من الأوعية الشعرية .

٦٠ الوقاية النوعية . خلاصة ما تقدم .

٦١ فمسل في جنود الإحياء ، وجنود الاماتة ، أو الظلمة والور ، وبيان أنها تسمة أنواع كجرد الكهرباء السالبة والموجبة ، والجوامد والسوائل والغازات والميكروب بقسميه وهكذا .

٦٢ خطاب الله عز وجل للعالم ، اطاعة الكهرباء والأنوار لربها ، خطاب الله للأنوار أن تكون أسرع فتكون منها الغازات والسوائل والجامدات .

٦٣ ههنا نحو عشرين نوعا من خطاب الله لهذه المخلوقات كخطابه للذرات أن تفتت المواد لهذا النبات ، وللذرات التي في المواد المتعفنة وللآساد والجراد والنمل والعنكبوت وبنى آدم ، وكقوله : قم يا شرق وعم يا غرب ، وللمسلمين اليوم أن اتحدوا ، وللعلماء منهم أن ينصحوهم .

٦٧ تفنن في صور المادة وتفنن في صور الألفاظ وبيان هذا المقام أن هنا شمسا وكواكب تتردد في المنازل طالسة غاربة فتحدث عنها صور شتى من حيوان ونبات وعجائب لا يحصرها ، وههنا نظير ذلك في الانسان هواء يتردد في الخارج فيحدث به صوت فتكون حروف وتلك الحروف تعطى صوراً معنوية تعرفها النفس وهي صور جميع المخلوقات المتقدمة ، وهكذا هناك حركات في الذهن تعطى صوراً كلية هي العالم والمعروف ، إذن ههنا شمس وكواكب تجري فتحدث صوراً وهواء يعطى صوراً في النفوس بألفاظ وأفكار في العقل تفعل كذلك ، فالجنود إما من صور تحدثها الكواكب ، وإما من ألفاظ يحدثها الهواء في الفم ، وإما من نفس العقل .

٦٩ وجنود العلم اليوم في بلاد الاسلام تطرد عدوين : الخرافات والأمم الاوروبية أى المجرمة منها ثم ان الجنود النورية حسية وعقلية ، والقسم الثانى أحق باسم الجنود ، ومقدمة إيضاح هذا القسم الثانى ما يأتى : ان الناس ضيوف عند ربهم ، وهذه الضيافة لها مثل وهو أن (ماريه) بنت عفزر من بنات ملوك اليمن خطبها ثلاثة من فحول الشعراء ، وقدموا لها هدايا ، وأسمعوها شعرا ، فكان أشعروا كرم الثلاثة إنما هو حاتم المشهور بالكرم ، وهذه الحكاية قصصتها على الفلاحين فأذكرتنى أن الأمم ضيوف عند ربهم ، نظرت النخيل ليلا والكواكب فتذكرت أن الناس يمدحون من يقدم لهم طعاما ويضئ لهم سراجا ، والله قدم للناس الكواكب والشموس وجميع ما فى الأرض ، فهم يفهمون النعم القليلة ولا يفهمون النعم الكبيرة فى السموات والأرض ، فهم ينسون الكثير ويفهمون القليل . الجنود صنفان ولا حصر لأفرادها . الجنود المعنوية العقلية .

٧١ جنود العقول الانسانية والحيوانية . الاستدلال بالعقول الارضية الجزئية على العقول الكلية السماوية

٧٢ النتيجة صادقة لمقدمات محسوسة . نتيجة هذا القول تفسير آية : « ولله جنود السموات والارض » وآيات كثيرة .

٧٣ ههنا عقول انسانية تستخرج سراجا تنفع به ، وهذا السراج إن هو إلا من البترول أو الفحم أو الشمع أو الكهرباء أو غيرها ، وهل كل ما فى الارض إلا مشتق من الشمس ، إذن الضياء الارضى مشتق من الضياء السماوى فليكن العقل الأرضى مشتقا من عقل كلى وهو الذى صنع الشموس والكواكب كما صنعنا نحن أضواءنا فى الارض فى قناديلنا ، وماذا لك العقل الكلى إلا ملك وما أكثر الملائكة وما أكثر

النجوم والشموس .

٧٤ ملخص ما تقدم في ستة جل ، غاندى يصف رحلته في المياه المصرية ، وهذا المقال مناسب لهذا المقال من حيث انه ذكر الشدة واللين ، والحب والخوف ، وقل : إن اللين ينفع في كل حال ، وأن من استعمل اللين لا يكون عمله شريفاً إلا إذا كان قويا لا يخاف ، والمحبة لا تجتمع مع الخوف ، المحبة لا تبالي عند ما تعطى : المحبة تكافح العالم ثم تفوز وتفوز ، إن المحبة في الانسان أقوى من السكر بقاء في الطبيعة من يكشف المحبة العائمة أقوى من يكشف السكر بقاء ، ولا جرم أن الشدة واللين والحب والخوف من جنود الله المعنوية في هذا المقام ، وههنا مقال ضاف يشرح : —

(١) معنى أن الحياة مطردة الوجدان مع انها محوطة بهوامل الهدم والهلاك ، وذلك أن الهدم ماهو إلا اصلاح لما فسد وارجاعه بحال أنفع للوجود من الحال السابقة ، إذن هذا العالم محوط بالحب ، وما الهدم إلا عملية لبقاء ذلك المحبوب بعد هدمه .

(٢) وبما معنى أن الحب له السيادة في العالم والعالم كاه شقاء ، وأن ذلك الشقاء والفناء ماهو إلا تربية ورقية للأرواح في الارض فما يظهره ضد الحب هو الحب .

٨٠ (٣) ثم ما معنى أن نأوس المحبة يعطى سلاحاً وطماً نذرة ويفسر خفايا الطبيعة وهذا مفهوم مما سبق الطيفة الرابعة في قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله الخ » وفيها أربع جواهر : الجوهرة الأولى في آية : « ليظهره على الدين كله » وفيه مقال (لوثرروب استودارد) الامريكي تكلم عن الرسالة المحمدية إذ قام بنشرها في زماننا هذا السياح والتجار والحجاج وغيرهم كالطرق الدينية وأهمها جماعة السنوسية الذين يدخلون الوثنيين في الديانة الاسلامية في افريقية ، وقد قال أحد الانجليز : « إن الاسلام يفوز فوزاً عظيماً في أواسط افريقيا ونوره ينسخ ظلام الوثنية ، والنصرانية أصبحت خرافة » . وقال مبشر بروتستنتي : « إن الاسلام يسير سيرا حثيثاً لم يقف إلى اليوم ، النصراني يحلمون بفتح افريقيا في نومهم والاسلام فتحها في اليقظة ، عرب زنجبار من سنة ١٩٠٠ بشروا بالاسلام بلاد ( نياسلانده ) فأصبح بعد سنين معدودة في كل قرية مسجد ومدرسة والانجليز لم يقدروا على صد هذه الدعوة ، وسيجتاز الاسلام زمبابوي ويطبق جنوب افريقيا والقارة كلها ، والاسلام ينسخ النصرانية كما ينسخ الوثنية ، فالذين تنصروا أيضاً يسمون ، بل النصرانية في الحبشة ينسخها الاسلام في هذا الزمان ، بل ظفر الاسلام في الحبشة أعظم ظفر للاسلام ، والمسلمون المرتدون قهراً في روسيا رجعوا إلى الاسلام .

٨٢ الكلام على آية أشداء على الكفار ، وأن هذه الشدة أحست بها أوروبا في زماننا ، فقد جاء في مقالة عنوانها « أوروبا وآسيا » أن انكاترا وان خرجت ظافرة من الحرب الكبرى كان هذا الغفر خيبة لها فقد ثار عليها الأفغان والهند ومصر ، ثم ان تركيا المضمحلة نهضت وطردت انكاترا وحلفاءها ، والصين تطلب البلاد المنساخت منها ( وبعبارة أخرى ) آسيا قائمة اليوم ضد أوروبا وقد أصبحت روسيا معاونة لأهل آسيا بعد الحرب وقد كانت معادية لهم قبلاً ، وأيضاً يقول : ان انكاترا استفادت من بغض روسيا لأهل آسيا ، فكانت روسيا ترهب الصين والدولة العثمانية ، وانكاترا كانت تأخذ ثمرات ذلك ، فاحتلت ما أرادت احتلاله ، وإيطاليا أخذت طرابلس ، وفرنسا أخذت الجزائر وهكذا ، فلما أصبحت الروس بلشفية تنفس الشرق الصهداء وأصبح أمام انكاترا ومن معها وجهها لوجه تحفز المسلمين لتلك الشدة المذكورة في الآية ، وبيان الذي أوقد نار تلك الشدة وهو السيد جمال الدين

الأفغانى ، وقد حبس معه رجل اسمه « رضا آقا خان » فى قزوين ، ولما جاء رجال الدين إلى الاستانة زاره رضا آقا خان المذكور وأوصاه جمال الدين أن يقتل سلطان الفرس ناصر الدين فقتله ففرح جمال الدين وهذه أغضبت سلطان تركيا عليه وهو عبد الحيد ، فعمل الحيلة فى قتله ، فقتله بحجة السرطان فى لسانه

٨٥ تعاليم جمال الدين ، هروقة قوية ، ولم يخفه أحد من أهل أوروبا مثل ما خافته بريطانيا ، سجنته فى الهند ثم أطلقته فجاء إلى مصر ، وله يد فى الثورة العربية ولما دخل الانجليز نفوه ، ثم وصل القسطنطينية فساعدته السلطان على الجامعة الاسلامية .

٨٦ شدة المسلمين على الكفار فى زماننا ، واغارة ايطاليا على طرابلس ، وتآب الدول البلقانية على تركيا خسرت جميع أملاكها ، ثم اتفقت انكرا والروسيا على خنق الثورة الفارسية ، وعصفت فرنسا على سراكش ، فغضب المسلمون غضبا شديدا ، وهذه العداوات جعلت المسلمين يحبون الوثنيين فى الشرق الأقصى ، وفرحوا بانتصار اليابان على روسيا فرحا شديدا ، وأحبوا أن تدخل اليابان دين الاسلام ، وأوفد السلطان وفدا إلى اليابان .

٨٨ إن أوروبا نفسها بايغارها صدور المسلمين جعت كتهنهم .

٨٩ الفصل الرابع فى الكلام على الجامعة الاسلامية ، وأن ساسة أوروبا يشهدون أن الجامعة الاسلامية اليوم أشد منها فى كل زمان ، وليس نداء السلطان عبد الحيد للمسلمين بالجهاد شرعيا حتى يتخذ دليلا على وهن تلك الجامعة .

٩٠ بيان أن الصحافة الاسلامية اليوم منتشرة انتشارا عظيما ، وقد أيقظت المسلمين هى وغيرها ايقاظا عظيما

٩١ فى سنة ١٩٠٠ لم يكن فى العالم الاسلامى أكثر من مائتى صحيفة للدعوة فبلغ هذا العدد سنة ١٩٠٦ خمسة مائة صحيفة ، وزاد سنة ١٩١٤ على ألف صحيفة ، وازدياد التواصل أشعل تلك الحركات .

٩٢ يقول عالم فرنسى : « إن المسلمين لا يهتبروننا مالمدين فى بلادهم » .

٩٣ نور على نور وفيه انتشار الاسلام فى أوروبا وأمريكا فى زماننا ، وكيف أسلم الاستاذ محمد أفندى عز الدين (لوماكس الأصبىكانى) وهامى ذه رسالته فى ذلك ، يقول : « الاسلام فى جوهره قوة وقدره الخ » .

٩٤ متى وكيف اتصل الاسلام بقلبي وهدانى سواء السبيل ، وههنا ذكر خمسة أصول اسلامية كالشهادتين والصلاة والصوم الخ .

٩٥ وهكذا الحاج ناصر الدين دينه المستشرق الفرنسى المصور المشهور ومعه الاستاذ راشد بك رستم ، وقد ألف الأول رسالة عربها الثانى اسمها « أشعة خاصة بنور الاسلام » وفيها أن قوة الحياة كامنة فى اللغة العربية والعقيدة الاسلامية ، وأن أوروبا مصرة على عداوة الاسلام والمسلمين ، وقد نقل عن القس (زويمر) أن خمسين مليوناً من السودان و قبيلة هادسا الكبيرة وقبائل بلاد النيجر والشاطئ الذهبى أسلم الكثيرون منهم ، بل الاسلام سيعمهم جميعا ، وفى البنغال بالهند أسلم أكثر من عشرة ملايين ، وكذلك برمانيا بجوارها زاد عدد المسلمين على الثلث فى عشر سنوات ، وفى أنحاء أوروبا وأمريكا أسلم كثيرون .

٩٨ شرح عداوة أوروبا للاسلام : وكراهية الاسلام تحت ستار العلم

٩٩ الجوهرية الثانية فى آية : « رجاء بينهم » مع آية : « إنما المؤمنون اخوة » فى (سورة الحجرات) وفى هذه الجوهرية ملخص المقدمة التى كتبها مؤلف « حاضر العالم الاسلامى » .

١٠٠ نشوء الاسلام وارتقاؤه وانحطاطه ، وههنا أعجب المؤلف بدين الاسلام اعجابا شديدا ، إذ ذك سلطان



الروم والفرس الخ ارتقى الاسلام ارتقاء مذهشا في زمن الخلفاء الراشدين وفي العصور الاولى ، ثم أخذ يتدلى شيئا فشيئا ، وأول التدلى في أوائل القرن العاشر ، وههنا مزق هذه الدولة الاحن والصفائين بسبب جعل الخلافة ملكا عضوا لاشورية ، فرجعت العصبة ككرة أخرى ، وههناك تفككت أجزاء تلك الأمة الاسلامية ، فكان للعباسيين دولة في بغداد ، وللاُمويين في الأندلس ، وللفاطميين في مصر ودخلت الفرس أولا والترك ثانيا في أمور الدولة ، فزقت الدولة كل مزق ، وفي القرن الحادي عشر المسيحي عجت معالم الحضارة الاسلامية .

١٠٦ دخول الترك في الاسلام سراعا لم يدمت أخلاقهم ، ولما حكموا أم الاسلام لم يكونوا رجاء بالنصارى الذين يحجون إلى بيت المقدس كما كان العرب من قبلهم فأذوهم فتعصبت أوروبا ، فكان ذلك سببا للحروب الصليبية ، فالترك هم السبب في تعصب أوروبا للنصرانية ضد المسلمين .

١٠٨ خضع المسلمون العرب للترك ، ثم جاء جنكيزخان وخلفاؤه فأهلك العالم الاسلامي وقطع سدود العراق فأصبحت البلاد صراعى للماشية بهدأن كانت منازع عاصمة إلى آخره .

١١٠ الترك العثمانيون هجموا على أوروبا ووصلوا إلى فينا ، ولكن أوروبا زدتهم ، ومن ذلك الوقت أحست بأنها قوية ، وقوتها الأموال الأمريكية الجديدة ، ونام الاسلام قرونا إلى القرن التاسع عشر ، وقد اقتسمت أوروبا أقطاره ، ولكن الآن هب الاسلام من نومه ، وابتدأ يأخذ دوره .

١١٢ الفصل الثاني في آية : « رجاء بينهم » وبيان أن انكلترا وفرنسا كانتا تجهلان حال العالم الاسلامي أيام الحرب الكبرى ، ولكن إيطاليا كانت تعرف الحقيقة .

١١٤ ذكر ما يقوله ساسة أوروبا وعلمائها من أن الاسلام دين الحرية ، وأن المسلمين أول الأمم في الحرية من أي صنف كانوا .

١١٥ الفصل الثالث في أن أوروبا شورية في بلادها مستبدة في غير بلادها ، وأهل الشرق والمسلمون لا بد فائزون من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » .

١١٦ الفصل الرابع في هياج العالم الاسلامي .

١١٧ معجزة جديدة لم تعرف من قبل وهي توضيح حديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » الويل لأوروبا اذا جهلت : من كلام المؤلف الأمريكي المذكور .

١٢٣ مؤلف هذا الكتاب يقول : « إن المسلمين اليوم أرق منهم أيام الامام الغزالي ببرهنا بما يقرءون من كلامه الفلسفي » .

١٢٤ فصل في ذكر مثال واحد لرجة المسلمين لغير أم الاسلام من رجال العصور المتأخرة ألا وهو السيد الأجل الذي كان حاكما في مدينة (ينان) من بلاد الصين بأمر ملكها ، وقد أقام العدل ، ونظم الجند ، وحفر الترع ، وأقام الجسور ، وحزنت الأمة كلها عليه لممات ، وبنت له المعابد ، وأبقت اسمه مذكورا في الكتب على مدى الأجيال إلى الآن .

١٢٦ الجوهرة الثالثة في آية : « تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا » .

١٢٧ الصلاة في نظر المهاتما غاندي ، وأنه يرى أنه كلما زاد اعتقاد الناس في الله زادت رغبتهم في الصلاة وأن أول حياته إلحاد ثم جاءه نور من الله ، الصلاة للروح ألزم من الغذاء للجسم ، ولا حجة للصلاة وههناك حجة للأكل ، بوذا وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يسعدوا إلا بالصلاة ، لافلسفة عندي ولكن عندي الصلاة .

١٢٨ فضل الله على الناس : يهتم المؤلف أن عذاب الناس في الأرض لم يقصد به التعذيب وهم محبسون فيها ويجب كيف يكون السجن بستانا وفيه أعمال لتهديب المسجونين ، ولقد أطم الله أهل اسبارطه أن يمرّوا الأطفال على قبول التعذيب ، وأطم السودانيين الرضاء بالتعذيب أمام العانيات .

١٢٩ الجوهرة الرابعة في آية : كزرع أخرج شطأه الخ . يذكر المؤلف أن الله صدق وعده وأن هذا زمن ظهور المعجزات ويشكر ربه على ذلك ، لأنه ذكر في أوائل هذا التفسير أن الفرنسيين انقضوا على سوريا ففتسكوا بها ، وذكر في آية : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا » الخ أن اليهود اتكأوا على شفاعة آبائهم فخاب ظنهم ، وأخرجوا من ديارهم ، وذلك جعل لرقينا نحن وأنه اعتبار لنا لا غير ، وأن هذا سرّ (ال م) الخ . يقول المؤلف هذا تقدم ، وهل كان يخطر لي أنني لا يتم طبعي للتفسير حتى أرى أن العراق قد صارت مستقلة ، وأن سوريا ستستقل حالا ، وأن ذلك سيكون فاتحة دور جديد في الشرق الأدنى ، وأن أوروبا خاب ظنها .

١٣١ الفتح الإسلامي في زماننا وآثار النبوة المحمدية ، ثم زادت دهشة المؤلف من حضور شاب تركستاني من بلاد التركستان الصينية وقد أخبر الناس بمصر وفي الجرائد أن هذه الكتب كانت سبب فتح مدارس في بلاد التركستان والصين وغيرها ، وأن هذه الأمم انقلب نظامها رأسا على عقب ، ومعنى هذا أن الإسلام انتشر انتشارا غريبا مدهشا ، وهذه كلها آثار : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » .

١٣٢ المؤلف يتخيل شبانا يأتون من التركستان والصين في المراكب الهوائية يزورون أهل شمال إفريقيا ويردّ هؤلاء الزيارة لهم ، ويجب المؤلف أيضا من أن يكون هذا الزمان قد ظهر فيه مؤتمر إسلامي لم يكن له نظير ، وفيه ثمان لجان لحفظ كيان الأمم الإسلامية .

١٣٤ ﴿ سورة الحجرات ﴾ نص الآيات مشككة .

١٣٥ القسم الأول من السورة تفسير البسملة ، وأن عادة الشعراء أن يبدؤوا بالفضل ثم يفتقروا للدهج ، ولكن براعة استهلال القرآن جاءت بذكر الرحمة والرحمة مشروحة في ﴿ سورة الرحمن ﴾ والرحمة في ﴿ سورة الفتح ﴾ أصولها انكشاف الحقائق ثم فتح البلدان ، والرحمة في هذه السورة عملية وهي الفضائل التي تبلغ ١٢ كالأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم والعمل الصالح واجتناب التجسس الخ وههنا مبحث واسع ، ماخصه أن مقتضى الرحمة أن لا يكون نقص في الإنسانية حتى يحتاج الإنسان في دفعه إلى الزواجر القرآنية ، وأجاب المؤلف على ذلك بأن هذا العالم كله ليس شيئا مذكورا ، وهل هو إلا حركات وتلك الحركات صارت أضواء ان كانت أقلّ وحجرا وحديدا وأرضا الخ ان كانت كثيرة ، إذن هذه الدنيا كلها وكواكبها كهرباء مضغوطة ، إذن هذا عالم أشبه بالعدم ، وما أشبه بالعدم فهو ناقص ، والله موجود ، وهو يريد أن يخلق روحا يكملها ، ووسيلة كلها أن تتفاعل تفاعل الكهرباء السالبة والموجبة حتى يكون لها وجود مستقل ، أو شبه مستقل ، ومن تمام التفاعل العلم والحكمة والأنبياء والعلماء وهكذا .

١٣٨ جمال في جمال : خيال المؤلف يرى أن العالم موسيقي ، ويبين ذلك بأن المادة راجعة فعلا إلى أنوار كهربائية ، وهذه الأنوار فيها حركات وأنوار ، فالحركات موسيقي والأنوار جمال ، وضروب القسمين لاحد لأفرادها ، فلو تجلّت لنا العوالم على هيئتها الأصلية لتمزقت أرواحنا من جمال الصور المشبكة الألوان وسماع الأغاني المدهشة ، فمن رحمة الله أن حجب هذا كله بالقتال والحصام ، وأنواع الذنوب ، وذميم الاخلاق لنشتغل بالخروج منها .

- ١٣٩ القسم الثاني ، التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة من أولها إلى آية : « والله غفور رحيم »
- ١٤١ القسم الثالث من السورة من آية : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » إلى آخر السورة
- ١٤٣ خاتمة في مباحث هذه السورة وهي ٩ مثل أن لا يتجاوز صوتهم صوته صلى الله عليه وسلم وهكذا .
- ١٤٤ قسم التخلية فيه ١٤ فصلاً مثل المهمل عن تصديق كلام الفاسق ، ومثل النهي عن الغيبة وهكذا
- ١٤٥ القسم الثالث : التحية بالفضائل ، مثل أن الناس يتعارفون ، وأن بلالا أذن على ظهر الكعبة وقرش ترى ذلك على خلاف عاداتها .
- ١٤٧ لطيفة في آية : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » وبيان أن المؤلف رأى امرأة عرجاء صفراء ، فخطر له أنها لا تطلب للزواج ، وانتقل من ذلك إلى أن كل امرئ ممتحن لمن يريد زواجها ، فالجاهل يكتفي بامتحان ظاهر الجلال ولكن العاقل يرى أن الامتحان يكون في الخلق والقوة الجسمية والقوة العقلية ، وهذه الخلال الثلاث هي التي تسعى لها جميع مدارس العالم شرقاً وغرباً كما تقدم في آية ويهديك صراطاً مستقيماً ، وهنا عجب المؤلف من آية : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » وهو امتحان في الأخلاق ، وهذه دعامة من الدعائم الثلاث وامتحان الله في إحداها ، وإذا امتحن الله فيما هو أصعب فعلياً أن نمتحن فيما هو أسهل من باب أولى ، إذن لمتحن كل شيء ، الطبيب يمتحن المريض بحسب نبضه لمسا ، وبسماع عدد ضربات ، وبمشاهدة البول واللسان ، فهو ممتحن باللس والسمع والبصر ، هكذا فلنمتحن كل شيء ولا نتكل على الغريزة ، بل ندقق الامتحان في كل شيء وههنا ذكر المؤلف امتحان الرجل الكامل من كتاب « مسرات الحياة » وأنه ذو العقل الرزين ، والعواطف الشريفة ، الصادق النظر ، ذو القوة البدنية ، فإذا لم يكن العقل رزينا وقع في الخطأ ، وإذا لم تكن العواطف نبيلة كان الإنسان عابداً لنفسه ، وإذا لم يكن جسمه حديدياً فإن عمله يكون ضئيلاً وإن كانت نيته حسنة ، إن العبقري من الرجال صفاته عظيمة ومقامه فوق كل مقام .
- ١٤٩ اللطيفة الثانية في آية : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » إلى قوله : « عليهم خير » وفيها أربع مقالات : المقالة الأولى في الصلح بين الطائفتين المقتلتين .
- ١٥١ الشيعة العباسية والعلوية ، وههنا دهش المؤلف من جميع المسلمين في تلك العصور ، فالشيعة العباسية والعلوية قاموا في وجه بني أمية ، ولكنهم بعد انهزام الأمويين لم يحصل منهم عدل لامع الأمويين فانهم قتلهم تقيلاً في حال الأمن ، ولا مع بعضهم فان العباسيين اغتصبوا الملك من بعض بني الحسن الذي تمت له البيعة الصحيحة ، فتولى الملك السفاح ثم المنصور الذي قتل صاحب البيعة ، وكان المنصور والسفاح كثيرى الغدر بمن يعطونهم الأمان من أقاربهم العباسيين ومن غيرهم من العلويين ومن أشياعهم حتى أن أبا جعفر المنصور قتل أبا مسلم الخراساني ، ذلك الذي قتل ٦٠ ألف نفس بلا ذنب إلا الاتهام ، وذلك بأمر إبراهيم الامام .
- ١٥٤ سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم .
- ١٥٥ المنصور والدولة العباسية .
- ١٥٧ امتحان المؤلف لسيرة هذه الأمم مثل أن هشام بن عبد الملك يقتل سرا أباهاشم بن محمد بن الحنفية غدرا ومثل أن أباهاشم لما أحس بالموت أوصى لبني العباس بالبيعة ، ومثل أن العباسيين بايعوا باسم آل محمد ومثل أنهم غدروا بأبي سلمة الخلال المأثر الشهير ، ومثل أن عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة طلب المال من السفاح ، ومثل أن أبا جعفر المنصور يقتل أبناء الحسن الذين كانوا نصراءه بالأمس ،

فأين الشورى إذن ؟ ومثل اختلاف الأمين والمأمون

١٥٩ نتيجة أعمال الأمويين والعباسيين في الاسلام ، الأمويون أعزوا العرب ، والعباسيون أذلواهم ، واستعانوا بالفرس والترك ، وهذا العمل بقي إلى الآن ، مثل المماليك البرية والبحرية بمصر ، واستعان أمراء الأندلس ببابا رومه ودوق فينيزيا وبارونات أوروبا ، وكيف ذلت هذه الأمة بهذا الجهل .

١٦٠ بيان أن الأمة أشبه بدافل وكل قرن سنة ، فهي الآن في الرابعة عشرة ، إذن قد بلغت باوغا أشبه بياوغ الاحتلام ، وكل ما حصل لأبائنا هو عظة لنا ، فهي نعمة لأئمتنا المستقبلية .

النظام العام في الاسلام ، وبيان أن أهم الاسلام كانت عادلة في أحكامها بواسطة القرآن والدين ولكن الملك تنقل من دولة إلى دولة « وتلك الأيام نداؤها بين الناس » .

١٦٢ جمال السالم ونور الحكمة وأزهار الحقائق العلمية : يقول المؤلف : انه بينما كان يفكر في تفسير « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم » في سورة ق إذ استبان له بعض أسرار ( الم ) وأن هذه الحروف في ﴿ سورة ق ﴾ لها صلة بها في أول ﴿ سورة البقرة ﴾ والتي في أول سورة البقرة مفتاح للعلوم التي كانت أبوابها مغلقة قبل زماننا : والذين بعدنا سيفتحون أبواب تلك العلوم بهذه المفاتيح ، وأن النباتات أنواع متفرقات مختلفات ، فمنها ما يتغذى به الدود مما هو قدر عفن منبوذ ، ومنها ما يتغذى به الانسان ويزدهر درجته كثيرة جدا ، وليس في الأرض عاقل يمترض على هذا النظام ، فككل عاقل في أرضنا لا يمترض على اتساع عالم النبات لتغذية الحشرات والأنعام والدود والانسان ولا يأنف من ذلك ، بل يراه أصرا عظيما ، وإذا كان هذا واضحا في النبات فلنقص عليه ما ليس بشديد الوضوح في غيره مثل دين الاسلام ، فهو تنزيل الله ، وقد فعل الله فيه ما فعل في النبات ، فكما رأينا النبات قبل الدود والحشرات الخ هكذا رأينا هذا الدين قبل أنها ليست في الذروة العليا من الانسانية ، ولم تقبل منه تلك الأمم إلا على مقدار همها كما قبل الدود من النبات على مقدار استعداده ، فهذا نظام عجيب ، وهذه حكمة التكوين الذي هو أمر آخر غير نظام التشريع ، ولا جرم أن نظام الفلسفة العام ونظام الحكومات كحكومتنا المصرية ، ونظام الديانات العام ، ونظام المذاهب الاسلامية كلها تقاس على نظام النبات كما تقدم ، فنظام الفلسفة العام لا يختص بعلم من الطبيعيات أو الرياضيات ، بل هو عام لها كلها ، ويذكر الفيلسوف آحاد الأمم يفكرون في العلوم الجزئية كما حصل من الدود والحشرات في الاكتفاء من النبات بما يناسبها ولم تفكر كما يفكر الانسان في جميع النبات ، فكما كان الانسان فيلسوف الحيوانات هكذا رأينا قارئ الحكمة فيلسوف العلماء بالعلوم الجزئية ، وهكذا صاحب السلطان في الأمة كرئيس الجمهورية له الاشراف هو ومجلس النواب على الوزراء ، فهو في الأمة كالفيلسوف المذكور مع العلماء وكالانسان مع الحيوان في أمر النبات ، هكذا علماء المذاهب الاسلامية عموما من الشيعة وأهل السنة ، فككل هؤلاء لا يخطر ببالهم نظام الاسلام العام ، بل هم متفرقون في الفروع التي تلقوها كبرا عن كابر ، فهؤلاء أشبه بحيوان يأكل نباتا خاصا ، أو بشيخ قرية في البلاد المصرية وهكذا ، وليس يقدر أن يرفع بصره إلى أعلى ، وهذه درجته وهو معذور في ذلك ، وسيقوم في المسلمين الآن وبعده زماننا أناس حكماء يقولون : أيها المسلمون على رسلكم : ماذا جرى لكم ؟ ان علماءنا السابقين كانوا معذورين جميعا ، وعلينا نحن أن ندرس القرآن دراسة أخرى .

١٦٩ ألم تروا كيف كان الصعابة اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لا يتركونها حتى يفقهوها معناها ، ونحن لانعرف ماذا كانوا يتعلمونه منه ، وها هو ذا نور الله في الخليقة ، فلندرس الدنيا ونظامها



وبهذا يتجلى لنا هذا القرآن والا فكيف نرى أن ابن عمر لم يحفظ البقرة إلا في ثمان سنين ومائتي  
« ليتبروا آياته » .

١٧١ آراء « چون راسكن » في التعليم وأن المدار فيه على أن يكون مغريا للتعلم أن يكون مكبا على العلم  
أما كثرة المعلومات فلا أهمية لها . ويقول غيره : « نحن لا نهططى طعامنا كله أول النهار هكذا ليس  
التعليم خاصا بأول العمر ، الحياة كلها زمان للتعلم ، ولا سبيل لجعل الانسان عاشقا للعلم مدة الحياة إلا  
بتعليم المعلمين له ذلك » . إن حكماء الأمم الاسلامية بعدنا سيصلحون ما أفسده سوء التعليم لآبائنا ،  
وسيصرفون هذه الأمة عن هذه الذنوب والأخلاق الشائنة ، وسيقولون : إن ما وقع لآبائنا جعل نعمة  
لنا لنحتسب مما وقعوا فيه ، وإذا كانت الأمم المحيطة بالمسلمين قد اتحدت أفلا يكون المسلمون أولى بهذا  
الاتحاد ، وعلامة هؤلاء المصلحين في الاسلام أولا أن عددهم قليل كقلة عدد ملكات النحل ، ثانيا :  
هم يحبون خلاصة العلوم كلها فتتفدى نفوسهم بها كما تفدت ملكات النحل بعسل أبيض مخالف لفساد  
رعايا هذه الملكة ، ثالثا : انهم مغرمون بجمال هذه الدنيا ، رابعا : ان الناس يميلون إلى تعاليمهم .

١٧٣ نور على نور في أخلاق عصر النبوة ، وفي الخلافة الاسلامية ، وفي فروع الدولة العباسية المنفصلة عنها  
وفي جميع الممالك الاسلامية من عصر النبوة إلى الآن ، وفي هذا المقام مقالة المفيدة أمام رستم القائد  
الفارسي في أثناء واقعة القادسية ، ومقالة عبادة بن الصامت للمقوقس صاحب مصر لما خوفه بجموع  
الروم ، وأن المسلم ينال أحد أمرين : إما دخول الجنة بالقتل ، وإما النصر في الدنيا .

١٧٥ آراء خطيرة في الخلافة : وهو مقال للؤايف ذكره في « مجلة المعرفة » يقول فيه : « إن خلفاء المسلمين  
بعد العصر الأول لم يتبعوا الشورى ، والخلفاء الراشدون لم يجعلوها بالوراثة ، والمسلمون ليسوا سلعها يرثها  
الأبناء عن الآباء ، فيجب أن يجتمع الأمراء اليوم ، ويجعلوا واحدا منهم هو الخليفة ، وليكن جيشه  
أعظم ، وعلم أمته أوسع ، بشرط أن لا يكون لسلطة أجنبية عليه يد .

١٧٦ وههنا ذكر الولايات العشر المفرقة عن الدولة العباسية لما أخذت في الاضمحلال مثل البصرة وخرزستان  
وفارس والبحرين واليمامة وهكذا . ذكر استبداد الجند والخدم ، وكيف فعل جند المغاربة والأتراك  
بالمعز سنة ٣٥٥ هجرية إذ أوقفوه في الشمس وعذبوه ، ثم قتلوه قتلا شنيعا .

١٧٧ جدول الدول الاسلامية منذ ظهور الاسلام إلى الآن ، وهي نيف ومائة دولة ، وعدد رؤسائها ١٤٠٠  
رئيس فيهم الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء والأتابكة والاختشيديية والحدوية والشرفاء والبابات  
والدايات ، ومنهم العرب والفرس والترك والشراكسة والأكراد والهنود والتتر والمغول والأفغان وغيرهم  
ومن عواصمهم المدينة والكوفة والشام وبغداد ومصر والقيروان وقرطبة والاستانة وصنعاء وعمان  
ودهلي وغيرها .

١٨٠ بهجة الجبال في تاريخ الأمم الاسلامية وفي جواب اعتراض على المؤلف : يقول المعارض على المؤلف  
انك قد ظهرت في هذا المقام بظهر يحمل القاري في حيرة من دول متشاكسة ، وأحوال متعارضة ، مع  
ان آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » لا تتحمل ذلك ، وهذا خارج عما درج  
عليه المفسرون ؟ فأجاب المؤلف قائلا : أولا إن الانسانية بارزة من وسط الحيوانية الثائرة الشهوات ، وقد  
أرادت الاعتدال في القوة السبعية والبهيمية ، ثم ظهر فيها مصلحون أمثال ( كونفوشيوس ) المصلح  
الصيني في القرون الأولى ، وقد ظهرت علومه مرتبة ترتيبا مدهشا منظما بحيث انه جعل تهذيب الفرد  
يتبعه نظام الأسرة يتبعها نظام الدولة فيكون العدل العام ، ونظام الفرد الذي هو الأساس مبني على

أفلام تهذيب الأخلاق ، وهذا مبنى على العقادة المبنية على الصدق والأخلاص في التفكير ، المبنى على اتساع المعارف ، المبنية على المشاهدة ، إذن كونفوشيوس يجعل المشاهدات مبدءاً تمتد منها سلسلة تنتهي بنظام الدولة ، وآراء هذا الحكيم تقارب آراء علماء اليونان مثل سقراط في جمهوريته الذي يقول : « إن رجال الحكومة يجب أن يكونوا منزهين عن المادة منصرفين إلى المثل الأعلى ، وهم آباء للأمة والأمة أبناؤهم ، وتعليمهم يجب أن يكون تعليماً عالياً على مقتضى مافله كونفوشيوس وإن لم يعرف أحدهما الآخر ، ولما طبق المؤلف هذه المعارف على أمة الاسلام وجد أن ترتيب الحكومات من أعلاها إلى أدناها في مراتبها الخمس ظهرت في أمة الاسلام فعصر الصحابة بهيئة الوصف الذي وصفه سقراط ، ثم جاء الأمويون والعباسيون ومن معهم ومن بعدهم فأخذوا يتنزلون درجة درجة ، فكان المثل الأعلى أيام النبوة وعصر الصحابة وحكومة الجند التي هي أقل منها كانت أيام الدولة الأموية وأول العباسية ، ثم كانت حكومة الثروة والمال ، ثم اضمحلت الدولة فكان الاستبداد ، وذلك ظاهر في بغداد والناصرة وقرطبة وجميع بلاد الاسلام ، وهذا كله يجب ذكره تطبيقاً على آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقاتلتا » وكل هذا داخل تحت فصول مثل عالم الحيوان وظهور الانسان وآراء سقراط الخ . تطبيق علوم تلك الأمم على أمتنا الاسلامية .

١٨٦ خطاب من المؤلف إلى السفاح العباسي ، وعبد الله الحسني .  
١٨٧ خطاب المؤلف للمسلمين ، وبيان أن الله أسس ذلك التاريخ لنا الآن ، وخطاب الله للأفراد والأمم .  
١٨٨ فصل في أن تجارب أيامنا هذا زمان ظهورها .

١٨٩ الفصل الثامن في تبیان نعم الله علينا وعلى الناس  
١٩٠ نظرتي في عوالم العقول وعوالم الحقول والمزارع والثمرات  
١٩١ اشراق شمس الاسلام بعد اظلام ليله : الاتفاق بين ملك اليمن ، والملك ابن السعود .  
١٩٢ مصداقاً لما قلناه من ظهور نور الاسلام في زماننا هذا خاصة بعد عصر الصحابة والتابعين وذكر معلومات جديدة عن بلاد التركستان الصيفية ، وانها اشرقت فيها شمس الأنوار المحمدية ، وأخذوا يقرءون علوم الأمم التي لم يقرأها آباؤهم بما قرءوا في كتب مؤلف هذا التفسير .

١٩٣ المقالة الثانية : « يا أيها الذين آمنوا لا يخرقون من قوم » الخ وبيان أن هذه الآيات فيها مقامان : المقام الأول في غوائل اللسان ، المقام الثاني في غوائل القلب ، والمقام الأول يشتمل على مباحث الجمعية النفسية في أوروبا ، وعلى ما كتبه الامام الغزالي .

١٩٤ أما مباحث الجمعية النفسية ، فهي ترجع إلى أن للانسان مغناطيسية اذا ضغطها ولم يتكلم وكنتم أموره كان أشبه بكوكب ، وانجذبت إليه الناس ، وارتقى عقله ، وكثر ماله ، وأحبه جميع الناس بل انصب ولا تعب ، أما المتكلم بكل ما يخطر له فانه يصبح فارغاً ويحقره الناس وهو لا يدري لماذا يكون هذا الاحتقار  
٣٠٣ أما ما قاله الامام الغزالي في الاحياء فذلك انه جعل غوائل اللسان عشرين نوعاً وفصلها تفصيلاً ، وقد ذكرنا هنا منها عشرة ، وسنذكر العشرة الأخرى في ﴿ سورة : ق ﴾

٣٠٤ بيان عظم خطر اللسان وفضيلة الصمت ، وذكر الأحاديث الشريفة مثل حديث : « من صمت نجا » ومثل : « الصمت حكم وقليل فاعله » وقد كتب على الهامش بيان صفة هذه الأحاديث من الضعف والصحة والحسن الخ .

٣٠٥ ذكر آفة الكلام فيما لا يعني .

- ٢١٠ الآفة الثانية : فضول الكلام والأحاديث الواردة في ذلك مثل : « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله » .
- ٢١١ الآفة الثالثة : الخوض في الباطل ، والأحاديث الواردة في ذلك مثل : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله » الخ .
- ٢١٢ الآفة الرابعة : المراء والجدل .
- ٢١٤ الآفة الخامسة : الخصومة وأحاديثها .
- ٢١٦ الآفة السادسة : التعر في الكلام والتشدد .
- ٢١٧ الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان وأحاديث في ذلك مثل حديث : « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها » .
- ٢١٩ الآفة الثامنة : اللعن وتحريمه بأحاديث مثل : « ان اللعائن لا يكونون شفعا ولا شهداء يوم القيامة »
- ٢٢٢ الآفة التاسعة : الغناء والشعر .
- ٢٢٤ الآفة العاشرة : المزاح ، وأن المزاح يحسن تركه ، وإذا ضحك الانسان فليكن ذلك قليلا جدا ، والا استخف به الناس نارة وأبفضوه نارة أخرى .
- ٢٢٨ المقام الثاني من المقالة الثانية في غوائل الأعمال القلبية ، وبيان الفضيلة والذيلة والسعادة الخ
- ٢٣٠ انفض : ضرب مثل لقلب الانسان بحال الأرض .
- ٢٣١ العجب وسببه وعلاجه ، العلاج ، الأحاديث ورازع الدين ، الكبر .
- ٢٣٢ العلاج ، ذم الكبر وايضاحه ، الفرق بين العجب والكبر .
- ٢٣٣ المقالة الثالثة في قوله تعالى : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا
- ٢٣٤ المقالة الرابعة في جوهرتين : الجوهرة الأولى ما كتبه المؤلف في مجلة المعرفة تحت عنوان « صوت صارخ من الشرق إلى الغرب » ، وأن أوروبا غدرت في عهودها أيام الحرب العظمى ، إذ قالوا : أيها الشرقيون : إنا نحارب لاستقلالكم ، ثم ظهر انهم غير مخلصين ، ونحن أيام قدرتنا في عصر الصحابة وفيما بعهد أحد عبيدنا ، وبيان أن المسيح أرسله الله فقال للناس : كونوا اخوانا ومع ذلك لم يسمع تلك النصيحة الرومانيون فبقوا في الشرق كما هم فجاء نبينا صلى الله عليه وسلم فوجدهم كما هم فقال بالسلام وسلمانا مسلمين ، وشمارنا : السلام عليكم ، ولكن الله أمره بالقتال عند الحاجة ، فلم تخرج أوروبا إلا بالقتال ، ثم صارت أوروبا بعد ذلك أمة مخرّفة استبدت بها القسيسون والرهبان ، وأحرقوا آلافا وآلافا منهم بسبب أمور دينية ، ولما أشعل البابا الحروب الصليبية على المسلمين وبقيت مائتي سنة تدور المسيحيون وعرفوا من مخالطة المسلمين حقوقهم وحرّيتهم فرجعوا وأوقفوا رجال الدين عند حدودهم فارتقوا ، وهامهم أولاء جاموا كرة أخرى للشرق ، فلتعلم أوروبا أن الشرق اليوم غير الشرق السابق وليتذكروا أحم الشرق لما هجمت على أوروبا في أزمان قديمة فدكتها دكا ، ثم ليتذكروا التتار الذين هجموا عليها منذ نحو ٧ قرون وهذه بقاياهم في روسيا وغيرها ، فهاهوذا الشرق اليوم يريد أخذ نأره ، فالويل لأوروبا .
- ٢٣٨ الجوهرة الثانية في ذكر سر آية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » وأن المؤلف لما عرف أن هذه الدنيا مدهش نظامها ، وأن الذكور والاناث أعدادهما متقاربة في الانسان وفي الحيوان أدهشه ذلك وأخذ يفكر في أن العلوم والصناعات حتما يجب أن تكون موضوعة في العقول بنظام كما



أن المنافع موزعات على الأرض بنظام ، إذن الناس جميعا في الأرض جاهلون غافلون ، فيجب عليهم أن يستخرجوا منفعة كل عقل ومنفعة كل أرض ليستعد الانسان الجاهل الآن .

٢٣٩ الأرض واستعدادها ، نظرتي في الأمم ، تأليف أين الانسان ، يقول المؤلف : انه سنة ١٩١١ ألف كتاب أين الانسان ، وأرسله إلى أوروبا ، وملخص هذا الكتاب أن المؤلف تخيل انه ركب مركبة بين اليقظة والنوم وارتقى بها مع انسان روحى حتى وصل إلى كوكب وراء نبتون ، وهناك وجد أربعة آلاف أمة متحدثين معا ، ولما رأوا المؤلف أخذوا يهزمون بنظام أهل الأرض ، وعدوا كل نظامنا الحالي نظاما حيوانيا ، فإلى هذه الآلات المهلكات إلا ذرائع للحيوانية لا للانسانية ، وكيف يسمى فريق من الناس في تقليم أظفار الفريق الآخر واخضاعه واذلاله ليكون آلة مسخرة له ، فهو ينزل عن الانسانية إلى الحيوانية ، وكيف تبقى الأرض عند طائفة من الأمم لاعمال فيها يستخرجون منافعها ، والأمم الأخرى قد اكتظت أرضهم بسكانها . كلا . ثم كلا . يجب أن يؤخذ ما زاد من الناس عن أرضهم إلى أرض أمة أخرى يعيشون معهم بسلام ، ويجب أن يوضع كل امرئ فيما استعد له ، ويجب أن يتعلم إلى آخر درجة يستحقها ، والأمم كلها ملزمة بذلك ، فتطالب كل أمة بتعليم كل فرد ، وباستخراج كل منفعة في الطبيعة ، وليكن كل انسان نافعا لسكل انسان كأنهم جسم واحد ، وقد لخص هذا الكتاب الاستاذ (سنتلانه) التلياني في مجلته بمدينة رومه ، وأثنى على الكتاب .

٢٤٠ ههنا مبدأ كلام الاستاذ (سنتلانه) وفيه هذه المعاني المتقدمة .

٢٤٦ الاستاذ (البارون كراديفو) وكلامه في أين الانسان ، وهو يذكر أن آراء المؤلف في السلام العام أحسن من آراء (داروين) الانجليزى ، ونييتشيه الألمانى ، وأن هذين يريدان أن يفتك القوى بالضعيف ، أما الشيخ فانه يريد أن يكون الناس أمة واحدة ، ويقول : انه يجب أن يتعلم التلاميذ ذلك في مدارسهم ، ويسمعون النغمات التى نظمت في محبة جميع النوع الانسانى الخ .

٢٤٧ بهجة المناظر الخيالية ، وآثارها العلمية ، فى سر قوله تعالى : « إن الله عليم خبير » وبيان سر اسمه الخبير ، وذلك أن الله علم قبل أن يخلق الخلق أن المسلمين سينامون نوما عميقا إذ يظنون أن المدارعما هو على النسب ، فحكم الأمم يرجع إلى النسب لا إلى الكفاءة والتقوى وأمثالهما فقال لهم بصريح العبارة ان المدارع على التقوى ، وختم الآية بأنه عليم خبير والخبرة معرفة بواطن الامور ، ومن بواطن الامور هنا أن أم الاسلام اكتفت بالألفاظ والظواهر ، وقدمت التعديل على الجرح فى الأحاديث مع ان الجرح مقدم على التعديل فى أمثال أحاديث المهدي الذى جعل مداره على النسب لاعلى التقوى ، وههنا ذكر حديث الرايات السود المقبلة من قبل خراسان ، فهذه نتج عنها تولية السفاح العباسى ، وهل السفاح يكون مهديا ؟ وهل المهدي الذى يملأ الأرض عدلا هو الذى يهلك من بنى العباسى وغيرهم رجلا بلا ذنب بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، والذي ورد أن اسمه على اسم النبي ﷺ واسم أبيه على اسم أبيه هو النفس الزكية ، وأبوه عبد الله ، واسمه محمد ، وقد قتله المنصور والبيعة كانت له ، فاذا قيل ان الذى رايته السود تأتى من قبل خراسان يكون قبل قيام الساعة ، نقول إذن يكون معنى هذا اننا لنعقول لنا ، فهل الرايات السود وخراسان ينحصر المهدي فيهما مرتين ، وما هذه الهداية التى لا تقوم إلا بالسيف ، إذن ظهر اليوم سر خير بعد عليم لأن الله يعلم بواطن الأمم ، فلذلك جعل المدارع على التقوى لعلهم أن ميل الناس قوى جهة النسب ، فليكونه خيرا بذلك صرح بما ذكرناه .